

النفس فى الإسلام

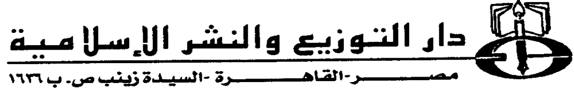
تأليف

الدكتور على عبد الحليم محمود

من علماء الأزهر

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى للناشر
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٠١٠٥
الترقيم الدولى: I.S.B.N
977 - 265 - 631 - 0



مصر - القاهرة - السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦
٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٣٩٣١٤٧٥
مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١
www.eldaawa.com
email:info@eldaawa.com

الإهداء

إلى الذين يحبون أن يعرفوا أنفسهم أكثر مما يعرفون، بل أحسن مما يعرفون؛ لأن الذى سيُعَرِّفها لهم هو خالق هذه النفوس ومحبِّها، والذى قضى أن يكرِّمَها فى الدنيا والآخرة، سبحانه وتعالى.

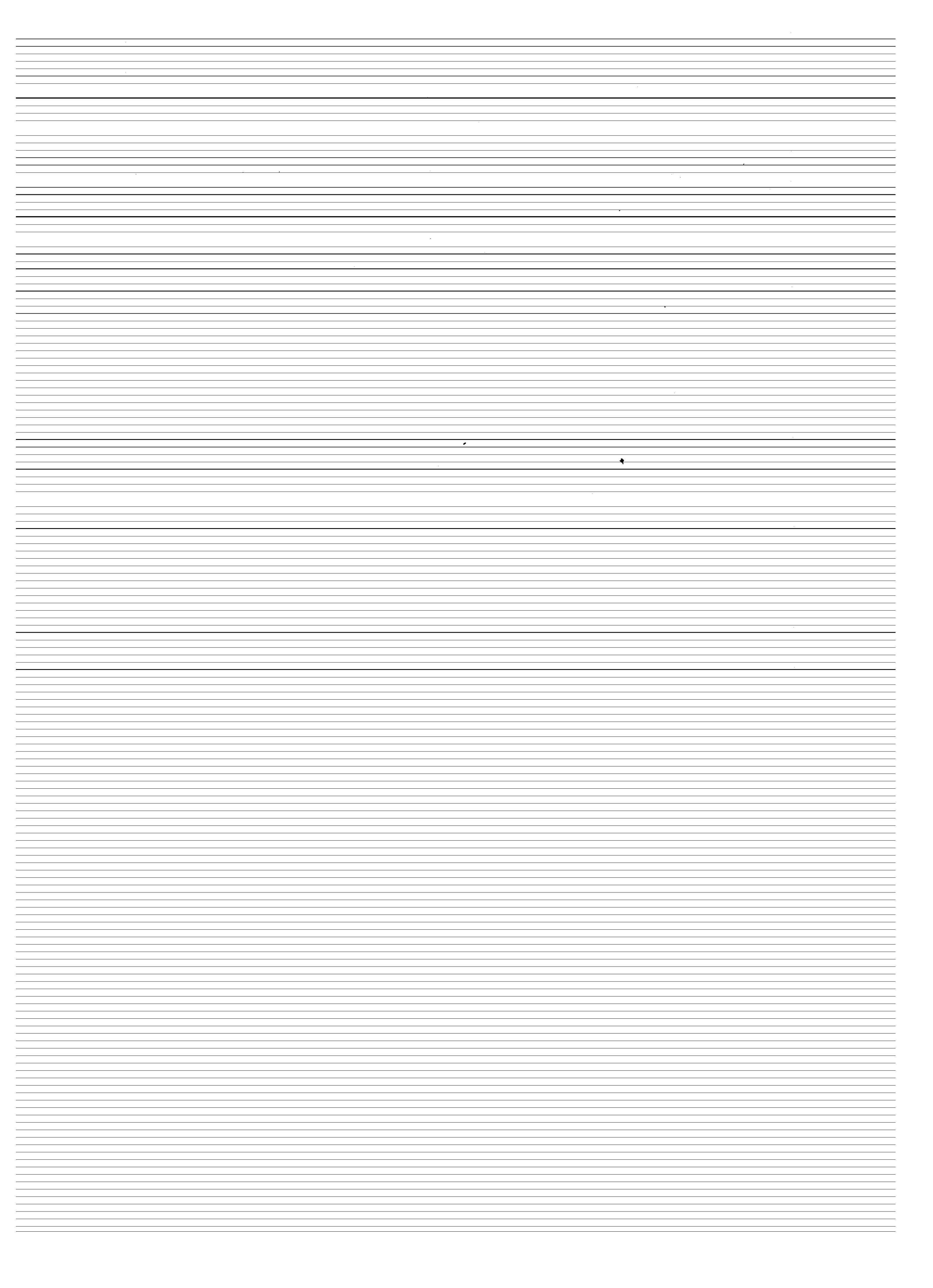
وإلى الذين يحبون أن يحيوا فى صحة نفسية وعقلية وجسدية تهيئهم إلى الحق والخير والجمال، وترشدهم إلى ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم.

وإلى الذين يحولون بين أنفسهم وكل أمراض النفس والعقل والجسد، بامتثالهم ما أمر الله به أو حبَّب فيه، واجتنابهم ما نهى الله عنه أو كرَّه فيه.

وإلى الذين أصابتهم بعض الأمراض النفسية أو العقلية أو الجسدية، لبعدهم عن الدين وقيمه، ويرغبون أن يعالجوا أمراضهم بأنفسهم دون أن يلجأوا إلى إنسان مثلهم، يفضحون أمامه ما ستره الله عليهم.

وإلى الذين يختارون الشفاء من أمراضهم بما يهديهم إليه كتاب الله الخاتم وسنة نبيه الخاتم ﷺ، وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وقضاء الله تعالى وقدره.

إلى هؤلاء أهدى هذا الكتاب، والله تعالى حسبى، وهو سبحانه نعم الوكيل.



بين يدىْ هذا الكتاب

الحمد العظيم لله تعالى، والصلوات والطيبات على خاتم رسله ﷺ، وبعد:

فإن هذا الكتاب أردت من تأليفه - بعد ما تقدّم بِىَ العمر - أمرَيْن:

أحدهما:

تعـريف المسلم نفسـه، من خلال مـا عـرَّفه بهـا الإسلام فى كـتاب الله خـاتم الكتب السماوية، وفى سنة رسوله الخاتم ﷺ، حتَّى لا يزيِّف عليه أَحَـدٌ حقيقة نفسه، وما يزيف الحقائق إلا جاهل، أو شرِّير.

والآخر:

وصف العلاج *لمن مـرضت نفسـه أو قلبه أو روحه، وصـفُه من خلال الـكتاب والسنة أيضًا. ليقينى بأن هؤلاء الذين مرضوا نفسيًـا لو اتبعوا ما جاء من عند الله تعالى، وما بلَّغه عنه رسوله الخاتم ﷺ، لم يمرضوا أصلاً وبرئوا من كل أمراضهم النفسية، بإذن الله تعالى.

* وبعد ما تقدم بى العمـر، ومَنَّ الله علىّ بالسعى فى الأرض والسير فى أقطارها، وقراءة ما تقع عليه حـواسى قراءة متأنيـة، وما أكرمنى الله تعالى به من تأمل وتدبُّر فـيما أرى وأخالط من ناس وأحداث، وما هيأه لى سبحانه وتعالى من تدبر لكتابه ولسنة نبيه الخاتم ﷺ، ولسِيَر الصحابة رضوان الله عليهم، بهذا - وهو من نعم الله تعالى عَلَىّ -، ازددت يقينا بأن المسلم لا تمرض نفسه أو يُعتل قلبه، أو تصدأ روحه إلا بوسوسة شياطين الإنس والجن وإضلالهم وإغـوائهم، لكى يُبعِدَ المسـلم عن دينه ومبادئه وأخـلاقه وعندما يبـعد المسلم عن قيم دينه يضعف إيمانه وينتقص إسلامه ويصبح هدفًا للمضلِّين والمغوين.

وفى حدود ما أعلم وما أشاهد - ومـا أوتيتُ من العلم إلا قليلاً - أكاد أقطع بأن المسلم المريض بالاكتئـاب أو الإحباط، مسلم قد اهتزت ثقـته بقيم دينه ومبادئه، وأصبـح نَهْبًا للوافد عليـه من الباطل والهـوى الذى يشغل قلبه عن صـفاء الإيمان ويشـغل عقله عن نصاعة الحق.

ولستُ أتصـور أن يصاب بالاكـتئاب أو الإحـباط مَنْ رضى بالله ربًا، وبالإسـلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً!!!

أيمكن أن يُتصوَّر المسلمُ وهو فى صحبة الله تعالى وفى هدى كتابه وسنة رسوله ﷺ وقد أصيب بالاكتئاب أو الإحباط؟

إنّ كلا المرضين ترجمة عملية للسخط على القضاء والقدر، وما كان المسلم أن يسخط على قضاء الله وقدره، لأن ذلك مناقض للإيمان، ومعاند للإسلام.

إن الاكتئاب شعور بالغَمِّ والحزن والندم على ما فات، والإحباط شعور بالعجز عن تحقيق حاجات الإنسان، مما يترتب عليه حسرة وألم نفسى، وكلاهما لا يجوز أن يصاب بهما المؤمن، الذى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فقد روى أحمد بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«لكل شىء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»**.

إن هذا الحديث الشريف دليل علم للمسلم فى حياته، ودليل عمل له فى سلوكه، وما عليه إلا أن يأخذ بالأسباب، مع التوكل على الله تعالى، ثم ينطلق فى ممارسة حياته متحرراً من هذه الأمراض النفسية التى لا يصاب بها إلا ضعاف الإيمان.

وإن أكبر أهداف هذا الكتاب هو أن يعلم المسلم أن أىّ مرض نفسى يصيبه؛ إنما يجد طريقه إليه من خلال ضعف إيمانه بالله تعالى، وبالقدر خيره وشره، ومعنى ذلك أن علاج هذه الأمراض النفسية إنْ أَلَمَّتْ بالمسلم هو تقوية إيمانه بالله تعالى وبقضائه وقدره، وما يَقْوَى الإيمان إلا بممارسة الأعمال الصالحة أى التزام ما أمر الله تعالى به، واجتناب ما نهى عنه.

* وقد أقمتُ هذا الكتاب على مدخل، وثلاثة أبواب، وخاتمة.

- ففى المدخل ألقيتُ ضوءًا على مفاهيم النفس والروح والقلب والعقل فى اللغة، ومفاهيمها فى القرآن الكريم، ومفاهيمها فى السنة النبوية، ثم مفاهيمها فى تراثنا.

- **وفى الباب الأول:** النفس والخلق قديمًا وحديثًا:

وفيه فصلان:

الأول: النفس والخلق قديمًا عند الفلاسفة وفى الأديان.

والثانى: النفس فى علم النفس الحديث، وصلة هذا العلم بالفلسفة وموضوعه وأشهر مناهجه، ورؤيته للصحة النفسية، وللأمراض النفسية.

- **وفى الباب الثانى:** النفس؛ صفاتها وأنواعها فى الإسلام وفيه فصول ثلاثة:

الأول: النفس فى الإسلام وأنواعها:

تحدثت فيه عن تعريف الإسلام النفس وتعامله معها، وعن أنواع النفوس، وتعامل الإنسان مع نفسه، وتوجيه الله تعالى للنفس بالأمر والنهى والعظة والمحبة والخير.

والثانى: صفات النفوس كما تحدث عنها القرآن الكريم، تحدثت فيه عن صفات نفوس المنافقين، وصفات نفوس أهل الكتاب، وصفات نفوس الكفار، وصفات نفوس المؤمنين، وأساليب القرآن الكريم فى توضيح الصفات النفسية للمؤمنين مثل: التحذير من صفات المكابرين والمعاندين، والتحذير مما يزينه الشيطان من صفات، والنهى عن تمثل صفات الكاذبين والمنافقين.

وأسلوب القرآن الكريم فى الحديث عن صفات الأنبياء والمرسلين وإشادته بصفات المؤمنين الصالحين.

وأسلوب القرآن الكريم فى قصص الأنبياء والمرسلين وأولى العزم من الرسل وسيرة خاتم المرسلين ﷺ، وختمت هذا الفصل بمجمل صفات النفس الإنسانية فى الإسلام.

والثالث: مجمل صفات النفس الإنسانية عمومًا.

- **وفى الباب الثالث:** تربية الإسلام للنفس الإنسانية.

وفيه فصول ثلاثة:

التمهيد لهذا الباب.

والفصل الأول: فى الثوابت فى تعامل الإسلام مع النفس.

والفصل الثانى: الصحة النفسية والمرض النفسى.

والفصل الثالث: وسائل العلاج، وهو أوسع فصول الكتاب، وفيه تمهيد وثلاث نقاط هى:

أولاً: أسباب نجاح هذه الوسائل فى علاج أمراض النفس.

وثانيًا: الوسائل الروحية فى العلاج، وهى:

١- التخلى عن الرذائل: وهى سبعة.

٢- والتحلى بالفضائل: وهى سبعة أيضًا.

وثالثًا: الوسائل العملية الميدانية فى العلاج وهى: خمس وعشرون وسيلة.

ثم ختمت الكتاب بحمـد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على خاتم رسله، والشكر لله على أن أعان ووفق ومدّ فى العمر وفى العافية حتى كتبت خاتمة الكتاب.

****

مدخل الكتاب

جاء هذا المدخل فى إلقاء ضوء على مفاهيم النفس والروح والقلب والعقل فى لغة الكتاب والسنة، ثم مفاهيمها فى الكتاب والسنة، ثم مفاهيم هذه الكلمات فى تراث المسلمين الثقافى.

أولاً: مفاهيم النفس والروح والقلب والعقل فى اللغة:

- **الروح:** ما به حياة النفس، وما يقابل: المادة.

والروح: النفس.

- **والنفس:** لها معان عديدة، ولكنها تجرى فى كلام العرب على ضربين:

أحدهما: الروح أو الرُّوع فى قولهم: خرجت نفس فلان أىْ روحه، وقولهم: فى نفس فلان أن يفعل كذا أىْ فى رُوعه.

والآخر: جملة الشيء وحقيقته، كقولهم: قتل فلان نفسه أىْ أهلكها.

أما سائر معانى النفس فهى:

* ما يكون به التمييز، وشاهده قول الله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**﴾ [الزمر: ٤٢]. فالنفس التى لم تمت وإنما نامت هى التى تميز، وقد أفقدها النوم التمييز، قال ابن عباس رضى الله عنه: لكل إنسان نفسان، إحداهما نفس العقل، الذى يكون به التمييز، والأخرى نفس الروح الذى به الحياة.

* **والنفس:** الدَّم، وفى الحديث: «**ما ليس له نفس سائلة فإنه لا ينجِّس الماءَ إذا مات فيه**» قال ابن منظور: والنفس السائلة الدم[1]، وشاهد ذلك قول السموأل:

تسيل على حد الظبات نفوسنا ... وليست على غير الظبات تسيل

وإنما سمى الدم نفسًا لأن النفس تخرج بخروجه.

* **والنفس:** الأخ، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ**﴾ [النور: ٦١]، أى سلموا على إخوانكم.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة نفس.

* والنفس: الغيب، وشاهد ذلك قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، أى تعلم غيبى.

* والنفس: الإنسان جميعه، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، فالقائل هو الإنسان جميعه.

* والنفس: العَيْنُ، والنافس: العائن أى الحاسد، والمنفوس: المعيون أى المحسود.

* والنفس: العَظَمَة، والكِبر، والعزة، والهمة.

* والمنفوس: المولود، وفى الحديث: «ما أعلم اليوم نفسًا منفوسة يأتى عليها مائة سنة...»(١) أى نفس مولودة.

* ونفس الشيء: ذاته، وعينه، وكُنْهُهُ، وجوهره.

- والقلب: عضو عضلى فى الجهة اليسرى من التجويف الصدرى يستقبل الدم من الأوردة ويدفعه فى الشرايين، وبه تجويفان أحدهما يسارى به الدم الأحمر، والآخر يمينى به الدم الأزرق المحتاج إلى التنقية.

* والقلب من كل شيء: وسطه ولبُّه ومحضه.

* والقلب: الخالص النسب إذ قيل: رجلٌ قَلْب.

* والقلب: المحض، يقال جئتك بهذا الأمر قلبًا، أى محضًا.

* والقلب: يعبر به عن المعانى التى تختص به من: الروح، والعلم، والشجاعة.

* والقلب: الروح، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، أى: الأرواح.

* والقلب: هو العقل أو الروح، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. قيل القلب العقل على سبيل المجاز، والأصرح: الروح.

* وقلب الإنسان: سُمِّيَ قلبًا لكثرة تقلبه.

* وقلب الشيء: تصريفه وصرفه عن وجه إلى وجه.

- والعقل: ما يقابل الغريزة التى لا اختيار لها، وله معانٍ منها:

* العقل: ما يكون به التفكير والاستدلال وتركيب التصورات والتصديقات.

---

(١) رواه أحمد بطوله بسنده عن جابر رضى الله عنه.

* **والعقل**: ما يتميز به الحَسَن من القبيح، والحق من الباطل، والخير من الشر.

* **والعقل**: القلب.

* **والعقل**: هو القوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذى يستفيده الإنسان بتلك القوة.

* **والعقل**: الإمساك والاستمساك كعقل البعير، وعَقَل لسانه: أمسكه وكفَّه عن القول.

* **والعقل**: الدِّية التى يؤديها القاتل أو قبيلته لأولياء المقتول.

* **والعقل**: الحصن أو الملجأ.

ثانيًا: مفاهيم النفس والروح والقلب والعقل فى القرآن الكريم:

القرآن الكريم مرجع المسلمين وذخرهم وملاذهم، تشاركه فى ذلك سنة المعصوم ﷺ.

وما من كلمة من كلمات القرآن الكريم إلا لها فى نفوس المسلمين وعقولهم مكانة ومكان، ولها دلالتها وفيها إيحاؤها، وحسب الكلمة القرآنية شرفًا أن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يتعبدون إلى الله تعالى بتلاوتها إلي يوم القيامة.

والبحث عن معنى الكلمة القرآنية لإلقاء الضوء على معناها، وتحديد امتداده فى الزمان والمكان والموضوع، عمل يهم المسلمين جميعًا فى كل زمان ومكان، ولهذه الكلمة القرآنية فى نفوس المسلمين احترام وتقدير وحب وثقة، لا يشذ عن الشعور بها إلا غافل يجهل دستور دينه، أو مصاب بكارثة البعد عن القرآن الكريم تلاوة وتدبرًا، وعملاً وسلوكًا.

* من أجل ذلك كان البحث عن كلمة مفردة أو مركبة مع غيرها فى القرآن الكريم متعة للعلماء، وزادًا للعارفين، واسترواحًا من عناء الحياة، واستنارة بنورانية الكلمات القرآنية النبيلة.

* لذلك ولغيره مما لم أذكر؛ كان البحث عن كلمات:

الروح، والنفس والقلب والعقل، فى القرآن الكريم هو أقوم الطرق لمعرفة معانيها ودلالاتها، وكان بالنسبة لى من توفيق الله تعالى.

١ - الروح:

وردت هذه الكلمة فى القرآن الكريم بعدة معانٍ، منها:

* أن الروح اسم للنفس، لكون النفس بعض الروح، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ [الحجر: ٢٩].

* والروح اسم للجزء الذى تحصل به الحياة والتحـرك، وتستجلب المنافع وتستدفع المضارّ، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

* والروح يقصد به أحيانًا القرآن الكريم نفسه، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. فالروح فى هذه الآية الكريمة هو القرآن الكريم الذى يهدى الناس إلى الصراط المستـقيم، وإلى الحياة الإنسانية الكريمة فى الدنيا، وإلى الحياة السعيدة الأبدية فى الآخرة.

* والروح سمى به جبريل عليه السلام، كـما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥].

* والروح: سمى به عيسى عليه السلام، كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

٢- النفس:

- وردت كلمة النفس فى القرآن الكريم بمعنى الروح فى عدد من الآيات الكريمة، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

فالنفس فى هاتين الآيتين هى الروح أو ذات الإنسان.

- ووردت النفس فى القرآن الكريم موصوفة بصفات تجعلها أنواعًا، ومن ذلك:

- النفس الأمّارة بالسوء:

كما فى قوله تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣]. وهى النفس التى تُزيِّن لصاحبها المعاصى، والخروج عما أمر الله به أو الدخول فيما نهى عنه سبحانه وتعالى.

- والنفس اللوّامة:

وهى النفس التى تلوم صاحبها عندما يقع فى معصية، وترده إلى الصواب والطاعة، كما فى قوله تعالى: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢].

- والنفس المطمئة:

وهى تطمئن إلى الحق وتسكن إليه، وترضى الله بطاعته وترضى عنه بالتسليم بقضائه وقدره، كما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠].

- والنفس التى تفعل الخير أو الشر:

فهى قد أعطاها الله القدرة على هذا وذاك، وصاحبها هو الذى يزكيها فتفعل الخير أو يخدعها فتفعل الشر، كما أخبر بذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]

- والنفس التى تتسبب لصاحبها فى الشدائد:

كما يتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. وتلك قاعدة لم يخرج عليها أحد حتى الرسل عليهم الصلاة والسلام وهى أن ما أصاب الإنسان من رخاء ونعمة فمن الله تعالى وتفضله، وما أصابه من شدة وأذًى ومكروه فمن نفسه، فهو المتسبب فيها.

* ووردت النفس بمعنى ذات الإنسان:

كما فى قوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]

فمن رحمة الله تعالى بالنفس الإنسانية أنه لم يكلفها بعمل فوق طاقتها وقدرتها، بل لابد أن يكون عملاً مستطاعًا لها، لذلك كان الجزاء على الدوام من جنس العمل إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

٣- القلب:

- وردت كلمة القلب فى القرآن بمعان عديدة.

* القلب بمعنى الروح: كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب ١٠]، فالقلوب هنا بمعنى الأرواح، وسبق أن قلنا إن الروح وردت فى القرآن بمعنى النفس.

* والقلب بمعنى العلم والفهم: كما يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. فالقلب هنا بمعنى العلم والفهم أى إدراك الحقائق.

- ووردت كلمة القلب فى القرآن موصوفة بصفات فاضلة، منها:

*** القلب المطمئن بالإيمان:**

وذلك فى قول الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فالقلب هنا عامر بالإيمان مطمئن به.

*** والقلب الثابت الذى ربط الله عليه:**

قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

فهذا قلب ثابت صابر، وتلك صفات فاضلة فيه.

*** والقلب السليم من الشرك المخلص فى العبادة:**

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤].

*** والقلب الخائف من معصية الله تعالى:**

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

وتلك فضيلة فى هذا القلب؛ إذا ذكر الله وجل وخاف وفزع من المعصية التى تبغض الله تعالى فيه إذا مارسها.

- ووردت كلمة القلب فى القرآن الكريم موصوفة بصفات راذلة، منها:

*** القلب الغافل:**

كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٨، ١٠٩].

فغفلة القلب فى هذه الآية الكريمة سبقها إغلاق السمع عن الفهم والتدبر، وإغلاق البصر عن العبر والدلالات، فالآذان فى صمم والأبصار فى عمى، ونتيجة ذلك هى غفلة القلب التى معها الخسران فى الآخرة، واتباع الهوى.

*** والقلب اللاهى الضال:**

ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ...**﴾ [الأنبياء: ٢، ٣]. فهذه قلوب لاهية عن التأمل فى القرآن، ضالة عن الاهتداء به، وتلك رذيلة فى القلب.

*** والقلب المغلق كأن عليه قفلاً:**

كما يدل ذلك قول الله تعالى: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٣، ٢٤].

الذين صموا عن سماع الحق، وعموا عن رؤية طريق الهدى، ولم يتدبروا القرآن الكريم، ولم يهتدوا بهداه وضعوا أقفالا على قلوبهم فأغلقوها عن الهدى.

*** والقلب المريض بالنفاق:**

كما جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾ [محمد: ٢٩، ٣٠]. فالذين فى قلوبهم مرض هم المنافقون.

وقد وُصف القلبُ -أو القلوب- فى القرآن بأن فيه رذيلة النفاق فى اثنتى عشرة آية كريمة[1].

*** والقلب الآثم الخبيث:**

كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٨٣]. فكتمان الشهادة عند طلبها رذيلة لا يأتيها إلا قلب آثم خبيث.

---

(١) هى الآيات الكريمة ذوات الأرقام: ١٠ من البقرة، و٥٢ من المائدة، و٤٩ من الأنفال، و١٢٥ من التوبة، و٥٣ من الحج، و٥٠ من النور، و١٢ من الأحزاب، و٢٣ من الأحزاب، و٦٠ من الأحزاب، و٢٠ من محمد، و٢٩ من محمد، و٣١ من المدثر.

* والقلب الأعمى:

وهو قلب شديد الغفلة عن الحق، أصابه العمى، وقد جاء ذلك المعنى فى قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومعنى الآية فيما نحن بصدده عن القلوب - والله أعلم-: إن من سار فى الأرض وشاهد مصارع الظالمين فإن قلبه يجب أن يستيقظ من غفلته، ويتعقل واجبه نحو الاستجابة لدعوة الحق، ولم تَعِ أذناه أخبار مصارع المعاندين فيتعظ بها، فإنه عندئذ قد أصاب قلبه العمى، وعَمَى القلوب هو العمى الحقيقى الأشد خطرًا من عمى الأبصار.

٤ - العقل:

- وردت كلمة العقل فى القرآن مرات عديدة، كما ورد لها فيه أكثر من معنى، ومن ذلك:

* العقل بمعنى القوة المتهيئة لقبول العلم:

وذلك فى قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]

أى: هذه الأمثال والعِبَر التى يذكرها الله تعالى في كتابه ما يعتبر بها إلا العقلاء الذين يتدبرون، فالعاقل هنا هو الذى لديه تهيؤ لقبول العلم.

* والعقل بمعنى العلم نفسه:

أى العلم الذى يستفيده الإنسان بما تهيأ له من قوة تلقى العلم، وذلك فى قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

فهؤلاء لا يستفيدون من العلم الذى يوجههم إليه القرآن شيئًا، مع أنه كان كفيلاً بأن يفيدهم ويخرجهم من دائرة الصمم والعمى والخرس التى دخلوها عندما عطلوا عقولهم.

* والعقل بمعنى القلب:

وذلك فى قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]

أى ربما تستيقظ قلوبهم من غفلتها، وتتعقل ما يجب عليها تعقله؛ نحو هذا الدين العظيم الخاتم الذى جاء به خاتم المرسلين ﷺ.

- ووردت كلمة العقل فى القرآن الكريم موصوفة بصفات فاضلة حينًا، وبصفات رذلة حينًا آخر، بحسب ما يضع الإنسان نفسه فى مواضع المدح أو الذم.

- فالعقل الموصوف بصفات فاضلة، فى آيات كريمة منها:

* قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]. فالذين يدركون ما فى هذه النعم من تفضل الله على عباده هم الذين يعقلون، وليس ذلك بصعب على من أعمل عقله.

* وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل ٦٦، ٦٧].

* وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وكل ما تفضل الله تعالى به من نعم، فمن اليسير على أصحاب العقول إدراكه دون عناء أو تكلف، وهم بهذا الإدراك أصحاب صفات عقلية فاضلة.

- كما وردت فى القرآن الكريم صفات تعد من الرذائل وَصَفَتْ عقول أناس لا يهتدون ولا يتعظون، وهم كالدواب صم بكم عمى، ومن ذلك:

* قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

فهؤلا ألغوا عقولهم فهم كالدوابّ أو كشر الدواب.

* وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢]

أى: أن من لم يستعمل عقله لا يفيده ما استمع إليه من الحق والهدى.

* وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٣- ١٣٨].

أى أن من لم يتعظ بما ترى عيناه فقد عطل عقله عن الفهم والإدراك.

- وفى القرآن الكريم آيات عديدة تستنكر على بعض الناس أنهم لا يعقلون(١).

ثالثًا: مفاهيم الروح والنفس والقلب والعقل فى السنة النبوية:

كلمات السنة النبوية المطهرة مثل كلمات القرآن الكريم، لهـا فى نفوس المسلمين من الاحترام والتقدير، ما يناسب مكانتها، فهى وَحْى وقائلها ﷺ لاينطق عن الهوى.

والسنة النبوية تفصيل للقرآن الكريم وتفسير لما أجمل منه، بل هى فى كثير من المواقف والمواضيع إضافة إلى ما فى القرآن الكريم.

* وبكلمات السنة النبوية يُستفاد العلم وتزيد المعرفة وتكتسب الثقافة، ويكون التعلم فالعلم فالتعليم، وبها يكون الهدى والاقتداء، وعليها تقوم التربية الكاملة الشاملة.

* ولا يستطيع مسلم فى أى زمان أو مكان أن يقل اهتمامه بسنة النبى ﷺ، فضلاً عن أن يدعى أنه يستغنى عنها بالقرآن الكريم، فإن فعل أو زعم فقد خالف الله ورسوله وأتى من الإثم شيئًا عظيمًا.

* وكلمات السنة النبوية هى قاموس الإسلام، بوصفه دينًا ومنهجًا ونظامًا، وعلمًا وعملاً، وخلقًا وسلوكًا، وسلامًا وحربًا، وعمرانًا وحضارة، بحيث لا يُعرف الإسلام على حقيقته وبتفصيلاته إلا من خلال هذه السنة النبوية المطهرة.

إن السنة النبوية المطهرة لها مكانة كمكانة القرآن الكريم لأنها تشترك معه فى أنها وحى من عند الله تعالى، وأنها لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد، والسنة كذلك لأن صاحبها ﷺ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى.

---

(١) من ذلك الآيات ذوات الأرقام: ٤٠ من سورة «البقرة»، و٣١ من «الأنعام» و١٦٩ من «الأعراف»، و١٠٩ من «يوسف»، و٧٩ من «المؤمنون»، و٤٢ من «يونس» وغيرها.

* وما أجهل من يتصور أنه يستطيع أن يستغنى بالقرآن الكريم عن السنة النبوية، بل ما أتعسه متكئًا على أريكته متصورًا أن الحلال والحرام هو الذى جاء فى القرآن وحده دون السنة النبوية المطهرة؛ «... ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثلُ ما حرم الله»[1].

* وكلمات السنة النبوية المطهرة مَعْلَمة هادية، جامعة مانعة، دقيقة محكمة، شاملة لكل ما فى الإسلام من خير الدنيا والآخرة، هى مَتْنُ الإسلام وشرحه، ولبه ولَحَاه، وحكمته وسداه، بغيرها يستغلق فهم الإسلام على من أراد أن يفهمه، ويستشكل العمل به على من أراد أن يطبقه وينفذه.

* من أجل هذه المكانة للسنة النبوية مما ذكرنا، كان البحث عن أى كلمة مما يتداوله المسلمون فى حياتهم، ومعجم كلماتهم هو التوجه الصحيح لمعرفة هذه الكلمة أو تلك، وفهم معناها ودلالتها، بل معرفة قيمة هذه الكلمة ومكانها من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله الخاتم ﷺ.

* من أجل ذلك أردنا أن نبحث عن معانى كلمات:

الروح، والنفس، والقلب، والعقل فى الاستعمال النبوى الشريف لها، لنعرف معنى كل منها ودلالته، والله تعالى ولى التوفيق والسداد.

١ - الروح:

وردت كلمة الروح فى السنة النبوية بمعانٍ عديدة منها:

*** الروح بمعنى النفس:**

- روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: إذا خرجت روح المؤمن تلقَّاها ملكان يصعدانها - قال حماد[2]- فذكر من طيب ريحها وذكر المسك، قال: ويقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى الله عليكِ وعلى جسد كنت تعمرينه، فَيُنْطلق به إلى ربه عز وجل، ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل، قال: وإن الكافر إذا خرجت روحه - قال حماد - وذكر من نتنها وذكر لَعْنًا، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض، قال: فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل، قال أبو هريرة: فرد رسول الله ﷺ رَيْطة[3] كانت عليه على أنفه هكذا».

فالروح فى هذا الحديث بمعنى النفس.

(١) جزء من حديث نبوى رواه ابن ماجة بسنده عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه.
(٢) هو حماد بن زيد بن درهم (٩٨ - ١٧٩هـ) الذى روى عن عبد الله بن شقيق المتوفى سنة (١٠٨هـ) الذى روى عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٣) الرَّيْطة: الملاءة كلها من نسج واحدة وقطعة واحدة.

* **والروح بمعنى الإنسان:**

- روى أحمد بسنده عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولَمَّا يُلْحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رءوسنا الطير، وفى يده عود ينكت فى الأرض فرفع رأسه فقال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثًا، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء**... الحديث[1] وفيه: «... **فيصعدون بها فلا يمرون - يعنى بها - على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب، فيقولون: فلان بن فلان**...... **فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان**....»

فالروح الطيب أو الروح الخبيث فى الحديث الشريف هو الإنسان «فلان بن فلان».

* **والروح بمعنى روح الله تعالى:**

- روى أحمد بسنده عن أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة زوج النبى ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار -النجاشى أمَّنَا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين جلدين.... الحديث» وفيه: قول النجاشى للمسلمين: «ما تقولون فى عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه: نقول فيه الذى جاء به نبينا -ﷺ-: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت أم سلمة رضى الله عنها: فضرب النجاشى يده إلى الأرض فأخذ منها عودًا، ثم قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قُلْتَ هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، .... الحديث»[2].

وكلمة الروح فى الحديث هى روح الله أو من الله تعالى.

* **والروح بمعنى جبريل عليه السلام:**

- روى أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها، أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول فى سجوده: «**سبوح قدوس رب الملائكة والروح**».

---

(١) انظر الحديث كاملاً فى مسند أحمد ص ٢٨٧ من الجزء الرابع، والحديث رقم: ١٨٥٥٧. ط مؤسسة قرطبة - الهرم - مصر. دون تاريخ.

(٢) انظر الحديث بتمامه فى مسند أحمد ص ٢٠١ وما بعدها من الجزء الأول - مرجع سابق، والحديث رقم: ١٧٤٠.

* والروح بمعنى عيسى ابن مريم عليه السلام:

- روى أحمد بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يخرج الدجال فى خفقة من الدين وإدبار من العلم....»** الحديث، وفيه: **«... ثم ينزل عيسى ابن مريم فينادى من السحر فيقول: أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث؟ فيقولون: هذا رجل جنّى فينطلقون فإذا هم بعيسى ابن مريم ﷺ، فتقام الصلاة فيقال له: تقدم يا روح الله، فيقول: ليتقدم إمامكم فليصل بكم....»** الحديث[1].

فالروح فى هذا الحديث هو عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

٢- النفس:

- وردت كلمة النفس فى السنة النبوية بمعان عديدة نذكر منها:

*** النفس بمعنى الإنسان:**

روى ابن ماجة بسنده عن بشر بن سحيم رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب أيام التشريق فقال: **«لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة...»**.

فالنفس فى هذا الحديث النبوى هى الإنسان نفسه روحه وجسده.

وروى أحمد بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: جاء حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله اجعلنى على شىء أعيش به، فقال رسول الله ﷺ: **«يا حمزة نفسُك تحييها أحب إليك أم نفس تُميتها؟» قال: بل نفس أحييها، قال: «عليك نفسك»**.

والنفس فى هذا الحديث الشريف هى الإنسان.

- ووردت كلمة النفس فى السنة لبيان مكانتها وحرمتها؛ بتحريم إيذائها أو قتلها حتى لو كان صاحب النفس هو الذى قتلها.

روى أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«يَطَّلِعُ الله عز وجل إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا لاثنين؛ مشاحن وقاتل نفسه»**. وروى البخارى بسنده عن عبد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تُقتَل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كِفْل من دمها؛ لأنه أول مَنْ سَنَّ القتل»**.

---

(١) انظر الحديث بتمامه فى السابق ٣/ ٣٦٧.

- وردت النفس فى السنَّة موصوفة بصفات تبين حظها من الخير أو الشر، ومن ذلك:

*** النفس الطيبة أو الخبيثة:**

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم؛ إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انْحَلَّتْ عقدة، فإن توضأ انحلتْ عقدة، فإن صلى انحلتْ عقدة، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلاّ أصبح خبيث النفس كسلان**».

*** والنفس الشرهة الطامعة:**

روى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إنى أعوذ بك من الأربع، مِنْ عِلم لا ينفع، ومِنْ قلب لا يخشع، ومِن نفس لا تشبع، ومِنْ دعاء لا يسمع**».

*** والنفس الموسوسة بالشر:**

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تَمنَّى وتشتهى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**».

*** والنفس الشريرة التى يستعاذ بالله من شرها:**

روى ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: أوتى رسول الله جوامع الخير وخواتمه - أو قال فواتح الخير- فعلَّمنا خطبة الصلاة، وخطبة الحاجة:

خطبة الصلاة: التحيات لله، والصلوات الطيبات، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وخطبة الحاجة: إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ثم تصل خطبتك بثلاث آيات من كتاب الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾ [النساء: ١]

و﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

هذا ما وسعنا أن نقوله عن النفس فى السنة النبوية المطهرة، وهو قليل من كثير.

٣- القلب:

كلمة القلب من أكثر الكلمات ورودًا على لسان المعصوم ﷺ، كما وردت بمعان عديدة، حتى أن علماء المعاجم لألفاظ السنة النبوية ذكروا أنها وردت فى السنة النبوية أكثر من ثلاثمائة مرة، كل مرة منها تحمل معنى يهدى إلى ما يجب أن يكون عليه قلب المسلم من مشاعر ونوايا. ولنذكر لذلك بعض الأمثلة:

- وردت بمعنى الروح وبمعنى النفس، وبمعنى العقل.
- وردت بمعنى أن القلب وعاء لا يجتمع فيه نقيضان.
- وبأن القلوب أوعية بعضها أوعى من بعض.
- وبأن القلب يموت بكثرة الضحك.
- وبأنه يحيا ويطمئن بذكر الله.
- وبأنه متقلب.
- وبأنه أصناف وأنواع.

إلى غير ذلك مما نذكر شواهد له من أحاديث الرسول ﷺ فيما يلى:

* جاءت كلمة القلب بمعنى أنه أهم جزء فى جسد الإنسان:

- روى البخارى بسنده عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبينهما مشبَّهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبِّهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمًى، ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجَسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهو القلب»**.

* وجاءت كلمة القلب بمعنى النفس والروح:

- روى أحمد بسنده عن الأغر المزنى - وكانت له صحبة - رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله مائة مرة»**.

- وروى أحمد بسنده عن أبى ثعلبة الخُشَنى رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أخبرنى بما يحل لى ويما يحرم علىّ، قال: فصعَّد النبى ﷺ وصوَّب فِىّ النظر فقال: **«البِرّ ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب، وإن أفتاك المفتون»**.

* وجاءت القلوب بمعنى الأوعية والأوانى:

- روى أحمد بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلبٍ غافل»**.

- وروى الطبرانى بسنده عن ابن عنبة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ لله تعالى آنيةً من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبها إليه ألينها وأرقها»**.

* وجاءت كلمة القلب موصوفة بالتقوى أو الفجور:

- روى أحمد بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله عز وجل: يا عبادى كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفرونى أغفر لكم، ومَنْ علم أنى أقدر على المغفرة استغفرنى بقدرتى غفرت له ولا أبالى، وكلكم ضال إلا مَنْ هديتُ فاستهدونى أهدكم، وكلكم فقير إلا مَنْ أغنيت فاسألونى أغنكم، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أشقى قلب من قلوب عبادى ما نقص فى ملكى جناح بعوضة، ولو اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادى ما زاد فى ملكى من جناح بعوضة، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فسألنى كل سائل منهم ما بلغتْ أُمنيته، فأعطيت كل سائل منهم ما سأل، ما نقصنى، كما لو أن أحدكم مرَّ بشفة البحر فغمس فيه إبرة ثم انتزعها، كذلك لا ينقص من ملكى؛ ذلك بأنى جواد ماجد صَمَد، عطائى كلام وعذابى كلام، إذا أردت شيئًا فإنما أقول له: كن فيكون»**.

- وروى مسلم بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: **«يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرَّمًا فلا تظالموا...»** الحديث[1]، وفى آخره: **«يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا.....»** الحديث.

(١) أنظر الحديث تامًا كاملاً فى صحيح مسلم: أبواب البر والصلة والآداب ج٢ ص ١٠٩٦ الحديث رقم ٦٧٣٧ط جمعية المكنز الإسلامى ١٤٢١هـ.

* وردت كلمة القلب وقد صنفه الرسول ﷺ إلى أربعة أصناف:

- روى أحمد بسنده عن أبي سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«القلب أربعة، قلب أجْرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفَّح.**

فأما القلب الأجرد، فقلب المؤمن، سراجه فيه نوره،

وأما القلب الأغلف؛ فقلب الكافر،

وأما القلب المنكوس؛ فقلب المنافق عرف ثم أنكر،

وأما القلب المصفَّح فقلب فيه إيمان ونفاق، فَمَثَلُ الإيمان كمثَل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم، فأيّ المدَّتَيْن غلبت على الأخرى غلبت عليه».

* وجاءت كلمة القلب في السنة النبوية وقد وُصف بأنه موضع الأمانة ومكان رفعها، وموضع عرض الفِتن:

- روى مسلم بسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال: حدثنا رسول الله حديثين، قد رأيت أحدهما، وأنا انتظر الآخر، حدثنا: **أن الأمانة نزلتْ في جذْر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة،** ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال: **ينام الرجل النَّوْمة، فتُقَبَض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوَكْت، ثم ينام النومة فتُقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المَجْل كجمر دحرجته على رجلك فَنَفَط فتراه منتبرًا وليس فيه شيء، ثم أخذ حصًى فدحرجه على رجْله، فيصبح الناس يتبايعون، لا يكاد أحد يؤدى الأمانة، حتى يقال: إنّ في بني فلان رجلاً أَمينًا، حتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبَّة خردل من إيمان...».**

- وروى مسلم بسنده عن أبي حذيفة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا؛ فأى قلب أُشْرِبها نُكتَ فيه نكتةٌ سوداء، وأى قلب أنكرها نَكت فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبَيْض مثل الصفا فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض، والآخر أسود مُرْبادًا[1] كالكوز مُجَخِّيًا[2]؛ لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلاَّ ما أُشرِب من هواه».**

(١) مرباداً: أى شديد السواد شديد البياض.
(٢) مجخيًا: أى منكوسًا.

وبعد؛ فهذا قليل ذكرناه من كثير لم نذكره مما ورد فى السنة النبوية المطهرة من كلمة القلب لتدل على معان عديدة كل معنى منها يزيد معنى القلب وضوحًا، ويؤكد مكانته من حياة الإنسان.

٤ – العقل:

وردت كلمة العقل وبعض مشتقَّاتها فى السنة النبوية مرات عديدة فاقت المائة مرة، وكان لكثير منها معان عديدة، نذكر منها بعضها فى هذا المجال، ومن ذلك:

* العقل بمعنى القوة التى منحها الله تعالى للإنسان، التى تهيئه لقبول العلم، وتجعله أهلاً للتكاليف الشرعية:

– روى الطبرانى – فى الأوسط – بسنده عن أبى إمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال الله عز وجل: «وعزتى وجلالى ما خلقتُ خلقًا أكرم علىّ منك؛ بك آخذ، وبك أعطى،وبك أثيب وبك أعاقب»**.

*** والعقل بمعنى العلم والهدى:**

– روى الحكيم الترمذى – فى نوادر الأصول – بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، بم يتفاضل الناس فى الدنيا؟ قال: «**بالعقل**» قلت: وفى الآخرة؟ قال: «**بالعقل**» قلت: أليس إنما يجزون بأعمالهم؟ قال: «**يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله من العقل، فبقدر ما أعْطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يجزون**».

– وروى ابن أبى الدنيا – فى كتاب العقل وفضله – بسنده عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليكون من أهل الصلاة والزكاة والجهاد والحج والعمرة؛ حتى ذكر سهام الخير، وما يُجزى يوم القيامة إلا بقدر عقله**».

*** والعقل بمعنى التقوى:**

– روى ابن المحبّر بسنده عن سعيد بن المسيب: أن عمر وأُبىّ بن كعب وأبا هريرة رضى الله عنهم دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله: من أعلم الناس؟ قال: «**العاقل**» قالوا: فمن أعبد الناس؟ قال: «**العاقل**» قالوا: فمن أفضل الناس؟ قال: «**العاقل**» قالوا: أليس العاقل مَنْ تمت مروءته، وظهرت فصاحته، وجادتْ كفُّه وعظمتْ منزلته؟ فقال ﷺ: ﴿**وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [الزخرف: ٣٥]. «**إن العاقل هو المتقى، وإن كان فى الدنيا خسيسًا ذليلاً**».

* والعقل بمعنى أنه سبب فى تقوية الإيمان والنجاة من النار:

– روى ابن المحبّر بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء دعامة، ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته، أما سمعتم قول الفجار فى النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]».

– وروى ابن المحبّر بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم، ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله، فعند ذلك تمّ إيمانه وأطاع ربه، وعصى عدوه إبليس».

– وروى ابن المحبّر بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه إلى هدى، أو يرده عن ردى، وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله».

* والعقل آلة المؤمن وعدته ومطيته ودعامة دينه وغايته، بل أهم شيء فى حياة الإنسان:

– روى ابن المحبّر بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء آلة وعُدَّة، وإن آلة المؤمن العقل، ولكل شيء مطية، ومطية المرء العقل، ولكل شيء دعامة، ودعامة الدين العقل، ولكل قوم غاية، وغاية العباد العقل، ولكل قوم داع، وداعى العابدين العقل، ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل، ولكل أهل بيت قَيِّم، وقيِّم بيوت الصديقين العقل، ولكل خراب عمارة، وعمارة الآخرة العقل، ولكل امرئ عقب ينسب إليه ويذكر به، وعقب الصديقين الذى ينسبون إليه ويذكرون به العقل، ولكل سَفَرٍ فسطاط، وفسطاط المؤمن العقل».

– وروى ابن المحبّر بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحبّ المؤمنين إلى الله عز وجل، من نَصَبَ فى طاعة الله عز وجل، ونصح لعباده، وكمل عقله، ونصح نفسه فأبصر، وعمل به أيامَ حياته فأفلح وأنجح».

* والعقل مفتاح لكل خير مغلاق لكل شر:

– روى ابن المحبّر فى كتابه «العقل» بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل، تعرفوا ما أُمرتم به وما نهيتم عنه، واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم، واعلموا أن العاقل من أطاع الله، وإن كان دميم المنظر، حقير الخطر، دَنِيَّ المنزلة، رث الهيئة...»[1].

(١) ابن المحبّر هو داود بن المحبَّر بن قحذم بن سليمان الطائى. توفى سنة ٢٠٦هـ من رجال الحيث له فيه: كتاب «العقل» وهو من أهل البصرة، سكن بغداد وبها توفى، واتهمه علماء الحديث بأنه ضعيف.

رابعًا: مفاهيم الروح والنفس والقلب والعقل فى تراثنا:

التراث الخاص بالمسلمين أضخم وأوسع وأعرق من أن نتتبع الحديث عنه فى بيئاته العديدة، وأزمانه المتطاولة فى صفحات من هذا الكتاب، أما ضخامته واتساعه فلأنه قد شمل نصف العالم تقريبًا من الناحية العمرانية والحضارية، وأما عراقته فلأنه يمتد فى الماضى أربعة عشر قرنًا وربع القرن حتى يومنا هذا»[1].

والتراث - عند كل أمة - هذا إرثها الفكرى والثقافى، والأدبى والحضارى عمومًا، الذى يضم القيم السائدة فى المجتمع، ويطبق المبادئ والقوانين والنظم التى تحكمه. كما يشتمل على الناس، وما وصلوا إليه من علم وفن، وأدب وفكر، وعلاقات إنسانية.

وهذا التراث عند المسلمين لا يختلف فى مكوناته عن أى تراث فى أى أمة من غير المسلمين.

- ويتميز تراث المسلمين عن غيره بأن الإسلام قد دخلت فيه أجناس عديدة من الناس وفدوا وآمنوا به وأسلموا أمرهم، حاملين معهم من تراث أممهم ما لا يمكن للإنسان أن يتخلى عنه، إلا إن كان مخالفًا لدينه.

- كما يتميز تراث المسلمين بأمور عديدة نشير إلى بعضها فيما يلى:

* الوحدة الإيمانية:

تراث المسلمين تحكمه وحدة المسلمين فى إيمانهم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله - لا يفرقون بين أحد منهم - واليوم الآخر، وكل ما أخبر الله تعالى عنه من عالم الغيب، والرضا بقضاء الله وقدره؛ خيره وشره.

* ووحدة التعبد لله تعالى:

وذلك أن المسلمين جميعًا يتعبدون إلى الله تعالى بما افترض عليهم من فرائض قولية وعملية، وفعل ما أمرهم به واجتناب ما نهاهم عنه، والالتزام بمنهج الإسلام ونظامه فى حياتهم الدنيا وتعاملاتهم مع غيرهم.

* ووحدة الغاية والهدف:

فالمسلمون جميعًا لهم غاية واحدة هى إرضاء الله تعالى بعبادته وطاعته وطاعة رسوله ﷺ، وهدف المسلمين واحد وهو إعمار الأرض بهذا الدين الخاتم، وتمكين هذا الدين فى الأرض ليسود الناسَ العدل والإنصاف.

(١) كتب هذا الكلام فى ذى الحجة من سنة ١٤٢٥هـ - يناير ٢٠٠٥م.

* والوحدة الروحية:

لأن أرواح المسلمين جميعًا متعلقة بخالقها سبحانه وتعالى، تجتهد فى معرفته، وتتقرب إليه بصالح الأعمال، وتتشوق إلى لقائه ليجزيها أجر ما أطاعت وأحسنت، ويدخلها جنته حيث النعيم المقيم والحياة بلا موت، ورضا الله تعالى، والإنعام على هذه الأرواح وأصحابها برؤيته سبحانه وتعالى.

* والوحدة الثقافية:

فإذا كان التراث لأى أمة تدخل الثقافة فى تكوينه، فإن ثقافة المسلمين واحدة من حيث اعتمادها أساسًا على الكتاب والسنة النبوية، وسيرة الرسول ﷺ، ولا يمكن تجريد التراث الإسلامى من ثقافة القرآن الكريم وسنة النبى الخاتم وسيرته ﷺ.

* والوحدة الاجتماعية:

فالمسلمون جميعًا أمة واحدة تربطهم العقيدة والعبادة والسلوك والقيم الخلقية، كما يربطهم النظام الاجتماعى الذى جاء به الإسلام، والذى جعل الأسرة قاعدة المجتمع، وأحاطها بالنظم التى تكفل لها امتدادها وتأثيرها فى المجتمع كنظام الزواج ونظام الطلاق ونظام النفقات ونظام الميراث ونظام الوصايا وغير ذلك من الأنظمة التى تحافظ على الأسرة والمجتمع.

* والوحدة السياسية والاقتصادية:

فالوحدة السياسية واجبة من منطلق أن المسلمين أمة واحدة، ويرمز إلى هذه الوحدة القِبْلة الواحدة، والحج، والجهاد فى سبيل الله تعالى، ومبدأ الأخوة بين المسلمين، وطلب الرسول ﷺ من المسلم أن ينصر أخاه ظالمًا بمنعه عن الظلم، ومظلومًا بالعمل على أن يصل إليه حقه.

والوحدة الاقتصادية دعم لكل الأنواع التى تحدثنا عنها. وقد دعم الإسلام هذه الوحدة الاقتصادية بنظام التعاون والتكافل، ونظام الزكاة، ونظام إعمار الأرض وإحياء الموات منها، وغير ذلك من الأنظمة العديدة التى تدعم الوحدة الاقتصادية، كما عبر عنها تراث المسلمين[1].

---

(١) انظر لنا كتاب: التربية السياسية الإسلامية، وكتاب التربية الاقتصادية الإسلامية، نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

تلك مميزات تراث المسلمين فى تاريخهم كله، مع ما جرى فى هذا التاريخ من نهوض وتقدم أو ضعف وتراجع.

- وتراث أى أمة حافز لها على النظر فى ماضيها والاستفادة مما جرى فيه من أحداث، لطرح ما جرى فيه من سلبيات تسبب فيها البعد عن منهج الإسلام ونظامه، والأخذ بما حدث فيه من إيجابيات، وذلك بدعم الحركة العلمية والأدبية والفنية والحضارية عمومًا.

كما أن تراث المسلمين حافل بالقيم الخلقية والثقافية والتعليمية والتربوية، وكل ذلك يجب المحافظة عليه والاستفادة به فى حاضر المسلمين ومستقبلهم.

- وتراث المسلمين بما تميز به من أنواع الوحدة التى اشتمل عليها، يمثل بالنسبة للمسلمين فى كل زمان ومكان قيمًا رفيعة، نابعة من الإسلام، وعمقًا ثقافيًا ثريًا، استقى وارتوى من القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة الخاتم ﷺ.

كما يمثل شخصية الأمة الإسلامية ويدعمها، ويوضح أبعادها، ويمنح المسلمين مزيدًا من الثقة بالنفس، مما يؤدى بالضرورة إلى استعصاء المسلمين على الذوبان فى حضارات وافدة أو غازية مستعلية.

كما أن هذا التراث الإسلامى عند الاعتزاز به يربى فى المسلمين رفضهم الهزيمة، واستمرار المحاولات المستميتة للتخلص من آثارها، إن هى وقعت على المسلمين؛ لأنهم بمنهج الإسلام ونظامه أصبحوا المؤمنين الذين وعدوا بنصر الله تعالى.

- والنظر المتروِّى والتدبر فى تراث المسلمين يترك فيهم آثارًا إيجابية لها قيمتها، منها:

* تعزيز القدرة على تحدى الصعاب والأعداء، لأن من كان له تراث كتراث المسلمين، لابد أن تكون له قدرة على مواجهة هذه الصعاب.

* ومنحهم القدرة على انبثاق طاقاتهم، وتحرر إرادتهم، ونقاء رؤيتهم للناس والأشياء، وملء قلوبهم بالحب والمودة لكل الناس، ومحاولة جمعهم على الهدى.

* وإلزامهم بالإعداد والاستعداد؛ لكل ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل برهبون به عدو الله وعدوهم، وآخرين من دونهم لا يعلمونهم، ولكن الله يعلمهم.

* وحثهم على طلب العلم والأخذ منه بنصيب كبير يلائم احتياجاتهم، ويواكب متطلبات حياتهم المتغيرة دائمًا، ليكونوا فى طليعة الأمم علمًا وفنًا وإبداعًا ومكتشفات فى كل المجالات.

* ويُقوى فيهم الشعور بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، مما يدعم الشخصية القومية الإسلامية، التى يحاربها أعداء الأمة الإسلامية حربًا ضارية مستمرة تريد أن تقلع هذه الشخصية من جذورها.

* ويحذرهم هذا التراث الغنى من الوقوع فى مستنقع التبعية، وذل الاستكانة، وعار الخجل من التمسك بأخلاق الإسلام وآدابه، والانخداع فى بهارج الحضارات المادية التى لا تقيم للأديان وزنًا، ولا ترجو من الله وقارًا، لأن الخجل - على سبيل المثال - من الأكل باليمين والانخداع فى نسيان ما أمر الله به وما نهى عنه هو بداية الضياع فى الدنيا والآخرة.

* وينبههم إلى أن التمسك بلغة الكتاب والسنة هو الأصل ولا خروج عن ذلك إلا لضرورة، وكل إخمال للغة العربية لغة الكتاب والسنة ولغة التراث الإسلامى معظمه إثم ومعصية، ومَنْ فَقَد اللغة التى يقرأ بها دينه ومقدساته وتراثه فكيف يعيش وكيف يكون له مستقبل؟

نحن نفكر باللغة، ونحن نتعلم باللغة، ونحن نبدع باللغة، ونحن ننهض علميًا وفنيًا وأدبيًا باللغة، وليس على وجه الأرض لغة شرفها الله بأن يتنزل بها خاتم كتبه وأن يجعلها لغة خاتم رسله ﷺ، سوى اللغة العربية، وما كان ذلك إلا لحكمة يعلمها العليم الحكيم سبحانه وتعالى، لابد أن تتضمن تميز اللغة العربية على غيرها من اللغات.

- وتراث المسلمين وحضارتهم وفكرهم وعلمهم وثقافتهم أسهمت فى بناء أو فى عون حضارات أخرى على أن تنمو وتزدهر، ولا تزال آثارها باقية فيها حتى يومنا هذا، كحضارة الهند وحضارة الفرس، وكالحضارة الغربية التى نقلت إلى لغاتها معظم ما وصل إليه المسلمون من علم وفن وأدب، ثم بنوا عليه وجددوا حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه، وقد قرر كتّابهم وعلماؤهم هذا وسجلوه فى كتبهم وبحوثهم.

وليس فى ذلك مِنَّة من الحضارة الإسلامية على أي حضارة نقلت عنها وأفادت منها؛ لأن ذلك شأن الحضارات كلها تأخذ وتعطى دون حروب أو صراعات، وكذلك كان شأن الحضارة الإسلامية وهى تنمو، فكم أخذت من حضارات قبل أن تبلغ من الازدهار ما بلغت.

وبعد هذه العجالة الوجيزة عن تراث المسلمين وحضارتهم؛ فماذا قال تراث المسلمين عن النفس والروح والقلب والعقل؟ إنه كذلك لقول متوسع متشعب ما كان لى أن أحيط به فى هذه الصفحات، ولكنى اخترت وانتقيت فوجدت أحسن ما قيل وأكثره ملاءمةً لمدخل هذا الكتاب هو ما ذكره الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه الموسوعى: «إحياء علوم الدين» فى ربعه الثالث[1]: «ربع المهلكات» فى بدايته تحت عنوان: «كتاب شرح عجائب القلب».

قال الإمام الغزالى: «باب معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسامى:

واعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل فى هذه الأبواب، ويقل فى فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامى واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها، وأكثر الأغاليط منشؤها بمعنى هذه الأسامى واشتراكها بين مسميات مختلفة، ونحن نشرح فى معنى هذه الأسامى ما يتعلق بغرضنا:

- لفظ القلب: يطلق لمعنيين:

أحدهما: اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر...

والآخر: لطيفة ربانية روحانية، لها بهذا القلب الجسمانى تعلق، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب...

- ولفظ الروح: وهو أيضًا يطلق لمعنيين:

أحدهما: جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى، فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن، وجريانه فى البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت، فإنه لا ينتهى إلى جزء من البيت إلا ويستنير به...

والآخر: هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان... وهو الذى أراده الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]. وهو أمر عجيب ربانى، تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته».

(١) جعل الإمام الغزالى ٤٥٠ - ٥٠٥ هـ كتابه إحياء علوم الدين أربعة أرباع: الربع الأول ربع العبادات، والربع الثانى: ربع العادات، والربع الثالث: ربع المهلكات، والربع الرابع: ربع المنجيات، وأقام كل ربع منها على عشرة كتب، فكتاب إحياء علوم الدين يشتمل على أربعين كتابًا.

- ولفظ النفس: وله معان عديدة أهمها معنيان:

أحدهما: يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف، لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، فيقولون: لابد من مجاهدة النفس وكسرها، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «**أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك**».

والآخر: هو اللطيفة التى ذكرناها، التى هى الإنسان بالحقيقة وهى نفس الإنسان وذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها، فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات، سميت بالنفس المطمئنة، قال الله تعالى فى مثلها: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً**﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

والنفس بالمعنى الأول - ذات الغضب والشهوة - لا يتصوَّر رجوعها إلى الله تعالى، فإنها مبعدة عن الله، وهى من حزب الشيطان.

وإذا لم يتم سكونها، ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها؛ سميت النفس اللوامة؛ لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه، قال الله تعالى: ﴿**وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ [القيامة: ٢].

وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان، سميت النفس الأمارة بالسوء، قال الله تعالى إخبارًا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ [يوسف: ٥٣].

فإذن النفس بالمعنى الأول - الآمرة بالغضب والشهوات - مذمومة غاية الذم، وبالمعنى الثانى - التى تدافع الشهوات وتعترضها - محمودة لأنها نفس الإنسان، أى ذاته وحقيقته؛ العالمة بالله تعالى، وسائر المعلومات.

- ولفظ العقل: وهو أيضًا مشترك لمعان - ذكرناها فى كتاب العلم -[1] والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان:

أحدهما: أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب.

---

(١) جاء ذلك فى الربع الأول من كتاب إحياء علوم الدين «ربع العبادات، وأوله: كتاب العلم».

والآخر: أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم، فيكون هو القلب أعنى تلك اللطيفة.

ونحن نعلم أن كل عالم له فى نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه، والعلم صفة حَالَّة فيه، والصفة غير الموصوف.

والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم.

وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعنى المدرك، وهو المراد بقوله ﷺ: «**أول ما خلق الله العقل**»(1). فإن العلم عَرَضٌ لا يتصور أن يكون أول مخلوق، بل لابد وأن يكون المحل مخلوقًا قبله أو معه...

فإذن قد انكشف لك أن معانى هذه الأسماء موجودة وهى: القلب الجسمانى، والروح الجسمانى، والنفس الشهوانية، والعلوم؛ فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة، ومعنى خامس وهى اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان، والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها، فالمعانى خمسة، والألفاظ أربعة، وكل لفظ أطلق لمعنيين»(2).

وبعد:

فهذا ما أردنا أن يشتمل عليه مدخل الكتاب من موضوعات، هدفنا منها التحديد والتوضيح لمعانى هذه الكلمات التى سترد فى الكتاب كثيرًا، لأنه كتاب عن النفس فى الإسلام، والإسلام هو الكتاب والسنة النبوية وسيرة المعصوم ﷺ، ويشرح ذلك ويفسره ما تركه المسلمون من تراث هداهم إليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والله نسأل أن نكون قد وفقنا فيما قلنا، هو حسبنا ونعم الوكيل.

****

---

(1) ذكرنا هذا الحديث بسنده فى هذا المدخل.

(2) الإمام أبو حامد الغزالى: إحياء علوم الدين: ٣/ ٤ - ٦ بتصرف محدود، واختصار قليل.



الباب الأول

حول النفس والخُلق

هذا الباب فصلان:

الفصل الأول: النفس والخلق قديمًا.

الفصل الثانى: النفس فى علم النفس الحديث:

- تحدثت فيه عن خمس نقاط:

- صلة علم النفس بالفلسفة،
- وموضوعات علم النفس،
- وأشهر مناهج علم النفس،
- وعلم النفس والصحة النفسية،
- وعلم النفس والأمراض النفسية.



حول النفس والخُلق

*** النَّفْس:**

تتسع دلالة كلمة النفس لتشمل معانى عديدة مثل:

النفس بمعنى: الروح، كما ذكرنا ذلك آنفًا، **والنفس بمعنى:** الدم، كما يقال: دَفَقَ نفسَه.

والنفس بمعنى: ذات الشيء وعينه، كما يقال: جاء هو نفسه أو بنفسه.

والنفس بمعنى: مبدأ الحياة فى الجسد؛ إذ توجد متحدة به طول الحياة، وتنفصل عنه بالموت، وهى بهذا المعنى تعنى الروح والإنسان نفسه.

والنفس ذات، وموصوف، ومسند إليه، وموضوع.

والنفس بهذه المعانى كلها: تُكَلَّف، وتراقب، وتحاسب، وتثاب أو تعاقب.

*** الخُلُق:**

الخُلق كلمة ذات معانٍ عديدة، منها:

الخلق بمعنى: الطبع.

والخلق بمعنى: القُوَى والسجايا المدرَكة بالبصيرة.

والخلق بمعنى: النظام المتكامل من السمات أو الخصائص العقلية أو السلوكية التى تميز شخصًا عن آخر.

وهذه السمات للخلق هى التى تؤلف الهيكل النفسى للإنسان، وتتيح له أن يسلك - إزاء المواقف - سلوكًا متفقًا مع ذاته، والخلق متداخل مع النفس متلازم معها.

والخلق بهذه المعانى، معنًى، وصفة، ومسندًا، ومحمولاً، أى تابعًا للنفس معبِّرًا عن سلوكها.

* وقد يتداخل مفهوم الخلق ومعناه إلى حد كبير مع مفهوم الشخصية.

- فالشخصية نظام متكامل يتكون من مجموع الخصائص الجسدية، والوجدانية، والنزوعية، والإدراكية، التى تحدد هوية الفرد وتميزه عن غيره من الأفراد، فيما يبدو عليه من السلوك أثناء تعامله اليومى الذى توجبه الحياة الاجتماعية.

والشخصية تتأثر بعوامل عديدة منها:

المحددات الوراثية.

والعمل أو الوظيفة التى يقوم بها الفرد.

والمكانة الاجتماعية التى يحظى بها الفرد.

وهذه الشخصية أنواع:

الشخصية الطبيعية، والشخصية القانونية، والشخصية المعنوية.

* غير أن هناك فرقًا رئيسًا بين الخُلق والشخصية هو:
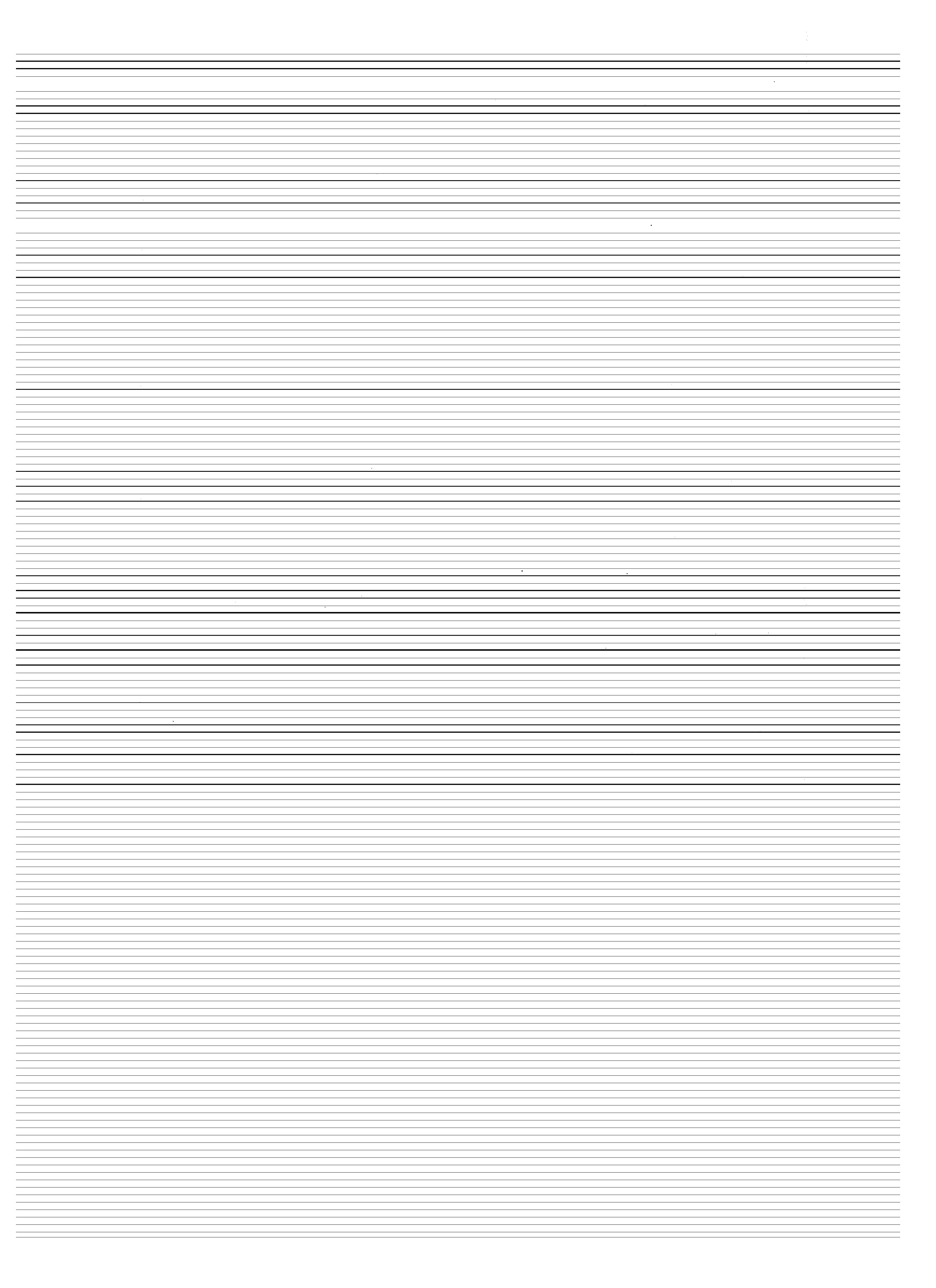
إن الخُلق يركَّزُ فيه على الإرادة ويخضع للقيم، بينما التركيز فى الشخصية يتناول المظاهر الاجتماعية للسلوك بوجه خاص.

****



الفصل الأول

النفس والخُلق قديمًا



* والنفس والخلق كلاهمـا محل اهتمام قـديم عند الفلاسفة وعند علمـاء الأديان، وسوف نتحدث عن ذلك فى نقطتين:

١ - النفس والخلق عند الفلاسفة:

فالنفس عند الفلاسفة - كما عرفها أرسطو - هى:

صوة البدن، لكنها تتميز عن الصور الأخرى المتصلة بالمادة بأنها صورة عاقلة تسمو على البدن، وتحيا حياة عقلية غير مرتبطة أساسيًا بالمدة، ولذا لا تَفْنَى بفناء الجسد.

وبعض الفلاسـفة - كأصـحاب النزعة الأفـلاطونية - تنظر إلى الجسـد على أنه سجن للروح أو النفس.

والنفس العاقلة عند الفلاسفة تتضمن القُوَّتَيْن الحيوانية والنباتية.

ومذهب وحدة الوجود يتـعارض مع تشخيص النفوس البشرية، والـفلسفات المادية كلها تنكر النفس والروح.

* ومعظم الأديان تعترف بالنفس أو الروح، وتقـرر وجودها وخلودها، بمعنى أنها لا تفنى بفناء الجسد، ويمثل الجسد عند كثيـر من أهل الأديان عونًا للروح، ومصدرًا لمعارفها، بل هو الذى يشخصها.

* **الخلق:**

- أما الأخلاق فقد توسـع فى الحديث عنها الفلاسفة وعلماء الأديان، نذكر طرفًـا منه فيما يلى:

* فالأخـلاق عند الفلاسفـة فرع من فروع الفلسـفة، ويرون أن موضـوع الأخلاق هو: البحث عن المقاييس التى تميِّز بها بين الخير والشر فى سلوك الإنسان.

* ويستـوى فى النظرة إلى الأخلاق على هذا النحو مـعظم الفلاسفة؛ سـواء أكانوا من أولئك الذين يعتبرون الخير أمرًا مطلقًا لا يتـغير بتغير الزمان والمكان، بمعنى أن خيريّة كل فعل كـامنة فى الفعل ذاته، وأن ذلك يدرك بالعقل؛ إذ الواجب عندهم مـفروض بحكم العقل.

فالواجب الخُلقى واجب على كل إنسان مهما اختلفت ظروفه أو اختلف زمانه أو مكانه، بل إنهم يغضون النظر عن نتائج هذا الفعل الخلقى سارًّة كانت أو ضارّة!!؟

ويستوى معهم فى ذلك أولئك الذين يجعلون الأخلاق أمْرًا نِسْبيًا يختلف بأخلاق الزمان والمكان والظروف، وهؤلاء يرون أنّ خَيْرِيّة الفعل مرهونة دائمًا بغايته، فما يؤدى إلى السعادة أو المنفعة أو اللذة هو الخير، وما لا يؤدى إلى شىء من ذلك فهو من الشر.

ومن مشاهير الفلاسفة القائلين بذلك قديمًا:

- الأبيقوريون، نسبة إلى «أبيقور الفيلسوف اليونانى (٣٤١ - ٢٧٠ق.م).
- والرواقيون وهم مدرسة فلسفية أسسها «زينون» (٢٠٠ ق.م).
- والنفعيون وهم مذهب يتخذ من درجة المنفعة المادية والمعنوية للأشياء مقياسًا للحكم على قيمتها، وهو مذهب حديث نشأ فى القرن التاسع عشر الميلادى نادى به كل من: «جيرمى بنتام» (١٧٤٨ - ١٨٣٢م) و «جون سيتوارت مل» عالم النفس المعروف.

* والأخلاق عند الفلاسفة عمومًا هى منظومة قواعد السلوك التى ينبغى على المرء اتباعها ليحيا وفق طبيعته الحقيقية أو المرموقة المبتغاة، وليست الأخلاق الفلسفية جملة من الأوامر أو النصائح فحسب.

* وترى الفلسفة أن هناك مشكلة أخلاقية مرتبطة بالمعرفة؛ يترتب عليها طرح عدد كبير من الأسئلة، مثل:

- ما المفهوم الأصلى للخير والعدالة والشرف والكرامة؟ وهل هى وليدة الفطرة؟ أم أنها وليدة التجربة؟
- وما هى الذاتية والموضوعية وما طبيعتهما؟ وهل هناك معيار للتمييز بين ما هو ذاتى وما هو موضوعى؟
- وما معيار الخير والعدل والإحسان؟ وهل هو معيار واحد أو متعدد؟ وهل هو موضوعى أو ذاتى؟
- وهل القيمة الأخلاقية لازمة ملزمة؟ وما مدى تعارضها مع الحرية؟

- وما منبع القيم الأخلاقية؟ هل هو عادات الفكر والشعور؟

أم أنه منبع إنسانى يتجاوز حدود الزمان وأبعاد المكان، ويعلو فوق كل الظروف؟

- وهل هناك ارتباط بين الأخلاق والحضارات؟ وهل فى الإمكان تمييز قيم أخلاقية عليا تهدف إليها الحضارات فى عمومها؟

- وما مدى ارتباط الأخلاق بالتقدم العلمى والتقنى؟ ذلك التقدم الذى يستهدف الحياة الإنسانية المزدهرة، وليس الموت والإبادة والدمار؟

- وهل يعتبر الالتزام بالقيم الخلقية واجبًا حتى لو كَلَّفَ الناس حياتهم؟

إلى غير ذلك من مئات الأسئلة التى تحفل بها الفلسفة مهما تعددت مدارسها ومذاهبها.

* وقد قسم الفلاسفة دراسة الأخلاق إلى قسمين:

- **أحدهما:** الأخلاق العامة أو الكلية «الأخلاق النظرية».

- **والآخر:** الأخلاق الخاصة أو الجزئية «الأخلاق العملية أو التطبيقية».

* فالأخلاق العامة أو الكلية؛ هى التى تعنى ببيان المبدأ العام والأساس الذى تصدر عنه الإلزامات أو الواجبات.

وهذه الأخلاق العامة تقوم على دراسة تفسيرية منهجية تحاول إيضاح الأسباب التى تصدر عنها مختلف الواجبات، وبها تُحَدَّد المنظومة أو المذهب الذى تصدر عنه الواجبات الخاصة أو الجزئية، بحيث يكون ذلك أساسًا للصرح الأخلاقى كله.

* وأما الأخلاق الخاصة أو الجزئية فهى التى تعنى ببيان، بل بتحديد الواجبات المعينة فى الميادين العديدة؛ كميدان السلوك الفردى أو الأسرى أو الجماعى الاقتصادى أو السياسى الإنسانى.

وهذه الأخلاق الخاصة أو العملية أو التطبيقية تستهدف تحديد الوسائل التى تتحقق بها الغاية المنشودة التى تحددها الأخلاق العامة، وتعالج مسائل بعينها مثل:

مسألة الصدق أو الكذب،

ومسألة التسامح،

ومسألة الواجبات الشخصية نحو الوالدين والأسرة، ونحو الوطن كله، ونحو الحاكم والحكومة.

وهذه الأخلاق الخاصة أو الجزئية أو التطبيقية؛ هى نتائج الأخلاق الكلية أو الأخلاق العامة النظرية.

وبعد هذا العرض الوجيز للأخلاق؛ نؤكد أنّ للفلاسفة حول الأخلاق حوارات ومدارس ومذاهب عديدة؛ حتى ليصح القول بأن المسألة الخلقية شغلت من الفلسفة حيّزًا لا يقل بحالٍ عما كانت تشغله المسألة العقلية التى هى محور الفلسفة الذى تدور حوله.

٢- النفس والخلق عند علماء الأديان:

النفس والأخلاق عند علماء الدين (يهودية ونصرانية والدين الإسلامى) لهما أهمية ودلالات عديدة، نرجو أن نوجز الحديث عنها فى الصفحات القليلة التالية فى نقطتين:

أولاهما: عن النفس والأخرى عن الأخلاق، والله تعالى نعم العون وولى التوفيق.

- من المعروف بل المسلم به لدى من يعرفون الأديان السماوية الثلاثة، ويعرفون ما نزل على رسل هذه الأديان من كتب؛ أن هذه الأديان هى مصدر المعرفة عن النفس، وأنها مصدر القيم الخلقية ومنبعها، لا يختلف على ذلك إلا من جهل أو تجاهل.

- وهذه الأديان الثلاثة ذات الكتب المعروفة - التوراة والإنجيل والقرآن الكريم - وهى وإن كانت من عند الله تعالى، إلا أن هناك فرقًا بين القرآن الكريم وبينهما؛ هو أن القرآن الكريم قد تكفل الله بحفظه فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩]، بينما ترك حفظ الكتابين الآخرين للربانيين والأحبار، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ...**﴾ [المائدة: ٤٤].

* وحفظ الله تعالى للقرآن الكريم يعنى بقاءه على صورته التى نزل بها دون تغيير أو تبديل أو تحريف أو زيادة أو نقص إلى يوم القيامة.

وقد قال ذلك عديد من علماء المسلمين ومنهم:

- قتادة بن دعامة (٦١ - ١١٨هـ/ ٦٨٠ - ٧٣٦م)، - وثابت البُنانى - تابعى من أعبد أهل البصرة توفى سنة ١٢٧هـ قالوا: «حفظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلاً، أو تنقص حقًا، فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظًا، وقال فى غيره - أى غير القرآن - «بما استحفظوا» فوكل حفظه إليهم فبدلوا وغيروا»[1].

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: (١٠/ ٥)، ط دار الكتاب العربى القاهرة، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

- وقال سفيان بن عيينة (١٠٧ - ١٩٨هـ/ ٧٣٥ - ٨١٤م) محدِّث الحرم المكي: «قال الله تعالى في التوراة والإنجيل: «بما استحفظوا من كتاب الله» فجعل حفظهم إليه فضاع، وقال عز وجل في القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فحفظه الله تعالى علينا، فلم يضع».

- وقال الفخر الرازى: «واعلم أنه لم يتفق لشىء من الكتب هذا الحفظ؛ فإنه لا كتاب إلا دخله التصحيف والتحريف والتغيير، إما فى الكثير منه أو فى القليل، وبقاء هذا الكتاب مصونًا عن جميع جهات التحريف - مع أن دواعى الملحدة واليهود والنصارى متوافرة على إبطاله وإفساده - من أعظم المعجزات، وأيضًا أخبر الله تعالى عن بقائه محفوظًا من التغيير والتحريف، وانقضى الآن - أى على زمن الرازى - ستمائة سنة، فكان هذا إخبارًا عن الغيب، فكان ذلك أيضًا معجزًا قاهرًا»[1].

* ونقول بعد الرازى بأكثر من ثمانية قرون: إن دواعى الملحدة واليهود والنصارى، متوافرة متحفزة على إبطاله وإفساده، وإن ذلك لهو شأنهم فى أيامنا هذه، وإنهم لعاجزون عن تحقيق أهدافهم فى تحريف القرآن الكريم؛ فضلاً عن الحذف منه أو الإضافة إليه، وإن عجزهم هذا لمما يؤكد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن، ويقدم أقوى الأدلة القاطعة على أن ما تكفل الله تعالى بحفظه لا يمكن أن يعبث به عابث.

* وعلماء الأديان جميعًا يتفقون على أن الأخلاق التى جاءت بها الأديان هى من عند الله تعالى، ومن صميم القيم الدينية.

ولنوضح ذلك فى الصفحات التالية:

أ- النفس والخلق عند اليهود:

* وردت كلمة النفس فى التوراة، التى بين أيديهم وأيدينا، المسماة بالعهد القديم بمعنيين:

الأول: يعنى كل نفس حية.

وشواهد ذلك من التوراة:

- «وقال الله: لتَغِض المياه زحَّافات ذاتَ نَفْس حَيَّة، وليطرْ طير فوق الأرض على وجه جَلَد السماء، فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية...»[2].

---

(١) فخر الدين الرازى: مفاتيح الغيب: ١٩/ ١٢٨ ط دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

(٢) العهد القديم: سفر التكوين: الإصحاح الأول: فقرتا: ٢٠، ٢١ ط القاهرة: ١٩٦٢م.

- «وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعَا بِهِ آدمُ ذات نفس حية فهو اسمها، فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء، وجميع حيوانات البرية»[1].

- «وكلم الله نوحًا وبنيه معه قائلاً: وها أنا مقيم ميثاقى معكم ومع نسلكم من بعدكم، ومع كل الأنفس الحيّة التى معكم، الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التى معكم من جميع الخارجين من الفُلك حتى كل حيوان الأرض»[2].

ففى هذه الشواهد استعملت كلمة النفس بمعنى النفس الحية.

والمعنى الثانى هو: أن النفس وردت فى التوراة بمعنى ذات الإنسان.

وشواهد ذلك ما يلى:

- «فقال الله لنوح: نهاية كل بشر قد أتت أمامى؛ لأن الأرض امتلأت ظلمًا منهم، فها أنا مهلكهم مع الأرض، اصنع لنفسك فُلكًا من خشب جفر، تجعل الفلك مساكن وتطليه من داخل ومن خارج بالقار، وهكذا تصنعه...»[3].

- «وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل، واجمعه عندك فيكون لك ولهم طعامًا، ففعل نوح كل ما أمره به الله، هكذا فعل»[4].

ففى هذين الشاهدين استعملت كلمة النفس بمعنى الإنسان ذاته.

* والأخلاق عند اليهود هى التى جاءت بها التوراة التى بين أيديهم، ومما جاء فى التوراة من هذه القيم الخلقية، نستشهد عليه بكلمات التوراة التالية:

- «أكرم أباك وأمّك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك، لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشتهِ بيت قريبك، لا تشتهِ امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره، ولا شيئًا مما لقريبك»[5].

---

(١) العهد القديم: الإصحاح الثانى: الفقرتان: ١٩، ٢٠.
(٢) السابق: الإصحاح الثامن: الفقرتان: ١٦، ١٧.
(٣) السابق: الإصحاح السادس: الفقرتان: ١٣، ١٤.
(٤) السابق: الإصحاح السادس: الفقرتان: ٢١، ٢٢.
(٥) السابق: سفر الخروج: الإصحاح العشرون: الفقرات من: ١٣ - ١٨.

- «ولا تضطهد الغريب ولا تضايقه؛ لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر، لا تُسِئْ إلى أرملة مَّا ولا يتيم، إن أسأتَ إليه، فإنى إن صَرَخَ إلىّ أسمع صُراخه فَيَحْمى غضبى وأقتلكم بالسيف فتصير نساؤكم أرامل وأولادكم يتامى.

إن أقرضت فضة لشعبى الفقير الذى عندك فلا تكن معه كالمرابى، لا تضعوا عليه رِبًا»(١).

- «لا تقبل خبرًا كاذبًا، ولا تضع يدك مع المنافق لتكون شاهد ظلم، لا تَتْبَع الكثيرين إلى فعل الشر، ولا تجب فى دَعْوَى مائلاً وراء الكثيرين للتحريف، ولا تحابِ مع المسكين فى دعواه.

إذا صادفت ثورَ عدوك أو حماره شاردًا ترده إليه. إذا رأيت حمار مبغضك واقعًا تحت حِمْله وعَدَلْتَ عن حَلِّه فلابد أن تَحُل معه.

لا تَحرِّف حق فقيرك فى دعواه.

ابتعد عن كلام الكذب، لا تقتل البرى والبارّ: لأنى لا أبرِّر المذنب.

لا تأخذ رشوة لأن الرشوة، تعمى المبصرين، وتعوِّج كلام الأبرار.

ولا تضايق الغريب فإنكم عارفون نفس الغريب، لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر»(٢).

ب- النفس والخُلق عند النصارى:

* وردت النفس فى الأناجيل الأربعة المشهورة(٣)، بمعنيين:

أحدهما بمعنى الروح أو القلب.

والآخر: بمعنى الذات أو الإنسان.

ولكل من هذين المعنيين شواهد فى العهد الجديد، على نحو ما سنبين بإذن الله تعالى.

* النفس بمعنى الروح أو القلب، لها شواهد من الإنجيل نذكر منها:

- وحينئذ ذهب الفريسيون وتشاوروا لكى يصطادوه بكلمة، فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيروديسيين قائلين: يا معلم نعلم إنك صادق وتُعَلِّم طريق الله بالحق، ولا تبالى

(١) السابق: الإصحاح الثانى والعشرون: الفقرات من ٢١ - ٢٣.
(٢) السابق: الإصحاح الثالث والعشرون: الفقرات من: ١- ٩.
(٣) هى أناجيل منسوبة إلى متَّى ويوحنا ولوقا ومرقس، وهناك إنجيل تحاربه الكنيسة هو إنجيل برنابا.

بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس، فقل لنا ماذا تظن، أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا، فعلم يسوع خبثهم وقال: لماذا تُجَربوننى يا مراءون، أرونى معاملة الجزية، فقدموا له ديناراً، فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا له: لقيصر، فقال لهم: أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا. . . .».

«أما الفريسيون فلما سمعوا أنه أَبْكمَ الصدوقيين اجتمعوا معًا، وسأله واحد منهم وهو ناموسى ليجَرّبه قائلاً: يا معلم أية وصية هى العظمى فى الناموس، فقال له يسوع: تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك ومن كل فكرك، هذه هى الوصية الأولى والعظمى، والثانية مثلها: تحب قريبك كنفسك، بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء»[٢].

فالنفس هنا بمعنى الروح.

* ووردت النفس بمعنى الذات أو الإنسان نفسه، وشواهد ذلك ما يلى:

- «ولا تُدعوا معلمين، لأن معلمكم واحد المسيح، وأكبركم يكون خادمًا لكم، فمن يرفع نفسه يتضع،ومن يضع نفسه يرتفع»[٣].

- «وكان الفريسيون أيضًا يسمعون هذا كله وهم محبون للمال فاستهزأوا به،فقال لهم: أنتم الذين تبررون أنفسكم قُدّام الناس، ولكن الله يعرف قلوبكم، إن المستعلى عند الناس هو رجس قُدَّام الله»[٤].

فالنفس فى هذه الفقرات من العهد الجديد من هذه الأناجيل تعنى ذات الإنسان.

* أما الأخلاق عند النصارى فهى القيم الخلقية التى وردت فى العهد - أى أناجيله الأربعة-.

وهذه الأخلاق هى من عند الله مادامت واردة فى الإنجيل وهى فى جملتها أخلاق فاضلة محمودة تدعو إلى العزوف عن الدنيا، وإلى الوداعة والسلام وحب الناس والشفقة عليهم ومعاونة الضعفاء والفقراء.

---

(١) العهد الجديد: إنجيل متى: الإصحاح الثانى والعشرون: الفقرات من: ١٥ - ٢٢.
(٢) السابق: إنجيل متى: الإصحاح الثانى والعشرون: الفقرات من: ٣٤ - ٤٠.
(٣) السابق: إنجيل متى: الإصحاح الثالث والعشرون: الفقرات من: ١٠ - ١٢.
(٤) السابق: إنجيل لوقا: الإصحاح الساس عشر: الفقرتان: ١٥ - ١٦.

ونقل من الإصحاح الخامس مـن إنجيل مَتَّى ما يؤكد هذه القيم، ونستـعرض الإصحاح السادس من هذا الإنجيل لأن معظمه قيم خلقية رفيعة.

* ومن ذلك الذى ورد فى الإصحاح الخامس من إنجيل مَتَّى:

- «ولما رأى الجموع صـعد إلى الجبل، فلما جلس تقـدم إليه تلاميذه ففـتح فاه وعلمهم قائلاً: طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم مـلكوت السموات ، طوبى للحزانى لأنهم يتعـزون، طوبى للودعاء؛ لأنهم يرثون الأرض، طـوبى للجياع والعطـاش إلى البر، لأنهم يشبعون، طوبى للرحماء؛ لأنهم يُرحمون، طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله، طوبى لصـانعى السـلام، لأنهم أبناء الله يدعـون، طوبى لـلمطرودين من أجل البرِّ، لأن لهم ملكوت السموات، طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شـريرة من أجلى كاذبين، افرحـوا وتهلَّلوا؛ لأن أجركم عظيم فى السـموات، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم»[1].

- «سمـعتم أنه قيل عَيْن بعين وسِـنّ بسِنّ، وأما أنا فأقـول لكم: أحبوا أعـداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم..»[2].

* وأما الإصحاح السادس من إنجيل متى فعـدد فقراته أربع وثلاثون اشتملت كلها على قيم خلقية فاضلة، وكذلك جاء الإصحاح السابع الذى اشتمل على ثمان وعشرين فقرة، كل منها قيمة خلقية رفيعة.

فالأخلاق عند النصارى قـيم خلقية جاء بها الإنجيل، ونصح بها المسـيح عيسى ابن مريم تلاميذه وغيرهم من الناس.

جـ- النفس والخلق عند المسلمين:

* النفس عند المسلمين هى النفس التى تحـدث عنها القرآن الكريم والسنة النبوية الـشريفة، والنفس فى الإسلام هى صلب هذا الكتاب وموضوعه والمحور الذى يدور حوله.

وقد أشرنا إلى ذلك فى مدخـل الكتاب ونحن نتحدث عن مفهوم النـفس، وما يرادفها فى اللغة وفى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة، وفى تراث المسلمين، وسوف يكون ذلك موضوع هذا الكتاب بالتفصيل الذى تشتمل عليه أبواب الكتاب وفصوله بإذن الله تعالى.

---

(١) السابق: إنجيل متى: الإصحاح الخامس: الفقرات من: ١ - ١٢.
(٢) السابق: إنجيل متى: الإصحاح الخامس: الفقرتان: ٤٣، ٤٤.

* أما الأخلاق عند المسلمين، فهى الأخلاق كما جاء بها الإسلام فى القرآن والسنة النبوية المطهرة، مما سنفصله فى النقطة الثالثة من هذا الفصل من الباب الأول بإذن الله تعالى وهى:

٣- النفس والخلق فى الإسلام

نظر الإسلام للنفس أو الروح على أنها نعمة من الله تعالى، ونفخة منه سبحانه، وتشريف للإنسان الذى وهبه الله هذه النفس.

النفس أو الروح هى أشرف ما فى الإنسان وأهم ما فيه إذ بها تكون الحياة وبمغادرتها للجسد يكون الموت، وبأعمالها يكون الحساب أمام الله تعالى ويعقبه الثواب أو العقاب.

* والإسلام يتعامل مع النفس بل يحكم التعامل معها فى مجالات عديدة، وله معها فى كل مجال موقف ثابت مستمر، يوجهها ويوصيها ويرغبها وينذرها، ومن هذه المجالات:

- مجال التكليف.
- ومجال العمل والمسئولية.
- ومجال التربية والتزكية.

وكل ذلك سوف نتحدث عنه بالتفصيل فى الفصل الأول من الباب الثانى من هذا الكتاب، إذا أذن الله تعالى، غير أننا نكتفى هنا بالإشارة إلى أنواع النفس بإيجاز، إلى أن نفصل ذلك فيما بعد، فنقول:

أ- أنواع النفس فى الإسلام:

تتنوع النفس فى الإسلام - أى فى الكتاب والسنة - إلى أنواع يتبعها تنوع الإنسان نفسه.

* ومن هذه الأنواع:

- النفس المؤمنة أو اللوامة أو المطمئنة، أو السابقة بالخيرات.
- والنفس المنافقة أو الخادعة.
- والنفس الكافرة أو المشركة.
- والنفس الظالمة أو الأمارة بالسوء.

- والنفس الضالة المضلة، التى يغلبها شيطانها وهواها.

- والنفس التى يبيعها صاحبه إبتغاء مرضاة الله تعالى.

- والنفس التى يسعى صاحبها فى الأرض فساداً.

وكل من هذه الأنواع وردت فيه آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة؛ سوف نذكرها فى الفصل الأول من الباب الثانى من هذا الكتاب.

ولنتحدث الآن عن الأخلاق وأنواعها فى الإسلام.

ب- أنواع الخلق فى الإسلام:

الخلق هو الطبع أو السَّجية أو النظام من السمات أو الخصائص العقلية أو السلوكية التى تميز إنسانًا عن آخر.

وهذه السمات الخلقية هى التى تؤلف الهيكل النفسى للإنسان، ويتيح له أن يسلك سلوكًا يتفق مع ذاته.

* وقد أتمّ الإسلام الأخلاق وأكملها، وجعلها تجمع من القيم ما إنْ تمسك الإنسان بها، فإنه يغنم سعادة الدنيا والآخرة، وذلك أن الله تعالى أودع فى جميع مخلوقاته -وفي مقدمتها الإنسان- كل الصفات والخصائص التى تمكنه - دون عَنَت أو مَشَقّة - من أداء وظيفته فى حياته الدنيا.

ولقد أنعم الله تعالى على الإنسان نِعمًا لا تحصى، ومن رحمته بالإنسان أن جعل تمتعه بنعم الله تعالى عليه على النحو الذى شرعه الله تعالى، يحقق له سعادة الدنيا بهذه النعم، وسعادة الآخرة بطاعة الله ورسوله ﷺ.

هذا عن الأخلاق الشخصية للإنسان.

أما الأخلاق الاجتماعية التى شرعها الإسلام للمجتمع، فإنها عند التمسك بها تجعل الحياة الاجتماعية للناس خيرًا وبرًا ومرحمة، لأن الإسلام - الكتاب والسنَّة - أحاطها بسياج محكم رفيع القدر من القيم الاجتماعية الثابتة المستمرة.

- كما نفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

- وكما يوضحه قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٣ - ١٠٥].

إلى غير ذلك من الأخلاق الاجتماعية التى تحدثت عنها آيات قرآنية عديدة.

وأما الأحاديث النبوية التى تحدثت عن الأخلاق فهى كثيرة، نذكر منها:

- ما رواه أحمد بسنده عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، يأخذ القاصية والناحية والشاردة، وإياكم والشعاب، وعليكم بالعامة والجماعة والمسجد»**.

- وما رواه الطبرانى - فى الأوسط - بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ أحبكم إلىّ الذين يألفون ويؤلفون، وإنّ أبغضكم المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة»**.

إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية الشريفة التى تدعم الأخلاق الإسلامية فى مجال المجتمع، وتعزز الاختلاط بالناس والتعاون معهم على البر والتقوى.

* أما أنواع الخلق فى الإسلام فكثيرة، لكنها تنضوى جميعًا تحت قسمين ونوعين كبيرين هما:

- الفضائل، وهى أساس لكل ما هو كمال إنسانى.

- والرذائل، وهى أساس لكل ما هو نقص وعيب فى الإنسان.

*** النوع الأول: الفضائل الخُلقية:**

وهى الصفات وأنواع السلوك التى حبب الإسلام فى التّحلّى بها، وقد دلت عليها آيات قرآنية عديدة منها:

- قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

- قوله جل وعلا: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال فخر الدين الرازي - في تفسير هذه الآية -: «أذا أحاط عقلك بهذا التقسيم، علمت أن هذه الآية مشتملة على مكارم الأخلاق فيما يتعلق بمعاملة الإنسان مع الغير»(١).

- وقوله عز وجل: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥) وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٢٢-٣٩].

كما دلت على تلك الفضائل الأخلاقية أحاديث نبوية عديدة، نذكر منها:

- ما رواه البزار بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وإن حُسْنَ الخلق ليبلغ درجة الصوم والصلاة»**.

---

(١) فخر الدين الرازي: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ١٥/ ٧٨ ط دار الكتب العلمية بيروت: ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

- وما رواه الطبرانى - فى الأوسط -بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله جميل يحب الجمال، ويحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها**».

- ومـا رواه الترمـذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم**».

- وما رواه أحمد بـسنده عن عقبة بن عامر رضى الله عنه، قـال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخـذت بيده، فقلت: يا رسول الله، أخبرنى بفواضل الأعـمال، فقال: «**يا عقبة صِلْ من قطعك، وأعْط من حرمك، وأعرض عمَّن ظلمك**».

- وما رواه الطبرانى - فى الكبير - بسنده عن أبى إمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اكفلوا لى بستّ أكفل لكم بالجنة، إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا اؤتمن فلا يخن، وإذا وعد فلا يخلف، وغُضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم**».

* وتتميز الأخلاق فى الإسلام بأن الرسول ﷺ أثنى على صالحها وحسنها، وأعلن أنه جاء بوحى من الله تعالى يتمم به أو يكمل صالح الأخلاق أو حسن الأخلاق.

- روى ابن سعـد - فى الطبـقات - والبخـارى - فى الأدب المفرد - والحـاكم - فى المستَدْرك - والبيهقى - فـى الشعب - بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما بُعثْتُ لأتمم صالح الأخلاق**».

- وجاء - فى الموطأ - للإمـام مالك : قال يحـيى بن يحيى حدثنى مـالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال: «**بُعثتُ لأتمم حسن الأخلاق**»[1].

* وصالح الأخلاق أو حسن الأخلاق الذى بعث رسـول الله ﷺ ليتممه أو يكمله هو كل سلوك أو خلق يؤدى التمسك بـه إلي تحقيق ما فيه صـلاح الناس فى دينهم أو دنياهم، أفرادًا وأسرًا وجماعات،ومجتمعًا وحاكمًا وحكومة، بل الأمة الإسلامية كلها.

بل إن جميع أمم الأرض لو تمسكت بصالح الأخلاق لكان فى ذلك صلاحها.

* وصـالح الأخـلاق الذى كان مـعـروفـًا للناس عندمـا بُعث النبى الخـاتم ﷺ، لم يكن مستوعبًا لكل صلاح، ولا كـافيًا لنقل الناس من الضلال إلى الهدى، ولا هو كاف لأن ينعم الناس فى ظله بالأمن والطمأنينة والعدل والرحمـة؛ لذلك جاء الخاتم ﷺ ليتمم أو

(١) بوَّب الإمام مالك فى كتابه: الموطأ: كتاب «حُسْن الخلق» جمع فيه ثمانية» عشر حديثًا.

يكمل فوصل فيما جاء به إلى تحقيق ما طالبت الآية الكريمة: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وترجم رسول الله ﷺ معناها في حديثه مع عقبة بن عامر عندما قال له: **«صِلْ مَنْ قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك»**.

* ولابد أن تكون رسالات الرسل جميعًا عليهم السلام هي تتميم ما كان معروفًا قبلهم من صالح الأخلاق؛ فكل منهم عليهم السلام قد بنى جزءًا من صالح الأخلاق، ثم جاء الذي بعده ليتمم ويكمل، فلما بعث الله خاتم الأنبياء كان عليه أن يتمم أو يكمل صالح الأخلاق، ففعل، فاكتمل بذلك بناء الحضارة الإنسانية، لكي تعيش البشرية كلها أمنًا وسلامًا، وهذا هو الذي حدث فعلاً؛ فقد روى البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ مَثَلي ومَثَل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون ويعجبون ويقولون: هلاّ وضعتْ هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»**؛ فالذي جاء به النبي ﷺ من عند الله من منهج ونظام هو اللبنة المكملة للحضرة الإنسانية، وهو التَّتميم لصالح الأخلاق أي لما يصلح للناس دينهم ودنياهم.

- روى الحاكم - في مستدركه - بسنده عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اللهم اغفر لي ذنوبي وخطاياي كلها، اللهم أنعشني واجبرني، واهدني لصالح الأعمال والأخلاق؛ فإنه لا يهدي لصالحها ولا يصرف سيئها إلا أنت»**.

ذلك دعاء خاتم الأنبياء والمرسلين الذي غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر، والذي وصفه ربه سبحانه وتعالى بأنه على خلق عظيم، دعاؤه أن يهديه الله لصالح الأخلاق والأعمال، فما بال صحابته رضوان الله عليهم؟ وما بال أهل القرون الثلاثة الأولى خير القرون؟ وما بال سائر المسلمين في عصور المسلمين المزدهرة؟ ثم ما بالنا نحن اليوم؟

اللهم اهدنا لصالح الأعمال والأخلاق فإنه لا يهدي لصالحها ولا يصرف سيئها إلا أنت.

* وبعد: فلن أستطيع أن أذكر كل الأحاديث النبوية التي أثنت على صالح الأخلاق وحسنها، ولكنني أذكر منها ما يتسع له موضوع هذا الكتاب.

- روى أبو داود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»**.

- وروى البخارى بسنده - فى تاريخه - عن عمير الليثى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الإيمان، الصبر والسماحة**».

- وذكر السيوطى - فى الجامع الصغير - عن البيهقى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مكارم الأخلاق عشرة تكون فى الرجل ولا تكون فى ابنه، وتكون فى الابن ولا تكون فى الأب، وتكون فى العبد ولا تكون فى سيده، يقسمها الله لمن أراد به السعادة:**

صدق الحديث،

وصدق البأس،

وإعطاء السائل،

والمكافأة بالصنائع،

وحفظ الأمانة،

وصلة الرحم،

والتذمم للجار،

والتذمم للصاحب،

وإقراء الضيف،

ورأسهنَّ الحياء».

ورواه الحكيم الترمذى بسنده عن عائشة رضى الله عنها[1].

- وروى الطبرانى - فى الكبير - بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل المسلمين إسلامًا مَنْ سَلِم المسلمون من لسانه ويده، وأفضل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا، وأفضل المهاجرين مَن هجر ما نهى الله عنه، وأفضل الجهاد من جاهد نفسه فى ذات الله عز وجل**».

- وروى أحمد بسنده عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن مألَفَة، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف**».

- وروى ابن ماجة بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس اتقوا الله وأجملوا فى الطلب، فإن نفسًا لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب، خذوا ما حَلَّ، ودعوا ما حُرِّم**».

(١) قال بعض العلماء عن هذا الحديث: إنه ضعيف.

- وروى البخارى بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله عبدًا سَمْحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى».

- وروى مسلم بسنده عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ادعوا الناس، وبشروا ولا تنفروا، ويَسروا ولا تُعسروا».

- وروى البزَّار بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَبْع يجرى للعبد أجرُهن وهو فى قبره بعد موته:

من عَلَّم علمًا،

أو أجْرَى نهرًا،

أو حفر بئرًا،

أو غرس نخلاً،

أو بنى مسجدًا،

أو ورَّث مصحفًا،

أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته».

- وروى أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره».

وبعد فهذه عشرة أحاديث نبوية فى فضائل الأخلاق أو صالحها أو حسنها، من مئات الأحاديث النبوية الشريفة، تؤكد أن القيم الخلقية فى الإسلام هى اللبنات التى يقوم عليها بناء العلاقات الاجتماعية الناجحة بين الناس.

غير أن هذه الفضائل الخلقية التى يجب أن يتحلى بها المسلمون يجب أن يسبقها تَخَلِّى المسلمين عن الرذائل الأخلاقية، تلك التى نتحدث عنها فيما يلى:

*** النوع الثانى: الرذائل الخلقية:**

وهذه الرذائل هى الصفات وأنواع السلوك التى نهى عنها الإسلام وحرّم الاتصاف بها.

وقد دلَّت على تحريم هذه الأنواع من السلوك آيات قرآنية وأحاديث نبوية، نذكر منها ما نستشهد به، والله الموفق.

* آيات القرآن الكريم التى نهت عن الاتصاف بالرذائل كثيرة، نذكر منها:

- قول الله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

- وقوله عز وجل: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

- وقوله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

- وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

- وقوله: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

- وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

- وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١- ٣].

- وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

إلى غير ذلك من عشرات الآيات القرآنية التى نهت عن الرذائل الأخلاقية مثل: الكذب، وسوء الظن، والغش، والجبن، والحسد، والغضب، والبهتان، والخيانة، والبغاء، واللواط، والمسافحة، وما لا أحصى فى هذه السطور من الرذائل التى حرمها الإسلام، وتوعد بالعقاب عليها.

* والأحاديث النبوية التى نهت عن هذه الرذائل كثيرة تزيد على المئات، نذكر منها:

- ما روى ابن ماجة بسنده عن أبى بكر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما فى الجنة، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما فى النار، وسلوا الله اليقين والمعافاة، فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيرًا من المعافاة، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم الله»**.

- وما روى البَغَوى(١) - فى مسنده بسنده - عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا سبَّك رجل بما يعلم منك فلا تسبه بما تعلم منه؛ فيكون أجر ذلك لك، ووباله عليه»**.

- وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمَرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه فى السماء؛ يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذى بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟»**.

- وروى النسائى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أربعة يبغضهم الله تعالى: البيَّاع الحلاَّف، والفقير المختال، والشيخ الزانى، والإمام الجائر»**.

- وروى النسائى بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إياكم والغُلوَّ فى الدين؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين»**.

- وروى الطبرانى - فى الكبير - بسنده عن عابس الغفارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بادروا بالأعمال ستًا؛ إمارة السفهاء، وكثرة الشرط، وبيع الحكم، واستخفافًا بالدم، وقطيعة الرحم، ونشئًا يتخذون القرآن مزامير؛ يقدمون أحدهم ليفتيهم وإن كان أقلهم فقهًا»**.

- وروى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«إن للمنافقين علامات يعرفون بها؛ تحيتهم لعنة، وطعامهم نهبة، وغنيمتهم غُلول، ولا يقربون المساجد إلا**

(١) البغوى هو: أحمد بن منيع بن عبد الرحمن البغوى أبو جعفر ولد سنة ١٦٠هـ وتوفى سنة ٢٤٤هـ، حافظ ثقة كان يُعد من أقران أحمد بن حنبل فى العلم.
نزل بغداد وعاش فيها فقيرًا، ومات بها، وقد بيع جميع ما يملك - سوى كتبه - بأربعة وعشرين درهمًا.

هجرًا، ولا يأتون الصلاة إلاَّ دبرًا، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون، خُشُبٌ بالليل، صخب بالنهار».

فكل ما ورد فى هذه الأحاديث النبوية الشريفة ومثلها، يذكر بعض الرذائل التى نهى الإسلام عنها، وأوعد مَنْ يتصفون بها.

وبعد: فإن الأخلاق الإسلامية تنبع ثم تتحرك وتفيض من خلال الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره.

والعناصر الصحيحة للإيمان ومعرفتها معرفة صحيحة إنما تكون من خلال مصدريها: الكتاب والسنة، هذه العناصر أو الأركان للإيمان هى التى تحدد للإنسان نوع سلوكه واتجاه أخلاقه، وقوة الإيمان ورسوخه فى قلب المؤمن هو الذى يجعل الإنسان ملتزمًا مستجيبًا لما أمر الله بفعله، ولما نهى عنه لا يفعله، وما أمر الله تعالى ولا أمر رسوله الخاتم ﷺ إلا بما يصلح للإنسان دينه ودنياه.

وما من شىء نهى الله تعالى عنه أو نهى عنه رسوله الخاتم ﷺ إلا كان فى فعله خسران للإنسان في دنياه وآخرته.

* وجملة ما أمر الله ورسوله به، أو ما نهيا عنه عند الالتزام بعد الاستجابة لا يوجد فى أى منها مشقة أو عُسْر، بل إن هذه الأخلاق الإسلامية ميسَّرة ومحققة للإنسان مصالح دينه ودنياه.

كما تتميز القيم الخلقية الإسلامية بأنها ثابتة مستمرة فى حياة الإنسان، لا يستطيع أن يتجاهل شيئًا منها إلاَّ وهو عاصٍ لله ولرسوله.

كما تتميز القيم الخلقية الإسلامية بأن مصادرها مقدسة غير قابلة للتغيير ولا التبديل مهما تغير الزمان والمكان، لأنها مستمرة باستمرار مصادرها التى تكفل الله تعالى بحفظها وهى: الكتاب الكريم، وأحاديث النبى ﷺ، وسيرته العملية فى حياته. والالتزام بهذه المصادر واجب كل مسلم، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقال الرسول ﷺ، فيما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم».

* وأخلاق النبى ﷺ سهلة وميسَّرة وليس فيها ما يشق على أحد عندما يأخذ بها، والالتزام بها والاقتداء به ﷺ واجب أوجبه الله تعـالى فى آية سورة الحشر التى ذكرنا، وفى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

* ولقد تكفل بحفظ سيرة النبى ﷺ وأحاديثـه إذ تكفل بحفظ القرآن الكريم ولم يستحفظ عليه أحدًا من الناس، وأحاديث النبى ﷺ وسيرته هى الإسـلام فى تفصيله وتفسيره أى هى كالقرآن الكريم فى قداستها ومصداقيتها وتعبيرها عما أمر الله تعالى به أو نهى عنه.

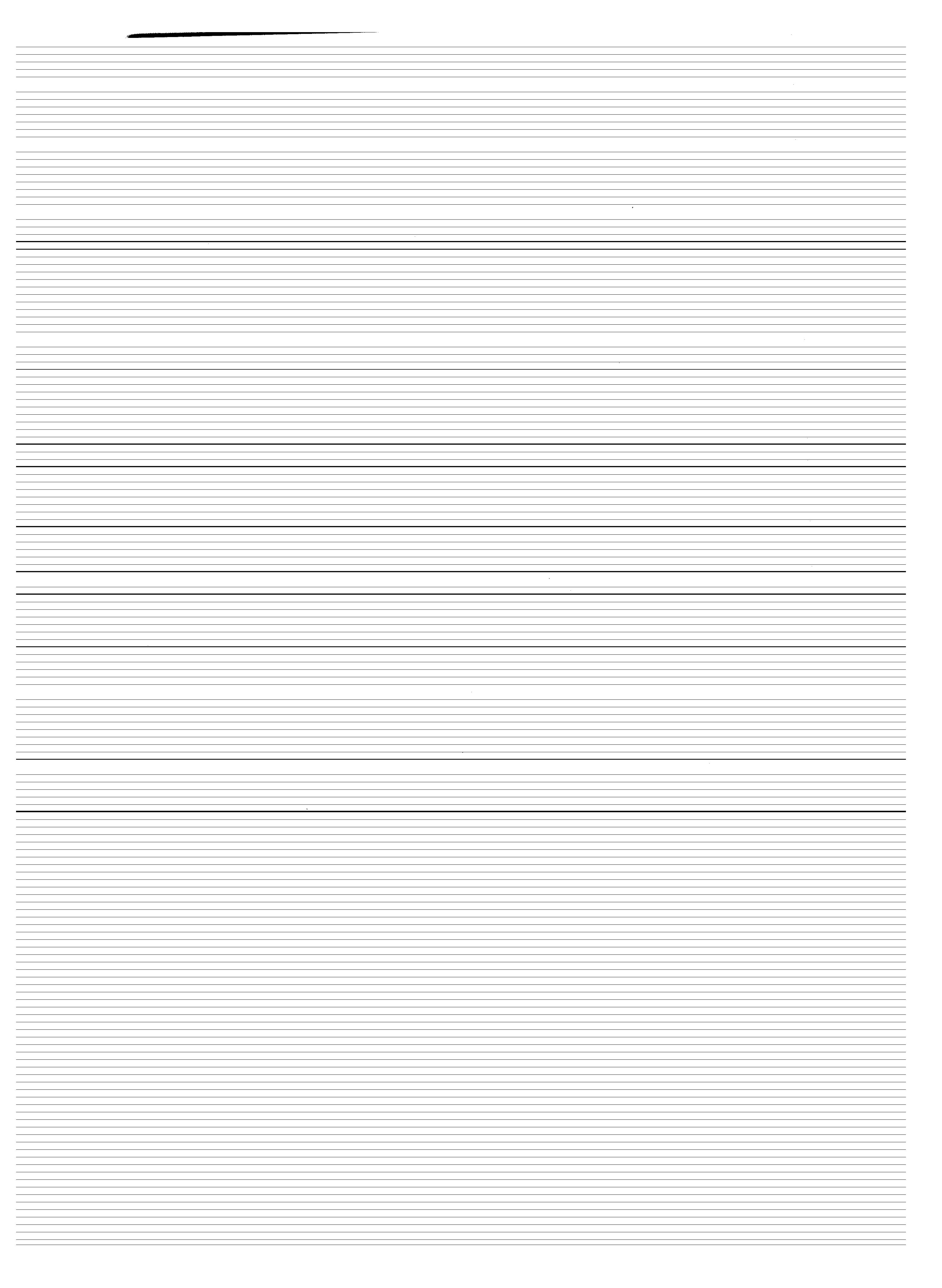
ولقد كفانا أسلافنا -رحمهم الله- مشقـة البحث والتنقيب عن مفردات سيرة النبى الخاتم ﷺ وتفصيل أخلاقه، فألـفوا فى ذلك كتبًا مستقلة تجعل التعـرف بأخلاقه ﷺ ميسورة، يجمعها كتاب(١).

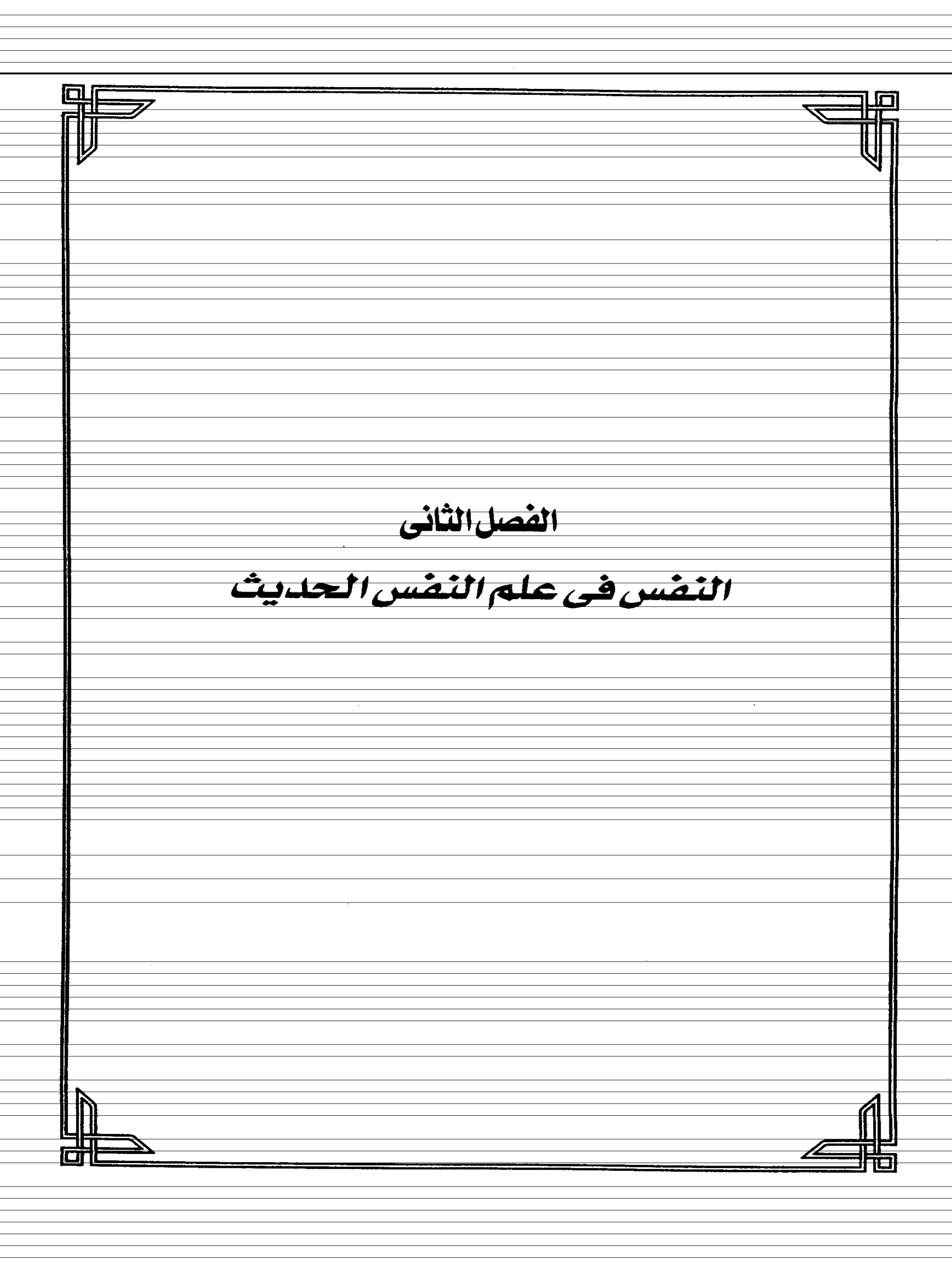
وبعـد: فلعلى بذلك قد أوضـحت نوعى الخلق فى الإسلام: الفـضائل والرذائـل، وما التوفيق إلا من عند الله.

وإلى الحديث عن الفصل الثانى من هذا الباب، ونسأل الله تعالى العون والتسديد.

****

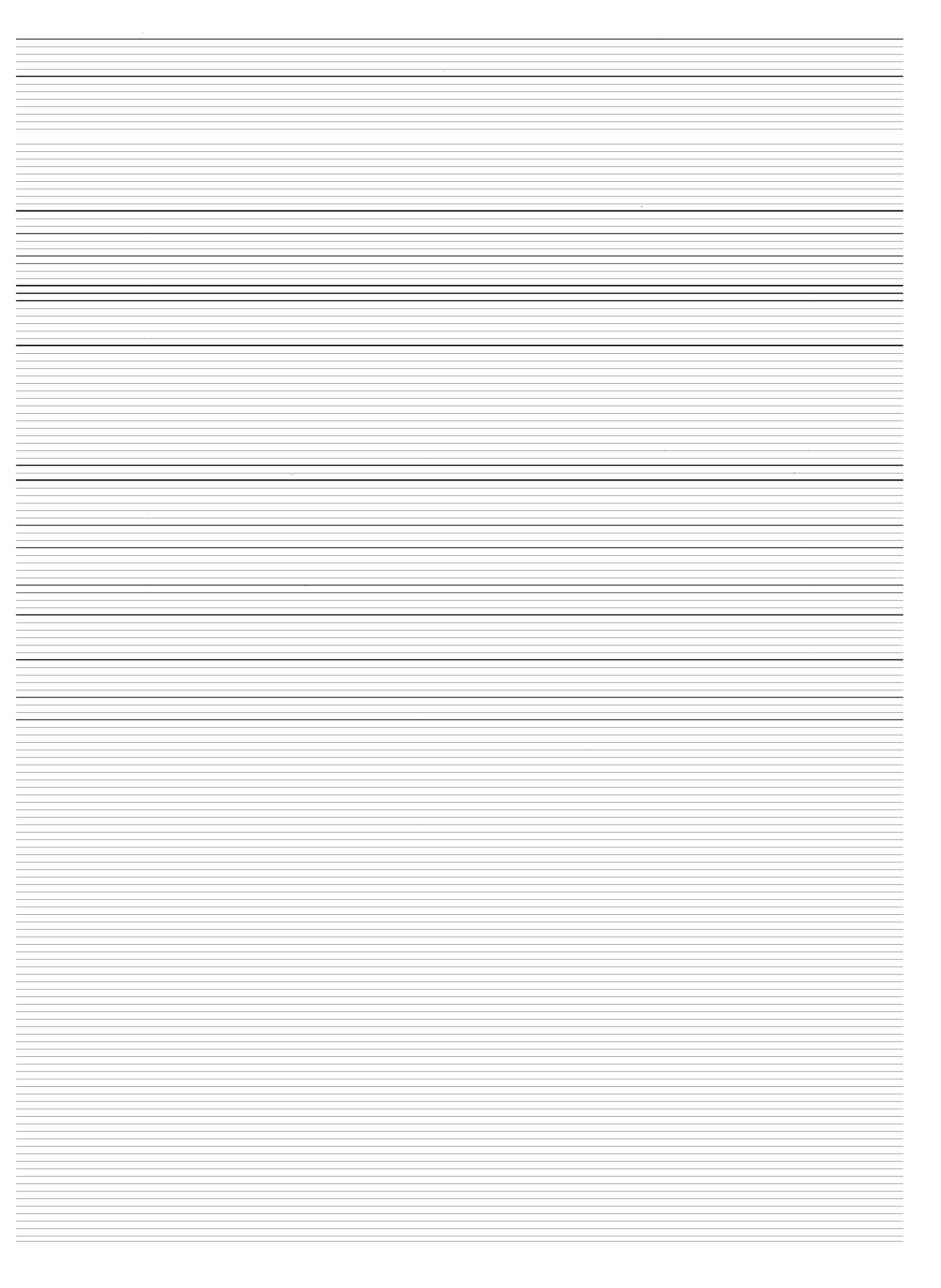
(١) من تلك الكتب الجامعة لأخلاق النبى ﷺ:
أ- أخلاق النبى ﷺ لأبي بكر محمد بن عبد الله الوراق المتوفى سنة ٢٤٩هـ.
ب- أخلاق النبى ﷺ للحافظ أبى حاتم البستى المتوفى سنة ٣٥٤هـ.
جـ- عمل اليوم والليلة لأبى بكر محمد بن إسحق البستى بن السنى المتوفى سنة ٣٦٤هـ.
د- أخلاق النبى ﷺ للحافظ أبي محمد الأصبهانى بابن أبى الشيخ، المتوفى سنة ٣٦٩هـ.
و- الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤هـ.





الفصل الثانى

النفس فى علم النفس الحديث



نتحدث فى هذا الفصل بكلمات موجزة عن عدد من النقاط هى:

- نشأة علم النفس الحديث وموضوع دراسته.
- وصلة علم النفس الحديث بالعلوم الأخرى.
- وفروع علم النفس الحديث.
- وعلم النفس الاجتماعى؛ تاريخه ومجالات دراسته.
- ومدرسة التحليل النفسى وما كشفت عنه من ظواهر، وما قامت عليه من دعائم، ومفاهيم، مع الإشارة إلى بعض من اعترضوا على هذه المدرسة.
- وموضوع علم النفس ومظاهر الصحة النفسية لأعراض المرض النفسى ومناهج علم النفس.

١- نشأة علم النفس وصلته بالعلوم، وفروعه:

* أما نشأة علم النفس الحديث، فقد كانت حديثة نسبيّاً فى تاريخ العلوم، إذ كانت فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، أما ما سبق ذلك التاريخ كمحاولات:

- ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠م).
- وتوماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩م).
- وتوماس ريد (١٧١٠ - ١٧٩٦م).
- ودى تراس (١٧٥٤ - ١٨٣٦م).

وغيرهم فإن علم النفس الحديث لم تتضح معالمه على أيديهم كما اتضحت على يد:

«فلهلم فونت» (١٨٣٢م - ١٩٢٠م) الذى أرسى دعائم علم النفس الحديث، وكان له فى موضوعاته الكتب والمقالات والمحاضرات، حتى بلغ ما كتبه فى علم النفس حوالى ٥٣٧٣٥ صفحة فى أربعمائة وواحد وتسعين عنوانًا.

- ثم «وليم جيمس» (١٨٤٢ - ١٩١٠م) الذى يعد رائد علم النفس الحديث فى أمريكا.

* وأما موضوع دراسة علم النفس الحديث فهـو النفس الإنسانية، وهى تسلك سلوكًا معينًا ذهنيًا كـان هذا السلوك أو حركيًا، ويسـميه بعض العلماء: علم السلوك بمظهـريه الحركى والذهنى.

والسلوك هو مجموع ما تقوم به النفس من أنواع النشاط المادى أو الرمزى، متأثرة فى ذلك بالمواقف أو المجالات التى يتضمنها هذا السلوك.

* وهذا السلوك الذى تسلكه النفـس يُخَفِّض توترات الإنسـان التى تهدد حـياته إذا زادت، ويعد هذا الخفض أو التخفيض من المكاسب؛ لأن التوتر مـضاد لصحة الإنسان النفسية، كما أن هذا السلوك يدفع الإنسان إلي الحركة والـنشاط، وهذا من شأنه أن يحدث تكيفًا بين الإنسان وما يحيط به من ظروف وأحـداث وناس، وهو بدوره يخفف التوتر النفسى إن لم يُزِلْه إزالة كاملة.

وأنواع هذا السلوك كثيرة، ومجـالاته عديدة، وهذه الأنواع وتلك المجالات هى موضوع دراسات علم النفس الحديث.

أ- صلة علم النفس الحديث بالعلوم الأخرى:

* وأما صلة علم النفس الحـديث بالعلوم الأخرى، فهى وثيـقة بالعلوم الطبيعـية، وبعلوم الحياة، وبالعلوم الاجتماعية على وجه خاص.

وعلى الرغم من هذه الصلة الوثيـقة بهذه العلوم، فـإن علم النفس يحتـفظ دائمًا بكونه علمًا مستقلاً بذاته، منفردًا بموضوعاته، متميزًا بمناهجه التى تلائم موضوعاته.

وإذا كان علم النفس له صلة وثيقة بهذه الـعلوم، فإن هذه العلوم بحاجة إليه، لأن علوم الحياة «البـيولجى»، وعلوم الاجتمـاع «السيسولجى» تظل دائمًا بحـاجة إلى علم النفس؛ لأنها تحتاج دائمًا إلى صـياغة ما تقول من خلال المفاهيم الخاصـة بعلم النفس، خضوعًا للمنهج المتكامل الذى تقتضيه طبيعة هذه العلوم الإنسانية.

ب- فروع علم النفس الحديث:

* وفروع علم النفس الحديث كـثيرة متشعـبة، تزداد تفرعًا كلما ازداد البحث فـيه وتعمق، وهو دائمًا فى ازدياد.

ومن هذه الفروع:

- علم نفس الطفولة بأنواعها،
- وعلم نفس المراهقة،
- وعلم نفس الراشدين والكبار،
- وعلم النفس التربوى والتعليمى،
- وعلم النفس الخاص بوظائف الأعضاء فى جسم الإنسان «الفسيولجى»،
- وعلم النفس الطبى،
- وعلم النفس الـمَرَضِى،
- وعلم النفس العام،
- وعلم النفس الجنائى،
- وعلم النفس الصناعى،
- وعلم النفس المهنى،
- وعلم النفس الحربى أو العسكرى،
- وعلم النفس «الفيزيائى» الطبيعى «السيكوفيزيقا»،
- وعلم النفس السياسى،
- وعلم النفس الاقتصادى،
- وعلم النفس الوظيفى،
- وعلم النفس التطبيقى أو التجريبى،
- وعلم النفس العقلى،
- وعلم النفس التأملى،
- وعلم النفس الجمالى،
- وعلم النفس الترفيهى،
- وعلم النفس القضائى،

- وعلم النفس التبصيرى،
- وعلم النفس الغيبى،
- وعلم النفس الهامشى،
- وعلم النفس الخاص بالشواذ،
- وعلم النفس الاجتماعى،
- وعلم النفس التحليلى و«الإكلينيكى» أو السريرى،
- وعلم النفس الارتباطى،

وغير ذلك من الفروع التى يمكن أن تستجد.

٢- علم النفس الاجتماعى:

* وأما علم النفس الاجتماعى فهو أكثر فروع علم النفس اهتمامًا واحتفالاً بدراسة العلاقات الإنسانية الاجتماعية بين فرد وآخر، أو بين فرد وجماعة، أو بين جماعة وجماعة.

- وعلم النفس الاجتماعى يلتقى فيه عدد من فروع العلوم ومن فروع علم النفس؛ كعلم النفس التجريبى، وعلم النفس التربوى،وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وعلم طبائع البشر و«الانثروبولوجيا»، وعلم الطب العقلى، وعلم السلالات البشرية «الاثنولوجيا».

أ- موضوعات علم النفس الاجتماعى:

- وموضوعات علم النفس الاجتماعى كثيرة يمكن الإشارة إلى مجملها فيما يلى:

* البيئة المحيطة بالإنسان، كالأسرة والمدرسة، والدين، والوضع السياسى والوضع الاقتصادى، وأثر ذلك كله فى نمو الفرد وفى توافقه مع هذه البيئة.

* ودراسة أنماط السلوك الاجتماعى مثل: المشاركة الوجدانية، والتعاون، والمنافسة، والعدوان، والزعامة.

* ودراسة طبيعة الاتجاهات الإنسانية، نشأتها، وتطورها، وتغييرها وطرق قياسها.

* ودراسة وسائل الدعاية، والرأى العام.

* ودراسة حركات التعصب العنصرى فى سلوك الأفراد والجماعات.

* ودراسة العلاقات الدولية، وأثرها فى المجتمع.

ب- تطور علم النفس الاجتماعى:

- وفى تطور علم النفس الاجتماعى نقول: استقرت قواعد علم النفس الاجتماعى بشكل منظم مدروس يكاد يكون متكاملاً فى العشرينيات من القرن العشرين الميلادى فى الولايات المتحدة الأمريكية، وإن كانت قد سبقت ذلك دراسات فى هذا المجال على أيدى فلاسفة وعلماء مثل:

- «هوبز» الإنجليزى (١٥٨٨ - ١٦٧٩م).
- و «روسو» الفرنسى (١٧١٢ - ١٧٧٨م).
- و «كانت» الفرنسى (١٧٢٤- ١٨٠٤م).
- و «داروين» الإنجليزى (١٨٠٩ - ١٨٨٢م).
- و «دوركهايم» الفرنسى (١٨٥٨ - ١٩١٧م).

وكل هؤلاء كانت دراساتهم منصبة على مسائل وقضايا اجتماعية مثل:

- الطبيعة البشرية.
- والقواعد التى تقوم عليها علاقة الإنسان بمجتمعه.
- والتأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع.
- والتأثير المتبادل بين المجتمعات الإنسانية.

وكل هذه الدراسات من صميم علم النفس الاجتماعى، وكل ذلك كان سابقًا لاهتمام علماء أمريكا بعلم النفس الاجتماعى.

* على أن علم النفس الاجتماعى أسهم فيه وفى تأصيله وتطويره طائفتان من العلماء هما:

- علماء السلالات البشرية «الاثنولوجيا».
- وعلماء الطبائع البشرية «الانتروبولوجيا».

كما أسهم فيه بعض أفراد العلماء المشاهير، مثل:

- «جوستاف لوبون» الفرنسى (١٨٤١- ١٩٣١م) فى كتابين شهيرين له هما: «السنن النفسية لتطور الأمم» و «روح الجماعات».

- و «ألفريد بينيه» الفرنسى (١٨٥٧ - ١٩١٢م) صاحب كتاب «علم النفس التجريبى»، والذى شارك فى تأسيس معمل علم النفس فى «السربون»، ثم تولى إدارته سنة ١٨٩٤م.

جـ- مجالات الدراسة فى علم النفس الاجتماعى:

* أما مجالات دراسة علم النفس الاجتماعى فكثيرة:

حيث تنصرف اهتماماته، ومناهجه ودراساته فى مجالات ثلاثة يمثل كل منها تيارًا يتناول عديدًا من البحوث وهى - فى إيجاز-:

- مجال التوجه الثقافى:

يهتم علم النفس الاجتماعى بتوضيح أثر الثقافة فى تكوين السلوك الإنسانى فرديًا أو جماعيًا، وذلك فى مقابل التيار الذى كان يرجع السلوك الإنسانى إلى العوامل الحيوية «البيلوجية»، أو إلى الطبع والموروثات، وبخاصة أولئك الذين قالوا بأن الغريزة هى التى تتحكم فى سلوك الإنسان.

وقد أكدوا جميعًا أن للثقافة تأثيرًا قويًا على سلوك الإنسان وضبط عاداته كلها، ابتداء من الطعام ومرورًا بالكلام والملبس والمسكن، والتعبير عن العواطف، بل ممارسة الجنس، وتربية الأطفال، وكل ما له صلة بحياة الإنسان.

كما قالوا بأن للغة تأثيرًا كبيرًا على التفكير ورؤية الأشياء والناس والوجود كله.

- ومجال المراقبة والاختبار:

وهو مجال يدخل فيه علم النفس الاجتماعى بقوة وفاعلية؛ فمن خلاله تتم عملية مراقبة ما يجرى فى الجماعات من علاقات وتأثير وتأثر لهذه العلاقات بعضها مع بعض، لأن تلك العلاقات لا تعرف أسبابها أو تفهم إلا من خلال التحليل والتعليل وربط الأسباب بالنتائج.

ولابد كذلك من وضع القوانين التى تحكم هذه العلاقات وتتجه بها نحو الإيجابيات، وتزيل عنها السلبيات والمضار، بل يرسم أبعاد هذه العلاقات فى حدودها الدنيا والقصوى بل يضع لها الشروط.

كل ذلك من صميم علم النفس الاجتماعى، ومن واجباته، إذ هو المنوط به مراقبة السلوك الإنسانى ووضع القوانين له، واختباره فى كل حين للتأكد من أنه لم ينحرف عن مساره الذى يجب أن يسير فيه.

- والمجال التطبيقى:

أى تطبيق قواعد علم النفس الاجتماعى وقوانينه للوصول إلى أقصى درجات الاستفادة منها، ولعلم النفس الاجتماعى فى مجال التطبيق أن يقوم بأعمال بالغة الأهمية للوصول إلى هدفه، ومن هذه الأعمال:

* استطلاع الرأى العام، ومعرفة عوامل التأثير فيه.

* وملاحظة الأفعال وردود الأفعال لدى الأفراد والجماعات والمجتمع كله، حول موضوع أو موضوعات بعينها مثل:

الموضوعات السياسية،

والموضوعات الاقتصادية،

والموضوعات الثقافية، وغيرها.

وتوجيه هذه الأفعال وردود الأفعال، نحو كل ما يُرَشِّد سلوك الإنسان.

وفى جميع هذه الظروف فإن على علم النفس الاجتماعى أن يدعم من هذه العوامل ما يستحق الدعم، وأن يستبعد ما يجب أن يستبعد، ليرسم بذلك معالم الطريق إلى حياة إنسانية اجتماعية ناجحة، تمتد آثارها الحسنة فى داخل المجتمع وفى خارجه.

بل إن علم النفس الاجتماعى عليه أن يوسع دائرة مجاله التطبيقى لتدخل فيه العلاقات الدولية، لكى يرسم لها أبعادها، ويحدد لها توجهاتها.

٣- مدرسة التحليل النفسى:

هى مدرسة - فى ثقافة الغرب -، ومذهب - فى ثقافتنا -، وقد استحدثت هذه المدرسة فى علم النفس الحديث فى الغرب على يد: «فرويد سيجموند» (١٨٥٦ - ١٩٣٩م) وهو طبيب «نمساوى» أسَّس هذه المدرسة قبل الحرب العالمية الأولى أى قبل سنة ١٩١٤م، وجعل هدف هذه المدرسة أمْرَيْن:

الأول: دراسة أعماق الحياة النفسية للإنسان.

والآخر: علاج اضطرابات النفس الإنسانية إن وجدت.

* وقد أكَّد «فرويد» فى بحوثه وتحليلاته أن الطاقة التى تسبب أعراض «الهستيريا» طاقة جنسية.

غير أن نظريته فى تطور الغريزة الجنسية أو الطاقة الشهوانية الشَّبَقية «اللبيدو» فى مراحلها المختلفة، وظروفها المتعددة بالنسبة للإنسان ليست مسلمًا بها.

* ويرى «فرويد» أن هناك ظواهر ثلاثًا كشف عنها منهج التحليل النفسى، هى:

المرحلة الأولى:

الطفولة الأولى التى تمر بالمراحل الفمية والشرجية، لتصل إلى المرحلة التناسلية أثناء فترة المراهقة، حيث تتجه الطاقة الجنسية نحو هدفها.

ويرى أن عدم وصول هذه الطاقة إلى هدفها، أو انحرافها عنه أو توقفها، يؤدى بالضرورة عنده إلى عدم النضج الجنسى، ثم يؤدى إلى الأمراض.

والمرحلة الثانية:

ويمثلها الموقف «الأوديبى» -أو عقدة «أوديب»[1]- حيث تتجه فيه الطاقة الجنسية لدي الطفل نحو شخص من الجنس الآخر، الذى هو الأم بالنسبة للابن، والأب بالنسبة للبنت.

والتثبيت للطاقة الجنسية فى الموقف «الأوديبى»، وعدم تصفيتها بتقمص الابن لشخصية أبيه، وتقمص البنت لشخصية أمها، فإن ذلك يؤدى إلى تكوين عقدة «أوديب».

والمرحلة الثالثة:

مرحلة المرض النفسى، حيث يؤدى توقف الطاقة الجنسية أو عجزها عن تحقيق هدفها، إلى أمراض نفسية أشهرها العقد النفسية الناتجة عن كبت الطاقة الجنسية، والأمراض العقلية الناتجة عن كبتها كذلك مثل: «الهستيريا» وغيرها من الأمراض.

أ- الدعائم التى تقوم عليها مدرسة التحليل النفسى:

إن نظرية التحليل تقوم على ثلاث دعائم:

الأولى: تداعى الأفكار الحرّ:

حيث يطلب المعالج من المريض أن يسترجع جميع الذكريات المتصلة بمرضه، وبتطور أعراض هذا المرض، بمعنى أن يحاول المريض تعطيل قدراته النقدية ويترك لأفكاره حرية

(١) «أوديب» فى أساطير اليونان هو بطل طيبة، قتل أباه «لابوس» وتزوج أمه دون علم منه، فلما عرف الحقيقة فقأ عينيه، وانتحرت أمه، وظل هو هائمًا على وجهه، يكفر عن خطيئته التى أنزلت اللعنة بأبنائه، وبأهل طيبة جميعًا، وظل كذلك حتى مات فى «كولونيا».
وسجلت قصة «أوديب» فى مسرحيات ثلاث هى: «أنتوجونا» و «أوديب مَلِكا» و «أوديب في كولونيا» سجلها «سوفوكليس» وهى مسرحيات جيدة باقية حتى الآن.

التنقل من موضوع إلى آخر، وتتجه غالبًا سلسلة الأفكار نحو الوصول إلى الموضوع الذى يعتبر مفتاحًا للسبب المحجوب وراء أعراض المرض. وعند استماع المعالج لتلك التفاصيل فإنه يستطيع أن يحلل المرض وأن يرد أعراضه إلى أسبابها، وذلك مما يسّهل عليه علاج هذا المريض، أو التخفيف من هذا المرض.

والثانية: تحليل الأحلام:

حيث يسرد المريض حلمه أو أحلامه بعفوية وتفصيل، وعلى المعالج أن يفسر صور هذه الأحلام ورموزها فى ضوء ما يحيط بالمريض من ظروف شخصية أو عائلية أو عامة، وعندئذ يستطيع المعالج أن يضع يده على بعض أسباب المرض، إن لم تكن أكثر أسبابه أو جميعها، الأمر الذى ييسر له علاج المريض.

وقد أكد «فرويد» الصلة الوثيقة بين الأحلام والحياة اللاشعورية، وقيمة ذلك فى كشف أسرارها، لأن النزعات والرغبات المكبوتة التى يزخر بها اللاشعور تحتال على الظهور أثناء النوم فى صورة أحلام سواء ما كان من هذه الأحلام ذا مضمون ظاهر، أو مضمون كامن، ترمز إليه أحداث معينة فى الحلم.

والدعامة الثالثة: التحويل:

وهو العلاقة العاطفية التى تنشأ بين المريض والمعالج المحلل الذى يقوم أثناء العلاج بتمثيل الأشخاص الذين كانوا يحيطون بالمريض أثناء طفولته، ثم يتطور هذا التحويل ليتخذ عِدَّة صور كالإعجاب والثقة والحب، وهذا تحول إيجابى، أو يتخذ صور الكراهية والنفور والعدوان، وهذا تحول سلبى.

وعندئذ يقوم المحلل المعالج فى الوقت المناسب بتأويل المواقف التحويلية للمريض، ويصبح هو الشخصية المحبوبة أو المكروهة، ثم يشرع فى العلاج.

ب- المفاهيم التى تقوم عليها مدرسة التحليل النفسى:

نظرية التحليل النفسى تعتمد على مفاهيم أساسية تمثل لديها حقائق أو مسلمات تبنى عليها عملها فى التحليل وفى العلاج، وهذه المفاهيم هى:

الأول: أن لكل نفس مكونات أساسية هى:

- الهُوَ:

أى مجموع الغرائز والدوافع المكبوتة، والصراعات القائمة بين غريزتى الحياة والموت.

- **الأنا:**

وهو التعبير الشعورى للفرد فى صراعه مع بيئته العائلية والاجتماعية.

- **والأنا الأعلى:**

وهو الضمير الخُلُقى الناشئ عن عملية امتصاص أوامر الدين ونواهيه.

والثانى: الكبت:

وهو عملية نفسية لا شعورية - أى تحدث دون شعور الفرد بها، أو الدوافع الغريزية الأولية المكبوتة لعدم ملاءمتها للمبادئ الخلقية أو الاجتماعية، أو لما تسببه من شعور بالقلق كالرغبات الجنسية والعدوانية - يحول الأنا الأعلى دون ظهورها لأنها محرّمة دينيًا أو مستهجنة اجتماعيًا، على الرغم من بقائها حية فى اللاشعور.

والثالث: اللاشعور:

ويتكون - كما قلنا - من الدوافع اللاشعورية والميول والرغبات المكبوتة، والخبرات والاتجاهات الممتصة.

ولا يمكن معرفة مضمون اللاشعور بشكل مباشر، وإنما بتأويل التداعى الحر للأفكار، وتأويل الأحلام - كما أوضحنا آنفًا.

والرابع: العقدة النفسية:

وهى مجموعة من الخبرات المكبوتة، تظل مؤثرة فى التفكير والسلوك على الرغم مما أصابها من الكبت والنسيان، كما أنها تطبع السلوك بطابع الانحراف والشذوذ.

والعقدة النفسية لدى علماء التحليل النفسى ثلاثة أنواع:

- عقدة «إلكترا» أى ارتباط البنت بأبيها مصحوبًا بخلافها مع أمها.
- وعقدة «أوديب» أى رغبة الطفل فى الاستحواذ على الوالد من الجنس الآخر «الأم» مصحوبًا بخلاف مع الأب أو حرمان منه.
- وعقدة النقص: وهى مركب من المشاعر والعواطف المكبوتة بسبب الشعور بعجز عضوى أو نفسى أو اجتماعى.

والخامس: وسائل الدفاع:

وهى الوسائل التى يدافع بها الإنسان المريض نفسيًا عن نفسه، مستعينًا بالمحلل أو المعالج.

هذه هى المفاهيم الأساسية التى تقوم عليها نظرية التحليل النفسى، وهى مفاهيم غير مسلم بها لدى عدد من علماء النفس أصحاب المكانة العلمية، الذين سجلوا اعتراضاتهم على هذه المدرسة.

جـ- المعترضون على مدرسة التحليل النفسى:

وأما المعترضون على مدرسة التحليل النفسى، أو الرافضون لهذه المدرسة، فمن أشهرهم:

- «أدلر ألفرد» (١٨٧٠ - ١٩٣٧م) وهو طبيب نمساوى، أسَّسَ مدرسة «علم النفس الفردى» معارضًا بها مدرسة التحليل النفسى التى أسسها «فرويد».

وقد استنكر «أدلر» تضخيم «فرويد» للغريزة الجنسية، وجعلها هدفًا بل أهم أهداف الإنسان.

ورأى «أدلر» أن للإنسان أهدافًا رئيسة هى:

التوافق الاجتماعى،

والنجاح المهنى،

وإشباع الحب جسميًا وروحيًا وعاطفيًا.

- و «يونج كارل جوستاف» (١٨٧٥ - ١٩٦١م)، وهو فيلسوف سويسرى، وطبيب أمراض عقلية، كان شريكًا «لفرويد» فى تأسيس «مدرسة التحليل النفسى»، ثم انفصل عنه، وأسّس مدرسة «علم النفس التحليلى» سنة ١٩١٣م.

ويرى «يونج» أن الطاقة الشهوانية «الليبدو» الشبقية طاقة أولية فى الإنسان، وليست طاقة جنسية فقط، كما يرى «يونج» أن وراء اللاشعور الفردى، «لاشعور جماعى».

٤- صلة علم النفس بالفلسفة:

الفلسفة - كما هو معروف - هى دراسة المبادئ الأولى للوجود، وللفكر، دراسة موضوعية بهدف نشر الحق والاهتداء بمنطق العقل دون التسليم بأى مسلمات مسبَّقة.

وللفلسفة فروع ولكل فرع منها مباحثه وتلك الفروع خمسة وهى:

- الطبيعة «الميتافيزيقا»: وتبحث فى مطلق الوجود.

- والمنطق: ويبحث فى صور الفكر مجردة عن مادته، وفى مبادئ الاستدلال.

- ونظرية المعرفة: وتبحث فى علاقة الذات العارفة بالشىء المعروف.
- والأخلاق: وتبحث فى المبادئ التى تجعل السلوك خيّرًا.
- وعلم الجمال: ويبحث فى المبادئ التى تجعل الناس والصفات والأشياء جميلة.

* والفلسفة بفروعها الخمسة تستهدف نظام الكون، والبحث عن العِلَل التى تنظمه، وتضعه فى هذه المنظومة التى يُشاهد عليها.

- ومن المسلَّم به أن كلمة الكون تشمل - عند الفلاسفة - الخالق سبحانه وتعالى، والمخلوقات كلها وفى مقدمتها الإنسان.
- والعقل البشرى - كما يرى الفلاسفة أيضًا - من وظائفه البحث فى هذا الكون ونظامه، والقُوَى المسيطرة على هذا النظام.
- وقد حاول العقل البشرى وهو يبحث أن ينتقل من إدراك المحسوسات إلى إدراك المعقولات، ولقد كان ذلك منذ زمن سقراط وأفلاطون، فلما جاء أرسطو توسع فى الحديث عن النفس بأكثر مما فعل سقراط و أفلاطون.
- واعتبر أرسطو علم النفس أدخل فى العلوم الطبيعية منه فى العلوم الفلسفية، حتى لقد قال أرسطو بوجود قُوى نفسية تصدر عنها حركات الإنسان وأفعاله السلوكية.
- وإذا كان علماء العلوم الطبيعية يحاولون فهم الكون من خلال علومهم متعاونة مع غيره من علوم الفلسفة؛ فإن أرسطو لم يفصل فى بحوثه وأفكاره بين الجسم والنفس؛ لأنه يرى أن علم النفس جزء من علوم الحياة. فالربط بين علم النفس والفلسفة قديم منذ زمن أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد).

* وفى العصر الحديث، وبعد عصر النهضة العلمية فى أوروبا فى القرن السادس عشر الميلادى، أصبح العلم غير متقيد بالآراء الفلسفية السابقة، بل أصبح يخضع لمنهج علمى بَحْت، يحتم عليه الشك فى كل الفروض؛ حتى يتحقق تجريبياً من صحتها.

كما أن على الفيلسوف أن يأخذ فى اعتباره ما وصلت إليه العلوم وأن يستعين بها ما وَسِعَه.

فالعالم الطبيعى والفيلسوف يجب أن يستعين كل منهما بما لدى الآخر.

* غير أن علم النفس قد استطاع أن يحقق نوعًا من الاستقلال عن العلوم؛ عندما تقدمت بحوثه فى مجال علم النفس التجريبى، حيث قرّر بعض الفلاسفة الذين لهم دراسات

جيدة فى علم النفس، أن علم النفس يعتمد على التجرة والطبيعة «الميتافيزيقا» والرياضيات، والإحساس، ومن هؤلاء:

- «هربارت» (١٧٧٦ - ١٨٤١م).
- و «لوتزيه» (١٨١٧ - ١٨٨١م).

* وقد أنشئت معامل لعلم النفس التجريبى كان أول معمل منها سنة ١٩٢٤م فى جامعة «ليبزج» بألمانيا.

ثم تعددت معامل علم النفس فى ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وأمريكا.

- وقد تناولت الدراسات النفسية التجريدية سلوك الإنسان عمومًا:

الطفل، والإنسان البدائى، والإنسان المريض بمرض عضوى، والمريض بمرض عقلى، ثم المريض بمرض نفسى على وجه الخصوص.

* مدارس علم النفس التجريبى:

اشتهرت فى مجال علم النفس التجريبى خمس مدارس هى:

- مدرسة علم النفس الوظيفى، ومن أشهر أساتذتها:

«جون ديوى»، و «أنجل» و «كلاباريد».

- ومدرسة التحليل النفسى، ومن أشهر أساتذتها: «فرويد».
- ومدرسة علم النفس الفردى، ومن أشهر أساتذتها: «أدلر».
- ومدرسة علم النفس التحليلى، ومن أشهر أساتذتها: «يونج».
- ومدرسة الجشتلط - أى الصيغة الإجمالية -، ومن أشهر أساتذتها: «كوهلر» و«كوفكا».

* ثم كثرت البحوث والدراسات فى علم النفس الحديث حتى بلغت عشرات الألوف.

٥- موضوع علم النفس أو موضوعاته:

الموضوع الرئيس لعلم النفس هو «نفس الإنسان» أى الإنسان من حيث هو كائن حَىّ يولد فى أسرة تمثل جزءًا من مجتمع إنسانى، له ثقافته ومعتقداته ونظمه، والقيم السائدة فيه، بل من حيث قدرة الإنسان على التفاعل مع هذا المجتمع تأثرًا وتأثيرًا، واستجابة صامتة أو كلامية أو حركية.

* ومن المؤكد أن الأحداث النفسية التى يمر بها الإنسان منها ما هو ذو علاقة بالآخر كأنواع السلوك التى يسلكها الإنسان ويغير فيها ويبدل تبعًا للظروف والمتغيرات التى تحيط بالإنسان، وتحيط بالآخر.

* ومن المقرّر - كما أوضحنا آنفًا - أنَّ لعلم النفس صلة بعلوم عديدة من علوم الحياة من جانب، وبعلم الاجتماع من جانب آخر.

* وغالبًا ما يكون الغرض من علوم الحياة هو تفسير الظاهرة ؛ بتعيين الشروط التى لا تتم الظاهرة إلا بها، وبتحديد العلاقة الثابتة بين تغير هذه الشروط وما يحدث للظاهرة من نقص أو زيادة أو تعديل؛ لأن هذا هو القانون العلمى الذى تُفسَّر به الظواهر، وهو قانون الإحصاء.

- وهذه الشروط التى يجب تعيينها فى الظاهرة نوعان:

الأول: شروط «بيلوجية».

والآخر: شروط اجتماعية.

ومثال ذلك: ظاهرة الانفعال، الذى هو نوع من التأثر أولاً، ومن رَدّ الفعل بعد هذا التأثر.

- والانفعال يكون مصحوبًا باضطرابات عصبية عضوية فى أجهزة الجسم الدموية والغددية والحشوية والعضلية، ودراسة هذه الاضطرابات من شأن علم الحياة «البيلوجى».

- ثم إن الانفعال يحقق نوعًا من الصلة المباشرة بين الأفراد فى أى وسط اجتماعى، وهو يوثق الصلة بين الأفراد الذين احتواهم مكان واحد، وكل ذلك لا يحدث إلا فى مجتمع.

- فليس هناك من ظاهرة «بيلوجية» تصدر عن الإنسان من جوع أو عطش أو خوف أو نحو ذلك إلا يصبغها المجتمع بصبغته الخاصة.

* ومع هذين الشرطين أو العاملين: «البيلوجى» والاجتماعى يوجد شرط ثالث أو عامل ثالث هو:

العامل النفسى،سواء ما كان منه شعوريًا أو غير شعورى، كتلك الاتجاهات الذهنية التى تتكون عن طريق العادة.

* وبهذه العوامل الثلاثة: «البيلوجى» والاجتماعى والنفسى؛ يمكن تفسير السلوك الإنسانى تفسيرًا صحيحًا.

وتوضيح الصلات بين هذه الشروط أو العوامل الثلاثة، يمكن بل يسهل عندما نعرف أن علم الحياة، وبخاصة جانب وظائف الأعضاء؛ قادر على ذلك لأن من بين هذه الوظائف الوظيفة العصبية، وهى التى تنسق العلاقة بين سائر الوظائف، وتحقق تكامل الكائن الحىّ، فهى الصلة بين علم الحياة وعلم النفس.

أما علم الاجتماع فإنه يدرس نشوء الأنظمة الاجتماعية وتطورها، بوصفها صادرة عن جماعات تعتبر فوق الأفراد بكيفيَّة مَّا؛ فتؤثر فى الأفراد وتتأثر بهم.

ومن هذه الأنظمة الاجتماعية؛ اللغة، والأخلاق، والقوانين، والفنون، والأزياء، والتيارات الفكرية والثقافية.

- واللغة أهم هذه الأنظمة الاجتماعية؛ إذ هى التى تربط بين مختلف الأنظمة الاجتماعية وتحقق تكامل الجماعة.
- فاللغة إذن هى حلقة الاتصال بين علم الاجتماع وعلم النفس، بل إن كلاً منهما لا يستطيع أن يعبر عن نفسه ولا عن صلته بالآخر إلا من خلال اللغة.

* ولتداخل علم النفس فى هذه العلوم وغيرها تعددت موضوعاته بحيث لا نستطيع أن نتحدث عنها إلا من خلال إشارات، نظرًا لتنوعها وتعدد فروع كل نوع منها، ونظرا لكثرة النتائج التى توصل إليها علماء النفس بعد التجارب العملية التى استخدموا فيها تقنيات علمية.

*** ولقد بذل علماء النفس جهودًا ضخمة فى مجالين:**

- مجال تطور الدراسات النفسية التى سبقوا بها مَنْ قبلهم من الذين اشتغلوا بعلم النفس، بحيث أكملوا فيها نقصًا كبيرًا. وطوروا موضوعاتهم لتلائم النهضة العلمية التى يعيشها علماء النفس فى القرنين الأخيرين.
- ومجال ابتكار موضوعات دراسية لم تكن معروفة من قبل، إذ تيسَّر لهم ابتكارها بسبب التقدم العلمى الهائل فى هذين القرنين، وخصوصا فى المجالات ذات الصلة المباشرة أو غير المباشرة بعلم النفس.

* وبعد تصفحى لعديد من الكتب والدراسات والبحوث النفسية أستطيع أن أشير بإيجاز إلى رءوس الموضوعات التى تناولها علم النفس، مكتفيًا بسبعة موضوعات كبيرة يدخل تحت كل منها كثير من التفاصيل، وتلك الموضوعات هى:

١- موضوع الإحساس وربطه بالجهاز العصبى فى جسد الإنسان، وتقسيم هذا الإحساس وتعريف كل قسم منه، وتوضيح الصلة بين الإحساس والإدراك.

٢- وموضوع الإدراك، وما كتبوا فيه عن أطواره وصلته بالوظائف العقلية، وما سجلوه عن الذاكرة والمخيِّلة، والحكم العقلى، واهتمامهم بعوامل الإدراك الاجتماعية، وما قالوه عن كيفية الإدراك، وتحديدهم للخداع البصرى، والخداع الحركى، وما لهما من صلة بالإدراك.

٣- وموضوع الانفعال الذى اهتموا به اهتمامًا شديدًا، وتحدثوا عن صلته بوظائف أعضاء جسد الإنسان، وبجهازه العصبى، ومدى ما للانفعال من صلة بالأمراض النفسية والأمراض الجسدية، والحياة الاجتماعية عمومًا.

٤- وموضوع التفكير، تعريفه وتحديد مراحل تكوينه، وصلته بالتصور الحسى والتصديق والاعتقاد، وتوضيح مراتبه، وحديثهم عن الاستدلال والإقناع، وما قالوه عن علاقة ألفكر باللغة، وأن الإنسان يفكر باللغة، واهتمامهم بالأمراض اللغوية وتحليلها وتعليلها، وعلاجها.

٥- وموضوع الذكاء، تعريفه وتوضيح صلته بالفعل، وما كتبوه عن أنواع الذكاء وبخاصة الذكاء العملى، والذكاء التأملى، وتحديدهم لمكانة الذكاء والإرادة، وما شرحوه عن مراحل الإرادة مثل: الكفّ، والعزم، والتنفيذ.

٦- وموضوع السلوك الإنسانى، تعريفه وتصنيفه، وما كتبوه عن دوافع السلوك العديدة، وبيان أثر كل دافع منها فى التأثير على سلوك الإنسان فى سرعة الاستجابة لهذا الدافع أو البطء فى الاستجابة، وأنواع السلوك القهرى والمستتر والظاهر.

٧- وموضوع الشخصية الإنسانية وبيانهم لمراحل النضج فيها، كما توسعوا فى الحديث عن العوامل المؤثرة فى الشخصية مثل: المحددات الوراثية، والعمل الذى يقوم به الفرد، والمكانة الاجتماعية، وتحدثوا عن الشخصية المنفصمة التى تصاب بنوع من الخلل العقلى مصحوب باضطراب فى الوعى، يترتب عليه أن يكون للإنسان شخصيتان أو أكثر، كما تحدثوا عن سمات الشخصية، وتكاملها الذى يتمثل فى القدرة على تحقيق التكيف العام لسلوك الإنسان الذى يبدو للناس أثناء التعامل اليومى الذى تقتضيه الحياة الاجتماعية، مما يدل على وحدة ذاته وثباتها.

* غير أن هذه الموضوعات التى انشغل بها علماء النفس فى تطور مستمر لا يتوقف، بل يجرى بخطى سريعة، وعلى سبيل المثال فإن ما كتب منذ عشر سنوات - مثلا - عن موضوع من موضوعات النفس، قد دخله كثير من التعديلات، وقد يدخله فى كل عقد ما هو أكثر مما نتصور.

وإذا كان التعديل والتجديد يدخل فى «الفيزياء» و«الكيمياء» وغيرهما من العلوم، فإن علم النفس لم يكن أقل تقبلا للتغيير والتبديل من هذه العلوم، وذلك يعنى أن علماء النفس يواكبون المتغيرات فى كل فروع المعرفة، وذلك مما يحمد لهم.

*** تجاهل علماء النفس للدين فى دراساتهم:**

هذا ملحظ أدركته منذ زمن طويل - أيام كنا نتلقى العلم فى الجامعة فى علم النفس منذ أكثر من خمسين عامًا من تاريخ يومنا هذا - هو أن علماء النفس تجاهلوا الدين، ولم يلتفتوا إلى تأثيره القوى فى حياة الإنسان النفسية من حيث عقله ومشاعره وسلوكه!!!

إنهم استبعدوا الدين عن تعمد؛ لأن رؤيتهم له متأثرة بما ساد عصر النهضة العلمية فى أوربا فى القرن السادس عشر الميلادى، ولا يزال سائدًا إلى اليوم، وهو استبعاد الدين عن حياة الناس، وحبسه فى الكنيسة، واعتباره مسألة شخصية بين الإنسان وربه ولا علاقة له بسلوك الإنسان مع غيره من الناس؛ لذلك - كما أرى - خلا علم النفس وخلت موضوعاته عن الحديث عن الدين، وإذا ورد عندهم ذكره ففى تعجل وعدم اهتمام.

- مع أن من المسلَّم به لدى الناس جميعًا أن للدين أثرًا عميقًا فى توجيه سلوك الإنسان، وتهذيب مشاعره، وضبط انفعالاته، وتغذية فكره، وتسديد عقله، وتنمية ذكائه النظرى والعملى، وعونه فى حب الخير وحب الناس، وفى بغض الشر والفساد، وإسهامه بذلك كله فى بناء الشخصية المتكاملة للإنسان بناءً صحيحًا يحقق له صالح دنياه وآخرته.

- لم يتحدث علماء النفس عن الدين وصلته بموضوعات علم النفس مع أن هذه الصلة واضحة لا تخفى على أمثالهم، مع أنهم اتخذوا من التحليل منهجًا لدراساتهم.

ولا أريد أن أعلل ذلك بما فى نواياهم للدين، فهذا أمر لا يعلمه إلا الله تعالى، وإن كان لم يعرف عن أحد من مشاهيرهم أنه كان متدينًا، أو يعرف للدين مكانته فى الحياة الإنسانية.

- وإذا كان ذلك الموقف منهم نحو الدين يؤخذ عليهم من وجهة نظر الفكر والعلم والحياد والموضوعية، إذا كان ذلك كذلك فإن علم النفس التربوى وعلماءه يجب أن تكون

مؤاخذتهم أشد؛ وذلك أن علم النفس التربوى أشد اتصالا بالدين من كثير من فروع علم النفس، وإن كان للدين أثر فى كل فرع من فروعه؛ وسبب ذلك أن موضوعات علم النفس التربوى كلها تتأثر بالقيم الدينية ولا يمكن استبعادها عنه بحال.

- وإذا كان علم النفس عمومًا يدرس سلوك الإنسان ونواحى نشاطه - من حيث هو كائن حَيّ - وذلك يحتاج إلى القيم الدينية التى ترشد سلوكه، وتجعله يحترم الآخر، فإن علم النفس التربوى يقوم بتطبيق مفاهيم علم النفس على ميدان التربية وعلى عمليات التعليم، كما يعنى بالتوجيه التربوى والتعليمى ويتصدى لحل مشكلات التلاميذ.

- وموضوعات علم النفس التربوى - كما هو معروف - لا تخرج عن نمو التلميذ عقليًا وخلقيًا وبدنيًا وسلوكيًا واجتماعيًا، متأثرًا بما يحيط به من أسرة ومدرسة ومجتمع، كما أن علم النفس التربوى يهتم بالصحة النفسية للإنسان بتجنيبه الأمراض النفسية، كما يعتنى بالتعلم وقياس القدرات العقلية وغيرها، وكل هذه الموضوعات لا يمكن إغفال أثر الدين فيها، بل أثره الأكبر والأفعل، فأين يذهب علماء النفس التربوى من هذا المؤثر القوى وهو الدين؟

إن كل أنواع النمو للتلميذ التى تحدث عنها علماء النفس التربوى متأثرة بالقطع بالقيم الدينية، وما أحل الله وما حرم، لا يمارى فى ذلك أحد.

- وكيف يتحدث علماء النفس التربوى عن التَّعَلُّم وخصائصه العامة، والأسس التى يقوم عليها، أو كيف يتحدثون عن نمو المعانى والصعوبات التى تواجهها، أو عن الاستدلال وتحسن الفهم، أو عن الذكاء، أو عن القدرة على التعميم أو التحديد، أو غير ذلك من موضوعات علم النفس التربوى مع إغفال أثر الدين وقيمه فى كل ذلك.

- وكيف يتحدثون عن ملاءمة الفرد بين حاجاته وأهدافه، وعن رضاه عندما يحقق أهدافه، أو سخطه عندما يعجز عن تحقيقها؟ بل كيف يتحدثون عن الصحة العقلية والصحة النفسية والجسدية فى مجال التعليم، دون أن يتوجهوا إلى الدين يأخذون من نصوصه وقيمه ما يعينهم على إحداث هذه الملاءمة بين حاجات الفرد وأهدافه!!!

إن الدين ينظم ذلك أدق تنظيم وأحسنه للفرد والمجتمع، إنه يطالب الفرد بالتواضع فى تحقيق حاجاته ويقسمها له إلى حاجات ضرورية وأخرى حاجية وثالثة كمالية، ويرسم له طريق تناوله لكل من هذه الحاجات دون إخلال بها ودون تكالب عليها.

- كيف يستطيع علماء النفس التربويون أن يتجاهلوا أثر الدين فى المتعلم والمعلم والعلم نفسه؟

إن الدين يوجب التعلم ويضع له شروطًا وآدابًا، ويحترم المعلم ويلزمه بأخلاقيات من يعلم الناس ويرشدهم، ويقدر العلم ويدعو إليه، ويحول بينه وبين الانحراف عن أهدافه المشروعة، ويلجمه عن أن يقود الإنسان إلى الأضرار والمهالك.

* إن التعمد لإهمال الدين وأثره فى الحياة الإنسانية ضيق أفق ممن يفعل ذلك، وخضوع لفكرة خاطئة عن الدين مما كان السبب فيها معروفًا.

إن الله تعالى لم يشرع الدين ويجعله كاملاً تامًا ويتكفل هو سبحانه بحفظه إلا لأن الدين يقدم للناس ما يصلح لهم دنياهم وآخرتهم.

٦- الصحة النفسية ومظاهرها :

الصحة النفسية تعنى أن يكون الإنسان سَوِيًا، معتدلا، عاديًا، بعيدًا عن الشذوذ أو الانحراف، أو المبالغة أو التطرف فى النظر إلى الناس أو الأمور أو الأشياء.

ولم ينشغل علماء النفس المحدثون بالصحة النفسية قدر انشغالهم بالحديث عن الأمراض النفسية.

ولعلهم بهذا الاهتمام بالأمراض النفسية يريدون أن يعبروا عن موقف هو : أن الإنسان الذى يخلو من الأمراض النفسية هو الذى يتمتع بالصحة النفسية، ولهم أن يتبنَّوا هذا الموقف غير مخطئين، ولا ملومين لأنه موقف صحيح.

* غير أن حديثهم عن الصحة النفسية لم يكن عبثًا، ولا هو بالذى يمكن الاستغناء عنه، فقد اشتملت دراساتهم وبحوثهم عن الصحة النفسية توضيح مظاهرها وأماراتها، مع تشديدهم على أن الصحة النفسية للإنسان لازمة له لزوم الصحة الجسدية والصحة العقلية والصحة الاجتماعية.

* ولكيلا يتسع بنا مجال الكلام عن الصحة النفسية؛ أسبابها وعلاماتها، نكتفى بالحديث عن مظاهر هذه الصحة النفسية كما أشار إليها علماء النفس، وهى فى إجمال:

أ- شعور الإنسان بالرضا عن نفسه وعن أعماله وعمن يحيطون به من الناس، وعن الظروف التى يعيش فيها، ولكل نوع من أنواع هذا الرضا والسعادة أسباب يطول شرحها، لكن الذى ننبه إليه أن السعادة والرضا عن النفس لا يعنى الغرور والتعالى على الناس أو النظر إليهم على أنهم أقل منزلة.

كما أن الصحة النفسية تعنى ألا يكون الإنسان ضيقًا بحياته أو متبرمًا من ظروفه، أو ساخطًا على حظه ونصيبه.

ب- وأن يكون الإنسان قادرًا على عقد صلات طيبة وصداقات جيدة بالناس الذين يحيطون به، فى البيت وفى المدرسة وفى العمل، وفى كل وسط اجتماعى يتعامل فيه مع الناس، لأنه بتلك الصلات وهذه الصداقات يكتسب لنفسه الصفات الاجتماعية التى لا يعيش الإنسان سعيدًا إلا بها، لأن معنى ذلك أنه يعرف قيمة الصلات والصداقات مع الناس، وأنه يرضى عن القيم السائدة فى المجتمع التى تحكم هذه الصلات والصداقات، فلا يكون منعزلاً عن الناس ولا بغيضًا إليهم ولا غير متقبل عندهم، وهو بذلك يعيش صحة نفسية.

جـ- وأن تكون علاقاته بالناس وتعاملاته معهم قائمة على احترام حقوق الآخرين والقيام بواجباته نحوهم، وعلى الرضا المتبادل، وأن يكون قادرًا على التماس العذر لمن أخطأ أو قصر فى علاقاته أو معاملاته معه.

فإن كان كذلك فذلك مظهر من مظاهر صحته النفسية.

د- وأن يكون قادرًا على ضبط عواطفه ومشاعره فى الحب أو فى الكراهية، وأن يكون جادًا عند الحاجة إلى الجد، بسيطًا باسمًا منشرحًا عند الحاجة إلى ذلك، دون إفراط أو تفريط؛ لأن التجهم والعصبية مرض، ولأن الهزل والتهاون من الأمراض النفسية دون شك.

والإنسان السَّوِى صاحب الصحة النفسية أبعد ما يكون عن تلك العيوب.

هـ- وأن يكون عاملاً منتجًا فى المجال الذى يمارسه، بحيث لا يرضى لنفسه القعود عن العمل مهما أوتى من ثروة، ولا الإهمال أو التقصير فى أداء العمل، بل لا ينبغى أن يرضى على نفسه عدم الإجادة والإتقان لما يقوم به من عمل؛ لأن الصحة النفسية للإنسان تقتضى ذلك كله.

و- وأن يكون شكورًا لكل من أسدى إليه شيئًا من المعروف، ومقدرًا لكل من يقوم بعمل على وجهه الصحيح، لأنه ما لم يكن كذلك تجمعت فيه صفات الجحود والنكران، والبحث عن عيوب الناس وسقطاتهم، وتلك حالات مرضية فى نفس من يحاول أن يكون كذلك، والإنسان السوى لا ينبغى أن يكون مريضًا بهذه الأمراض.

ز- وأن يكون صبورًا جلدًا يستطيع امتصاص المواقف التى لا تعجبه، وأن يتعامل مع تلك المواقف بحكمة وروية بل موضوعية، وذلك أن فَقْد الصبر يوقع الإنسان فى مشكلات عديدة، ويلقى عليه ظلالاً تجعله غير مقبول عند من يتعاملون معه من الناس، ومن لم يتقبله الناس فى عمومهم فإن العيب فيه غالبًا، وإذا كان العيب فيه فإنه يفقد صفة الصحة النفسية.

ح- وأن تكون لديه قدرة على أن يستمع إلى نقد الناس لشخصه أو لسلوكه بصدر رحب وعقل مفتوح؛ لاقتناعه بأن أحدًا من الناس ليس فوق مستوى النقد، لأنه ليس فوق مستوى الخطأ، والعاقل من استفاد من رأى غيره فيه، والمسلمون يقولون: «المؤمن مرآة أخيه».

إن من كانت هذه صفاته يتمتع بصحة نفسية من شأنها أن تحبب فيه الناس.

ط- وأن يكون زاهدًا فى أن يمدحه الناس أو يثنوا عليه؛ لأن الرغبة فى ذلك تتضمن مغالطة هى تصوره أنه قد خلا من العيوب، كما تتضمن إحساسًا بالنقص إذ يعطى نفسه من المكانة ما يجعله منتظرًا لمدح الناس له وثنائهم عليه، والصحة النفسية تقتضى أن يزهد فى هذا الثناء وألا ينتظره.

ى- وأن يكون فى غِنًى عن استدرار عطف الناس عليه؛ لأن من يطلب عطف الناس يكلفهم بما لا يريدون أحيانًا، ويكون أمام نفسه فى موقف الضعيف المتخاذل، وهو لا يرضاه لنفسه من كان متمتعًا بالصحة النفسية، والأصل أن يوطن الإنسان نفسه على ألا يحتاج لشىء من عند الناس، لأن ذلك يعنى نقصه الذى يرجو أن يعالجه بما عند الناس.

ك- وأن يكون له اختلاط بالناس وحوار معهم، لكن بشرط أن يكون معطيًا قبل أن يكون آخذًا، وأن يكون رائده فى الحوار هو توضيح الحقائق وحسن عرضها، والتمسك بالحق والانتصار له، بحيث لا يطمح أن يكون هو المسيطر على الآخر ولا الخانع أمامه، فليست الرغبة فى السيطرة قوة شخصية على الدوام، وليس الخضوع للحق ضعفًا على الدوام أيضًا، وإنما الصحة النفسية تعنى التوسط فى كلا الموقفين.

ل- وأن تكون لديه القُدرة على التعامل مع الأزمات بوعى وعقلانية وبعد عن الانفعال والطيش، لأن ضبط النفس صفة حميدة فى الإنسان، وعلى الضد منها السخط والجزع بعد التبرم والانفعال.

وضبط النفس وكبح الغضب من علامات الصحة النفسية للإنسان.

وبعد: فأرجو أن أكون قد أوضحت مظاهر الصحة النفسية للإنسان، كما أشار إليها كثير من علماء النفس المعاصرين.

وإلى الحديث عما يقابل مظاهر الصحة النفسية وهى أعراض المرض النفسى.

٧- الأمراض النفسية وأعراضها:

نستطيع القول مطمئنين: إن مظاهر الصحة النفسية الاثنى عشر -التى ذكرناها- إذا فقدت أصبح الإنسان مريضًا نفسيًا بأحد أمراض النفس، ودلت على مرضه بعض الأعراض، وهو ما سوف نتحدث عنه بإيجاز فى الصفحات التالية:

* الأمراض النفسية هى: اختلال الصحة النفسية للإنسان، وضياع ما ينبغى أن يكون فى نفسه من وحدة وتوازن وتلاؤم وانسجام؛ مما يجعل المريض نفسيًا يمارس أقوالا أو أعمالا غريبة حينًا، أو شاذة فى بعض الأحيان، وما بين الغرابة والشذوذ تقع معظم الأمراض النفسية.

- والأمراض النفسية متعددة، وأعراضها كثيرة ومتداخلة حتى ليصعب فصل بعضها عن بعض إلا على يد خبير متمرس، فالأمراض النفسية ليست كالأمراض الجسدية التى يمكن الكشف عنها بسهولة.

وكذلك الشأن فى الأمراض العصبية، فالمرض العصبى قد يصيب نفس المريض مع أعصابه، لكن المرض العصبى يرجع سببه إلى خلل فى الجهاز العصبى للإنسان -المخ والخلايا العصبية- بينما المرض النفسى ليست له أعراض جسدية، كما أن علاج الأمراض العصبية عند أطباء المخ والأعصاب، أما علاج الأمراض النفسية فعند علماء النفس - كما يقولون -!!!

- والأمراض الجسدية لها أعراض ملموسة يعالجها الطبيب المختص بما يلائمها من أدوية وعقاقير ونحوها، بينما الأمراض النفسية لها أعراض قد تكون خفية مثل: الاكتئاب، والقلق، والانطواء، والوسواس ونحوها، وقد تظهر بعض أعراضها مثل:

الخوف من الظلام، والخوف من الأماكن المرتفعة والخوف من ركوب البحر ونحوها.

* وقد قسم علماء النفس هذه الأمراض النفسية إلى أنواع رئيسة أربعة هى:

- «الهستريا» Hysteria.

- و«النورستانيا»: Neurasthenia.

- والحَصَر النفسى: Nerosis.

- والحُصار أو الوسواس: Obsession.

أ- فالهستريا:

هى مجموعة من الاستجابات النفسية الشاذة التى تستهدف غرضًا شخصيًا، مثل:

الهروب من موقف صعب، أو تحقيق رغبة، أو إشباع شهوة، أو استدرار عطف الناس.

ولمرض «الهستريا» أعراض قد تظهر على الجسم وإن كان منبعها نفسيًا، مثل:

* الإصابة بالشلل المؤقت.

* أو فَقد الإبصار أو فقد السمع.

* أو فقد القدرة على الكلام.

* أو الإصابة بالصداع.

وكلها تكون أعراضًا يصطنعها المريض للوصول إلى هدفه، فهى فى الحقيقة تمارض لا مرض من أجل الهروب من الواقع لتفادى المشكلات التى تواجهه.

- وقد تكون أعراض الهستريا نفسية بَحْتَة مثل:

* فَقْد الذاكرة بالنسبة لأحداث معينة.

* أو التجول أثناء النوم.

* أو التوهان عن المدرسة أو محل العمل أو البيت أيامًا.

* أو انتحال اسم آخر غير اسمه.

- ومن صفات المريض بالهستريا:

* شدة الحساسية، حين تثيره الأحداث التافهة.

* والعجز عن ضبط انفعاله.

* والاستسلام لموجة من البكاء أو الصياح أو الضحك.

* وخداع المريض نفسه وخداعه الناس.

* والنفاق بتقبل رأى من ينافقه دون نقاش فضلاً عن نقد.

* والميل إلى التفاخر والتظاهر.

* والقدرة على محاكاة الناس والاندماج فيهم.

- وكثيرًا ما يصاحب المريض بالهستريا أعراض أخرى مثل:

* فتور فى الوظيفة الجنسية، لَدَى الرجال والنساء، وبخاصة عند التعرض للمشكلات أو الصراع النفسى.

* والعجز عن التوفيق بين إمكاناته وما يريد تحقيقه.

* والعجز عن التلاؤم مع الوسط الذى يعيش فيه.

ب- والنورستانيا أو العُصاب.

وهى فى إجمال: الإرهاق، أو النهك العصبى.

ومرض النورستانيا له أعراض نفسية جسدية عقلية، لكل منها أعراضه التى تتداخل أحيانًا مثل:

- العَرَض الجسدى العقلى:

وأعراضه:

* الشعور بالإعياء الجسدى والعقلى العام.

* والإحساس بزيادة التعب بعد أقل جهد.

* والغضب الذى يصل إلى حد التهيّج.

- والعرض النفسى العقلى:

وأعراضه:

* انشغال البال بصورة مستمرة.

* واستمرار تفكير المريض فى نفسه.

* والعجز عن تركيز الانتباه إلا فى ذاته وفي مرضه.

- والعرض النفسى وحده:

وأعراضه:

* الرغبة فى العزلة والعزوف عن التعامل مع الناس.

* والغفلة التى يصاحبها فتور الهمة.

* وعدم الرغبة فى القيام بأى عمل.

* والعجز عن القيام بالعمل.

* ومريض النورستانيا غالبًا ما يشكو أمراضًا جسدية إلى جانب مرضه النفسى، مثل:

* أوجاع الظهر والصداع.

* وزغللة بالإبصار.

* وسيطرة الأوهام عليه.

- ومريض النورستانيا تحيط به مشكلات عديدة، كثيرًا ما يتولد عنها مشكلات أخرى، وهكذا يجد نفسه فى حلقة مفرغة، ويؤدى به المرض إلى أن يصبح صريع الإعياء الشديد.

جـ- والحَصَر النفسى:

وهو مصطلح حديث نسبيًا يعنى: ضيق الصدر والخوف والقلق، والحَصَر النفسى من أكثر الانفعالات ضررًا للنفس، وبخاصة إذا كان شديدًا أو مستمرًا.

وأبرز ما يكون الحصر النفسى فى: الأحلام المزعجة «الكابوس»، وهو أكثر الأمراض النفسية شيوعًا، وأشدها التصاقًا، ومصاحبةً لأعراضٍ جسدية بعينها.

- ولهذا المرض النفسى أعراض جسدية ونفسية عديدة، منها:

* توقع الشر:

حيث يفسر المريض بالحصر النفسى كل ما يحيط به من أحداث تفسيرًا ينصب على إلحاق الضرر به شخصيًا، وعلى سبيل المثال:

* إذا طُرق البابُ، فهناك شر محدق أو خبر محزن.

* وإذا أحس المريض أن أحدًا من الناس يتابعه فى سيره، أو فى تحركاته، أو حتى عند فتح نافذة بيته فهو جاسوس عليه مكلف بمتابعته ومراقبته(١).

(١) يذهب بعض المحللين إلى أن من أسباب هذا المرض؛ إطلاق المسئولين عن أمن الدولة أو المخابرات فى مراقبة الناس مراقبة شديدة فى كلامهم وعملهم وتحركهم ومقابلاتهم، وما يقرءون وما يكتبون، ثم اعتقالهم دون سند قانونى ثم تعذيبهم حتى يعترفوا بأعمال لم يرتكبوها. كل هذه الجرائم ترتكب باسم أمن الدولة فى الظاهر، وهى فى الحقيقة لتأمين حياة الحاكم الذى يكون فى الغالب ظالمًا مستبدًا ملغيًا للقانون، يحكم فى ظل نظام عسكرى وأحكام عسكرية، وهذا الذى ولَّد الإرهاب عند من يمارسونه.

ويحتاج هذا المريض إلى رعـاية واهتمام ومناقشة وإقناع حـتى يقلع عن توقع الشر - هذا الاحتـياج عند من يعالجه - كـما يحتاج أن يعـيش فى مجتمع آمن مـن جبروت أجهزة أمن الدولة وطغيانها.

* والإفراط فى التشكك:

ومعنى ذلك أن المريض لا يطمئن إلى أى عمل يقـوم به، وإنما يعاوده الشك، فيراجع عمله مرة أخـرى وثالثة ورابعة. . مما يدخل به فى مجال الوسواس، والنتـيجة لذلك هى فقده لثقته فى نفسه وفى عمله.

ومن أعراض الإفراط فى التشكك:

* يكتب موضوعًا ثم يمزقه ثم يعود لكتابته.

* وقد يشرع فى عمل ثم يعود عنه ثم يعاود الشروع فيه.

* وقد يذهب إلى زيارة صديق أو قريب ثم يتراجع قبل أن يصل. . وهكذا.

* والأحلام المزعجة:

وهذه الأحلام المزعجة المخيـفة يسميها عامة الناس «كـابوسًا»، وهذه الأحلام المزعجة مرض نفسى كله، لا علاقة له بالجسد فى معظم الأحيان.

ومن أعراض هذا المرض:

* أن يرى المريض فى منامه عدوانًا يقع عليه يأخذ صورة لص، أو مجرم، أو شخص يكرهه.

* أو أن يرى فى منامه حيوانًا مفترسا يثب عليه.

* أو يرى أنه يغرق، أو يحترق.

* أو أن يرى أن البيت قد انهار عليه.

وفى كل تلك الحالات يجد المريض نفسه عاجـزًا عن الحركة أو المقاومة أو الهرب، ويظل فى هذه المعاناة لا تنجيه منها إلا يقظة تنبهه من نومه.

* وسرعة الغضب والاهتياج:

وفى الغالب يكون هذا الغـضب والاهتياج لأتفه الأسـباب، ومن أعراض هذا المرض النفسى:

* إذا أراد المريض أن يصل إلى شيء ثم عجز عن الوصول إليه هاج وماج، واعتبر ذلك كارثة هو المقصود بها.

* وإذا تأخرت عليه وسائل المواصلات هاج وغضب وتصور أنها تأخرت بسببه.

* وإذا ذهب إلى بعض الأصدقاء فلم يجده ثار وغضب وادعى أن سوء الحظ يحالفه.

وهكذا يعيش المريض أحداثه اليومية بركانًا ثائرًا غاضبًا لأتفه الأسباب.

* والقلق المجهول المصدر:

وهو مرض نفسى يسيطر فيه على المريض خوف غامض، وضيق صدر شديد، قد يصحبه ذعر أو فزع.

ومن أعراض هذا المرض:

* بكاء المريض وصراخه دون سبب يستوجب ذلك.

* وتوجع المريض وتألمه بغير مقتض.

* وإحساسه بدنو أجله.

وقلما توجد أسباب حقيقية لهذه الأعراض.

د- والحُصار أو الوسواس وأنواعه:

وهو مرض نفسى يتصل اتصالاً وثيقًا بالتفكير، فيضيق على المريض تفكيره وسلوكه، ويحمله حملاً على سلوك فكرى بعينه، أو سلوك كلامى، أو سلوك عام مضادّ لما هو سائد فى المجتمع من قيم.

ومهما حاول المريض أن يصرف عن نفسه هذه الأفكار أو تلك الخواطر فإنه يعجز عن ذلك عجزًا تامًا.

* ومرض الحُصار النفسى أنواع ثلاثة:

الأول: الحُصار الفكرى:

وهو نوع من الحصار يسيطر على المريض؛ عقله وفكره، وفى الغالب تسيطر على تفكيره مشكلة فلسفية تأخذ عليه تفكيره، ولا يجد لها حَلاً مثل:

- لماذا خلقه الله؟ ولماذا يعيش؟ وماذا ينبغى أن يحقق من مطامح؟ وما مصيره بعد الموت؟

- ويظل المريض بالحصار الفكرى يحاول الإجابة عن هذه الأسئلة فيعجز عن ذلك، فيظل محاصر الفكر.

والثانى: الحُصار المعطل لقوى المريض عمومًا:

وذلك عندما تستولى على المريض وساوس أو مخاوف أو شكوك تحول بينه وبين السلوك السوى؛ فقد يستبد به الخوف من شيء أو مكان أو أحد أو صوت، أو برق ورعد أو مطر شديد أو حيوان بعينه، فيعطل قواه الذهنية والبدنية عن العمل ويصيبها بالعجز الذى يشبه الشلل فيفوت عليه كثيرًا من أعماله الضرورية، حتى إن هذه المخاوف فى بعض الأحيان تلزمه البقاء فى بيته مهما فاته من مصالح.

والثالث: الحُصار القَهْرى:

وهو مرض نفسى يقهر المريض ويقسره على أن يقوم بعمل ما من الأعمال، أو بقول ما من الأقوال، له اضرار بالآخرين، أو هو عمل سخيف فى ذاته أو مرفوض اجتماعيًا أو خطير فى بعض الأحيان.

وقد يقهره المرض على أن يكف عن عمل مفيد بل ربما كان فيه إنقاذ لمال، أو نفس لإنسان أو حيوان، وربما كان فى القيام به دفع لمخاطر لابد من دفعها.

* وفى كلتا الحالتين القهر على العمل أو القهر على الكف عن القيام به، فإن المريض يتصور أن خروجه من هذا القهر سيجلب عليه الضيق والقلق والألم، وبهذا يمكن أن يرتكب المريض جريمة صغيرة أو كبيرة وهو مسلوب الإرادة مقهور، لا يملك الخروج من دائرة هذا القهر.

وكثير من مرضى الحُصار القهرى يسرفون فى شرب الخمر أو تعاطى المخدرات، أو لعب الميسر وخسارة المال، بل قد يدفعه فى بعض الأحيان إلى الانتحار، أو قتل زوجته أو أطفاله!!!

- ومما هو جدير بأن يلحظ على مرضى الحصار القهرى أنهم ملتزمون إلى حد التزمت والتشدد، وأنهم صارمون لا يعرف الصفح أو التسامح إلى نفوسهم سبيلاً.

- كما يلحظ عليهم التردد، والارتياب فى الناس والظروف، والتوجس وتوقع الشر فى كل ما يصدر عنهم، ولكنهم يفعلون ذلك كله لأنهم مرضى بالحصار القهرى.

٨- أشهر مناهج البحث فى علم النفس:

نظرًا لما لعلم النفس من صلة بالعلوم ابتداء من علم الحياة «البيلوجى» إلى علم الاجتماع، فلابد أن يتأثر بالمنهج المتبع فى العلوم وهو المنهج الموضوعى، ولأن علم النفس يعتمد فى كثير من بحوثه ودراساته على إحساس الباحث وشعوره، فلابد أن يتأثر بالمنهج الذاتى، ولأن بعض دراسات علم النفس تجمع ما بين الموضوعية والذاتية، فلابد أن يأخذ علم النفس بالمنهج المزدوج، على نحو ما سنوضح بإيجاز فى الصفحات التالية:

أ- المنهج الموضوعى:

وهو المنهج المعتمد فى علم الحياة «البيلوجى» وفى علم الاجتماع، ولما بين علم النفس وهذه العلوم من صلة وثيقة - كما أوضحنا فيما سلف - فلابد لعلم النفس أن يعتمد المنهج الموضوعى فى جانب كبير من جوانب البحث والدراسة فيه.

- ومن المعروف أن علم الاجتماع يقوم على دراسة الظاهرة الاجتماعية، وهذه الدراسة عمل موضوعى بكل تأكيد فى أغلب جوانبها، فلا يستطيع علم النفس وهو يدرس مسائل وقضايا فى علم الاجتماع إلا أن يتخذ المنهج الموضوعى، منهجًا له فى هذا المجال.

- وعلم الأحياء وعلم الفيزياء وعلم الكيمياء وكثير من العلوم العلمية التطبيقية، وعلم الاجتماع معظمه يقوم على الدراسة الموضوعية، وتدرس موضوعاته من الخارج أى من خارج النفس الإنسانية، وكل ما هو خارج نفس الإنسان لابد أن يخضع للمنهج الموضوعى.

- وعلى الرغم من أن بعض علوم الأحياء الخاصة بالإنسان قد تكون فى متناول حواس الباحث ومصحوبة بشعور ذاتى له أحيانًا؛ كالإحساس بالجوع والألم؛ فإن معظم ما يتصل بعلم الحياة يظل مجهولاً بالنسبة لمشاعر الإنسان وحواسه، فلا يستطيع الإنسان أن يشعر بما تفرزه بعض أجزاء جسده كالحويصلة الصفراوية والكبد من عصارات ومواد كيماوية، وهذا أمر يرشح ويزكى بل يؤكد أن المنهج الموضوعى أنسب للدراسات والبحوث النفسية.

- على أن الغرض من المنهج الموضوعى فى علم النفس هو لحظ سلوك الغير فى مجال الألفاظ والإيماءات والحركات والأوضاع، وكل ما يحيط بالغير من ظروف طبيعية، وعندئذ يكون المنهج مقصورًا على الملاحظة الظاهرة، أو الظروف الصناعية المضبوطة بحالات خاصة، فإن المنهج المتبع يجب أن يجمع بين الملاحظة والتجريب.

ب- المنهج الذاتى:

يقوم المنهج الذاتى فى علم النفس على إحساس الباحث وشعوره، سواء أكان الباحث يختبر الحالة بنفسه لأنها داخلية ومباشرة ومستمرة فى داخله، أم كان يبحث ويختبر حالة إنسان آخر يحس به ويشعر بما يحيط به؛ فينعكس ذلك على نفسه ويصبح إحساسًا بالإحساس، وتأملاً لما يجول فى الذهن.

- وانعكاس الشعور على نفس الباحث هو ما يسمى بالتأمل الباطنى، أو الاستبطان، الذى يقوم على تكليف الفرد بأن يجيب عن بعض الاختبارات لمعرفة كيفية وصفه لحالته النفسية؛ وذلك من صميم المنهج الذاتى.

- على أن المنهج الذاتى منهج تجريبى يقوم على التجربة المباشرة، والملاحظة التى تعتمد على ما تدركه الحواس وحدها، ولا قيمة فى هذا المنهج لأى حقائق عقلية سابقة على الخبرة الحسية.

- وعندما يوجه الباحث انتباهه نحو عملية الإدراك نفسها، وما يحيط بها من تأثرات وجدانية وخواطر وتصورات، فيصفها ويحللها؛ فإنه عندئذ يقوم بدراسة نفسية يعتمد فيها على المنهج الذاتى فى البحث الذى يعتمد على التأمل الباطنى، وهى عملية صعبة لأنها تخالف النزعة الإنسانية الطبيعية إلى مشاهدة العالم الخارجى.

- على أن التأمل الباطنى - الاستبطان - وإن اعتمد على المنهج الذاتى لعلم النفس؛ إلا أن هذا التأمل الباطنى له حدود تحدّه، وتحدّ صحة نتائجه إلى حد كبير، وذلك مثل: أن المحلل أو الدارس لا يستطيع أن يدرس حالته النفسية عندما يكون منفعلاً مثلاً؛ وذلك بسبب التضاد الموجود بين الانفعال وعملية التصور الذهنى، كما لا يمكن أن يدرس أحد بالتأمل - الاستبطان - فترة الانتقال من حالة الصحو إلى حالة النوم، لأن تركيز الانتباه من أجل هذه الدراسة يزيل حالة النُّعاس.

- وكل ما يحصل عليه الدارس عن طريق التأمل الباطنى ذو صبغة فردية يحتاج إلى أن يصقل ليصبح موضوعًا علميًا، أى يحتاج إلى التعبير اللفظى عما شاهده الدارس.

جـ- المنهج المزدوج:

يقوم هذا المنهج على الجمع بين التأمل الباطنى والملاحظة الظاهرة.

وإنما يلجأ إليه الباحث فى علم النفس عندما يجد فى بحثه ظواهر نفسية معقدة وغامضة يتعذر تطبيق المنهج الموضوعى عليها؛ وذلك مثل التأثيرات الوجدانية؛ وعندئذ يلجأ الباحث إلى الملاحظة الظاهرة، فيستدل بالسلوك الظاهرى على الحالات الشعورية الوجدانية لدى الآخرين، فيسمى هذا المنهج الذى اتبعه فى بحثه بالمنهج المزدوج.

* ويستخدم الباحث فى علم النفس المنهج المزدوج بطريقة تلقائية؛ لفهم الآخرين، ولتعليل سلوكهم.

وقد اعتمد علم النفس على هذا المنهج المزدوج منذ نشأته الأولى، غير أن هذا المنهج يحتاج فى تطبيقه إلى حذر شديد ودقة حتى لا يصدر أحكامًا على سرائر الآخرين دون التأكد من عمق أوجه الشبه بين الباحث وهذا الآخر الذى يقوم بدراسة حالته، أو بالظروف التى كانت فى السابق والظروف الراهنة التى تحيط بالشخص الذى يقوم بدراسته.

إن الباحث النفسى الذى يلجأ إلى التعامل مع المنهج المزدوج فى بحوثه ودراساته إنما يلبس ويضفى على الشخص الذى يدرسه ما يعتقد أنه يشعر هو به لو كان فى الظروف نفسها، لأن ذلك هو الذى يحدث تعاطف، وتجاوبًا بينه وبين من يقوم بدراسة حالته، وهذا التعاطف والتجاوب بينهما مطلوب لأنه يعين على الوصول إلى الحقيقة فيتيسر العلاج.

وهذا هو الفرق بين المنهج الموضوعى والمنهج المزدوج، لأن الباحث وفق المنهج الموضوعى لا يقارن بين حالته الشعورية بوصفه باحثًا وبين حالة الطرف الآخر الذى يبحث حالته، بينما الباحث وفق المنهج المزدوج يقوم بإسقاط حالته الشعورية على الطرف الآخر الذى يبحثه.

وبعد: فهذا ما أردت قوله عن النفس فى علم النفس الحديث فى الفصل الثانى من هذا الباب، قبل أن أتحدث عن النفس وصفاتها وأنواعها فى الإسلام فى الباب الثانى من هذا الكتاب بفصوله الثلاثة سائلاً الله تعالى العون، والتوفيق والسداد.

****





الباب الثانى

النفس.. صفاتها وأنواعها فى الإسلام

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول:

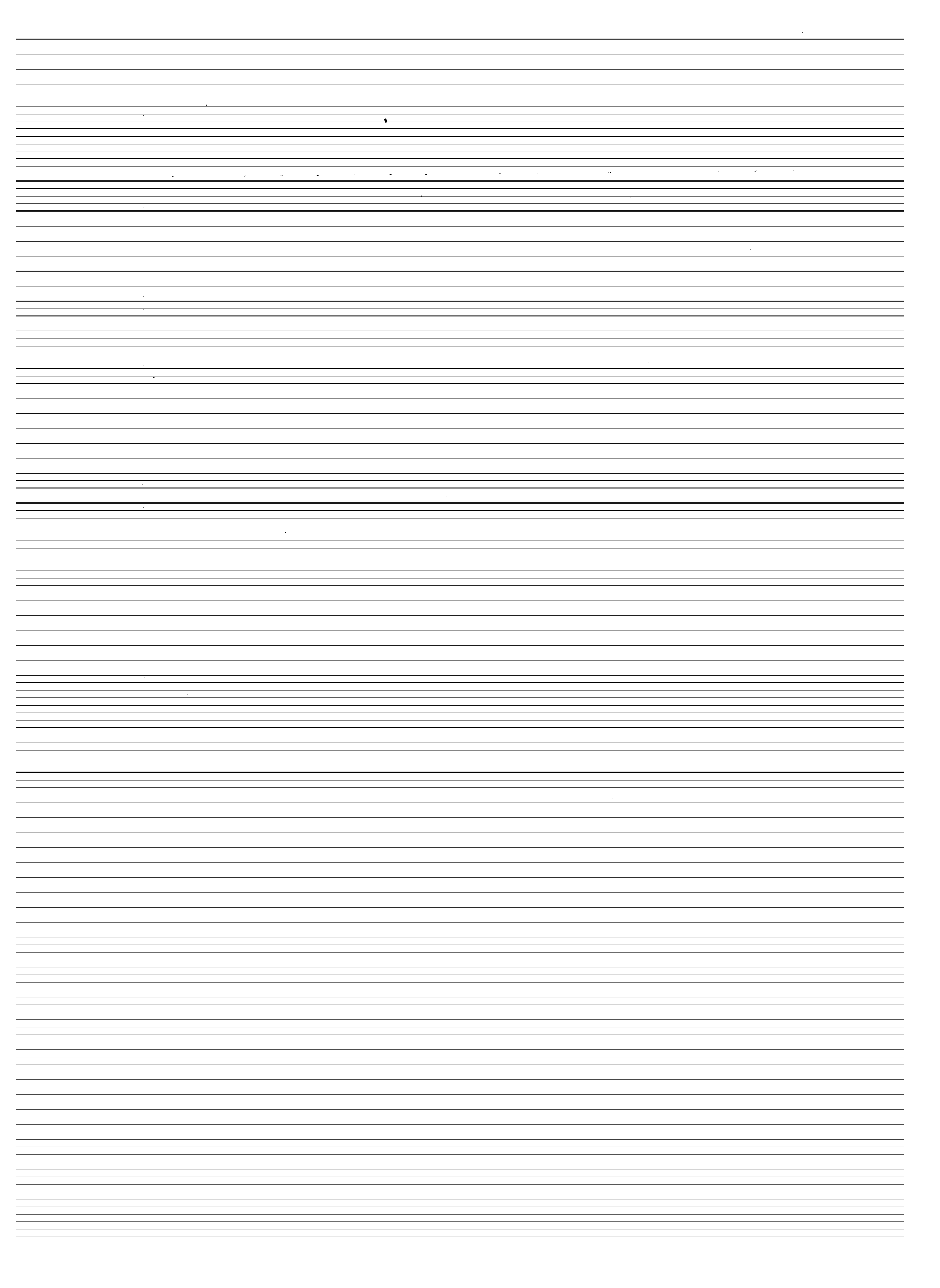
النفس فى الإسلام

والفصل الثانى:

صفات النفوس فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة

والفصل الثالث:

مجمل صفات النفس عمومًا



نحاول بعون من الله أن نتحدث فى هذا البـاب الثانى من الكتاب عن النفس الإنسانية؛ صفاتها وأنواعها وتوجيه الإسلام لهـا من أجل أن ترشد، وتحسن التعامل مع خالقها، ومع ذاتهـا، ومع غيـرها من الأوليـاء والأعداء، أناسًا وشيـاطين؛ لكى تحظى بسـعادة الدنيـا والآخرة.

وقد أقمت هذا الباب على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: النفس فى الإسلام:

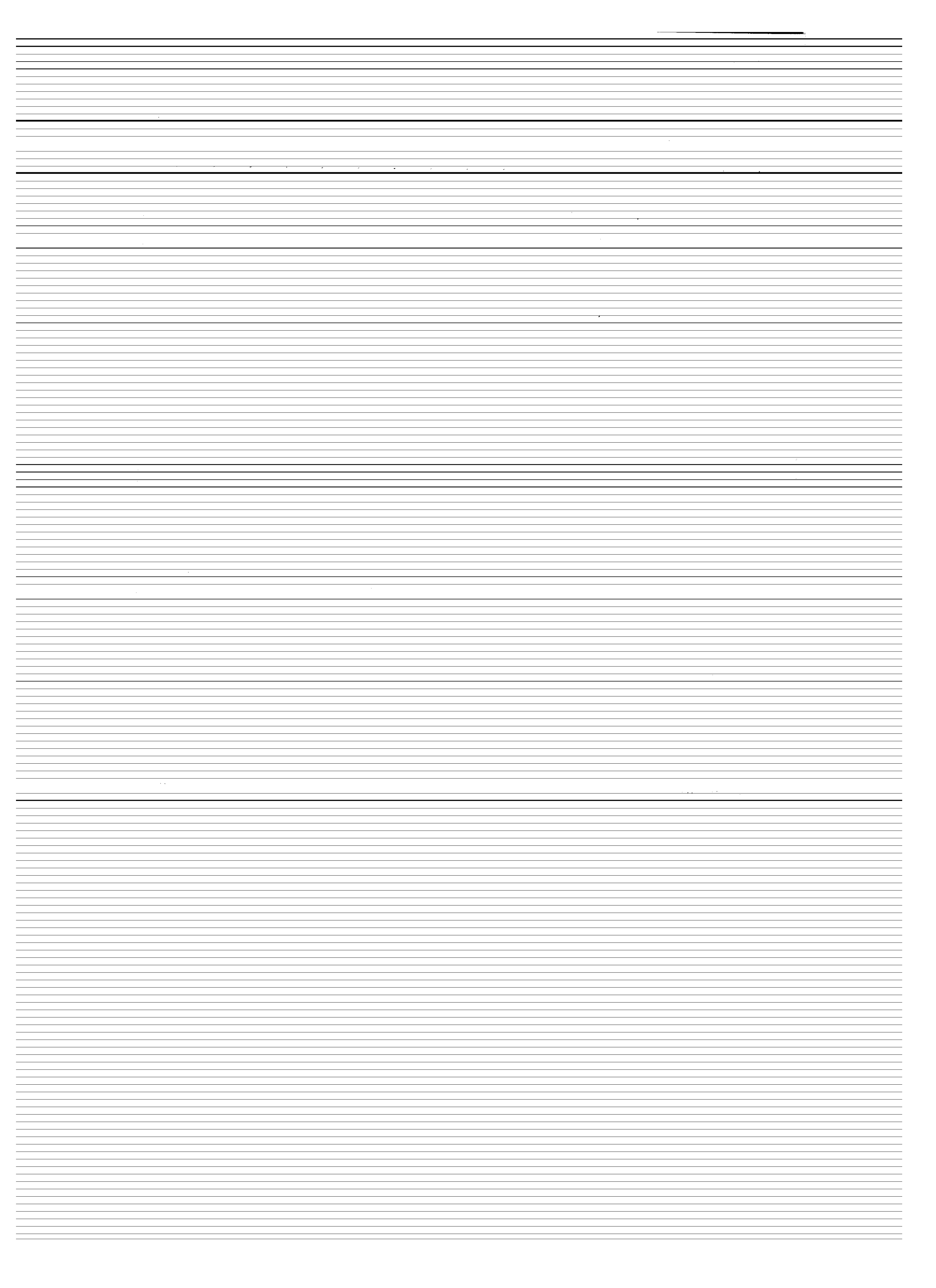
تحدثت فيـه عن: تعريف الإسلام النفس، وتعامله مـعها، فى أهم مجـالات التعامل، وعن أنواع النفس، وتعامل الإنسان مع نفسه، وتوجيه الله تعالى للنفس.

والفصل الثانى: صفات النفوس وأنواعهـا؛ كما جاءت فى الكتاب والسنة، وقد تحدثت فيه عن:

صفات المؤمنين وصفات أهل الكتاب، وصفات المنافقين وصفات الكافرين والمشركين.

ثم تحدثت عن أساليب الكتاب والسنة فى توجيه النفوس، بأساليب عديدة مثل: أسلوب التعريف بصفات الأنبيـاء والمرسلين، وأسلوب الإشادة بصفات المؤمنين الصالحين، وأسلوب التحذير من صفات المكابرين المعاندين والصـفات التى تزينها الشياطين، وأسلوب النهى عن الاتصاف بصفات الكافرين أو المشركين، وأسلوب الحديث عن صفات المؤمنين النفسية.

ثم ختمته بالحديث عن مجـمل صفات النفس فى الإسلام. وهو الفصل الثالث فى هذا الباب.





الفصل الأول

النفس في الإسلام



النفس – فى الإسلام – كثيرًا ما تعنى الإنسان – كما قلنا ذلك آنفًا – والإنسان ونفسه أكرم على الله سبحانه وتعالى من كثير من خلقه، إذ سخر الله تعالى له ما فى السموات والأرض نعمة من الله تعالى يفيد منها فى دنياه وآخرته.

إن الإنسان يفيد مما خلقه الله تعالى له فى كل أمره؛ فى مطعمه ومشربه وملبسه ومسكنه ومعاشه كله، حتى إن تدبر الإنسان فيما خلق الله له يفيد قلبه وعقله ويعصمه من جحود نعم الله تعالى، كما يعصمه من الكفر بالله تعالى واهب النعم.

* والله تعالى عندما قضى وأراد أن يحيا الإنسان فى هذه الأرض، ويمارس فيها حياته الدنيا كما أمره، ووفق ما شرع له من دين ومنهاج، طالبه بأن يزرع فى هذه الدنيا من أنواع البرّ والخير ما سيحصد ثماره فى الآخرة ثوابًا من الله حسنًا وأجرًا كبيرًا.

وقد قضى الله تعالى للنفس الإنسانية أن تستوفى أيامها فى الدنيا لتموت عند الأجل الذى حدده الله لها، وما بين أن يبلغ الإنسان مرحلة التكليف الشرعى، ونهاية أيامه على الأرض، اعتنى به الإسلام عناية فائقة تمثلت فى:

- تكريمه ورزقه وتيسير حركته وتفضيله على كثير من خلق الله تعالى.
- وقَرَّرَ له من الحقوق والحريات ما من شأنه أن يمكنه من أن يعيش حياة حرة كريمة.
- وطالب المجتمع أفرادًا وجماعات وحكومة وحاكمًا أن يحترم هذه الحقوق والحريات، وألا يحول بين إنسان وشيء من حقوقه وحرياته، ومن حَرَم إنسانًا من حقوقه أو حرياته فقد أثم؛ لأنه خالف أمر الله، وبذلك يستحق عقوبة دنيوية أو أخروية.
- وحرَّم الله تعالى قتل النفس أو إيذاءها أو تعريضها للخطر أو الامتناع عن إنقاذها إذا تعرضت لخطر أو ضرر وهو قادر على دفعه عنها، بل أعلن رسول الله ﷺ أن حرمة نفس المؤمن أكبر عند الله تعالى من حرمة الكعبة المشرفة.
- ومنح الإسلام الإنسان أنواعًا من الحريات التى تلائم تحقيق مصالحه الدنيوية والأخروية:
- فمنحه حرية الاعتقاد وحرية التعبد.

- وحرية العمل وحرية الكسب وحرية التملك.

- والحرية الاجتماعية فى الزواج وفى تكوين أسرة.

- والحرية الثقافية فى التعلم والعلم والقراءة.

- والحرية السياسية، حاكمًا أو محكومًا، وحرية نقد أى عمل أو خطة سياسية.

- وحرية التعبير عما يرى أنه الحق.

- وحرية التنقل والسفر والإقامة.

وغير هذه الحريات كثير مما كفله الإسلام للإنسان، وكل ما شرطه الإسلام على الإنسان وهو يمارس تلك الحريات هو ألا يضر بأحد من الناس، أو يصادر حريته أو أى حق من حقوقه.

وعلى سبيل المثال:

فإن الإسلام قد ضمن للإنسان أن يكون حرًا فى حياته لا يستعبده أحد أو يهينه أو ينتقص من كرامته، حتى لو عوقب على جريمة ارتكبها، فذلك لا يبرر إهانة إنسانيته فى التحقيق ولا فى التقاضى ولا أثناء توقيع العقاب عليه حتى لو كانت عقوبته الإعدام.

* وفى سبيل إثراء الحياة الإنسانية وجعلها فى صالح الإنسان فإن الإسلام أوجب على الإنسان واجبات وألزمه بأدائها، بل جعل عليه عقوبة إن امتنع عن أدائها.

وهذه الواجبات شاملة متكاملة، فمنها:

- واجبات فردية تخص الإنسان فى ذاته وهى كثيرة.

- وواجبات أُسرية تجب عليه نحو أسرته زوجًا وأبناء وأقارب وأرحامًا وجيرانًا وأصدقاء،

- وواجبات عامة نحو وطنه العربى أو وطنه الإسلامى أو نحو المجتمع الدولى كله.

* هذه النفس الإنسانية التى كرمها الله تعالى وفضّلها أعزّها بتشريعاته ونظامه ومنهجه، حيث ضمن لها بذلك حياة إنسانية كريمة سعيدة، وحياة أخروية عامرة بحسن ثواب الله تعالى ورحمته؛ إن هو احترم هذه التشريعات والتزم بها وحافظ عليها، ودعا إلى العمل بها، وتحرك من أجل تغيير أى نظام يعطلها أو يستبدل بها نظامًا أو تشريعات أخرى.

* ولقد وضع الإسلام لهذه النفس الإنسانية قيمًا خلقية وآدابًا فردية واجتماعية فى كل مجال من مجالات الحياة التى يحياها، فللمسلم خلق وأدب حين يتكلم وحين يصمت، وله أخلاق وآداب حين يعمل ويتحرك، وحين يكف عن العمل أو الحركة، وله آداب حين يحارب وحين يسالم وحين يصالح وحين يتحالف أو يكتب ميثاقًا.

وللمسلم آداب وأخلاق فى تعاملاته كلها مع المسلمين ومع غير المسلمين.

* وعندما نقول: النفس فى الإسلام، فإننا نعنى: النفس كما تحدث عنها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ لأن الإسلام فى جوهره ومتنه وأصله هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بمعناها الواسع الذى يشمل كلمات النبى ﷺ وأفعاله وتقريراته، وسيرته، ولقد أكرم الله الأمة الإسلامية الخاتمة بأن تكفل لها بحفظ القرآن الكريم، فحفظ السنة والسيرة بحفظه، والحمد لله على هذه النعمة، فإنى أراها من أكبر النعم.

* ولقد وصف الإسلام هذه النفس وصنفها إلى: نفس مطمئنة، وأخرى لوامة، وثالثة أمارة بالسوء، فصارت بهذا التصنيف أنواعًا: مؤمنة، ومنافقة، وكافرة أو مشركة، ولكل نوع منها أماراته، وله أسلوب فى التعامل معه.

وسوف نوضح ذلك بإذن الله فى فصول هذا الباب، والله تعالى ولى التوفيق.

١- تعريف الإسلام النفس الإنسانية:

عرّف الإسلام النفس الإنسانية تارة بأنها ذات الإنسان، وتارة بأنها عقل الإنسان وقلبه، وقد استقينا هذا التعريف من مصدرى الإسلام الأساسيين وهما: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، إذ هما مرجعيتنا العليا التى أكرمنا الله تعالى بأن عصمهما لنا عن الخطأ والتغيير والتحريف؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذى تكفل بحفظ القرآن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فحفظ السنة إذ حفظ القرآن الكريم، لأن السنة مثله أو متممة له.

* وفى تعريف القرآن الكريم النفس بأنها ذات الإنسان: جاء قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]

وجاء قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ...﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فالنفس فى هاتين الآيتين الكريمتين هى ذات الإنسان.

* وفى تعريف القرآن الكريم النفس بأنها الروح أو القلب أو العقل:

جاء قول الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ...﴾ [البقرة: ٢٣٥].

فالنفس فى هذه الآية الكريمة هى الروح أو القلب أو العقل، والله تعالى يعلم ما بداخلها ويحاسب عندما يخرج ما فى داخلها إلى مجال العمل والتطبيق، فيكون مما نهى الله تعالى عن عمله.

* وسواء أكانت النفس بمعنى ذات الإنسان أو كانت بمعنى روحه وقلبه وعقله، فإن الله تعالى خلق هذه النفس وأعطاها القدرة على فعل الخير أو الشر، ومنحها الإرادة وحرية الاختيار، وجعلها عالمًا مترامى الأبعاد يشتمل على الشىء ونقيضه؛ فالإنسان قادر على أن يضع نفسه حيث يشاء، إن شاء أن يؤمن آمن، وإن شاء أن يكفر كفر، وألهم هذه النفس فجورها وتقواها، وترك للإنسان حرية الاختيار، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

- وما يزكى الإنسان نفسه إلا بطاعة الله تعالى والعمل الصالح، وما يخفى فضائلها ويدسِّيها إلا بمعصية الله تعالى والوقوع فيما نهى عنه.

- ومع هذه الحرية فى الاختيار، فقد كان من رحمة الله تعالى بالإنسان وحبه له أن أنعم عليه بإرسال الرسل ليعينوه على معرفة الشر والخير والكفر والإيمان بعد أن أنعم عليه بنعمة العقل، ثم كان من تمام النعمة وكمالها أن مَنَّ الله على البشرية كلها بخاتم الأديان وخاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام الذى أخبر فيما يرويه عنه ابن ماجة بسنده عن العرباض بن سارية رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «.... قد **تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك...**».

* وأما السنة النبوية المطهرة فقد وردت فيها النفس بالمعنيين كليهما؛ ذات الإنسان مرة، والروح والقلب والعقل مرة.

فبمعنى ذات الإنسان ورد:

- ما رواه أحمد بسنده عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«... لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة....»**.

فالنفس هى الإنسان ذاته.

- وما رواه أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يَغْزُ، ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق».

فالنفس فى هذا الحديث تعنى الروح أو القلب أو العقل، لأن هذا الحديث يدور فى داخلها.

* وتعريف الإسلام النفس مبنى على العلم بها ومعرفة ما فيها، والإسلام - كما أوضحنا - هو الكتاب والسنة من حيث مصدره، ومن حيث جوهره هو الإذعان لله تعالى؛ لأمره ونهيه ومنهجه ونظامه أكمل منهج وأكثر النظم عدالة، ونفعًا للناس فى معاشهم ومعادهم.

وإنما كان الإسلام كذلك لأنه خاتم الأديان وأتمها، وكتابه خاتم الكتب السماوية، ورسوله خاتم الأنبياء والمرسلين، هذا الكتاب الخاتم الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الكفر والضلال إلى الإيمان والهدى، والذى ما فرط الله تعالى فيه من شىء.

وهذا الرسول الخاتم الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ، والذى أمر بكل خير ونهى عن كل شر.

هذا الإسلام بهذين المصدرين الكتاب والسنة لابد أن يكون علمه بالنفس الإنسانية أصح وأدق ما يكون العلم بها، ولابد أن نتلقى ما يُعرِّف به الإسلام النفس بكل ثقة وبكل تقدير، ومادامت النفس هى الإنسان أو هى روحه أو قلبه أو عقله، فإن الله تعالى هو الذى خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، ورسوله الخاتم ينقل عنه سبحانه ما يوحيه إليه، لا يزيد حرفًا ولا ينقص حرفًا، بل لا ينطق فى أمور الدين والعلم إلا بما أوحاه إليه ربه سبحانه وتعالى.

* وهذه النفس أو هذا الإنسان هو الذى كرّمه الله تعالى وحمله فى البر والبحر على ما يمكنه من قطع المسافات فى يسر وراحة، ورزقه من الطيبات، وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً واضحًا، إذ جعل جميع مخلوقاته فى خدمة هذا الإنسان.

هذه النفس إذا تحدث عنها خالقها سبحانه وتعالى أو أوحى إلى رسوله الخاتم أن يتحدث عنها؛ فهل هناك ما هو أجمع وأكمل وأوثق مما يقول عنها؟

إن المعرفة الحقة للإنسان لا تكون إلا من خلال كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

٢- تعامل الإسلام مع النفس:

تعامل الإسلام مع النفس الإنسانية تعامل مبنى على العلم والمعرفة، علم الله الذى وسع كل شىء علمًا، ومعرفته التى لا يدخل عليها نقص أو قصور.

وهدف هذا العلم وتلك المعرفة هو رحمة هذا الإنسان وتكريمه، وتعريفه نفسه وتعريف غيره عنه، ليكون فى ذلك تكريم له واحترام وتقدير لهذا الإنسان المكرم عند الله تعالى.

ولقد تعامل الإسلام مع النفس الإنسانية فى مجالات ثلاثة:

- مجال وحدة الأصل.
- ومجال حرمة النفس ومكانتها.
- ومجال التكليف والمساءلة.

أ- فى مجال وحدة الأصل:

إخبار القرآن الكريم بأن الناس جميعًا من أصل واحد هو آدم أبو البشر عليه الصلاة والسلام، وأن حواء عليها الصلاة والسلام هى أمهم، إخبار الناس بذلك فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية، إنما جاء لدعم فكرة التعارف والتآلف بين الناس الذين يجمعهم أصل واحد؛ أب واحد وأم واحدة، ليكون بينهم حب ومودة وتعاون، وترك للتفاخر والتكبر، وإنما هو التواضع وحسن الخلق وما يترتب عليه من تواصل وألفة.

* وفى الآيات الكريمة التى سنذكرها وهى تقرر وحدة أصل الناس جميعًا، لم تخلُ واحدة منها من حديث عن الله تعالى إما لرجائه ودعائه، وإما لبيان دلائل قدرته، وإما للثناء عليه وتأكيد أنه إله واحد، وإما لطلب تقواه وخوف عصيانه، وذلك يؤكد وحدة الإله بعد وحدة الأصل، ووحدة الإله سبحانه تقتضى توحيده والاعتراف له بصفات الكمال، وتنزيهه عن الشركاء فى الوجود وفى الأفعال وفى الصفات، لتستقيم بذلك أمور البشرية وهى تعبد إلهًا واحدًا له ملك السموات والأرض، وتتلقى عن رسوله الخاتم منهجه ونظامه فتحظى بسعادة الدارين.

* أما الآيات القرآنية الكريمة الدالة على وحدة أصل الناس ووحدة معبودهم وخالقهم، فمنها:

- قوله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ

مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٨].

- وقوله جل شأنه: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر: ٦].

- وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

فكل هذه الآيات الكريمة تقرر وحدة الأصل ووحدة الإله الخالق سبحانه وتعالى، وغير هذه الآيات الكريمة في القرآن الكريم كثير يؤكد هذا المعنى.

* وأما الأحاديث النبوية الشريفة الدالة على ذلك فمنها:

- ما روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... **فيأتون فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا...**».

- وما وروى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقى أو فاجر شقى، والناس بنو آدم، وآدم من تراب، لينتهين أقوام عن فخرهم برجال، أو ليكونن أهون عند الله من عدتهم من الجعلان التى تدفع بأنفها النتن**».

- وما روى أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة بعد العصر إلى مغيربان الشمس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أما بعد، فإن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، ألا إن بنى آدم خلقوا على طبقات شتَّى؛ منهم من يولد مؤمنًا ويحيا مؤمنًا ويموت مؤمنًا، ومنهم من يولد كافرًا ويحيى كافرًا ويموت كافرًا، ومنهم من يولد مؤمنًا ويحيا مؤمنًا ويموت كافرًا، ومنهم من يولد كافرًا ويحيا كافرًا ويموت مؤمنًا...**»

فهذا أصل الإنسان، فالناس جميعا أبناء آدم، وبهذا تحسم قضية وحدة أصل الإنسان، ولا تقبل تخرصات المتخرصين مهما زعموا أنهم استنبأوا العلم واستنطقوا المعرفة.

ب- وفى مجال حرمة النفس ومكانتها:

لأن الإنسان من أكرم مخلوقات الله تعالى، فقد أوجب على الناس جميعًا أن يحترموه وأن يقيموا أكبر وزن لحياته وأن يجعلوا له فى الأرض أكبر مكانة، وحرّم الله على كل أحد أن يقضى على حياة الإنسان أو يعرضها للخطر، أو أن ينتقص شيئًا من حقوقها التى كفلتها له شريعة الإسلام، ودلت عليها آيات القرآن الكريم وكلمات السنة النبوية المطهرة، حتى إن الله تعالى حرم على الإنسان أن يقتل نفسه أو يظلمها بقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ**...﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله: ﴿**سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٧].

فأى مكانة وأى حرمة للإنسان أكبر من ذلك، ولقد دلَّتْ على تلك الحرمة وهذه المكانة آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية المطهرة.

* أما آيات القرآن الكريم؛ فمنها:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿...**وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥١].

- وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا**﴾ [الإسراء: ٣٣].

- وقوله عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا**﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

* وقد حرم الله قتل النفس فى كل شريعة ودين، فقال عن ولدى آدم: ﴿**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [المائدة: ٣٠].

وقال عن التوراة التى أنزلها على موسى عليه السلام:

﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ [المائدة: ٣٢].

* وأوجب الله تعالى على عباده أن يحترموا حرمة الإنسان فى جسده وفى روحه وعقله وأهله وذويه، وماله وعرضه، وشرع عقابًا لمن اعتدى على شىء من ذلك دنيويًا يتدرج من جلد المعتدى إلى القصاص على قدر جريمته فى الإنسان الآخر، فقال تعالى:

﴿ . . .وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ . .﴾ [النساء: ٢٩].

- وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ. . .﴾ [التحريم: ٦].

- وقال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ. . .﴾ [النساء: ٥٨].

- وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]

* وأما الأحاديث النبوية الشريفة فمنها:

- ما روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تحاسدوا، ولا تناجشوا[1]، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه».**

- وما روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمِّته، وإذا مرض فعُده، وإذا مات فاتبعه».**

(١) المناجشة هى المزايدة فى ثمن سلعة معروضة للبيع - فى مزاد - ولا رغبة للمزايد فى شرائها، وإنما قصده أن يغر غيره ليشترى بثمن أكبر، وهذا حرام لما فيه من إضرار.

– وما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: أُتِىَ رسولُ الله ﷺ برجُلٍ قد شرب خمرًا، قال: «اضربوه»(١)، قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده والضارب بنعله والضارب بثوبه، فلما انصرف – أى المضروب – قال بعض القوم: أخزاك الله، قال: **«لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان»**.

– وما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»**.

– وما رواه أبو داود بسنده عن معاوية رضى الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت تفسدهم»**.

– وما رواه الترمذى بسنده عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك»**.

– وما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: **«إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، مِنْ أجل أن ذلك يُحزنه»**.

– وما رواه مسلم بسنده عن هشام بن حكيم بن حزام رضى الله عنهما أنه مَرَّ بالشام على أُناس من الأنباط(٢)؛ وقد أقيموا فى الشمس وصُبَّ على رءوسهم الزيتُ، فقال: ما هذا؟ قيل: يعذَّبون فى الخراج – وفى رواية: حُبِسوا فى الجزية –، فقال هشام: أشهد لسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا»**(٣) فدخل على الأمير فحدثه، فأمر بهم فخُلُّوا.

* إن الإسلام كفل للإنسان – بغض النظر عن دينه – حق الحياة بل حق الحياة الكريمة وسائر حقوق الإنسان.

---

(١) أى اضربوه حدَّ شرب الخمر.

(٢) الأنباط العاملون بالفلاحة من العجم.

(٣) أين هذا مما تفعله حكومات الظلم والإرهاب فى زمننا هذا بمن يتهمونهم بالإرهاب من ضرب وتعذيب وتنكيل يبلغ حدًا لا يتصوره إنسان؛ كالعدوان الجنسى على المتهم وعلى محارمه وسَمْل العيون وتكسير العظام والإحراق بالنار والصعق بالكهرباء.
ولقد تفوقت فى ذلك إسرائيل وأمريكا، وكثير من حكام العالم الثالث وبخاصة العسكريون منهم، وبخاصة الخاصة إذا كان المتهمون عربًا أو مسلمين؛ ثم ينادون بالديمقراطية وحقوق الإنسان فى تبجح ومغالطة.

- فقد روى البخارى بسنده عن سهل بن حنيف وقيس بن سعد أنهما كانا قاعدين بالقادسية فمروا عليهما بجنازة فقاما، فقيل لهما: إنها من أهل الأرض - أى من أهل الذمة-، فقالا: إن النبى ﷺ مَرَّت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودى، فقال: «أَلَيْستْ نفسًا».

جـ- وفى مجال التكليف والمساءلة:

الإنسان فى مجال التكليف الشرعى، والمساءلة له عما قام به مما كُلف به له اعتباره وأهميته المعنوية والمادية، وذلك مما يؤكد أن الله تعالى لم يخلقه عبثًا، وإنما خلقه ليعبد الله تعالى فيثاب إن أطاع وقام بما كُلف به، ويُعاقب إن عصى وقصر فيما كُلف به أو امتنع عن أدائه.

- والتكليف مصطلح يعنى: ما فرض الله على الإنسان من واجبات خلقه الله قادرًا على أدائها.

والتكاليف الشرعية هى ما أمر الله به عباده، أو ما نهاهم عنه، يتعبدهم بما كلفهم به ليجزى من أطاع أحسن الجزاء، ويعاقب من عصى بما يناسب معصيته.

وهذه التكاليف الشرعية خاضعة لمبادئ عامة حددها القرآن الكريم فى آيات ثلاث:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والثانية: قوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

والثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

* وقد يكون التكليف فى ظاهره صعب التنفيذ، لكنه فى جوهره ميسور بل فيه خير كثير، وذلك مثل: تكليف الله تعالى عباده المؤمنين بالقتال، فالقتال فى ظاهره صعب تضيق به النفس لما فيه من تعريض الإنسان للخطر فى نفسه وماله وأهله وعياله إن هو قُتل، ولكن القتال فى حقيقته وجوهره دفاع عن الحق، فإن قُتل المقاتل فإنه يحظى بإحدى الحسنيين؛ النصر على عدوه أو نيل الشهادة فى سبيل الله التى يغفر بها كل ذنب وتسقط بها حقوق الله تعالى، ولا تبقى إلا حقوق العباد وبخاصة الدَّين، فالقتال خير وإن كرهه بعض المقاتلين وظنوه شرًا، كما عبرتْ عن ذلك آية قرآنية كريمة هى قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

* والتكاليف الشرعية جاءت وفق عدل إلهى مطلق، يتمثل فى قواعد عامة هى:

- لا تكليف إلا لمن بلغ الحُلُم، وغادر الطفولة وأصبح قادرًا على تحمل المسئولية.
- ولا تكليف إلا للعاقل، فلا يكلف فاقد العقل لجنون أو نحوه مما يذهب العقل.
- ولا تكليف إلا لقادر، وفى حدود ما يستطيع.

هذا عن التكليف الشرعى، أما المساءلة عن القيام بهذه التكاليف فهى من مقتضى العدالة الإلهية، وذلك ما قرره القرآن الكريم فى آيات كثيرة منها:

- قوله تبارك وتعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].
- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].
- وقوله جل شأنه: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

* وقد جاء فى القرآن الكريم آيات كثيرة عن التكليف والمساءلة كما وردت فيها أحاديث نبوية كثيرة، نذكر بعضها فيما يلى:

* أما آيات القرآن الكريم فمنها:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].
- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].
- وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤٢].
- وقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].
- وقوله جل وعلا: ﴿وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢]

* وأما الأحاديث النبوية الشريفة فمنها:

- ما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله؛ كُلِّفْنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والجهاد والصيام والصدقة، وقد أُنزلتْ علينا هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: **«أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابيْن قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: «سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»** فلما اقترأها[1] القوم، وذلقت[2] بها ألسنتهم؛ أنزل الله تعالى في إثرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ...﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا...﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: نعم، ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم».

- وما رواه البخاري ومسلم بسنديهما عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا[3]، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله تعالى فيه برهان، وعلى أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم».

- وما روى أبو داود بسنده عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا أيها الناس إنكم لتقرأون هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه[4]، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»**.

---

(١) اقترأها القوم: أي أكثروا من قراءتها.
(٢) ذلقت بها ألسنتهم: أي سهلتْ عليهم.
(٣) أثرة علينا: أي نسياننا لحظوظ أنفسنا من متع الدنيا.
(٤) لم يأخذوا على يديه: أي لم يمنعوه من ممارسة الظلم.

- وما رواه أبو داود بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض» ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٨١]. ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم».

- وما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أسامة بن حارثة رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار، فتندلق أقتاب[1] بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنتُ آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه».

وبعد: فهذا عن تعامل الإسلام مع هذه المجالات الثلاثة التى ذكرنا، فما أنواع النفس التى تعامل معها الإسلام؟ ذلك ما نوضحه فى الصفحات التالية بعون الله تعالى.

٣- أنواع النفس التى تعامل معها الإسلام:

أنواع النفس الإنسانية التى تعامل معها الإسلام، وورد تنويعها فى آيات القرآن الكريم ثلاثة:

- النفس المطمئنة:

وهى النفس المحمودة فى أقوالها وأعمالها، وهى مطمئنة إلى ما قضى الله تعالى به وقدره، وهى بين النفوس أعلاها درجة، وأولاها بجزيل الثواب عند الله تعالى، وهى التى تسرع بالتوبة إن وقعت فى ذنب، وهى النفس المستقيمة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

---

(١) أقتابه: أمعاؤه.

- والنفس اللوامة:

وهى نفس محمودة أيضًا؛ لأنها تلوم صاحبها عندما يقع فى ذنب، فتحمله على هجر المعصية، والإسراع إلى الطاعة، وهى بين النفوس ذات رتبة عالية، لكنها أقل من رتبة النفس المطمئنة، وهى النفس التى أقسم تعالى بها لمكانتها عنده إذ هى تلوم صاحبها، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ٢].

- والنفس الأمارة:

وهى النفس التى تأمر صاحبها بالسوء أو تزين له المعاصى، وهى نفس مذمومة، مستحقة لعقاب الله تعالى على ما تقترف من المعاصى، وهى أدنى النفوس، وأبعدها عن طاعة الله تعالى، وهى قد ورد ذكرها فى قوله تعالى على لسان امرأة عزيز مصر: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي...﴾ [يوسف: ٥٣].

أ- أنواع النفوس فى القرآن الكريم والسنة النبوية:

* هذه الأنواع الثلاثة من النفوس هى التى ورد ذكرها وتسميتها فى القرآن الكريم، ولكن تحت كل نوع فروع كثيرة على قدر تعدد الطاعات وقدر الإقبال عليها فى النوعين الأولين: المطمئنة واللوامة.

وكذلك تتنوع النفس الأمارة بالسوء على قدر ممارستها للمعاصى كثرة أو قلة.

* والإسلام يتعامل مع نفس الإنسان فى كل أحوالها مقبلة على الطاعات سابقة بالخيرات، أو مقلة من الطاعات، معترضة على المعاصى.

الإسلام ينظر إلى كل نفس بشرية على حدة، ولا يحمل نفسًا خطأ نفس أخرى، ولا يعاقب الأبناء بما فعل الآباء فى جيلهم أو الأجيال اللاحقة؛ إنه يتعامل معها بعدالة إلهية مطلقة، فقد شرع للمعصية عقابًا دنيويًا إن كانت مما تندرج تحت طائلة الحدود الشرعية أو التعزيرات، كما جعل للمعاصى عقابًا أخرويًا، إن شاء نفذه وإن شاء عفا عنه.

كما أنه جعل للطاعات ثوابًا أخرويًا، وأعطى للطائعين مكانة فى الدنيا ووجاهة عند الناس.

* ولقد كان من رحمة الله تعالى بعباده أن أوضح لهم معالم الطاعات ورسم لهم طريقها، وعلمهم، وحذَّرهم من المعاصى كبائر وصغائر، وأعلن لهم جميعًا طائعين وعصاة أنه سبحانه وتعالى سيجازى كلاً بما عمل، وجعل ذلك فى آيات القرآن الكريم وكلمات

خاتم المرسلين ﷺ، فقال تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، أى معاقبة بما عملت من معصية.

وقال: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥].

وقال: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

* ومعنى ذلك أن تعامل الإسلام مع النفس الإنسانية بجميع أنواعها وبفروع كل نوع منها تعامل تحكمه مبادئ العدل والرحمة، وإن الإنسان مجزى بجنس ما عمل، وأن النظام الإسلامى لا يعطل حدًا من حدود الله، ولا يبطل عقوبة مجاملة لأحد أو خوفًا من مكانة أحد، فقد روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة من بنى مخزوم سرقت، فقالوا: من يكلم فيها النبى ﷺ؟ فلم يجترئ أحد أن يكلمه، فكلمه أسامة بن زيد رضى الله عنه، فقال ﷺ: **«إن بنى إسرائيل كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف قطعوه، لو كانت فاطمة لقطعتُ يدها»**.

* فماذا قال القرآن الكريم عن هذه الأنواع الثلاثة من الأنفس؟

- عن النفس المطمئنة قال الله تعالى:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

والنفس المطمئنة هى الساكنة تحت الأمر، الطائعة لله ورسوله، التى زايلها الاضطراب وباعدت بين نفسها وبين ما لا يحل من الشهوات، وهى نفس محمودة عند الله وعند الناس.

- وقال سبحانه وتعالى عن النفس اللوّامة: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢].

والمعنى أن الله تعالى يقسم ويؤكد القسم بالنفس التى تلوم صاحبها على الذنب والتقصير، وهى نفس محمودة عند الله وعند الناس.

- وقال سبحانه وتعالى عن النفس الأمارة بالسوء:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

والمعنى أن النفس بطبعها تميل إلى الشهوات، وتزين السوء والشر لصاحبها، إلا من حفظ الله من هذه الأنفس فصرفها عن السوء.

وهذه النفس الأمارة بالسوء مذمومة وإن كانت نفس عدد كبير من الناس.

* وأما ما جاء فى السنة عن هذه الأنفس فنذكر منه:

- روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**. وبذلك يجب أن يمتلئ القلب أو النفس طمأنينة.

- وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: **«تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أُعطى رضى، وإن لم يُعط لم يرضَ»** فالنفس المطمئنة ترضى فى الفقر والغنى على السواء.

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أنس رضى الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعتُ مثلها قط، فقال: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا»** فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين[1].

- وفى النفس الأمارة بالسوء:

- روى البيهقى بسنده - فى كتاب الزهد - عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك»**.

وهى النفس التى تعادى صاحبها فتأمره بالسوء وتزين له المعاصى والشهبات.

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«إن الله تعالى يغار، وغيرة الله أن يأتى المرء ما حرّم الله عليه»**.

وما يأتى إنسان شيئًا مما حرّم الله عليه إلا أن تكون نفسه الأمارة بالسوء قد زينت له هذه المحرمات.

ب- أنواع النفوس كما رآها الأسلاف من العلماء:

هؤلاء الأسلاف من العلماء -رحمهم الله- كانت لهم رؤية فى تنوع النفس الإنسانية، زادوا فيها نوعًا عما ورد فى القرآن الكريم، فجعلوها أربعة أنواع بدلاً من ثلاثة؛ رغبة منهم فى التفصيل والشرح، حيث زادوا نوعًا من النفوس هو النفس السوالة أو المسوِّلة - كما سنوضح- أى النفس التى تسوِّل لصاحبها أن يعود إلى المعصية، وقد استدلوا عليها بما جاء فى القرآن الكريم وبما جاء فى السنة النبوية المطهرة، كما سنذكر عند الحديث عن هذه النفس المسوِّلة.

---

(١) الخنين: بكاء بصوت يخرج من الأنف.

* على أن هؤلاء الأسلاف من العلماء لم يقولوا: أنواع النفس أربعة، وإنما قالوا: طبقات التائبين أربع.

- والتائبون هم الذين زينت لهم نفوسهم التوبة، ومن المسلَّم به أن النفوس جميعًا لا تكون فى التوبة سواء، وذلك الذى سَوّغ لهم أن يقولوا: النفوس فى التوبة طبقات أربع.

- والتوبة عمل يصدر عن النفس الإنسانية؛ لأن التوبة هى:

- ترك الذنب لقبحه.
- والندم على ما فرط من الذنب.
- والعزم على ترك المعاودة للذنب.
- وتدارك ما يمكن تداركه من الأعمال.

- ومن وظائف التوبة أنها تُذكر صاحبها بكل ما يحمله على العودة إلى طاعة الله تعالى.

- ومن وظائفها أنها تدعو إلى ترك كل قبيح - وهو الذنب أو المعصية -، وتدعو إلى تحَرِّى كل جميل من الأقوال أو الأعمال وممارسته.

* من أجل ذلك قسَّم هؤلاء الأسلاف من العلماء التوبة إلى أربعة أنواع هى:

- توبة صاحب النفس المطمئنة.
- وتوبة صاحب النفس اللَّوامة.
- وتوبة صاحب النفس المسوِّلة أو السوَّالة.
- وتوبة صاحب النفس الأمارة.

* ومن هؤلاء الأسلاف من العلماء الإمام أبو حامد الغزالى (٤٤٥- ٥٠٥هـ / ١٠٥٨١ - ١١١١م)[(١)].

ونقل عنه ما قاله باختصار فيما يلى:

قال: «اعلم أن التائبين فى التوبة على أربع طبقات:

- الطبقة الأولى:

أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه، إلا الزلاَّت التى لا ينفك البشر عنها فى العادات... وصاحب هذه التوبة هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات.

---

(١) فى كتابه: إحياء علوم الدين. (٤/٤٤)، وما بعدها باختصار.

واسم هذه التوبة: النصوح.

واسم هذه النفس الساكنة: النفس المطمئنة.

وأهل هذه الطبقة على رُتب...

- والطبقة الثانية:

تائب سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات، وترك كبار الفواحش كلها، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه؛ لا عن عمد وتجريد وقصد، ولكن يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف.

وهذه أيضًا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى. وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى، إذ قال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

- والطبقة الثالثة:

أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه الشهوة فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة على الشهوة، وإنما قهرته الشهوة الواحدة أو الشهوتان، وهو يود لو أقدره الله على قمعها وكفاه شرها، هذه أمنيته فى حال قضاء الشهوة، وعند الفراغ يندم ويقول: ليتنى لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسى فى قهرها، لكنه تُسَوِّل له نفسه... فهذه النفس هى التى تسمى النفس المسوِّلة، وصاحبها من الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، فأمْره - من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما تعاطاه - مرجوّ، فعسى الله أن يتوب عليه...

- والطبقة الرابعة:

أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل فى اتباع شهواته؛ فهذا من جملة المُصِرِّين، وهذه النفس هى النفس الأمارة بالسوء، الفرارة من الخير، ويُخاف على هذه النفس سوء الخاتمة....».

٤- رعاية الله تعالى للنفس بتوجيهها نحو فعل الخير بأساليب عديدة:

لاشك فى أن الله تعالى يحب الإنسان؛ بدليل أنه كرَّمه ورزقه من الطيبات وفضله على كثير ممن خلق.

ولاشك فى أن الله تعالى أنعم على الإنسان بنعم لا تحصى أهمها العقل، وإرسال الرسل عليهم السلام ليهدوه إلى الحق وإلى الطريق القويم، وليعينوه على التمييز بين الخير والشر.

ولاشك فى أن «التكليف» تكليف الله تعالى للإنسان وتحميله أمانة التكاليف الشرعية، ينطوى على اختبار لقدرة الإنسان على حمل أعباء التكاليف الشرعية ليثاب عند الطاعة ويعاقب عند المعصية.

* والتكاليف الشرعية مصدرها الله تعالى عن طريق كتابه الكريم وسنة رسوله ﷺ، وهذه التكاليف فى صورتها التى بلغها الرسل عليهم الصلاة والسلام للناس هى: أمر بشىء ليمتثل، أو نهى عن شىء ليجتنب.

* ولهذا الأمر أو النهى أساليب عديدة، عدَّدها الله تعالى رحمة بالإنسان، حتى لا يَمَلَّ من الصيغة الواحدة أو الأسلوب الواحد، والنفوس أو القلوب تمل كما تمل الأبدان.

* والتكاليف الشرعية نعمة من الله على الإنسان، ندرك ذلك حينما نتصور الإنسان دون تكاليف شرعية، أيكون هناك فرق بينه وبين الحيوانات والنباتات والجمادات التى خلقها ولم يكلفها، وإن كانت بفطرتها تسبح الله دون أن يفقه الناس تسبيحها، فالتكليف إذن نعمة دعم الله تعالى بها إنسانية الإنسان وكرمه بها.

* والتكاليف الشرعية تجعل ما كُلِّف به الإنسان عبادة لله وحبًا فيه سبحانه وميلاً شديدًا إلى طاعته طمعًا فى الحصول على رضاه، بينما ترك التكاليف الشرعية يجعل أعمال الإنسان أدخل فى العادات منها فى العبادات، والفرق بينهما شاسع، فالعبادة طاعة لله ولرسوله يترتب عليها الأجر والثواب، بينما العادة عمل تلقائى يقوم به الإنسان مدفوعًا إليه بفطرته وطبيعة تكوينه لا يملك معها اختيارًا أو إرادة، كحركة أعضائه غير الإرادية ونمو أعضاء جسده وعمل أجهزته الدورية والهضمية...

* وإذا كان التكليف لا يخرج فى حقيقته عن الأمر والنهى وما فى معناهما، فإن واجب الإنسان أن ينعم النظر فى أمر الله تعالى ونهيه، ليمتثل ما أمر به ويجتنب ما نهى عنه، متابعًا هذه الأساليب العديدة التى جاء بها الأمر أو النهى بشكل مباشر أو غير مباشر.

وهذه الأساليب منها:

أ- أسلوب الأمر المباشر:

الأمر المباشر هو الذى خاطب الله تعالى به عباده، أو أمر رسوله ﷺ أن يخاطبهم به.

والأمر المباشر له - فى العربية - ثلاث صيغ هى:

- فعل الأمر مثل: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

- والمضارع المقرون بلام الأمر مثل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

- واسم فعل الأمر، مثل: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

ومما جاء فى القرآن الكريم من صيغ الأمر التى يُكلف الله تعالى بها عباده:

١- قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

والأمر للنفس هنا - وهى نفس مطمئنة بالحق - بأن ترجع إلى رضوان الله تعالى راضية بما أوتيت من نعم، مرضية بما قدمت من عمل.

وسواء أكان الأمر الذى خوطبت به النفس قد وجه إليها يوم القيامة أو فى الدنيا، فإنه أمر تحقق فى الأخذ به رعاية الله تعالى لهذه النفس وتوجيهها نحو فعل الخير، فإن كان فى الآخرة فإنه يعنى الجزاء الحسن، وإن كان فى الدنيا فإنه يعنى: اعملوا فى الدنيا من الطاعات ما يوصلكم إلى جنة الله يوم القيامة.

٢- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

والأمر بأن يخرج الظالمون المكذبون لله ولرسوله أنفسهم من النار، وما هم بقادرين، ليتعلم الناس فى الدنيا ألا يورطوا أنفسهم فى تكذيب ما جاء من عند الله، أو زعم بعض المغرورين منهم بأن فى إمكانهم وضع مناهج كمنهج الله تعالى. وذلك توجيه من الله تعالى لعباده نحو فعل الخير.

٣- وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وفى هذه الآية الكريمة توجيه للناس أن يكونوا دائمًا مع العدل، لأن العدل هو النظام الذى اختاره الله تعالى ليصلح به الوجود كله، وتوجيههم إلى أن ترك العدل أو الإعراض عن المضى فى طريقه هو خطأ يغضب الله تعالى، مهما برره الذى يتخلى عن العدل.

٤- وقوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩]

فالله تعالى يُوجه نفس الإنسان إلى تقوى الله أى يجعلوا أنفسهم فى وقاية من عذابه، بالتزام طاعته، وتقديم العمل الصالح فى الدنيا ليجدوا أجره فى الآخرة، ويحذرهم من نسيان حقوق الله تعالى؛ إذ لو فعلوا لأنساهم الله أنفسهم، فصاروا لا يعرفون ما يضرهم مما ينفعهم وذلك، فسق أى خروج عن منهج الله تعالى وطاعته.

٥- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿...فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١].

فالآية الكريمة كاملة ترفع العذر والحرج عن الأعمى والأعرج، كما ترفع الحرج عن الصحيح عندما يأكل فى بيت ولده أو بيت أبيه أو أمه أو خاله أو خالته أو عمه أو عمته أو البيوت التى وكل إليكم التصرف فيها، أو بيوت أصدقائكم المخالطين، إذا لم يكن فيها حرمات، مادام صاحب أى من هذه البيوت يسمح بذلك، لكن الآية الكريمة أمرت أمرًا صريحًا لكل من دخل بيتًا من هذه البيوت أن يحيى أهلها بالسلام لأن هؤلاء الأهل ألصق بكم ومتوحدون معكم بالدين أو بالقرابة فهم كأنفسكم، وهذه التحية مما أمر الله تعالى به فلابد أن تكون مطيبة للنفوس مباركة بالثواب.

٦- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

٧- وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وبعد: فما أكثر أسلوب الأمر المباشر فى القرآن، وكثرته هذه تدل على أن توجيه الله تعالى للإنسان نحو الخير ورعايته له تشغل حيزًا كبيرًا من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، مما يؤكد حب الله تعالى للإنسان وإسباغ نعمه عليه بهذا التوجيه نحو الخير أى نحو ما يصلح دنياه وآخرته.

ب- وأسلوب النهى الصريح:

والنهى الصريح له صيغة معروفة هى الفعل المضارع الذى سُبق بحرف «لا» الناهية، مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

«والآيات القرآنية التى جاءت بصيغة النهى كثيرة، نذكر منها:

١- قول الله تعالى: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا...﴾ [الإسراء: ٢٢، ٢٣].

وفى هاتين الآيتين: نهى عن الشرك بالله، ونهى عن عبادة غير الله، ونهى عن التأفف من الأبوين الكبيرين الضعيفين، ونهى عن نهرهما أو زجرهما.

٢- وقوله جل وعلا: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥) وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦ - ٣٩].

وفى هذه الآيات نهى عن التبذير، ونهى عن التقتير، ونهى عن قتل الأولاد وخشية الفقر، ونهى عن قرب الزنا فضلا عن الزنا نفسه، ونهى عن قتل النفس إلا بالحق، ونهى عن قرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن، ونهى عن تتبع ما ليس للإنسان به علم من قول أو فعل، ونهى عن التكبر والاختيال، ونهى عن اتخاذ إله غير الله سبحانه وتعالى.

٣- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١- ٢٣٢].

وفي هذه الآيات نهي عن محرمات كثيرة هي:

نهي عن الزواج من مشركة، ونهي عن تزويج مؤمنة لمشرك، ونهي عن قربان الزوجة وهي حائض، ونهي عن الإكثار من الحلف بالله، ونهي عن أن تكتم المرأة ما في بطنها من حمل طموحًا إلى زواج قبل التأكد من براءة الرحم من الحمل، ونهي عن أن يأخذ عند طلاقه من زوجته شيئا مما أعطاها، إلا أن يكون خلع المرأة لزوجها.

٤- وقوله عـز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [النساء: ١٩ - ٢٢].

وفى هذه الآيات عدد مما نهى الله عنه، ومن ذلك:

نهى عن إعضـال الزوج لزوجه لإلحاق الضـرر بها حتـى تتنازل عن بعض حقوقـها، ونهى عن أخذ ما كان الزوج أعطاه لزوجه حين يعزم على استبادل زوجة بأخرى.

٥- وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الممتحنة: ١٠]

وفى هذه الآية الكريمة نهيان:

نهى عن رد الزوجة المهاجرة من أرض الكفر إلى زوجها الكافر بعد معرفة إيمانها.

ونهى عن التمسك بعقد الزواج من الكافرة المقيمة فى دار الشرك.

٦- وقول الله تعالى ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

وفى هذه الآية الكريمة أكثـر من نهى صريح، ومن ذلك: النهى عن إبداء المرأة لزينتـها إلا بالقدر الضرورى الذى يظهر من هذه الزينة كالوجه والكفين.

والنهى عن إبداء المرأة زينتها لغير الزوج وابنه وأبيه ولغير الأب والابن والإخوة وأبنائهن، والصديقات، والرجال الذين ليست لهم رغبة فى النساء كالطاعنين فى السن والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم.

والنهى عن الضرب بالأرجل لإبداء صوت خلاخيلهن المستترة بثيابهن.

٧- وقوله جل وعلا: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الحجرات: ١١].

وفى الآية الكريمة نهى عن أمور:

نهى عن سخرية الرجال من الرجال.

ونهى عن سخرية النساء من النساء.

ونهى عن اللَّمْز أى ذكر عيوب الآخر.

ونهى عن التنابز بالألقاب وهو دعوة الإنسان لغيره بصفة لا يحبها الغير.

جـ- وأسلوب الإخبار:

وهو الأسلوب الذى يخبر به المتكلم فينقل الخبر إلى السامع أو القارئ.

والخبر - كما يرى الحذَّاق من علماء النحو، وكما يرى أهل البيان - قسيم الكلام كله، حيث يرون أن الكلام قسمان: خبر وإنشاء فالخبر شطر الكلام.

والخبر يقصد به إفادة المخاطب بما تضمنه الخبر.

والخبر هو كلام يحتمل التصديق والتكذيب فى مقابل أن الإنشاء من أمر ونهى.. لا يحتمل التصديق والتكذيب.

* والقرآن الكريم فى معظم آياته إخبار عن الطائعين أو العصاة، وكذلك السنة النبوية المطهرة.

- وأخبار الكتاب والسنة وإخبارهما مقصود به إفادة المخاطب وتوجيهه لما فيه صالح دينه ودنياه؛ لأن من أخبر بخبر عليه أن يتدبر فيه ويأخذ منه العبرة لنفسه، وإلا كان من الغافلين، ولذلك تصبح قراءة الأخبار وتدبرها والاستفادة منها عملاً حضاريًا يتميز به الإنسان عن سائر مخلوقات الله تعالى.

- والأخبار إذا كانت من الله تعالى ورسوله ﷺ فلا تكون للتسلية فقط، وإنما تكون من أجل أن تحقق أهدافًا فوق ما تحمله من علوم وأحداث.

- والأخبار فى الكتاب والسنة النبوية نوعان:

أحدهما: أخبار عن الرسل والأنبياء والصالحين من عباد الله تعالى وأوليائه.

والآخر: أخبار عن المعاندين والمكذبين الذين حاربوا الحق وجحدوه، وهم المشركون والكفار والظالمون.

وكلا النوعين موجه ومعلم لمن يقرأ أو يستمع لكى ينحاز إلى صفوف المرسلين والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإلى أن يتمسك بأخلاقهم وسلوكهم، وأن يبتعد عن سلوك المعاندين المكذبين ويجتنب أخلاقهم.

- على أن القرآن كله وما اشتمل عليه من كلام لا يعدو أن يكون - فى عرف ومصطلحات العلماء - خبرًا أو إنشاء، وكل منهما يستهدف هداية الناس وتوجيههم نحو ما يصلح لهم دينهم ودنياهم.

* ولنضرب على الأخبار القرآنية بعض الأمثلة:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٧].

* ففى الآيات إخبار عن المؤمنين وأعمالهم الصالحة وتجارتهم الرابحة وتوفية أجورهم، بل مع زيادة من فضل الله تعالى وأنواع المؤمنين فى ممارسة العمل الصالح، وما يكرمهم الله

به من نعيم، وما تلهج به ألسنتهم من حمد الله وشكره، وذلك فى الآيات من الآية التاسعة والعشرين إلى الآية الخامسة والثلاثين.

والهدف من هذا الإخبار هو حث المسلمين على أن يكونوا مثل هؤلاء فى إيمانهم وعملهم وأخلاقهم.

* وفى الآيتين السادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين؛ إخبار عن الذين كفروا وجزائهم يوم القيامة على كفرهم وصراخهم وندمهم، وعدم جدوى ذلك فى رفع العذاب عنهم.

والهدف من هذا الإخبار هو تخويف الناس وتحذيرهم من أن يكونوا كهؤلاء الكفار، فيلقوا جزاءً كجزائهم.

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٥ - ٢١].

ففى هذه الآيات إخبار عن أن الإنسان مسئول عن أقواله وأعماله، وأن الله تعالى لا يعذبه حتى يبعث إليه رسولاً فيخالفه، وأن من سنن الله تعالى ألا يهلك أهل قرية حتى يستحقوا عقابه بفسقهم وخروجهم عن منهجه، وكذلك كانت سننه فى القرون التى خلت من بعد نوح عليه السلام.

وهدف هذا الإخبار هو دعوة الإنسان إلى أن يتحمل مسئولية أقواله وأعماله، وأنه لا يمكن لأحد أن يحمل عنه وزرًا، وأن سنة الله فى القرون السابقة ألا يهلك قومًا حتى يفسقوا ويخرجوا عن منهج الله ونظامه.

وفى الآيات الأربع الأخيرة من هذه الآيات يخبر الله تعالى عن نوعين من الناس:

نوع يريد الدنيا ومتاعها متجاهلا ما أمر الله تعالى به، أو نهى عنه، فإن له جهنم على ذلك.

ونوع يريد الآخرة دار القرار والحياة الأبدية، ويسعى لها سعيها من الطاعة وعمل الخير، وهؤلاء لهم عند الله أحسن الجزاء وأوفاه، وإن كانت أسباب الحياة متاحة للطائعين والعصاة، ولكن الله تعالى يفضل الطائعين.

- وقوله عز وعلا: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٦٨-٧٤].

وفى هذه الآيات إخبار عن يوم القيامة وما يجرى فيه من نفخ فى الصور مرتين، ومن صعق وقيام، وإشراق الأرض بنور ربها، ووضع كتاب أعمال الناس ليحاسبوا على ما جاء فيه، وجئ بالنبيين والشهداء ليشهدوا على الناس، وفصل بين الناس بالحق وهم لا يظلمون.

وسيق الذين كفروا إلى جهنم جماعات ففتحت لهم أبوابها وحوسبوا، وشهدت عليهم رسلهم، فحقت عليهم كلمة العذاب وأدخلوا جهنم.

وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة جماعات وفتحت لهم أبوابها، واستقبلتهم خزنة الجنة بالسلام والتحية فدخلوها خالدين فيها، حامدين الله تعالى على نعمه.

* والهدف من هذا الإخبار أن يتدبر الإنسان أمر نفسه وأن يختار لها المكان الذى يريد، فيعمل فى دنياه بما يوصله إلى ما اختار من جنة أو نار.

- وقوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٧].

ففى هـذه الآيات الكريمة إخبـار عن نوعين من الناس، النوع الأول منهـما: المنافـقون الذين أوتوا قدرة على صوغ الكلام المعجب للناس الذى صاغوه ليجلب لهم المنفعة فى الدنيا، ويزعـمون أن الله تعـالى يعلم ما فى قلوبهم من إخـلاص، وهم كاذبون فيـما يزعمـون، بل إن أحدهم إذا تولـى عملاً فكان لـه فيه سلـطان سعى للإفـساد وإهلاك الحرث والنسل، والله تعالى لا يحب المفسدين، وعندما يُنصح أحد المنافقين بوجوب أن يخاف من الله تثور فى نفسـه الحمية، وتحمله النصيحـة على ارتكاب المخالفة لكل من نصح به لجَاجَةً منه وعنادًا، وهذا المنافق جزاؤه عند الله جهنم وهى أسوأ مستقر له.

والنوع الآخر من الـناس الذين أخبرت عنهـم هذه الآيات مؤمنون صادقـون يبيـعون أنفـسهم فى سـبيل مـرضاة الله تعـالى، وإعلاء الحق، والله تعـالى يكافئ هؤلاء فى الآخرة أحسن مكافأة، وقد يمكنهم من الدنيا رأفة بعبادة الذين يحكمونهم بالعدل.

* والهـدف من هذا الإخبـار عن المنافـقين هو تحذير الناس منهـم بكشف صفـاتهم لهم، وفضح أعمـالهم ونواياهم، ودعوة سائر الناس إلى أن يكونوا من الذين يبيعـون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله.

وبعـد: فإن الـقرآن الكريم كلـه قلما تخـلو سوره من إخـبـار عن المؤمنين والكافـرين والمنافقين بالإضافة إلى الأخبار الموسعة عن الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

وهذا توجيه من الله تعالى لهم نحو عمل الخير الذى يصلح لهم شأن دينهم ودنياهم.

د- أسلوب العظة:

وهو أسلوب قرآنى كـريم يستهـدف صالح الإنسـان فى دينه ودنياه على وجه الإجـمال والإيجاز، غير أن له أهدافًا تفصيلية عديدة نشير إلى بعضها فيما يلى:

- ترقيق قلوب الموعوظين، وإزالة الغشاوة عنها، لتحسن الاستماع والتأثر بما توعظ به.
- وتزويد العقـول بالعلم والمعرفة والثـقافة عـمومًا، لتعـرف هذه العقول كـيف تقبل الحق وتقتنع به، ثم تقنع به الآخرين، من خلال ما تتضمنه العظة وما تشتمل عليه.
- وشحذ العقول ودعوتها للتفـكر والتدبر، وهى تمارس المادة التى وعظت بها، فيما يتصل بحياة الإنسان العـقلية كلها، لأن الموعظة لن تخلو أبدًا من القدرة على مخـاطبة العقول وحفزها إلى التفكير الصحيح.
- وتبصير القلوب والعقـول بهذه الحياة الدنيا، وما ينبغى أن تكون عليه حيـاة الإنسان فيها من توازن بين ما هو روحى وما هو جـسدى، وما هو دينى وما هو دنيوى، ومـا يخبره

بتلك الحقائق على وجهها إلا تلك العظة، وبخاصة إذا كانت صادرة عن الله ورسوله، أو عن صالحي المؤمنين.

- وترشيد سلوك الموعوظين بتحبيبهم فى فعل الخير، وتنفيرهم من عمل الشر، ليكون الموعوظ على علم بالخير والشر من خلال ما يوعظ به.

*** العظة المفترى عليها:**

* ومن الغريب العجيب أن تكون هذه أهداف الموعظة التى لم يخالف فيها أحد فى تاريخنا الإسلامى كله، ثم تجد فى عصرنا هذا - عصر التراجع الحضارى عند العرب والمسلمين عموما - مَنْ يعيب أسلوب الوعظ، ويستهين بالموعظة ويصفها بأنها مملة وغير فاعلة ولا قادرة على التأثير فى نفس الإنسان، أو مَنْ يقول إن الموعظة تولد فى نفس الموعوظ شعوراً عكسيًا لما وعظ به أو تولد لديه رفضًا وعنادًا!!!

* وأولئك الذين عابوا الموعظة أو اتهموها هم بالقطع يجهلون ما قال علماء المسلمين ومصلحوهم عن الموعظة، وما أثنوا به عليها.. هذا موقفهم إن أحسنا بهم الظن.

غير أننا عندما نبحث عن أسبابهم ومصادرهم ومراجعهم فى مزاعمهم عن العظة، نضطر إلى القول بأن ولاء هؤلاء لدينهم وكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ قد ضُعُف، أو ضاع بين الولاءات التى نشأت فيهم وأقبلوا عليها على الرغم من عدواتها للإسلام ولكتابه ولسنة نبيه ﷺ.

- إن هؤلاء الكارهين للموعظة المشوِّهين لها؛ إنما تأثروا بما جرى عليه الغرب بعد عصر الثورة على الكنيسة ورجالها بعد أن كانت الكنيسة تتحكم فيهم؛ فى أموالهم ودمائهم باسم الدين، وتزج بهم فى حروب تحمسهم لخوضها أو تعلن غضبها على من يمتنع عن المشاركة فيها، عندئذ وفى ظل هذه الظروف رُفضت الكنيسة ورُفضت نصائحها وعظاتها، بل حوربت الكنيسة وعُزِلتْ عن حياة الناس وحَلَّت محلها العلمانية أو غيرها من النظم التى لا صلة لها بالدين ولا بالكنيسة.

وكان رفضهم للكنيسة ورجالها وعظاتها له ما يبرره، من رغبة فى كسر قيود الكنيسة، واحتكارها للجنة، وبيعها قراريط لمن يدفع أكثر فى هذه الجنة، إن الغرب قد اتخذ العلمانية دينًا ونظامًا ليخرج من سيطرة الكنيسة، وإن الشرق - ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى -اتخذ الإلحاد دينًا ونظامًا لكى يتخلص من سلطان الكنيسة...

* وعندما ضعف المسلمون وتقلص ظل أنظمتهم، وشوه الغرب لهم كثيرًا مما يتصل بهذا الدين، ولقنهم هذا فى مدارسهم ومعاهدهم التى سيطر عليها فى بلادهم، أو فى جامعات

الغرب التى ذهبوا إليها يتلقون العلم ويشربون معه الولاء للغرب، وكثيرًا من البراء من كل ما هو إسلامى، وقبضوا ثمن ذلك مناصب فى بلادهم عندما عادوا إليها، فانتقلت بهؤلاء إلى الأوطان الإسلامية أمراض كراهية الإسلام؛ نظمه ومنهجه وعظات علمائه.

* ولقد أتى على أهل الغرب حين من الدهر كانت الثقافة الإسلامية واللغة العربية لديهم بابًا للعلم والمعرفة ولغة التعليم بل لغة الكنائس فى بعض البلدان.

وبعد ذلك بث الغرب أفكاره العلمانية، ثم بث الشرق أفكاره الإلحادية، وحيل بذلك بين المسلمين - المغلوبين على أمرهم - وبين الاعتزاز بإسلامهم والولاء لمنهجهم ونظامهم فى الحياة، كما حيل بينهم وبين لغة دينهم وكتابهم وسنة رسولهم ﷺ، بل حيل بينهم وبين ثقافتهم وتراثهم، بل كافأ الأعداء كل مُتَخَلٍّ عن الإسلام أو متهجم عليه أو عائب لمنهجه ونظامه، فأماتوا بذلك قيمًا إسلامية كثيرة، وحببت فى مقابل ذلك قيم غربية أو شرقية معادية للإسلام؛ ابتداء من تداول التحية التى يتبادلها الناس عندما يتقابلون، ومرورًا بعادات المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وعلى وجه خاص، كل ما يتصل بالخُلق والسلوك، وما يحب الناس وما يكرهون.

* ولهذه الأسباب وغيرها انطلقت ألسنة الغُواة الذين يجهلون الإسلام أو يتجاهلونه، أو أولئك الذين غيّروا ولاءهم للإسلام ومنهجه ونظامه إلى الولاء للغرب؛ انطلقت ألسنتهم تزرى بالعظة والواعظين، وقد عرفت فى مجتمعاتنا الإسلامية كلمة: «رجل دين أو رجال دين»، ولسنا نحن المسلمين من ذلك فى شىء، وعرف تناول الطعام والشراب باليد اليسرى، ووفد على بلادنا من نساء الغرب والشرق الكاسيات العاريات ما أفسد على نسائنا حياتهن، وفتحت حانات لشرب الخمر وأماكن للعب الميسر، ومراقص، وأصبح رقص المرأة شبه العارية فنًا وإبداعًا، وشاع تخنث الرجال، وترجل النساء، وما ترتب على كل ذلك من شيوع الفاحشة والمنكر والبغى.

وهبطت نظرة المجتمع إلى العظة إلى أسفل، وأصبحوا يرون فيها تنفيرًا، وإملالاً، وتسلطًا على الناس، وكبتًا لشهواتهم ورغباتهم!!!

- ثم ألصقت بالوعظ والوعاظ تهم باطلة، ووصف الوعظ بصفات كاذبة، وأهين الوعاظ، وتضاءلت فى المجتمع مكانتهم وأصبحوا موضعًا لسخرية الساخرين.

* هذه حقائق فى حياتنا المعاصرة لا ينكرها إلا مكابر مغالط، أو من أولئك الذين يسارعون فى وصف من يقول ذلك بأنه تسيطر عليه فكرة المؤامرة على الإسلام فيفسر الأحداث تفسيرًا تآمريًا، كأن هؤلاء قد عموا وصموا عن الإصرار على إسقاط دولة

الخلافة العثمانية - الرمز - على الرغم مما كان فيها من مخالفة للإسلام، وكأنهم لم يقرءوا معاهدة «سايكس بيكو» وكأنهم لم يروا كيف مُزِّق العالم الإسلامى وبُعثر العالم العربى، وحيل بين العرب والوحدة، وبين المسلمين والاتحاد، وحيل بينهم وبين العلم والصناعة، وبخاصة صناعة الأسلحة، وكأنهم لم يروا ما فعله الغرب بإقامة دولة لليهود فى قلب العالم العربى فلسطين، وكأنهم لم يروا ولم يسمعوا عما فعلته أمريكا يحالفها الغرب فى أفغانستان والعراق، وكأنهم ما قرأوا عما تعامل به أمريكا والغرب العرب والمسلمين فى سجون ومعتقلات ترتكب فيها جرائم ضد الإنسانية!!!

إنهم يتهمون من يرى ذلك ويسجله بأنه يفسر كل الأحداث تفسيرًا تآمريًا!!!

وبعد:

فما أردُّ على الذين ازدروا الوعظ والوعَّاظ إلا بما جاء عن العظة والواعظين فى كتاب الله تعالى، وفى سنة رسوله ﷺ، ومن الله العون والتوفيق.

*** مكانة الموعظة فى القرآن الكريم ومعناها:**

قال الله تعالى: ﴿...وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ...﴾ [البقرة: ٢٣١].

والكتاب: القرآن الكريم.

والحكمة: ما يستفاد من الشريعة وهو العلم، والعبرة بأحوال الأمم الماضية وإدراك مصالح الدين.

أو الحكمة هى: السنة النبوية المطهرة.

والمعنى: أنه سبحانه قد أنزل الكتاب والحكمة ليعظكم بهما؛ فأى مكانة للموعظة أعظم من ذلك؟ والوعظ هو النصح والتذكير بما يُلَيِّن القلوب، ويحذِّر الموعوظ.

ولعلمائنا فى تعريف الوعظ كلمات منها:

- الوعظ يدخل فيه كل الأمور التى توجب الرغبة فى الطاعة، والنفرة عن المعصية، وذلك بذكر الوعد والوعيد.
- وقالوا: ترك الوعظ معصية، والنهى عنه أيضًا معصية.
- الوعظ: هو نصح بإرشاد مشوب بتحذير من لحاق ضرر فى العاقبة، أو بتحريض على جلب منفعة مغفول عنها.
- والموعظة هى الزجر عن كل ما يبعد عن رضوان الله، والمنع عن كل ما يشغل القلب بغير الله.

- والموعظة تذكير بالحق ودعوة إليه، وتحذير من الباطل ونهى عن التعلق به.

وهذه التعريفات للموعظة تؤكد أن لها فى تاريخنا الإسلامى مكانة كبرى ومنزلة عليا.

* والقرآن الكريم قد ضم فى آياته موعظة مباشرة ورد فيها ذكر لفظهـا، كما ضم مواعظ غير مباشرة هى القصص القرآنى كله، وكذلك الأمر فى السنة النبوية المطهرة.

أولا: العظة المباشرة فى الكتاب والسنة:

* أما العظة المباشرة فى القرآن فمنها:

- قوله تبارك وتعالى: ﴿ ...ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ... ﴾ [الطلاق: ٢].

أى أن تقبل ما وعظ الله به إنما هو عمل من يؤمن بالله واليوم الآخر، ودليل على هذا الإيمان.

فمن أراد أن يكون ممن يؤمنون بالله واليوم الآخر فليتقبل.

- وقال جل شأنه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨].

أى أن أداء الأمانات بكافة أنواعها، والحكم بين الناس بالعـدل هى نعم الموعظة التى يعظكم الله تعالى بها.

- وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ١٦، ١٧][1].

وعظ للمسلمين فى هاتين الآيتين الكريمتين بعـدم العودة إلى الخوض فى حديث الإفك وأمثاله من الكلام الذى يمس الأعراض؛ لأن ذلك إثم ومعصية، وممارسة تتنافى مع الإيمان.

* ومن أجمع المواعظ فى القرآن الكريم موعظة لقمان عليه السلام لابنه.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ

(١) فى القرآن الكريم أربع وعشرون موضعًا ورد فيه لفظ الوعظ والموعظة والعظة، مما يؤكد أهمية هذه الموعظة.

﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٣- ١٩].

* وآيات القرآن الكريم فى معظمها دعوة إلى الخير أو أمر به، وتحذير من الشر أو نهى عنه، ولكن الأسلاف من العلماء رحمهم الله تعالى قالوا: إن أجمع آية من آيات الأمر بالخير والنهى عن الشر هى:

- قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

هذه الآية الكريمة الجامعة لأصول الشريعة فى مجالى الخير والشر، ختمها الله -تبارك وتعالى- بعد أن أمر بهذه الأصول الثلاثة للخير ونهى عن هذه الأصول الثلاثة للشر بقوله: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مما يوضح أن الأمر: بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى هو عظة لها أهميتها فى حياة الإنسانية كلها.

*** وأما العظة المباشرة فى السنة النبوية فكثيرة:**

ولعل السِّرَّ فى كثرة أحاديث النبى ﷺ؛ أنه ﷺ هو المأمور من ربه سبحانه وتعالى أن يُبَلِّغ عنه دينه الخاتم إلى عباده.

والتبليغ أو البلاغ أصلاً بالقول والكلمة، ثم يتفرع البلاغ ويتنوع فيصبح عملاً، وهديًا وسيرة وسلوكًا، وهذا ما كان من محمد ﷺ وسيرته.

- والبلاغ عن الله تبارك وتعالى واجب الرسل جميعًا، فما اختارهم الله تعالى وأرسلهم إلى عباده إلا أوجب على كل منهم البلاغ عنه، لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. ولابد أن يكون خاتمهم محمد ﷺ مكلفًا بهذا البلاغ عن الله تعالى، لقوله سبحانه وتعالى مخاطبًا له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...﴾ [المائدة: ٦٧].

- وبلاغ الرسول ﷺ أو تبليغه، كان دعوة إلى الله تعالى؛ بالكلمة والعظة والحكمة، وكان تذكيرًا ووعظًا.. بل إن كل ما بلَّغ به رسول الله ﷺ داخل فى الوعظ؛ لأنه نصح وإرشاد وتذكير بالعواقب، وأمر بطاعة الله تعالى ونهى عن معصيته سبحانه وتعالى.

- ومن أجل ذلك تُعد سنة رسول الله ﷺ كلها وَعْظًا، وقد حدثنا عنه الصحابة رضوان الله عليهم، فقال كثير منهم: إنه كان يتخولنا بالعظة، كما أن كثيرًا من الصحابة رضى الله عنهم قالوا عن الرسول ﷺ: إنه وعظ وذكَّر.

* ومن هذه الأحاديث:

- ما رواه أبو داود بسنده عن الخُضُر رضى الله عنه، قال: إنى لببلادنا إذ رفعت لنا رايات وألوية فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا لواء رسول الله ﷺ، فأتيته وهو تحت شجرة قد بسط كساءه وهو جالس عليه وقد اجتمع إليه أصحابه، فجلست إليهم، فذكر رسول الله ﷺ الأسقام فقال: **«إن المؤمن إذا أصابه السقم، ثم أعفاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه، وموعظة فيما يستقبل...»**.

- وما رواه أبو داود بسنده عن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال: نزلنا مع النبى ﷺ خيبر، ومعه مَنْ معه من أصحابه، - وكان صاحب خيبر رجلا ماردًا مُنكَرًا - فأقبل إلى النبى ﷺ فقال: يا محمد، ألكم أنْ تذبحوا حُمُرنا، وتأكلوا ثمرنا، وتضربوا نساءنا، فغضب - يعنى النبى ﷺ - وقال: **«يا ابن عوف اركب فرسك ثم ناد، ألا إن الجنة لا تَحِل إلا لمؤمن، وأن اجتمعوا للصلاة»** قال: فاجتمعوا، ثم صلى بهم النبى ﷺ، ثم قام فقال: **«أيحسب أحدكم متكئًا على أريكته، قد يظن أن الله لم يحرم شيئًا إلا ما فى هذا القرآن؟ ألا وإنى والله قد وعظتُ وأمرتُ ونهيتُ عن أشياء، إنها لمثل القرآن أو أكثر، وأن الله عز وجل لم يُحِلَّ لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم؛ إذا أعطوكم الذى عليهم»**.

* ولقد كان من عمل رسول الله ﷺ الذى لا ينقطع تعهد المسلمين بالموعظة ما بين ساعة وساعة، أو ما بين آن وآن، دلَّتْ على ذلك كلمات أصحابه رضى الله عنهم التى رواها عنهم علماء الحديث النبوى الشريف، والتى نذكر منها:

- ما رواه البخارى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «كان النبى ﷺ يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا».

- وما رواه أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: **«إنكم محشورون إلى الله تعالى حفاة عراة غُرْلاً، كما بدأ أول خلق يعيده، وعدا علينًا إنا كنا فاعلين...»** الحديث.

- وما رواه مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: شهدتُ مع رسول الله ﷺ الصلاة يوم العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة، ثم قام فتوكأ على بلال - رضى الله عنه - فأمر بتقوى الله وحث على طاعته، ووعظ الناس، وذكَّرهم، ثم مضَى حتى أتى على النساء فوعظهن وذكّرهن...» الحديث.

- وما رواه مسلم بسنده عن ابن عمر - رضى الله عنهما - فى حديثه ﷺ عن المتلاعنَين... وفيه: فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات فى سورة النور: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [النور: ٦-٩]، فتلاهن عليه ووعظه وذكره، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، قال - أى الرجل المتلاعن -: لا والذى بعثك بالحق ما كذبت عليها. ثم دعاها - أى رسول الله ﷺ - فوعظها وذكرها، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فقالت: لا والذى بعثك بالحق إنه لكاذب، فبدأ بالرجل فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم ثَنَّى بالمرأة فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ثم فرَّق بينهما» فالوعظ والتذكير وجه إلى الرجل والمرأة كليهما.

- وما رواه الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب الناس فوعظهم، ثم قال: «**يا معشر النساء تصدقن....**» الحديث.

- وما رواه ابن ماجة بسنده عن عمرو بن الأحوص رضى الله عنه الذى قال: شهدت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فحمد - أى رسول الله ﷺ - الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ، ثم قال: «**استوصوا بالنساء خيراً....**» الحديث.

- وما رواه أحمد بسنده عن أبى مسعود البدرى رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إنى لأتأخر فى صلاة الغداة مخافة فلان - يعنى من يؤمهم فى الصلاة - قال أبو مسعود: فما رأيتُ رسول الله ﷺ أشدَّ غضبا فى موعظته منه يومئذ، فقال: «**أيها الناس إن منكم منفرين، فأيكم ما صَلَّى بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة**».

وبعد فهذا قليل من كثير عن العظة المباشرة فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة.

فماذا عن العظة غير المباشرة فى الكتاب والسنة؟

ثانيًا: العظة غير المباشرة عن طريق القصص فى القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة:

نعنى بالعظة غير المباشرة، تلك العظة التى يدرك مرماها الموعوظ من سياق الكلام الذى يسمعه أو يقرؤه، دون أن تكون هذه العظة تخاطبه أو تطالبه بعمل شىء.

والعظة غير المباشرة كثيرة فى القرآن الكريم، وكثيرة فى السنة النبوية المطهرة.

* ومن أوضح ما تكون هذه العظة غير المباشرة عندما يخبر القرآن الكريم أو السنة النبوية عن الأنبياء والمرسلين ويقص على الناس حياتهم، ويخبر عن أقوامهم، ويقص ما كانوا عليه من طاعة أو معصية، وموالاة أو عناد.

- ومن هذه الأخبار أو القصص ما أخبر الله تعالى أو أخبر رسوله ﷺ به من أخبار الصالحين المؤمنين الذين طالبوا أقوامهم بطاعة الله تعالى، واتباع رسله عليهم الصلاة والسلام.

- وكلمة القَصّ تعنى الإخبار عن أحوال السابقين، فإذا كان الإخبار أو القصّ من الله تعالى فهو أحسن القصص، كما جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ...**﴾ [يوسف: ٣].

- والهدف من الإخبار أو القصّ هو أخذ العبرة والانتفاع بها، والاتعاظ بكل مواقف القصة لصالح دينه ودنياه، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى...**﴾ [يوسف: ١١١].

- ولنا أن نتساءل قائلين: لماذا كان القرآن ومثله السنة النبوية فيما ورد فيهما من قصص؛ أحسن القصص؟

ولقد أجاب العلماء المسلمون القدامى والمحدثون عن ذلك التساؤل بقولهم: إن لذلك أسبابًا كثيرة، منها:

* أنّ قصص القرآن والسنة ترتاح إليه النفوس، وتأنس به، بينما سائر القصص قد يرتاح إليه بعض الناس، وقد لا يرتاحون إليه أو يأتنسون به، وهذا فرق كبير بين قصص القرآن الكريم وغيره من القصص.

* وأن قصص القرآن الكريم أو السنة النبوية أحسن فى بابه ونوعه ومصداقيته من كل قصص، أى أن كل قصة فى القرآن أو فى السنة هى أحسن من كل ما يقصه الناس للناس بقصد تسليتهم أو استمالتهم.

* وأن قصص القرآن الكريم قد تكون مذكورة فى الكتب التى سبقت القرآن الكريم أو فى كتب التاريخ، ولكنها فى القرآن الكريم أو فى السنة النبوية تكون أقرب إلى العقول وأحب إلى القلوب، وأعمق وأشمل فى تصوير الواقع الذى عاشه الذين نقص أخبارهم.

* وأن قصص القرآن الكريم والسنة النبوية أجود من حيث نظمها وأسلوبها، وما تضمنته من مواقف وأحداث وعبر وحكم، وما تثيره عند السامع أو القارئ من استثارة البصيرة التى ترفع عن الإنسان وصمة الحيرة والضلال والجهل، ولله تعالى المثل الأعلى، فى كل ما يقول، ورسوله الخاتم ﷺ لا ينطق عن الهوى، وهو أفصح من نطق بالضاد، كما أخبر ذلك أصحاب البيان، وكما نرى فى كلماته وخطبه وعظاته وتذكيره، وتحذيره ﷺ.

* وقد أكدنا آنفا أن كل قصص القرآن والسنة النبوية إخبار عن الأنبياء والمرسلين والصالحين من عباده، وإخبار عن مواقف أقوامهم فى مجالات طاعة الله ورسله، أو معصيتهم له سبحانه ولرسله عليهم الصلاة والسلام، وفى كل ذلك- كما أسلفنا - عبرة وعظة، لأنه قصص مطابق للواقع، وليس هو من القصص المخترعة أو المتخيلة أو المكذوبة؛ وذلك أن الاعتبار أو العبرة فى القصة إنما يحصل إذا كانت خبرًا عن أمر وقع، إذ تترتب آثار القصة فى نفس السامع أو المخاطب على الواقعات ترتبًا طبيعيًا، لأن ذلك شأنها فى ترتب أمثالها على أمثالها كلما حصلت فى الواقع، ولسبب آخر وهو أن حدوث أحداث هذا القصص ممكن، بخلاف ما يخترع وما يتخيل فضلاً عما يتعمد فيه الكذب من القصص، فإنه لا يحصل به اعتبار ولا عبرة، لاستبعاد وقوعها، لأن أمثالها، لا يعلم الناس ولا تقبله عقولهم؛ لأن لهذا القصص الداخل فى الخرافات عند العرب أحاديث الجن والغول وسائر الخرافات، وله عند الفرس أحاديث «رستم واسفنديار»، وله عند اليونان أحاديث أو أساطير آلهة الأولمب.

*** القصص فى القرآن الكريم:**

قصَّ علينا القرآن الكريم سِيَر جميع الأنبياء والمرسلين الذين وردت أخبارهم فيه، ابتداء من أبينا آدم عليه السلام، وانتهاء بخاتمهم محمد ﷺ.

وهؤلاء الأنبياء المرسلون الذين جاءت قصصهم فى القرآن الكريم هم:

أبونا آدم عليه السلام، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وإسحق، وإسماعيل، ولوط، ويعقوب، ويوسف، وشعيب، وموسى، وداود، وسليمان، وأيوب، ويونس، وزكريا، ويحيى وعيسى عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأزكى السلام، وأما خاتمهم محمد ﷺ، فقد قص القرآن الكريم مواقف عديدة من سيرته.

* وكثير منهم عليهم السلام ذكرت قصصهم فى أكثر من سورة قرآنية كريمة، وليس ذلك عند التأمل والتدبر من التكرار، ولكن كلما عرضت القصة كان التركيز فى أحداثها وأهدافها على ما لم تشتمل عليه القصة فى سورة أخرى.

* كما قصّ القرآن الكريم قصصًا أخرى لعباد الله الصالحين الذين فى سيرهم عظة وعبرة مثل:

- مؤمن آل فرعون،
- ومؤمن آل ياسين،
- والعبد الصالح الذى لقيه موسى عليه السلام «الخضر»،
- وأصحاب الكهف والرقيم،
- وأصحاب الجنة،
- ومريم عليها السلام.

* وفى كل قصة من هذه القصص عظة غير مباشرة، تأتى منها العبرة لأولى الألباب[1].

* وسوف أشير إلى ما يؤخذ من عبر وعظات غير مباشرة من قصة واحدة هى قصة نوح عليه السلام أحد أولى العزم من الرسل عليهم السلام.

وقد ذكرت قصة نوح مفصلة فى القرآن الكريم فى ست سور قرآنية كريمة هى:

سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة المؤمنون، وسورة الشعراء، وسورة القمر، وسورة نوح، وكل قصة أو حديث عن نوح عليه السلام فى إحدى هذه السور الست مختلف عن الحديث عنه فى السورة الأخرى.

(١) سنتحدث عن هذا فى الفصل الثانى من هذا الباب الثانى من الكتاب إذا أذن الله.

* ومما يؤخذ من العبر والعظات غير المباشرة فى هذه القصة ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

- أن قوم نوح عليه السلام ككثير من أقوام الأنبياء فيهم المكذبون للرسول عليه السلام المعاندون للحق الذى جاء به، وفى الغالب يكون هؤلاء من علية القوم وملئهم.

* والعبرة أن ذلك التكذيب وهذا العناد ما ينبغى أن يصرف دعاة الحق عما يدعون إليه.

- وأن تعبير نوح بأنه اتبعه الأراذل الفقراء مقولة كثيرًا ما ترد على ألسنة المعاندين المستكبرين لكل نبى أو داعية.

* والعبرة أن أحدًا ما ينبغى أن يستجيب لهؤلاء المعاندين بطرد هؤلاء الفقراء المغمورين عن دعوة الله.

- وأن نوحًا عليه السلام وهو يقدم الهداية والرحمة لقومه وهم يرفضون لها مطلقًا، صرح لهم بأنه لا يلزمهم بشىء ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، وبأنه بذل جهده فى إيضاح الحق ولكن عنادهم جعلهم يضلون عنه.

* والعبرة فى ذلك أن يكون عدم الإكراه ديدن أصحاب الدعوات، إذ المقرر فى كتاب الله هو: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...﴾ [البقرة: ٢٥٦].

- وأنه عليه السلام لم يطلب من أحد أجرًا على دعوته وهداية الناس، والأنبياء صرحوا بذلك، فقالوا كما جاء فى القرآن لقومهم: ﴿لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [هود: ٥١][(١)].

* والعبرة أن الدعاة إلى الله لا يسألون الناس على هدايتهم أجرًا، لأن أجرهم عند الله تعالى.

- وأن جوهر الدعوة إلى الله ولبها هو مطالبة الناس بعبادة الله وحده لا شريك له، وتقواه فى السر والعلن وطاعة رسوله فى كل ما جاء به، وما يجىء رسول من عند الله تعالى إلا بما يصلح للناس دينهم ودنياهم.

* والعبرة أن يوقن الناس فى كل زمان ومكان أن عبادة الله تعالى وتقواه وطاعة رسوله عليه السلام هى النجاة لهم من كل هم وضيق، والمخرج لهم من كل أزمة أيا كان نوعها.

- وأن نبى الله نوحًا عليه السلام واصل دعوة قومه بكل طريقة وفى كل وقت، ليلاً ونهارًا وإعلانًا وإسرارًا، ولكن عنادهم وكبرياءهم جعلهم يضعون أصابعهم فى آذانهم

---

(١) وقد تكرر هذا التعبير بلفظه أو بمعناه فى سورة هود وفى سورة الشعراء.

حتى لا يسمعوا مع استكبار وعناد، على الرغم من تذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم من المال والبنين والجنات والأنهار والأمطار.

* والعبرة أن لا يغفل الداعى إلى الله عن مواصلة الدعوة إليه متخذًا فى ذلك كل سبيل مما شرع الله، غير مدخر من طاقته شيئًا.

وأن الناس عليهم أن يقابلوا نعم الله التى لا تحصى بعبادته وطاعة رسوله عليه السلام.

- وقد تجاهل قوم نوح عليه السلام نعم الله تعالى كلها.

وأصروا على عبادة أصنام صنعوها بأيديهم ورمزوا بها إلى بعض الصالحين من أسلافهم - كما يقول بذلك بعض المفسرين - أو منحوتة على صور بعض الحيوان - كما قال بذلك بعض المفسرين، مع أن هذه الأصنام قد أضلت قبلهم كثيرًا من الناس.

* والعبرة فى ذلك أن يستمر الدعاة إلى الله فى تذكير الناس بنعم الله عليهم، وأن يخوفوهم من الشرك ومن الإلحاد، وألا ينخدعوا فى آلهة الهوى والشهوات.

- وأن نبى الله نوحًا وقد أيس من إيمان قومه فدعا عليهم، وأن الله قد امتنَّ عليه بأن أمره بأن يصنع سفينة وهى فى أرض ليس فيها ماء، فامتثل لأمر ربه وسخر منه الناس ومما يصنع، لكن ذلك لم يصرفه عن الامتثال لأمر ربه والاستمرار فى صنعها.

* والعبرة أن الله تعالى يلهم دعاته بالعمل الذى قد لا تظهر فائدته إلا فيما بعد، وعلى الدعاة الاستجابة لما أمر الله به، ففى ذلك المخرج من كل ضيق وشدة، وليتذكروا دائمًا سفينة نوح، وكيف كان العمل فيها مثارًا للسخرية، وكيف كانت نجاة له ولمن آمن معه.

- وأن الطوفان وغيره من الظواهر الكونية كالزلازل والبراكين ونحوها، عمل ميسور على قدرة الله تعالى المطلقة وأنه سبحانه قادر على ما هو أكثر من ذلك كما قال سبحانه ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٠ - ٥٣].

* والعبرة أن لا ييأس الدعاة إلى الله من أقوامهم مهما فعلوا، وأن يكونوا فى انتظار فرج الله تعالى، فله سبحانه من الحكَم والأسباب والجنود ما لا يخطر على قلب أحد ولا عقله، وأنه سبحانه قد يهدى المعاندين وقد يحولهم إلى مؤمنين - فقد هدى الله التتار بعد أن عاثوا فى الأرض فسادًا فأصبحوا مسلمين - وتلك سنة الله تعالى، ومن هذه السنن انه يستبدل قومًا بقوم فيكون الجدد افضل ممن سبقوهم ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، أى: يكونوا خيرًا منكم.

- وأن استشفاع نوح عليه السلام بربه فى ابنه إذ قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] فلم يقبل شفاعته فيه، بل صحح له مفهوم النبوة إذ قال له سبحانه: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ...﴾ [هود: ٤٦، ٤٧].

* والعبرة أن الإيمان هو المعيار الصحيح للعلاقات والقرابات والأبوة والبنوة، وأن يكون الإيمان بالله ورسوله أحب إلى الإنسان من نفسه وماله وولده. فقد روى الترمذى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبُّوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبونى بحب الله، وأحبوا أهل بيتى لحبى».

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده، وولده، والناس أجمعين».

* القصص فى السنة النبوية المطهرة:

للتربية بالقصة أثر عميق فى عقول السامعين أو القراء وقلوبهم، كما أخبر بذلك وأعلنه عدد كبير من المشغولين بالتربية فى مختلف العصور، لأسباب ليس هنا مجال الحديث فيها.

أما نحن - المسلمين - فنؤمن بأن القصة أسلوب من أساليب التربية لأنها وردت فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة، كما نؤمن بأن فى قصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام عبرة لأصحاب العقول من الناس.

- ومثل قصص الأنبياء والمرسلين قصص عباد الله الصالحين التى وردت فى القرآن أو فى السنة النبوية المطهرة.

- وقد تحدثت بإيجاز عن القصص فى القرآن الكريم، وسأتحدث بإيجاز أيضًا عن القصص فى السنة النبوية المطهرة، سائلاً الله التوفيق.

وسوف نكتفى من هذا القصص النبوى الهادى بما يلى:

* قصة الثلاثة الذين أووا إلى الغار فسُدَّ عليهم.

* وقصة الأبرص والأعمى والأقرع.

* وقصة صاحب جريج.

* وقصة الساحر والراهب.

* وقصة من قتل تسعة وتسعين نفسًا.

*** قصة الثلاثة الذين أووا إلى الغار، فسُدّ عليهم:**

روى البخارى ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّتْ عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم.**

قال رجل منهم: اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق[1] قبلهما أهلا ولا مالا[2]. فنأى بى طلب الشجر يومًا فلم أُرحْ عليهما حتى ناما، فحلبتُ لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما، وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً فلبثت والقدح على يدى، انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، والصبية يتضاغون[3] عند قدمى، فاستيقظا فشربا غبوقهما.

اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج منه.

قال الآخر: اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلىّ - وفى رواية: **كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء - فأردتها على نفسها[4] فامتنعت منّى؛ حتى ألمّتْ بها سنة[5] من السنين، فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تُخلّى بينى وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرتُ عليها** - وفى رواية: **فلما قعدت بين رجليها -، قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه[6]، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلىّ وتركت الذهب الذى أعطيتها.**

اللهم إن كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم إنى استأجرت أجراء، وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد؛ ترك الذى له وذهب، فثمرتُ أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءنى بعد حين، فقال: يا عبد الله أدِّ إلىّ أجرى، فقلتُ: كل ما ترى من أجرك؛ من الإبل والبقر والغنم والرقيق.

---

(١) الغبوق: شرب العَشىّ، والصبوح: شرب الصباح.
(٢) أى لا يسقى ما عنده من حيوان.
(٣) يتصايحون من الجوع.
(٤) أردت منها ما يريد الزوج من زوجه.
(٥) سنة: أى شدة وجدب.
(٦) بحقه: أى بالزواج

فقال: يا عبد الله: لا تستهزئ بي.

فقلت: لا استهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه، فلم يترك منه شيئًا.

اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه.

فانفجرت الصخرة، فخرجوا يمشون».

– والعبرة في هذه القصة عظات عديدة معلمة هادية منها:

* أن الإنسان عُرضة فى غدوه ورواحه لأن تقوم فى وجهه العقبات، وأن يلحق به الأذى، وعليه إن كان مؤمنًا ألا يسخط، أو يتهم القدر، أو يكتئب ويتصور أن سوء الحظ قد حالفه، لأن المؤمن يرضى بقضاء الله وقدره، ويذكر الله ويسترجع، ويتذكر أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن عليه أن يأخذ بالأسباب للتخلص مما وقع عليه من حدث.

* وأن التوسُّل إلى الله تعالى ليفرج عن الإنسان ما هو فيه إنما يكون بالعمل الصالح الذى أحاط به الإخلاص، وكان ابتغاء وجه الله تعالى.

ومعنى ذلك أن العمل الصالح فى وقت العافية مطلوب دائمًا، وأن ابتغاء وجه الله بكل عمل صالح هو الأصل، وأنه نعم الزاد فى الطريق إلى الله.

* وأن الإسلام حافل بالقيم الخلقية العالية، وقد ظهر لنا فى هذا الحديث الشريف من هذه القيم:

– برّ الوالدين وتفضيلهما على الولد والمال والنفس هو الخلق الفاضل الذى جاء به الإسلام وقرره، وجعله فى المنزلة التى بعد عبادة الله تعالى.

– ومقاومة الشيطان ووسوسته وتزيينه الشر والجريمة، عمل رفيع القدر، يقرب العبد من ربه، بعد أن يجتاز اختبار الفتنة واتباع الهوى والشهوات.

– والأمانة مطلب إسلامى ملازم للمسلم فى كل أقواله وأعماله ليؤديها إلى أهله، فالمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم، ومن المقرر فى الإسلام أنه لا إيمان لمن لا أمانة له.

*** وقصة الأبرص والأعمى والأقرع:**

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن ثلاثة فى بنى إسرائيل؛ أبرص وأقرع وأعمى، بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكًا فأتى الأبرص فقال: أى شيء أحب إليك؟**

قال: لون حسن وجلد حسن، قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه؛ فأعطى لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا، فقال: فأى المال أحب إليك؟

فقال: الإبل - أو قال: البقر هو شكٌ فى ذلك إن الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر - فأعطى ناقة عشراء، فقال: يُبارَك لك فيها.

وأتى الأقرع فقال: أى شيء أحب إليك؟

قال: شعر حسن، ويذهب عنى هذا، فقد قذرنى الناس، قال: فمسحه فذهب، وأعطى شعرًا حسنًا، قال: فأى المال أحب إليك؟

قال: البقر، فأعطاه بقرة حاملاً، وقال: يُبارك لك فيها.

وأتى الأعمى فقال: أى شيء أحب إليك؟

قال: يرد الله إلىّ بصرى فأبصر به الناس، قال: فمسحه فردّ الله إليه بصره.

قال: فأى المال أحب إليك؟

قال: الغنم، فأعطاه شاة والدًا.

فأُنتج هذان[1] وولَّد هذا[2]، فكان لهذا واد من إبل، ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من الغنم.

ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين تقطعت بى الحبال فى سفرى، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرًا، أتبلغ عليه فى سفرى.

فقال: إن الحقوق كثيرة.

فقال له: كأنى أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرًا فأعطاك الله؟

فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر.

فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع فى صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا فردّ عليه مثل ما ردّ عليه هذا.

فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت فيه.

وأتى الأعمى فى صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل، وتقطعت بى الحبال فى سفرى، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك، أسألك بالذى ردّ عليك بصرك شاةً أتبلغ بها فى سفرى.

---

(١) أى: الأبرص والأقرع. (٢) أى: الأعمى.

فقال: قد كنت أعمى فردّ الله علىّ بصرى، وفقيرًا فقد أغنانى، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشىء أخذته لله

فقال: أمْسِك مالك فإنما ابتليتم، فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك.

– والعبرة فى هذه القصة، أو العظات غير المباشرة تبدو فى عدد من المواقف:

* أن كل مصاب ببلاء فى جسده يحب أن تعود إليه العافية حتى لا يقذره الناس، لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش فى عزلة عن الناس فضلا عن انقطاع عنهم، ويحب أن يراه الناس على أحسن حال.

* وأن حب المال فطرة فطر الله الناس عليها لتستقيم بهم ولهم الحياة الدنيا، ويتعلموا السعى والمشى فى مناكب الأرض للحصول على المال.

* وأن كثيرًا من الناس قد ينكر فضل الله عليه، ويقول كاذبًا: ورثت ما أنا فيه كابرًا عن كابر أو كما قال قارون: إنما أوتيته على علم عندى، وأن نتيجة هذا الكذب وذلك الادعاء هى ذهاب النعم.

* وأن الهدف الصحيح من تملك المال هو حسن التصرف فيه امتلاكًا وإنفاقًا، وإن إمساك المال عن الحقوق المتعلقة به يكون سببًا فى الحرمان منه.

* وأن من الناس من هو مؤمن كيّس يعلم أن الله تعالى هو المنعم بالصحة والمال فينفقه فى وجوهه التى شرع الله، وهذا سبب فى عدم زوال النعم.

* وأن الله تعالى يبتلى الناس ليشهدهم على أنفسهم إن أحسنوا، أو أساءوا.

* قصة صاحب جريج:

روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة؛ عيسى ابن مريم، وصاحب جُرَيج[1]، وكان جُريج رجلاً عابدًا، فاتخذ صومعة فكان فيها، فأتته أمُّه وهو يصلى فقالت: يا جريج.

فقال: يا رب، أمى وصلاتى[2]، فأقبل على صلاته فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى، فقالت: يا جريج، فقال: أى رب أمى وصلاتى! فأقبل على صلاته.

(١) والثالث الرضيع الذى كلم أمه الذى أورده فى آخر حديث صاحب جريج.
(٢) أى تحيّر: أيجيب أمه ويقطع صلاته، أم يستمر فى صلاته ولا يجيب أمه؟

فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج. فقال: أي رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته.

فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات (وهن الزواني).

فتذاكر بنو إسرائيل جريجًا وعبادته، وكانت امرأة بَغِيّ (أي زانية) يتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه، فتعرضتْ له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعيًا كان يأوى إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها، فحملت، فلما ولدتْ قالت: هو من جريج.

فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟

قالوا: زنيت بهذه البَغِيِّ فولدت منك.

قال: أين الصبي؟ فجاءوا به، فقال: دعوني حتى أصلي فصلى، فلما انصرف (من صلاته) أتى الصبي فطعن في بطنه وقال: يا غلام من أبوك؟

قال: فلان الراعي.

فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب.

قال: لا. أعيدوها من طين، كما كانت، ففعلوا.

وبينا صبي يرضع من أمه[1]، فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي وأقبل إليه، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه يرتضع. (قال أبو هريرة) فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبَّابة في فمه، فجعل يمصها، قال: ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيْت، سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لاتجعل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلني مثلها.

فتراجعا الحديث[2].

فقالت: مرَّ رجل حسن الهيئة فقلتُ: اللهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربوها ويقولون: زنيتِ، سرقتِ، فقلتُ: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلتَ: اللهم اجعلني مثلها؟

---

(١) هو الثالث الذى تكلم فى المهد.

(٢) أى تراجعت الأم وصبيها الحديث.

قال: إنّ ذلك الرجل كـان جباراً فقـلتُ: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقـولون لها: زنيت ولم تزن، وسرقت ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلني مثلها.

- والعبرة فى هذه القصة، وعظاتها غير المباشرة هي:

* أن الناس - وبخاصة الأشـرار منهم - يسيئون الظن بمن يرونه منقطعًا لعـبادته - كما فعلوا مع جريج.

* وأنّ بعض الناس قد يتعجلون فى الدعاء على الآخرين، وأن ذلك غير محمود، وكان على الأم أن تحمد لابنها مواظبته على صلاته، وأن تناديه عندما يفرغ منها.

* وأنّ الله تعالى مع عبـاده الصالحين يظهر على أيديهم الكرامـات، إذ جعل هذا الوليد يتكلم ليدفع عن جريج تلك التهمة التى ادعتها البَغى.

* وأنّ فى الناس صـالحين رجّـاعين للحق، إذ عـندمـا تبـينت لهم براءة جـريج قـبلوه وتمسحوا به، واستعدوا أن يبنوا له صومعته من ذهب.

* وأن الإنسان يدعو الله لا يحدد ما يريد، فقـد لا يكون خيره فى ذلك، كما فعلت أم الرضيع، فأنطقه الله وأطلعه على شئ من غيبه، حين شرح لأمه السرّ فى دعائه.

* وأنّ المظلوم عندما يتجه إلى الله قائلا: حسبى الله ونعم الوكيل، فإن الله تعالى يسخر له من ينصره ويدفع عنه التهم والشرور.

*** قصة الساحر والراهب:**

روى مسلم بسنده عن صهـيب بن سنان رضى الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: **«كان ملك فيما كان قبلكم، وكان له ساحِر، فلما كَبِر (أى الساحر) قال للملك: إنى قد كبرت، فابعث إلَيّ غلاما أعلمه السِحْر، فبعث إليه غلامًا يعلمه.**

وكان فى طريقه (أى طريق الغلام) إذا سلَك راهبٌ، فقعـد إليه وسمع كلامه فأعـجبه، وكان إذا أتى الساحر مَرَّ بالراهب وقَعَدَ إليه، فـإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت السـاحر، فقل: حبـسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبـسني الساحر. فبـينما هو على ذلك؛ إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب؟ فأخذ حجراً فـقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك مـن أمر السـاحر، فاقـتل هذه الدابة حتى يمضى الناس، فرماها فقتلها ومضي الناس،فأتي الراهب فأخبره.

فقال له الراهب: أى بُنَىَّ: أنت اليوم أفضل منى؛ فقد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستُبْتَلَى، فإن ابتليت فلا تدلَّ عَلَىَّ.

وكان الغلام يبرئ الأكمه(١) والأبرص(٢) ويداوى الناس من سائر الأدواء(٣).

فسمع جليس للملك (بالغلام وقدراته) كان قد عـمى، فأتاه بهدايا كثيرة؛ فـقال: ماهنا لك أجمعُ إن أنت شفيتنى، فقال: إنى لا أشفى أحدًا، إنما يشفى الله تعالى، فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك، فآمن بالله تعالى،فشفاه الله تعالى.

فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك، من ردّ عليك بصرك؟ قال ربى.

قال (أى الملك) : ولك ربٌ غيرى؟

قال: ربى وربك الله، فأخـذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام، فجئ بالغـلام فقال له الملك: أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل؟

فقـال: إنى لا أشفى أحدًا، إنما يشفى الله تعالى، فأخذه فلم يزل يعـذبه حتى دل على الراهب، فجئ بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأَبَى، فدعا بالمنشار، فـوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقَّه به حتى وقع شقَّاه.

ثم جئ بجليس الملك فقـيل له: ارجع عن دينك فَأبى. فوضع المنشـار فى مفرق رأسه فـشقَّه به حتي وقع شقَّاه.

ثم جئ بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى. فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل.

فقال (أى الغلام): اللهم اكفنيهم بما شئت، فـرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء (أى الغلام) يمشى إلى الملك.

فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟

قال: كفانيهم الله تعالى.

---

(١) الأكمه: الذى ولد لا يبصر.

(٢) الأبرص: المريض بداء البرص، وهو بياض فى جلد الإنسان.

(٣) الأدواء: الأمراض.

فدفعهم إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه فى قُرقور[1]، وتوسطوا به البحر؛ فإن رجع عن دينه، وإلا فاقذفوه.

فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم فغرقوا.

وجاء (أى الغلام) يمشى إلى الملك، فقال له الملك: مافَعَل أصحابك؟

فقال: كفانيهم الله تعالى.

فقال للملك: إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به!!!

قال: ما هو؟

قال: تجمع الناس فى صعيد واحد، وتصلبنى على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتى، ثم ضع السهم فى كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمنى، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى.

فجمع الناس فى صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم فى كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم فى صدغه، فوضع يده فى صدغه فمات.

فقال الناس: آمنا برب الغلام.

فأُتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حَذَرك؛ قد آمن الناس.

فأمر (أى الملك) بالأخدود بأفواه السِّكك فخُدَّت، وأضرم فيها النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، أو قيل له: اقتحم.

ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أُمّاه اصبرى فإنك على الحق».

– والعبرة فى هذه القصة أو العظات غير مباشرة كثيرة منها:

* أن الملوك معظمهم ظلمة مغرورون، يحبون أن يستعبدوا الناس، مستعينين على ظلمهم واستبدادهم بحاشيتهم وأنصارهم وما أوتوا من آليات ووسائل.

* أن أعوان هؤلاء الملوك الظالمين بطانة شر وظلم، وهم مؤاخذون بما يفعلون، ولا يعفيهم من المسئولية أنهم لا يملكون عصيان الملوك.

---

(١) سفينة صغيرة.

* وأن كثيرًا من الملوك كانوا يفرطون فى السيطرة على الناس حتى تبلغ بهم السيطرة حدّ مطالبة الناس بأن يعبدوهم، ولا عجب فى ذلك فواحد منهم قال للناس: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

* وأن بعض عباد الله الصالحين يعكفون على عبادة ربهم، ويدعون غيرهم إلى عبادة الله تعالى، وأنهم يلجئون إلى السر والاستخفاء عن أعين الظالمين والجبابرة، وأنهم أشد حرصًا وعطفًا وحبًا لمن يدعونهم إلى الله.

* وأن كل عبد صالح يجرى الله علي يده كرامة فى شفاء مريض أو قضاء حاجة لأحد، فإنه يوقن أن ذلك من فضل الله تعالى، وأن هذا العبد الصالح لا يشفى ولا يبرىء الأكمه والأبرص، وإنما الشافى هو الله تعالى.

* وأن من طبائع كثير من الملوك الظلمة المستبدين أن يلجأوا إلى تعذيب من يعصونهم تعذيبًا ضاريًا كثيرًا ما يصل إلى حد القتل؛ لفتنتهم فى دينهم وصرفهم عن الإيمان بالله تعالى.

* وأن من طبائع المؤمنين الصادقين الصبر والثبات، حتى مع شَقّ الواحد منهم بالمنشار من أعلى رأسه حتى يقع شقاه، وتاريخ المسلمين - بل وغيرهم- حافل بالحكام الظالمين الذين عذبوا المؤمنين أقسى ألوان التعذيب وأبشع أنواعه، وما استطاعوا أن يفتنوا المؤمنين عن إيمانهم، ولا أن يصرفوهم عن دعوتهم الناس إلى الله وإلى الحق.

بل إن بعض الجبارين من حكام عصرنا هذا هدموا المنازل على ساكنيها من نساء وأطفال، بل قصفوا بعض المؤمنين بالقنابل المحرمة دوليًا - فى عرفنا الكاذب المغالط - وكثير من المؤمنين لا يزالون مسجونين يسامون العذاب من أكثر عشرين عامًا، مع أنهم لا جريمة لهم إلا إن اعتبر اعتزازهم بربهم وبإيمانهم جريمة.

وتلك سنة الظالمين أن يقتلوا من يقول: ربى الله، ومنذ أيام موسى عليه السلام وجبروت فرعون ورغبته فى قتل موسى وتحدى رب موسى، منذ ذلك الزمان: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

* وأن التوجه إلى الله تعالى فى الشدائد هو ديدن المؤمنين: وقد قال الغلام وهو فى أقسى حالات الشدة: «اللهم اكفنيهم بما شئت» فسقط بعضهم من فوق الجبل، وغرق بعضهم في البحر، وأذل الله بعضهم فى الدنيا،فذاقوا من العذاب مثل الذى فعلوا بغيرهم، وتلك من سنن الله التى لا يفيق عليها الظالمون إلا بعد فوات الأوان، ولو استقبلوا من أمرهم ما استدبروا، فعلموا أنهم هباء، وأن أفعالهم واستبدادهم وطغيانهم اختبار لعباد الله الصالحين ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢].

* وأن الله سبحانه إذا أراد شيئًا فلا رادّ لقضائه، وقد أراد للناس أن يؤمنوا به سبحانه، فجعل مقتل الغلام شهيدًا سببًا فى إيمان الناس وهدايتهم، وأتى الملك الظالم من مأمنه ونزل به ما كان يحذره، وتلك الحكمة الإلهية التى تجل عن كثير من الأفهام والعقول.

* وأن الله تعالى يسخرّ للحق من يؤمنون به ويثبتون عليه بل يقدمون أنفسهم وأموالهم فى سبيله، وإذا شاء الله أن يثبت الذين آمنوا على الحق ربما أنطق لهم الصغير الذي يشجع أمه على أن تقذف نفسها فى نار الأخدود، قائلا لها: **يا أُماهْ اصبرى فإنك على الحق.**

ويجعل الملك الجبار المستبد ينصاع لأوامر الغلام فيأخذ من كنانته سهمًا ويجعله فى كبد القوس ويضرب به الغلام قائلاً: **باسم رب الغلام**، فإذا الأمر ينقلب إلى ما يكره، فيصبح الناس قائلين: **آمنا برب الغلام**، كما آمن سحرة فرعون الذين جمعهم لتحدى موسى عليه السلام بسحرهم، فلما رأوا ما جاء به موسى ليس سحرا، وإنما معجزة قالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، غير مبالين بأنه سوف يصلبهم فى جذوع النخل.

إنها سنة الله تعالى فى دعوته وفى دعاته وفى الحق وأهله وحماته، ولن تجد لسنة الله تعالى تبديلاً.

*** قصة مَنْ قتل تسعة وتسعين نفسًا:**

روى البخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن نبى الله ﷺ قال: **«كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض؛ فدلَّ على راهب، فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟**

فقال: لا، فقتله فكمَّل به مائة.

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدلّ على رجل عالم،فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نَعَم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أناسًا يعبدون الله

تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا بلغ نصف الطريق أتاه ملك الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب.

فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى.

وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط.

فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم[1].

فقال: قيسوا ما بين الأرضيّن، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد[2]، فقبضته ملائكة الرحمة.

وفى ختام الحديث روايات أخرى فى الصحاح، منها:

- فى رواية:

«فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبرٍ، فجعل من أهلها».

- وفى رواية:

«فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى، وإلى هذه أن تقرّبى، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر، فغُفِر له».

- وفى رواية:

«فنأى بصدره نحوها».

- والعبرة فى هذه القصة التى استهدفتها العظة غير المباشرة فى أمور:

* أن باب التوبة عن الذنوب مفتوح دائمًا، ما دامت النية معقودة عليها، وأنه ليس لأحد أن يسُد باب التوبة أمام تائب مهما تعاظمت ذنوبه، لأن رحمة الله تعالى وسعت كل شىء.

* وأن أحدًا ليس له أن يوئس أحدًا من عفو الله تعالى ورحمته، مهما تكن لهذا الذى يوئس الناس من مكانة فى الدين.

* وأن الفطرة السّوية التى فطر الله الناس عليها، هى الندم على ارتكاب الذنوب، والرغبة فى التوبة عنها، حتى لو كانت الذنوب قتل مائة نفس.

(١) أى جعلوه حكمًا بينهم.

(٢) أى الأرض التى فيها من يعبدون الله تعالى ليعبده معهم.

* وأن الأرض التى يكثر فيها الفساد والمعاصى جديرة أن تهجر، إلى أرض صالحة يعبد فيها الله تعالى، فتقل فيها الجرائم والمعاصى.

* وأن العبرة بالنوايا، وأن لكل امرئ مانوى، والله سبحانه وتعالى ينظر إلى القلوب والنوايا والأعمال الصالحة، فقد كان قاتل المائة من النفوس أقرب إلى أرضِ الصلاح بشبر أو بقدر صدره، فنجا.

* وأن الله تعالى مع عبده التائب يغفر الذنب ويقبل التوب، ويأمر أرض الشر أن تتباعد وأرض الخير أن تدنو، ليدخل عبده التائب فى رحمته؛ لأنه سبحانه يفرح بتوبة عبده، فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حيث يذكرنى، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، ومن تقرب إلىّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا ومن تقرب إلى ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإذا أقبل إلىّ يمشى أقبلتُ إليه أُهرول»**.

٥- استجابة الإنسان لتوجيه الله تعالى أو رفضه هذا التوجيه:

أكَّدنا فى الصفحات السابقة أن من رحمة الله تعالى بالإنسان أن شمل نفسه بالرعاية ووجهها نحو فعل الخير وزينه أمامها، فى الوقت الذى حذرها من فعل الشَّر ونفرها منه، وقلنا: إن توجيهات الله تعالى للإنسان اتخذت أساليب عديدة؛ كالأمر والنهى والإخبار والموعظة المباشرة بالوصايا، أو الموعظة غير المباشرة بالقصص فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة[1].

* ومن الحكم الإلهية البالغة أن ترك الله تعالى للإنسان الحرية فى قبول توجيهات الله تعالى بقبول حسن، أو رفضها كليًا أو جزئيًا، وإنما أعطاه الله تعالى حرية القبول أو الرفض، حتى إذا رفض فتعرض لعقاب الله يوم القيامة لم يشعر أنه ظلم، لأنه علم أنه خالف وعصى برفضه لما وجهه الله تعالى إليه من خير.

* والإنسان خلقه الله وفى قلبه وعقله لِمتَّان، لِمَّة من الملَك، إيعاد بالخير وتصديق بالحق، ولمة من الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وللإنسان مطلق الإرادة وله كامل الحرية فى القبول أو الرفض، مع تحريض الملاك على فعل الخير، وتحريض الشيطان على فعل الشر.

---

(١) صح منا العزم على جمع القصص التى وردت فى السنة النبوية وعمل دراسة توضح أهدافها النبيلة - نسأل الله التوفيق.

* والله تبارك وتعالى - فى كتابه الكريم - يعلِّم، ويشرح، ويحذر وينذر، ويدع للإنسان حرية الاختيار والعمل.

- قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

- وقال جل شأنه: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

- وقال عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧- ١٠].

- وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧- ٤١].

وقال جل وعلا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٤- ٢٠٧].

وغير هذه الآيات الكريمة فى القرآن الكريم كثيرة، تقرر أن الإنسان حر الإرادة، حر الاختيار، يضع نفسه حيث يريد، دون إكراه أو إجبار.

- والإنسان عندما يطيع ربه، ويأخذ بما يوجهه إليه من نصائح وعظات فى آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ؛ عندما يفعل الإنسان ذلك فقد استجاب لتوجيهات ربه سبحانه وتعالى، وأصبح موضعًا لرعايته سبحانه وتعالى، وبذلك يحقق سعادة الدنيا والآخرة.

- وإذا رفض الإنسان توجيهات ربه سبحانه وتعالى نحو الخير والبر، فإنه يدخل فى معصية الله تعالى، ويتجاهل ما وجهه إليه من خلال آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ، عندما يفعل الإنسان ذلك فإنه يرفض الخير والبر، ويقع فى الشر والإثم، وبذلك يشقى فى الدنيا والآخرة.

* ونحاول في هذه الصفحات أن نحدد بعض مظاهر الاستجابة لتوجيهات الله تعالى، وبعض مظاهر الرفض لهذه الاستجابة، ليكون الإنسان على بينة من أمره، ونسأل الله التوفيق.

أ- مظاهر الاستجابة لتوجيه الله تعالى ورعايته للإنسان:

الإنسان المستجيب لما يوجهه إليه خالقه سبحانه وتعالى من خير وبر، هو من تتوافر فيه صفات أساسية أربعة فيما أتصور، وهى:

- الرضا بالقضاء والقدر.
- والالتزام بامتثال الأمر، واجتناب النهى.
- والمبادرة بالأعمال الصالحة.
- والتقرب إلى الله تعالى بالنوافل.

- الرضا بالقضاء والقدر:

الرضا بالقضاء والقدر فرع من الإيمان بهما، واليقين بأن القدر لارادّ له؛ وذلك أن الإيمان بالقضاء والقدر ركنٌ من أركان الإيمان الستة المذكورة فى الحديث النبوى الشريف الذى رواه أئمة الحديث.

ونص رواية مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو: قال عمر بن الخطاب: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفَّيه على فخديه، وقال: **يا محمد أخبرنى عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، قال: صدقْتَ، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: أخبرنى عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقْتَ، قال: فأخبرنى عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخبرنى عن الساعة، قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرنى عن أماراتها، قال: أن تلد الأمَةُ ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان، قال: ثم انطلق، فلبثت مليًّا، ثم قال لى يا عمر: أتدرى مَن السائل؟ قلتُ:** الله ورسوله أعلم، قال: **فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».**

فالإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان الستة، كما جاء في هذا الحديث الشريف.

- بل الرضا بالقدر جزء من الرضا بالله ربًا.

روى أبو داود بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من قال: رضيتُ بالله ربًا، وبالاسلام دينًا، وبمحمد رسولاً؛ غفرتْ له ذنوبه»**. قال العلماء فى هذا الحديث الشريف:

الرضا بالربوبية يعنى أمرينْ:

- أحدهما: رضا الإنسان بأوامر الله تعالى ونواهيه.

- والآخر: رضا الإنسان بما قضى الله له، وبما قُدِّر عليه.

وهذا الرضا بالقضاء والقدر ينعكس على الراضى بمزيد من الشعور بالسعادة والرغبة فى الإقبال على العمل الصالح والتزود به وبالتقوى ليوم لقاء الله تعالى.

- والإيمان بالقدر شرط لقبول العمل الصالح.

روى أحمد بسنده عن زيد بن ثابت رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو أنّ الله عذّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أُحد ذهبًا فى سبيل الله ما قبله منك حتى تؤمن بالقَدَر، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار»**.

- والرضا بالقضاء والقدر فرع من الإيمان، والإيمان كله بجميع أركانه فرع من الرضا بربوبية الخالق سبحانه وتعالى، والرضا بربوبية الله تعالى يتضمن أنواعًا من الرضا تحدث عنها كثير من العلماء، منها:

* الرضا بتدبير الله تعالى لعبده.

* وإفراد الله تعالى بالتوكل عليه.

* والاستعانة بالله تعالى وحده.

* والاعتماد عليه سبحانه وتعالى.

* والثقة به سبحانه وبكل ما يجريه على عباده.

وكل هذه الانواع من الرضا بربوبيته سبحانه وتعالى، لا يكون على وجهه الصحيح إلا مع الأخذ بالأسباب التى شرعها الله تعالى.

وكل هذه الأنواع من الرضا بالربوبية والتوكل على الله والاستعانة به والاعتماد عليه والثقة فى تدبيره؛ هى حال رسول الله ﷺ وسنته، حيث أجمع المسلمون فى كل زمان ومكان على أن التوكل على الله تعالى لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب، لأن ترك الأخذ بالأسباب باطل يتحول به التوكل على الله إلى تواكل وترك للعمل.

ومن المعلوم فى تراثنا الفقهى والتربوى أن نفى الأسباب إبطال للتوكل على الله، بل إن التوكل ذاته سبب فى حصول المتوكل فيه، كالدعاء الذى جعله الله تعالى سببًا فى حصول المدعو به.

- وقد أجمع العلماء على أن الإيمان بالقدر والرضا به يذهب عن الإنسان الهَمَّ والحزن والغمّ والضيق.

روى الترمذى بسنده عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مِن سعادة ابن آدم استخارة الله عز وجل، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله. ومن شقاوة ابنَ آدم سخطه بما قضى الله، ومن شقاوة بنى آدم ترك استخارة الله».

وهذا الحديث النبوى الشريف يقرر بصراحة ووضوح، وبكلام صريح صادر عمن لا ينطق عن الهوى؛ أن الرضا بالقدر من سعادة الإنسان، وأن السخط بالقدر من شقاوته.

- الالتزام بما أَمَرَ الله ورسوله به، والاجتناب لما نهيا عنه.

هذا الالتزام إذا أردنا تفسيره هو الطاعة والاستجابة أى فعل كل ما أمر الله تعالى ورسوله ﷺ به من قول أو فعل، أو من صمت وترك.

وهذه الطاعة فى جوهرها هى تَعَبُّد لله تعالى بفعل ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، والتعبد لله تعالى إنما يكون بطاعته وفق ما أمر الله ووفق ما نهى، وهذه الطاعة يجب أن تخلو من الإفراط والمغالاة كما يفعل بعض المتشددين الذين ليس لهم حظ وافر من فقه العبادات ومشروعيتها، أو كما يفعل بعض المفرطين الذين يسول لهم الشيطان أن يتخففوا من بعض العبادات أو ينتقصوا منها، والتعبد لله تعالى طاعة لا ينبغى أن يدخلها إفراط ولا تفريط، وإنما هى ائتمار بما أمر الله ورسوله به، واجتناب لما نهيا عنه - كما أسلفنا .

- والطاعة لله ورسوله لها أحسن الآثار فى حياة الإنسان الأخروية والدنيوية.

* أما أثر طاعة الله تعالى فى الآخرة ففوز عظيم وجنات تجرى من تحتها الأنهار مع خلود فى هذه الجنات، وصحبة فى الجنة للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

بهذه العدات وردت آيات القرآن الكريم:

* قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧١].

* وقال جل وعلا: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [النساء: ١٣].

* وقال جل شأنه: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

- ومن المعروف المسلَّم به لدى المسلمين أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى، لأن الرسول ﷺ هو المبلغ عن ربه، فلابد أن تكون طاعته من طاعة الله تعالى، ومصداق ذلك فى القرآن الكريم:

* قال الله تعالى: ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠]

* وقال عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣]

* وليس أحسن من الآثار الأخروية آثار أحسن ولا أكمل ولا أجمع للخير كله منها.

* وأما آثار طاعة الله تعالى فى الدنيا فكثيرة وجليلة القدر وجالبة الخير للطائع، ومن هذه الآثار:

- الاستقامة:

وهى نتيجة للالتزام بالطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ فيما أمرا به، وبالاجتناب لما نهيا عنه.

* والاستقامة هى: الوفاء بالعهود كلها، وملازمة الصراط المستقيم، مع مراعاة حد التوسط فى كل الأمور، أى لا إفراط ولا تفريط، وذلك هو الصراط المستقيم كالصراط المستقيم فى الآخرة، فالبقاء على الصراط المستقيم والوقوف عليه صعب ثم العمل به أصعب، ولا جرم قال ابن عباس رضى الله عنه: ما نزلت على رسول الله ﷺ فى جميع القرآن

آية أشد ولا أشق عليه من هذه الآية، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الترمذى بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: «شيبتنى» هود وأخواتها»[1].

* والاستقامة ضد الطغيان والتجاوز: وقد جاء فى القرآن الكريم: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢].

* وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهى، ولا تروغ روغان الثعلب.

* والاستقامة تلخيص للإسلام كله وإجمال له:

روى مسلم بسنده عن سفيان بن عبد الله رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم».

* والاستقامة هى السداد والتسديد:

وهى الدرجة العليا وتأتى بعدها المقاربة.

روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «سَدِّدُوا وقاربوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل».

* ومن آثار طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ؛ أن يكون الطائع مألفًا أى يألف الناس ويألفه الناس لحبه الخير لهم، وحبهم كما يحب نفسه، بل قد يؤثرهم على نفسه إن عظمت طاعته لله تعالى ولرسوله ﷺ؛ وذلك أن الالتزام بهذه الطاعة يملأ قلب المؤمن حبًا للناس وحبًا للخير لهم، فيولد ذلك فى نفسه رغبة فى عونهم وقضاء حوائجهم، ودعوتهم إلى الله إلى الحق والهدى وتذكيرهم بالله تعالى، وبأهمية العمل الصالح الذى يترجم عن الإيمان، كما تحمله الطاعة على أن يحذر الناس من شياطين الإنس والجن وهمزهم ووسوستهم وتزيينهم الباطل، وتزييفهم الحق، كما أن الطائع لله تعالى ولرسوله ﷺ لا يتوقف عن تخويف الناس من حساب الله تعالى وعقابه على المعاصى يوم يقوم الناس لرب العالمين.

---

(١) وفى رواية لأبى داود بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال أبو بكر رضى الله عنه: يا رسول الله قد شِبْتَ، قال: «شيبتنى هود والواقعة والمرسلات، وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت».

ومن كان أمره كذلك من الطائعين أحب الناس جميعًا لأنهم إخوانه، وأحبه الناس وألفوه؛ لأنه عون لهم على الخير، وحجب لهم عن الشر، وفى هذا وذلك صالح آخرتهم ودنياهم. ومن كان كذلك من الطائعين أحبه الله تعالى، ويسر له أموره وجعله جالبًا للخير دافعًا للشر، وتلك من أرفع المنازل.

* ومن آثار طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، أن يشعر الطائع بالسعادة الروحية والراحة النفسية:

– من أطاع الله تعالى ورسوله ﷺ طاعة ملتزمة بالأمر والنهى، خالية من الإفراط والتفريط فقد أدى فريضة فرضها الله تعالى عليه، ومن أدَّى ما فرض عليه فإنه يشعر براحة نفسية بل بسعادة غامرة إذ وُفق إلى أداء واجباته.

وهذه الفرائض أو الواجبات التى أوجبها الله تعالى، إنما أوجبها لما تحمله من خير لمن أداها فى دينه ودنياه، ولما تحمله من خير للناس والمجتمع، إذ بغير هذه الواجبات يصبح الناس فوضى لا نظام لهم، ويصبح المجتمع نهبًا لكل ظالم ولكل قوى متجبر، ويضيع الضعفاء والفقراء من الناس ضياعًا ما بعده ضياع.

– ونحن عندما نتدبر الحكمة فى أى فريضة فرضها الله تعالى، نهتدى بعقولنا إلى أن كل فريضة فرضها الله تعالى ابتداء من فريضة الطهارة والنظافة، وفريضة الصلاة والصيام والحج، وهى فرائض تبدو كأنها لصالح من يؤديها وحده، لكن عند التدبر نجد أداءها يعود بالنفع على المجتمع كله كفريضة الزكاة سواء بسواء؛ فالمجتمع يستفيد من المتطهر النظيف ومن المصلى ومن الصائم ومن الحاج كما يستفيد من المزكى والمتصدق وذابح الأضحية، لا يحتاج إدراك ذلك إلى عناء أو جهد كبير، مما يجعلنا نقول – مطمئنين –: إن الله تعالى لم يفرض فريضة ولم يوجب ولم يندب إلى فعل شىء إلا كان متضمنًا لفائدة للمجتمع، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تستوعبها هذه الصفحات، وعلى وجه الإجمال نقول: إن توحيد الله تعالى وسائر العبادات والمعاملات، وجميع القيم التى أوجبها تنطوى على فائدة للمجتمع إذ تعمل على تنقيته من الشرور، وتهيئه للتقدم والرقى والعمل على احترام حقوق الإنسان وحرياته فى الإطار الذى شرعه الله تعالى.

– ومن أدَّى واجبًا مما أوجب الله فقد أسهم فى نفع نفسه والمجتمع الذى يعيش فيه، بل المجتمعات الإنسانية كلها، لما بين المجتمعات من صلات لا يمكن تجاهلها، بل لا نبالغ إن قلنا: إن تجاهل هذه الصلات –تأثيرًا وتأثرًا– تفريط فيما أوجب الله على عباده.

- ونعود فنقول: إن غاية السعادة والراحة النفسية للإنسان عندما يجد نفسه قد أدى ما فرض الله عليه وما أوجب، إنه يشعر بمشاركته وإسهامه فى تنقية نفسه ومجتمعه من الشرور والآثام، وتعاونه فى ترقية نفسه ومجتمعه ليصبح مجتمعا إنسانيا كريما يحافظ على إنسانية الإنسان.

- وسرِّ سعادة الإنسان وانشراحه وراحته النفسية بأداء واجباته وفرائضه وما نُدب إليه أمران:

أولهما:

أنه قد أدّى ما فرضه عليه خالقه سبحانه وتعالى، مما يجعله سعيدًا راضيًا راجيًا مغفرة ربه ورضوانه.

والآخر:

أنه عاون فى دفع بعض الحاجات عن الناس؛ مادية كانت هذه الحاجات أو معنوية، وتلك سعادة يشعر بها من وفقه الله ففطر صائمًا أو أطعم جائعًا أو كسى عاريًا أو كفل يتيمًا أو عال أرملة، وغير ذلك من أعمال البر والخير التى تعقبها لذة فى النفس واطمئنان فى القلب ما دامت هذه الأعمال قد أديت لوجه الله تعالى.

* ومن آثار طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ: أن يجد المطيع نفسه قد دخل فى رحاب طاعة وعزها وما تجلبه له من الرضا والرغبة فى الاستزادة من الطاعة، وأن يجد نفسه قد خرج من مضايق المعصية وآفاتها وما يستتبعه ذلك من شعور العاصى لخالقه سبحانه وتعالى من ذل وانكسار وندم، وخوف من عقاب الله تعالى مما يفقده الإحساس بالأمن والطمأنينة. وما لم تتدارك العاصى توبة نصوح فإنه يخسر الآخرة، والأخرة هى الحياة الحقة لنعيم الطائعين فيها وخلودهم فى هذا النعيم.

ب- مظاهر رفض الاستجابة لتوجيه الله تعالى للإنسان ورعايته:

عندما ترفض النفس الإنسانية توجيهات الله تعالى ورعايته للإنسان، تكون قد استولى عليها الشيطان فأصبحت من أعوانه وخُدامه، فذهبت هذه النفس بهذا الرفض فى طريق الضلال إلى غاية بعيدة، وحسبك شرًا وحمقًا بمن يرفض توجيه الله تعالى له ورعايته إياه!!!

غير أن هؤلاء الخادعين لأنفسهم الضالين المضلين لأنفسهم ليسوا قليلى العدد ولا محدودى الخطر، بل قد جرت سنة الله فى الذين خلوا من قبل أن يكون المخادعون المضللون أكثر عددًا وعُددًا، وكثيرًا ما تكون لهم الصولة والجولة، ولكن من سنة الله تعالى فى الأولين والآخرين أن تكون العاقبة الحسنة للمتقين، وأن يكون لهم الفتح والنصر.

* هؤلاء الرافضون لتوجيهات الله تعالى ورعايته ممعنون فى الضلال، وفى خداع أنفسهم عن الحق وإهلاكها بهذا الخداع. ولهذا الرفض مظاهر عديدة نذكر ثلاثة منها، ونرى فيها الشاهد والدليل على رفض توجيه الله تعالى ورعايته ومنهجه ونظامه، هذه المظاهر هى:

- خداع الإنسان نفسه وإضلاله إياها.

- وثناء الإنسان على نفسه لما يتصف به من غرور وكيد.

- وضيق نفس هذا الرافض بتوجيهات الله تعالى ورعايته للإنسان مما يؤدى بها إلى اليأس والقنوط.

وسنحاول فى هذه الصفحات من الكتاب أن نتحدث عن هذه المظاهر الثلاثة للرفض، مع علمنا بأن المظاهر أكثر من هذا بكثير.

لكننا نؤكد فى البداية أن رفض هذه التوجيهات وتلك الرعاية هو رفض لمنهج الله ونظامه، ورفض للقيم التى جاء بها الإسلام الذى ختم الله تعالى به الأديان السماوية.

ونؤكد - أيضا - أن هؤلاء الرافضين لمنهج الله ونظامه هم ضالون مضللون حادوا عن صراط الله المستقيم، واتبعوا سبلاً أخرى فتفرقت بهم عن سبيله، وعموا عن الحق وتنكبوا طريقه، فكانوا بذلك إخوانًا بل خُدامًا للشياطين.

وإلى الحديث عن مظاهر هذا الرفض لتوجيهات الله تعالى ورعايته للناس:

- خداع الإنسان لنفسه وإضلالها:

الخداع غِش وتمويه واحتيال، وكذب يترتب عليه ضلال قد يكون ضلالاً بعيدًا، كما وصف فى القرآن الكريم، ومن أجل أن الخداع غِش وتمويه واحتيال حرمه الإسلام، وجعل تحريمه كسائر المحرمات ثابتًا مستمرًا فى كل زمان ومكان، فقد روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: **«مَنْ غَشَّنا فليس منا»**.

وروى الطبرانى - فى الكبير - بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ غشَّنا فليس منا، والمكر والخداع فى النار»**.

فما بالنا بمن يخدع نفسه فيضلها عن الحق وعن الصراط المستقيم؟

والنفس التي يخدعها صاحبها هي - كما جرينا على ذلك في مدخل هذا الكتاب - هي الروح أو هي القلب أو هي العقل، فهذه الكلمات الأربع تتبادل المواقع دون الإخلال بالمعنى.

- وخداع النفس أسوأ أنواع الخداع، لأن المخادع يخدع نفسه، ومثله - في تصوري - مثل أسوأ الناس سرقة، وهو الذي يسرق صلاته أي لا يؤديها على وجهها، فلا يطمئن في أركانها، ولا يتمم صلاته كما يجب.

- وخادع نفسه إنما يحركه إلى خداعها رغبته في التخفف من الأعباء والواجبات الشرعية، لأنها ثقيلة عليه لا تتفق مع هواه وشيطانه وشهواته، فهو حين يخدعها عن أداء هذه الواجبات إنما يخدعها عما ينفعها في دنياها وفي آخرتها، فهو بذلك يرتكب حماقة كبري سوف يحاسب عليها حسابًا عادلاً.

- وخادع نفسه، إنما يخدعها عن أداء ما أوجب الله عليها، أو ندبها إليه، فهو بهذا الخداع يفتنها عن دينها ويصرفها عن واجباتها، ويجعلها بذلك عرضة لحساب الله تعالى وعقابه وفي هؤلاء الخادعين لأنفسهم الضالين المضللين نزلت آيات قرانية تندد بهم، وتكشف خداعهم وتمويهاتهم، وتتوعدهم بالعقاب، ومن هذه الآيات الكريمة:

* قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨-١٠].

* وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

والمكر يدخل فيه الخداع، والخداع عاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة.

* وقوله عز وجل: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].

* وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ [النجم: ٢٣، ٢٤].

- إن الذين يخدعون أنفسهم يضلونها عن الحق وعن الصـراط المستقيم صراط الله تعالى، وذلك هو الضلال البـعيد، ولابد لنا أن نتـفق على أن كل خداع إضلال، لأن هدفهـما واحد وهو صرف المخدوع أو المضلل عن الحق.

ثانيًا: ثناء الإنسان على نفسه:

لا يثنى على نفسه ولا يزكيها إلا كل مغرور داخَلَه الكبرُ وركبه الشيطان، لأن الله تعالى نهى عن أن يزكى الإنسان نفسه، ونهى عن الغرور وعن التكبر وإعجاب الإنسان بنفسه.

والمثنى على نفسه المغرور المستكبر يرفض توجيهات الله تعالى ورعايته للإنسان، ويرفض منهج الله ونظامه، بل يرفض القيم الخلقية الإسلامية التى على رأسها التواضع وتحريم تزكية النفس وتحريم الاستكبار.

- وثناء الإنسان على نفسه، إنما تدفعه إليه صفتان:

إحداهما: العُجب: أى إعجاب الإنسان بنفسه، وذاك هو الغُرور.

والأخرى: الكِبْر، أى اعتقاد الإنسان أنه أحسن وأفضل من سواه.

وعندما تتحرك هاتان الصفتـان فى قلب الإنسان وعقله، ولا تجدان من الأسباب والدواء ما يرد صاحبهما إلى الصواب والحق، فإن الإنسان ينطلق فى غروره وتكبره، فيزين ذلك له الثناء على نفسه والتفاخر والتعالى على الناس!!

- وقد يكون الإنسان ذا قـدرات وكفاءات وتميز على الآخـرين، ولكن ذلك لا يعطيه الحق فى أن يعبر عن عجبه وغروره؛ لأن القيـمة الإسلامية التربوية تدعوه عندئذ إلى التواضع وترده إلى الصواب وإلى حمد الله تعالى على مـا وهبه من نعم، وعلى ما أودع فيه من قدرات وكفاءات؛ إذ ليس لأحد من الناس فضل فى الحصول على المواهب وإنما هى منح من الله تعـالى، وهى بذلك الوصف لا تعطى أحدًا الحق فى أن يفـخر بهـا ويثنى على نفسه لاتصافه بها.

- وثناء الإنسان على نفسه أو عجبه أو كـبره يدل على أن هذا الإنسان نافر من توجيهات الله تعالى، لأنه سـبحانه نهى عن ذلك كله رعـاية منه سبحـانه للإنسان، إذ لا يتصوَّر قـبول منهج الله تعالى ونظامه، والقـيم التى ألزم بها، أحد معجب بنفسه أو مـتكبر على غيره، لأن ذلك من صميم ما حرمه المنهج، ودلت عليه آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ.

* قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

والمزكِّي لنفسه أحمق مغرور، متكبر مصروف عن الحق والهدى، لأن المتكبر دائمًا على غير الحق.

* وقال جل وعلا: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٢، ٢٣]

* وقال جل شأنه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وروى مسلم بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كِبْر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»**.

وروى أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما -قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كان في قلبه حبة خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه»**.

وروى البيهقي -في الشعب-بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو لَمْ تُذْنِبوا؛ لخشيتُ عليكم ما هو أكبر من ذلك، العجبُ العجب»** فجعل رسول الله ﷺ العجبَ أكبر الذنوب.

وروى الطبراني -في الأوسط- بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات، وثلاث كفارات، وثلاث درجات؛ فأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متَّبَع، وإعجاب المرء بنفسه...»**[(١)].

ثالثًا: ضيق نفس الرافض بتوجيهات الله تعالى ورعايته للإنسان مما يؤدي بها إلى اليأس والقنوط:

يأخذ الرفض لتوجيهات الله تعالى ورعايته، عند بعض الناس صورة الضيق بالنفس، والتبرم بها، أو القنوط أو اليأس، وكل هذه الصفات مما حذَّر الله منها ونهى عنها.

---

(١) انظر الحديث بتمامه في: المعجم الأوسط للطبراني، وهو حديث صحيح.

- والضيق بالنفس يعنى فقد الثقة فيها، مع تصور أنها نفس فقيرة بخيلة لا يرجى منها خير، فيمتلئ الإنسان عندئذ حزنًا وغَمّاً.

- والقنوط هو: اليأس من أى خير يرتجي من هذه النفس، والخير في نظر هذا الرافض القانط هو ما يمكنه من ممارسة شهواته وملذاته، أى القنوط من رحمة الله تعالى على وجه الحقيقة، لأن رحمة الله هى التى تجعل هذه النفس لا تسوِّل لصاحبها الشر، فهو قانط من رحمة الله قانط من نفسه.

- واليأس هو: انتفاء الطمع فى الخير مطلقًا، وتصور هذا النافر من توجيهات الله تعالى أن نفسه تحول بينه وبين الخير الذى يريد، وهو شهواته وملذاته واتباع هواه، فهو على وجه الحقيقة يأس من رحمة الله تعالى وفقد للطمع فيها.

* وهذه الصفات الثلاث؛ الضيق والقنوط واليأس مما لا يجوز لمؤمن أن يتصف بها؛ لأن الله تعالى نهى الأنبياء والمرسلين، وهم صفوته من خلقه عن الاتصاف بها، مهما ضاقوا بمعانديهم والكافرين بما جاءوهم به، ولو لم تكن هذه الصفات نقائص ما نهاهم عنها، ولا أمرهم بالصبر على معانديهم والكافرين بما جاءوهم به من عند الله تعالى.

* ولكى نزيد أمر الرافضين لتوجيهات الله تعالى ورعايته ورحمته بالإنسان وضوحًا؛ نذكر عددًا من الحقائق التى لا ينكرها العقلاء، وأهمها:

- أن هدى الله هو الهدى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، ولا يزيغ عن ذلك إلا هالك، وتوجيهات الله تعالى هى ذلك الهدى المتمثل فى الأمر بالخير، والنهى عن الشر، وما يرفض ذلك إلا جاهل ممعن فى الجهالة، ضال ممعن فى الضلالة، عاجز عن التمييز بين ما ينفعه وما يضره، لأنه فى الغالب يسيطر عليه شيطان الهوى والشهوات، وتلك ضد توجيهات الله تعالى وحسن عنايته ورعايته للإنسان.

- وأن حكمة الله تعالى ورحمته بعباده اقتضت أن يشملهم بعنايته ورعايته، ليحميهم بها من الشرور والآثام، ويهيىء لهم بها طريق الخير والبر.

والذى يرفض عناية الله ورعايته أشد حمقًا وجهلاً من الدواب، لأنه يكفر -بهذا الرفض- نعم الله عليه السابغة الظاهرة والباطنة التى لا تحصى.

ومن المسلَّم به لدينا معشر المسلمين قول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣]، ولذلك ينفرون من هدى الله ومن صراطه المستقيم.

- وأن الذين يرفضون توجيهات الله تعالى وعنايته ورعايته يرفضون دينه ومنهجه الذى جاءت به رسله عليهم الصلاة والسلام، وأوضح صفات هؤلاء الرافضين -كما حددها القرآن الكريم -ثلاث صفات هى:

التكذيب للرسل.

والتشاؤم بهم وبما جاءوا به.

وأنهم مسرفون على أنفسهم، يتجاوزون الحق والعدل، ولقد وصفهم الله تعالى بهذه الصفات، منذ زمن باكر فى نزول القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٣-١٩].

وبعد سرد هذه الحقائق نقول:

* أما الذين نفروا من توجيهات الله تعالى فأصابهم ذلك بالضيق، الضيق بأنفسهم، فقد نبههم الله تعالى إلى أن صفة الضيق غير مقبولة لديه سبحانه وتعالى، لذلك حذر منها فى كثير من آيات القرآن الكريم، حذر منها الأنبياء والمرسلين، وحذر منها طائفة من صحابة رسول الله ﷺ.

- قال الله تعالى مخاطبًا خاتم رسله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩].

- وقال جل وعلا عن الصحابة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

* وأما الذين نفروا من توجيهات الله تعالى فأصابهم ذلك بالقنوط -أى اليأس من الخير- فهم ضالون لأنهم قنطوا من رحمة الله، وما كان لهم أن يفعلوا ذلك أبدًا؛

لأن رحمة الله وسعت كل شيء، وقد أخبر سبحانه وتعالى أن رحمته تأتى حيث لا يتوقع الإنسان وحتى لو كان نبيًا مرسلاً من أولى العزم من الرسل، فلا ينبغى القنوط من رحمة الله تعالى مهما غابت الأسباب.

- قال الله تعالى عن نبيه ورسوله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥١-٥٦].

- وقال تعالى ناهيًا عن القنوط من رحمة الله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]

* وأما الذين نفروا من توجيهات الله تعالى فأصابهم اليأس، وهو انقطاع الرجاء والأمل فهم على خطأ كبير؛ لأن اليأس صفة الكافرين، وصفة من يصيبهم الجزع فلا يصبرون.

- قال الله تعالى على لسان نبيه يعقوب عليه السلام مخاطبًا نبيه بعد فقده يوسف وأخاه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ[1] إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

* واليأس صفة الإنسان المتقلب الذى لا يرضى إلا إذا أعطى ما يريد، الإنسان الطامع الذى لا يطيق أن يُحرم من نعمة، أو أن تبعد عنه، وإن حرم نعمة أو بعدتْ عنه أصيب باليأس.

- قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩، ١٠].

- وقال جل وعلا: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٣، ٨٤].

---

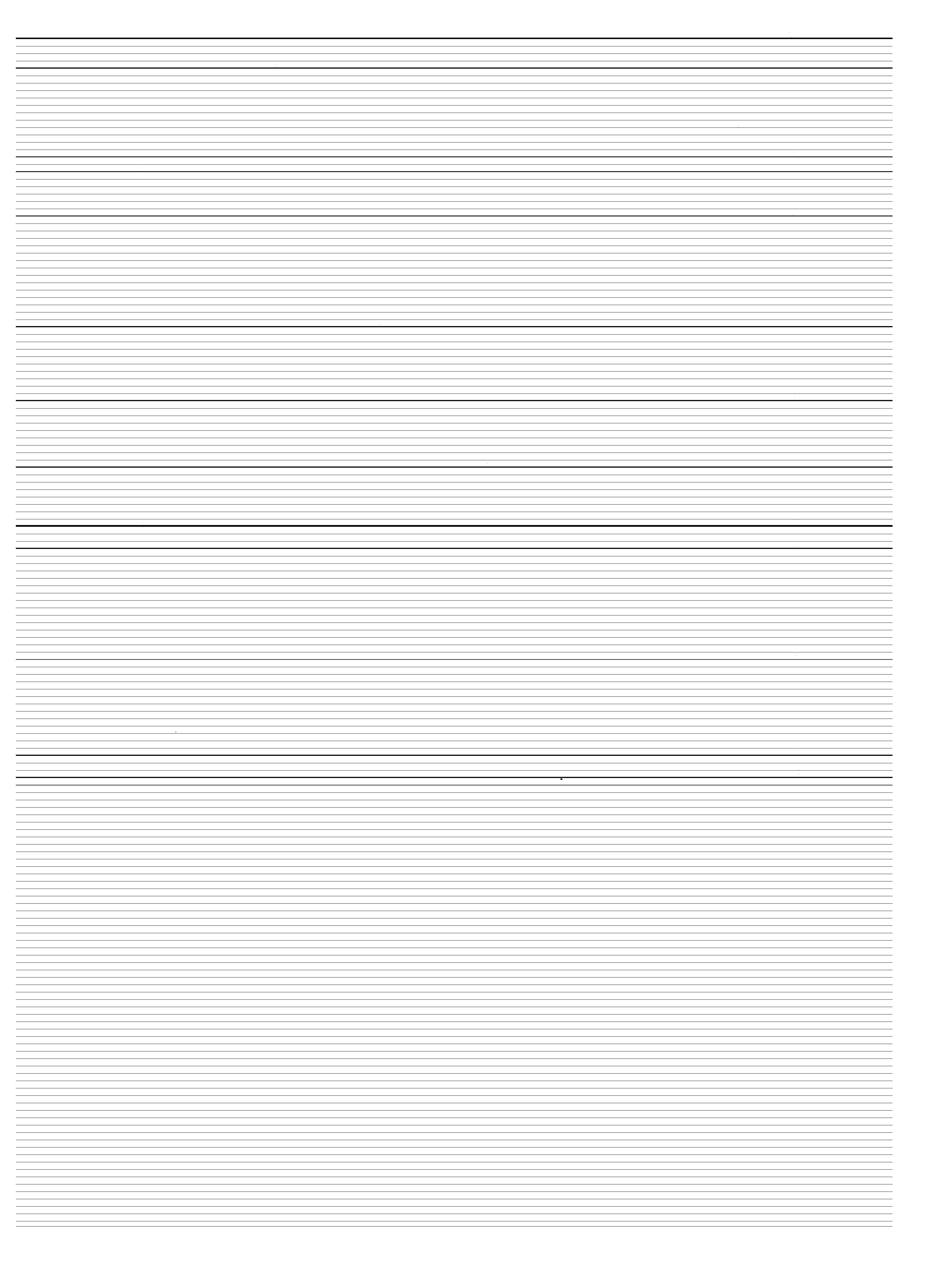
(١) رَوْح الله: رحمته وفَرَجه.

وبعد: فـقد أنهـينا الفصل الأول : النفس فى الإسـلام الذى تناول خمس نـقاط هى: تعريف الإسلام النفس، وتعامله معها وتحديد أنواعـها، ورعاية الله تعالى للنفس بتوجيهها نحو فعل الخـير بأساليب متـعددة كالأمر والنهى والإخبـار والعظة المباشرة وغيـر المباشرة، واستـجابة الإنسـان لتوجـيه الله تعـالى أو رفضـه، وأوضحنا مظاهر الاسـتجـابة ومظاهر الرفض.

ويبقى أن نتـحدث عن الفـصل الثانى وهو: صـفات النفوس فى القـرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وما التوفيق إلا من عند الله.

ثم نختتم الباب بالفصل الثالث: مجمل صفات النفس الإنسانية.

****



الفصل الثانى

صفات النفوس فى القرآن الكريم
والسنة النبوية المطهرة

ويتناول:

التمهيد، وثمانى نقاط هى:

١- الصفات النفسية لخاتم المرسلين محمد ﷺ.

٢- والصفات النفسية لأولى العزم من الرسل عليهم السلام:

أ- نوح عليه السلام.

ب- وإبراهيم عليه السلام.

جـ- وموسى عليه السلام.

د- وعيسى عليه السلام.

٣- والصفات النفسية للمتفردين من المؤمنين السابقين:

أ- الخضر عليه السلام.

ب- ومؤمن آل فروعون.

جـ- ومؤمن آل ياسين.

د- والصحابة العشرة الذين بشروا بالجنة.
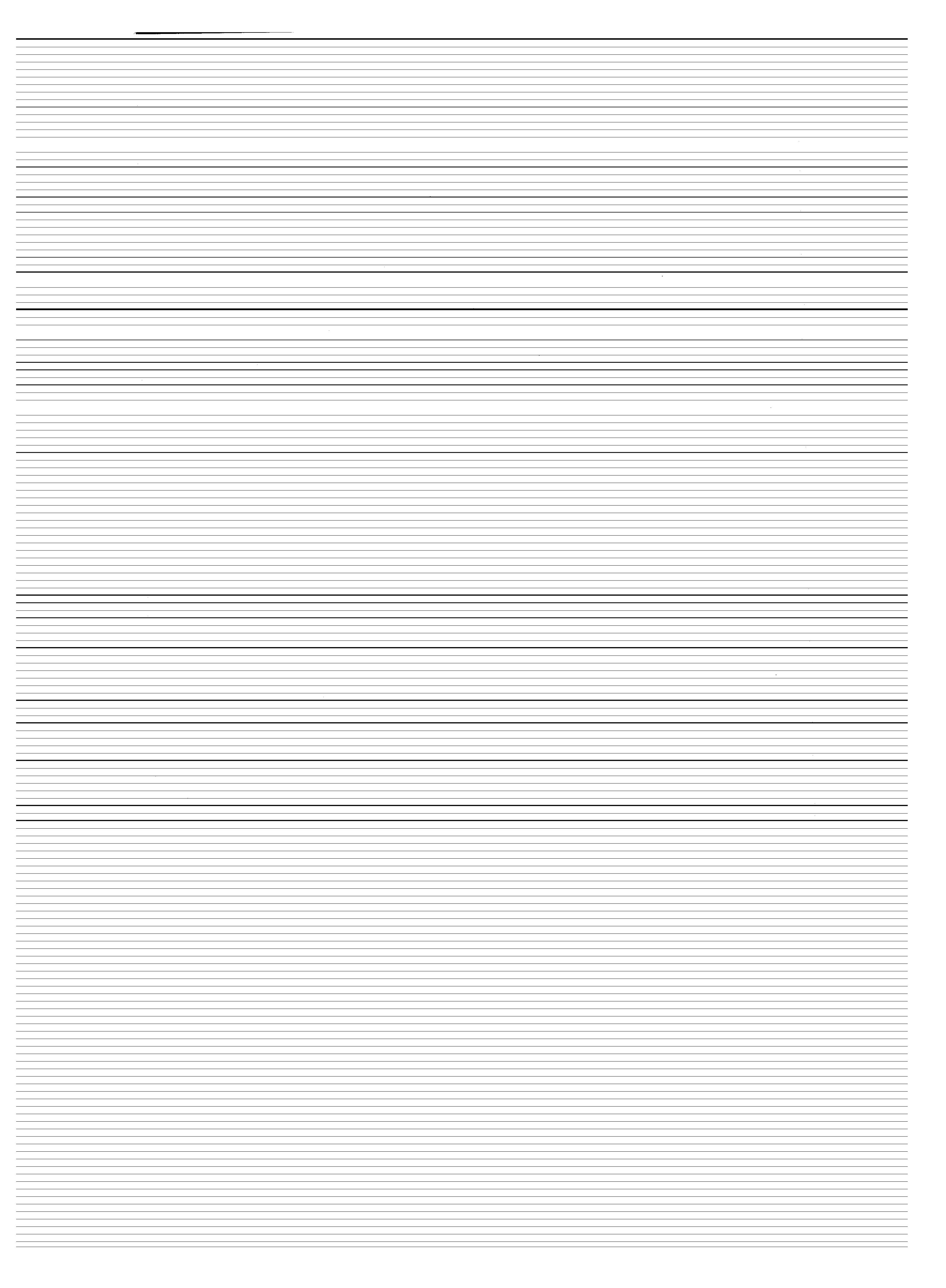
٤- والصفات النفسية للمجاهدين من المؤمنين.

٥- والصفات النفسية لأهل الكتاب.

٦- والصفات النفسية للمنافقين.

٧- والصفات النفسية للكفار والمشركين.

٨- وصفات المؤمنين النفسية.



تمهيد:

من عميم رحمة الله تعالى بعباده جميعًا أن ختم لهم الأديان السماوية بدين الإسلام، وأن ختم لهم رسله بمحمد ﷺ، وجعله رسولاً للعالمين: الإنس والجن، وأن ختم كتبه السماوية بالقرآن الكريم وجعله هدى للناس جميعًا إلى أن يقوموا جميعًا لله رب العالمين.

ومن حكمته سبحانه وتعالى أن جعل الدين الخاتم ذا منهج يتصف بالكمال والتمام والصلاحية لكل زمان ومكان، وأن جعل محمدًا ﷺ رسولاً للبشرية كلها من عاصره من أهلها، ومن يجيئون بعده إلى يوم الدين، وأن جعل القرآن الكريم تذكيرًا للعالمين وذكرًا لهم، وجعله يهدى للتى هى أقوم، وضرب للناس فيه من كل مثل، فكان هُدًى للناس جميعًا.

* ولقد وصف رسول الله ﷺ وهو الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وَحى يُوحى- وصف القرآن الكريم بقوله فيما رواه الترمذى بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: أما إنى قد سمعت رسول الله ﷺ قال: **«كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم، وخَبَر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه مِنْ جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهُدَى فى غيره أضلَّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرَّد، ولا تنقضى عجائبه، هو الذى لم تَنْتَه الجنُّ إذ سمعته حتى قالوا: ﴿ .... إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١، ٢]، من قال به صدق، ومن عمل به أُجِر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدِى إلى صراط مستقيم»**.

وروى الدارمى بسند عن علي رضى الله عنه قال: قيل يا رسول الله، إن أمتك ستُفتن من بعدك قال: فسأل رسول الله ﷺ، أو سُئِل ما المخرج منها؟ قال **«الكتاب العزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، من ابتغى الهدى فى غيره فقد أضله الله، ومَنْ وَلِىَ هذا الأمر من جبَّار فحكم بغيره قصمه الله، هو الذكر الحكيم والنور المبين والصراط المستقيم، فيه خَبَر من قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، وهو الذى سمعته الجِنّ فلم تتناها أن قالوا: إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدى إلى الرشد، ولا يخلق على كثرة الردِّ ولا تنقضى عبره، ولا تفنى عجائبه»**.

* والقرآن الكريم خاتم الكتب السماوية، أراد الله تعالى له أن يتميز على سائر كتبه بأن تكفل الله تعالى بحفظة ولم يستحفظ عليه أحدًا من الناس، وبأن جعل كل ما جاء فيه كاملا فى بابه، ولم يجعل ذلك لأى كتاب من كتبه السابقة ومن ذلك:

- كمال ما جاء فيه عن ذات الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، ليستقيم للناس شأن توحيده إلهًا وربًا وخالقًا ورازقًا، لينقمع بذلك الشرك والمشركون.

- وكمال ما جاء فيه عن عالم الغيب، الملائكة والجن، والشياطين، واليوم الآخر وما يجرى فيه من بعث ونشر وحشر وحساب وثواب أو عقاب، وجنة ونار؛ لكى يستقيم للناس إيمانهم بالغيب فترشد عقولهم وأقوالهم وأعمالهم.

- وكمال ما جاء فيه عن الخير والشر، وعن جزاء كل منهما، وعن القُوى المحركة للخير، والمحفِّزة على الشر، لينال أهل الخير وأهل الشر جزاءهم، وقد بيَّن الله تعالى لهم هذا وذاك، وأرسل إليهم رسولاً يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر، فتسقط حجج الأشرار.

- وكمال ما جاء فيه من التشريع فى العبادات والمعاملات، لكى تنتظم شئون الناس بعضهم مع بعض، ولكى يتحقق العدل، ويندفع الظلم، ويستطيع الناس أن يحققوا النجاح والفلاح فى دينهم ودنياهم.

- وكمال ما جاء فيه من القيم الخلقية الفاضلة ووجوب التمسك بها فى كل حال، وما أوضحه من القيم الرازلة ووجوب التخلِّى عنها على كل حال، ليتطهر المجتمع من عيوبه وشروره وآثامه، ويمتلئ بفضائله وأنواع الخير والبر فيه، فتصح للناس آخرتهم ودنياهم.

- وكمال ما جاء فيه عن الأمر بكل معروف لكل أحد، وعن النهى عن كل منكر، ومنع أى أحد من مقارفته ليتحقق للناس الأمان والاطمئنان، ويرتفع عنهم الظلم والعدوان.

- وكمال ما جاء فيه عن الجهاد فى سبيل الله؛ أهدافه وشروطه وآدابه، وجزاء المجاهدين عند الله تعالى، وأحكام الجهاد وأحكام الأنفال، وأحكام الأسرى، والظروف التى يجب فيها الجهاد على الجميع، ومتى يكون فرض كفاية، وبماذا يكون الجهاد فى سبيل الله تعالى؟

* ومن أجل أن القرآن الكريم كتابُ الكمال لكل ما جاء فيه، فقد جاء فيه الكمال فى وصف النفس الإنسانية فى جميع أحوالها، أعلى درجاتها ومنازلها كنفس سيد الخلق

محمـد خاتم المرسلين ﷺ، ونفوس باقى أولى العـزم من الرسل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام.

ونفوس المتفردين بمواقفهم من المؤمنين السابقين؛ كـالخضر عليه السلام ومؤمن آل فرعون ومؤمن آل ياسين.

وصفات نفوس المجاهدين من المؤمنين.

وصفات نفوس أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

وصفات نفوس المنافقين.

وصفات نفوس الكفار والمشركين.

* وإنما جاء في القـرآن وصف هذه الأنفس، صالحـها وطالحهـا ليكون الناس على علم بما ينبغى أن تكون عليه نفوسهم من صـفات، وذلك من صميم هداية القرآن الكريم للناس أجمعين فى كل زمان ومكان.

١- صفات نفس خاتم المرسلين محمد ﷺ

وصف القرآن الكريم نفوس أولى العزم من الرسل، وهم صفوة عباد الله تعالى من خلقه؛ ليتعلم الناس على مرِّ الزمان أن هذه النفوس الكريمة المختارة ما بلغت من الفضائل الإنسانية هذا الشأو العظيم الذى وصفه القرآن الكريم إلا لكى تُحتذَى، ويقتدى الناس بها فى كل عصر ومصر؛ وذلك لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم المصطفون الأخيار، وبخاصة خاتمهم محمد ﷺ الذى أكد الله تعالى أن للمؤمنين فيه أسوة حسنة.

وكل ما سيرد فى القرآن الكريم من هذه الصفات النفسية والخلقية هى صفات إنسانية، يستطيع كل إنسان أن يحتذى بها ويقتدى بصاحبها دون مشقة أو عناء.

وإنما كان الأنبياء المرسلون قدوة للناس؛ لأن الله تعالى عصمهم من المعاصى والآثام، ومن كل ما يغضب الله تعالى.

وهؤلاء الأنبياء المرسلون قد ذكر الله تعالى أسماء ثمانية عشر منهم فى آيات سورة الأنعام التى تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ...﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ...﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٩١].

ولنبدأ بخاتمهم محمد ﷺ.

- محمد ﷺ:

جاءت الصفات النفسية للرسول الخاتم ﷺ فى القرآن الكريم وفى بعض الأحاديث النبوية، على اعتبار أن الله تعالى خصه بالعصمة عما يغضب الله تعالى وجعل فيه الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وجعل ذلك مستمرًا إلى يوم الدين.

وإنما كانت صفات نفسه ﷺ أعلى درجات الصفات الإنسانية وأرقاها؛ لأن الله تعالى قد جعله خاتم أنبيائه ومرسليه، فشاء الله تعالى أن يكون أسوة وقدوة فى خصالهم كلها، سواء منها ما كان مخلوقًا به مجبولا عليه، أو مما علَّمه ربه وأدَّبه به.

والفرق بين هذين النوعية من الصفات؛ أن الصفات الخِلْقية الجِبليّة ليس فيها للإنسان كسب أو اختيار، وأن الصفات النفسية الخُلُقية كلها ذات صلة عميقة بما يكتسبه الإنسان من صفات، ومثال ذلك:

التَّدَيُّن، والعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزُّهد، والتواضع، والعفو، والعفة، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والوقار، والرحمة.

وهذه الصفات جميعًا - وغيرها من الفضائل كثير - تدخل فى إطار حسن الخلق. وحسن الخلق له ترجمة صادقة هى: «الاعتدال فى قوى النفس وأوصافها، والتوسط فيها».

* ومحمد ﷺ قد بلغ فى حسن الخلق أعلى مستوى يمكن أن يصل إليه إنسان، ولقد وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وأخبر ﷺ - وهو لا ينطق عن الهوى - بقوله: «**بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[1]، وفى رواية: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[2]. وفى رواية: «**بعثت لأتمم حسن الأخلاق**»[3].

ولَمَّا سُئلت أم المؤمنين عائشة عن خلقه قالت: كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه.

* وحسن الخلق صفات نفسية عديدة أشرنا إلى بعضها آنفًا، ونؤكد هنا أن فروعها كثيرة عدّ منها بعض العلماء أكثر من سبعين فرعًا وسموها شُعَب الإيمان.

كما نؤكد أن أصل هذه الأخلاق ومنبعها والباعث عليها هو العقل -والعقل والنفس مترادفان فى أحوال كثيرة -إذ العقل هو الذى يحصل العلم، ويعطيه، ويجمع المعرفة ويبثّها، بل هو الذى يقاوم الانكباب على الشهوات، وهو الذى يحسن التدبير والسياسة، وهو الذى يشجع على التزام الفضائل واجتناب الرذائل.

وقد علَّم الله تعالى رسوله ﷺ ما لم يكن يعلم، فجعله على علم بما فى التوراة والإنجيل، والكتب المنزلة على رسله سبحانه وتعالى.

وأخبره بِسِيَر الأمم الخالية، وعلّمه بل أعطاه الحكمة، وفَطَّنه بسياسات الأمم وقيادة الناس، وتقرير الشريعة الملائمة لهم، وعلى الرغم من أنه ﷺ كان أُميًا لا يحسن القراءة والكتابة، فقد علمه الله تعالى كثيرًا من العلوم كتعبير الرؤيا، والطبّ، والحساب، والفرائض، والنَّسَب، وقد قال الله تعالى مخاطبًا خاتم رسله ممتنًا عليه بنعمه وإفضاله: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]

---

(١) رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) روى فى أكثر من كتاب من كتب السنة الموسعة.

(٣) أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه.

* ومن المؤكد أن صفاته النفسية لم تكن عند أحد من الناس كاملة قدر كمالها عنده ﷺ، ومن هذه الصفات:

الحلم، والعفو، واحتمال الأذى فى سبيل الله، والصبر، وهذه مجموعة من الصفات النفسية متشابكة متكاملة لم تكن عند أحد بمثل ما كانت عنده، وهى أهم صفات الدعاة إلى الله.

قال علماء تفسير القرآن الكريم: لما نزل عليه قول الله تعالى: **﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾** [الأعراف: ١٩٩]، **سأل النبى ﷺ جبريل عليه السلام عن تأويلها فقال له: حتى أسأل العالم، ثم ذهب فأتاه؛ فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك».**

والحِلْم فى جوهره وحقيقته صَبْر، وقد أمره الله تعالى بالصبر فى عدد من آيات القرآن الكريم.

وعندما كُسرتْ رباعيته وشُجَّ وجهه يوم أُحُد؛ شَقَّ ذلك على أصحابه رضى الله عنهم، فقالوا له: لو دعوت عليهم.. فقال: **«إنى لم أُبْعَثْ لعَّانًا، ولكنى بُعثتُ داعيًا ورحمة، اللهم أهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون»**(١).

والصبر على الأذى عمل صعب لا يطيقه إلا الكبراء عظماء النفوس من الناس، وبخاصة الأنبياء والمرسلون.

وروى أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: **«.. وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه من شىء انتهك منه، إلا أن تنتهك حُرمةٌ هى لله عز وجل فينتقم لله عز وجل بها».**

* وآيات القرآن الكريم التى طالبت رسول الله ﷺ بالصبر، كما طالبت به المسلمين، أكثر من ثمانين آية كريمة نذكر منها:

- قوله تبارك وتعالى: **﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾** [المزمل: ١٠] وهى من أوائل سور القرآن الكريم نزولا إذ عدها العلماء ثالث سورة أنزلت من القرآن بعد سورتى العلق، والقلم، فالمطالبة بالصبر كانت منذ بداية الإسلام وخطواته الأولى، وما ذلك إلا لأهمية الصبر فى مجال الدعوة إلى الله تعالى.

(١) ورواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ: «إنى لم أبعث لعانًا وإنما بعثت رحمة» ورواه الطبرانى فى الكبير بسنده عن كريز بن أسامة بلفظ «إنى لم أبعث لعانًا».

- وقوله عز وجل: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٩]

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧].

- وقوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

- وقوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

* والصبر قمة الفضائل النفسية، وهو قمة الحِلْم أيضا، وهو صفة النفوس الكبيرة العظيمة، وقد كانت حياة الرسول ﷺ وسيرته حافلة بالحلم والصبر والعفو، ونود أن نذكر هنا بعض المواقف التى تمثل فيها الحلم والعفو والصبر، حتى نتعلم كيف يكون هذا الخلق صفة لكل مسلم يتخذ من رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

ومن تلك المواقف:

- احتماله للأذى من كفار قريش من يوم أن صعد على الصفا وأعلن للملأ من قريش أنه رسول الله إليهم، فتصدى له بعضهم بالسَّبِّ، وتصدوا جميعًا له بالتكذيب مع أن سيرته فيهم تشهد من خلال اعترافهم بأنها سيرة لم يجرَّب عليه فيها كذب ولو مرة واحدة.

- واحتماله الضرب والإهانة والتجريح من كفار قريش؛ كبرائهم وسفهائهم، دون أن يردّ على ذلك بمثله هو أو أصحابه، وقد كانوا قادرين على ذلك، لكنه الصبر واحتساب الأجر عند الله، والالتزام بالحلم والعفو طمعًا فى أن يهديهم الله تعالى.

- واحتماله أذاهم عندما أجمعوا أمرهم على أذاه فوثبوا عليه وثبة رجل واحد قائلين له: أنت الذى تسُبُّ آلهتنا وتسفّه أحلامنا وتعيب ديننا؟ فيقول لهم: «نعم أنا الذى أقول ذلك» فقام شقى منهم فأخذ بمجمع ردائه فقام أبو بكر رضى الله عنه بينهم وبينه، يقول لهم: أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله؟!!

- واحتماله أذاهم وسفاهة سفهائهم، فقد روت كتب سيرته ﷺ أنه كان إذا مَرّ على مجالسهم بمكة استهزأوا به، وقالوا ساخرين: هذا ابن أبى كبشة يُكَلَّم من السماء، وكان أحدهم يمر على رسول الله ﷺ، فيقول له ساخرًا: أما كُلِّمْتَ اليوم من السماء؟

ولقد حدث هو عن نفسه ﷺ فقال فيما رواه الترمذى بسنده عن أنس رضى الله عنه:
«لقد أُخِفتُ فى الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيتُ فى الله وما يؤذى أحد...».

- واحتماله الأذى وصبره يوم عرض دعوته على أهل الطائف، ولقى منهم ما لقى وسمع منهم ما سمع، ومع ذلك لم يدع عليهم بل دعا لهم، فقد روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت للنبى ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أُحُد؟ قال: **«لقد لقيتُ من قومك ما لقيتُ وكان أشد ما لقيت يوم العقبة.. فنادانى ملك الجبال فسلَّم علىّ ثم قال: يا محمد.. إن شئتَ أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبى ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»**.

- وعندما قسَّم الغنائم يوم حُنين، قال له ذو الخويصرة التميمى: اعدل؛ فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فقال له: **ويحك فمن يعدل إن لم أعدل، خبتُ وخَسِرتُ إن لم أعدل**. ونهى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن الفَتْك به وقتله؛ حلمًا عليه وعفوًا عنه.

- وعندما كان رسول الله ﷺ يقيل تحت شجرة فى إحدى الغزوات، فتصدى له غورث بن الحارث ليفتك به، ورسول الله ﷺ منتبذ تحت شجرة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم بالسيف صَلْتًا فى يده، فقال له الرجل: من يمنعك منى؟ فقال: **«الله»** فسقط السيف من يده، فأخذه النبى ﷺ وقال: **«من يمنعك منى»**؟ قال: كن خير آخذ، فتركه وعفا عنه، فجاء الرجل إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس.

- وعفوه عن اليهودية التى دست له السم فى ذراع شاة، فأخبره جبريل عليه السلام، فلم يأكل من هذا الطعام، وأتى بالمرأة فاعترفت، وعَلَّلَتْ فعلتها بقولها: قلت إن كان نبيًا حقًا لم يضره، وإن كان كاذبًا استرحنا منه فعفا عنها.

- وعفوه عن لبيد بن الأعصم الذى سَحَرَ رسول الله ﷺ ولما أخبره جبريل عليه السلام بذلك لم يلم لبيدًا ولا عاتبه، فضلا عن عقابه، وإنما عفا عنه وسامحه.

- وعفوه عن المنافقين ورأسهم عبدالله بن أبى ابن سلول، وقد أخبره الله بنفاقهم، ومع ذلك لم يعاقبهم أو يؤاخذهم على الرغم من شنيع أعمالهم، كموقفهم يوم أُحُد بعد أن خرجوا مع المسلمين لملاقاة كفار قريش، ثم انشقوا ورجعوا إلى المدينة، ومعهم من الأفراد ما يبلغ عددهم ثلث جيش المسلمين كله، ولقد أشار عليه بعض الصحابة رضى

الله عنهم بقتلهم، فرفض قائلا: «لا؛ لئلا يُتحدث أن محمدًا يقتل أصحابه». وفى رواية لأحمد بسنده عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه «. . . فقال: **معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى...**».

– وروى أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: كنت مع النبى ﷺ، وعليه بُرْد غليظ الحاشية، فجبذه أعرابى بردائه جبذة شديدة، حتى أثرت حاشية البُرد فى صفحة عاتقه، ثم قال: يا محمد احملْ لى على بعيرَىَّ هذين من مال الله الذى عندك؛ فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك. فسكتَ رسول الله ﷺ ثم قال: «**المال مال الله، وأنا عبده**» ثم قال: «**ويُقَادُ منك يا أعرابى ما فَعلتَ بى**»، قال: لا، قال: **لم؟** قال: لأنك لا تكافئ بالسَّيِّئة السَّيِّئة، فضحك النبى ﷺ، ثم أمر أن يحمل له على بعيرٍ شعيرًا وعلى الآخر تمرًا.

– وجيء برجل إلى النبى ﷺ فقيل: هذا أراد أن يقتلك، فقال له النبى ﷺ: «**لن تُراع لن تُراع، ولو أردت ذلك لم تسلط علىّ**».

– وجاء زيد بن شعنة – قبل إسلامه – يتقاضاه دينًا عليه فجبذ ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثيابه، وأغلظ له، ثم قال: إنكم يا بنى عبدالمطلب مُطُل، فانتهره عمر رضى الله عنه وشدَّد له فى القول، والنبى ﷺ يبتسم، فقال رسول الله ﷺ لعمر رضى الله عنه: «**أنا وهو كنَّا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر؛ تأمرنى بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضى**»، ثم قال: «**لقد بَقِىَ من أجَله ثلاث**» وأمر عمر رضى الله عنه يقضيه ماله، وزاده عشرين صاعًا؛ لما روَّعه عمر، فكان ذلك سببًا فى إسلامه.

– ولقد صبَّر على أذى قومه وحلم عليهم – على الرغم من اشتطاطهم فى أذاه– إذ حبسوه وقومه فى شِعب بنى هاشم، وقاطعوهم، وحرموا مناكحتهم والاتجار معهم، فلما هاجر إلى المدينة حاربوه وقتلوا عمه حمزة رضى الله عنه ومثلوا بجثته، وتحزبوا عليه وألبوا عليه العرب وحالفوا ضده اليهود. . فلما أظفره الله بهم وحكَّمه فيهم كانوا لا يشكون فى أنه سيستأصلهم ويبيدهم، فقال لهم: «**ما تظنون أنى فاعل بكم**»؟ قالوا: خيرًا؛ أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: **أقول لكم كما قال أخى يوسف ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾** [يوسف: ٩٢]. **اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

* وقال الزمخشري في تفسيره: «الكشّاف» عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١]، قال الزمخشري: روى أن المشركين رأوا أن رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر يصلون معًا وذلك بعسفان في غزوة ذي أنمار، فلما صلوا، ندموا أن لا كانوا أكبُّوا عليهم، فقالوا: إنّ لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم -يعنون صلاة العصر- وهمُّوا بأن يوقعوا بهم إذا قاموا إليهم، فنزل جبريل بصلاة الخوف.

وبعد: فإن سيرة الرسول ﷺ، مليئة بمواقف الحلم والعفو والرحمة، والصبر على المكاره، لمن أراد أن يتأسّى ويقتدى، وما ذكرنا إلا القليل من هذه المواقف، لنوضح بعض الجوانب من صفات الله تعالى لنفس رسوله ﷺ، ليكون للناس في ذلك عبرة وأسوة.

****

٢- صفات نفوس أولى العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام

أولو العزم من الرسل عليهم السلام هم: المتصفون بالعزم.

والعزم: نيَّة محققة على عملٍ أو قول دون تردّد.

والعزم الممدوح فى الدِّين هو: العـزم على ما فيه تزكية النفس، وتطهـيرها من كل مالا يرضى الله تبارك وتعالى من قول أوصمت، وفعلٍ أو ترك.

وقوام العزم نوعان من الصبر هما:

- الصبـر على باعث التقـوى فى النفوس، أى خوف الله تعـالى بالتزام مـا أمر به أو نهى عنه، وإيثار ما عنده، والتقرب إليه بصالح الأعمال.
- والصبر على المكاره التى تصيب الإنسان في حـياته الدنيا بسبب دعوته إلى الحق وتمسكه به، أو بسبب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

* وقوة العزم فضيلة تضاف إلى فضيلة العزم نفسه، وقوة العزم تعنى أمورًا منها:

- شدة مراقـبة النفس فى أقوالهـا وأعمالها ومـا تحب وما تكره، ليكون ذلك كله فى مرضاة الله تبارك وتعالى.
- والدقة فى محاسـبة النفس على أقوالها وأعمالهـا؛ أولاً بأول، ومع الاستمرار فى هذه المحاسبة.
- والمبادرة إلى إصـلاح ما فى النفس بـحيث يكون مرضـيًا لله تعـالى، وذلك بالندم على التقصير والإسراع بالتوبة النصوح.

وكلمة «مِنْ» فى قوله تعالى: ﴿مِّنَ الرُّسُلِ﴾ تحتمل معنيين:

أحدهما: أن تكون بيـانية، فيكون المعنى أن جميع الـرسل عليهم السلام من أولى العزم.

والآخر: أن تكون للتبعيض، فيقصد بعض الرسل دون بعض عليهم السلام.

* والرسل عليهم الـسلام الذين كانوا مـضرب الأمثـال فى الصبر على أذى أقـوامهم، والصبر على سفاهة سفهائهم، هم:

- محمد ﷺ.
- ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وهم أصحاب الشرائع، وهم أكثر الرسل معاناة مع أقوامهم.

* وبعض العلماء يضمون إلى هؤلاء الخمسة رسلاً آخرين هم:

إسحق الذى صبر على الذبح -فى رواية أن الذبيح إسحق.

وإسماعيل الذى صبر على الذبح فى رواية أخرى.

ويعقوب الذى صبر على فقد الولد وعلى ذهاب البصر.

ويوسف الذى صبر على إلقاء إخوته إياه فى غيابة الجب وصبر على السجن.

وأيوب الذى صبر على الضُّرّ.

وداود الذى بكى على زلته أربعين سنة.

* أما صبر أولى العزم «الخمسة» فهو معروف.

فقد صبر محمد ﷺ ألوانًا من الصبر تحدثنا عن بعضها آنفًا.

وأما نوح عليه السلام فصبر على أذى قومه، فقد كانوا يضربونه حتى يُغشَى عليه.

وأما إبراهيم فصبر على النار وعلى الأمر بذبح الولد.

وأما موسى فصبر على بنى إسرائيل وعصيانهم، وصبر على جزعهم وقولهم: «إنا لمدركون».

وأما عيسي فصبر على أنه لم يضع لَبِنةً على لَبِنة وقال: إنها معبرة، فاعبروها ولا تعمروها.

* ولبعض العلماء آراء أخرى في تحديد عدد أولى العزم من الرسل، فقد قيل:

- هم: إبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.
- أو هم: نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى عليهم السلام.
- أو هم المذكورون فى سورة الأنعام وهم ثمانية عشر، ورد ذكرهم فى قوله تعالى:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٩٠].

والدليل على أن هؤلاء الثمانية عشر من أولى العزم قوله الله تعالى عقب ذكرهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾

وقد أخذنا بالقول بأنهم خمسة هم أصحاب الشرائع عليهم الصلاة والسلام.

وقد تحدثنا آنفا عن خاتمهم محمد ﷺ ونواصل الحديث عن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام سائلين الله التوفيق.

أ- نوح عليه السلام:

تحدثت آيات القرآن الكريم عن نوح عليه السلام، فوصفته ووصفت نفسه بصفات عالية القدر رفيعة المنزلة، نرجو أن نوضحها كما وردت في الآيات الكريمة، ومن ذلك:

١- قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧١-٧٣].

والصفات النفسية التي أبرزتها هذه الآيات لنوح عليه السلام هي:

- صدق الحس والشفافية، والصراحة، والقدرة على المواجهة، والتأكد من عداء قومه لما يدعوهم إليه من التوحيد والهدى، كما دلّ على ذلك قوله: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ....﴾.

- وهى نفس صابرة مثابرة، لا يصرفها عناد المعاندين ولا تكذيبهم عن الاستمرار فى الدعوة إلى الحق، ولا يخيفها تهديد أو وعيد لأنها تحسن التوكل على الله وتطلب منه التأييد والنصر، مع الأخذ بالأسباب، ﴿.... فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١].

- وهى نفس ذات شجاعة لا تخاف فى الله لومة لائم، ولا تبالى بكيد الأعداء وتدبيرهم المضادّ، بل إن صاحب هذه النفس يطلب ممن يدعوهم من هؤلاء المكذبين المعاندين أن يحزموا أمورهم، وأن يدبروا ما وسعهم، وأن يوقعوا به ما دبروا وما عاونهم عليه شركاؤهم من المكذبين، وأن يتوجهوا إليه بكل ما دبروا له من سوء، إن كانوا قادرين على ذلك، وما هم بقادرين لأنه معه الله الذى توكل عليه، ومن كان مع الله كفاه ووقاه، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ﴾.

- وهى نفس على درجة عالية من الموضوعية والصراحة والجرأة فى الحق تمسكًا به ودعوة إليه، وتلك من أفضل صفات النفس الإنسانية، وهى نفس لا تيأس من الناس أو تتوقف عن الدعوة إن تَوَلَّىً الناس عن الحق وعن الهدى، كما أنه عليه السلام لا يسأل الناس أجرًا على هدايته إياهم، وإنما أجره كله عند الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

* وقد كانت النتيجة والعاقبة لنوح عليه السلام صاحب النفس المتوكلة على الله التى لا تسأل الأجر إلا منه سبحانه وتعالى، أن نجى الله نوحًا عليه السلام ومن آمن معه بمعجزة ما كان يتصورها أحد من المشركين المعاندين، حيث نجاه ومن معه فى الفلك وأغرق المكذبين، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾.

٢- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ

إن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٢٥-٤٨].

* ومن الصفات التى وصفتْ بها نفس نوح عليه السلام فى هذه الآيات:

- أنها نفس طائعة لربها، تعلن عن أهدافها فى وضوح وصراحة، إذ قال لقومه بعد أن أرسله الله تعالى إليهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وقد كان أوضح لهم أنه رسول الله إليهم جاء بعبادة الله وحده، وهو ينذرهم من عذابه سبحانه إن هم عصوه.

- وهى نفس تخاف على الناس وتحب لهم الخير، وخلاصة دعوته عليه السلام إلى قومه هى عبادة الله وحده لا شريك له، فمن لم يعبده وحده فإن نوحًا عليه السلام يخاف عليه عذابًا أليمًا يوم تقوم الساعة: ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

- نفس نوح عليه السلام مؤمنة بحرية الإنسان فى اختياره، نافرة من أن تكره الناس على شىء، إن ملكت إكراههم، حتى لو كان الذى يكرهون عليه هو الدين الذى جاء به نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾. أى ما يكون لنا هذا الإكراه.

- وهى نفس متواضعة، تقبل على التعامل مع الفقراء ولا تبعدهم أو تطردهم، مهما كانوا هينين على الأغنياء وأصحاب الجاه: ﴿...وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ [هود: ٢٩، ٣٠].

- وأنها نفس جريئة فى إعلان الحق وإظهاره، وأنه عليه السلام يجمع الناس على الحق فيعترف أنه لا يملك خزائن الله، ولا يعلم الغيب، ولا يدعى أن الله تعالى سوف يمنع غيره عن الفقراء الذين طالبه قومه بطردهم تأففًا منهم: ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

- وأنها نفس مستمسكة بالحق تدعو إليه وتجادل عنه وتقنع به، مؤمنة أن الأمر كله بيده الله، إن شاء أن يعذب مكذبى رسله فى الدنيا أو فى الآخرة فلن يعوقه أحد ولا شىء: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

- وهى نفس يصيبها الحزن إن لم يؤمن الناس برب العالمين، وإن تعرضوا لإيذاء نبيهم، ويود أن يؤمنوا بما يدعوهم إليه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

- نفس تتحلى بالطاعة والصبر، وتؤمن بمصداقية ما يأمرها الله به كأمره ببناء سفينة فى أرض ليس بها ماء تمخر السفينة عبابه، ولكن نوحًا عليه السلام استجاب لأمر ربه

وشرع يبني السفينة ويصبر على سخرية قومه منه وهو يبني السفينة: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾.

- إنها نفس فياضة بعاطفة الأبوة حريصة على إيمان الابن ونجاته مما ينتظر الكافرين من غرق، والابن سادر يُخيَّل إليه أنه ينجو إن أوى إلى جبل فاستعصم به من الماء: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾.

٣- وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤) مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ﴾ [نوح: ١-٢٨].

* ومن الصفات النفسية لرسول الله نوح عليه السلام فى هذه السورة الكريمة ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

- إنها نفس مخلصة لله تخافه وتُعذر إليه، وتنفى عن نفسها التقصير -مع أن الله تعالى بكل شيء عليم- ولكنها النفس الشفافة الخائفة من الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ٥-١٢].

فقد دعا نوح عليه السلام قومه فى كل وقت وبكل وسيلة، ولكنهم ما ازدادوا بتلك الدعوة إلا فراراً من نوح عليه السلام ومن دعوته، ومع ذلك فقد استمر على دعوتهم وتذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم.

- نفس تحاور وتجادل عن الحق، وتقدم عليه الأدلة والبراهين وتخاطب العقول والأفهام وتبصر بعظيم ما خلق الله من ناس وسموات وقمر وشمس، وأنه خلق الإنسان من الأرض ثم يعيده فيها ميتًا ثم يخرجه منها ليحاسبه يوم القيامة، وينعم عليه بأن جعل الأرض مبسوطة وجعل فيها سبلاً يسعى فيها الإنسان: ﴿مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٣-٢٠].

- إنها نفس ذات حسٍ مرهف تدهش من عصيانه واتباع الآلهة الباطلة -الأصنام- ثم يدعو نوح عليه السلام على أولئك المكذبين الظالمين، ويرجو الله ألا يدع منها على هذه الأرض دياراً -أى ساكن دار -ويعلل دعاءه عليهم بأنهم إن بقوا فلن يلدوا إلا فاجراً كفاراً، ثم يدعو لنفسه ولوالديه ولمن دخل بيته وللمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤) مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا

لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا﴾ [نوح: ٢١-٢٨].

ب- إبراهيم عليه السلام:

تحدثت عنه عليه السلام آيات قرآنية كريمة وصفته ووصفت نفسه بأكمل الصفات، ومن تلك الأوصاف في الآيات الكريمة:

١- قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٦٩-٧٦].

* لقد وصفت هذه الآيات الكريمة إبراهيم عليه السلام بصفات تكشف عن مضامين نفسه، وما يحكم هذه النفس من قيم فاضلة نشير إلى بعضها فيما يلي:

- إنها نفس تتصف بالكرم والسخاء، بل يُعد ذلك فطرة فيها عندما يقدم عليها ضيف، إذ تسرع إلى القيام بواجب الضيافة، فبمجرد أن ردّ عليهم السلام ما لبث -أي لم يتأخر- أن جاء بعجل سمين، يقدمه طعامًا لهم: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩].

- وهي نفس شفافة صافية، سريعًا ما انتبهت إلى أن الضيوف لم يمدوا أيديهم لتناول هذا الطعام، عندئذ نكرهم أي أنكر هذا الموقف منهم، ثم خافهم إذ تصور أنهم ليسوا كسائر الناس -وقد صدق ظنه فقد كانوا من الملائكة وقد طمأنوه بقولهم: ﴿لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

- وهي نفس لها حضورها على الرغم مما اعتراها من خوف، إذ عندما علم أنهم ملائكة وأنهم ذاهبون لعقاب قوم لوط، وسمع منهم البشارة بالولد، لم ينس أن يجادلهم في قوم لوط وهلاكهم ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾.

- وهى نفس تتصف بالحلم والرفق، كثيرة التوجع من أى سوء يصيب الناس، مما يجعلها تجادل الملائكة في إهلاك قوم لوط، وتود لو أخر عنهم الهلاك حتى يتوبوا: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ .

٢- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٧٤-٨٢].

* وقد وصفت هذه الآيات الكريمة نفس إبراهيم عليه السلام بالصفات الفاضلة التالية:

- هى نفس سَوِيّة متمسكة بالحق مجادلة من يحيد عنه، حتى لو كان الحائد عنه هو أباه آزر، فقد أنكر عليه وعلى قومه اتخاذ الأصنام آلهة، وعبادة غيرالله تعالى، لأن ذلك يوقعهم فى ضلال مبين ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

- وهى نفس باحثة عن الحق والهدى، تتخذ فى بحثها عن الحق كل وسيلة عقلية منطقية ولا تكف عن ذلك حتى تطمئن إلى الحق؛ فتؤمن بل توقن بما آمنت به﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٩].

- وهي نفس قوية لا تخاف من تمسكها بالحق، مهما هددها أعداء الحق، وتعلن ذلك في وضوح وتجادل عن موقفها بكل قوة: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠ -٨٢] .

٣- وقوله جل شأنه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٨٣-١١١].

* وفي هذه الآيات الكريمة وصف لنفس إبراهيم عليه السلام بصفات فاضلة منها:

- أنها نفس سليمة الفطرة تنكر الباطل وهو عبادة الأصنام، وتدافع عن الحق وهو عبادة الله وحده، إذ نظرت في النجوم فرأتها متحولة متغيرة، فقرر أن يتحول عنها خشية الضلال، فانصرف عنه قومه معرضين عما يقول: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات: ٨٥- ٩٠].

- وهي نفس تواقة إلى أن تقنع بالحق سائر الناس، وتبحث عن الحجج والبراهين، فذهب إلى الأصنام يخاطبها وهو يعلم أنها لا تسمع ولا تعقل، ثم ضربها وأهانها

فما دافعت عن نفسها، فأقبل عابدوها إليه فعرفوا أن ما أصابها كان بيده، فأصروا على عقابه بعد أن ألزمهم الحجة قائلا لهم: أتعبدون ما صنعتم بأيديكم من أحجار، فأين ذهبت عقولكم؟ فقالوا: ابنوا له بنيانًا فألقوه في جحيم النار التي توقدونها: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩١-٩٩].

- وهي نفس سريعة الاستجابة إلى ما يُوحى إليها الله تبارك وتعالى إذ جعله يرى رؤيا أنه يذبح ابنه، فهم بذبحه بل أعده لذلك، لكن الله تعالى فداه بذبح عظيم، فخرج من هذا البلاء العظيم الذي كان على وشك أن ينفذه لولا رحمة الله تعالى وحسن جزائه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠-١١٠].

٤- وقوله عز وجل: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٢٤-١٣٢].

وقد وصفتْ هذه الآيات الكريمة إبراهيم عليه السلام بصفات توضح خصائص نفسه الشريفة وتكشف عن فضائلها، ومن ذلك:

- أنها نفس طائعة لله تعالى تؤدى تكاليفه على النحو التام، مما أهله بفضل الله أن يخبره ربه بأنه جعله للناس إماما يُتبعَ ويقتدى به، غير أن إبراهيم عليه السلام طلب من ربه أن يجعل من ذريته أئمة كذلك، فأجابه ربه بأن تلك الإمامة لن يصل إليها الظالمون من ذريته، أما الأبرار منهم فنعم: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

- نفس تحب أداء ما يوجبه الله عليها برضا وسعادة لا لمجرد أداء الواجب، وقد أوجب الله على إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام ثلاثة واجبات فأدياها برضا وسعادة وهي:

أ- بناء البيت الحرام بمكة.

ب- وصيانة البيت عما لا يليق به.

جـ- وتهيئة البيت لمن يؤمه من الطائفين والمعتكفين والمصلين، إذ جعله الله مثابة للناس وأمنًا.

فقاما بذلك خير قيام: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ .

- وهى نفس شفافة تلهج إلى الله بالدعاء أن يجعل حول هذا البيت بلدًا آمنًا، وأن يرزق من ثمار الأرض وخيراتها مَنْ آمَن من أهله بالله وباليوم الآخر، فأجابه الله تعالى بأنه لن يضن بالرزق حتى على من كفر به سبحانه، فحياته على الدنيا قصيرة، والعودة إلى الله ليعذبه فى جهنم وبئس المصير مصيره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

- وهى نفس رحيمة ودود تعرف أن الله بيده مقاليد كل شئ لذلك يبادر الأب وابنه عليهما السلام بالدعاء سائلَيْن الله تعالى أن يتقبل دعاءهما، راجيَيْن من الله تعالى أن يجعل من

ذريتهما أمة مسلمة لله كل أمورها، ويعلمهما طريقة عبادته سبحانه فى بيته الحرام وما حوله - أى المناسك - وأن يتوب عليهما ويغفر لهما.

ومن شدة حرصهما على ذريتهما يسألان الله تعالى أن يبعث فى هذه الذرية رسولاً منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويطهرهم من ذميم الأخلاق: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩]

- وهى نفس مؤمنة بالله مستقرة على هذا الإيمان الحق، بحيث لا يعرض عن هذه الملة التى آمن عليها إبراهيم عليه السلام إلا مَنْ امتهن إنسانيته وعقله، إنها الملة الحق التى آمن بها إبراهيم وأوصى بها بنيه، وحاكاه فى ذلك حفيده يعقوب، فأوصى بنيه بها وطالبهم بألا يموتوا إلا وهم مسلمون: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٣].

* إلى غير ذلك من الآيات المتعددة التى تحدثت عن صفات نبى الله إبراهيم عليه السلام وأوضحت معالم نفسه الكريمة وصفاتها.

جـ- موسى عليه السلام:

حياة موسى عليه السلام قد فُصِّلَتْ فى القرآن الكريم تفصيلاً لم تحظ به حياة رسول من رسل الله عليه السلام فى القرآن الكريم، لأن حياته -فى تصورى- حافلة بالأحداث والمواقف التى كان للنبوة فيها شأن عظيم، وكان فيها عبرة وتسلية وتعليم لرسول الله الخاتم للمؤمنين معه، كيف يصبرون على متاعب الدعوة إلى الله تعالى، وكيف يصبرون على كل أذى يصيبهم فى سبيل الله، وكيف يرجون النصر من الله بعد الأخذ بالأسباب.

وأوسع ما فُصِّلَتْ سيرة موسى عليه السلام فى القرآن الكريم فى خمس سور منه هى:

- سورة الأعراف، وفيها ثمان وستون آية.

- وسورة طه، وفيها تسعون آية.

- وسورة الشعراء، وفيها ثمان وخمسون آية.

- وسورة القصص، وفيها إحدى وأربعون آية.

- وسورة البقرة، وفيها ثلاث عشرة آية.

وفى كثير من سور القرآن الكريم.

* وسوف نتحدث فى هذه الصفحات عن بعض صفات موسى عليه السلام كما وردت فى بعض السور، أما استيعاب هذه الصفات فى هذا الكتاب فيحتاج إلى كتاب قائم بذاته، ويكفى هنا الشاهد والمثال، والله المستعان.

١- من سورة الأعراف الآيات من الآية ذات الرقم ١٠٣ إلى الآية ذات الرقم ١٥٦.

لكن فى السورة آيات عن قوم موسى عليه السلام وأعمالهم، ومواقف موسى عليه السلام معهم لا تخلو من صفات عن نفس موسى عليه السلام، وهى ثلاث عشر آية كريمة.

وسنذكر من كل ذلك بعض الشواهد والأمثلة:

- نفس موسى عليه السلام تتصف بالشجاعة والثبات، لأن موسى عليه السلام يعرف فرعون وجبروته وقهره للناس، بل حملهم على عبادته من دون الله، ومع ذلك فقد واجهه موسى عليه السلام فى شجاعة وثبات بأنه مرسل من الله تعالى رب العالمين إلى فرعون وملئه ليعبدوا رب العالمين، وأخبره بأن دليل صدقه هو آيتان أعطاهما الله له ليؤمن بصدقه من كان ذا عقل ناضج هما العصا التى تنقلب إلى ثعبان، ويد موسى التى يخرجها من جيبه فتبدو بيضاء من غير سوء أى مرض، وطالبه بأن يطلق بنى إسرائيل من أسره ويرسلهم مع موسى عليه السلام خارج مصر، وما دار بين فرعون وملئه وبين موسى من حوار، وما كان من نتائج حيث آمن السحرة بمعجزتى موسى وكفروا بفرعون، وتوعد فرعون للسحرة وعقابهم، وعدم مبالاة السحرة بما يفعل فيهم فرعون:
﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ
(١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا
الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن
كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ

(١٠٨) قَالَ الْمَلأُ من قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٣-١٢٦]

- وهى نفس قوية تحسن الاعتماد على الله والتوكل عليه والاستعانة به، والصبر والاحتمال على متاعب فرعون ومتاعب بنى إسرائيل: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧-١٢٩].

- وهى نفس تجابه ما ترمى به من تُهَم، ولا تـهـتم لذلك لأنها مع الحق، مع الله، بل هى نفس عظيمة الشفقة على الكفـار تدعو لهم ليكشف الله عنهم الرجز، فلما كشف عنهم الله الرجـز بدعاء مـوسى عليه السـلام نكصوا وخـاسوا بوعـودهم وتعهـداتهم بالإيمان وإطلاق سراح بنى إسرائيل فانتقم الله تعالى منهم: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا

مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٦].

– وهى نفس ثابتة على الحق قادرة على مجابهة الناس فى أحلك الظروف، لا تخشى فى الله لومة لائم، فعندما نجّى الله بنى إسرائيل بأن فرق لهم البحر فاجتازوه وجدوا قومًا يعبدون أصناما، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم صنمًا يعبدونه!!! فرفض مُسَفِّهًا لهم، وواصفًا عابدى الأصنام بأنهم على باطل وبأنهم إلى هلاك، ثم أخذ يذكرهم بنعم الله تعالى عليهم: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤١].

– وهى نفس شديدة الحرص على رعاية الناس وحسن إدارتهم باختيار من يصلح لهذه الإدارة خلفًا له، وأوصاه بالإصلاح وعدم الاستجابة لمحبى الفساد: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

– وهى نفس حريصة على الاستزادة من كل ما يقربها إلى الله إلى درجة التطلع إلى رؤية الله تعالى، ولكن الله تعالى يرده إلى أنه سبحانه لا تدركه الأبصار، بل إن تجليه سبحانه للجبل يدك الجبل ويصعق موسى، وقد حدث هذا فلما أفاق موسى من صعقه تاب إلى الله من هذا السؤال، فمنَّ الله عليه بالألواح التى فيها الموعظة والتفصيل لكل ما ينفع الناس: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣-١٤٥].

– وهى نفس تغضب من أجل الله، وتحزن من أجل ضلال الناس وتلوم أقرب الناس إليها، ثم تصفح عنه وتطلب له المغفرة من الله: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ

بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٠-١٥٣].

- نفس سريعا ما ترجع إلى الصواب، حريصة على التوبة إلى الله ملحّة، فى الدعاء بأن يقبل من موسى عليه السلام اختياره لسبعين رجلا من قومه ممن لم يقعوا فى إثم عبادة العجل، ليعتذروا عن أفعال قومهم فى عبادة العجل: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤- ١٥٦].

٢- ومن سورة طه تسعون آية كريمة من الآية ٩ إلى الآية ٩٨ تتحدث عن موسى عليه السلام وتصفه وتصف معالم نفسه الكريمة ومن أمثلة ذلك:

- أنها نفس متعطشة للمعرفة ونفع الآخرين، فجاءه أنبل معرفة وأشرف علم وأنفع قول وعمل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ٩-١٦].

- نفس راغبة فى الشرح والبيان والتفصيل، ووثيقة الصلة بالله تعالى تدعوه وتستعين به، وتأخذ بكل سبب يمكن من القيام بأعباء الدعوة إلى الله كشرح الصدر وتيسير الأمر والبيان، واتخاذ الوزير الذى يشد به الأزر ويشارك فى الأمر، ومع هذا الدعاء فقد استجاب الله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي

وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧-٣٦].

- نفس أحاطها الله تعالى بالرعاية، وعلى الرغم من ذلك فهى تضرع إلى الله بالدعاء لتستمد منه العون على مواجهة الطغاة وهدايتهم وإقناعهم بالحق عن طريق الحوار والمناقشة، وتذكير هؤلاء الطغاة بنعم الله تعالى عليهم وعلى الكون كله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٣٧-٥٥].

- نفس تخاف الله على الناس فتحذرهم من الافتراء عليه، وهى تخاف ألا تنتصر على أعدائها فتلح فى الدعاء لله طمعًا فى تأييده ونصره، ويستجيب الله تعالى لمن أخلص له فى الدعاء: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا

مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى
﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾
فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ
أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ
اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ
وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ
إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ
حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٦-٧٠].

- نفس شديدة الحرص على إرضاء الله تعالى ومناجاته: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ
﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٨٤].

- نفس تحاور وتجادل عن الحق، مع الأخ الشقيق هارون النبى عليه السلام، ومع السامرى الذى فتن بنى إسرائيل وزين لهم عبادة العجل: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ
عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا
مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ
عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا
يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ
فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ
مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا
بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا
سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ
لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ
إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٨٥-٩٨].

٣- وفى سورة الشعراء التى جاء فيها ثمان وخمسون آية عن موسى وقومه، ومواقفه معهم.

* ما جاء فى سورة الشعراء عن موسى عليه السلام ومواقفه مع فرعون وملئه، ومع بنى إسرائيل قوم موسى عليه السلام، ومع السحرة، حيث واجه موسى عليه السلام كل هذه الأحداث مؤيدًا بنصر الله تعالى وبما أنعم عليه من معجزات.

ولقد تتبعت المعالم النفسية لموسى عليه السلام التى تحدثت عنها الآيات الكريمة، فوجدت نفس الصفات النفسية لموسى عليه السلام لم تضف إليها صفة جديدة فآثرت عدم الحديث عنها اكتفاء بما قلت فى سورتى الأعراف وطه.

وقد اشتملت سورة الشعراء على ثمان وخمسين آية فى الحديث عن موسى عليه السلام، من الآية ذات الرقم ١٠ إلى الآية ذات الرقم: ٦٨.

٤- ومن سورة القصص التى جاء فيها إحدى وأربعون آية عن موسى عليه السلام.

* ومما جاء فى هذه السورة الكريمة عن الأحداث التى عايشها موسى عليه السلام؛ مما لم يذكر فى سورة أخرى من القرآن الكريم قصة موسى مع الذى استنصره من قومه وشيعته فنصره فقضى على عدوه بوكزة، ومما تميزت به نفس موسى عليه السلام فى هذه الآيات أنه تاب وندم.. ومن هذه الصفات النفسية الشريفة ما نذكر بعضه فيما يلى:

- هى نفس تعترف بالخطأ توابة نادمة طالبة للمغفرة والرحمة من الله، رجاعة إلى الحق لم تستجب للذى استصرخه للمرة الثانية: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٥-١٩].

- نفس مجبولة على مساعدة الضعيف، ومجبولة على الإنصاف والإحسان، نفس تقية ورعة تخشى الله تعالى وتتورع عن أى خطأ مهما كان صغيرًا، ولو كان أن يرى ما قد

يظهر من المرأة من حركة لمن مشى خلفها من الرجال: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٢-٢٨]

٥- ومن سورة البقرة التى جاء فيها تسع وعشرون آية تحدثت عن موسى عليه السلام، وآيات كثيرة تحدثت عن بنى إسرائيل وحدهم أو عن أهل الكتاب ومنهم اليهود.

* ومن الآيات الكريمة التى وصفت نبى الله موسى عليه السلام فأوضحت صفاته النفسية، ما نشير إلى بعضها فيما يلى:

- إنها نفس عانت من عناد بنى إسرائيل وتكذيبهم بما جاءهم به من الهدى، ومع ذلك فلما عطشوا فى التيه رَقَّت نفسه ودعا الله مستسقيًا لقومه فسقاهم بمعجزة على يد موسى عليه السلام؛ إذا أمره أن يضرب بعصاه الحجر فانفجر الماء من اثنتى عشرة عينًا، ليكون لكل قبيلة من قبائلهم الاثنتى عشرة عين تخصها، فلا يتزاحمون ولا يختلفون: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

- وهى نفس لديها الجرأة على الاعتراض على الرأى الخاطىء مهما كان أصحابه ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

- وهى نفس لا تكف عن محاولة إظهار الحق وإنصاف صاحبه، فقد قتل فيهم قتيل لم يعرفوا قاتله، وأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن يأمرهم بذبح بقرة وأن يضربوا القتيل ببعضها، فيحييه الله لينطق باسم قاتله ثم يميته، وتلك من معجزات موسى عليه السلام، وقد شدَّد بنو إسرائيل على موسى فى صفات البقرة فوصفها وصفًا دقيقًا لهم فذبحوها وعرفوا القاتل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧-٧٤].

د- عيسى عليه السلام:

حياة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام من مولده إلى يوم رفعه الله، تعد من المعجزات، فحمل أمه به معجزة لأنها حملت به دون أن يمسها بشر، وميلاده معجزة وحديثه فى المهد معجزة، ودعوته الناس إلى الإيمان معجزة.

ومن أجل ذلك كان الحديث في القرآن الكريم عن معجزاته أوسع من الحديث عن مفردات حياته وعن سيرته عليه السلام.

* والذى نحاوله هنا هو إبراز وصف الله تعالى لنبيه ورسوله عيسى ابن مريم، وصفا يوضح لنا أبعاد نفسه وما تنطوى عليه هذه النفس الشريفة من قيم وفضائل.

* وقد جاء الحديث عن المسيح عيسى ابن مريم فى القرآن الكريم فى ثلاث عشرة سورة قرآنية كريمة هى:

١- سورة البقرة من الآيات: ٨٧، ١٣٦، ٢٥٣.

٢- وسورة آل عمران فى الآيات: من ٤٥ إلى الآية: ٥٢ .

ومن الآية ٥٥ إلى الآية: ٥٩ .

والآية: ٨٤ .

٣- وسورة النساء: ١٥٦ إلى الآية: ١٥٨ .

والآية: ١٦٣ .

ومن الآية: ١٧١ إلى الآية: ١٧٢ .

٤- وسورة المائدة: الآية: ٤٦ .

والآية: ٧٨ .

والآيات: من : ١١٠ إلى الآية: ١١٨ .

٥- وسورة مريم: الآيات من: ٢٧ إليك ٣٦ .

٦- وسورة الزخرف: الآيات: من ٦٣ إلى: ٦٥ .

٧- وسورة الحديد: الآية: ٢٧ .

٨- وسورة الصف: الآية: ٦، والآية: ١٤ .

ولقد ورد اسم المسيح عيسى ابن مريم بين أسماء الأنبياء فى كثير من آيات القرآن الكريم غير ما ذكرنا.

* ومن صفات عيسى عليه السلام النفسية ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

* إن نفس عيسى عليه السلام لابد أن تجمع سائر الفضائل التى يمكن أن تكون فى الأنبياء والمرسلين. ومن بين هذه الصفات:

- أنها نفس مباركة من الله تعالى أوصاها بالصلاة والزكاة طوال الحياة، كما أوصاه ببر أمه، ونفى عنه أن يكون جباراً أو شقياً: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

- وأنها نفس آتاها الله الحكمة، فهى نفس راغبة فى أن تبين للناس ما يختلفون فيه من أمور الدين، لأنه جاءهم بشريعة حكيمة، على قومه بنى إسرائيل أن يتبعوها إن أرادوا

أن يجنبوا أنفسهم العذاب، أى أن طاعته باتباع شريعته هى المنجى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٣، ٦٤].

– وهى نفس منصفة واعية متواضعة تحترم جميع الرسل وتعترف بفضل سابقهم ولاحقهم، وإن كان قومه بنو إسرائيل لا يقرون بالفضل لأحد، لا لموسى وللتوراة التى جاءهم بها، ولا لعيسى نفسه فقد أوسعوه سبًا وتجريحًا واتهامات، وكفروا بما جاءهم به، ولا لمحمد خاتم المرسلين الذى بشَّر به عيسى فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وبعد: فإن أفضل ما تكون الصفات النفسية للإنسان إنما تكون فى صفات من اصطفاهم الله من خلقه وفضلهم وخصهم بنبوته ووحيه ورسالاته، ولقد قص الله تعالى فى خاتم كتبه القرآن الكريم قصصهم وأوضح صفاتهم وأعماق نفوسهم وما تنطوى عليه من خير وفضل؛ ليكون فيهم عبرة وعظة وزادًا يتزود به السائرون فى الطريق إلى رضا الله تعالى بطاعته وطاعة رسله عليهم الصلاة والسلام.

ويلى هؤلاء الرسل عليهم السلام أولئك الذين تفردوا من المؤمنين بصفات تشبه صفات الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

وهؤلاء أفراد هيأهم الله وأعطاهم من العلم والحكمة والشجاعة ما جعلهم أمثلة للفضائل الإنسانية المصنوعة على عين الله تبارك تعالى.

وهؤلاء ليسوا رسلاً ولا أصحاب شرائع بكل تأكيد، لكننا لا نملك الدليل على أنهم ليسوا بأنبياء، لأن أنبياء الله تعالى لا يحصون عددًا.

وقد روى الطبرانى فى الكبير بسنده عن أبى عنبة رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ لله تعالى آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبها ألينها وأرقها»

– وروى الطبرانى فى الكبير بسنده عن ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله أقوامًا يختصهم بالنعم لمنافع العباد، ويقرها فيهم ما بذلوها، فإذا منعوها، نزعها منهم، فحولّها إلى غيرهم».

وعن هؤلاء أو بعضهم نتحدث فى الصفحات التالية بحول الله تعالى وعونه.

٣- صفات نفوس المتفردين من المؤمنين

هؤلاء الذين تفردوا بين الناس بصفات نفسية تميزهم عن سواهم من المؤمنين، ولا يكون التفرد للمؤمن عن سائر إخوانه إلا إن تجمعت فيه صفات نفسية أو روحية أو خلقية تميزه ويتفرد بها، ومن هذه الصفات:

- الإخلاص لله تعالى فى كل أمر يمارسه أو يكُف عنه؛ بحيث لا يستهدف بذلك كله إلا رضا الله تعالى.

- والثبات على الحق والاستمرار فى هذا الثبات، بحيث لا يخاف فى ثباته على الحق لومة لائم.

- والالتزام بما أمر الله به طاعة وامتثالاً، واجتناب ما نهى الله عنه ورفضه، ورفض الاقتراب منه.

- وإيثار ما عند الله تعالى من خير وحق وثواب، على ما عند الناس من زينة الحياة الدنيا وزخرفها.

- وعملهم الدائب من أجل أن يسود شرع الله عباد الله، وأن يصل دين الله إلى عباده، وأن تترك الحرية والاختيار لمن وصل إليه فى أن يتبعه فيؤمن به أو يرفضه فيكفر ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

أولئك هم أولياء الله الصالحون الذين فقههم الله تعالى فى الدين فعملوا بما علموا، ولقد أشار إليهم النبى ﷺ فيما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله قال: مَنْ عَادَى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىّ عبدى بشئ أحبَّ إلىّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينَّه، ولئن استعاذنى لأعيذنَّه، وما ترددتُ عن شئ أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن، يكره الموتَ وأنا أكره مساءته»**.

إنهم أولياء الله الصالحون المحبوبون إليه، الذين قال فيهم رسول الله ﷺ، فيما رواه البخاري بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: **«إن من عباد الله مَنْ لو أقْسَمَ على الله لأبرَّه»**.

أولئك هم المتفردون من عباد الله المؤمنين، وهم بفضل الله كُثُر، ولكننا نقتصر فى الحديث عنهم بما يسمح به حجم الكتاب، والله الموفق.

وقد اخترنا منهم:

- الخَضِر عليه السلام الذى علَّم موسى عليه السلام.
- ومؤمن آل فرعون.
- وسحرة آل فرعون.
- ومؤمن آل ياسين.
- والعشرة المبشرون بالجنة من صحابة رسول الله ﷺ.

أ- الخَضِر عليه السلام:

هو أحد هؤلاء المؤمنين المتفردين الصالحين، وقد اختصه بعلم لم يعطه رسوله موسى بن عمران عليه السلام الذى أنزلت عليه التوراة.

- وقد وردت قصة الخضر مع موسى عليهما السلام فى سورة الكهف فى هذه الآيات
الكريمة: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا
مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ
لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ
إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا
قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ
مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧)
وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا
(٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي
السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا
غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن
تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا
(٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن

يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

[الكهف: ٦٠-٨٢]

- وقد وردت قصته مع موسى عليهما السلام فى السنة النبوية المطهرة، فقد عقد البخاري فى كتاب العلم بابًا سماه: «باب ما يستحب للعالم إذا سئل: أى الناس أعلم، فيكل العلم إلى الله» فروى بسنده عن سعيد بن جبير رضى الله عنه قال: قلت لابن عباس رضى الله عنهما: إنّ نَوْفًا البكالىّ يزعم أنّ موسى ليس بموسى بنى إسرائيل، إنما هو موسى آخر، فقال: كَذَبَ عدو الله، حدثنا أُبى بن كعب عن النبى ﷺ، قال: «قام موسى النبى خطيبًا فى بنى إسرائيل، فسُئل أىّ الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فعتَب الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه، أن عبدًا من عبادى بمجمع البَحْرَيْن هو أعلم منك، قال: يارب وكيف به؟ فقيل له: احمل حوتًا فى مِكْتَل فإذا فقدته، فهو ثَمَّ، فانطلق وانطلق بفتاه[1] يوشَع بن نون، وحملا حوتًا فى مكتل، حتى كانا عند الصخرة وضعا رءوسهما وناما؛ فانسَلَّ الحوتُ من المكتل فاتخذ سبيله فى البحر سربًا، وكان لموسى وفتاه عجبا، فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، فلما أصبح قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصَبًا، ولم يجد موسى مسًّا من النَّصب، حتى جاوز المكان الذى أُمرَ به، فقال له فتاه: أرأيْتَ إذ أوينا إلى الصخرة، فإنى نسيتُ الحوتَ. قال موسى: ذلك ما كنا نبغى، فارتدًّا على آثارهما قصصًا، فلما انتهيا إلى الصخرة، إذا رجلٌ مُسَجًّى بثوب - أو قال: تسجَّى بثوبه، فسَلَّم موسى، فقال الخَضِر: وأنَّى بأرضك السلام، فقال: أنا موسى، فقال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، قال - أى موسى: هل أتَّبعُك على أن تعلمنى مما عُلِّمتَ رشدًا؟ قال: إنك لن تستطيع معى صبرًا،

(١) هو تابعه وخادمه يوشع بن نون، أحد الرجال الاثنى عشر الذين بعثهم موسى عليه السلام ليتجسسوا فى أرض كنعان -فى جهات بين حلب وحبرون- ويختبروا بأس أهلها وخيرات أرضها. ويوشع بن نون هذا أحد الرجلين اللذين شجعا بنى إسرائيل على دخول أرض كنعان، وقد ذكرهما القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

يا موسى: إني على علمٍ من علم الله علَّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه لا أعلمه. قال: ستجدني إن شاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرًا، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ليس لهما سفينة، فمرتْ بهما سفينة، فكلموهم أن يحملوهما، فعُرِف الخَضِر فحملوهما بغير نَوْل[1]، فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرّة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر، فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه!!! فقال موسى: قوم حملونا بغير نَوْل، عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرًا؟ قال: لا تؤاخذني بما نَسِيتُ، فكانت الأولى من موسى نسيانًا.

فانطلقا؛ فإذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه من أعلاه، فاقتلع رأسه بيده!!! فقال موسى: أقتلتَ نفسًا زكيّة بغير نفس؟ قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا؟

- قال ابن عيينة:[2] وهذا أوكد.

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه، قال الخضر بيده فأقامه!!! فقال له موسى: لو شئت لاتخذت عليه أجرًا.

قال - أي الخضر -: هذا فراق بيني وبينك.

قال النبي ﷺ: «يرحم الله موسى لوددْنا لو صبَر، حتى يقص علينا من أمرهما».

* وبالتدبر في الآيات الكريمة وفي الحديث النبوي الشريف نجد وصف نفس هذا النبي أو الولي - الخضر عليه السلام - بصفات أوضحت معالم هذه النفس وأعماقها، على النحو الذي نوضح بعضه فيما يلي:

- نفس شديدة الثقة في العلم الذي علمه الله تعالى إياها، وهو علم غير العلم الذي علمه الله تعالى لرسوله موسى عليه السلام، وعلامة ثقة الخضر فيما علمه الله تعالى قوله لموسى في الآية وفي الحديث النبوي الشريف: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧]

---

(١) أي أجر نقل.

(٢) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي (١٠٧ - ١٩٨ هـ/ ٧٢٥ - ٨١٤م) وكان أعور، سكن مكة المكرمة وتوفي بها، وكان حافظًا ثقة واسع العلم، قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، له «الجامع» في الحديث في كتاب في التفسير.

- وهى نفس ذات سماحة ورغبة فى التعليم والتبصير والشرح تعلل لموسى عليه السلام السبب فى أنه لن يستطيع أن يصبر على ما يرى من ظواهر لا يعلم عن مخابرها شيئا، وخاصة أن هذا العلم الذى اختص الله الخضر غير علم التوراة التى اختص الله تعالى بها موسى عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨]

- وهى نفس تحب الخير لموسى، وتنبهه حتى لا يقع فى مخالفة أخرى بعد أن اعتذر بالنسيان فى الأولى، وتعهد بعدم السؤال بعد ذلك عندما قال موسى للخضر[١] عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩]، والحديث الشريف. ويوضح الخضر لموسى عليهما السلام كيفية الوصول إلى عدم التساؤل بقوله له: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠].

- وهى نفس تصبر على النسيان والخطأ، وتعاتب، وتنذر قبل أن تفارق الناسى المخطئ وتعلمه أصول الصبر وأسبابه، فعند سؤال موسى له عليهما السلام عن غرق السفينة، قال له: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥]، واعتذر موسى عليه السلام بالنسيان، وعندما سأله ثانية عن قتله للغلام قال له: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥]، فاستحيا موسى عليه السلام من تكرار السؤال فقال له: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦].

- وهى نفس ذات حسم للأمور وإنصاف، وتحسن أخذ من أخطأ بخطئه، فعند سؤال موسى له عليه السلام للمرة الثالثة عن الجدار الذى أقامه لأهل القرية أبوا أن يضيفوهما قائلا له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧].

قال له الخضر عليه السلام بحسم: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ كما تعهد موسى بذلك بقوله له: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾. ثم أخذ يشرح لماذا قام بهذه الأعمال التى أدهشت موسى عليه السلام، ولم توافق ما عنده من علم وشريعة،

(١) الخضر: اسم لمؤمن صالح، وقيل: إنه نبى، وهو من أحفاد عابر بن شالح، فيكون بذلك النسب ابن عم الجد الثانى لإبراهيم الخليل عليه السلام، وقد اتفق العلماء على أنه من المعمَّرين. والخضر يمكن -كما قال بعض العلماء- أن يكون لقبًا له، لأنهم قالوا إن اسمه إيليا، ولقب الخضر لبركته، فقد قيل: إنه كان إذا جلس على الأرض أخضرَّ ما حوله، أى اخضر بالنبات لبركته.

قائلا له: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨-٨٢].

وبعد: فهذه بعض الصفات النفسية لأحد المؤمنين المتفردين بالعلم والحلم والسماحة والحرص على التعليم والتفهيم، لتكون هذه الصفات التى ذكرناها له عليه السلام قدوة وأسوة للمؤمنين الذين يجيئون بعده فى الزمان والمكان.

ب- مؤمن آل فرعون:

هو رجل مؤمن من آل فرعون - أى مصرى - وليس إسرائيليًا كما يدعى بعض المفسرين.

وكان من قرابة فرعون وخاصته، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر: ٢٨].

وكان مؤمنا بالله تعالى مصدقًا بموسى عليه السلام مهتديًا إلى توحيد الله تعالى، كما اهتدى أبو بكر رضى الله عنه، فصدق محمدًا ﷺ حين سمع دعوته، فقال له: صدقتَ.

وكان هذا الرجل المؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، تَقِيَّةً من فرعون وقومه أن يبطشوا به.

* وقد جاءت قصة مؤمن آل فرعون فى القرآن الكريم فى سورة غافر فى الآيات التى تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ

مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٢٨-٤٥].

* وقد وصفت الآيات الكريمة مؤمن آل فرعون بصفات أوضحت فيها أعماق نفسه وما تنطوى عليه من فضائل وقيم رفيعة.

ونحاول من خلال هذه الآيات الكريمة أن نعرف الصفات النفسية لهذا المؤمن، والله المستعان.

- هى نفس راشدة حذرة تأخذ بالأسباب وفى مقدمتها التقية، خوفًا من بطش فرعون وظلمه، فهو يكتم إيمانه لعلمه أن فرعون يبطش بالمؤمنين، وقد علم هذا المؤمن أن إظهار إيمانه يضره، ولا ينفع غيره[1]. فكتمان الإيمان فى هذه الظروف حذر وحيطة وأخذ بالأسباب: ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ [غافر: ٢٨].

- وهى نفس جريئة فى الحق تدافع عنه وتستنكر على الظالمين أن يقتلوا رجلاً يقول ربى الله ولا يؤذى بإيمانه أحدًا، بل لم يجبر أحدًا على الإيمان بدينه الموحّد لله تعالى،

(١) وقال بعض مفسرى القرآن الكريم: إن سقراط الفيلسوف المعروف كان يكتم إيمانه بالله فى بلاد اليونان خشية أن يقتلوه انتصارًا لآلهتهم.

ويكتفى فى الدعوة لدينه بالإقناع وتقديم البينات من الأدلة والبراهين، فاقبلوا قوله أو ارفضوه، ولكن لا تقتلوه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر:٢٨].

- وهى نفس صريحة ذات قدرة على الإعلان عن رأيها فى محاولة قتل موسى عليه السلام، وتقدم من الحجج والبراهين ما يقنع فرعون وقومه بالكف عن قتل موسى عليه السلام، لأن أمر موسى ودينه الذى يدعو إليه لا يخلو من أحد احتمالين:

إما أن يكون كاذبًا فى دعواه وفى دينه الذى يدعو إليه، وعندئذ يكون ضرر كذبه مقصورًا عليه، ولا يصيبكم منه أذى.

وإما أن يكون صادقًا فى دينه ودعواه فيصيبكم الخير الذى يعدكم به، وقدم احتمال كذبه لكيلا يثير نفورهم منه حين يصفه بما لا يحبون أن يوصف به.

وقد قال ابن كثير رحمه الله[1] تعقيبًا على قول موسى عليه السلام: ﴿قَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ من رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨]

- وهى نفس ذات جراءة فى إظهار الحق، والإعلان عن هذا الرأى، إذ عقَّب على محاولته إقناعهم بالكف عن مقتل موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٨] يحتمل معنيين وكلاهما فى صالح منطق هذا الرجل المؤمن:

الاحتمال الأول: أن يكون تعقيبا على افتراض أن موسى عليه السلام كاذب فى نبوته ودينه، فالله سبحانه لا يهديه لكذبه.

والاحتمال الآخر: أن يكون تعقيبا علي محاولتهم قتل موسى عليه السلام، فالله سبحانه لا يهدى من هو مسرف فى القتل لغير سبب موجب، وكذاب لأنه يكذب بالحق بعدما قامت البينات على تأييده والدلالة عليه بما قدم موسى عليه السلام من معجزات.

---

(١) هو الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن كثير القرشى (٧٠١ - ٧٧٤هـ/ ١٣٠٢ -١٣٧٣م): البداية والنهاية فى التاريخ، ط السعادة بمصر، عام ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

* ولابد من الاشارة هنا إلى أن كلمة: «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله» كانت مقولة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، حين تعرض عتبة بن أبى معيط للنبى ﷺ بمكة يخنقه بثوبه، فدفعه أبو بكر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قائلا هذه الكلمة، وناله من الأذى ما ناله[1].

- وهى نفس مفطورة على الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وحسن التَّوَدُّد إلى الناس، وقد ظهر ذلك فى الكلمات التى جاءت على لسانه مثل:

* خطابهم بـ ﴿يَا قَوْمِ﴾ فهذا استئناس لهم وتودد إليهم وتذكيرهم بأنه منهم وهم قومه.

* ﴿لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا تذكير لهم بنعم الله عليهم بإعطائهم الملك والسلطة والظهور، وتلك حكمة فى الدعوة وموعظة حسنة.

* وتذكيرهم بأن نعم الله تعالى قد لا تدوم، إذا رأى سبحانه ممن أنعم عليه جحودًا لنعمة: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩].

- وهى نفس تخاف الله وتخاف عذابه فى الدنيا والآخرة، وتذكر الناس بمن عذبهم الله فى الدنيا بعد سلب نعمه منهم، ويخوفهم من أن يحل لهم ما حل بالأقوام الذين تحزبوا ضد رسلهم وآذوهم وحاربوهم، فعاقبهم الله تعالى فى الدنيا بالغرق كقوم نوح عليه السلام، أو بالريح العاتية الشديدة الصوت كعاد قوم هود عليه السلام، أو بالصاعقة التى أحرقت ثمودًا قوم صالح عليه السلام: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠، ٣١].

- وهى نفس قوية الإيمان بالله وباليوم الآخر تخشى عذاب الآخرة كخشيتها عذاب الدنيا بل أشد، ويذكرهم ببعض ما يكون يوم القيامة من أهوال، يوم يتصايح الناس بعضهم على بعض فلا يسمع أحد أحدًا، ولا يملك أحد أن يشفع لأحد فضلا عن أن ينقذه من العذاب، يوم لا يكون لأحد من الله مانع من العذاب: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣]

---

(١) وردت هذه الواقعة فى معظم كتب السنة النبوية فى فضائل أبى بكر رضى الله عنه أو مناقبه، وفى كل كتب السيرة النبوية وفى كثير من كتب التاريخ الإسلامى، وهى أطول مما ذكرتُ، لكننى أقدم الشاهد والمثال.

- وهى نفس حريصة على هداية الناس، تذكرهم بما كان من أسلافهم مع نبى الله يوسف عليه السلام، إذ كذبوه ولم يعتبروا بما جاءهم به من بينات، بل كانوا فى شك منه، ومما جاءهم به -فضلوا بذلك الموقف وأسرفوا وجادلوا فى آيات الله وبيناته، فطبع الله على قلوبهم لتكبرهم عن اتباع الحق وتجبرهم فى الإساءة إلى الخلق ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٤، ٣٥].

جـ- سحرة فرعون الذين آمنوا:

وهم قوم من المؤمنين، آمنوا - بعد أن عاينوا - بأن ما جاء به موسى عليه السلام من إلقاء عصاه فإذا هى ثعبان مبين يلقف ما صنعوا؛ آمنوا بأن ما جاء به موسى عليه السلام ليس سحرًا كسحرهم الذى يمارسون، وإنما هو معجزة من عند الله تعالى، عندئذ آمنوا برب موسى وهارون، وأعلنوا إيمانهم أن سجدوا لله تعالى غير مبالين ما يكون من فرعون ضدهم من تعذيب وتذليل وقتل.

* وقد جاءت قصة إيمان هؤلاء السحرة مفصلة فى سور ثلاث من سور القرآن الكريم هى:

- سورة الأعراف: فى الآيات من الآية ذات الرقم: ١٠٩ إلى الآية ذات الرقم: ١٢٦.

- وسورة طه: فى الآيات من الآية ذات الرقم: ٥٧ إلى الآية ذات الرقم: ٧٦.

- وسورة الشعراء: فى الآيات من الآية ذات الرقم: ٣٦ إلى الآية ذات الرقم: ٥١.

* ومن أجل تشابه الأحداث بالنسبة للسحرة فى السور الثلاث، رأينا أن نقصر حديثنا على آيات سورة طه، قال تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُوا يَا

مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [٥٧-٧٦].

* وقد وصفت هذه الآيات الكريمة نفوس هؤلاء السحرة الذين آمنوا بصفات نبيلة فاضلة، نذكر بعضها، فيما يلي:

- هى نفوس تتأثر بالوعظ والتذكير، وتفكر وتدبر وتحاول الإجادة والإتقان لعملها وتحرص على غلبة منافسها، وتتخذ من أسباب الانتصار على موسى عليه السلام كل سبب يكفل لها هزيمته وتصديق كلام فرعون فيه، واتخاذ كافة الوسائل لإبطال سحره وعدم تمكينه من إخراجهم من مصر بلدهم؛ لتئول إلى بنى إسرائيل قوم موسى - كما زعم فرعون - فأعَدَّ لهزيمة موسى عليه السلام وإبطال سحره ما أعدَّ. وذلك فى قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾
[طه: ٦٠-٦٩]

– وهى نفوس ترجع إلى الحق وتؤمن به عندما يقوم عليه الدليل، وقد قام الدليل بمعجزة إلقاء موسى عصاه، فإذا ثعبان مبين، وإذا هى تلقف ما صنعوا، وما صنعوا هو كيد ساحر، وهم أهل سحر بل بارعون فيه إذ قد اختارهم فرعون لتفوقهم فى سحرهم، فهم أكثر الناس قدرة على معرفة السحر، ومعرفة ماليس بسحر، وإنما هو معجزة فهم قد آمنوا بمجرد أن ظهر لهم أن ما جاء به موسى عليه السلام ليس من السحر، عندئذ هووْا إلى الأرض ساجدين لله رب هارون وموسى ورب العالمين: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠].

– وهى نفوس مؤمنة لا تبالى بما يهددها به فرعون ولا ما يوقع عليها من عذاب يغلب على ظنهم أنه سوف يفضى إلى القتل، لأنهم يعلمون أن ذلك فى سبيل الله وفى سبيل ما آمنوا من الدين الحق.

وقد هدَّدَهم بسبب إيمانهم بالقتل، ولكنه اتخذ معهم سبيل التدرج لعلهم يرجعون عن إيمانهم، وكان ذلك على النحو التالى:

* قال لهم: هل آمنتم به قبل أن آذن لكم؟ بما يوحى أنهم لو استأذنوه فى الإيمان بموسى لسمح لهم!!!

* واتهمهم بأن موسى كبيرهم فى مجال السحر، بل هو الذى علمكم السحر، مما يشعرهم بأنهم مع موسى بوصفه كبيرهم جبهة ضد فرعون، فهم بذلك أهل لكل عقاب يوقعه بهم.

* ثم فصل لهم العقاب وهو تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف – أى قطع اليمنى من واحدة واليسرى من أخرى.

* ثم يصلبهم على تلك الحالة التى قطعهم عليها فى جذوع النخل تنكيلاً بهم وإرهابًا لكل من يخالف هذا الفرعون الطاغية الظَّلاَّم.

لكن ذلك كله لم يثنهم عن إيمانهم، فردُّوا عليه رُدود المؤمنين قائلين له:

* لن نبقى على الكفر بعد أن تبين لنا الإيمان، وظهر لنا الحق فى معجزة موسى عليه السلام.

* ولن نختارك ونؤثرك على الإله الحق الذي آمنا به وقامت أمامنا الأدلة والبراهين عليه.

* وافعل ما تستطيع أن تفعل من تهديد ووعيد وتعذيب وقتل وصلب، فإن سلطانك علينا لا يتجاوز حياتنا الدنيا التي نعيشها.

* إننا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا، وما قمنا به من أعمال أمرتنا بها لتحدى رسول الله موسى عليه السلام، والله تعالى خير لنا منك ثوابًا، وأبقى منك سلطانًا على الجزاء ثوابًا وعقابًا.

ذلك ما توضحه الآية الكريمة: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

ثم جاءت ردودهم على فرعون فى الآيتين الكريمتين: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

- وهى نفوس لا تفارقها الدعوة إلى الله وإلى الحق، حتى فى أحلك الظروف، وفى ضغوط التهديد والوعيد، بل حتى قبيل الموت، فقد قرر هؤلاء السحرة المؤمنون لفرعون ولكل طاغية، ولكل أحد، عددًا من الحقائق الإيمانية، منها:

* أن من يموت على الكفر ويلقى الله عليه فهو من الذين أجرموا فى حق أنفسهم، وهؤلاء جزاؤهم جهنم لا يموتون فيها، فيستريحون من العذاب، ولا يحيون حياة طيبة.

* وأن من يلقى ربه مؤمنًا قد عمل الأعمال الصالحة، فله عند الله المنازل الرفيعة السامية.

* أن المنازل عند الله ليست كمنازل أو درجات الحياة الدنيا، وإنما هى جنات الإقامة فى النعيم، جزاء لمن طهر قلبه من الكفر فآمن وطهره من المعاصى فأطاع الله تعالى، وذلك فى الآيات الكريمة: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٤، ٧٦] .

د- مؤمن آل ياسين:

مؤمن آل ياسين، رجل مؤمن صالح قال المفسرون: إن اسمه «حبيب».

روى ابن اسحق بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: إن أهل القرية[1] هموا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى، أى لينصر الرسل من قومه، وقال ابن عباس رضى الله عنهما، وكعب الأحبار[2] ووهب بن منبه[3] هو: «حبيب النجار» وكان يعمل الحرير - أى حبَّاكًا - وكان رجلا مستقيمًا كثير الصدقة، يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة.

وقيل إن مؤمن آل ياسين اسمه حبيب بن مرى، فقتله قومه لما دافع عن المرسلين الذى أرسلوا إلى هذه القرية إذ وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له من يمنع عنه.

وقال قتادة (٦١-١١٨هـ) المفسّر الحافظ عنه: جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون، فلم يزالوا به حتى أقعصوه، وهو يقول كذلك فقتلوه رحمه الله.

وقال بعض المفسرين وبعض المؤرخين:

لما أشرف الرسل على المدينة رآهم حبيب ورأى معجزة لهم أو كرامة، فآمن. ثم قال لقومه عن الرسل ما قال.

* وقد جاء ذكر قصته فى سورة يس فى الآيات الكريمة: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٠-٢٩]

---

(١) هذه القرية كما جاء عن كثير من الخلف والسلف -كما يقول ابن كثير- هى «أنطاكية» وكان لها ملك يعبد الأصنام فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل.

(٢) هو كعب بن مانع بن ذى هجن الحميرى أبو إسحق توفى سنة ٣٢ هـ وقيل ٣٤ هـ. وهو تابعى كان فى الجاهلية من كبار علماء اليهود فى اليمن، أسلم فى زمن أبى بكر وقدم المدينة فى زمن عمر رضى الله عنه، فأخذ عنه بعض الصحابة كثيرًا من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو منهم وعنهم الكتاب والسنة.

(٣) هو وهب بن منبه الأنباوى الصنعانى الذمارى أبو عبدالله (٣٤-١١٤هـ / ٦٥٤ - ٧٣٢م) مؤرخ عالم بأساطير الأولين ولاسيما الإسرائيليات، يعد فى التابعين، ولد ومات بصنعاء وولاه عمر بن عبدالعزيز قضاءه، وحُبس فى كبره وامتحن، يقال: إنه صحب ابن عباس رضى الله عنهما ولازمه ثلاث عشرة سنة.

* وقد تحدثت هذه الآيات الكريمة عن بعض صفاته النفسية وما تتصف به نفسه من الفضائل، مما نذكر بعضه فيما يلي:

- هى نفس سريعة إلى الخير، فما إن علم أن أهل المدينة يهمون بتعذيب الرسل عليهم السلام أو رجمهم حتى أسرع إليهم آتيًا من أقصى المدينة، يمنعهم من قومه، وينصح قومه باتباع المرسلين، ثم أخذ يقنعهم بوجوب اتباعهم لأنهم لا يأخذون أجرًا على هدايتكم، وهم مهتدون كما ترون.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠، ٢١].

- وهى نفس نقية شفافة ترضى للناس ما رضيته لنفسها، وترغب فى تفهيمهم وإقناعهم بالحق، وقد ضرب بنفسه المثل، فتساءل قائلا:

أى شىء يمنعنى من عبادة الله الحق الذى خلقنى، وإليه مرجع الناس جميعًا؟

وهل يجوز لى أن أتخذ من دون الله آلهة لا تفيدنى شفاعتهم شيئا. إن أرادنى الله بسوء، ولا يستطيعون تخليصى من عذاب يقع بى يوم القيامة؟

ثم يقرر لهم ليتعظوا به أنه إن اتخذ من دون الله آلهة فإنه فى ضلال مبين.

وأنه صدق برب الناس الخالق العظيم المتولى أمركم.

وخلص من هذا الذى قرره إلى ضرورة أن يسمع له قومه وأن يطيعوه.

وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٢-٢٥].

- وهى نفس نالت الشهادة عند الله تعالى وهى أعلى الدرجات لغير الأنبياء والمرسلين، إذ قد حظى صاحبها بالشهادة فى سبيل الله، فقد قتله طغاة قومه وهو يردد - كما ذكرنا - اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون.

ولذلك ما إن استشهد على أيدى قومه - أو بأرجلهم فى بعض الروايات - حتى أدخله الله الجنة مثوى الشهداء، فلما دخل الجنة جزاء إيمانه وإخلاصه ودعوته إلى الله، لم ينس أنه داعية إلى الله وأنه حريص على قومه لذلك قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

أما قومه فوفاهم الله حسابهم وجازاهم بما فعلوا من شر بالرسل، وبهذا المؤمن: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٦-٢٩].

هـ- صفات نفوس العشرة المبشرين بالجنة:

هؤلاء العشرة رضى الله عنهم متفردون عن سائر المسلمين بأن رسول الله ﷺ بشرهم بأنهم من أهل الجنة، وهم أحياء يعيشون بين الناس يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق، وما أسعد هؤلاء فى دنياهم وأخراهم، وما بشرهم رسول الله ﷺ بذلك إلا وهم أهل لذلك، لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى.

وقد ورد فى السنة النبوية المطهرة بشارة لكل واحد منهم فى الجنة حينما وردت بشارة عدد منهم حينًا ووردت بشارة تسعة منهم مع رسول الله ﷺ حينًا.

وسوف نذكر موجزًا عن كل واحد من هؤلاء العشرة المبشرين بالجنة فى حياتهم، لنعرف شيئًا عن معالم نفوسهم، كما دلت على ذلك سنة رسول الله ﷺ، وكما جاء فى بعض آيات القرآن الكريم، وهم:

١- أبو بكر الصديق رضى الله عنه:

حياة الصديق رضى الله عنه حافلة بمواقف النبل والشجاعة والكرم والتضحية والإخلاص، وسائر الفضائل النفسية.

وسوف نذكر طرفًا من ذلك لنؤكد أنه كان من المتفردين من المؤمنين بصفات نفسية عالية المنزلة.

- هى نفس تداوم على التضحية والفداء ما دام ذلك فى سبيل الله ورسوله ﷺ.

- عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت: جاء الصريخ إلى أبى بكر؛ فقيل له: أدرك صاحبك، فخرج من عندنا وإن له غدائر، فدخل المسجد وهو يقول: ويلكم، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، فلهوا عن رسول الله ﷺ إلى أبى بكر، فرجع إلينا أبو بكر، فجعل لا يَمَسُّ شيئًا من غدائره إلا جاء معه وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

- وهى نفس تفدى رسـول الله ﷺ بما استطاعت: أخرج أبو نعـيم - فى الحلية - بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: لما كان ليلة الغار؛ قال أبو بكر: يا رسول الله دعنى أدخل قبلك؛ فإن كان فيه حية أو شىء كانت لى قبلك، قال: ادخل، فدخل أبو بكر فجعل يلتمس بيديه كلما رأى جُحرًا قال بثوبه فشقه ثم ألقمـه الجُحْر، حتى فعل ذلك بثوبه أجمع، قال: فبقى جحر فوضع عقبه عليه. ثم أدخل رسول الله ﷺ، فلما أصبح قال له النبى ﷺ **أين ثوبك يا أبا بكر؟** فأخبره بالذى صنـع، فرفع رسول الله ﷺ يديه وقال: «**اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى يوم القيامة**» فأوحى الله تعالى إليه أن الله تعالى قد استجاب لك.

- وهى نفس تتصف بالسخاء والبذل فى سبيل الله تعالى.

روى الترمذى بسنده عن ابن أبى المُعَلَّى عن أبيه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب يومًا فقال: **إن رجلاً خَيَّره ربه بين أن يعيش فى الدنيا، شـاء أن يعيش ويأكل فى الدنيا ما شاء أن يأكل، وبين لقاء ربـه، فاختـار لقاء ربه**، فبكى أبو بكر، فقـال أصحاب النبى ﷺ: ألا تعجبون من هذا الشيخ إذْ ذَكَر رسول الله ﷺ رجلاً صالحًا خيّره ربه بين الدنيا وبين لقاء ربه فاختار لقاء ربه. قال: فكان أبو بكر أعلمهم بما قال رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: بل نفديك بآبائنا وأموالنا، فـقال رسول الله ﷺ: «**ما منَ الناس أحدٌ أَمَنَّ إلينا فى صـحبته وذات يده من أبن أبى قحـافة، ولو كنتُ متـخذًا خليلاً لاتخـذت ابن أبى قحافـة خليلاً، ولكن وُدٌّ وإخاء إيمان، ودٌّ وإخاء إيمان مرتين أو ثلاثًا، وإن صاحبكم خليل الله**».

٢- أبو حفص عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

نفس عمر بـن الخطاب رضى الله عنه نفس شفافة نقـية بلغ بها النقاء حـدًّا أن أصبحت نَفْسًا متميزة، بإقرار رسول الله ﷺ.

روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**قد كان فى الأمم مُحَدَّثون؛ فإن يكن فى أمتى فعمر**».

ومن أقوى الأدلة على ذلـك أن عمر كـثيرًا مـا كان يفكر فى الأمر ويـتمنى أن يكون، فينزل الوحى بما فكر فيـه عمر وتمناه، كما كان الشأن فى حـجاب زوجات النبى ﷺ وفى تحريم الخمر، وغيرهما، كأسرى بدر مثلاً.

- وهى نفس قوية فى الحق ملتزمة به دائمًا.

روى البخارى بسنده عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال لعمر: «**والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك**».

وروى الترمذي بسنده عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «أشدُ أمتى في أمر الله عمر» رضى الله عنه.

- وهى نفس ذات حس اجتماعى رهيف، فقد كان يحس بحاجات المسلمين، فيدفعها عنهم.

روى ابن الجوزى - فى صفة الصفوة - بسند عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قدمت رفقة من التجار فنزلوا المصلى، فقال عمر لعبد الرحمن: هل لك أن نحرسهم الليلة من السرق، فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما، فسمع عمر بكاء صبى فتوجه نحوه فقال لأمه: اتقى الله وأحسنى إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه، فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه، فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه، فأتى أمه فقال لها: ويحك إنى لأراك أمَّ سَوْء؛ مالى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟ قالت: يا عبد الله قد أبرمتنى منذ الليلة؛ إنى أُريغه عن الفطام فيأبى، قال: ولِمَ؟ قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفُطُم - جمع فطيم - قال: وكم له؟ - أى من العمر - قالت: كذا وكذا شهرًا، قال: ويحك لا تُعجليه.

فصلى الفجر، وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء. فلما سلم قال: يا بُؤسًا لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين.

ثم أمر مناديًا فنادى: لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام.

وكتب بذلك إلى الآفاق أن يفرض لكل مولود فى الإسلام.

٣- أبو عبد الله عثمان بن عفان رضى الله عنه:

عثمان بن عفان ذو النورين رضى الله عنه، صاحب الصفات النفسية الرفيعة الدرجات، ومن هذه الصفات:

- أن نفسه ذات حياء شديد حتى إن الملائكة لتستحى من هذه النفس الزكية.

روى مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان جالسًا كاشفًا عن فخذه فاستأذن أبو بكر - رضى الله عنه - فأذن له وهو على حاله، ثم استأذن عمر وهو على حاله، ثم استأذن عثمان فأرخى عليه ثيابه، فلما قاموا قلت: يا رسول الله، استأذن عليك أبو بكر وعمر فأذنت لهما وأنت على حالك، فلما استأذن عثمان أرخيتَ عليك ثيابك!!! فقال: «يا عائشة ألا أستحى من رجل؛ والله إن الملائكة لتستحى منه».

- وهى نفس شديدة التواضع:

روى أحمد بسنده عن يونس أن الحسن سُئل عن القائلين[1] فى المسجد، فقال: رأيت عثمان بن عفان - رضى الله عنه - يَقيل فى المسجد، وهو يومئذ خليفة، ويقوم وأثر الحصى بجنبه. قال: فنقول: هذا أمير المؤمنين، هذا أمير المؤمنين.

وعن الحسن أيضًا قال: رأيت عثمان نائمًا فى المسجد ورداؤه تحت رأسه، فيجئ الرجل فيجلس إليه، ثم يجئ الرجل فيجلس إليه، كأنه أحدهم.

وروى ابن الجوزى بسنده عن شرحبيل بن مسلم أن عثمان -رضى الله عنه- كان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت.

- وهى نفس شديدة السخاء والبذل فى سبيل الله.

روى الترمذى بسنده عن عبد الرحمن بن خبَّاب قال: شهدتُ النبى ﷺ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان - رضى الله عنه - فقال: يا رسول الله عَلَىَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله.

ثم حضَّ - أى النبى ﷺ - على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله علىَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله.

ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله علىَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله.

فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل عن المنبر وهو يقول: **«ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه»**.

وروى الترمذى بسنده عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال: جاء عثمان إلى النبى ﷺ بألف دينار فى كُمِّه حين جهز جيش العسرة فنثرها فى حِجْرِه، قال عبد الرحمن: فرأيت النبى ﷺ يقلبها فى حجره ويقول: **«ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم، مرتين»**.

٤ - أبو الحسن على بن أبى طالب رضى الله عنه:

كان رضى الله عنه شخصية لها جاذبيتها وتأثيرها فى كل من يتعامل معها، وحسبه شرفًا ونبلاً أنه رُبِىَ فى بيت النبوة وأن النبى ﷺ ارتضاه زوجًا لابنته فاطمة الزهراء سيدة نساء

(١) الذين ينامون فى نصف النهار من القيلولة.

أهل الجنة، وأنه رضى الله عنه والد الحسن والحسين سيدى شباب أهل الجنة، رضى الله عنهم جميعًا.

وتلك مكانة لا تدانيها مكانة لأحد من المسلمين، صادفت من كان أولى بها من المسلمين؛ لذلك لم يكن مستغربًا على علىٍّ رضى الله عنه أن يكون من أعلم الصحابة بالدين، ومن أشجعهم ومن أحكمهم، ومن أحبهم إلى رسول الله ﷺ.

أما صفاته النفسية فهى فى الذُّرا من هذه الصفات، وسوف نكتفى بالحديث عن بعضها، لتكون مضرب المثل وموضع التدبر والتأمل للشباب والشيوخ على السواء.

- فهى نفس نقية صافية قوية الإيمان.

روى الترمذى بسنده عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال: لَمَّا كان يوم الحُدَيْبية خرج إلينا ناس من المشركين فقالوا: يا رسول الله، خرج إليك ناس من أبنائنا وإخواننا وأرقائنا، وليس لهم فقه فى الدين، وإنما خرجوا فرارًا من أموالنا وضياعنا؛ فارددهم إلينا؛ فإن لم يكن لهم فقه فى الدين سنفقههم، فقال النبى ﷺ: **«يا معشر قريش لتنتهُن أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين، قد امتحن الله قلبه على الإيمان،** قالوا: مَنْ هو يا رسول الله؟ فقال له أبو بكر: من يا رسول الله؟ وقال له عمر: من هو يا رسول الله، قال: **«هو خاصف النعل»** - وكان أعطى عليّا نعله يخصفها - ثم التفت إلينا علىٌّ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: **«من كذب علىَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»**

وليس أقوى إيمانًا ممن امتحن الله قلبه للإيمان، كما أخبر بذلك المعصوم ﷺ.

* وكيف لا يكون نقى النفس صافيها من يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، فقد روى الترمذى بسنده عن أبى ربيعة بن بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله أمرنى بحب أربعة وأخبرنى أنه يحبهم»** قيل: يا رسول الله، سَمِّهم لنا، قال: **«علىّ منهم يقول ذلك ثلاثًا، وأبو ذر والمقداد وسلمان، أمرنى بحبهم وأخبرنى أنه يحبهم»**.

- وهى نفس تَعَفُّ عن أموال فئ المسلمين مهما كثرتْ:

روى أحمد بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: جاءنى ابن النباح[1] فقال: يا أمير المؤمنين: امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء، فقال: الله أكبر. ثم قام متوكئًا على ابن النباح حتى قام على بيت المال فقال:

---

(١) هو عامر بن النباح مؤذِّن على بن أبى طالب رضى الله عنه.

هذا جناى وخياره فيه   وكلُّ جانٍ يَدُه إلى فيه

يا ابن النباح علىّ بأشياخ الكوفة، قال: فنودى فى الناس، فأعطى جميع ما فى بيت المال وهو يقول: يا صفراء، يا بيضاء غُرى غيرى، ها، ها، حتى ما بقى فيه دينار ولا درهم، ثم أمَرَ بنضحه، وصلى فيه ركعتين.

- وهى نفس ذات بأس وبسالة وشجاعة:

روى البخارى بسنده عن سهل بن سعد رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لأعطيَنَ غداً رجلاً يفتح الله على يديه**، قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «**أين علىّ بن أبى طالب**؟ فقالوا: يشتكى عينيه يا رسول الله قال: **فأرسلوا إليه فأتونى به**، فلما جاء بصق فى عينيه ودعا له خيراً حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية...»

وفى قصة فتحه لحصن خيبر بطولات معروفة لمعظم المسلمين.

٥- أبو محمد طلحة بن عبيد الله رضىَ الله عنه:

شهد طلحة أُحُدًا وأبلى فيها بلاء حسنًا، وثبت مع رسول الله ﷺ، ووقاه بيده فأصيبت يده فشُلَّت إصبعاه، وجرح يومئذ أربعًا وعشرين جراحة.

وقد أطلق عليه رسول الله ﷺ أسماء عديدة، ينبئ كل منها عن مكانة طلحة فى الإسلام.

* ففى يوم أُحُد سماه: «طلحة الخير».

وفى يوم غزوة ذات العشيرة سماه: «طلحة الفياض».

وفى ويوم حنين سماه: «طلحة الجود».

- ونفس طلحة رضى الله عنه نفس شجاع فدائى:

روى الترمذى بسنده عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم أحد: «**أوجب طلحة؛ حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع**؛ يعنى حين برك له طلحة فصعد رسول الله ﷺ على ظهره».

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان أبو بكر رضى الله عنه إذا ذكر يوم أُحُد قال: **ذاك كله يوم طلحة**.

- وهي نفس ذات سخاء عريض:

أخرج الطبراني - في الكبير - بسنده عن سُعْدَى بنت عوف امرأة طلحة - رضى الله عنهما قالت: لقد تصدق طلحة يومًا بمائة ألف، ثم حبسه عن الرواح إلى المسجد أن جمعت له بين طرفَيْ ثوبه.

وروى أحمد بسنده عن الحسن، أن طلحة بن عبيد الله باع أرضًا له من عثمان بسبعمائة ألف، فحملها إليه، فلما جاء بها قال: إن رجلاً تبيت هذه عنده في بيته لا يدرى ما يطرقه من أمر الله لغرير بالله.

فبات ورسله تختلف بها في سكك المدينة، حتى أسحر[1] وما عنده منها درهم.

٦- أبو عبد الله الزبير بن العوام رضى الله عنه:

هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى، أمه صفية بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ.

أسلم وأمه قديمًا، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين، ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ.

وهو أول من سل سيفًا فى سبيل الله، وثبت مع رسول الله ﷺ فى أحد وبايع على الموت.

ومن صفات نفسه كما دلت على ذلك أحاديث النبى ﷺ، ومواقف الزبير رضى الله عنه ما نذكر بعضه فيما يلى:

- نفسه رضى الله عنه جبلت على الشجاعة والفداء.

روى البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - قال: لما كان يوم الخندق ندب رسول الله ﷺ الناس، فانتدب[2] الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال رسول الله ﷺ: **«لكل نبى حوارى[3]، وحواريى الزبير»**.

وروى ابن الجوزى بسنده عن سعيد بن المسيب رضى الله عنه قال: أول من سلّ سيفًا فى سبيل الله الزبير بن العوام، بينما هو بمكة إذ سمع نغمة - أى صوتًا - أن النبى ﷺ قد

(١) أى دخل فى السَّحَر.
(٢) أى استجاب وأسرع فى الاستجابة.
(٣) الحوارى: الناصر المخلص.

قتل، فخرج عريانًا ما عليه شيء في يده السيف صَلْتًا، فتلقاه رسول الله ﷺ كفَّة بكفَّة[1]، فقال له: «مَا لك يا زبير؟ قال: سمعت أنك قد قُتلت. قال: «فما كنت صانعًا؟» قال: أردت والله أن أستعرض أهل مكة[2]، فدعا له النبي ﷺ.

- وهى نفس ذات سخاء وكرم:

روى الدارقطنى بسنده عن الأوزاعى عن نُهَيك قال: كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة، لا يدخل بيت ماله منها درهم. يقول: يتصدق بها.

وفى رواية أخرى فكان يقسمه كل ليلة، ثم يقوم إلى منزله ليس معه منه شيء.

وعن جويرية قالت: باع الزبير دارًا له بستمائة ألف، فقيل له: يا أبا عبد الله قد غُبِنْت، قال: كلا والله لتعلمن أنى لم أغبن، هى فى سبيل الله.

٧- أبو محمد عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه:

أسلم قديمًا قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين، وشهد المشاهد كلها، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد، وقد أصيب فى هذا اليوم فهتم، وجرح عشرين جراحة أو أكثر، أصابه بعضها فى رجله؛ فعرج.

* ومن صفاته النفسية الى دلت عليها كلمات النبى ﷺ، ودلت عليها مواقفه وتعامله، ما نذكر بعضه فيما يلى:

- كانت نفسه شديدة السخاء والكرم:

روى أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: بينما عائشة رضى الله عنها فى بيتها؛ إذ سمعت صوتًا رَجَّت منه المدينة، فقالت: ما هذا؟ قالوا: عِيرٌ قدمت لعبد الرحمن ابن عوف من الشام - وكانت سبعمائة راحلة، فقالت عائشة رضى الله عنها: أما إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رأيتُ عبدَ الرحمن بن عوف يدخل الجنة حَبْوًا**» فبلغ ذلك عبد الرحمن فأتاها فسألها عما بلغه، فحدثته، قال: فإنى أشهدك أنها بأحمالها وأقتابها وأحلاسها فى سبيل الله عز وجل[3].

---

(١) أى: ضَمَّةً بضمة كأن كل واحد منهما قد منع الآخر أى كفَّه.

(٢) أستعرض أهل مكة أى أقتلهم من أى وجه أمكننى ولا أبالى من قتلت.

(٣) القَتَب: الرحل، والحِلْس ما يلى ظهر الدابة تحت الرحل. والرَّحل ما يوضع على ظهر البعير للركوب، وكل ما يعد للرحيل من وعاء للمتاع وغيره.

– وهى نفس رقيقة وثيقة الصلة بالله تعالى:

روى البخارى بسنده عن سعد بن إبراهيم عن أبيه أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أُتَى بطعام وكان صائمًا، فقال: قتل مصعب بن عمير فهو خير منى فكُفِّن فى بردة، إن غُطى رأسه بدتْ رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا رأسه، وأراه قال: وقتل حمزة وهو خير منى، فلم يوجد له ما يكفَّن فيه إلا بردة.

ثم بُسط لنا فى الدنيا ما بُسط – أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا– وقد خشينا أن تكون حسناتُنا عُجِّلتْ لنا، ثم جعل يبكى، حتى ترك الطعام.

– وهى نفس تحسن توظيف المال فى الجهاد فى سبيل الله تعالى:

ذكر أبو الفرج بن الجوزى عن الزهرى قال: تصدق عبد الرحمن بن عوف على عهد رسول الله ﷺ بِشطْر ماله: أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألفًا، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل[1] على خمسمائة فرس فى سبيل الله تعالى، ثم حمل على ألف وخمسمائة راحلة[2] فى سبيل الله تعالى. وكان عامة ماله من التجارة.

٨– أبو أسحق سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه:

من بنى زهرة بن كلاب بن مُرَّة[3].

أسلم قديمًا، فقد حكى عنه أنه قال: كنتُ ثالثًا فى الإسلام، شهد المشاهد كلها، وهو أول من رَمى بسهم فى سبيل الله تعالى، وهو أحد أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ليختاروا من بينهم من يكون خليفة للمسلين بعد عمر رضي الله عنه.

* وأهم ما توصف به نفس سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه:

– أنها نفس ذات قدر عالٍ من الشجاعة والبسالة:

روى البخارى بسنده عن على رضى الله عنه قال: ما سمعتُ رسول الله ﷺ يُفَدِّى أحدًا بأبويه إلا سعد بن مالك، فإنى سمعته يقول له فى يوم أُحُد: **«ارم يا سعد فداك أبى وأمى»**.

---

(١) حمل على خمسمائة فرس: أى أعطاه فرسًا يركبه فى سبيل الله تعالى.

(٢) الراحلة من الإبل هى الصالحة للأسفار والأحمال، وقد قدمها تبرعًا فى سبيل الله ليحمل المجاهدون عليها ما يشاءون.

(٣) وهم آل آمنة أم الرسول ﷺ، فهم أخواله ﷺ.

وأخرجه مسلم فى فضائل سعد رضى الله عنه:

روى البخارى بسنده عن سعد بن أبى وقاص قال: إنى لأول العرب رمى بسهم فى سبيل الله، وكنا نغزو مع النبى ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة ما له خِلْط، ثم أصبحت بنو أسَد تعزرنى على الإسلام، لقد خبتُ إذًا وضل عملى» وكانوا وشوا به إلى عمر قالوا: لا يحسن يُصلِّى.

- وأنها نفس ذات ورع وتعفف وإجابة الدعاء:

روى الترمذى بسنده عن إسماعيل عن قيس بن أبى حازم عن سعد رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك» وفى رواية: «اللهم سدِّد رميته وأجب دعوته».

وعن طارق بن شهاب قال: كان بين خالد وسعد كلام، فذهب رجل يقع فى خالد أمام سعد، فقال له سعد: مَهْ إنّ ما بيننا لم يبلغ ديننا.

٩- أبو الأعور سعيد بن زيد رضى الله عنه:

من بنى عدىّ بن كعب - ابن عم عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما وزوج أخته فاطمة، وفى بيته كانت قصة إسلام عمر رضى الله عنه.

أسلم سعيد رضى الله عنه قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، وشهد المشاهد كلها ما عدا غزوة بدر، لأن الرسول ﷺ كان قد انتدبه مع طلحة بن عبيد الله ليتجسسا له خير عين قريش.. وقد فرض رسول الله ﷺ لهما بسهامهما وأجرهما كمن خرجوا معه لبدر.

* وصفاته وصفات نفسه واضحة فى سيرته ونذكر منها:

- نفسه ذات ورع وهو ممن يستجيب الله تعالى دعوته.

ذكر ابن الجوزى عن هشام بن عروة عن أبيه رضى الله عنه أن أروى بنت أويس استعدتْ مروان بن الحكم والى المدينة على سعيد بن زيد، وقالت: سرق من أرضى فأدخله فى أرضه. فقال سعيد رضى الله عنه: اللهم إن كانت كاذبة فأذهب بصرها، واقتلها فى أرضها، فذهب بصرها، ووقعتْ فى حفرة فى أرضها فماتت.

- وهي نفس ذات أمانة، وقدرة على شهادة الحق.

روى الترمذي بسنده عن عبد الله بن ظالم المازني عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أنه قال: أشهد على التسعة أنهم في الجنة، ولو شهدتُ على العاشر لم آثم، قيل: وكيف ذلك؟ قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ بحراء، فقال: «**اثبت حراء؛ فإنه ليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد**. قيل: ومن هم؟

قال: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف. قيل: **فمن العاشر**؟ قال: أنا.

١٠- أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح رضى الله عنه:

أسلم في زمن مبكر بعد ثلاثة عشر رجلاً أو أربعة عشر، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية.

وشهد بدرًا والمشاهد كلها، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد، ونزع يومئذ الحلقتين اللتين دخلتا في وجنة رسول الله ﷺ من حِلَق المِغْفر، فوقعت ثنيتاه فكان من أحسن الناس هتمًا.

* وصفات نفس أبي عبيدة رضى الله عنه عالية جليلة في قمتها الأمانة التي شهد له بها رسول الله ﷺ، ونذكر من هذه الصفات:

- أنها نفس أمينة بالغة الأمانة.

روى البخاري بسنده عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لكل أمة أمينًا، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح**».

وروى البخاري بسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأهل نجران: «**لأبعثن عليكم أمينًا حق أمين**» فأشرف أصحابه؛ فبعث أبا عبيدة رضى الله عنه.

وفي رواية لمسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه أن أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلاً يعلمنا السنة والإسلام، قال: فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «**هذا أمين هذه الأمة**».

- وهي نفس ذا ورع وزهد في الدنيا:

روى أحمد بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه رضى الله عنه قال: لما قدم عمر -رضى الله عنه- الشام تلقاه عظماء الناس، وعظماء أهل الأرض، فقال عمر رضى الله عنه: أين أخي؟ قالوا: من؟ قال: أبو عبيدة، قالوا: الآن يأتيك.

فلما أتاه نزل فاعتنقه، ثم دخل عليه بيته، فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ورحله، فقال عمر رضى الله عنه: ألا اتخذت كما اتخذ أصحابك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، هذا يبلغني المقيل.

- وهى نفس عادلة رحيمة ذات كفاءة فى قيادة الجيوش، ولاه عمر بن الخطاب قيادة الجيوش المتجهة إلى الشام، بعد خالد بن الوليد رضى الله عنه، فتم له فتح الديار الشامية وبلغ الفرات شرقًا، وآسية الصغرى شمالاً.

وقد رتب لكل هذه البلاد المرابطين والعمال.

وكان رفيقًا متأنيًا متواضعًا، ، فتعلقت به قلوب الناس لعدله ورحمته.

- وهى نفس موضع الثقة والاعتزاز.

روى أحمد بسنده عن شريح بن عبيد، وراشد بن أسعد وغيرهما قالوا:

لَمَّا بلغ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سَرْغ(١) حُدِّث أن بالشام وباءً شديدًا، فقال: بلغنى شدة الوباء بالشام فقلتُ: إن أدركنى أجلى وأبو عبيدة حيٌّ أستخلفه فإن سألنى الله عز وجل: لِمَ استخلفته على هذه الأمة؟ وفى رواية: على أمة محمد ﷺ؟ قلتُ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنّ لكل أمة نبى أمينًا، وأمينى أبو عبيدة بن الجراح»**.

وبعد فهذه صورة موجزة بل شديدة الإيجاز عن نفوس هؤلاء الصحابة العشرة المشهود لهم بالجنة على لسان من لا ينطق عن الهوى ﷺ، وهى النفوس التى حفظت لنا الإسلام مع معظم الصحابة رضوان الله عليهم، ونشروا به العلم والحضارة فى أكثر من نصف العالم المأهول بالسكان آنئذ على مدى أقل من نصف قرن من الزمان، وقد قيض الله تعالى لنا من العلماء والمؤرخين من حفظوا لنا تاريخ هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم(٢).

وفى فضل الصحابة جميعًا جاء قول الله تعالى فيمن يتبعون خاتم الرسل ﷺ:

﴿ ... فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

[الأعراف: ١٥٧]

---

(١) سرغ مدينة فى أول الحجاز وآخر الشام قرب تبوك قرية من الشام.

(٢) من الكتب الرائعة فى تاريخ الصحابة كتاب «حياة الصحابة» لمحمد يوسف كاند هلوى بن الشيخ الصالح العالم الفاضل محمد بن إلياس مؤسس جماعة التبليغ وإمام دعاتها عليه رحمة الله تعالى.

وروى الترمذى بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتين على أمتى كما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان فى أمتى من يصنع ذلك، وإن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا ملة واحدة»، قالوا: مَنْ هى يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابى».

وقال الله تعالى فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وروى أحمد بسنده عن عبد الله بن مغفل المزنى قال: قال رسول الله ﷺ: «الله الله فى أصحابى، الله الله فى أصحابى، لاتتخذوهم غرضًا بعدى، فمن أحبهم فبحبى أحبهم، ومن أبغضهم فببغضنى أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله تبارك وتعالى، ومَنْ آذى الله فيوشك أن يأخذه».

****

٤- وصفات نفوس المؤمنين المجاهدين

الأصل المتفق عليه المسلَّم به بين علماء المسلمين، أنّ المسلمين جميعًا مجاهدون فى سبيل الله تعالى؛ لأن الجهاد فرض على كل مسلم قادر عليه، بل هو ذروة سنام الإسلام.

وليس بمسلمٍ مَنْ عطَّل هذه الفريضة فلم يجاهد، والجهاد أنواع عديدة، وعلى المسلم أن يمارس كل نوع منها مادام قادرًا عليه، جهاد النفس والشيطان وجهاد المال وجهاد العلم وجهاد العدو، والجهاد بكلمة الحق عند السلطان الجائر، والمسلمون عليهم أن يمضوا على الجهاد حتى يوم القيامة لا يضرهم من خذلهم.

والإعداد للجهاد واجب بنص القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ....﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [التوبة: ٤١]

وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]

* وقدوة المسلمين جميعًا فى الجهاد بكل أنواعه هو رسول الله ﷺ، جهاد فى الدعوة إلى الله، وجهاد فى نشر الإسلام من خلال رسائله وبعوثه إلى الرؤساء والأمراء فى داخل الجزيرة العربية وخارجها، حتى بلغت أكبر دولتين فى العالم آنذاك: الروم والفرس.

ولقد كان لمن بعثهم رسول الله ﷺ إلى الملوك والرؤساء والأمراء وكسرى وهرقل وغيرهم، كان لهؤلاء المبعوثين مواقف عالية الذرا تدل على اعتزازهم بدينهم وعلى جهادهم من أجل هذا الدين كل أنواع الجهاد، لا يخافون فى الله لومة لائم.

* ولو شئنا أن نستقصى تلك المواقف ما استطعنا، بل لو شئنا أن نذكر عشرات الأمثلة فقط، لاتسع بنا القول واستطرد وخرج بنا عن سمت الكتاب ومنهجه، غير أننا نكتفى بثلاثة مواقف لبعض الصحابة رضى الله عنهم، ففى هذه الأمثلة العبرة التى نريد.

* ولقد وضع رسول الله ﷺ قانون الجهاد ونظامه وشرع أحكامه وآدابه وأخلاقياته كلها، وضع ذلك فى أكثر وصية أوصى بها المجاهدين.

- أخرج ابن عساكر بسنده عن عبد الرحمن بن عائذ رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث بعثًا قال: **«تألفوا الناس ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل بيت مدَرٍ ولا وبَرٍ إلا أن تأتونى بهم مسلمين أحب إلىّ من أن تأتونى بنسائهم وأولادهم وتقتلوا رجالهم»**.

- وأخرج أبو داود بسنده عن بريدة رضى الله عنه قال: كان رسول الله إذا بعث أمير سَرِيّة أو جيش أوصاه بتقوى الله فى خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين خيرًا، وقال: **«إذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتها أجابوك إليها فاقبل منهم وكفّ عنهم.**

- **ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوا فاقبل منهم وكفّ عنهم.**

- **ثم ادعهم إلى التَّحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم أنهم إن فعلوا ذلك، أن لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا فاختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى كان يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم فى الفئ والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين.**

- **فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكفّ عنهم.**

- **فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.**

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تنزل لهم على حكم الله فلا تنزلهم، فإنكم لا تدرون ما يحكم الله فيهم، ولكن أنزلوهم على حكمكم، ثم اقضوا فيهم بعدُ ما شئتم».

هذا الحديث الشريف جزء من قانون الجهاد فى الإسلام وأحكامه وآدابه وأخلاقياته، وهناك أحاديث نبوية أخرى تكمل هذا الحديث وتضيف إلى موضوع الجهاد فى الإسلام كل ما فيه من شروط وأحكام تتعلق بالقتال ونتائجه من صلح وأسرى وفداء. . . .(1).

* وصحابة رسول الله ﷺ هم المجاهدون معه والمؤمنون الذين جاءوا بعده ﷺ، هم المجاهدون الذين يؤدون فريضة الجهاد حتى تقاتل أمة منهم المسيح الدجّال، لا يضرهم من خذلهم.

(1) لمعرفة تفاصيل ذلك انظر للمؤلف: التربية الجهادية الإسلامية، نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

* ونحاول هنا أن نتكلم عن ثلاثة فقط من هؤلاء المجاهدين ممن كانت لهم المواقف التى يجب أن يقفها المجاهد فى سبيل الله مع أى عدو مشركًا كان أو من أهل الكتاب، محاولين أن نعرف نفوس هؤلاء المجاهدين من خلال كلماتهم ومواقفهم.

وهؤلاء الثلاثة هم:

أ- المغيرة بن شعبة رضى الله عنه[1]:

بدت معالم نفسه رضى الله عنه من خلال كلامه مع رستم قائد جيش الفرس وموقفه معه:

قال الطبرى: قال سيف بن عمر التميمى عن شيوخه: «ولما توجه الجيشان بعث رستم إلى سعد رضى الله عنه أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما أسأله عنه.

فبعث إليه المغيرة بن شعبة، فلما قدم إليه جعل رستم يقول له: إنكم جيراننا، وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا.

فقال له المغيرة: إنا ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً، قال له: إنى قد سلطت هذه الطائفة على من لم يَدِن بدينى فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ماداموا مقِرّين به، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذَلّ، ولا يعتصم به إلا عَزّ.

فقال له رستم: فما هو؟

فقال: أما عموده الذى لا يصلح شىء منه إلا به؛ فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله والإقرار بما جاء من عند الله.

فقال (رستم): ما أحسن هذا!!! وأى شىء أيضًا؟ قال (المغيرة): وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله.

---

(1) هو المغيرة بن شعبة بن أبى عامر بن مسعود الثقفى، ولد عام ٢٠ قبل الهجرة ومات سنة ٥٠ هـ، ويسمى مغيرة الرأى، أسلم سنة ٥ هـ وشهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام وذهبت عينه فى اليرموك، وشهد القادسية ونهاوند وهمدان وغيرها ولاّه عمر رضى الله عنه البصرة ثم عزله ثم ولاه الكوفة، وولاه عثمان رضى الله عنه الكوفة، واعتزل الفتنة أيام على ومعاوية - رضى الله عنهما -. ولاّه معاوية الكوفة وظل بها حتى مات. قال الشّعبى: دهاة العرب أربعة؛ معاوية للأناة، وعمرو بن العاص للمعضلات، والمغيرة للبديهة، وزياد بن أبيه للصغير وللكبير، وللمغيرة فى كتب السُّنَّة أحاديث نبوية رواها عن رسول الله ﷺ عددها ١٣٦ حديثًا.

قال (رستم): وحسن أيضًا، وأى شىء أيضًا؟

قال (المغيرة): والناس بنو آدم فهم إخوة لأب وأم.

قال (رستم): وحسن أيضًا، ثم قال رستم: أرأيت إن دخلنا دينكم أترجعون عن بلادنا؟

قال (المغيرة): إى والله، ثم لا نقرب بلادكم إلا فى تجارة أو حاجة.

قال (رستم): وحسن أيضًا.

ولما خرج المغيرة من عنده، ذَاكَر رستم رؤساء قومه فى الإسلام، فأنفوا ذلك، وأبوا أن يدخلوا فيه، قبحهم الله وأخزاهم وقد فعل».

* ونستطيع من خلال كلام المغيرة رضى الله عنه وموقفه أن نعرف معالم نفسه وما تكنه، فمن ذلك:

- أنها نفس متعلقة باليوم الآخر:

«إنا ليس طلبنا الدنيا وإنما همنا وطلبنا الآخرة»

ولقد صدق المغيرة رضى الله وأكد تعلق نفسه بالله وبالحق وبالدار الآخرة التى هى الحياة السرمدية، وقد كان المغيرة رضى الله عنه يصدر فى كلامه هذا عن قول رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «مَنْ كانت الآخرةُ هَمَّهُ، جعل الله غناه فى قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهى راغمة، ومن كانت الدنيا هَمَّهُ جعل الله فقره بين عينيه وفَرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له»

بهذا الهدى النبوى وبهذا المنطق كان الصحابة رضوان الله عليهم ينتصرون على الفرس والروم وغيرهم.

- ونفس المغيرة نفس قوية الإيمان موقنة بالنصر.

وقد اتضح ذلك فى استشهاده بقول الله تعالى عن المسلمين: «وأجعل لهم الغلبة ماداموا مقرِّين به، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذَلّ، ولا يعتصم به إلا عزّ».

إن المغيرة رضى الله عنه يوقن من خلال معايشته للنبى ﷺ واستماعه لما يقول وتدبره فيما يعمل وما يقرر وما يأمر به وما ينهى عنه.

المغيرة رضى الله عنه كغيره من الصحابة يدرك أن أسباب النصر فى كل معركة هى الإيمان والتمسك بالدين والحق، وحسن الإعداد والأخذ بالأسباب، وهكذا انتصروا

في معاركهم مع الأعداء، وملأوا بانتصاراتهم هذه الدنيا عدلاً وسماحة واحترامًا لحقوق الإنسان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٧ - ٩]

- ونفس المغيرة رضي الله عنه تؤمن بُحرية الإنسان وتوقن بوجوب تحرره من العبودية للعباد.

لذلك قال: «**إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، والناس بنو آدم فهم إخوة لأب وأم**».

وهي معان ترددت في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة، ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٦].

وروي الترمذي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة فقال: «يأيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بَرّ تَقِيّ كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي هذه النصوص الشريفة حَظْرٌ وتحريم لأي انتقاص من حرية الإنسان، ورفض لما كان عليه الناس من عبودية في ظل النظام الكسروي.

ب- رِبْعي بن عامر رضي الله عنه:[1]

بعثه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى رستم قائد الفُرس بناء على طلبه رجلاً آخر بعد المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، ليتحاور معه؛ فكان هذا الحوار، وكان رستم قد أحاط به أتباعه:

- **قالوا لربعي رضي الله عنه: ما جاء بكم؟**

(١) هو ربعي بن عامر بن خالد بن عمرو من أشراف العرب، فارس شجاع أَمَدَّ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه المثنى بن حارثة الشيباني. وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة رضي الله عنه بأن يجعل على مُجَنِّبَتي جيش العراق: عمير بن مالك، وربعي بن عامر ولربعي ذكر في غزوة نهاوند مع أميرها النعمان بن مقرن. رضي الله عنه، وولاه الأحنف بن قيس طخارستان.

- فقال ربعي: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أَبَى قاتلناه أبدًا حتى نُفْضِيَ إلى موعود الله.

- قالوا: وما موعود الله؟

- قال: الجنة لمن مات على قتال مَنْ أَبَى، والظَّفر لمن بقى.

- فقال رستم: قد سمعتُ مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟

- قال: نعم، كم أحب إليكم؟ يومًا أو يومين.

- قال (رستم): لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا.

- فقال: ما سنَّ لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.

- فقال (رستم): أسيدهم أنت؟

- قال: لا، ولكنْ المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم.

فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قطّ أعَزّ وأرجح من كلام هذا الرجل؟

فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الطلب! أما ترى إلى ثيابه؟

فقال (رستم): ويلكم لا تنظروا إلى الثياب وانظروا إلى الرأى والكلام والسيرة، إن العرب يستخفُّون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب».

* ومن كلمات ربعي بن عامر وموقفه أمام رستم، نستطيع أن نعرف صفات نفسه وما تنطوى عليه من قيم.

- إنها نفس قوية الإيمان بالله تعالى لا تتحرك إلا بأمره سبحانه وتعالى: «الله ابتعثنا».

فليست الحركة والحرب والقتال من أمر أحد، إنما هى فى الأصل من أمر الله، وما الخلفاء والقواد إلا منفذين لأمر الله تعالى وأمر رسول الله ﷺ.

- وهى نفس تعرف أهدافهـا من الحرب والقتال: والأهداف حددها الإسلام لكـل معركة، ولم تترك لاجتهادات الحكام والقواد وهى:

* إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله.

* وإخراجهم من ضيق الحياة إلى سعتها.

* ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

لتحقيق هذه الأهداف كانت تدور حـروب المسلمين، ولم تكن رغبة فى بسط النفوذ ولا الاستيلاء على خيرات البلاد(١).

- وهى نفس سوية تعرف الحق وتلتزم به:

وتخرج الناس من جـور الأديان إلى عدل الإسلام وتلك إرادة الله تعـالى لخاتم أديانه أن يكون دين العدل، وأن تتراوح الأديان قبله ما بين ظلم الفرد أو ظلم الجنس - أى الذكر والأنثى - أو ظلم العِـرق، وإنما كـانت الأديان السابقـة على هذا النحـو من الظلم لأن الذين استحفظوا عليها حرفوها وبدلوها.

ولقد رأى رِبْعى رضى الله عنه جور الأديان فى الجزيرة العربية قبل الإسلام، ورأى جور الأديان فى فارس وغيرها من البلاد التى ذهب إليها مجاهدًا، فأيقن بعدل الإسلام، فدعا له وجاهد فى سبيله، وكانت له تلك الشجاعة التى واجه بها رستم قائد جيش الفرس.

جـ- عمرو بن العاص بن وائل السهمى رضى الله عنه:(٢)

أخرج ابن جـرير من طريق سيف بن عمر الـتميمى عن أبى عـثمان عن خالد وعـبادة رضى الله عنهما قـالا: خرج عمرو بن العـاص رضى الله عنه إلى مصر بعدمـا رجع عمر

(١) كانت ومـازالت أهداف الحروب عند الغرب، وفى مـقدمتـه أمريكا هى بسط النفوذ وفـرض النظم والعادات الغربيـة والاستيلاء على جـميع المقدرات الاقتـصادية للبلد الذى يحاربونه، كـما كان الأمر فى تفـتيت دولة الخلافة العثمانية، وفى العدوان العسكرى على أفغانستان والعراق، والبوسنة والهرسك وكوسوفو وألبانيا.

(٢) هو عمـرو بن العاص السهـمى القرشى أبو عبـد الله (٥٠ ق.هـ - ٤٣هـ/ ٥٧٤ - ٦٤٤م) فاتح مصـر، وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولى الرأى فيهم، وهو صاحب حزم ومكيدة. أسلم فى هدنة الحديبية، وولاه النبى ﷺ إمرة جيش ذات السلاسل، وأمدَّه ﷺ بأبى بكر وعمر رضى الله عنهما، ثم استعمله على عمان، وكان من أمراء الجهاد بالشام فى خلافـة عمر رضى الله عنه، وولاه عمر فلسطين ثم مصر وهو فاتحهـا، وعزله عثمان رضى الله عنه، فلما كانت الفتنة انحـاز إلى معاوية فولاه مصر سنة ٣٨هـ وأطلق له خراجهـا ست سنوات، فجمع أموالاً طائلة وتوفى بالقاهرة، وله فى كتب السنة ٣٩ حديثًا. وكان مضرب المثل فى الفصاحة قال الجاحظ: كان عمر بن الخطاب إذا رأى الرجل يلجلج فى كلامه قال: خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد.!!!

رضى الله عنه إلى المدينة حتى انتهى إلى أليون[١]، واتبعه الزبير فاجتمعا رضى الله عنهما، فلقيهما هناك أبو مريم جاثليق مصر - أى رئيس النصارى فيها -، ومعه الأسقُف فى أهل النِّيَات - أى الذين ينوون الحرب -، بعثه المقوقس لمنع بلادهم، فلما نزل بهم عمرو رضى الله عنه قاتلوه، فأرسل إليهم: لا تعجِّلونا لنعذر إليكم وترون رأيكم بعد، فكفُّوا أصحابهم وأرسل إليهم عمرو رضى الله عنه: إنى بارز، فليبرز إلىّ أبو مريم وأبو مريام، فأجابوه إلى ذلك وأمَن بعضهم بعضًا.

- فقال لهما عمرو: إن الله عز وجل بعث محمدًا ﷺ بالحق وأمره به، وأمرنا به محمد ﷺ، وأدى إلينا كل الذى أُمِرَ به، ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته، وقد قُضى الذى عليه وتركنا على الواضحة. وكان مما أمرنا به الاعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثْلنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية، وبذلنا المنعة، وقد أعلمنا أنا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظًا لرحمنا فيكم[٢].

ومما عهد إلينا أميرنا: استوصوا بالقبطيين خيرًا، فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيرًا لأن لهم رحمًا وذمّة.

- فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء، معروفة شريفة، كانت ابنة ملكنا وكان من أهل منف والمُلك فيهم، فأديل عليهم أهل عين شمس فقتلوهم وسلبوا ملكهم واغتربوا، فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام، مرحبًا به وأهلاً، آمِنًا حتى نرجع إليك.

- فقال عمرو: إنّ مِثْلَى لا يُخدع، ولكنى أؤجلكما ثلاثًا لتنظروا ولتناظروا قومكما وإلا ناجزتكم.

- فرجعا إلى المقوقس فهمّ، فأبى «أرطبون» أن يجيبهما وأمر بمناهدتهم.[٣]

- فقالا (أبو مريم وأبو مريام) لأهل مصر: أما نحن فسنجهد أن ندفع عنكم، ولا نرجع إليهم، وقد بقيت أربعة أيام فلا تصابون فيها بشىء إلا رجونا أن يكون له أمان.

---

(١) ألْيون: اسم مدينة مصر قديمًا.

(٢) لرحمنا فيكم: حيث كانت هاجر أم إسماعيل عليه السلام من الأقباط المصريين.

(٣) أرطبون قائد رومي كان في فلسطين فهزمه عمرو رضى الله عنه فيها، ففر إلى مصر، ويضرب به المثل فى الدهاء.

- فلم يفجأ عمرًا والزبير رضى الله عنهما إلا البيَات من فَرْقب[1]، وعمرو على عُدَّة فلقوه، فقُتِل ومَن معه، ثم ركبوا أكساءهم،[2] وقصد عمرو والزبير رضى الله عنهما إلى عين شمس.

ولما نزل عمرو رضى الله عنه على القوم بعين شمس، قال أهل مصر لملكهم: ما تريد إلى قوم فَلَّوا كسرى وقيصر، وغلبوهم على بلادهم، صالِحْ القوم واعتقد[3] منهم، ولا تعرض لهم ولا تعرضنَّا لهم، وذلك في اليوم الرابع، فأبى وناهدوهم فقاتلوهم، وارتقى الزبير رضى الله عنه سورها، فلما أحسّوه فتحوا الباب لعمرو رضى الله عنه، وخرجوا إليه مصالحين، فقبل منهم، ونزل عليهم الزبير رضى الله عنه عَنْوةً.

* ولنا فى كلمات عمرو رضى الله عنه وفى موقفه ما يدلنا على نفس هذا الفاتح العظيم وما تنطوى عليه من قيم:

- فهى نفس ذات فهم عميق للدين وذات ولاء له:

«إن الله بعث محمدًا بالحق... وتركنا على الواضحة».

إنه رضى الله عنه يردد بثقة وإيمان وولاء ما جاء فى القرآن الكريم وفى سنة النبى ﷺ ويجرى ما جاء فيهما على لسانه، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩، والتوبة: ٣٣].

وروى الإمام مالك بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه خطب الناس فقال: أيها الناس قد سُنَّتْ لكم السنن وفرضتْ لكم الفرائض، وتُرِكْتم على الواضحة إلا أن تضلوا بالناس يمينًا وشمالاً..»

وروى أحمد بسنده عن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجل منها القلوب قلنا: يا رسول الله، إن هذه موعظة مودّع فماذا تعهد إلينا؟ قال: **«قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنهما بعدى إلا هالك...»**

---

(١) فرقب: أحد قوادهم وقد هاجم المسلمين ليلاً.
(٢) الأكساء: مؤخرة الدواب.
(٣) أى تعاقد معهم بعهد.

- وهى نفس ذات عدل ورحمة:

«وكان مما أَمَرنا به الإعذار إلى الناس»

فلا يجوز مهاجمتهم دون الإعذار إليهم فلا غدر ولا بَيَات كما فعل الروم بعمرو، وإنما العدل أن يعذر القائد المسلم إلى الناس، وأن يدعوهم وأن يخيرهم قبل قتالهم.

«وإن أميرنا عهد إلينا: استوصوا بالقبطيين خيرًا».

وهذا عدل وتلك رحمة يترجم فيها عمرو رضى الله عنه ما جاء فى الكتاب والسنة.

فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

وروى أحمد بسنده عن أبى ذرّ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط[١]، فإذا افتتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا - أو قال: ذمة وصهرًا».

- وهى نفس طائعة لله ولرسوله، ملتزمة بحب الموادعة وتؤثرها على المفاجرة والحرب.

ودليل ذلك أنه رضى الله عنه زادهم يومًا رابعًا فى التشاور لما طلبوه فوق الثلاثة الأيام للإنذار.

وما حاربهم إلا بعد أن عذر به أحد قادة الروم، فكان مستعدًا لذلك وقاتلهم.

وبعد: فتلك صفات نفوس المجاهدين من المسلمين، وهى نفوس - كما رأينا - بعيدة كل البُعْد عن الأمراض النفسية والعقد التى تحكم معظم قادة الجيوش من غير المسلمين.

حيث يمارس هؤلاء القادة الذين لا يحكمهم دين ولا خلق أخسّ الأساليب الحربية والقتالية وأبعدها عن الإنسانية عمومًا، والعدل والرحمة على وجه الخصوص، كما فعلوا فى كثير من بلدان العالمين العربى والإسلامى بعد تآمرهم على إسقاط دولة الخلافة العثمانية، وكما يفعلون بغير حياء فى أفغانستان والعراق، وكما فعلوا فى البوسنة والهرسك وكوسوفو وألبانيا، وكما يفعلون فى السجون والمعتقلات بمن قبضوا عليهم دون أن يكونوا محاربين أسرى.

---

(١) القيراط: معيار فى الوزن، وفى القياس. وهو فى الوزن أربع قمحات، وفى وزن الذهب خاصة ثلاث قمحات، وفى القياس جزء من أربعة وعشرين من الفدان، ويساوى مائة وخمسة وسبعين مترًا.

وقمة هذا التنكر للإنسانية وللأعراف الدولية ما فعله وبفعله الغرب وإسرائيل وأمريكا... في فلسطين، والعالم لا يملك أن يعترض أو يظهر استياء، لأن جميع الدول تعلم اليوم أنها إن اعترضت على وحشية الولايات المتحدة الأمريكية وعنصرية حكومتها وتطرفها، سوف ينتظرها مصير كمصير فلسطين أو أفغانستان أو العراق، لأن العالم يعلم علم اليقين ما تدبر الحكومة الأمريكية لإيران وللسودان وللبنان وسوريا، ولكثير من بلدان العالم الإسلامي!!!

****

٥- وصفات نفوس أهل الكتاب

أهل الكتاب هم: اليهود والنصارى، فاليهود أهل التوراة، والنصارى أهل الإنجيل، والتوراة والإنجيل كتابان سماويان أنزل الله أولهما على موسى وآخرهما على عيسى عليهما السلام.

وأهل الكتاب آمن منهم بموسى وعيسى من آمن، وكفر منهم من كفر، وآمن بمحمد منهم من آمن وكفر منهم به من كفر.

* وأهل الكتاب منهم الربانيون والأحبار الذين استحفظهم على التوراة والإنجيل، فما حفظوهما، وأما القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية فقد تكفل سبحانه وتعالى بحفظه.

وكثير من أهل الكتاب كفروا بما أنزل على محمد ﷺ واتهموه بباطل الاتهامات، بل حاول اليهود منهم قتله أكثر من مرة، وخاسوا بعهده معهم دائمًا، وألَّبوا عليه المحاربين من كل جانب حتى جمعوا ضده الأحزاب.

* ومن مقولات أهل الكتاب:

- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣].
- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ...﴾ [المائدة: ١٨].
- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].
- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا...﴾ [المائدة: ٦٤].
- ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

إلى آخر ما قاله أهل الكتاب من باطل وبهتان، ومع كل هذا الباطل والبهتان فإن الرسول ﷺ لم يعاملهم إلا بما أوجبه عليه الله تعالى من التعامل، كما تدل على ذلك آيات قرآنية عديدة.

* ومقولات أهل الكتاب هى التى تكشف عن نفوسهم وما تضمره هذه النفوس، وما سجله القرآن الكريم عليهم من كلمات ومواقف، هو ما نحاول أن نعرف منه دخائل هذه النفوس.

* ولقد جمعت من آيات القرآن الكريم خمسة وثلاثين موضعًا تحدث فيها القرآن الكريم عن أهل الكتاب يهود ونصارى معًا، أو تحدث عن كل منهما على حدة.

وهذه المواضع الخمسة والثلاثون، ضمت مئات الآيات القرآنية؛ التى وصفت - فدققت واستوعبت - نفوس أهل الكتاب. ولهذه الآيات القرآنية الكريمة أهداف إنسانية تربوية توجه الناس وترشدهم إلى سواء السبيل.

ومن هذه الأهداف:

- أن يرى الناس فى كل زمان ومكان حقيقة نفوس أهل الكتاب، وعن أى دوافع تصدر أقوالهم وأعمالهم.

- وأن يعرف الناس قدر الخلل والانحراف الذي عبرت عنه نفوس أهل الكتاب فى تنكرهم لما أنزل الله عليهم من كتب، وما أرسل إليهم من رسل.

- وليتدبر الناس فى تسلل الشر إلى نفوس أهل الكتاب وليقفوا على حقيقة أسبابه، ليتحاشوه فى حياتهم.

- وليعلم الناس كيف أصيب كثير من اليهود والنصارى بالغرور، وباختلال الرأى والرؤية عندما قالوا بأنهم أبناء الله وأحباؤه.

- وليعدل الناس فى حكمهم على أهل الكتاب وعلى نفوسهم حتى لا يقع الناس فيما وقع فيه أهل الكتاب من إضمار الشر والحسد للمؤمنين.

ونستعين الله تعالى فى استعراض هذه الآيات الكريمة:

* فمما جاء عنهم فى سورة البقرة:

١- قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٣ - ٦٦].

ومن صفاتهم النفسية فى هذه الآيات الكريمة:

- التولى عما أمر الله به ومن الحق الذى أنزل إليهم، على الرغم مما ينعم الله عليهم به من نعم وتفضل.

- وهم لا يتعظون على الرغم مما يرون من عذاب الله تعالى وتنكيله بالمكذبين ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً...﴾ فهى نفوس تتولى عن الحق، ولا تتعظ بما يحيط بها أو ينزل ببعضها من عقاب، غرورًا وجهلاً.

٢- وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

[البقرة: ٦٧ - ٧٥]

وصفاتهم النفسية فى هذه الآيات الكريمة هى:

- التردد والشك وتكذيب موسى عليه السلام، وزعمهم أنه يهزأ بهم.

- التضييق على موسى عليه السلام، والتعنت فيما يطلبون منه، فلما أجابهم ذبحوا البقرة، وقد كادوا ألا يذبحوها لكثرة ما تعنتوا مع نبيهم عليه السلام.

- وكتمانهم الحق بعدما عرفوه، بكتمانهم الإدلاء بالقاتل عصيانًا وتعنتًا.

- وقساوة القلوب حتى تصبح أقسى من الحجارة.

- وتحريف أحبارهم لكلام الله على الرغم من سماعهم له ومعرفتهم به، وعلمهم أنه الحق ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

٣- وقال عز وجل: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٧٦ - ٨٢].

وأبرز صفاتهم النفسية في هذه الآيات الكريمة هي:

- أنهم يعلنون الإيمان أمام المؤمنين، وعندما يخلو بعضهم إلى بعض يتواصون بغش المسلمين وكتمان الحق عنهم، وهذا الحق هو ما جاء في التوراة من وصف محمد ﷺ حتى لا يعطوا المسلمين حجة عليهم.

- وأن من اليهود من هم جهلة أميون، يلفق لهم الأحبار عن التوراة ما ليس فيها غشًا لهؤلاء الجهلة.

- وأنهم يتقولون على الله تعالى ما لم يقل، لقاء ثمن بخس، فمنهم من يلفق في التوراة وهم الأحبار، طمعًا في مال زهيد، مما ينفي عنهم الأمانة نفيًا قاطعًا.

- وأنهم يزعمون -كما أوهمهم أحبارهم - بأن نار جهنم لن تمسهم إلا أيامًا معدودة مهما ارتكبوا من المعاصي، وهم في ذلك كذبة يفترون على الله ما لم يقله أو يتعهد به.

٤- وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [٨٣ - ٨٦].

وصفاتهم النفسية فى هذه الآيات منها:

- أنهم دأبوا على ارتكاب الآثام ونقض المواثيق، على الرغم من أن الله تعالى قد أخذ عليهم المواثيق فى التوراة بألا يعبدوا وإلا الله، وأن يحسنوا إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، وأن يتعاملوا مع الناس بالكلام الطيب الذى لا ينفر أحدًا، وأن يؤدوا ما فرض الله عليهم من صلاة وزكاة. لكنهم تولوا عن كل ذلك ونقضوا موثقهم مع الله تعالى. فتلك صفاتهم الملازمة لهم.
- وأن نفوسهم تعيش على المغالطات والتضليلات؛ فقد أُخذ عليهم الميثاق فى التوراة ألا يقتل بعضهم بعضًا، وألا يخرج بعضهم بعضًا من ديارهم، فنقضوا هذا الموثق، وقتلوا، وأخرجوا.
- وأنهم مخادعون يفكون أسراهم بدعوى أن التوراة أمرتهم بذلك!!! أو لم تأمرهم أسفارهم فى التوراة بعدم قتل إخوانهم وعدم إخراجهم من ديارهم؟ إن ذلك يعنى أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ولهم على ذلك أشد العذاب.
- ومن طبائعهم أنهم يفضلون متاع الدنيا الزائل على الآخرة ونعيمها الدائم، وسوف يعذبون على تلك المعاصى والآثام.

٥- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا

فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧ - ٩٦].

وتلك الآيات الكريمة حافلة بتحديد صفات اليهود فى مجالات عديدة نذكر منها:

- أنهم أهل عناد وتكذيب لرسولهم موسى عليه السلام، وأهل عناد وتكذيب لعيسى عليه السلام بعد عدد من الرسل بينه وبين موسى، فكان من طبائعكم أنه كلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم وأثرتم الضلال على الهدى وكفرتم فلعنكم الله بكفركم.

- وكانت تلك قصتهم فى تكذيب محمد ﷺ الذى جاء بالقرآن مصدقًا لما معهم من الكتب، وقد كانوا من قبل يُدِلُّون على المشركين بل يهددونهم بأن الله سيبعث رسولاً بعد عيسى وأنه سينصرهم على المشركين، ومع ذلك فقد كذبوا محمدًا وعاندوه وألبوا عليه الأعداء وحاولوا قتله أكثر من مرة، فاستحقوا بذلك لعنة الله تعالى لعنادهم وجحودهم وزعموا أنهم لا يفهمون ما جاء به ﷺ.

- وأنهم مغرورون، ناقمون أن الله تعالى أرسل محمدًا من غير اليهود، وهذا أسوأ الكفر؛ لأنهم لا يسلمون لله تعالى بحرية اختيار رسله، فرجعوا من جراء فعلتهم هذه بغضب الله عليهم غضبًا بعد غضب، لآثامهم العديدة.

- ونفوسهم تنطوى على المغالطة، فإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله - أى ما جاء به محمد ﷺ - ضللوا وقالوا: نحن نؤمن بما أنزل علينا، مع أنهم بكفرهم بالقرآن المصدق لما فى كتبهم كفروا بكتبهم نفسها، وذلك شأن من يقتلون الأنبياء، وما هم بمؤمنين بأى كتاب ولا أى دين.

- وأنها نفوس ألفت الكفر وتحدى الأنبياء، فلقد أشركوا بالله تعالى فى عهد موسى عليه السلام فعبدوا العجل، ورأوا فى التوراة تكاليف شاقة وارتابوا فيها، ولقد أراهم الله تعالى إذ رفع جبل الطور فوق رءوسهم، فظنوا أنه واقع عليهم، وحينئذ أعلنوا القبول فقالوا: آمنا وسمعنا، فلما أزال الله تعالى التهديد عنهم عادوا إلى الكفر والتكذيب.

- وأنها نفـوس جُبلت على الكذب والتضليل إذ زعـموا أن الله تعالى سوف يخصـهم وحدهم بنعيم الجنة بعد موتهم، وقـد كذبهم الله تعالى فى دعواهم تلك بأن يتمنوا الموت ويحبوا لقاءه، حتى لا يبطئ عنهم هذا النعيم المزعوم.

- ومن صفاتهم النفسـية المتأصلة فيهم حرصهم الشديد على الحـياة الدنيا عزيزة كانت هذه الحيـاة أو ذليلة. لذلك فإن أحـدهم يود لو يعمـر ألف سنة، ولن يبـاعد طول عمره بينه وبين العذاب الذى يجازى الله به من كفروا به وبرسله.

٦- وقال جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ٩٩ - ١٠٥].

* وهذه الآيات الكريمة توضح جوانب مما تنطوى عليـه نفوس أهل الكتاب وتكشفـها أمام الناس ليكونوا منهم على حذر، ومن ذلك:

- أنهم معاندون خارجون على سنة الفطرة السوية التى يؤمن صاحبها بما جاءه به الرسول من بينات، فمن لم يؤمن بذلك فهو فاسق، فنفوسهم فاسقة خارجة من فطرتها.

- وأن نفوسهم مـذبذبة فى الإيمان لا تستقر عليه بحال، ومـذبذبة فى العهود والمواثيق، ﴿ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ لأن معظمهم لا يؤمن بالله ولا بعهد أو ميثاق، كأن ذلك لم يرد فى كتبهم، مع أنه قد ورد.

- وهى نفوس أسرع إلى تصديق الشـياطين والفجرة منها إلى تصديق الحق، فـمزاعمهم فى سليمـان عليه السلام ما يوحى لهم بهـا إلا الشياطين والفجـار من الناس، حيث زعموا أنه عليه السلام لم يكن نبيًا أو رسولاً وإنما كان ساحرًا يستمد هذه الخوارق من

سحره؛ كتسخير الطير والرياح والجن حتى نسبوا الكفر لسليمان عليه السلام، ولكن الكافرين هم الشياطين والفجرة الذين اتهموا سليمان عليه السلام بالسحر، ولقد أخذ هؤلاء الشياطين يعلمون الناس السحر من عندهم حينًا، ومن آثار ما أنزل ببابل على الملكين هاروت وماروت، مع أن هذين الملكين ما علما أحدًا السحر حتى حذروه من أثر هذا السحر وما يجلبه من فتنة وكفر، والسحر ضار ولكن ضرره لا يكون إلا إن أذن الله.

فاليهود آثروا السحر والباطل والتفريق بالسحر بين المرء وزوجه، آثروا ذلك على نعيم الآخرة ولبئس ما اختاروا.

- وأنها نفوس لا تؤمن بالله ولا تتقيه، مع أنها لو آمنت واتقت، لكان خيرًا لها ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣].

- وأنها نفوس شريرة تتلاعب بالألفاظ بقصد الإساءة إلى رسول الله ﷺ، فنُهي المسلمون عن مخاطبة الرسول ﷺ بما كان يخاطبه به اليهود؛ استهزاء وإضمارًا للسخرية كقولهم للرسول ﷺ: «راعنا» فهم في لغتهم تعني: اسمع لا سمعتَ، أو تعني: راعينا، ولليهود على ذلك عند الله عذاب عظيم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾.

- ونفوسهم ونفوس المشركين سواء في أنهم يحبون الضرر للمسلمين، ولا يحبون أن ينزل على المسلمين خيرٌ من ربهم، والله سبحانه لا يقيم لهم وزنًا ويختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

٧- وقال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾
وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ
وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ
تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ
﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ
الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي
جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ
أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي
أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا
يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٠٩ – ١٢٣].

* وفي هذه الآيات من صفات نفوس أهل الكتاب يهود ونصارى ما نشير إلى بعضه فيما يلي:

- نفوس أكثر اليهود؛ لما بها من شر وحسد، تَوَد أن ترد المسلمين إلى الكفر بعد أن منَّ الله عليهم بالإيمان، مع تأكدهم من خلال كتابهم أن المسلمين على حق، ولن يصلوا إلى ذلك، لأن الله تعالى سوف يمكن المؤمنين منهم ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم...﴾.

- وهى نفوس تكثر من الادعاءات وتعيش على الأباطيل والأمانى الكاذبة، فهم يزعمون أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على دينهم «اليهودية أو النصرانية» وما يملكون على هذا الادعاء من دليل أدنى دليل، وإنما هى أمانى النفوس المريضة الأنانية، ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ...﴾.

- ومن دلائل مرض نفوس أهل الكتاب ومرض نفوس المشركين أنهم يخوض بعضهم فى بعض، ويتهم كل طرف منهم الطرف الآخر بأنه ليس على شىء من الحق، وهم فى الواقع قد صدقوا فى هذه الاتهامات، فليس منهم طائفة على الحق، وسوف يتبين لهم ذلك حينما يحكم الله بينهم يوم القيامة فيما كانوا يختلفون فيه فى الدنيا، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

- ومن أمراض نفوسهم أنهم خربوا معابد الطوائف الأخرى، وأن المشركين منعوا المسلمين من المسجد الحرام، وذلك منهم جميعًا من أشد أنواع الظلم؛ لأنهم بذلك يحولون دون ذكر الله تعالى فى أماكن العبادة، فهم يخربون هذه الأماكن، وكل ذلك باطل منهم على كل وجه، فالراغب فى عبادة الله تعالى يعبده فى أى مكان فهو سبحانه له المشرق والمغرب، والتوجه إليه يكون من كل مكان.

- وهى نفوس جاهلة لا تتدبر ولا تتأمل بل لا تفكر فى عظيم شأن الله وفى واسع ملكه وفى طلاقة قدرته، فتزعم أنه سبحانه يحتاج لنسل أو يحتاج إلى اتخاذ ولد!!! إذ كيف يحتاج إلى ذلك من أبدع السموات والأرض، وأذعن جميع مخلوقاته لإرادته؟ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾.

- وهى نفوس تفكر فى تحدى الرسل عليهم السلام فيما جاءوا به قبل أن تفكر فى الاهتداء بما يقوله الرسول عليهم السلام، فهم يتحدون الرسل أن يأتوهم بآيات ليؤمنوا وما هم بمؤمنين، حتى لو جاءتهم الآيات فهم والمشركون فى ذلك سواء، مع أن الله تعالى كلف رسله بتبليغ دينه ودعوته ولن يحاسبهم الله على كفر الكافرين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

- ونفوس أهل الكتاب ذات عناد وتضليل إلا قليلا منهم، فهم لا يؤمنون بخاتم الأنبياء محمد ﷺ حتى يتبع هو ملتهم التى يزعمون أنها الحق، غير أنّ منهم من تفقهوا فى كتبهم وأسفارهم، وفطنوا إلى ما دخلهما من تحريف وتبديل، فأمنوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

- ونفوس اليهود تجحد نعم الله الوفيرة على اليهود، ابتداء من إخراجهم من ظلم فرعون، واعطائهم المنّ والسلوى، وبعث عديد من الأنبياء فيهم، إلى تعليمهم الكتاب، وتفضيلهم وقتًا من الزمان على سائر الناس فى جعل مصدر النبوات منهم، وكان عليهم شكر هذه النعم بالإيمان بالله وتقواه وخوف اليوم الآخر، ولكنهم لم يفعلوا ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا...﴾.

٨- وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٥ - ١٣٨].

* وتوضح هذه الآيات الكريمة من صفات أهل الكتاب ما نشير إلى بعضه فيما يلي:

- أن نفوسهم ذات لجاجة وتبجح بحيث يزعم كل فريق منهم أن ملته هي الملة المُثلى، فيقول اليهود للمسلمين: كونوا يهودًا تهتدوا إلى الطريق القويم، ويقول لهم النصارى: كونوا نصارى تهتدوا إلى الحق، وكل منهم يغالط ويتبجح؛ فالمسلمون يعرفون أنَّ كُتُب أهل الكتاب قد حُرِّفت وخرجت عما أنزلها الله عليه وخالطها الشرك، وبعدت تمامًا عن ملة إبراهيم عليه السلام، التي يحييها المسلمون من جديد.

- وهي نفوس معاندة ترفض الإيمان بالقرآن وبما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وبنيه الأسباط، كما ترفض الإيمان بالتوراة والإنجيل قبل تحريفهما، وترفض الإيمان بما أوتي النبيون من ربهم، ويرفضون المساواة بين الأنبياء وإنما يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.

- وهي نفوس تحب أن ترفض الإيمان الحق، وتؤثر أن تعيش حياتها في نزاع وخلاف، وأن الله تعالى سوف يكفي النبي الخاتم ومن آمنوا معه ضرر لجاجهم وشقاقهم، لأن المسلمين لا يخضعون إلا لله ولا يهتدون إلا بهديه.

٩- وقال الله عز وجل: ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [البقرة: ٢١١].

* وفي هذه الآية الكريمة تحديد لصفة لصيقة ببني إسرائيل هي:

- تبديل الغرض من نعمة الله عليهم بأن أرسل إليهم موسى عليه السلام يهديهم إلى الإيمان، وإلى الله سبحانه وتعالى، فجعلوا لك النعمة كفرًا، وبُعْدًا عن الله وعن الحق، لذلك نسوا أن الله تعالى شديد العقاب، وأنه سبحانه وتعالى مُعاقبهم على هذا التبديل للغرض والهدف من النعم.

١٠- وقال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [٢٤٦ - ٢٥١].

* وقد تحدثت هذه الآيات الكريمة عن نفوس بنى إسرائيل وهى تُقص قصتهم مع نَبِيٍّ لهم من بعد موسى عليه السلام، طلبوا منه أن يختار مَلِكًا يقاتلون أعداءهم تحت لوائه... ومن هذه الصفات لنفوسهم:

- الكذب والجبن والتولى، وقد كان نبيهم يشعر بهذه الصفات فيهم فسألهم مستوثقًا منهم: أتقاتلون إن كتب الله عليكم القتال؟ فاستنكروا أن يقع منهم ترك القتال وذكروا أسباب ذلك: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

- وهى نفوس دأبت على الاعتراض على اختيار الله تعالى واختيار نبيهم عليه السلام عندما أخبرهم بأن الله تعالى قد اختار لهم طالوت يقودهم فى القتال لما يحمله من مؤهلات قيادية، ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ

الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

- وهى نفوس ضعيفة كثيرًا ما تفشل - إلا قليلاً منهم - فى الاختبار، فقد أخبرهم قائدهم بأن الله سوف يختبر صبرهم وإيمانهم بنهر يمرون عليه وليس لأحد منهم أن يشرب منه إلا غرفة بيده، فمن شرب أكثر من ذلك فلن يشارك فى الحرب، فشربوا منه مخالفين عصاةً إلا قليلاً منهم، وقد قاتل هؤلاء القلة الصابرة فشاء الله لهم أن يغلبوا الكثرة الكافرة، لأن نصر الله يكون دائمًا مع الصبر والطاعة والدعاء، حيث هزموا أعداءهم وقتلوا قائد الكفار، والله سبحانه ذو فضل على العالمين ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩ - ٢٥١].

* ومما جاء عنهم فى سورة آل عمران:

١- قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٩ - ٢٢].

* وقد جمعت هذه الآيات الكريمة من صفاتهم النفسية ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

- هى نفوس ترغب فى الخلاف وتحبه على الرغم مما أعطاهم الله من أنبياء، وما تفضل عليهم به من الكتب، وما ذلك إلا للتحاسد والتطاول وجحد الحق، لأن الدين عند الله

هو الإسلام أى توحيد الله تعالى والخضوع له فى إخلاص: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ...﴾ [آل عمران: ١٩].

- وهى نفوس تجادل خاتم الرسل ﷺ فى الدين، بعد أن اتضحت لهم الدلائل، فهم مجادلون بالباطل، وما على الرسول الخاتم إلا أن يبلغهم رسالة الله، ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

- وهي نفوس متمردة تكفر بآيات الله وتقتل الأنبياء، بل تقتل كل آمر بالقسط داع إلى الهدى، لهؤلاء العذاب الأليم وحبوط العمل فى الدنيا والآخرة، وليس لهم من ينصرهم أو ينقذهم من هذا العذاب وذلك الخسران: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢١، ٢٢].

٢- وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣ - ٢٥].

* وفى هذه الآيات الكريمة من صفاتهم النفسية ما نذكر بعضه فيما يلى:

- هى نفوس تعرض عن الحق إن دُعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم، على الرغم من أن الله تعالى أعطاهم نصيبًا من الكتاب كفيلاً بهدايتهم ولكنهم يعرضون دائمًا، لأنهم -وهم يهود- يزين لهم هذا الإعراض أمانى باطلة إذ يزعمون أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة غرورًا منهم، فماذا يفعلون حينما يعذبون لإعراضهم عن الحق وعن كتاب الله الخاتم؛ القرآن الكريم؟ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣ - ٢٥].

٣- وقال جل وعلا: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

(٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤ - ٧١].

* وفى هذه الآيات الكريمة من صفات أهل الكتاب النفسية:

- هى نفوس تتولى عن اتباع الحق، وعن عبادة الله وحده وترك الشرك به، واتخاذ الأرباب من دونه سبحانه وتعالى فى التحليل والتحريم، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

- وهى نفوس تجادل بالباطل فى أن إبراهيم كان يهوديًا أى على دين اليهود ودينهم التوراة، وهو جدال مبنى على المغالطة إذ ما أنزل الله التوراة إلا من بعد موسى، وموسى بعد إبراهيم عليهما السلام، فلم يكن إبراهيم عليه السلام على دين اليهود ولا على دين النصارى، وما كان من المشركين، ولئن جادلتم فى أمر موسى وعيسى عليهما السلام، فكيف تجادلون فى أمر إبراهيم؟ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٧].

٤- وقال جل وعلا: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].

* وفى هذه الآية الكريمة وصف لنفوس أهل الكتاب بأنهم:

- يودون دائمًا أن يضلوا المؤمنين ويفتنوهم عن دين الحق الذى اتبعوه بإثارة الشبهات التى تزعزع الاعتقاد، وهم بذلك لا يضلون إلا أنفسهم على وجه الحقيقة، ولا يلحقون بالمؤمنين أدنى ضرر.

٥- وقال جل شأنه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [٧٠- ٧٤].

* وفي هذه الآيات الكريمة من صفات أهل الكتاب النفسية:

- أنهم كَذَبَة يكتمون آيات الله المنزلة عليهم الدالة على صدق محمد ﷺ، وهم يعلمون ذلك، لكنهم يصرون على أن يلبسوا الحق بالباطل ويكتموا الحق، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠، ٧١].

- وأنّ طائفة من أهل الكتاب تعمد إلى الخداع والنفاق إذ طلبتْ منهم أن يؤمنوا بما أنزل على المؤمنين أول النهار وأن يكفروا به آخر النهار، لعلهم يفتنون عن دينهم ببث هذه الريب والشكوك، ولا تذعنوا إلا لمن كان على دينكم خشية أن يدعى أحد أنه أوتي مثل ما أوتيتم، وهم في ذلك جد مخطئين لأن الهدى هدى الله يعطيه من شاء من عباده، ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ....﴾ [آل عمران: ٧٢ - ٧٤].

٦- وقال الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَٰئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥ - ٧٨].

* وهذه الآيات الكريمة جمعت من صفات أهل الكتاب النفسية ما نشير إلى بعضه فيما يلي:

- نفوسهم مريضة بالاستعلاء على غيرهم يقينًا منهم أنهم أفضل من سائر الناس، فهم يرون أنهم اليهود وأن سائر الناس أميون لا يجب أن ترعى لهم حقوق ويزعمون أن ذلك التميز من عند الله، وهم يعلمون أنهم كاذبون، لأن الوفاء بالعهد أدبيًا كان العهد أو ماليًا فهو شرع الله في كل دين، ومن لم يكن كذلك من عباد الله لا نصيب لهم في متاع الآخرة، ولا ينظر إليهم الله يوم القيامة ليرحمهم ولا يغفر لهم آثامهم، بل لهم عذاب مستمر الإيلام: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٥ - ٧٧].

- ومن أهل الكتاب فريق يحترف التزوير، ولَيَّ اللسان بالكلمة ليظن السامع أنها من كتاب الله وما هو منه في شيء، مع ادعائهم أن هذا من عند الله وما هو من عند الله فهم يكذبون على الله وعلى أنفسهم ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

٧- وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨١- ١٨٣].

* وفي الآيات من صفاتهم النفسية، ما نذكر بعضه فيما يلي:

- هي نفوس مريضة تحب التهكم حتى لو كان على الله تعالى، لأن الله تعالى في ظنهم وباطلهم فقير إذ يطلب منهم أن يقرضوه، ولكنهم أغنياء ينفقون أو لا ينفقون، ولقد سمعهم الله وسجل عليهم هذا التهكم والبهتان، كما سجل عليهم قتلهم للأنبياء وسوف يحاسبهم ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا

وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨١، ١٨٢].

- وهى نفوس تبالغ حتى تخرج عن المألوف فى طلب الأدلة على صدق من يدعوهم إلى الله وإلى الحق، زاعمين إن الله أمرهم بذلك مع أنهم طلبوا مثل ذلك من رسل سابقين فأجابوهم ومع ذلك كذبوهم وقتلوهم!!! ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

٨- وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

* وهذه الآية الكريمة توضح صفة نفسية لأهل الكتاب هى:

- نفوس تصر على خلف العهد ونبذ الميثاق، فقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يوضحوا للناس ما فى الكتاب الذى أعطاه لهم؛ لما فى ذلك من خير الناس، ولكن أهل الكتاب نبذوا هذا العهد وذلك الميثاق، واستبدلوا به متاع الدنيا، وهو متاع بخس مهما كان لأنه فى مقابل الهداية.

مجمل صفات أهل الكتاب:

وبعد، فلقد تتبعت كل آية فى القرآن الكريم تحدثت عن أهل الكتاب، فوجدتها مئات الآيات الكريمة، فآثرت أن أرصد صفاتهم النفسية فى هذه الآيات الكريمة، مكتفيًا بذلك عن سرد كل هذه الآيات الكريمة، والله أسأل أن أكون فى هذا من الموفقين.

ومجمل صفاتهم فى هذه الآيات الكريمة نذكر أهمها فى خمس وأربعين صفة توضح فى مجملها صورة واضحة المعالم لهذه النفوس، وهذه الصفات هى:

١- الإعراض والتَّولِّى عما أمرهم الله به على ألسنة الأنبياء والمرسلين، وبخاصة خاتمهم محمد ﷺ.

٢- ورفض الاتعاظ بما حدث للمعذبين قبلهم بسبب كفرهم وعصيانهم لله ورسوله.

٣- والتردد والشك وتكذيب موسى عليه السلام وزعمهم أنه يهزأ بهم.

٤- وقساوة القلوب حتى لتصبح أقسى من الحجارة.

٥- وتحريف بعض أحبارهم لكلام الله، مع علمهم بأنه الكلام الحق.

٦- والغش وكتمان الحق، وكتمان ما هو فى صالح المسلمين من التوراة.

٧- والجهل والغفلة، حيث يخدعهم أحبارهم وهم لا يدرون أو لا يفقهون.

٨- والتقول على الله بما لم يقل.

٩- وادعاؤهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة.

١٠- واعتيادهم الوقوع فى الآثام ونقضهم العهود.

١١- والمغالطة والتضليل.

١٢- والتحايل والخداع.

١٣- وتفضيل متاع الدنيا وهو زائل على الآخرة الباقية.

١٤- وعنادهم الرسل عليهم السلام جميعًا من موسى عليه السلام إلى محمد ﷺ.

١٥- والنِقمة على أى رسول،ليس منهم.

١٦- واستمرار التحدى للأنبياء والرسل عليهم السلام.

١٧- والكذب على الله تعالى بادعائهم أنه سوف يخصهم بالجنة دون سواهم.

١٨- وحرصهم على الحياة الدنيا مهما تكن دنيئة.

١٩- والخروج على سنن الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

٢٠- والتذبذب أى عدم الاستقرار على الإيمان والحق.

٢١- وسرعة تصديق الشياطين والفجار والسحرة، واتهام سليمان عليه السلام بأنه ساحر.

٢٢- والبعد الشديد عن الإيمان بالله وتقواه.

٢٣- والتلاعب بالألفاظ إضمارًا للشر، ورغبة منهم فى الاستهزاء بمن يخاطبون.

٢٤- وحبهم الشديد الإلحاق الضرر بالمسلمين، وبخاصة اليهود منهم.

٢٥- وعملهم على تخريب معابد الطوائف الأخرى.

٢٦- وجهلهم المطبق فى زعمهم أن لله تعالى ولدًا، حيث ادعت يهود عزيرًا ابنًا لله، وادعت النصارى المسيح ابنًا له سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا.

٢٧- ورفض هداية الأنبياء والرسل رفضًا فيه وقاحة.

٢٨- وجحد نعم الله تعالى عليهم وهى كثيرة.

٢٩- واللجاجة والتبجح.

٣٠- ورفض الإيمان بكل نبى وبخاصة خاتمهم ﷺ.

٣١- وتحويرهم وتبديلهم الغرض من النعم التى أنعم الله بها عليهم.

٣٢- والجبن والتولى فى الحروب.

٣٣- والاعتراض على اختيار الله تعالى لأنبيائه ورسله وقادة المعارك فى سبيل الله.

٣٤- والفشل والخيبة فى الاختيار عندما يترك لهم الاختيار فى أى موقف.

٣٥- وحب الخلاف، والرغبة الملحة فى زرعه بين الناس إيثارًا للشر والتطاول على الناس.

٣٦- وحبهم للجدال بالباطل.

٣٧- والتمرد وعدم الرضا، كفرًا منهم بآيات الله تعالى وواضح بيناته.

٣٨- وقتل كل نبى من أنبياء الله تعالى جاءهم بما لا تهوى أنفسهم، وقتل الآمرين بالقسط من الناس.

٣٩- والإعراض عن الحق، على الرغم من ظهوره.

٤٠- واتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله بطاعتهم، والانصياع لما يطلبون منهم، وذلك يكون دائمًا بعد توليهم عن اتباع الحق.

٤١- والجدال بالباطل وبغير علم، كدعواهم أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًا، أو نصرانيًا، مع أن التوراة والإنجيل ما أنزلتا إلا من بعده عليه السلام.

٤٢- والعمل على فتنة المؤمنين بصرفهم عن دينهم الحق الذى اتبعوه وآمنوا به.

٤٣- والاستمرار فى التهكم والسخرية من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

٤٤- والمبالغة فى طلب الدلائل من الرسل على صدقهم فى نبوتهم.

٤٥- والإصرار على خلف الوعد ونقض العهد والميثاق.

إلى غير ذلك من صفات يجمع بينها أنها صفات رذلة حرم الله تعالى على عباده أن يتصفوا بها، وجاء تحريمه هذا فى كل كتاب من كتبه السماوية.

****

٦- وصفات نفوس المنافقين

المنافقون شريحة فى المجتمع الإنسانى، قلما خلا منها مجتمع فى ماضى الناس وحاضرهم ومستقبلهم.

والمنافق مريض نفسيًا ليس لديه ثقة فى نفسه ولا فى موقفه، يهاب الناس ويحاول استرضاءهم بإظهار ما يرغبون فيه من صفات ينبغى أن تكون فى المنافق.

* والنفاق فى حقيقته هو: الدخول فى الشرع من باب والخروج منه من باب آخر، وهو صفة ذميمة معدودة فى الرذائل بل فى أرذل الرذائل، ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى المنافقين بالفاسقين لخروجهم عن الدين وعن الحق وعن الإخلاص، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [التوبة: ٦٧].

* وجعل الله تعالى المنافقين شرًا من الكافرين، وجعل لهم فى جهنم دركة أسفل من دركة كل عاص وآثم، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً** ﴾ [النساء: ١٤٥].

* وقد وصفت آيات القرآن الكريم نفوس المنافقين وصفًا دقيقًا شاملاً مستوعبًا كل ما فى هذه النفوس من خبث، ولقد جاءت هذه الآيات الكريمة ذات عدد كبير، حتى إن سورة من سور القرآن الكريم سميت سورة (المنافقون) تحدثت عنهم فى آيات ثمان متعاقبة، سنذكرها بإذن الله فى ترتيبها بين سور القرآن الكريم التى ورد لهم فيها ذكر.

ومن هذه الآيات الكريمة:

١- قول الله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ**

وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٨ - ٢٠].

* وقد أوضحت هذه الآيات من صفات نفوس المنافقين ما نشير إلى بعضه فيما يلي:

- أنهم أصحاب نفوس مريضة، وعلامة مرضها أن أصحابها يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وهذا هو النفاق، ويظهرون الإيمان وليسوا بصادقين فيما أظهروا، وهذا أيضًا من النفاق، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

- وأن نفوسهم تمارس الخداع، تخدع المؤمنين وتظن أنها بذلك تخدع الله تعالى، فهم يتوهمون أن الله تعالى غير مطلع على خفاياهم، وما أضمروا من شر وخداع، وهم في الواقع إنما يخدعون أنفسهم، وما يشعرون بذلك غفلة منهم وجهلاً ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

- وهي نفوس تحمل الحسد والحقد على أهل الإيمان فهي مريضة فاسده العقيدة، وقد زادهم الله مرضًا بأن نصر الحق وأهله، وهذا بحد ذاته، ما يؤذيهم ويزيدهم غلاً وحسدًا وحقدًا، ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]

- وهي نفوس مغالطة مضللة مغرورة؛ فإذا قال لهم أحد المؤمنين: لا تفسدوا في الأرض بالصد عن سبيل الله، وبنشر الفتنة والحرب زعموا أنهم مصلحون مع أنهم هم المفسدون، ولكن غرورهم يجعلهم لا يشعرون، وإذا قال لهم أحد المؤمنين آمنوا وأخلصوا كما يؤمن العقلاء من الناس، تهكموا على من قال لهم ذلك قائلين: لا يليق بنا أن نتبع هؤلاء الجهلاء ضعاف العقول الذين آمنوا، وفي الحق ما من جهلاء سفهاء سواهم ولكنهم لغرورهم لا يعلمون ذلك أيضا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٣].

- وهى نفوس تظهر خلاف ما تبطن، فإذا لقى هؤلاء المنافقون المؤمنين المخلصين **قالوا** لهم: نحن مؤمنون مثلكم ومعكم فى اعتقادكم، وإذا انصرفوا عنهم **قالوا لأصحابهم** الأشرار: إنا معكم على طريقتكم، وإنما قلنا ما قلناه للمؤمنين **استهزاء بهم، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾** [البقرة: ١٤، ١٥].

- وهى نفوس اختار أصحابها الضلال على الهدى، فكانوا كتاجر خائب **خسر تجارته، أو** كانوا كمن عطلوا حواسهم من سمع وبصر وكلام، أو كمن دهمه **الرعد والبرق** والمطر فتصور أنه يتقى ذلك بوضع إصبعيه فى أذنيه، وقد جاء **القرآن الكريم لهؤلاء** المنافقين بما يهديهم إلى سواء السبيل، ولكنهم اختاروا **الضلال على الهدى فاختاروا** العذاب على المغفرة، **﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [البقرة: ١٦ - ٢٠].

٢- وقوله عز وجل: **﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** [آل عمران: ١٦٧، ١٦٨].

* وفى هاتين الآيتين الكريمتين من صفات نفوس المنافقين:

- أنهم أصحاب نفوس كاذبة مضللة منافقة، إذ قيل لهم يوم أحد حين **انصرفوا عن** القتال تعالوا قاتلوا طاعة لله أو دفاعًا عن أنفسكم، فقالوا- كاذبين-: **لو نعلم أنكم** ستلقون قتالا لذهبنا معكم، وهم بهذا القول الكاذب **أقرب إلى الكفر منهم إلى** الإيمان، حيث يقولون بأفواههم: ليس هناك حرب مع **يقينهم أنها كائنة واقعة.**

على أنهم زادوا من نفاقهم وكذبهم إذ قالوا لإخوانهم الذين خرجوا **وقاتلوا وقتلوا: لو** أطاعونا وقعدوا لنجوا من القتل كما نجونا، وقد **غفلوا عن سنن الله فى كونه وفى**

مخلوقاته، ومن سننه التى عبَّر عنهـا رسوله الخاتم الذى لا ينطق عن الهوى أن الحذر لن يمنع القدر: ، فـيما رواه أحـمد بسنده عن معـاذ رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ: «لن ينفع حذر من قَدَر،ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم بالدعاء عباد الله».

٣- وقوله جل وعلا: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً (٦٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾ [النساء: ٦٠ - ٦٣].

* وفى هذه الآيات من صفات نفوس المنافقين:

- أنها نفـوس كاذبة يدعى أصحابهـا أنهم صدَّقوا بما أنزل على النبى ﷺ، وصـدَّقوا بما أنزل من قبله من الكتب راغبين فى أن يتحاكـموا فى خصوماتهم إلى حكم غير الله، وهو حكم الطواغيت وما فيه من فساد وضـلال، ويريد الشيطان الذى يتحاكمون إليه أن يضلهم أبعد الضلال.

- وأنها نفوس لا تقبل الحق وإنما تصد عنه، فإذا قـيل لهؤلاء المنافقين تعالوا إلى ما أنزل الله من قرآن وشريعة رأيتهم يصدون عن ذلك كل الصدود.

- وأنها نفوس ضعيفة لا مصداقية لهـا فى موقف، فإذا أصابت هؤلاء المنافقين، مصيبة بسبب ما قدمت أيديهم جاءوا إلى رسول الله ﷺ يحلفون له أنهم ما يريدون بأقوالهم إلا الإحسان وطلب التـوفـيق، والله يعلم حقـيـقة مـا فى قلوبهم، ويعلم كـذبهم ونفاقهم، فلا تلتفت أيها الرسـول إلى ما يقولون، وواصل دعوتهم إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة والقول الحكيم البليغ الذى يصل إلى أعماق نفوسهم.

٤- وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا

أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٤٦].

* هذه الآيات الكريمة تحدثت عن كثير من صفات نفوس المنافقين فعددت منها ما نشير إليه فيما يلى:

- هى نفوس غارقة فى الأخطاء، التى تتسبب لها فى الضرر بفقد العزة والوقوع فى الذلة والمهانة:

* فهى تخطئ حين تتخذ الكافرين أولياء لها ونصراء، مع ترك اتخاذ الأولياء من المؤمنين، وتلك سنة المنافقين قديمًا وحديثًا.

* وتخطئ هذه النفوس حينما تطلب العزة من هؤلاء الكافرين، لأنهم لن يعطوهم العزة لعلمهم بنفاقهم، والمنافق متقلب ضعيف يحوِّل ولاءه من وقت إلى آخر.

* وتخطئ هذه النفوس عندما تجهل أن العزة لله جميعا يعطيها لعباده المؤمنين، فمن اعتز بالله عزَّ ومَن اعتز بغيره ذلّ. ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾.

- وهى نفوس مريضة تتفق مع الكفار فى الاستهزاء بآيات القرآن الكريم إذا سمعتها، وقد حرم الله تعالى ذلك وأوعد عليه العقاب، ونهى المؤمنين عن أن يقعدوا فى مجالس يُستَهزأ فيها بآيات الله تعالى، ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾.

- وهى نفوس كاذبة مضللة، يحقدون على المسلمين ويضللونهم، فإن انتصر المؤمنون فى معركة قالوا لهم: ألم نكن معكم؟ وإن غَلَب الكافرون المسلمين، قالوا للكافرين:

ألم نمنحكم مودتنا وتأييدنا، ونحميكم من المؤمنين، وهم كذبة فى المقولتين لأنهم منافقون، ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾.

– وهى نفوس جاهلة غافلة تظن أنها بنفاقها تخدع الله تعالى وتخفى عنه حقيقة مشاعرها ونواياها، والله تعالى يمهلهم ثم يحاسبهم، ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾.

– ومن صفات نفوسهم المرئية المحسوسة أنهم يقومون إلى الصلاة كسالى متباطئين مرائين، ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾.

– ومن نفوسهم غير المرئية لأنهم يضمرونها أنهم لا يذكرون الله إلا فى أحيان نادرة، ولو ذكروه لتركوا النفاق، ﴿ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾.

– وهى نفوس ضعيفة الإيمان ضالة عن الحق تتردد فى ولائها؛ فتوالى المؤمنين حينًا، وتوالى الكافرين حينًا، ولا تعرف لها سبيلاً تسير فيه «مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ضالين تائهين، ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾.

– وهى نفوس تتخذ للنفاق سببًا هو إعطاء الولاء لغير المؤمنين، وعلى المؤمنين أن يكونوا على حذر من هذه الصفة وإلا وقعوا فى النفاق، وجعلوا لله تعالى عليهم حجة حين يعذبهم على ذلك، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾.

– وهى نفوس جديرة بأشد العذاب لنفاقها، وأشد العذاب هو أعماق جهنم أى أحط دركاتها، ولن يجدوا من يحول بينهم وبين ذلك ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾.

٥- وقول الله جل وعلا: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٩].

* وهذه الآية الكريمة تكشف عن صفة فى المنافقين هى:

- أن نفوسهم خاوية وخالية من أى أحترام للأديان عمومًا، وللدين الخاتم خصوصا، إذ عندما يرون المسلمين مقدمين على المعارك غير هيًّا بين معتمدين على الله متوكلين عليه، يقولون عندئذ عن المؤمنين: ﴿غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ جاهلين غافلين عن أن من يتوكل على الله ويعتمد عليه فإن الله تعالى يكفيه ما أهمه من المعارك وينصره على أعدائه.

٦- وقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبه: ٧٣ - ٨٥].

* وفى هذه الآيات الكريمة توضيح لنفوس المنافقين فى مختلف المواقف التى تمر بهم، ومن ذلك:

- أن نفوسهم كاذبة وقلوبهم حاقدة، ولا يتحرجون من الحلف بالله كذبًا، ولقد هموا بقتل رسول الله ﷺ، فحفظه الله منهم، وكان حقدهم على المؤمنين بسبب ما أفاء الله

عليهم من الغنائم التي شاركوا فيها المسلمين، وهم بهذه الصفات جديرون بأن يعذبهم الله في الدنيا والآخرة ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ [التوبه: ٧٤]

– ونفوس المنافقين تتعاهد وتنقض عهودها، وهي بخيلة منصرفة عن الخير معرضة عن الله تعالى، وكل هذه الصفات من غدر وبخل وإعراض عن الخير والحق تمكّن النفاق من أنفسهم فيصبح لازمًا لهم، فكيف يتجاهلون أن الله تعالى مطلع عليهم وعلى أسرارهم؟ فمحاسبهم على نفاقهم ومعاقبهم ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة: ٧٥ – ٧٨].

– وهي نفوس مريضة عيَّابة، تعيب على الموسرين من المسلمين تصدقهم على المحتاجين، وتسخر من غير الموسرين من المؤمنين لتصدقهم مع قلة أموالهم، وهم بهذه الصفات مهما طلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم فلن يغفر الله لهم لسوء أعمالهم وكفرهم، ونفاقهم، مهما أكثر الرسول ﷺ من الاستغفار لهم ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٧٩، ٨٠].

– وهي نفوس ذات لؤم ورغبة في خذل الحق وأهله، وفرح بهذه الصفات الراذلة التي أهمها القعود عن المحاربة في صف رسول الله والمؤمنين والضحك والفرح بذلك، ومن أجل هذا منع الله رسوله من قبولهم في صفوفه، بل منعه من الصلاة عليهم بعد موتهم، ومنعه من الوقوف على قبورهم عند دفنهم، لأنهم عاشوا كافرين أو منافقين وماتوا خارجين عن دين الله ونظامه، ويخاطب الله تعالى نبيه قائلا: ولا يثير عجبك أيها الرسول ما أعطيناهم من الأموال والأولاد مع سخطنا عليهم، فليس ذلك منا إلا لإشقائهم في الدنيا بالانهماك في جمع المال وما يصاحب ذلك من هموم، فهم ذلك

يخسرون الدنيا والآخرة، ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨١ - ٨٥].

٧- وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٦، ٨٧].

* وفي هاتين الآيتين الكريمتين وصف لنفوس المنافقين بصفة خطيرة داعية إلى سخط الله تعالى عليهم وهي:

- أن نفوسهم تهوى أن تخالف ما أنزل الله على رسوله الخاتم ﷺ، فكأن المخالفة لأمر الله تعالى طبع فيهم، فعندما تنزل آية فيها طلب الإخلاص في الإيمان والجهاد في سبيل الله يطلبون أن يُتركوا مع من تخلفوا عن القتال من النساء والأطفال والعجزة الذين لا يستطيعون قتالاً وهم من أهل الأعذار، مع أن المنافقين وهم يطلبون التخلف عن القتال هم أقدر على القتال لغناهم وقوتهم، فهم لا يفقهون ما في الجهاد في سبيل الله من عز الدنيا ورضوان الله تعالى في الآخرة.

٨- وقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ

(٧) ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ١ - ٨].

* وفى هذه السورة القرآنية التى سميت بـ«المنافقون» وفى الآيات الثمانى التى تمثل معظمها إذ مجموعها إحدى عشرة آية حديث عن عدد من صفات نفوس المنافقين، نذكرها فيما يلى والله المستعان:

- من صفاتهم النفسية أنهم يعلنون إيمانهم بألسنتهم، ويشهدون للرسول ﷺ بالرسالة وهم كاذبون، وما أنت أيها الرسول بحاجة إلى ذلك منهم لأن الله تعالى يعلم إنك لرسوله ويشهد إن المنافقين لكاذبون، ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

- وهى نفوس ذات جبن وخوف من مواجهة الحقيقة إذ يحلفون متخذين أيمانهم وقاية لهم من وصف الكفر وتحمل تبعات هذا الوصف والمؤاخذة عليه، وهم بذلك قد صدوا أنفسهم عن سبيل الله، فكان عملهم ذاك أقبح عمل، نفاق وأيمان كاذبة، ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢].

- وهى نفوس جاهلة تجهل ما يضرها، وما ينفعها، إذ تؤمن بألسنتها والإيمان محله القلب، وما ذلك إلا لفرط جهلهم حتى طبع الله على قلوبهم بسبب كفرهم فأصبحوا لا يفقهون ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾.

- وهى نفوس يخدع ظاهرها عن باطنها، فمن رآهم أعجبته أجسامهم، ومن سمعهم أعجبه مزوّقُ كلامهم، ومع ذلك فليست هذه حقيقتهم لأن قلوبهم خلو من الإيمان فهم خُشُب مسنَّدة لا حياة فيها.

وهم مع ذلك جبناء يحسبون كل نازلةٍ نازلةً عليهم لشعورهم بجبنهم وحقيقة حالهم.

وهم بهذه الصفات ألد أعداء المسلمين فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل، وعلى المسلمين أن يحذروهم دائمًا، فهؤلاء أعداء الله تعالى طردَهم من رحمته بسبب زَرِيّ أعمالهم ورذائل أخلاقهم؛ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]

- وهى نفوس جوفاء مُضَلِّلَة، إذا قيل لهم- من باب النصح- تعالوا يستغفر لكم رسول الله سوءَ ما تفعلون استكبروا ولووا رءوسهم إظهارًا لاستغنائهم عن استغفار الرسول ﷺ، مع أن الله تعالى قد قضى أن لا يغفر لهم لعلمه بسيئ أعمالهم وخروجهم عن دينه ونظامه، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٥، ٦].

- وهى نفوس تكيد للإسلام ورسوله وللمؤمنين، ويريدون أن يُخَذِّلوا عن المؤمنين كل من يوالونهم ويدعونهم إلى عدم الإنفاق على المؤمنين لكى ينفضوا عن رسول الله ﷺ، جاهلين أن الأرزاق بيد الله تعالى يعطيها من يشاء.

ومن إضمار الشر للمؤمنين أن المنافقين يقولون متوعدين المؤمنين، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن فريقنا الأعزُّ فريق المؤمنين الأذلَّ، ممعنين بمقولتهم تلك فى جهل مطبق وضلال بعيد، ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٧، ٨]

وبعد: فهذه صفات نفوس المنافقين فصَّلَتْ الحديث عنها آيات القرآن الكريم ليعرفها الناس، وليجتنبوا أن يقعوا فى النفاق، وكل مسلم معرض للنفاق، روى البخارى قال: قال ابن أبى مُلَيكة(١): أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل، وعن الحسن: ما خافه إلا مؤمن، وما أمنه إلا منافق(٢).

****

(١) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبى مليكة (توفى ١١٧هـ) من مكة من بنى تيم من رجال الحديث الثقات، ولاه عبد الله بن الزبير قضاء الطائف.

(٢) البخارى: صحيحه . كتاب الإيمان: باب خوف المؤمن أن يحبط عمله.

٧- وصفات نفوس الكفار والمشركين

* الكُفْر فى اللغة: سَتْر الشىء.

والكافر على إطلاقه هو من: يجحد الوحدانية أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثتها.

ووصفَ الليلُ بالكافر لأنه يستر الأشخاص.

وسمى الزُرّاع كفارًا لأنهم يسترون البذور فى الأرض.

- وأعظم الكفر: جحود وحدانية الله تعالى، أو جحود الشريعة، أو جحود النبوة، أو جحود الثلاثة معًا.

- ولَما جُعل كل فعل محمود من الإيمان، جُعِلَ كل فعل مذموم من الكفر، فيقال مثلا: الأمانة من الإيمان والخيانة من الكفر وهكذا...

* والشرك نوعان:

- الأول: الشرك العظيم، وهو إثبات شريك لله تعالى، وذلك أعظم كفر، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦].

- والآخر: الشرك الصغير، وهو: مراعاة غير الله معه فى بعض الأمور، وهو الرياء والنفاق المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

ومن الشرك الصغير ما رواه الحكيم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «**الشرك فى أمتى أخفى من دبيب النمل على الصفاة**»

* ولفظ الشرك من الألفاظ المشتركة:

- فقد يكون بمعنى الكافر، كما فى قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة: ٥]، فالفقهاء أكثرهم يحملونه على الكفار جميعًا.

- والمشركون هم مَنْ عَدا أهل الكتاب، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]. فأفرد المشركين عن اليهود والنصارى.

* ونحن فى هذا المجال من الكتاب نجمع بين الكفار والمشركين، لما بينهما من تشابه فى الوقوف ضد الله ورسوله، وضد الإيمان وضد الإسلام وضد المسلمين، بل ضد أنفسهم.

* والآيات القرآنية التى ورد فيها حديث عن الكفر والكفار والشرك والمشركين كثيرة لا نستطيع أن نذكرها جميعًا، لكن نذكر بعضها، ونوضح ما جاء فيها عن وصف نفوسهم والله المستعان.

أولاً: الآيات التى ورد فيها الكفر وما اشتق من لفظه، والصفات التى وَصَفَتْ نفوس هؤلاء الكفار:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]

- وصفتهم النفسية فى هذه الآية الكريمة هى:

رفض الإيمان والإعراض عن الحق، والعناد، ومخالفة الرسول الذى أنذرهم ﷺ.

٢- وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

- وقد وصفت الآية الكريمة نفوس هؤلاء الكافرين بأربع صفات هى:

* صُمّ الأذان من الحق الذى يُدْعون إليه.

* وعُمْى البصائر عن الهدى الذى يقدم إليهم.

* وخُرْس الألسنة لا ينطقون بخير.

* ولا يصدرون عن عقل كأنهم بغير عقول.

وكل الكافرين لهم هذه الصفات، وربما كان فى بعضهم ما هو أكثر من هذا كما سنرى.

٣- وقال عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

- وفى هذه الآية وصف لنفوس هؤلاء الكفار هو:

* أن نفوسهم قد زينَّ الشيطان لها الحياة الدنيا وشهواتها ومباهجها، فانكبوا عليها ناسين الحياة الأخرى، غفلة منهم وجهلاً وضلالاً إذ آثروا الفانى على الباقى.

* وأن نفوسهم يسيطر عليها الشر، فيسخرون من الذين آمنوا لأنهم منشغلون بالحياة الآخرة، وتلك غفلة منهم عن الحق وعما يجب أن يكون.

* وأنهم أصحاب مكانة دنيا يوم القيامة، فطلاب الآخرة فوقهم وأفضل منهم.

* وأنهم غافلون يتصورون خطأً أن سعة الرزق لهم دون المؤمنين، وقد غفلوا عن أن الرزق لا يقدره الله تعالى على أساس الإيمان أو الكفر، وإنما يجرى على الناس تبعًا لمشيئة الله تعالى.

٤- وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

* وتَصفُ هذه الآية نفوس الكفار بعدة صفات منها:

- أنها نفوس توالى الطاغوت وهو الشيطان، أو كل مَنْ يدعوهم إلى الشر ويزينه لهم.

- وهى نفوس تستجيب للطواغيت التى تخرج بها من النور أو الهدى، إلى الظلام أو الضلال أى إلى الكفر.

- فهى نفوس جديرة بانحيازها إلى الشيطان واتخاذه وليًا أن تُخلَّد فى نار جهنم.

٥- وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].

* وقد وصف هذه الآية الكريمة نفوس الكافرين بصفات توضح مكونات نفوسهم، منها:

- أنها نفوس حمقاء تغتر بكثرة الأموال، وتتوهم أن كثرة الأموال سوف تدفع عنها عقاب الله تعالى.

- وهى نفوس مغرورة تتوهم أن كثرة الأولاد، تدفع عنهم عذاب الله يوم القيامة.

- وأنها نفوس أجرمت بالكفر بالله تعالى فاستحقت أن تكون وقودًا يؤجج نار جهنم يوم القيامة.

٦- وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ [النساء: ١٦٧ - ١٦٩].

* وقد وصفتهم هذه الآيات الكريمة بصفات أهمها:

- أنهم أصحاب نفوس تحب الكفر، وتحب أن تصد الناس عن سبيل الله تعالى.

- وأنهم أصحاب ضلال بعيد ممعن فى البعد عن الحق.

- ونفوسهم قد وقعت فى الظلم إذْ وقعت فى الكفر، وقد ظلمتْ إذ جحدت رسالة محمد ﷺ وظلمتْ الناس إذ حجبتْ عنهم الحق.

- وهى نفوس تستحق ألا تهتدى إلى طريق النجاة، بل طريقها ميسرة إلى جهنم حيث يخلدون فيها.

٧- وقال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣، ١٠٤]

* وفى هاتين الآيتين وصف لنفسيات الكفار، نذكر من مفرداته ما يلى:

- افتراؤهم على الله الكذب بزعمهم تحريم ما لم يحرم الله تعالى من بحيرة وسائبة ووصيلة وحام(١).

---

(١) ١- البحيرة هى: الناقة التى تنتج خمسة أبطن آخرها ذكر، وعندئذ يشقون أذنها - يبحرونها، ويحرمون ركوبها.

٢- والسائبة: ناقة سيبها صاحبها لأنه كان قد قال: إذا عدتُ من سفرى، أو برئت من مرضى فناقتى سائبة؛ فيحرمها كما حُرِّمَتْ البحيرة.

٣- والوصيلة هى: الشاة التى تلد ذكراً وأنثى فى بطن واحدة، فلا يذبحون الذكر، ويقولون عن الأنثى التى ولدت معه: وصلتْ أخاها. =

- وأنهم جاهلون لا يعلمون ماذا ينفعهم وماذا يضرهم، لذلك يُحلون لأ نفسهم ويحرمون عليها.

- وإنهم إذا دعوا إلى ما ينفعهم، وهو ما أنزل الله على رسوله وما بينه الرسول ليكون طريقًا للهداية، قالوا: يكفينا ويغنينا ما وجدنا عليه آباءنا، فهل يصح منهم التشبث بما كان عليه الآباء حتى لو كان هؤلاء لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون؟

٨- وقال جل وعلا: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

* وقد وصفتهم هذه الآية الكريمة بعدد من الصفات أهمها:

- أن الكفار جُبلتْ نفوسهم على الجدل والمراء، وأن جدلهم لا يستهدف إظهار الحق.

- وأنهم يرغبون فى إبطال الحق الذى جاء به الرسل عليهم السلام، أيًا كانت طريقتهم فى الإبطال!!!

- وأنهم يستهزئون بما يسمعون من كلام الله تعالى.

- وأنهم يسخرون من الحق وممن جاءهم به.

٩- وقال جل شأنه: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٣- ٣٨].

* والصفات النفسية للكافرين فى هذه الآيات الكريمة:

- أنهم يكذبون باليوم الآخر ولقاء الآخرة بعد البعث، كما أنهم يكذبون بالحساب والجزاء.

- وأنهم ينكرون رسالة الرسول ﷺ لمجرد أنه بَشَرٌ مثلهم يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق!!!

= ٤- الحام هو: الفحل الذى نتج من صلبه عشرة أبطن، يُحرِّمونه ويقولون: حمى ظهره، فلا يركب ولا يُذبح.

- ورفضهم طاعة الرسول ﷺ لبشريته واعتبارهم طاعته من الخسران.

- وتكذيبهم بمفردات البعث وإجراءاته، بإنكارهم لإخراج الناس من قبورهم بعدما صاروا عظامًا وترابًا.

- واستبعادهم لكل ما وعد به الرسول ﷺ من بعث وحساب وجزاء.

- وغفلتهم وجهلهم فى تصور أن حياتهم الدنيا هى الحياة، ولا حياة بعدها للناس جميعًا.

- واتهامهم الرسول ﷺ بالكذب والافتراء، وإصرارهم على عدم الإيمان به وبما جاء به من الهدى.

* وهذه الصفات فى مجملها تعود إلى التعنت والعناد، والتمسك بالباطل.

١٠- وقال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦) وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤ - ٩].

* والصفات النفسية للكفار فى هذه الآيات، أبرزها:

- أنهم يتهمون الرسول ﷺ بالكذب والافتراء فيما جاءهم به.

- واتهامهم له ﷺ بأنه يستعين ببعض الناس فى أن يتلقى عنهم ما جاء به.

- وأنهم أهل ظلم وتزوير، ولا يملكون دليلاً أدنى دليل على صحة أكاذيبهم ومفترياتهم.

- وأنهم يزعمون أن القرآن الكريم هو من أساطير(١) الأولين التى اكتتبها النبى ﷺ عنهم، أى من الأباطيل والأكاذيب.

- وأنهم يتعجبون بل لا يصدقون أن محمدًا ﷺ رسول مع أنه يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، كما يفعل سائر الناس، إذ يتصورون - مخطئين - أن الرسول ما ينبغى أن يكون من البشر.

---

(١) الأسطورة هى: الأكذوبة والحديث العجيب.

- وهم مخطئــون في تصور أن الرسول يجب أن يكون مـغايرًا للناس، محـوطًا بما يميزه عن الناس؛ كأن يُنزل الله إليـه مَلَكًا يرافقه ويعـاونه في إنذار الناس، أو أن يلقى الله إليه كنزًا ينفق منه ما يـشاء، أو أن تكون له حدائق وبساتين يأكل منها ويسـتغنى بها، وما لم يكن له ذلك فأى امتياز له يستحق به الرسالة؟

- وهم يوجهـون للرسول ﷺ أبشع التهـم وأبعدها عن الصواب؛ إذ يزعـمون أنه رجل مسحور، أو مجنون، أو كذاب، أو أنه يتلقى القرآن عن بعض الأعاجم!!!

- وأهم صفات الكافرين بعد مقالاتهم هذه أنهم ضالون عن الحق، عاجزون عن المُحَاجَّة الصحيحة.

١١- وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ⑦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ⑧ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ⑨ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ⑩ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ ⑪ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد ٧ - ١٢].

* وهذه الآيات الكريمة تصف نفوس الكافرين بعدد من الأوصاف، نذكر منها:

- أنهم أصحاب أفكار وأعمال سيئة تتسبب لهم في التعاسة والشقاء، والعمل الباطل، وقد هيـأهم الله تعالى لذلك لمـوافقهم المعـاندة التي اتخذوها مـن الرسول ﷺ، لأنه سبحـانه وتعالى لا يظلم أحدًا، بل إنه سبحـانه لا يؤاخذ الناس فورًا بما كـسبوا وإنما يصبر عليهم لعلهم يتوبون.

- وأن من صفاتهم النفسية كراهية ما أنزل الله على رسوله ﷺ من القرآن الكريم، ومن أي تكاليف كلفهم الله بها، فلم يستجيبوا لشيء منها، فحبط عملهم وبَطل وضَلّ.

- وأنهم غافلون لم يـطلبوا ما يعظهم، ولم يسـيروا في الأرض لينظروا كـيف فعل الله بأمثـالهم في الأمم الماضيـة ممن كذبوا الرسل، فـوقع بهم الهلاك والتـدميـر لكل ما يملكون وما يعـتزون به من ولد وأهل ومال، فـتلك سنة الله تعالى في عقـاب الكفار المعاندين المكذبين.

- وأنهم غافلون كذلك عن سنن الله تعالى الثابتة فى نصر الله تعالى للمؤمنين، وفى قهره للكافرين؛ لأنه سبحانه وتعالى مولى الذين آمنوا، وأن الكافرين لا مولى لهم.

ثانيًا: الآيات التى ورد فيها لفظ الشرك وما اشتق منه والصفات التى وصفت بها نفوس المشركين.

١- قال الله تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأنعام: ١٣٦ - ١٣٩].

* وهذه الآيات الكريمة تتحدث عن عدد من الصفات النفسية للمشركين أملتها عليهم أوهامهم، ومنها:

- أن نفوسهم - بوصفهم عبدة أوثان أو أصنام - مليئةٌ بالأوهام التى لازمتهم باستمرار مثل:

* جعلهم جزءًا مما خلق الله لهم من نعم الزرع والإبل والبقر والمعز لإنفاقه على الضعفاء والمحتاجين، ثم لا يوصلون شيئًا منه إلى المحتاجين والضيفان.

* وجعلهم جزءًا آخر من الزرع والضرع للإنفاق على أوثانهم التى جعلوها شركاء لله تعالى بزعمهم ثم هم يوصلون هذه إلى أوثانهم فهى آلهتهم.

- وأنهم جعلوا الأوثان شركاء لله تعالى ونظراء له، مع أنه سبحانه هو الذى خلقهم وخلق لهم الحرث والنسل، فهم بذلك ظالمون فيما يحكمون وفيما ينفقون.

- ومن أوهامهم التى أوحى إليهم بها شركهم، أنهم يقتلون أبناءهم عند الولادة نَذْرًا لآلهتهم، فهم بهذا العمل الإجرامى قد اختلط عليهم أمر الدين فوقعوا فى هذه الآثام.

- ومن أوهامهم قولهم:

* هذه إبل وبقر وغنم، لا يأكل منها أحد إلا خَدَمَةُ الأوثان.

* وهذه إبل حُرِمت ظهورها فلا يركبها أحد.

* وأنهم لا يذكرون اسم الله تعالى عند ذبح ما يذبحون، مدعين أن ذلك من عند الله ومن أمره.

فهم يحرمون ما لم يحرم الله تعالى افتراءً عليه سبحانه وتعالى.

- ومن أوهامهم التى زينها لهم شركهم قولهم:

* إن ما فى بطون الإبل والبقر والغنم التى حرموا ذبحها أو ركوب ظهورها، من أجنة خالص للذكور من الرجال محرم على النساء.

* وأن ما نزل ميتًا من هذه الأجنة يشارك فى أكله الرجال والنساء، زاعمين أن التحريم من عند الله.

٢- وقال جل وعلا: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦ - ١٥].

* وفى هذه الآيات وصف دقيق لنفوس المشركين فى كثير من أحوالهم، ونحن نذكر من ذلك:

- أنهم لا يعلمون عن الإسلام شيئًا من تعامله السمح معهم إن هم طلبوا الأمان حتى يعرض عليهم الدين وكلام الله، يعاملون هكذا مع أنهم ألد أعداء المسلمين!!!

- وهم أصحاب نقض للعهود والمواثيق على الدوام، وعلى المسلمين أن يراعوا ذلك فى التعامل معهم، يوفون لهم ما وفوا ويعاقبونهم إن غدروا.

- ومن صفاتهم أنهم راغبون فى القضاء على المسلمين، وأنهم لا يراعون فى المسلمين عهودًا ولا مواثيق، وهم أصحاب خداع، وكراهية شديدة للمؤمنين.

- ومن صفاتهم الإعراض عن كلام الله والإقبال على أعراض الدنيا، ومنع الناس من الدخول فى دين الله تعالى.

- ومن صفاتهم أنهم لا يرقبون فى مؤمن عهدًا ولا ذمة ولا قرابة، وهذه هى المظاهر لمرض نفوسهم وفساد قلوبهم.

- ومن صفاتهم النكث فى إيمانهم، والطعن فى الدين الحق، وهؤلاء بهذه الصفات يجب على المؤمنين قتالهم، لتلك الصفات فيهم، ولأنهم هموا بإخراج الرسول ﷺ من بلده مكة، وهموا بقتله وأسرفوا فى أذاه وفى التضييق عليه وعلى مَنْ معه من المؤمنين، إن قتالهم يشفى صدور المؤمنين من أعمالهم البشعة ويذهب عنهم الغيظ والضيق.

٣- وقال الله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣١ - ٣٥]

* وفى هذه الآيات الكريمة من صفات المشركين:

- أنهم يعبدون مع الله تعالى آلهة غيره.

- وأنهم يفرِّقون الدين أى يصيرون فرقًا فيه، كل فرقة تشايع من تكون تابعة لها، ويسرون بذلك ويحسبون أنهم على الحق.

- ومن صفاهم أنهم إذا وقعوا فى شدة لجأوا إلى الله تعالى: فإذا كشف الشدة والضر عنهم سارع كثير منهم إلى الشرك بالله تعالى، وما لهم على سوء ما فعلوا من دليل أو برهان.

- ومن صفاتهم أن يسرع إليهم اليأس من رحمة الله تعالى إذا وقعوا فى شدة.

٤- وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

* وفى الآية الكريمة من صفات المشركين:

- أنهم مستحقون لنار جهنم يصلونها، لا يخرجون منها أبدًا.

- وأنهم شر خلق الله تعالى عقيدة وعملاً.

وبعد: فهكذا أوضحت آيات القرآن الكريم صفات الكافرين والمشركين النفسية، بما يكشف ما بها من خبث، ليكون المؤمنون منها على حذر.

فما هى صفات نفوس المؤمنين؟

ذلك ما نوضحه فى النقطة الثامنة والأخيرة من هذا الفصل بإذن الله تعالى.

****

٨- وصفات المؤمنين النفسية

ما من صفة نفسية للمؤمنين إلا وردت إشارة إليها، صراحة أو ضمنًا، مما يؤكد أن تلاوة القرآن للتعبد والتدبر، تجعل التالى يمر على ذكر هذه الصفات ويتأمل فيها، فيدعوه ذلك إلى التَّحَلِّى بهذه الصفات، ليكون أقرب إلى الله تعالى، بسبب ما رأى من ثناء الله تعالى على هذه الصفات وأصحابها.

* وصفات المؤمنين فى القرآن كثيرًا ما تقابلها صفات المنافقين والكفار والمشركين، وفى هذه المقابلة والثناء على صفات المؤمنين، والتنفير من صفات المنافقين والكافرين والمشركين، فى هذا التقابل عبرة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا. كما أن فيه دعوة لكل تالٍ للقرآن الكريم أن يختار لنفسه من الصفات ما يقوى إيمانه، ويعزز مكانه وموقفه يوم يلقى ربه سبحانه وتعالى.

- وهذه المقابلة القرآنية بين صفات المؤمنين وصفات غيرهم ذات دلالة تربوية تعليمية عميقة فاعلة، لأن الضِّدَّ - كما نعرف - يُظهر حسنَه الضدُّ، وبضدها تتميز الأشياء.

- والنفس الإنسانية حينما تجد أمامها هذا التمايز بين هذين النوعين من الصفات، لا يسعها إلا أن تنحاز إلى ما هو أحسن وأكمل وأرضى الله تعالى، وهو فى الوقت نفسه أنفع لمن اختاره فى دنياه وآخرته، وأجدر أن يجعله مألفًا يحب الناس ويحبونه سواء أكان هؤلاء المحبون له مؤمنين أو غير مؤمنين.

- ومن اختار لنفسه أن تتحلى بصفات المؤمنين فقد أحسن الاختيار، وَوُفِّق فى وضع نفسه فى أكرم مكان، وإذا كان العقل - وهو مناط التكليف - قادرًا على أن يختار فيحسن الاختيار، فإن الله تعالى من حبه للإنسان ورحمته له تكرم بإرسال الرسل عليهم السلام، لاحتمال أن يعجز العقل عن حسن الاختيار، فيكون الرسول عليه السلام معينًا للإنسان ليحسن الاختيار فينحاز إلى الحَسَن من الأشياء، ويهجر القبيح.

- ومن إكرام الله تعالى للإنسان وتكريمه إياه أن جعل الرسول عليه السلام مُيَسِّرًا على الناس أمر الاختيار بأن صاغ لهم الأوامر والنواهى، فمن التزم بامتثال الأمر واجتناب النهى، فقد أحسن الاختيار ووضع فى صفوف المؤمنين.

أساليب القرآن فى التحدث عن صفات المؤمنين:

* وللقرآن الكريم أساليب عديدة فى التحدث عن صفات المؤمنين والتحبيب فيها ليتحلى بها الناس، كما رأينا حديثه عن صفات المنافقين والكافرين والمشركين والتنفير منها ليتجنبها الناس ويتخلوا عنها.

ولن نستطرد فى عرض جميع هذه الأساليب أو معظمها، وإنما نكتفى بذكر بعض الأمثلة لها، والله المستعان.

أ- أسلوب الثناء على صفات المؤمنين.

ب- وأسلوب النهى والتحذير من صفات غير المؤمنين،

جـ- وأسلوب التحذير من الوقوع فيما يزينه الشيطان للناس من صفات؛ لأن الشيطان للإنسان عَدُوٌّ مُضِل مبين.

أ- أسلوب الثناء على صفات المؤمنين:

صفات المؤمنين فى صورة مجملة هى - كما عدها الأسلاف من العلماء رحمهم الله - سبع وسبعون صفة، هى ما عبروا عنها بشعب الإيمان وفروعه، وأصل هذا التشعيب أو التفريع ما رواه أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«الإيمان بضع وسبعون[1]، أفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**.

ويطيب أن أسرد هذه الشعب أو هذه الصفات، لعل أحدًا من القراء لم يطلع عليها فى كتاب شعب الإيمان للبيهقى (٣٨٤ - ٤٥٨هـ) أو مختصر شعب الإيمان للقزوينى (ت٦٩٩هـ)[2].

وهذه الصفات هى:

١- الإيمان بالله عز وجل.

٢- والإيمان برسل الله عليهم السلام.

(١) ورد الحديث فى البخارى ومسلم وابن ماجة والترمذى، وتعدد الاختلاف فى بعض ألفاظه، ففى رواية البخارى: «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة...» وفى رواية لأصحاب السنن الثلاثة الترمذى والنسائى وابن ماجة: «... بضع وستون أو بضع وسبعون...».

(٢) ذكرت هذه الشعب فى بعض كتبى لكن ذلك لا يمنعنى من ذكرها فى هذا الكتاب لعل الله ينفع بها من لم يرها إلا هنا.

٣- والإيمان بالملائكة عليهم السلام.

٤- والإيمان بالقرآن الكريم وبجميع الكتب السماوية.

٥- والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره.

٦- والإيمان باليوم الآخر.

٧- والإيمان بالبعث بعد الموت.

٨- والإيمان بحشر الناس بعد بعثهم من قبورهم.

٩- والإيمان بأن دار المؤمنين هى الجنة ودار الكافرين هى النار.

١٠- ووجوب محبّة الله عز وجل.

١١- ووجوب الخوف من الله عز وجل.

١٢- ووجوب الرجاء من الله عز وجل.

١٣- ووجوب التوكل على الله تعالى.

١٤- والإيمان بوجوب محبة النبى ﷺ.

١٥- والإيمان بوجوب تعظيم النبى ﷺ.

١٦- وشح المرء بدينه حتي يكون القذف فى النار أحب إليه من الكفر.

١٧- وطلب العلم الصحيح.

١٨- ونشر العلم النافع.

١٩- وتعظيم القرآن الكريم؛ بتعلُّمه، وتعليمه، وحفظِ حدوده وأحكامه.

٢٠- ووجوب الطهارات.

٢١- وأداء الصلوات الخمس، وأعتقاد أن تاركها خارج عن الدين.

٢٢- ووجوب الزكاة.

٢٣- ووجوب الصيام فى شهر رمضان.

٢٤- والاعتكاف.

٢٥- وأداء الحج لمن استطاع.

٢٦- والقيام بالجهاد فى سبيل الله تعالى.

٢٧- والمرابطة فى سبيل الله تعالى.
٢٨- والثبات للعدو، وترك الفرار.
٢٩- وأداء الخُمُس من المغنم إلى الإمام أو عامله.
٣٠- وعتق الرقيق تقربًا إلى الله تعالى.
٣١- وأداء الكفارات الواجبات.
٣٢- والإيفاء بالعقود.
٣٣- وشكر نعم الله تعالى.
٣٤- وحفظ اللسان عما لا يحتاج إليه.
٣٥- وأداء الأمانات.
٣٦- وتحريم قتل النفوس والجنايات.
٣٧- وتحريم الفروج إلا فيما شرع الله تعالى.
٣٨- وقبض اليد عن الأموال الحرام.
٣٩- ووجوب التورع فى المطاعم والمشارب.
٤٠- وتحريم الملابس والزى المخالف.
٤١- وتحريم الملاعب والملاهى المخالفة للشريعة.
٤٢- والاقتصاد فى النفقة، وتحريم أكل المال بالباطل.
٤٣- وترك الغِلّ والحسد.
٤٤- وتحريم الوقوع فى أعراض الناس.
٤٥- وإخلاص العمل لله تعالى.
٤٦- والسرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة.
٤٧- ومعالجة كل ذنب بالتوبة.
٤٨- وأداء القرابين الواجبة.[١]
٤٩- وطاعة أولى الأمر.
٥٠- والتمسك بما عليه الجماعة، لأن مفارقة الجماعة مروق عن الدين.
٥١- والحكم بين الناس بالعدل.

(١) القربان: ذبح ما يُتقرب به إلى الله تعالى، والقرابين هى: الهَدْى، والأضحية، والعقيقة.

٥٢- والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٥٣- والتعاون على البر والتقوى.

٥٤- والحياء.

٥٥- وبر الوالدين.

٥٦- وصلة الأرحام.

٥٧- وحسن الخلق.

٥٨- والإحسان إلى المماليك[١].

٥٩- وأداء حق السادة بالنسبة للمماليك.

٦٠- وأداء حق الأولاد والأهلين.

٦١- ومقاربة أهل الدين ومُوَادتهم.

٦٢- وردّ السلام.

٦٣- وعيادة المريض.

٦٤- والصلاة على من مات من أهل القبلة.

٦٥- وتشميت العاطس.

٦٦- ومباعدة الكفار والمفسدين، والغلظ عليهم.

٦٧- وإكرام الجار.

٦٨- وإكرام الضيف.

٦٩- والسَّتر على أصحاب القروف.[٢]

٧٠- والصبر على المصائب.

٧١- والزهد وقصر الأمل.

٧٢- والغيرة وترك المِذاء[٣].

٧٣- والإعراض عن اللغو.

٧٤- والجود والسخاء.

(١) ويدخل فيه الإحسان إلى كل من فى ولاية المسلم.

(٢) القروف هى: الذنوب.

(٣) المذاء: صفة محرمة وهى أن يكون الرجل متساهلاً فى الحفاظ على عرض امرأته وشرفها.

٧٥- ورُحْم الصغير وتوقير الكبير.

٧٦- وإصلاح ذات البيْن.

٧٧- وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

* وهذا اجتهاد الإمام البيهقى فى تفصيل هذه الشعب، جزاه الله عن المسلمين كل خير.

وإذا كان الحديث الشريف يحدد شعب الإيمان ويوضحها فإن كلمة: «صفات المؤمنين» لابد أن تشتمل على هذه الشعب، وعلى عشرات من الصفات التى أوجب الله الاتصاف بها.

* ولقد جاءت صفات المؤمنين فى القرآن، فجُمع منها عدد كبيـر فى عدد من سور القرآن الكريم، وعلى سبيل المثال:

- فى سورة الفرقان:

* قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان ٦٣ - ٧٧].

- ومن سورة «المؤمنون»:

* قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ

هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١]

- ومن سورة الأنفال:

* قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

- ومن سورة الفتح:

* قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩].

- ولقد جاء وصف المؤمنين بصفات فاضلة تحمل الثناء عليهم ومن ذلك:

* وصفهم بأنهم ﴿ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة: ٧].

* وبأنهم ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [البينة: ٨].

* وبأنهم محسنون متصدقون [آل عمران: ١٣٤].

* وبأنهم أهل عفاف وتحصن عن الفواحش [المؤمنون: ٥] و[النور: ٣٠].

* وبأنهم أهل رحمة وصبر. [البلد: ١٧] و[البقرة: ١٥٦].

* وأنهم أهل تضرع وخشوع. [هود: ٢٣] و[الحج: ٣٤، ٣٥].

* وأنهم أهل صدق وثبات. [الأحزاب: ٢٣].

* وأنهم أهل عفو وتسامح. [آل عمران: ١٣٤].

* وأنهم أهل نظافة وطهارة. [المدثر: ٤] و[الحج: ٢٩].

* وأنهم أهل تعاون وتضامن. [الحجرات: ١٠].

هذه عشر صفات فقط من صفات كثيرة وصف بها المؤمنون فى القرآن الكريم، ومن شاء أن يجد أكثر من ذلك فإن ذلك من الميسور عليه إذا تلا القرآن الكريم وتدبر ما فيه.

* وإنما جاءت هذه الصفات الفاضلة للمؤمنين فى معرض ثناء الله تعالى عليهم، ليكون ذلك حافزًا لكل مسلم أن يتحلى بهذه الصفات، وأن يلقى الله تعالى على التمسك بها، فإن فعلوا فإن المجتمع المسلم يعيش بعيدًا عن الجرائم والفواحش وكل ما يعكر أمن الناس، ونقاء حياتهم من كل ما يلحق بهم شرًا أو ضررًا.

ب- وأسلوب النهى والتحذير من صفات غير المؤمنين:

وغير المؤمنين هم المنافقون والكافرون والمشركون، وكل معاند أو مكابر أو مكذب لرسل الله عليهم السلام.

فهؤلاء أصحاب صفات راذلة يجب أن يحذرها المؤمنون فلا يتصفوا بها أبدًا.

وآيات القرآن الكريم فى هذا المجال كثيرة وحافلة بالحديث عن هذه الصفات، ومن تلك الآيات:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب**﴾ [العلق: ٦ - ١٩]

وهذه الصفات التى حذّر القرآن كل إنسان أن يتصف بها هى:

* الطغيان وهو: تجاوز الحد، وتجاوز الحق، وتجاوز الواجب. وإنما يحدث هذا التجاوز للإنسان إذا رأى الإنسان نفسه مستغنيًا بماله وجاهه وولده، وذاك جهل كبير وحمق وسفاهة، ونسيان بأن المرجع إلى الله تعالى الذى يحاسب ويجازى.

* ونهى المصلى عن أداء صلاته وعبادته بمنعه أو إغلاق المسجد دونه، أو تعطيل المسجد وتخريبه، وتلك من أكثر الصفات ظلمًا للإنسان وتحديًا له لئلا يؤدى ما فرض الله عليه[1].

* والتكذيب للنبى ﷺ فيما جاء به للناس من هدى، والتولى والإعراض عنه وعن دعوته.

* والاستطالة على الناس وإيقاع الضرر بهم بمعرفة الأهل والعشيرة والمال والجاه.

فهذه الصفات حذر القرآن الكريم المؤمنين من الاتصاف بها فى وقت باكر من تاريخ الدعوة الإسلامية، بل فى بدئها، لأن جمهور العلماء يرون أن سورة العلق هى أول سورة أنزلت من القرآن على الرسول الخاتم ﷺ[2].

- وقول الله تعالى: ﴿فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ٨ - ١٥].

وهذه الآيات الكريمة - وهى من أوائل ما نزل من القرآن الكريم - حذرت المؤمنين من صفات ذميمة راذلة منها:

* تكذيب النبى ﷺ وتحديه.

* وكثرة الحلف.

* والحقارة والمهانة[3].

* والمبالغة فى عيب الناس وذكر مثالبهم.

* والسعي بالنميمة بين الناس على وجه الإفساد بينهم.

* وكثرة صد الآخرين عن فعل الخير.

* والاعتداء علي الآخرين.

* وكثرة الآثام والخطايا.

* وجفاء القلب وغلظة «عُتُل» جافى الطبع.

* والاشتهار بالشر بين الناس.

---

(١) الصلاة التى نهى المشركون عنها الرسول ﷺ وصحبه فى الكعبة لم تكن الصلاة التى فرضت ليلة الإسراء والمعراج، وإنما كانت صلاة أخرى تؤدى مرتين فى اليوم قبل الصبح وقبل العصر.

(٢) انظر معظم كتب السنة: البخارى ومسلم وأحمد ومعظم من جمعوا أحاديث الرسول ﷺ.

(٣) إنما كان مهينًا لاتصافه بهذه الصفات التى لا تجتمع فى أحد حتى يكون مهينًا حقيرًا.

* واغتراره بماله وولده، والاستعداء بهما على اتهام القرآن الكريم بأنه أساطير.

- وهذه رذائل عشر، حذرت آيات القرآن الكريم من الاتصاف بصفات أهلها، وما حذَّر منه القرآن لابد أن يجتنب من سائر المؤمنين.

ونكتفي بهاتين الآيتين التى تحدثت كل واحدة منهما عن عشر رذائل يجب أن تجتنب، ولكن عددًا كبيرًا من آيات القرآن الكريم تحدث عن مثل هذه الرذائل وحذر المسلمين من الاتصاف بها، بل طالبهم بالتباعد عنها على قدر استطاعتهم، وصرحت بعض الآيات الكريمة بعد الحديث عن بعضها بقوله تعالى: **«فلا تقربوها» و «لا تقربوا»**.

كقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ...** ﴾ [النساء: ٤٣].

وقوله جل شأنه: ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...** ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله تعالى: ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٣٢].

* وهدف هذا التحذير واضح وهو تنقية المجتمع من هذه الرذائل ليعيش الناس إخوة متحابين متعاونين لا يسيء بعضهم إلى بعض. وهذه هى القيم التربوية العريقة التى جاء بها الإسلام.

جـ- أسلوب التحذير من الوقوع فيما يزينه الشيطان:

الذى علَّم الله وبيَّن لرسوله وللمؤمنين ولكافة الناس أن الشيطان عدو للإنسان عمومًا وللمؤمن على وجه الخصوص، فالشيطان ذئب الإنسان، وقد نهانا القرآن عن اتباع خطوات الشيطان، وحذرنا من كيده، ووسوسته وفتنته، ورجزه، وتزيينه للباطل والشر، وصده الناس عن الحق والهدى والخير، كما حذر الناس من همزاته.

ولقد توالت آيات القرآن الكريم التى تحدثت عن ذلك، منها:

١- قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

* فالآية الكريمة تحذر من اتباع خطوات الشيطان فى أى عمل وفى أى مجال، وتنبه إلى أن الشيطان يأمر الإنسان بالسوء والفحشاء والافتراء على الله تعالى.

٢- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

* فالخروج عن المسالمة فيما بين الناس بالدخول فى صراعات وخلافات، بل الخروج على أى خلق من الأخلاق، إنما يزينه الشيطان ويرسم خطوات الطريق إليه.

٣- وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

* فالفرار من الجهاد فى سبيل الله، ورفض المشاركة فيه، كل ذلك إنما يكون بأن يجر الشيطان أولئك المخالفين إلى الزلل والخطأ، وعدم الثبات فى المعركة.

٤- وقوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

* فالآية الكريمة تحذر من اتباع خطوات الشيطان فى كل ما يزينه للناس من باطل، وما يخدعهم به من فواحش ومنكرات يزينها لهم وييسرها ويغرى بها، وتلك وظيفته مع الإنسان لأنه العدو المضل المبين له.

٥- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٨ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ٨ - ١٠].

* وهذه الآيات الكريمة تحذر المؤمنين من أعمال سيئة يزينها الشيطان للناس، وهى:

- المسارَّة بين اثنين أو أكثر، بما يثير الشك فى نفوس الآخرين حول هذه المسارة والمناجاة. وهى خلق ذميم ينطوى على شر يلحق بالمتناجين أو بالناس، وقد ضرب القرآن الكريم لنا بعض أمثلة هذه الأعمال السيئة التى يزينها الشيطان، ومنها:

* المسارَّة بارتكاب ذنب.

* والمسارَّة بالقعود عن عمل مطلوب.

* والمسارّة بتـوجيه تحيـة محرفة مـسيئة، وإن كـان ظاهرها لا يدل على ذلك، حيث كانوا يحـيون الرسول بمالا يجوز أن يُحَـيَّا به، كما كانـت تفعل اليهود، فـيقولون للرسول ﷺ: السام عليكم بدل: السلام عليكم.

- والتأكيـد على أن المسارَّة بالذنب والشر إنما هى من همزات الشيـاطين، ليصيب قلوب المؤمنين بالحزن، وتـلك غاية الشيطان وهدفـه، فحذَّر الله تعـالى من ذلك، ومن كل خلق ذميم يزينه الشيطان.

٦- وقول الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦، ١٧]

* وفى هاتين الآيتين يبلغ إغـواء الشيطان للإنـسان حد إدخـاله فى الكفـر، متجـاوزًا كل الذنوب والآثام لأنها جميعًا أقل من الكفر.

وعندما يستجيب الإنسان ويكفر يتراجع الشيطان ويتبرأ من إغواء الإنسان بالكفر.

ولذلك كان الحـذر من الشيطان أهم عمل يقوم به الإنسـان صيانة لنفسـه عن المعاصى، وعن كل ما يغضب الله تعالى.

وبعد: فـإن القرآن الكريم وهو يتحـدث عن صفات المؤمنـين النفسيـة، بتلك الأساليب الثالثة التى ذكرنا، وهى:

أسلوب الثناء على صفات المؤمنين النفسية.

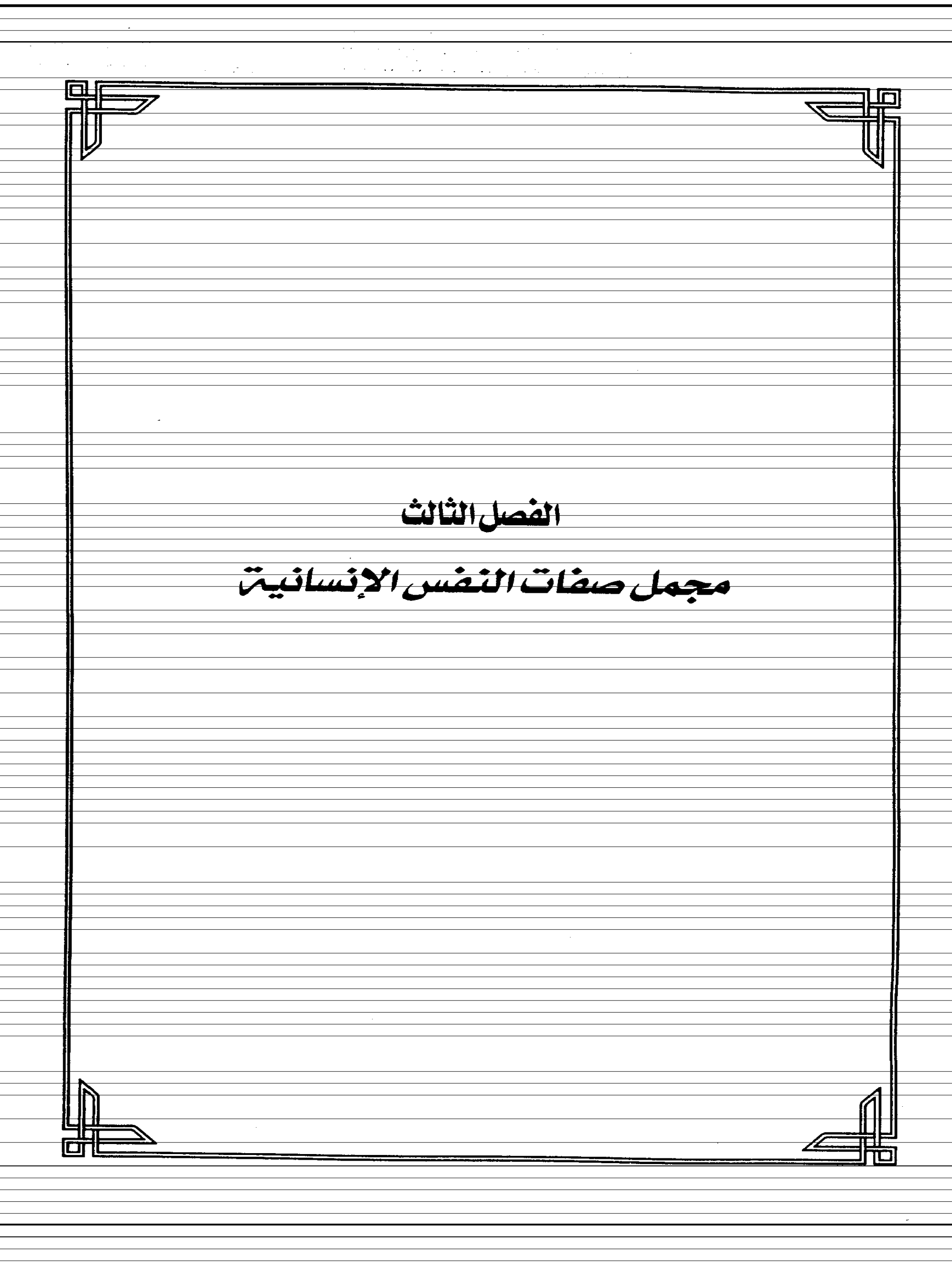
وأسلوب النهى والتحذير من صفات غير المؤمنين.

وأسلوب التحذير والتخويف مما يزينه الشيطان.

القرآن الكريم بهذه الأسالـيب يزيد الصفات النفسية للمؤمنـين وضوحًا، ويجعل الناس أشد إقـبالا على صفـات المؤمنين، وهو بذلك يغرس فى المجتـمع أنبل الصفات الإنسـانية وأليقها بالإنسان وأرضـاها لله تعالى، وتلك هى التربية الإسلامية الصحـيحة للإنسان لينال سعادة الدنيا والآخرة.

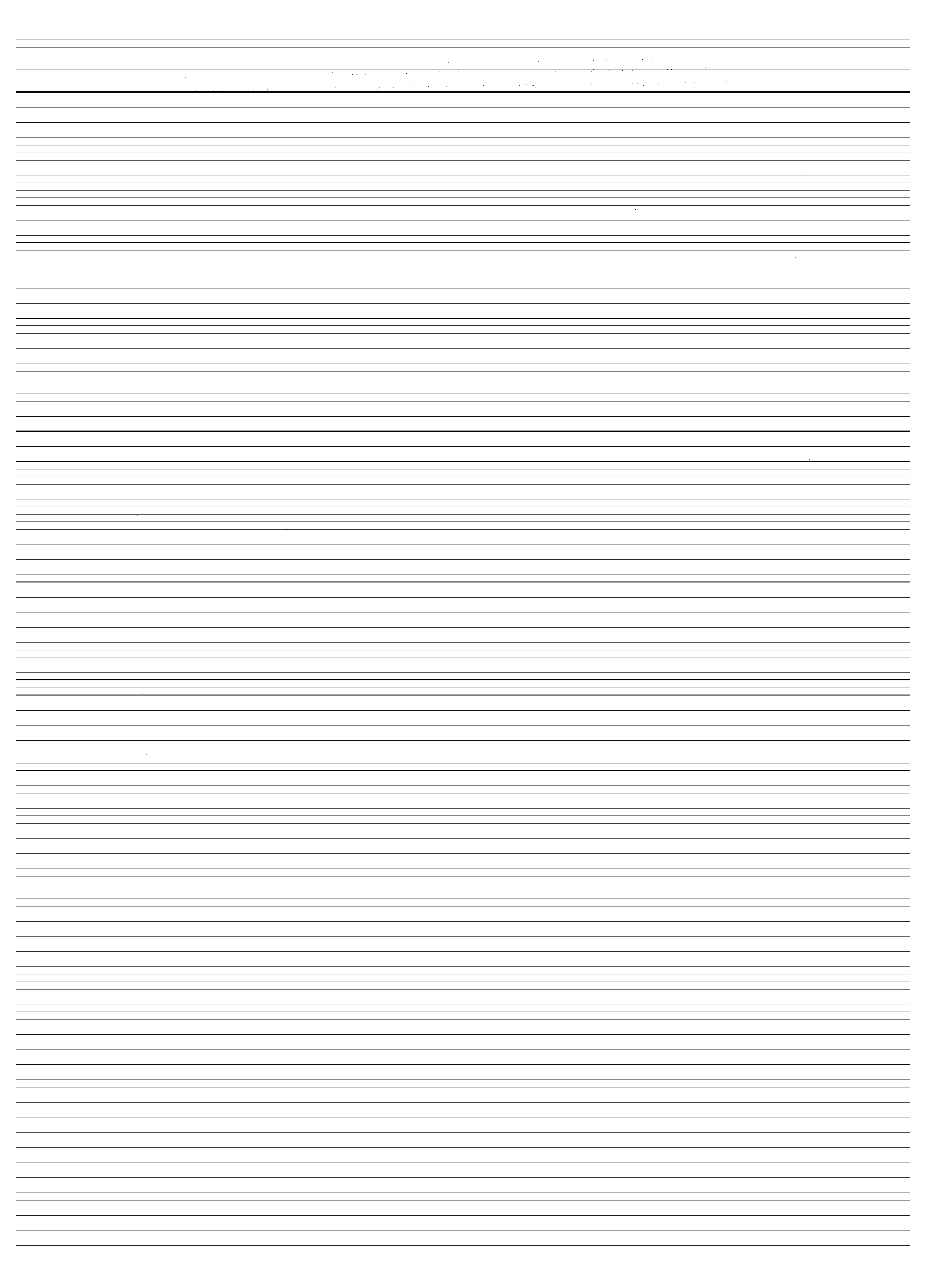
والاتصاف بهذه الصفات الفاضلة التى ذكـرنا، والابتعاد عن الصفات الراذلة التى ذكرنا أيضا هو أحسن الأساليب فى تجنب الأمراض النفسية، وأنجح الأساليب فى علاج الأمراض النفسية إن وجدت.

والمسلم مطالب بأن يكون متحليًا بالصفات الفاضلة متخليًا عن الصفات الراذلة.



الفصل الثالث

مجمل صفات النفس الإنسانية



آثرت فى هذا الفصل الأخير من الباب الثانى، أن أجعله وجيزًا عن الفصلين السابقين، لألخص فيه مجمل صفات النفس الإنسانية عمومًا، مهتمًا بحديث القرآن الكريم عن النفس فى حالتيها اللتين لا ثالثة لهما وهما:

- حالة حب النفس الإنسانية لخالقها سبحانه وتعالى وإقبالها عليه، واستجابتها لما أمر به، وانتهائها عما نهى عنه، وطاعتها لرسوله ﷺ وعملها بشرعه ونظامه، أى النفس الإنسانية فى حالة تقوى الله.

- وحالة الإعراض عن الله تعالى، ورفضها لما جاء به رسوله ﷺ، وعصيان أمر الله تعالى، ونهيه، وضلالها عن شرع الله ونظامه، أى النفس الإنسانية فى حالة الفجور والفسق.

* ولقد اجتهدت ما وسعنى أن أرصد مجمل صفات النفس الإنسانية فى حالتيها، كما تحدث عنها القرآن الكريم، مع ربط كل صفة من هذه الصفات بآية قرآنية أو أكثر، تدل عليها، ولقد عكفت على ذلك أسابيع فَيَسَّر الله لى أن أرصد من هذه الصفات للنفس الإنسانية عددًا كبيرًا دلت عليه آيات قرآنية عديدة، فهالتنى هذه الكثرة، واتسع بى القول، فأخذت أوجز وأختصر، حتى اكتفيت من هذه الصفات بما يلائم حجم الكتاب، وكان هذا الجزء من الكل؛ فاكتفيت برصد هذه الصفات التى ذكرت منها أكثر من خمس وعشرين صفة لكل حالة من حالتى التقوى والفجور.

ثم إنى لم أكتب الآيات الدالة على هذه الصفات، وإنما أشرت إلى اسم السورة ورقم الآية الكريمة.

والله أسأل أن يكون ذلك لنفع المسلمين فى دينهم ودنياهم، وليتأكد كل مسلم[1] أن هذا الدين الخاتم قد فصَّل الحديث عن النفس الإنسانية بما لا يحتاج معه إلى تفصيل أكثر، وأنه أوضح لهذه النفس الإنسانية من الصفات الحقيقية الواقعية دون مبالغة فى شىء منها ودون تهوين لشىء فيها.

---

(١) ولو قرأ غير المسلمين ذلك بموضوعية وإنصاف فإنهم يصلون إلى ما وصل إليه المسلمون، وكم واحد منهم هداه الله تعالى إلى الإسلام بعد نظر موضوعى فى القرآن الكريم!!!

وقد جعلت هذا الفصل وهذا الموجز عن صفات النفس الإنسانية تمهيدًا للحديث فى الباب الثالث من الكتاب الخاص بتربية الإسلام لهذه النفس، كما سنفصل ذلك فيه إذا أذن الله، ومنّ عليّ بالعون والتسديد.

أبرز صفات النفس الإنسانية:

قَسَّمتُ هذه الصفات إلى مجموعتين:

الأولى: صفات النفس الإنسانية فى حالة تقوى الله.

والأخرى: صفات النفس الإنسانية فى حالة فجورها ومعصيتها لله تعالى.

* وتوضيح هاتين المجموعتين من الصفات ضرورى للإنسان عمومًا وللمسلم على وجه الخصوص، ليعرف الإنسان مكان نفسه ومكانتها بين التقوى لله والفجور عن منهجه ونظامه، فيحاول أن يضع نفسه حيث يريد، فى مجال الطاعة أو مجال المعصية، وتلك قيمة تربوية من أعلى القيم، وهى حرية اختيار وانطلاق إرادة دون ضغط أو إكراه ليختار الإنسان لنفسه ما يريد من صفات تنقذه من ضلال الدنيا وضياع الآخرة، أو تهديه إلى سواء السبيل.

* والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة[1]، تحدثا عن عدد من هذه الصفات فيه مَغْنًى ومَقْنىً لمن أراد أن يذكر، أو أراد شكر الله تعالى على نعمه.

أ- صفات النفس الإنسانية فى حالة تقوى الله تعالى:

من صفات النفس الإنسانية التى تعيش حالة تقوى الله تعالى، وتستعين على تلك الحالة بصالح النوايا وصالح الأعمال، راغبة فى الاستقامة، وفى الاستمرار على التقوى:

١- الإخلاص لله تعالى وإسلام كل الأمور إليه:

وذلك قوله تعالى:

الآيتان: ١٦٢، ١٦٣ من سورة الأنعام، والآية: ٢٢ من سورة الرعد.

٢- والخشوع لله تعالى والتضرع إليه ودعاؤه:

فى الآية: ٢٣ من سورة هود، والآيتان: ٥، ٢٠٥ من سورة الأعراف، والآيتان: ١٨، ١٩ من سورة لقمان، والآيتان: ١٠٨، ١٠٩ من سورة الإسراء.

---

(١) لم أستشهد بالأحاديث النبوية الصحيحة -وهى بحر زاخر- إلا إن وجدت الصفة التى أتحدث عنها، لم ترد فيها آية قرآنية كريمة، وفى هذه الصفات للنفس الإنسانية لأكثر من خمسين صفة، هدانى الله تعالى إلى الآيات الكريمة، فلم أشر فى هذا الموجز إلى الأحاديث النبوية الشريفة.

٣- والاستقامة على طاعة الله تعالى:

الآية: ١٧٧ من سورة البقرة، والآية: ٨٥ من سورة هود.

٤- وسلامة القلب والصدر وسداد القول:

الآيتان: ٧٠، ٧١ من سورة الأحزاب.

٥- وحب الله ورسوله بالطاعات:

الآية: ١٦٥ من سورة البقـرة، والآية: ٥٤ من سورة المائدة. والآية: ٣١ من سورة آل عمران.

٦- وحب الخير للنفس وللغير:

الآية: ٣٤ من سورة فُصِّلت، والآية: ١١٥ من سورة آل عمران.

٧- والتعاون على البر والتقوى:

الآية: ٢ من سورة المائدة، والآية: ٧١ من سورة التوبة.

٨- والرفق والإحسان:

الآية: ٩٠ من سورة النحل، والآية: ١٣٤ من سورة آل عمران.

٩- والزهد:

الآية: ٢٠٧ من سورة البقرة، والآية: ٣٤ من سورة الحج.

١٠- وحب التصدّق:

الآية: ١٦١ من سورة البقرة، والآية: ٣٦، والآية: ١١٤ من سورة النساء.

١١- والعفة:

الآية: ٥ من سورة المؤمنون، والآية: ٣٠ من سورة النور.

١٢- والتحلي بالآداب الاجتماعية الإسلامية:

الآية: ٨٦ من سـورة النسـاء، والآيات: ٢٧، ٢٨، ٥٨، ٥٩ من سـورة النور، والآيتان: ١٨، ١٩ من سورة لقمان، والآية: ١١ من سورة المجادلة.

١٣- والرحمة:

الآيات من: ١٢ إلى ١٧ من سورة البلد.

١٤- والإصلاح بين الناس:

الآيتان: ٩، ١٠ من سورة الحجرات.

١٥- وترك التنازع:

الآية: ٥٩ من سورة النساء.

١٦- والأمانة:

الآية: ٢٨٣ من سورة البقـرة، والآية: ٨ من سورة المؤمنون، والآية: ٥٨ من سورة النساء.

١٧- والبشاشة:

الآية: ٥٣ من سورة الإسراء، والآية: ٤٨ من سورة الأحزاب.

١٨- والتآخي في الله وفي الدين:

الآية: ١٠٣ من سورة آل عمران، والآية: ١٠ من سورة الحجرات.

١٩- والعدل والإقساط:

الآية: ٩٠ من سورة النحل، والآية: ٨ من سورة الممتحنة.

٢٠- والصبر والعفو:

الآية: ٢٣٧ من سورة البقرة، والآية: ١٥٩ من سـورة آل عمران، والآيتان: ١٢٦، ١٢٧ من سورة النحل.

٢١- والتواضع:

الآية: ٣٠ من سورة النور، والآية: ٦٣ من سورة الفرقان، والآية: ١٨ من سورة لقمان.

٢٢- والثبات:

الآيتان: ١١، ٤٥ من سورة الأنفـال، والآية: ١٢٠ من سورة هود، والآية: ٢٧ من سورة إبراهيم.

٢٣- والنظافة والطهارة:

الآية: ٢٩ من سورة الحج، والآيات من: ١ إلى ٤ من سورة المدثر.

٢٤- والتضامن:

الآيتان: ٩، ١٠ من سورة الحجرات.

٢٥- والشكر:

الآية: ١٤٤ من سورة آل عمران، والآية: ٧ من سورة إبراهيم، والآيتان: ١٥٢، ١٧٢ من سورة البقرة.

٢٦- وعدم كتمان الشهادة:

الآية: ٢٨٣ من سورة البقرة، والآية: ١٣٥ من سورة النساء، والآية: ٨ من سورة المائدة.

ب- صفات النفس الإنسانية فى حالة فجورها:

* للنفس الإنسانية فى هذه الحالة صفات تميزها وتحدد أبعادها ومعالمها، وتدل على نوع القيم التى تحكمها، ومن هذه الصفات:

١- الشرك بالله تعالى:

الآية: ٤٨ من سورة النساء، والآية: ٣١ من سورة الحج. والآية: ١٣ من سورة لقمان، والآية: ٢٨ من سورة التوبة.

٢- والكفر بالله تعالى وبالنعم:

الآية: ٥٥ من سورة الأنفال، والآيتان: ٩، ١٠ من سورة هود، والآية: ٦٧ من سورة الإسراء.

٣- والبغى:

الآية: ٣٣ من سورة الأعراف، والآية: ٢٣ من سورة يونس.

٤- والخيانة:

الآية: ١٠٥ من سورة النساء، والآية: ٥٨ من سورة الأنفال.

٥- وقتل النفس:

الآية: ١٧٨ من سورة البقرة، والآية: ٢٩ من سورة النساء.

٦- والغش:

الآيات: من ١ - ٣ من سورة المطففين

٧- والإفساد:

الآية: ٢٧ من سورة البقرة، والآية ٣٣ من سورة المائدة.

٨- والبهتان:

الآية: ١١٢ من سورة النساء، والآية: ١٩ من سورة النور.

٩- والبخل:

الآية: ٢٢٧ من سورة الشعراء.

١٠- والاعتداء:

الآية: ٢٢٧ من سورة الشعراء.

١١- والاختيال:

الآية: ١٨ من سورة لقمان.

١٢- والمسافحة:

الآية: ٥ من سورة المائدة.

١٣- والغضب:

الآية: ١٣٤ من سورة آل عمران، والآية: ٣٧ من سورة الشورى.

١٤- واللَّمْز:

الآية: ١١ من سورة الحجرات، والآيتان: ١، ٢ من سورة الهمزة.

١٥- والحسد:

الآيات من: ١ إلى ٥ من سورة الفلق.

١٦- والإسراف:

الآية: ٣١ من سورة الأعراف.

١٧- واجتناب الظن:

الآية: ١٢ من سورة الحجرات، والآية: ١٠١ من سورة المائدة.

١٨- والجبن:

الآية: ١٥٦ من سورة آل عمران، والآيتان: ٧٢، ٧٣ من سورة النساء.

١٩- والخلاعة:

الآية: ١٥٠ من سورة النساء، والآية: ١٥١ من سورة الأنعام.

٢٠- والجهر بالفاحش من القول:

الآية: ١٤٨ من سورة النساء.

٢١- والاستكبار:

الآية: ٢٦٤ من سورة البقرة، والآية: ١٣٦ من سورة النساء.

٢٢- والرياء:

الآية: ٢٦٤ من سورة البقرة، والآية: ٣٨ من سورة النساء.

٢٣- والتبذير:

الآية: ١٤١ من سورة الأنعام، والآية: ١٦ من سورة الإسراء.

٢٤- والسخرية من الناس:

الآية: ١١ من سورة الحجرات.

٢٥- والتنابز بالألقاب:

الآية: ١١ من سورة الحجرات.

٢٦- والغدر:

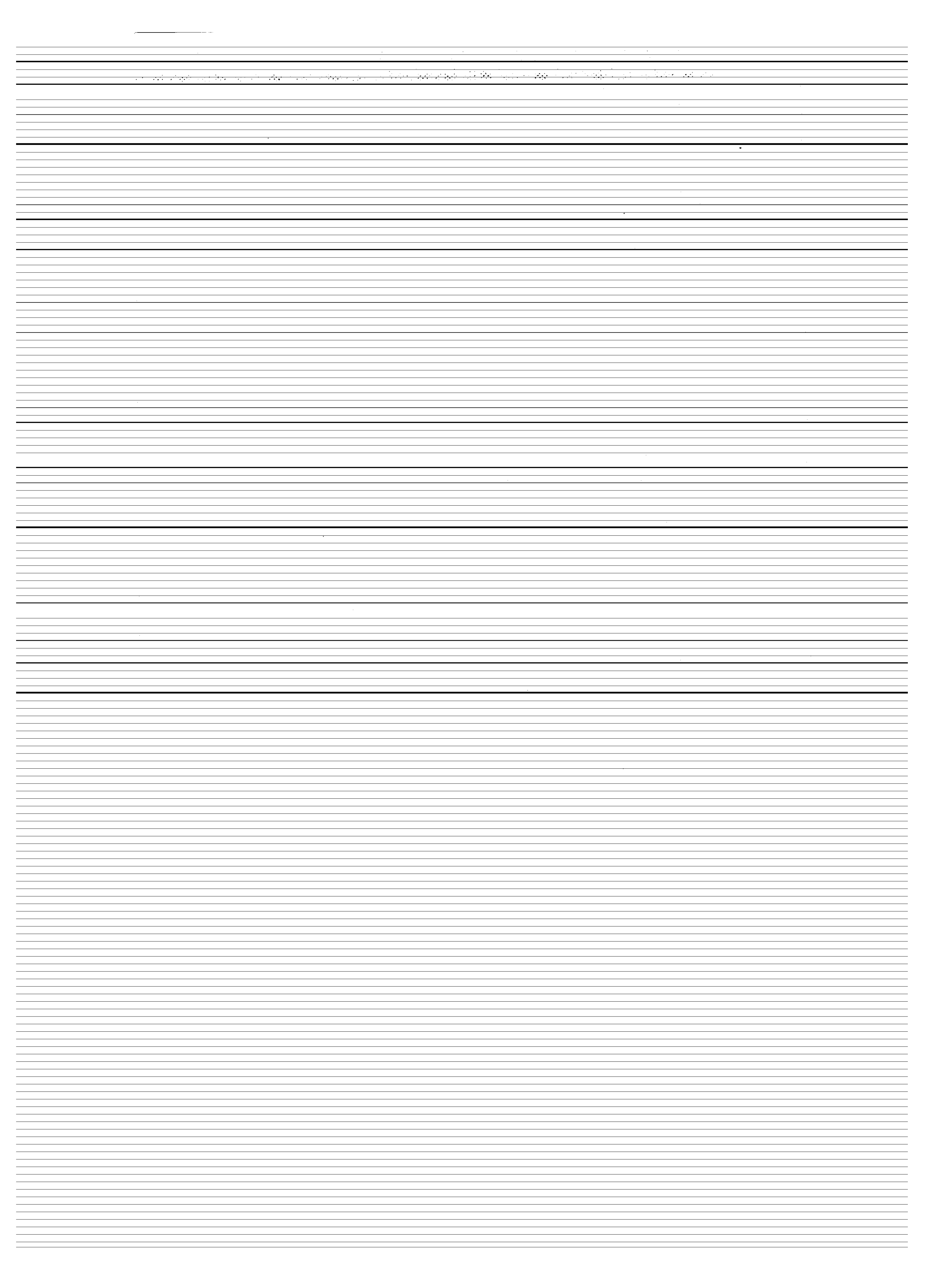
الآيات من ٥٥ إلى ٥٨ من سورة الأنفال.

٢٧- وأكل الربا:

الآيات من: ٢٧٥ إلى ٢٧٧ من سورة البقرة.

وبعد: فقد أجملنا صفات النفس الإنسانية كما تحدثت عنها بعض آيات القرآن الكريم، وجعلنا ذلك مصدرًا موثقًا لمن أراد أن يعرف حقيقة النفس الإنسانية كما تحدث عنها خالقها سبحانه وتعالى؛ لننتقل به إلى الحديث عن تربية الإسلام لهذه النفس الإنسانية فى الباب التالى من أبواب هذا الكتاب، وهو الباب الثالث الأخير منه.

****





الباب الثالث

تربية الإسلام للنفس الإنسانية

ويشتمل على:

التمهيد

والفصل الأول:

الثوابت فى تعامل الإسلام مع النفس.

والفصل الثانى:

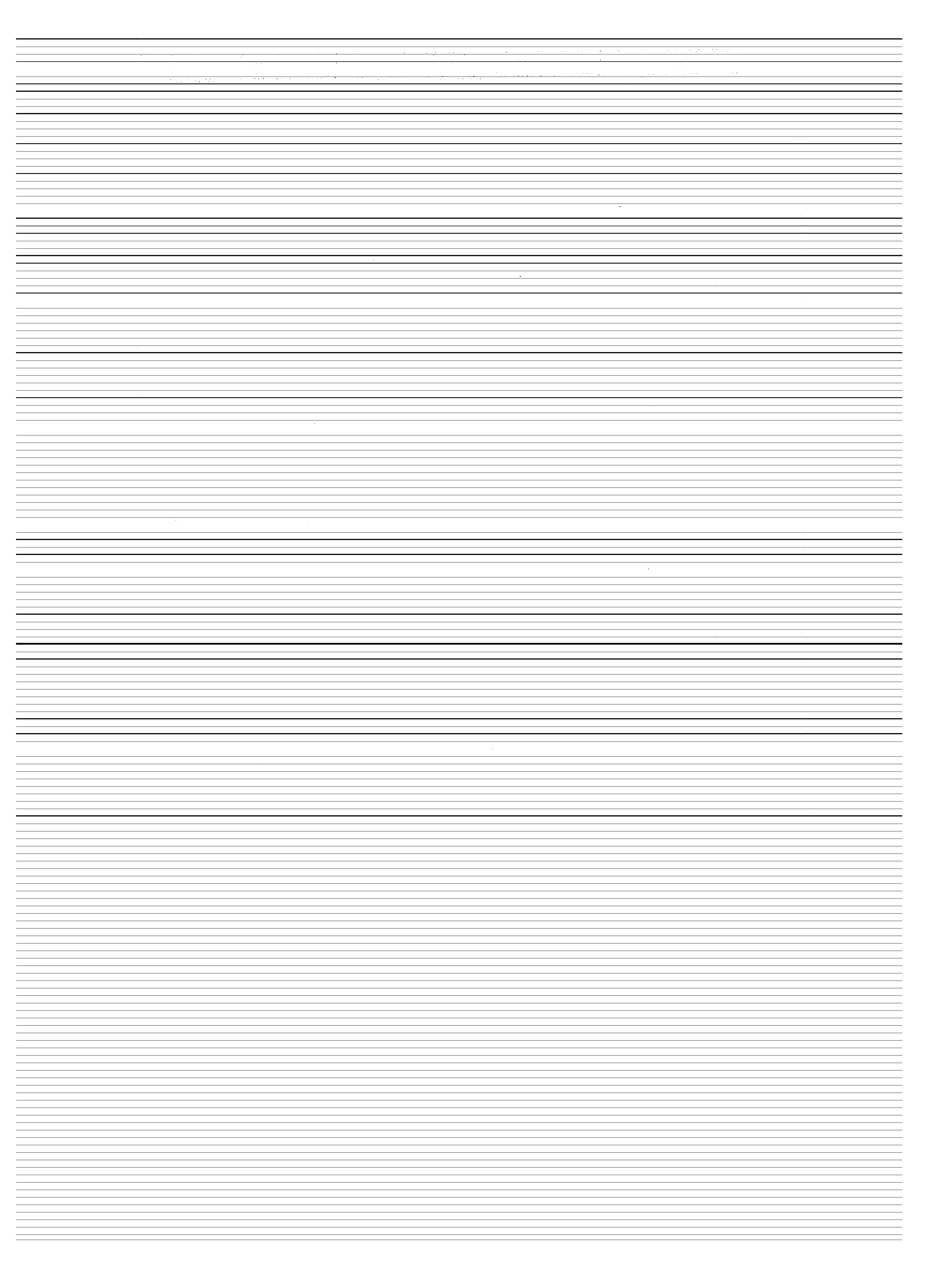
الصحة النفسية والمرض النفسى

والفصل الثالث:

وسائل العلاج:

أولاً: الوسائل الروحية فى العلاج.

ثانياً: الوسائل العملية الميدانية فى العلاج.



التمهيد لهذا الباب

هذا البـاب آخر أبواب هذا الكتـاب، لذلك اجتـهدت أن أجـعله مشـتمـلا على هدف الكتاب والغـاية من تأليفه، وهذا الهـدف هو: علاج النفوس الإنسـانية من أمراضـها، مع توضيح وسائل علاج هذه الأمراض روحيًا وعمليًا ميدانيًا.

وأود أن أؤكد لقارئ هذا الكتاب؛ أن الإسـلام يحمل فى القرآن الكريم وفى سنة النبى ﷺ عـلاجًا مـأمون النتـائج، ثابت الخطوات، سليم الوسـائل، لكل أمراض النفـوس أو الأرواح أو القلوب أو الأخلاق.

وأحب أن أقول للمـسلمين فى كل زمان ومكان: خذوا من قـرآنكم الكريم، ومن سنة نبـيكم ﷺ، ما يعـينكم على التخلص من أمـراضكم النفـسية، خـذوا ذلك مأخـذ العلم والمعرفـة لا مأخذ التمـائم والرُّقَى والتُّوَلة[1]، لأن ذلك شرك كمـا جاء ذلك فى الحديث الصحـيح الذى رواه أبو داود وابن ماجة بسنديهمـا عن عبد الله بن مسـعود رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الرُّقَى والتمائم والتولة شرك»**.

أمَّا الرقيـة المشروعة فهى مـا قاله رسول الله ﷺ: **«أذهب الباس رب الناس. اشف أنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا»**[2].

ونحب أن نذكر فى هذا التمهيد عددًا من الحقائق منها:

- أن الإسلام الدين الخاتم للأديان، ومصدراه الرئيسان القرآن الكريم والسنة النبوية، إنما ختم الله تعالى به الأديان وجعله أتمها وأكملها منهجًا وتشريعًا ونظامًا؛ لكى يكفل للإنسان حياة إنسانية كريمة، لأن الإنسان أكرم مخلوقـات الله وأفضلها عنده سبحانه وتعالى، ومن أجل هذا الإنسان أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الكتب السماوية وختمها بالقرآن الكريم، وجعل رسوله الخـاتم ﷺ لا ينطق عن الهوى، وأعطاه الحق فى تحـديد مفردات المـنهج، وتعيين مكونات النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى للدنيا والآخرة.
- وأن الإسلام يعترف من خلال آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ بأنَّ هذا الإنسان يتنازعه الكـفر والإيمان، والباطل والحق، والشـيطان والملاك، وأن هذه القوى تـتجاذبه، ويحاول كل منها أن يؤثر فيه وأن يجعله ينحاز إليه، ويظل هذا التجاذب بين الشر والخير

(١) التُّوَلة: السحر ونحوه.

(٢) تكملة الحديث السـابق الذى رواه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

طوال حياة الإنسان، فمن اهتدى بهـدى الله ورسوله انحاز إلى الخير والهدى، ومن اتبع خطوات الشيطان ضل وغوى.

- وأن الإسلام بمنهجـه وتشريعه ونظامه يعين الإنسان دائما عـلى أن يتغلب على شيطانه، ويرى أن ذلك إنما يكون بتربية الإنسان تربية إسلامـية؛ لذلك أعطى الإسلام التربية أولية فى مفردات منهجه، وفى تركيب نظامه، وفى كتابه وفى سنة رسول الله ﷺ؛ وذلك ما يجعلنا نقول بكل ثقـة: إن سور القرآن الكريم كلها لا تخلو منها سورة من قـيمة تربوية فاعلة مؤثرة، وكذلك السنة النبوية المطهرة لم يخْلُ باب من أبوابها من قيمة تربوية نافعة لدين الإنسان ودنياه.

- وأن النفس الإنسانية - أو روح الإنسـان أو خلقه أو قلبه - هى الجوهر الحقـيقى للإنسان، وهى سبب حياته بـأمر الله تعالى، وأن صحة الإنسان الجسـدية، وقدرته على أداء وظائفه كلها؛ مرتبط أوثق ارتباط بصحته النفسية، وقوة روحه، واستقامة خلقه وسلامة قلبه، ومن هنا كانت تربية الإسلام لنفس الإنسان وجسده من أوليات المنهج الإسلامى وأساسياته.

* وحديثنا عن التربـية النفسية أو الروحـية للإنسان[1] أو للنفس الإنسانية نسـتهدف منه تأكـيد أن الإسلام يُطِـبُّ لهذه النفس ويزيل عنهـا أسبـاب ضعـفهـا أو انحرافـها أو فسادها، كأحسن ما يكون الطب، وأنجح ما يكون العلاج؛ لأن الذى يعالج هو خالق هذه النفس الذى يعلم عنهـا ما لا يعلم الإنسان عن نفـسه، فهو سـبحانه يعـرف ما توسوس به نفس الإنسان للإنسان.

* ومعنى ذلك - عندى وعند المسلمين - أن الإسلام إذا قال كلمته فى التربية، فهو القول الفصل، وإذا تحدث عن أمراض هذه النفوس فلابد أن يكون حديثه أصدق حديث.

وإذا حدد الإسلام وسائل لعلاج أمراض النفوس، فلابُدّ أن تكون أنجع الوسائل، وأقدرها على العلاج، وأحسنها إذا قورنت بجميع الوسائل الأخرى لعلاج أمراض النفس.

وهذا ما نحاول توضيحه ومـساندته بالأدلة والبراهين فى هذا الباب الأخير من أبواب هذا الكتاب.

والله تعالى يوفق ويعين.

---

(١) لنا بفضل الله عدد من سلاسل الكتب فى التربية هى:
أ- سلسلة التربية فى القرآن الكريم (سبعة كتب).
ب- سلسلة مفردات التربية الإسلامية (عشرة كتب).
جـ- سلسلة التربية الإسلامية المعاصرة (خمسة كتب، هذا الكتاب خامسها).



الفصل الأول

الثوابت فى تعامل الإسلام مع النفس

ويشمل:

- مفهوم الثوابت، ومفهوم التعامل.

أولاً: الثوابت التى يتعامل بها الإسلام مع النفس.

ثانياً: الأسس التى أقام عليها الإسلام نظرته للنفس.

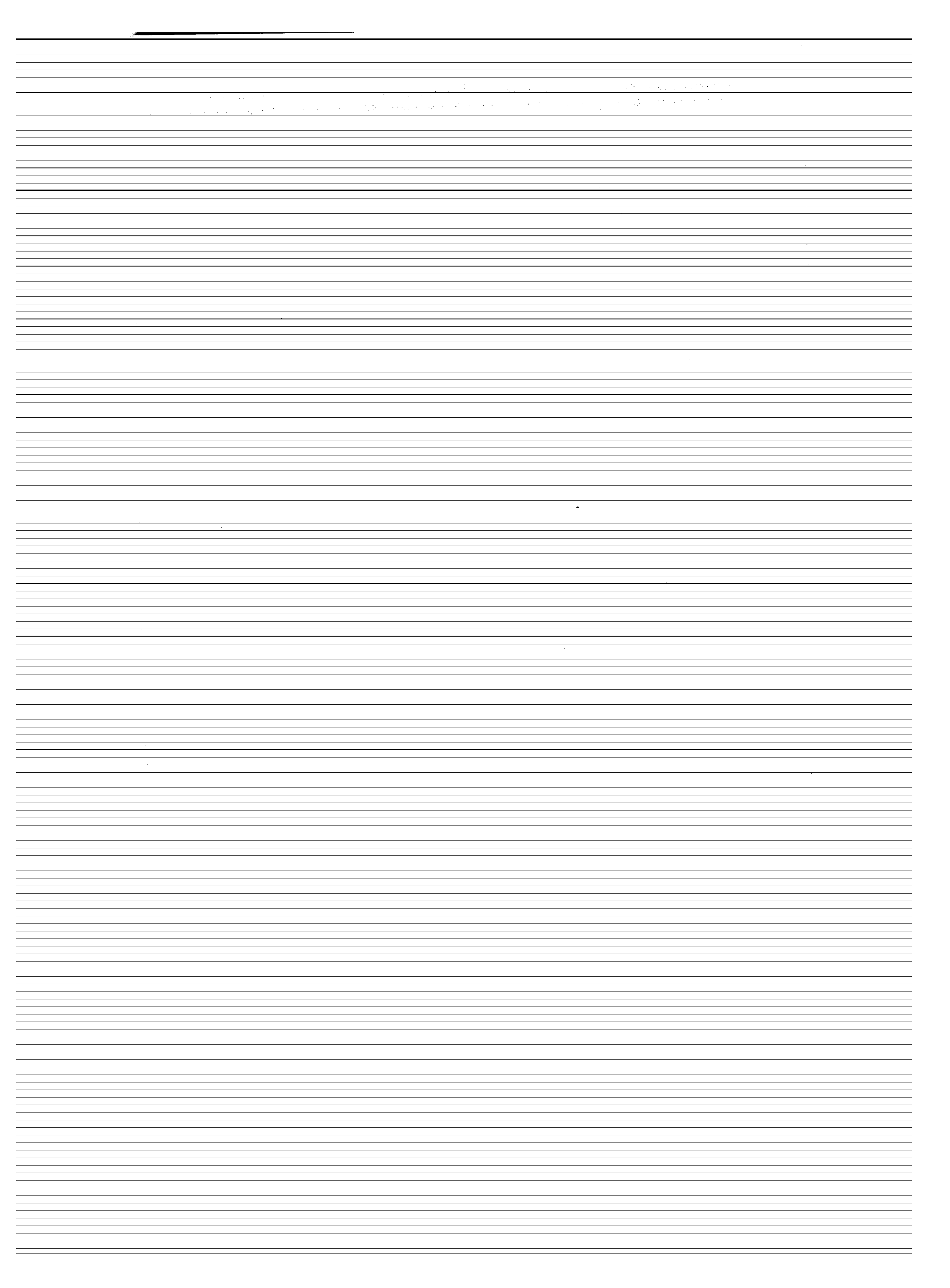
ثالثاً: ارتباط النفس بالخلق والسلوك.

أ- حقيقة الخلق ومفرداته.

ب- أصول الأخلاق وأمهاتها.

جـ- مفردات الخلق حسنه وقبيحه:

- مفردات محاسن الأخلاق.
- ومفردات مساوئ الأخلاق.



مفهوم الثوابت، ومفهوم التعامل

سبق أن أوضحنا - فى مدخل الكتاب - أن النفس والروح والقلب والخلق، قد تترادف فتصبح دالة على معنى واحد هو الإنسان، وقد يكون بينها بعض الفروق الطفيفة التى لا تشكل أثرا كبيرا فى دراستنا هذه، إذ قد اعتمدنا أن هذه الكلمات ألفاظ لمعنى واحد هو «الإنسان».

ولنلق ضوءًا على مفهوم الثوابت ومفهوم التعامل.

أولا: الثوابت التى يتعامل بها الإسلام مع النفس:

الثوابت هى ما لا يقبل التغيير فهى قواعد وركائز مستقرة مستمرة لا تتغير بتغير الزمان والمكان والأشخاص، وعلى سبيل المثال:

فإن الإنسان هو الإنسان من لدُنْ أبينا آدم عليه السلام، وإلى أن تنتهى حياة الإنسانية كلها فى هذه الدنيا، ويقوم الناس لرب العالمين، روحه وقلبه وعقله وجسده، بل احتياجات هذه الروح وذاك الجسد، سواء أكان الاحتياج معنويا كحاجة الروح أو ماديا كحاجة الجسد.

وهكذا سائر الثوابت فى الحياة الدنيا كالقيم والمعانى كالأبوة والأمومة والبنوة والأخوة ونحوها، فهى ثوابت تظل على ما هى عليه من قيم فاضلة لا يرفضها إلا مستهتر بهذه القيم والمعانى.

* والإسلام فى عقيدته وعباداته وأخلاقه ثوابت لا تتغير مهما تطاول الزمان وتباعد المكان وتآلف أو تنافر الأشخاص.

* والإسلام - قرآنًا كريمًا وسنة نبوية مطهرة - يتعامل مع النفس الإنسانية بموضوعية وإقناع وضرب أمثال، ليهذب هذه النفس ويخلصها من عيوبها وسلبياتها، ويصل بها إلى أعلى المستويات الروحية والخلقية التى تطيقها بشريتها، أى يصل بها إلى منزلة النفس المطمئنة، يتعامل معها انطلاقًا من ثوابت وركائز ومسلَّمات، منها:

- أن الله تعالى يعلم ما توسوس به نفس الإنسان للإنسان، فهو سبحانه أعلم بما فيها من أمراض وبما تحتاج إليه من علاج. وعلم الله من الثوابت.

- وأن الله تعالى أنعم على الإنسان بنعمة العقل، وجعل عقله مناطًا لتكليفه، ولم يكلفه ما يشق عليه أو يفوق طاقته، وجعل لهذا العقل قدرة على الفهم والتمييز بين الأشياء نافعها وضارها. وتلك أيضا من الثوابت.

- وأن الله تعالى أنعم على الإنسان بنعمة إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية، ليفسروا للناس معرفة الخير والشر والنافع والضارّ، عندما تعجز عقولهم عن التمييز بين ذلك بسبب ما يشوب هذه الأمور من شوائب يبثها الشياطين فيها فتختلط وتضطرب.

- وأنه سبحانه وتعالى خصَّ الإنسان بالتكريم وزاد عليه فى الإنعام بأن أرسل إليه خاتم المرسلين وأنزل عليه خاتم الكتب السماوية وأكملها وأتمها منهجًا ونظامًا، وأنه جعل هذا المنهج صالحًا لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة، كما أنه تكفل هو سبحانه وتعالى بحفظ هذا المنهج بعيدًا عن التحريف والتصحيف والتغيير والتبديل.

- وأنه سبحانه وتعالى كَرَّم الإنسان أحسن تكريم وأوفاه؛ إذ أوحى إلى خاتم رسله محمد ﷺ بما يجب أن يكون عليه الإنسان من صفات نفسية وخلقية واجتماعية واقتصادية وسياسية؛ لكى يحسن عبادة الله تعالى أولا، ولكى يحسن التعامل مع غيره من الناس والأحداث والأشياء بعد تنقية روحه وخلقه وعقله بعبادة الله تعالى.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠].

- وأنه سبحانه أنعم على الإنسان بأن شرع له قانون الحساب والجزاء على أعماله فى الدنيا إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فدعا الإنسان بذلك إلى الطاعة وإلى العمل الصالح، وحذَّره من أن يعيش حياته أعمى عن طريق الحق والخير.

﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧١، ٧٢].

- وأنه سبحانه نبَّه رسوله الخاتم والمؤمنين فى كل زمان ومكان، إلى أن أعداء الله تعالى وأعداء الحق وأعداء الإنسان سوف يحاولون فتنة الناس وصرفهم عن دينهم بكل طريقة من طرق الفتنة والإغواء عن الحق، وأن من استجاب لهم فوالاهم على هذه المحاولات استحق عقاب الله تعالى.

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

- وأنه سبحانه قد قضى بأن ينصر من تمسك بمنهجه، وأن يجعل العاقبة له، لأن تلك سنته سبحانه وتعالى فى نصر أوليائه وهزيمة أعدائه.

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧].

وهذه الآيات الكريمة من سورة الإسراء تؤكد عددًا من الثوابت فى تعامل الإسلام مع النفس الإنسانية نشير إليها فيما يلى:

*** التكريم:**

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ وصور التكريم هى:

الإحسان إليهم بحسن القوام والاعتدال، والعقل، والنطق، والإرادة والاختيار، والعزة والكرامة.

*** والإنعام:**

﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾

نعمة تسخير الدواب فى البر، وتسخير السفن فى البحر، ونعمة الرزق للجميع، والرزق أعم من الطعام والشراب، إذ يدخل فيه العلم والمال والجاه والسلطان.

*** والتفضيل:**

﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾

والتفضيل مظاهره: العقل والتفكير وإرسال الرسل، وإنزال الكتاب، وتفصيل المنهج، وإقدار الإنسان على التحكم والتسلط على جميع المخلوقات الأرضية بفكره وحيلته ومرونة حركته الإرادية، وتعليم الإنسان ما لم يكن يعلم، ومنحه القدرة على التفكير فى العواقب.

*** والإلزام بالمنهج الحق:**

﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾

والإمام هو الرسول الخاتم أو هو القرآن الكريم أى المنهج، وأشرف الشرف أن ينادى المسلمون يوم القيامة بـ«يا أمة محمد أو يا أهل القرآن» وعند التزامهم بالمنهج فى الدنيا يجزون فى الآخرة أحسن الجزاء.

* والتخلى عن المنهج:

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾

من الثوابت التى يتعامل بها الإسلام مع الإنسان أنه إذا تخلى عن منهج الله ونظامه يصبح كالمصاب بالعمى، فقد عمى عن التمسك به فى الدنيا فكان أشد عمًى فى الآخرة وأبعد عن سبيل الخير والهدى والحق.

* واستمرار الأعداء فى محاولات صرف المسلمين عن منهجهم:

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ... ﴾

العمل الدائب لأعداء الإسلام هو محاولات صرف المسلمين عن دينهم؛ خلقه وسلوكه ومنهجه ونظامه، ولو قبل المسلمون ذلك أو بعضه لاتخذهم الأعداء أصدقاء[١]، كما هو مشاهد فى فترات عديدة من تاريخ المسلمين، على أن المسلمين لو رضوا بذلك لكانوا من أعداء الإسلام.

* وتثبيت المؤمنين على الحق:

وتلك من الثوابت أيضًا، وهى أن الله تعالى يثبت المؤمنين ويرفع عنهم عذاب الدنيا المضاعف وعذاب الآخرة المضاعف أيضا، وذلك من نعم الله على الإنسان.

﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً... ﴾

صرف الله المسلمين عن الاستجابة لأعداء الله من أكبر نعمه سبحانه وتعالى عليهم.

* ورغبة الأعداء فى إخراج المسلمين من أرضهم:

توضيح الله تعالى لهذه الرغبة من الثوابت فى التعامل مع المسلمين، وتبصيرهم بذلك من أكبر نعمه تعالى عليهم.

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾

والثابت هنا هو قانون الله، وهو أن الأعداء لو أخرجوا المسلمين من أرضهم، فلن يستقروا فى أرض المسلمين، بل ينعم الله على المسلمين أن تكون لهم الجولة التالية، فما يستقر الأعداء فيما استولوا عليه من أرض إلا زمنًا قليلاً.

---

(١) كان ذلك شأن أعداء الإسلام ابتداء من المشركين ثم اليهود والنصارى ثم الصليبيين ثم المستوطنين، ثم الصهيونية ثم الصليبية الحديثة ثم العولمة، ثم الولايات المتحدة الأمريكية.

* وإخبار المسلمين ببعض سنن الله تعالى فى خلقه:

وتلك من أكبر النعم لأنها تزرع فى النفوس الثقة فى وعد الله وسننه ونظامه، وتطرد عنهم أشباح الانكسار والانهزام وأوهامهما.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾

سَنَنُ الله تعالى سننا لا تتحول ولا تتبدل، أى لابد من نفاذها، ومن تلك السُّنن:

* سنته فى إهلاك أعداء الحق وأعداء الرسل مهما تطاول بهم جزء من الزمان.

* وسنته سبحانه فى نصر أوليائه، وتمكينهم وتمكين دينهم دين الحق.

* وسنة الله فى المنافقين والكفار والمشركين، أن يصيبهم بعذاب الدنيا بالهزيمة، أو بعذاب الآخرة وهو أشد وأبقى، وهذه السنن جميعًا لا تقبل تحويلاً ولا تبديلاً، ولا يستطيع أحد أن يخل بها، أو يبطل استمرارها واستقرارها.

وبعد، فهذه هى الثوابت التى تعامل بها الإسلام مع النفس الإنسانية.

فما معنى هذا التعامل؟

ثانيًا: الأسس التى تعامل الإسلام بها مع النفس الإنسانية:

تعامل الإسلام مع النفس الإنسانية تعاملاً شاملاً لكل ما يحيط بنفس الإنسان، وما يؤثر فيها من عوامل، وما يحكمها من فطرة فطرها الله عليها، وما يمكن أن تتأثر به وتنحاز إليه من رغبات تمليها عليها الفطرة السوية، أو يشير بها الدين الحنيف، أو يوسوس بها الشيطان، ومجمل ذلك هو ما نسميه الواقعية التى يعيشها الإنسان، تتجاذبه نوازع الخير ونوازع الشر.

تعامل الإسلام مع النفس الإنسانية وفق ذلك كله، لكى ينقله من الضلال إلى الهدى بمحض إرادته وحرية اختياره.

* ومن أجل ذلك وضع الإسلام لهذا التعامل أُسُسًا وقواعد تتميز بالثبات والاستقرار مهما تطاول الزمان وتبدل المكان، ومن هذه الأسس والقواعد، ما نرصده فى هذه الأسس العشر التى اخترناها من بين كثير منها. وهى:

القاعدة الأولى:

هى: العلم والمعرفة:

العلم الصحيح الشامل للنفس الإنسانية فى مختلف ظروفها وما يحيط بها، وما يصلحها وما يفسدها، وما يهديها وما يُضلها، والعلم الذى تعامل به الإسلام مع النفس

الإنسانيــة هو علم الله تعالى الذى وسع كل شىء، والذى دخلت فــيه المعرفــة لهذه النفس الإنسانية.

والعلم والمعرفة فى الإســلام إنما هما مستمدان من الينبوع الثَّـرِّ الذى لا ينفد ولا يغيض وهو علم الله تعالى.

وعلم الله تعالى موضوعه كل ما فى هذا الكون من مخلوقات ومصدره بالنسبة لنا هو: القــرآن الكريم وسنة النبى الخــاتم ﷺ، قــال الله تعــالى: ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعــام: ٨٠]، وقــال جل شــأنه: ﴿ ...وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا... ﴾ [الأعراف: ٨٩]. وقال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه: ٩٨].

وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علمًا ثم يعلِّمه أخاه المسلم**».

وروى ابن ماجة بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «**لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيَّروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار**».

والقاعدة الثانية:

هى: الحرية والاختيار:

الإسلام يتعامل مع النفس الإنسانية، بوصفها حُرَّةً مختارة، بعد أن أنعم الله عليها بنعمة العقل، ونعمة إرسال الرسل عليهم السلام.

ومن تأكـيد الله تعالـى لحرية الإنســان واختيــاره أن جعل عــمل الرسل عليهــم السلام مقــصورًا على البلاغ، ولم يــعط لأحد منهم الحق فى إكراه الناس علــى الدخول فى الدين الذى جاء به الرسول ﷺ، إذ قال ســبحانه وتعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ... ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فــهذا دليل حرية الإنسان واخــتياره، ودليل آخر هو قــوله تبارك وتعالى مخــاطبًا خاتم رسله ﷺ: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ... ﴾ [الكهف: ٢٧ - ٢٩].

وقد أوضحت هذه الآيات الثلاث جوانب هامة من وظائف الرسول الخاتم ﷺ وهى:

- إبلاغ ما أوحاه الله إليه كما أنزله عليه، لأنه كتاب ثابت مستقر دائم إلى يوم القيامة لا يستطيع أحد أن يبدل من كلماته شيئًا، ومن فعل فلن يعصمه من عذاب الله تعالى أحد.

- والتمسك بصحبة من آمنوا معه مهما كانوا فقراء أو غير أصحاب جاه ولا مال، وليس للنبى ﷺ أن يطيع الكفار فى طرد هؤلاء المؤمنين؛ لأن الإنسان مكرم عند الله تعالى لإنسانيته لا لفقره أو ضآلة مكانته الاجتماعية.

- وأوجب الله تعالى على نبيه ﷺ أن يخبر الناس بما جاءهم به من الحق، ثم يترك لهم مطلق الحرية فى أن يؤمنوا بما جاءهم به أو يختاروا الكفر على الإيمان **﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ . . .﴾**.

والقاعدة الثالثة:

هى: أن معيار التفاضل بين الناس هو تقوى الله تعالى:

ومعنى سيادة هذا المعيار أن الإسلام قد حرَّر الإنسان من المعايير الخاطئة الباطلة المختلة، كمعيار التفاضل بالعرق أو الجنس أو الإقليم أو اللون أو الجاه أو السلطان أو القوة والبطش أو العشيرة أو المال، أو أى عرض زائل من أعراض الدنيا، حرر الإنسان من هذه المعايير وأعلى قيمة المعيار الصحيح الذى يتفاضل به الناس فيما بينهم وهو: «**تقوى الله تعالى**».

ولقد فوجئ الناس فى الجزيرة العربية وما حولها ثم فى العالم كله بعد ذلك بهذا المعيار، واستمعوا أو قرأوا لأول مرة قول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** **[الحجرات: ١٣]**

كما فوجئوا بقول الرسول ﷺ فيما رواه أحمد بسنده عن أبى نضرة[1] قال: وحدثنى من سمع خطبة رسول الله ﷺ فى وسط أيام التشريق فقال: **«أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر؛ إلا بالتقوى. أَبَلَّغتُ؟»** قالوا: بلَّغ رسول الله ﷺ.

---

(١) أبو نضرة هو: المنذر بن مالك بن قُطَعَة تابعى من أهل البصرة توفى بها سنة ١٠٨ هـ أو ١٠٩ هـ، وكان حافظًا للحديث، ومن فصحاء أهل البصرة.

والقاعدة الرابعة:

هى: الرحمة والإشفاق على النفس الإنسانية:

الإسلام ينظر للنفس الإنسانية على أنها موضع حُب الله تعالى ورحمته وتكريمه، بل موضع تفضيله على كثير من خلقه، ومحط نعمه الظاهرة والباطنة التى لا تحصى عددًا.

ولقد سرد الله تعالى بعض كبريات هذه النعم فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

ومظاهر هذه النعم:

- التكريم، وهو يشمل: حسن القوام والاعتدال والعقل والمنطق والاختيار، والكرامة والعزة لمن أطاع الله ورسوله.
- ونعمة تسخير المركوبات فى البر كالخيول والجمال ونحوها وهى أقوى من الإنسان.
- ونعمة تسخير المركوبات فى البحر، كالزوارق والسفن ونحوها.
- والرزق من الطيبات المستلذات من المأكولات والمشروبات والملبوسات والزوجات والمساكن.
- وتفضيل الإنسان على كثير من مخلوقات الله تعالى بالعقل والتفكير وإرسال الرسل عليهم السلام.

* ومن كان كذلك عند الله تعالى فلابد أن يتعامل معه الإسلام بالرحمة والإشفاق والرغبة فى هدايته.

والقاعدة الخامسة:

هى: الاعتراف بعيوب الإنسان ووزنها بالميزان الصحيح:

الإسلام دين عملى واقعى ليس مهومًا فى الخيال ولا هو معترف بالأوهام، والنفس الإنسانية فى الإسلام ليست ملائكية ولا شيطانية، ولكنها نفس إنسانية تخطئ وتصيب وتطيع الله حينًا وتقع فى معصيته حينًا آخر.

ومن الإنصاف للإنسان أن يعترف الإسلام بعيوبه وقصوره وتقصيره، ليعالجه ويأخذ بيده.

وهذا الاعتراف بواقع الإنسان قرره القرآن الكريم وأكدته السنة النبوية المطهرة.

- فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

فتلك غالبية النفوس الإنسانية.

وروى الترمذى وابن ماجة وأحمد بأسانيدهم عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**كل بنى آدم خطَّاء وخير الخطائين التوابون**».

وما دام الإسلام قد اعترف بعيوب الإنسان وتقصيره ووقوعه فى المعاصى فلابد له أن يعالجه، وأسلوب العلاج ووسائله هو ما تتضمنه القاعدة التالية من قواعد تعامل الإسلام مع النفس الإنسانية.

والقاعدة السادسة:

هى: فتح باب الاستغفار والتوبة:

وقوع الإنسان فى الذنب والإثم، لا ينجو منه إلا من عصم الله تعالى، وإذا وقع الإنسان فى الذنب فإن ذلك يعنى أنه عصى الله ورسوله ﷺ، فقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ [النساء: ٥٩].

وقد علم الله تعالى وأعلم رسوله ﷺ أن كثيرًا من الناس يذنبون، فقد روى أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «**لو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون، ليغفر لهم**».

فماذا أعدَّ الإسلام لهؤلاء المذنبين؟

- **فتح الله باب الاستغفار لكل من أذنب، وهو سبحانه يغفر لمن استغفره إذا كان مخلصًا فى استغفاره.**

- **وفتح الله تعالى باب التوبة إلى يوم الدين، وأعلن سبحانه أنه يفرح بتوبة عبده، بل إن الله يحب التوابين من عباده.**

* وفتح هذين البابين من رحمة الله الواسعة لعباده، وفى ذلك آيات كريمة وأحاديث نبوية، نذكر منها:

- قول الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

- وقوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ...﴾ [التحريم: ٨].

- وروى مسلم بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل فى أرض دَوِّيَّة مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه؛ فوضع رأسه فنام نومة، واستيقظ وقد ذهبتْ راحلته فطلبها حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه، فالله أشدّ فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته».

وفى رواية لمسلم عن أنس رضى الله عنه: «فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدى وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح».

والقاعدة السابعة:

هى: وضع نظامٍ عظيم الرحمة بالإنسان:

هذا النظام نعمة كبرى من الله تعالى على عباده، وبخاصة الذين يذنبون، وهو نظام أن الحسنة تمحو السيئة، فمن وقع فى ذنب أو سيئة ثم استغفر وتاب، ومارس الحسنات فإن من رحمة الله تعالى أن جعل الحسنات يذهبن السيئات، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

- روى أحمد بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

- وروى أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أزال أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم، فقال: وعزتى وجلالى: لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى».

- وفى رواية لأبى يعلى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل لما لعن إبليس، سأله (إبليس) النَّظرة فأنظره إلى يوم القيامة، فقال: وعزتك لا خرجتُ من قلب ابن آدم مادام فيه روح، فقال الله تعالى: وعزتى وجلالى لا حجبت عنه التوبة مادام فيه الروح».

والقاعدة الثامنة:

هي: ضبط سلوك الإنسان:

فقد أوجب الإسلام على الإنسان المسلم أن يلتزم بمنهج الله تعالى؛ فيمتثل أمر الله تعالى ويجتنب نهيه، متقيدًا فى ذلك بكل القيم الإسلامية.

ومن أجل الوصول إلى هذا الالتزام بطاعة الله تعالى فيما أمر وفيما نهى خوّف الإسلام من ارتكاب الكبائر.

والكبائر كثيرة جمعها الإمام الذهبى المحدث المؤرخ الفقيه فى كتاب له سماه: «الكبائر».

كما أعلنت النصوص الإسلامية وعبارات المحدثين والفقهاء وعلماء الأخلاق المسلمين أن الإصرار على الصغائر يعتبر من الكبائر.

* وفى تعريف الكبيرة كلمات للصحابة رضى الله عنهم ولكبار العلماء.

- فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة.

- وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عندما سئل عن الكبائر: اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها، عند قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ...﴾ [النساء: ٣١]، فكل ما نهى الله عنه فى هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة.

- وقال بعض العلماء: الكبيرة ما توعد الله على فعلها بالنار.

- وقال بعض العلماء: الكفر أكبر الكبائر لأنه يتعلق بالقلب فيفسده وبالعقل فيضله.

والقتل والقطع للأطراف وكل ما يفضى إلى الهلاك ولو كان الضرب والإيذاء، فهو كبيرة، وكذلك الزنى واللواط.

وهناك كبائر تتعلق بالأموال كالسرقة والغصب، وأكل مال اليتيم، وشهادة الزور، واليمين الغموس الذى يستقطع به مال الغير، وتضييع الودائع والأمانات.

ومنها: شرب الخمر ولعب الميسر وقذف المحصنات المؤمنات، والسحر، والفرار من الزحف.

* وقد تتحول الصغائر إلى كبائر مثل:

- استصغار الذنوب الصغيرة.

- والسرور بالصغائر، أو التبجح بفعلها.

- والتهاون بستر الله والمجاهرة بالصغائر.

- وترغيب بعض الناس فيها، أو تيسيرها لمرتكبها.

وفى كل ذلك وردت أحاديث نبوية شريفة نذكر منها ما يحذر من الوقوع فى إثم المجاهرة بالصغيرة.

فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«كل أمتى معافًى إلا المجاهرين؛ يبيتُ أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه، فيصبح فيكشف ستر الله، ويتحدث بذنبه»**.

* وإنما كان الجهر بالذنب حرامًا لمناقضته لطبيعة الدين الخاتم الذى جاء من عند الله، لأن الله تعالى جعل من نعمه على الناس أن يظهر الجميل، ويستر القبيح، ولا يهتك الستر، والمجاهرة بالذنب تُضاد ذلك، وهى كفران بنعمة الستر.

* على أن فى المجاهرة بالذنب إشاعة للفساد فى المجتمع، وذلك يحول بين الناس وبين الإحساس بالأمن، ويشيع الفوضى والاضطراب.

والقاعدة التاسعة:

هى: أنَّ أداء الإنسان لما أوجبه الله عليه شرط للحياة الكريمة:

وذلك أن الإسلام يتعامل مع النفس الإنسانية على أساس أن ما أوجب الله عليها من واجبات - جاءت فى الكتاب والسنة - فى العبادات والمعاملات هو جزء من الدين، وشرط فى حضارة الإنسان، وركن من أركان النهضة الإنسانية والتقدم الاجتماعى والعمرانى.

* وفى تفسير تلك القاعدة نحب أن نوضح بعض الحقائق، مثل:

- أن الله تعالى لم يوجب هذه العبادات لذاتها، وإنما أوجبها لما تحدثه فى نفس الإنسان من آثار إيجابية فى ذاته، وفى المجتمع الذى يعيش فيه، بل فى العالم بأسره.

- وأن لكل عبادة من هذه العبادات أثرًا مباشرًا فى تصفية نفس الإنسان من الشوائب والضلالات وهمزات الشياطين، لأن هذه العبادات جميعًا تقوم على الإخلاص لله تعالى بها، والتخلى عن كل ما يغضب الله تعالى.

- وأن تعامل الإنسان مع ربه ومع نفسه، ومع غيره من الناس إذا كان محكومًا بما أوجب الله تعالى، فقد ضمن الإنسان أنه يسعى فى الطريق الصحيح، ويلتزم الصراط المستقيم، وفى هذا أمان له ولغيره من الخطأ والوقوع فى الآثام.
- وأن شروط النهضة ولُبَّ الحضارة الإنسانية لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال عبادة الله وفق ما شرع، وأن ما تصل إليه بعض الأمم عن غير طريق عبادة الله لا يعدو أن يكون نهضة مادية فحسب، ولا يجاوز من الحضارة إلا قشرة سريعًا ما تسقط ويكون بعد سقوطها الضياع.

* وأن الحياة الإنسانية الكريمة لابد أن تقوم على نهضة شاملة تتناول الروح والعقل والجسد، والمادة التى يحتاج إليها الإنسان، وأن التلاؤم بين الروحى والمادى شرط فى النهضة وفى الحضارة أى فى الحياة الإنسانية الكريمة.

* وأن نفس الإنسان قادرة على أداء واجبات الدين الخاتم دون مشقة أو عنت؛ لأن الله تعالى لا يوجب على عباده ما يشق عليهم؛ فإن أدَّت النفس الإنسانية هذه الواجبات فقد حظيت بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنها زرعت الخير فى الدنيا فسعدت به، وسوف تجنى ثمرة الخير فى الآخرة فتسعد به أيضًا.

* وأن التوقف عن أداء هذه الواجبات أو أداء بعضها دون بعض يؤدى إلى أسوأ الآثار على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع:

- أما على مستوى الفرد فإنه يصاب بالقلق والحيرة والإحساس بالضياع لشعوره بالتقصير والإهمال ومعصية الله تعالى، وتلك بعض الأمراض النفسية الوخيمة العواقب، فضلا عن بعض الأمراض الجسدية الناتجة عن ممارسة ما حرَّم الله تعالى.

- وأما على المستوى الاجتماعى فإن المجتمع الذى لا يؤدى أفراده ما أوجب الله عليهم من عبادات ومعاملات، فإنه يصاب بما لا يحصى من الأمراض الاجتماعية مثل:

* شيوع الاستهتار بالواجبات.
* وانتشار الفواحش، والظلم.
* وفقد الأمن، وضياع الفقراء والضعفاء.
* وانتشار النفاق، والحسد، والغرور.
* والتراجع الحضارى فى كل المرافق.

والقاعدة العاشرة:

هى: أن الإسلام يتعامل مع الإنسان على أساس ما فيه من خير أو شر:

التعامل الـواقعى من الإسلام مع النفس الإنسانيـة، اقتضى الاعتراف بـأن الإنسان قابل لأن يكون خيرًا أو شريرًا، مواليًا لله تعالى ومنهجه ونظامه، أو مواليًا للشيطان وما يوسوس به إليـه من شر، وهذا الاعـتراف بـواقع الإنسان جـعل المنهج الإسـلامى فى التعـامل مع الإنسان يضع ذلك الواقع فى اعتـباره، فيعالج كل حالة بما يلائمـها؛ لكى يصل فى النهاية إلى سيادة الخير، وحصار الشر وحبسه فى أضيق نطاق.

* ومن خطة المنهج الإسلامى فى مـواجهة هذا الواقع الإنسانى وتعديـله إلى ما هو أحسن وأليق بحياة الإنسان، خطَّان:

الأول منهما:

دعم الخير فى الإنسان، ومن وسائل ذلك الدعم:

- حسن عرض أعمال الخير عليه وتبسيطها وتيسيرها له.

- وإغراؤه بأعمـال الخير، من خلال الثناء عـلى فاعل الخير، ووعده بحـسن الجزاء فى الآخرة.

- وتعديد طرق الخير أمام الإنسان، كالصدقة والزكاة، والعون للمحتاج ماديًا أو معنويًا، والكلمة الطيـبة، وإماطة الأذى عن الطريـق، والسعى على الأرملة واليتـيم، وما لا حصر له من أنواع الخير والبر.

والخط الآخر:

مقاومة الشر وحصاره، ومن وسائل ذلك:

- التنفير من الشر ومن فعله، وتقبيحه.

- وتوضيح آثاره فى الإنسان وفى المجتمع.

- وبيان عقاب الله لمرتكب الشر فى الدنيا وفى الآخرة.

- وضرب الأمثال بالأشرار وما حدث لهم فى الأمم الخالية.

وبعد: فأرجو أن أكـون قد وفقت فى الحديث عن الثوابت التى يتـعامل بها الإسلام مع النفس، والأسس التى قد أقام عليها هذا التعامل.

ونتحدث فى الصفحات التالية عن النقطة الثالثة من هذا الفصل الأول وهى: ارتباط النفس بالخلق والسلوك، ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

ثالثًا: ارتباط النفس بالخلق والسلوك:

من المسلَّم به ومن المشاهد المحسوس أن الإنسان مركب من جسم ظاهر يدرك بالحواس، وروح كامنة فى الإنسان - أو نفس أو قلب - لا تدرك إلا بالبصيرة.

ولكل من الجسد والنفس معًا عمل يدرك بالبصر والبصيرة معًا هو الخلق أو السلوك الذى يمارسه الإنسان جسدًا وروحًا؛ فالخلق ترجمة مباشرة لأعمال الجسد وأعمال النفس، وتعبير أمين عنهما.

ولابد أن تكون النفس «الروح» المدركة بالبصيرة أعظم قدرًا فى الإسلام من الجسد المدرك بالبصر، فقد كانت الروح نفخة من روح الله تعالى، وكان الجسد من طين أو حمأ مسنون أو من صلصال كالفخَّار، كما نفهم هذا التشريف وهذا التعظيم للروح والإشارة إلى أصل الجسد من قول الله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

* والعمل المباشر للروح «النفس» والجسد؛ هو ما يصدر عن الإنسان من قول أو صمت، ومن فعل أو تَرْك، ومجموع ذلك هو الخلق أو السلوك، فالخلق مرتبط بالروح والجسد ارتباط المظروف بالظرف، وما فى الوعاء بالوعاء.

* مع ضرورة لحظ أن الأخلاق هى أهم ما يميز الإنسان عن غيره من مخلوقات الله تعالى، وهى عمله الذى يكون عليه حسابه وثوابه أو عقابه، وهى الدليل على أن الإنسان قد أطاع الله ورسوله أو تنكب طريق الطاعة.

* ومن أجل أهمية الخلق فى الإسلام واعتباره ترجمان الإيمان والإسلام والعدل والإحسان، أقام له أكبر أهمية، وأولاه أعظم اهتمام، لذلك امتدح الله تعالى خاتم رسله المعصوم ﷺ، بقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٤].

واعتبره الرسول ﷺ أحسن ما يوضع فى ميزان الإنسان يوم القيامة، فقد روى الترمذى بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**أثقل شىء فى ميزان المؤمن خُلُقٌ حسن...**».

* ومن أجل أهمية الخلق في الإسلام نتحدث عنه في نقاط هي:

أ- حقيقة الخلق وتعريفه.

ب- وأصول الأخلاق وأمهاتها.

جـ- ومفردات الخلق حسنه وقبيحه.

والله المستعان.

أ- حقيقة الخلق وتعريفه:

الأخلاق هي القوى والسجايا التي تدرك بالبصيرة - والخُلُق واحد هذه الأخلاق.

والخُلق هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر من غير حاجة إلى روية وتفكير.

فإن كانت الهيئة بحيث يصدر عنها أفعال جميلة عقلاً وشرعًا بسهولة سميت خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها هو الأفعال القبيحة سميت هذه الهيئة - أي المصدر - خلقًا سيئًا.

* ولا تصدر الأخلاق الحسنة التي ترضي الله تعالى فتوافق ما أمر به وتجانب ما نهى عنه؛ إلا إذا توافرت في النفس صفات رئيسة هي: العلم، والعقل، والتزام الشرع.

- فالعلم: يستعان به على معرفة الصدق من الكذب من الأقوال، ويعين على التفرقة بين الحق والباطل في الأفكار والمعتقدات، وييسر لصاحبه معرفة الجميل من القبيح من الأشياء والأفعال.

* والله تبارك وتعالى يشيد بالذين لديهم العلم، ويعتبرهم أَخْشَى له من غيرهم من الناس، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...**﴾ [فاطر: ٢٨]، ويقول تعالى مفضلاً العلماء على غيرهم: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: ٩].

- والعقل: من نعم الله تعالى على الإنسان، وهو الذي يهدي أو يردي صاحبه، فإن أخذ العقل بما في الشرع هدى النفس إلى الصراط المستقيم، وإذا طرح ما في الشرع أردى صاحبه وأضله الضلال الذي قد يؤدي به إلى الكفر أو النفاق أو معصية الله تعالى.

* والعقل منبع العلم، والعلم ثمرة العقل، والعقل وسيلة الوصول إلى السعادة فى الدنيا والآخرة.

وقد سمى الله تعالى العقل نورًا، والنور فى السموات والأرض مصدره الله تعالى.

وقد قال الله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...**﴾ [النور: ٣٥]. فالعقل يدل الناس على وجود الله تعالى، وعلى عظيم قدرته، وكثير نعمه، وبه الحق والعدل والعلم والفضيلة والهدى والإيمان والإحسان.

- روى ابن المحبّر[١] بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: أثنى قوم على رجل عند النبى ﷺ حتى بالغوا فقال ﷺ: «**كيف عقل الرجل؟**»، فقالوا: نخبرك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير، وتسألنا عن عقله!!! فقال ﷺ: «**إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر، وإنما يرتفع العباد غدًا فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم**».

- وروى ابن المحبر بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه إلى هدى، ويرده عن ردى، وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله**».

- والتزام الشرع: وهذا الالتزام طاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ، وهو الطريق الأسلم والأوضح إلى كل عمل صالح أو قول صالح، وإلى كل فضيلة دعا إليها الإسلام، وهو الذى يبعد الإنسان عن الآثام والشرور.

* والتزام ما جاء به الشرع دليل على صلاح العلم وعلى قوة العقل وعلى الاستقامة على الحق.

والقرآن الكريم يأمر باتباع منهج الله ونظامه فى كثير من آيات القرآن الكريم، ويعبر القرآن الكريم عن هذا الالتزام بطاعة الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء: ٦٩].

وما من رسول من رسل الله تعالى عليهم السلام إلا طلب من قومه طاعة الله وطاعته فيما بلغ به عن ربه سبحانه وتعالى:

(١) فى كتابه: «العقل» وهو داود بن المحبر بن قحذم، يروى عن أبيه، اتهمه بعض العلماء بالوهم.

فقد جاء ذلك على لسان نوح عليه السلام(١).

وعلى لسان هود عليه السلام(٢).

وعلى لسان صالح عليه السلام(٣).

وعلى لسان لوط عليه السلام(٤).

وعلى لسان شعيب عليه السلام(٥).

وعلى لسان عيسى عليه السلام(٦).

- وروى أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: **«أطيعونى ما كنت بين أظهركم، وعليكم بكتاب الله؛ أحلوا حلاله، وحرموا حرامه»**.

* وطاعة الله ورسوله هى الالتزام بمنهج الله ونظامه الذى جاء به رسل الله تعالى عليهم السلام إلى أقوامهم، وبخاصة أولو العزم منهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

ب- أصول الأخلاق وأمهاتها:

أصول الأخلاق وجذورها لم يختلف عليها القدامى والمحدثون، ولا علماء المسلمين ومفكروهم، وغير المسلمين من المفكرين، فقد قال كل هؤلاء: إن أصول الأخلاق هى الفضائل - أى أنواع الخير والبر.

أجمع كل هؤلاء على ذلك حتى أولئك الذين أصيبوا بالغفلة أو الهوى فقالوا باستبعاد الأخلاق من السياسة والاقتصاد. وعلى الرغم من خطأ هؤلاء فى تنحية الأخلاق عن السياسة والاقتصاد، إلا أنهم يقولون: إن أصول الأخلاق هى الفضائل التى تعارف الناس عليها قديمًا وحديثًا.

---

(١) الآيات: ١٠٦ - ١١٠ من سورة الشعراء.
(٢) الآيات: ١٢٤ - ١٢٦ من سورة الشعراء.
(٣) الآيات: ١٤٢ - ١٤٥ من سورة الشعراء.
(٤) الآيات: ١٦١ - ١٦٤ من سورة الشعراء.
(٥) الآيات: ١٧٦ - ١٨٠ من سورة الشعراء.
(٦) الآية: ٥٠ من سورة آل عمران.

* وأصول الأخلاق وهى الفضائل تتميز منها أربعة أصول، اصطلح على أنها أمهات الأخلاق التى ولدتها، وهى:

* الحكمة،

* والعدل،

* والعفة،

* والشجاعة.

وفى تعريف كل من هذه الأربعة كلام كثير لا نستطيع أن نورده هنا، ولكننا نكتفى بالإشارات الدالة فنقول:

*** الحكمة:**

وهى صفة فى الإنسان يدرك بها الصواب والخطأ فى جميع أفعاله الاختيارية.

- وقال الأسلاف من علماء المسلمين: الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل.

- وقالوا: الحكمة إذا وُصِفَ الله تعالى بها فقيل «حكيم» فتعنى أنه يعرف الموجودات وإيجادها على غاية الإحكام، بل هو سبحانه أحكم الحاكمين.

والحكمة إذا وصف بها الإنسان فقيل «حكيم» فإنها تعنى معرفته الموجودات وفعل الخيرات.

والحكمة تطلق على القرآن الكريم لما يتضمنه من الحكمة، وتطلق الحكمة على النبوة عمومًا، كما تطلق على سنة الرسول الخاتم ﷺ.

*** والعدل:**

والعدل أو العدالة هو: المساواة، غير أنه يستعمل فيما يدرك بالبصيرة، كالأحكام.

والعدل هو التقسيط على سواء، وعلى هذا المعنى، روى «بالعدل قامت السماوات والأرض» أى بغير زيادة أو نقصان فى أى جانب من جوانب السموات والأرض، لأنهما قامتا على حكمة الله تعالى وعدله.

- والعدل قسمان:

الأول: عدل مطلق، يقتضى العقل حسنه دائمًا، مثل الإحسان إلى من أحسن إليك، وكفّ الأذى عمن كف الأذى عنك.

والآخر: عدل يعرف كونه عدلاً بالشرع، كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

- والعدل هو المساواة فى المكافأة؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، والإحسان أن يقابل الخير بخير أكثر منه، وأن يقابل الشر بأقل منه أو بالعفو.

- والعدل فى علم الأخلاق هو حالة فى نفس الإنسان، وقوةٌ بها، تسوس الغضب والشهوة، وتحملهما على مقتضى الحكمة، وتضبطهما فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاهما.

*** والعفة:**

هى صفة للنفس الإنسانية أو حالة لها، تمتنع بها من غلبة الشهوة.

- والمتعفِّف هو الذى يتعاطى العفة بنوع من الممارسة والقهر.

- وأصل العفة الاقتصار على تناول الشىء القليل الجارى العُفافة أى البقية.

- وعفَّ الإنسان أى كفَّ عما لا يحل له ولا يجمل به من: قول أو فعل.

- والعفة: ترك الشهوات من كل شىء، ثم غلبتْ العِفة فى حفظ الفرج عما حرم الله.

- وللعفة طرفان؛ يحدث عن كل طرف منهما ما يضاد الطرف الآخر ويناقضه، وهما:

* طرف الاعتدال: الذى يصدر عنه السخاء والحياء والصبر والسماحة والقناعة والورع وغيرها من الصّفات الفاضلة.

* وطرف الإفراط أو التفريط: وهو ما يصدر عنه: الحرص والشره، والوقاحة، والخُبْث، والتبذير، والتقصير، والرياء وغيرها من الصفات الرذلة.

*** والشجاعة:**

والشجاعة: هى الجرأة والإقدام، وهى قوة القلب واشتداده عند البأس.

- وللشجاعة - أيضا - طرفان:

* طرف الاعتدال: ويصدر عنه الكرم والنجدة، والشهامة، والصبر والاحتمال والثبات وكظم الغيظ، والوقار، وغيرها من الصفات الفاضلة.

* والطرف المقابل للاعتدال: ويصدر عنه التهور، والصلف والبذخ، والغضب الشديد، والتكبر والعُجب، وكل ذلك من الإفراط فى الشجاعة.

أما التفريط فى الشجاعة فيصدر عنه: المهانة والذلة، والجزع، والخِسَّة، وصِغر النفس، والانقباض عند ممارسة الواجب والحق.

* وهذه الفضائل الأربع: الحكمة والعدل والعفة والشجاعة هى أمهات الأخلاق وأصولها كما قلنا ذلك آنفًا.

- وإذا اعتدلت هذه الأصول بغير إفراط ولا تفريط؛ صدرت عنها الأخلاق الفاضلة الجميلة.

- وقد قال الأسلاف من علماء المسلمين:

* عند اعتدال هذه الصفات فى الإنسان تصدر عنه جميع الفضائل أى الأقوال الحسنة والأفعال الحسنة، ويصبح بذلك طائعًا لله تعالى ولرسوله ﷺ أى ملتزمًا بمنهجه ونظامه.

* وعند اختلال هذه الصفات أو أصول الأخلاق بالإفراط أو التفريط تصدر عن الإنسان الرذائل والخبائث بكل أنواعها، فيصبح عاصيًا لله تعالى ولرسوله ﷺ، متنكبًا منهجه ونظامه، عاصيًا آثمًا مستحقًا لعقاب الله تعالى فى الدنيا وفى الآخرة، ما لم يستغفر ويتب من هذه المعاصى والآثام.

جـ- مفردات الخُلُق حَسَنه وقبيحه:

هذه المفردات من الكثرة ومن التعدد بمقدار ما يعترى نفس الإنسان من مشاعر ورغبات وأهواء، وهى ليست قابلة للحصر فى صفحات من كتابى.

غير أننا نشير إلى أشهرها فى المجالين، مجال الخُلُق الحسن ومجال الخلق القبيح، ونستعين لله تعالى على ذلك فنقول:

- من أشهر مفردات محاسن الأخلاق ما ورد ذكره أو الثناء عليه فى آيات القرآن الكريم، أو كلمات النبى ﷺ فى سنته وسيرته.

- مفردات محاسن الأخلاق:

* فمما جاء من هذه المفردات للخلق الحسن فى القرآن الكريم:

* قول الله تبارك وتعالى: ﴿...وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

* ففى هذه الآية الكريمة من مفردات حسن الخلق اثنتا عشرة صفة من صفات الأخلاق الحسنة هى:

- الإيمان بالله تعالى،
- والإيمان باليوم الآخر،
- والإيمان بالملائكة،
- والإيمان بالكتاب أو الكتب السماوية،
- والإيمان بالأنبياء،
- وإعطاء المال مع حبه لذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب،
- وإقامة الصلاة،
- وإيتاء الزكاة،
- والوفاء بالعهد،
- والصبر على الحرب وعلى الفقر والحاجة والضرر،
- والصدق فى المواقف وفى كل أمر،
- وتقوى الله تعالى.

* وقوله جل شأنه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

ففى هذه الآيات سبع صفات من صفات الخلق الحسن هى:

- الخشوع فى الصلاة،
- والإعراض عن اللغو،
- وأداء الزكاة،

- وحفظ الفرج عما حرم الله،

- ورعاية العهد،

- ورعاية الأمانة،

- والمحافظة على الصلوات.

* وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٧٧]

وفى هذه الآيات الكريمة أربع عشرة مفردة من مفردات حسن الخلق هى:

- التواضع،

- والإعراض عن الجاهلين والحمقى،

- والذين يبيتون متعبدين لله ويذكرون الله كثيرًا،

- والذين يغلبون الخوف على الرجاء فيقبلون على الدعاء،

- والاعتدال فى الإنفاق على أنفسهم وعلى أسرهم، فليسوا مسرفين ولا مقترين،

- والإخلاص فى توحيد الله تعالى،

- والتنزه عن قتل النفوس التى حرم الله قتلها،

- والابتعاد عن الزنى ودواعيه،

- والذين لا يشهدون الزور،
- والابتعاد عن الناس الذين يضعون أنفسهم فى مواقف لا يرضى الله عنها،
- والمقبلون على من يتلو عليهم آيات الله تعالى،
- والذين يدعون الله لأهلهم وأبنائهم وذرياتهم أن يجعلهم الله قرة أعين لهم،
- والذين يدعون الله أن يجعلهم أئمة فى فعل الخير،
- والصبر على الطاعات والصبر عن المعاصى.

وبعد، فما أكثر آيات القرآن الكريم التى رصدت مفردات محاسن الأخلاق وأثنت على أصحابها.

وعلى سبيل المثال ففى الآيات من: ٢٢ - ٣٩ من سورة الإسراء ست وعشرون مفردة من مفردات محاسن الأخلاق.

وفى الآية: ٣٥ من سورة الأحزاب ثمانى مفردات من محاسن الأخلاق.

وكل ما ذكرت من محاسن الأخلاق فى القرآن، أقل من ثلث ما ذكر فيه من مفردات محاسن الأخلاق، ولكنا أردنا أن نستشهد ببعض الأمثلة.

ومما جاء فى السنة النبوية من مفردات حسن الخلق ما نذكر بعضه فيما يلى:

- روى أحمد بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن»**.
- وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم»**.
- وروى مسلم بسنده عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ادعوا الناس وبشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا»**.
- وروى ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أفشوا السلام وأطعموا الطعام وكونوا إخوانًا كما أمركم الله»**.
- وروى الطبرانى - فى الكبير - بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أفضل المؤمنين إسلامًا من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأفضل المؤمنين**

إيمانًا أحسنهم خلقًا، وأفضل المهاجرين من هجر ما نهى الله تعالى عنه، وأفضل الجهاد من جاهد نفسه فى ذات الله عز وجل».

- وروى الطبراني - في الكبير - بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اكفلوا لى بست أكفل لكم الجنة:

إذا حدث أحدكم فلا يكذب،

وإذا اؤتمن فلا يخون،

وإذا وعد فلا يخلف،

وغضوا أبصاركم،

وكفوا أيديكم،

واحفظوا فروجكم».

- وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس من حق المسلم على المسلم:

ردّ التحية،

وإجابة الدعوة،

وشهود الجنازة،

وعيادة المريض،

وتشميت العاطس إذا حمد الله».

- وروى الترمذى بسنده عن عبد الله بن سَرْجِس المزنى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «السَّمْتُ الحسن، والتؤدة، والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءًا من النبوة».

- مفردات مساوئ الأخلاق:

* ومما جاء من هذه المفردات للخلق السيىء فى القرآن الكريم:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

- وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]

- وقوله عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

* وآيات القرآن الكريم التى حذرت من مساوئ الأخلاق كثيرة، وقد اهتم القرآن الكريم بتوضيح هذه المساوئ حتى لا يقع فى إثمها أحد من المسلمين.

ولقد جعل الله تعالى القرآن الكريم مُيَسَّرًا للذكر، فلا مشقة على أحد المسلمين وهو يتلو كتاب الله أن يعرف هذه المساوئ الأخلاقية ويتجنبها، لأن الله تعالى نهى عنها وأعلن عقابه لمن يرتكب شيئًا منها.

وأستطيع أن نكتفى هنا بسرد بعض هذه المساوئ مؤكدًا أن كل مفردة منها وردت فيها آية قرآنية أو أكثر من آية، ومن هذه المساوئ الخلقية:

- الشرك بالله تعالى،
- وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق،
- والردة بعد الإيمان،
- والتولى يوم الزحف،
- والتخلص من الحياة،
- وعقوق الوالدين،

- وإهمال رعاية الأبناء،
- والظلم والبغى،
- والإفساد،
- وقطيعة الرحم،
- والسرقة وقطع الطريق،
- والجبن،
- والبخل،
- والزنى،
- واللواط والمسافحة،
- وشرب الخمر وتعاطى أى مسكرٍ أو مخدرٍ أو مفتّرٍ.
- ولعب الميسر،
- والرهان،
- والغش،
- والتدليس والخداع،
- والاحتكار،
- وبيع الحاضر للبادى،
- وبيع المسلم على بيع أخيه المسلم،
- والإسراف والتبذير،
- والتقتير،
- والغرور،
- والبطر،
- والكبرياء،
- والخيانة،
- والغدر،

- ونقض العهود،
- والانتقام،
- والغضب الشديد،
- والعنف والقسوة،
- والحسد،
- والحقد،
- والكراهية،
- والغيبة،
- والنميمة،
- واليأس والقنوط،
- واتباع الهوى والشهوات،
- والاستجابة لوسوسة الشيطان،
- والخلاعة والفجور،
- والكذب،
- والبهتان،
- وشهادة الزور،
- والرشوة،
- والتشاؤم،
- والسخط،
- والجزع.

وما لا أحصى من هذه المساوئ الخلقية.

* ومما جاء عن مساوئ الأخلاق فى السنة النبوية المطهرة، ما لا يحصر كثرة، حتى إن بعض العلماء عقدوا بابًا من كتب السنة سموه «باب المناهى»[1] أى الأمور التى نهى عنها

(١) هو الإمام السيوطى جلال الدين (٨٤٩ - ٩١١ هـ/ ١٤٤٥ - ١٥٠٥م) فى كتابيه: الجامع الكبير، والجامع الصغير، وهما من أجمع كتب الحديث النبوى وأيسرها ترتيبًا.

رسول الله ﷺ فى كتابه الجامع الصغير، وقد بلغ عددها مائة وثلاثة وسبعين حديثًا كلها بدأت بقوله: «نهى رسول الله ﷺ: عن....

وكل ما نهى عنه رسول الله ﷺ، هو من مساوئ الأخلاق، ونحن نذكر هنا طرفًا من هذه الأحاديث النبوية الشريفة - جريًا على منهجنا فى كل ما نكتب وهو تأصيل ما أحل الله تعالى وما حرم بآيات من القرآن الكريم، وبأحاديث نبوية شريفة - ومن تلك الأحاديث فى مجالنا هذا:

- روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال: «**إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد**»

- وروى أبو داود بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: «**نهى النبى ﷺ عن الجلوس على مائدة يشرب عليها الخمر، وأن يأكل الرجل وهو منبطح على بطنه**».

- وروى الترمذى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا**».

- وروى النسائى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربعة يبغضهم الله تعالى:**

البَيَّاع الحلاَّف،

والفقير المختال،

والشيخ الزانى،

والإمام الجائر».

- وروى النسائى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والغُلُوّ فى الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغُلُوّ فى الدين**».

- وروى أحمد بسنده عن معاوية رضى الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن النَّوْح والتصاوير، وجلود السباع، والتبرج، والغناء، والذهب والخز والحرير».

- وروى ابن حبان بسنده عن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يتباهى الناس فى المساجد» أى فى بنائها.

- وروى الطبراني في الكبير بسنده عن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن تُكلم النساءُ إلاّ بإذن أزواجهن»:

- وروى الطبراني - في الأوسط - بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب، وثمن الخنزير، وثمن الخمر، وعن مهر البَغِيّ، وعن عسب الفحل».

- وروى الطبراني - في الكبير - بسنده عن عابس الغفاري - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«بادروا بالأعمال ستًا:**

إمارة السفهاء،

وكثرة الشُّرَط،

وبيع الحكم،

واستخفافًا بالدم،

وقطيعة الرحم،

ونشْوًا يتخذون القرآن مزامير، يقدمون أحدهم ليفتيهم؛ وإن كان أقلهم فقهًا».

- وروى الطبراني - في الكبير - بسنده عن معاوية رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أعْرضوا عن الناس، ألم ترَ أنك إن ابتغيت الريبة في الناس أفسدتهم، أوكدت تفسدهم»؟**

إلى غير ذلك من مئات الأحاديث النبوية التي تحذر أو تنهى عن مساوئ الأخلاق[1].

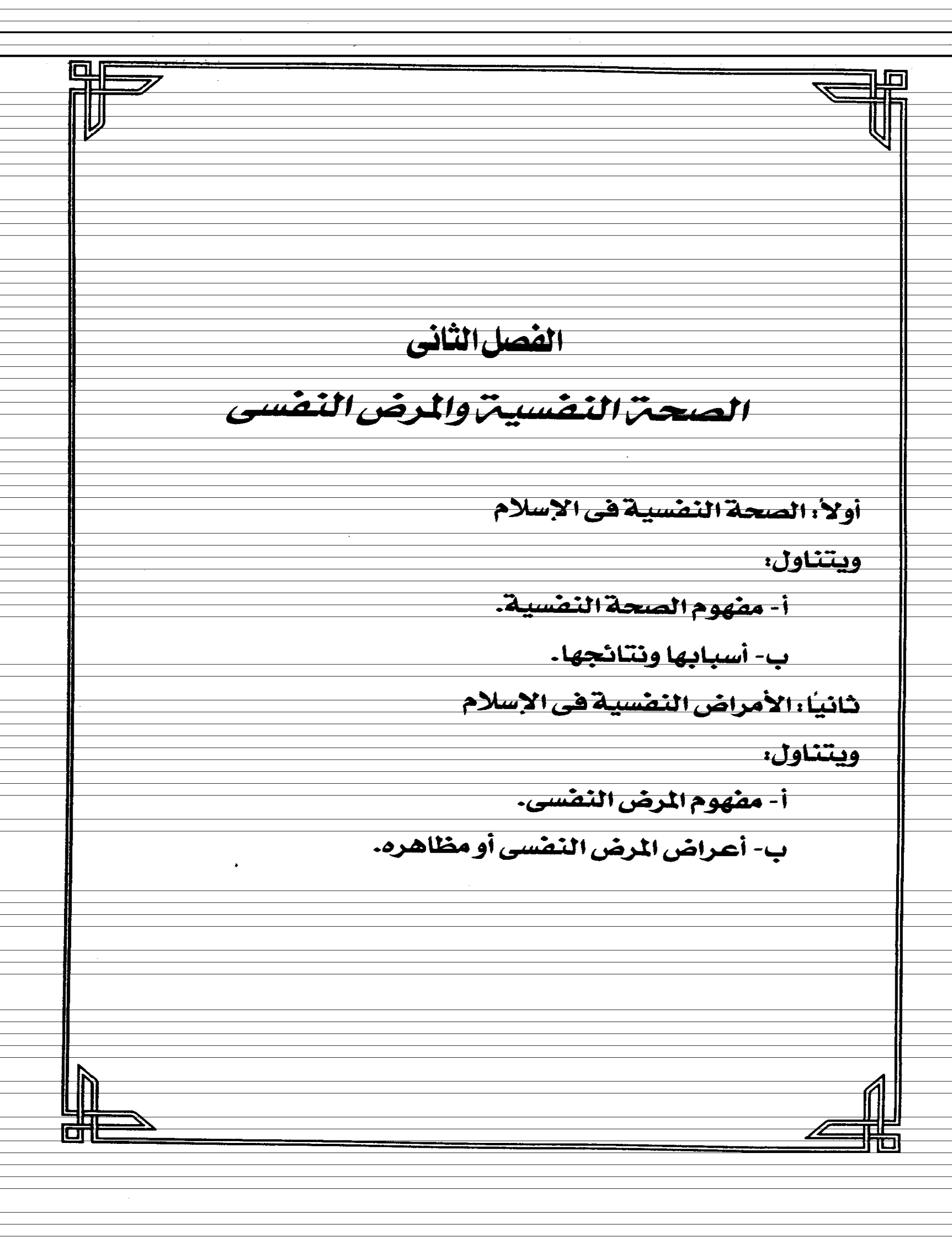
وبهذا ننهي الكلام عن هذا الفصل من الباب الثالث من هذا الكتاب وعنوان هذا الفصل هو:

الثوابت في تعامل الإسلام مع النفس.

ونستعين الله تعالى في الحديث عن الفصل الثاني، ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

****

(١) جمع الإمام السيوطي في: «الجامع الصغير» باب المناهي ١٧٣ حديثًا نبويًا شريفًا.



الفصل الثانى

الصحة النفسية والمرض النفسى

أولاً: الصحة النفسية فى الإسلام

ويتناول:

أ- مفهوم الصحة النفسية.

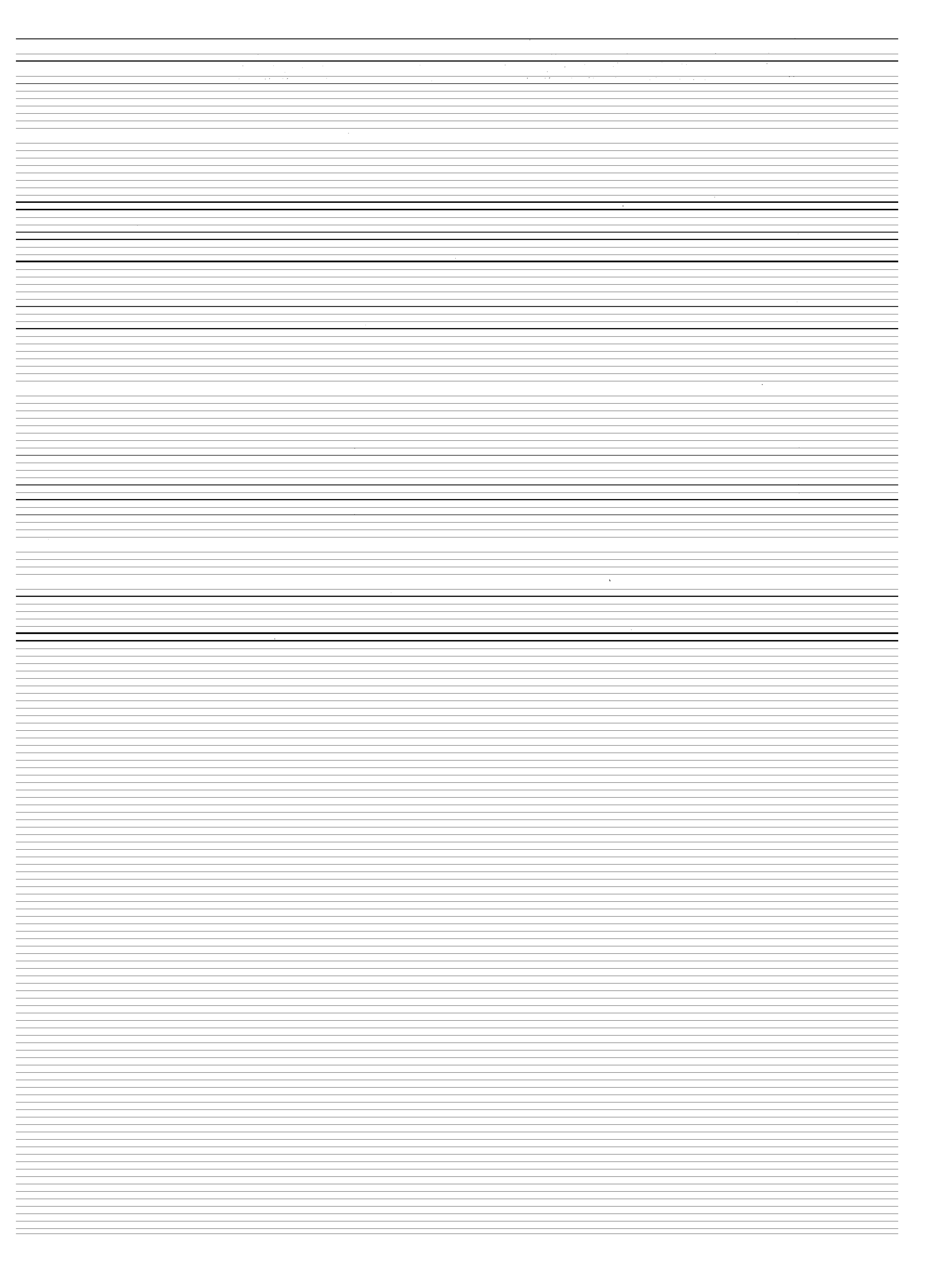
ب- أسبابها ونتائجها.

ثانيًا: الأمراض النفسية فى الإسلام

ويتناول:

أ- مفهوم المرض النفسى.

ب- أعراض المرض النفسى أو مظاهره.



الصحة النفسية والمرض النفسى

الأصل فى الإنسان - كما خلقه الله تعالى وفطره - أن يكون صحيحًا نفسيًا أى روحيًا وخلقيًا وعقليًا وجسديًا ودينيًا واجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا وجماليًا، وجهاديًا، وعندما يعرض لهذه الصحة النفسية بفروعها التى ذكرنا أى عارض يعطلها أو يعطل جانبًا من جوانبها، فهذا هو المرض النفسى الذى يجب علاجه وجوبًا شرعيًا، من أجل أن يتمكن الإنسان من أداء وظائفه فى الحياة الدنيا.

وهذه العوارض مظاهر للمرض ودلائل عليه، والذى يُعْنَى به كتابنا هو المرض النفسى - كما سنوضح مظاهره فيما بعد-.

والمرض النفسى بكل تأكيد يعوق الإنسان عن أداء وظائفه فى حياته الدنيا، ومن هنا كان لابد من العلاج، أخذًا بالأسباب واستجابة لقول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ...﴾** [التحريم: ٦].

والوقاية التى أمرنا الله تعالى بها، وجعلها بصيغة الأمر تتجه مباشرة إلى أن يقى الإنسان نفسه من النار، أى عذاب الله تعالى يوم القيامة، ولا يستطيع الإنسان أن يقى نفسه وأهله من النار إلا أن أدَّب نفسه وأهله وكل من يليهم، وألزمهم بعد إقناع بفعل الخير، واجتناب الشر، فتلك هى الوقاية الحقيقية من النار.

والمرض النفسى من أخطر أمراض الإنسان إذ قد يترتب عليه مرض عقلى أو جسدى أو اجتماعى... وفى جميع أنواع الأمراض فإن الإسلام أوجب العلاج على المريض أو على ذويه؛ لأن رسول الله ﷺ قال، فيما رواه أصحاب السنن الأربعة(١) بأسانيدهم عن أسامة ابن شريك رضى الله عنه: **«يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم»**.

(١) أصحاب السنن الأربعة هم:
الإمام الترمذى، فى كتابه المشهور «السنن».
والإمام النسائى، فى كتابه أيضًا «السنن»
والإمام أبو داود فى كتابه: «السنن».
والإمام ابن ماجة فى كتابه: «السنن».

* والذى نحب أن نؤكده الآن هو : أن الصحة النفسية هى الأصل فى الإنسان، وأن لهذه الصحة النفسية أسبابًا عديدة معروفة لكل من يفقه دين الإسلام، وأنه يجب الأخذ بهذه الأسباب.

كما أن للصحة النفسية نتائج باهرة تصلح الإنسان فى دنياه وآخرته.

* ومما نحب أن نقرره كذلك أن المرض النفسى عارض وأن له أسبابًا عديدة تؤدى إليه، وأن من الواجب على الإنسان أن يدفع أسباب المرض النفسى عن نفسه، لأن ذلك جزء رئيسى من العلاج.

من أجل ذلك أوجب الله تعالى هذا العلاج بقوله تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ...﴾ وقول رسوله الخاتم ﷺ: «يا عباد الله تداووا...».

وهذه الصحة النفسية للإنسان، مفهومها وأسبابها ونتائجها هى النقطة الأولى من هذا الفصل.

وهذه الأمراض النفسية، مفهومها وأعراضها هى النقطة الثانية من هذا الفصل الثانى من الباب الثالث من هذا الكتاب.

والله تعالى يوفق ويعين.

أولاً: الصحة النفسية فى الإسلام:

تعنى هذه الصحة النفسية للإنسان أن يكون الإنسان راضيًا عن ربه، وأن يكون الله تعالى راضيًا عنه، ولن يصل المسلم إلى ذلك إلا إذا أدى فروض ربه، وتقرب إليه بالنوافل التى شرع، وهذا وذاك يحتاج إلى صحة نفسية، غير أننا بحاجة إلى أن نزيد هذا الأمر إيضاحًا، فنقول:

أ- مفهوم الصحة النفسية:

الصحة النفسية تعنى البراءة من العيوب المادية أو المعنوية التى تعترى الإنسان نفسه وعقله وجسده، فإن وُجدت هذه العيوب وجب إزالتها، وذلك هو العلاج.

والنفس فى الإسلام تصح وتمرض كما يحدث ذلك للجسد سواء بسواء.

روى ابن ماجة والإمام أحمد بسنديهما عن معاذ بن عبد الله بن خُبَيْب عن أبيه عن عمه رضى الله عنه قال: كنا فى مجلس فجاء النبى ﷺ، وعلى رأسه أثر ماء، فقال له

بعضنا: نراك اليوم طيب النفس، فقال: «أجل والحمد لله» ثم أفاض القوم في ذكر الغنَى، فقال: «**لا بأس بالغنَى لمن اتقى، والصحة لمن اتقى خير من الغنى، وطيب النفس من النعم**».

وروى ابن ماجة بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس؛ الصحة والفراغ**».

وروى البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال: «**كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل...**» وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول: خذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.

* فالصحة النفسية للإنسان فى الإسلام تعنى أن تكون نفس الإنسان بريئة من العيوب والأمراض التى يتسبب فيها فى الغالب بُعْد هذه النفس عن الإسلام، قيمه ومبادئه وأحكامه ونظمه.

* وكنا قد أشرنا من قبل[1] إلى مظاهر الصحة النفسية عند علماء النفس، وذكرنا هناك اثنى عشر مظهرًا من مظاهر الصحة النفسية عندهم، آخذين ذلك عن بعض علماء النفس المسلمين - فى مصر -.

ولم نتوسع فى الحديث عن مظاهر الصحة النفسية عند علماء النفس الغربيين، وإنما اكتفينا بالإشارات الدالة، فرارًا منا من النقل عن الغرب، واكتفاءً بما فعله علماء العرب والمسلمون عنهم، مع تحفظنا على بعض ما نقلوه عنهم.

ب- الصحة النفسية؛ أسبابها ونتائجها:

جمعنا الأسباب والنتائج معًا، لما بينهما من وثيق الصلة وشديد الارتباط، وإن كنا بدأنا بالأسباب ثم ذكرنا النتائج، فكان ذلك نوع فصلٍ بينهما.

مما تعنيه الصحة النفسية بالإضافة إلى ما قلنا، أن يكون الإنسان قادرًا على ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة الآمنة المنتجة المستهدفة لرضا الله تعالى أى سعادة الدنيا والآخرة.

* غير أن الصورة المفصلة للصحة النفسية فى الإسلام تعنى أمورًا على جانب كبير من الأهمية هى:

- أن يلتزم الإنسان - لكى تصح نفسه وتبرأ من العيوب - بالقيم التى جاء بها الإسلام فى مجالات الحياة كلها.

(١) كان ذلك فى النقطة السادسة من الفصل الثانى، من الباب الأول من هذا الكتاب.

- وأن يستمد الإنسان من مبادئ الإسلام وقواعده العامة فى كل أقواله وأعماله وحركته وإسهامه فى بناء المجتمع وتعاملاته كلها، وعمله على دفع المفسدة وجلب المصلحة.

- وأن يلتزم بشرع الإسلام وأحكامه فى سلوكه الشخصى وسلوكه الاجتماعى، وحقوقه وواجباته، وأن يلتزم المصلحة، فى سلمه وحربه وعهوده ومواثيقه.

- وأن يعيش الإنسان حياته الدنيا وفق نظم الإسلام فى مرافق الحياة، ابتداءً من نظامه الروحى والجسدى والخلقى والعقلى وانتهاء بنظامه الجمالى والجهادى.

إن تقيد الإنسان بذلك كله هو الذى يحقق له الصحة النفسية ويباعد بينه وبين الأمراض النفسية.

وبيان ذلك:

١- أن القيم الإسلامية تحقق للإنسان عند التقيد بها صحته النفسية، فلا تسمح لمرض نفسى أن يتسرب إليه.

وهذه القيم الإسلامية - فى تصورنا مع الإيجاز - سبع نشير إليها فى إيجاز وهى:

أ- توحيد الله تعالى إلهًا وربًا وخالقًا ورازقًا وتنزيهه عن الشريك والمثيل.

* ونتيجة هذا التوحيد أن المسلم الموحد لا يَتَلَقَّى إلا عن الله تعالى؛ كتابه وسنة نبيه ﷺ، لأن التلقى عن سواه ضلال وضياع يفضى إلى الشرك.

ب- والإسلام لله تعالى لمنهجه وشرعه، بأداء ما فرض الله عليه والتقرب إليه بما شرع له من نوافل.

* ونتيجة هذا الاستسلام لشرع الله ومنهجه هى السلامة من السلبية والبراءة من القعود عن أداء الواجب وفعل الخير والوصول إلى درجة حب الله تعالى له، ومن أحبه الله تعالى كان معه فى كل أمره، وحسبه ذلك شرفًا وكسبًا، وسعادة فى الدنيا والآخرة.

جـ- والعدل: وهو من أكثر القيم الإسلامية أثرًا فى سلوك الإنسان، وتبدأ فائدة ممارسة هذه القيمة فى ممارسة الإنسان العدل مع نفسه بإلزامها بواجباتها من عبادات ومعاملات وصبرهاعلى ما تكره وصبرها عما تحب، ثم العدل مع الناس أى أخذ الإنسان لما له وعطاؤه لما عليه.

* ونتيجة تطبيق هذه القيمة؛ أن تسلم النفس من الظلم والعدوان ونسيان الواجبات، وعندما يتحقق ذلك فإن الإنسان يعيش حياة إنسانية كريمة كما شرع الله تعالى له.

د- والإحسان: التمسك بهذه القيمة يضفى على حياة الإنسان جمالاً وجلالاً، ومتعة نفسية.

والإحسان قيمة عالية كتبها الله تعالى على كل شيء من العبادة إلى المعاملة، والإحسان له معان عديدة منها أنه مراقبة الله تعالى والإجادة، وأن يأخذ الإنسان أقل مما له وأن يعطى أكثر مما عليه.

* ونتيجة ممارسة هذه القيمة هى: الراحة النفسية، والحصول على حب الله تعالى وحب الناس، وما يترتب على ذلك من إزالة أسباب الخصام والتنازع ليحل محل ذلك الوئام.

هـ- والتخلى عن الرذائل والدنايا والسفاسف، وهى قيمة فرضها الله تعالى، لأنه حظر على الإنسان كل رذيلة خلقية، وأوعد المتصف بها، ووعد المتخلى عنها، وهذه الرذائل هى كل ما حرم الله تعالى وكل ما كرّه الناس فيه.

* ونتيجة التمسك بتلك القيمة هى تنقية الفرد والمجتمع من الرذائل والجرائم والمخالفات، وكل ما يعود على الفرد والمجتمع بالشرور والأضرار.

و- والتحلى بالفضائل الأخلاقية، والفضائل فى الإسلام هى الصفات الشبيهة بصفات الله تعالى التى تطيق الفطرة البشرية الاتصاف بها ولا تشق عليها.

ويمكن معرفة هذه الصفات والفضائل فى التدبر فى أسماء الله تعالى وصفاته، والتحلى بها، كما يمكن معرفتها بالتأمل فى صفات الرسول الخاتم ﷺ وأخلاقه.

والتحلى بهذه الصفات واجب شرعى يدخل فى صميم العمل الصالح الذى يترجم عن الإيمان.

* ونتيجة التمسك بهذه القيمة هى سلامة النفس من عيوب المعاصى والآثام، مما ينعكس بأحسن الأثر على الفرد والمجتمع، والحياة الإنسانية كلها.

ز- وقيمة الجهاد فى سبيل الله، وهى أرفع القيم فى الإسلام لأنه ذروة السنام.

وقيمة الجهاد تعنى بذل أقصى الوسع فى إقرار الحق والعمل على سيادته، ومحاربة الباطل ومقاومة أنصاره، وللجهاد وسائل عديدة تبدأ بإنكار القلب وتستمر حتى تصل إلى استعمال القوة وحمل السلاح، ولا يُعْفِى الإسلام من الجهاد أحدًا إلا العاجز عنه، لأن الجهاد عبادة بل قمة العبادات فى الإسلام.

* ونتيجة التمسك بقيمة الجهاد هى إحقاق الحق، وقمع الباطل والضلال، وتفريق أنصار هذا الباطل، ليعيش الناس فى أمن واطمئنان، فينطلقوا إلى العمل والإنتاج فى كل مرفق من مرافق الحياة.

وبعد: فإن التمسك بهذه القيم السبع - وهى بعض القيم الإسلامية - يكفل لمن تمسك بها صحة نفسية وقدرة على العمل والإنتاج، وذلك من شأنه أن يباعد بينه وبين أى مرض نفسى، بل يحول تمامًا بينه وبين هذا المرض النفسى.

٢- وأن المبادئ الإسلامية والالتزام بها، يمنح الإنسان من أسباب الصحة النفسية ما يجعله قادرًا على التجاوب مع كل ما تقتضيه هذه المبادئ من أعمال.

والمبادئ الإسلامية هى القواعد الكلية الأساسية التى يقوم عليها الإسلام فكرة وعملاً ودعوة وحركة وجهادًا، وإسهامًا فى بناء المجتمع وتحقيق الأمن فيه بجلب المصالح ودَرْءِ المفاسد.

ومبادئ الإسلام أو قانونه العام الذى يوجب على المسلمين أن تُحترم هذه المبادئ وأن يُعمل بها، نستطيع أن نشير منها إلى مبادئ سبعة نجد فى الاستشهاد بها كفاية، وهى:

أ- حرية التفكير وحرية النَّقد:

من المسلَّم به لدى من يعلمون عن الإسلام ما يرفع عنهم الجهل به أن التفكير والتعقل والتدبر فيما يحيط بالإنسان فريضة فرضها الله تعالى لا يجوز لمسلم أن يتخلى عنها؛ ودليل ذلك أن القرآن الكريم نوه بالعقل، واعتبره أصلاً فى الأمور كلها ابتداء من أمر العقيدة إلى سائر أنواع التكاليف الشرعية، بل أوجب القرآن الكريم الرجوع إلى العقل فى معظم الأمور وأمر بالعمل وفق ما تقتضيه هذه العقول.

وإن عشرات الآيات القرآنية بل مئاتها تدل على أمرين بالغى الأهمية فى مجال حرية التفكير والنقد.

الأول منهما:

أن العقل الذى يخاطبه الإسلام هو العقل الذى يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميز بين ما يليق وما لا يليق، ويوازن ويتدبر، وأن العقل المقابل لهذا العقل هو العقل الجامد المتعنت الضال.

والأمر الآخر:

أن التفكير، واستعمال العقل والتدبر فريضة فرضها الله تعالى على الإنسان، لكى يدفع عن نفسه الجمود والتعنت والضلال، كما يدفع عنها المؤاخذة ويصل بها إلى درجة الرشد والحكمة.

* ومن علامات احترام الإسلام للعقل وتوظيفه فى التفكير والتدبر والنقد ما نشير إليه فيما يلى:

- رفض الإسلام للكهانة والتوسط إلى الله بالأحبار والرهبان.
- ورفضه للهياكل والمحاريب، وتقديم القرابين لغير الله تعالى.
- واتجاه خطاب التكليف إلى العقل مباشرة دون وساطة.
- وخطاب الله تعالى للعقل الإنسانى من خلال ما أوحى إلى خاتم أنبيائه ﷺ، ليبلغه للناس.
- ومنح العقل الحرية والاختيار بصورة عامة شاملة حتى فى أن يؤمن أو يكفر بعد أن يستمع إلى الحق، وهذا من صميم حرية التفكير وحرية النقد، وما أراها قد كُفِلتْ بمثل ما كفلها الإسلام.

* وعمل العقل وهو التفكير والنقد، يجب أن يتحرر من عدد من العيوب التى تعوقه عن أداء عمله مثل:

- الوقوع فى أسر التقليد، حتى لو كان تقليد الآباء والأجداد والسالفين فى الأمم الخالية.
- والوقوع فى الخوف من أرباب السلطان والجاه، الذى قد يصرفهم عن حرية التفكير وحرية النقد.
- والوقوع فى خوف السلطة الدينية التى يدعيها الكهان والأحبار والرهبان، لأن ذلك يلغى العقل ويشله.

وآيات القرآن الكريم الدالة على ذلك كثيرة(١).

(١) ذكرنا ذلك بالتفصيل فى كتابنا: التربية العقلية من سلسلة مفردات التربية الإسلامية. دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.

* وإنما جعل الإسلام حرية التفكير وحرية النقد فريضة، لأن الإنسان فى كل زمان ومكان يستطيع أن يهتدى بعقله إلى العقيدة الصحيحة.

وحرية النقد ملازمة لحرية التفكير، والنقد باب واسع يتيح للعقل أن يتأمل ويتدبر وينظر ويحسب ويعتبر ويعيد التفكير، وكل هذه المفردات دعا إليها القرآن الكريم واعتبرها من صميم حرية التفكير وحرية النقد.

وهذا المبدأ الذى جاء به الإسلام فكفل به حرية التفكير وحرية النقد، جعله حقًا لكل إنسان، وواجبًا على كل مسلم، والآيات القرآنية الداعية إلى التفكير والنظر والاعتبار والسير فى الأرض لأخذ العبرة أكثر من أن تحصى.

ب- والعمل والحركة:

العمل من مبادئ الإسلام وقوانينه الأساسية، ولم يُعفِ الإسلام أحدًا من المسلمين من العمل مهما كانت مكانته، إلا أن يكون عاجزًا عن العمل.

- فالعمل الذى يطالب به الإسلام المسلمين هو العمل المبنى على العلم والاقتناع، ومن هنا فلا قيمة لعمل لم يكن أساسه العلم، ولا قيمة لعمل إذا كان من يعمله غير مؤمن به.

* والله تبارك وتعالى طالب المسلمين بالعمل إذ قال: ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [التوبة: ١٠٥]

* والرسول ﷺ يشيد بقيمة العمل وأهميته فى حياة الإنسان، أيا كان هذا العمل ما دام مباحًا، وما دام يغنى الإنسان عن سؤال الناس.

روى البخارى بسنده عن الزبير بن العوام رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتى الجبل، فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها، فيكُفَّ الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**».

لهذا كان العمل واجبًا شرعيًا على كل مسلم مهما كان قليلاً أو خافيًا، لأن الله تعالى سوف يظهره ويخرجه للناس، ليحمد الناس صاحبه، فقد روى أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كُوَّة؛ لأخرج الله عمله للناس كائنًا ما كان**» أى رآه الناس.

ورؤية الناس للعمل ذات فائدتين أكيدتين:

إحداهما:

تعود على الناس الذين رأوا العمل الصالح، إذ تشجعهم هذه الرؤية للعمل الصالح على أن يعملوا مثله، فيحظون برضا الله تعالى.

والأخرى:

تعود على مَن رآه الناس يعمل الصالحات، حيث يحمدون له عمله، ويقبلون عليه ويحبونه ويثنون عليه وعلى عمله، وفى هذا رضا لنفس العامل وسعادة.

- والحركة بمعنييها؛ التحرك بالإسلام فى الناس والآفاق، ومحاولة تغيير كل ما يخالف الإسلام إلى ما لا يخالفه.

هذه الحركة بنوعيها مطلوبة من كل مسلم بلغ حدَّ التكليف وكان قادرًا عليها، فلا يجيز الإسلام للمسلم أن يقصر عن الحركة بهذا الدين أو يكسل أو يؤثر الدعة والراحة، لقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [الجمعة: ١٠].

وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام؛ ثلاث عقد يضرب كل عقدة مكانها؛ عليك ليل طويل فارقد:**

فإن استيقظ فذكر الله انحلتْ عقدة،

فإن توضأ انحلت عقدة،

فإن صَلَّى انحلتْ عقده كلها؛

فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان».

وروى البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ يقول: «**اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من عذاب القبر**».

فهو ﷺ يتعوذ بالله تعالى من الكسل، فكيف يجوز لمسلم أن يكسل عن الحركة فضلاً عن أن يقعد عنها.

* إن عبادة الله تعالى حركة وعمل.
* والتعامل مع الناس حركة وعمل.
* والدعوة إلى الله حركة وعمل.
* والعدل والإحسان حركة وعمل.
* والأمر بالمعروف حركة وعمل.
* والنهى عن المنكر حركة وعمل.
* والتعاون على البر والتقوى حركة وعمل.
* والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا قمة من قمم الحركة والعمل.
* ودفع المفاسد عن حياة الناس حركة وعمل،
* وجلب المصالح للناس حركة وعمل؛ فعن أى تلك الأعمال والحركات يقعد المسلم أو يكسل أو يؤثر الدعة والراحة؟

ولا حصر للقيم الإسلامية(١)، فمن أولياتها شعب الإيمان البضع والسبعون شعبة، وما يمكن أن يضاف إليها من أعمال البر والخير، ولابد أن يكون منها الكف عن كل ما يغضب الله تعالى.

إن القيمة الإسلامية هى كل عمل يثيب الله على فعله، أو يعاقب على تركه.

جـ- والإسهام فى بناء المجتمع:

ذلك مبدأ من مبادئ المجتمع الإسلامى، وقاعدة من قواعد الإسلام وواجب أوجبه الله على كل مسلم من أهل القدرة على الإسهام فى بناء المجتمع المسلم.

* والمجتمع المسلم يحتاج لكى يُبْنَى بناء صحيحًا منتجًا موافقًا لما أراده الله تعالى للناس من تكريم، يحتاج إلى أمور كثيرة لابد أن تتضافر عليها الجهود، ولا يمكن لرجل وحده أن يقوم بذلك؛ لذلك شرع الله تعالى التعاون على البر والتقوى وأوجبه، ولم يسمح بالتعاون على الإثم والعدوان بل حرَّمه.

---

(١) نحاول التقريب فى حصرها فى كتاب لنا بعنوان: «القيم الإسلامية فى الكتاب والسنة» - فى طور الإعداد نسأل الله العون.

* وبناء المجتمع المسلم لا يقوم إلا على أسس وركائز من مقوماته الأساسية مثل:

- العلم النظرى أى البحث العلمى على أعلى مستوى.
- والعلم العملى التطبيقى على أعلى مستوياته التى تستجيب لتحقيق متطلبات الحياة الدنيا وتواكب متغيراتها.
- والعمل الدائب الذى لا يتوقف فى كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية.
- والإخلاص فى القيام بالعلم بنوعيه، والعمل بكل أنواعه إخلاصًا لله تعالى وإخلاصًا فى الأداء.
- وعبادة الله تعالى بأداء ما فرض والتقرب إليه بما شرع من نوافل.
- وتحكيم الإسلام فى حياة الناس عباداتهم ومعاملاتهم، وسلمهم وحربهم، وتقاضيهم، وتعاونهم وتضامنهم وتكافلهم، وتعاملهم مع أعدائهم، ومع أهل الأديان الأخرى، لأن تحكيم الإسلام هو إقرارٌ للعدل والإحسان والرحمة والرفق، والحقوق والواجبات.
- واتخاذ مبادئ الإسلام وقوانينه أساسًا للتعامل مع الناس جميعًا، ومعايير يقاس بها الصالح والطالح من الأقوال والأعمال.
- وترشيد ولاء المسلم لمن وَالَى الله ورسوله، ودينه ومنهجه ونظامه، وترك الولاء لمن عادى الله ورسوله والمؤمنين.
- وإعلاء شأن الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.
- وممارسة الدعوة إلى الله والحركة بدينه فى الناس والآفاق، مع الأمر بكل معروف كل أحد، والنهى عن كل منكر كلَّ أحد.

* ويدخل فى بناء المجتمع المسلم تحقيق حاجاته كلها الضرورية والحاجية والتحسينية، ولا يكون ذلك متاحًا إلا ببناء تربوى تعليمى اجتماعى سياسى اقتصادى، رياضى جهادى جمالى فنى.

* والمسلم مطالب بأن يسهم فى ذلك بما يستطيع من جهد وعلم ومال وجاه وسلطان، والمجتمع مطالب بهذا الإسهام، والحكومة مطالبة به كذلك، وهذا الإسهام - كما قلنا - واجب شرعى يثيب الله تعالى على أدائه ويعاقب على تركه وإهماله.

* والمجتمع المسلم ما لم يُبن على هذه الأسس التى ذكرنا ضاعت خصائصه وامحت معالمه، بل ربما ذاب فى المجتمعات ذات الثقافة الغالية والحضارة الضاغطة التى لا تخاف الله ولا تتبع خاتم أديانه.

وما لم يسهم المسلمون فى بناء مجتمعهم المسلم صاحب الكيان الإيمانى، والسلوك الحميد، وإيثار الإحسان، ما لم يسهم المسلمون فى بناء هذا المجتمع، فإنهم يسيئون إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم، ويجعلون المسلمين فى ضعف وفرقة وتخاذل وعجز من إحقاق الحق، وعن ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة التى كرم الله تعالى بها بنى آدم ورزقهم وفضلهم على كثير من مخلوقاته.

* وليس لأحد المسلمين أن يستصغر شأن نفسه فى الإسهام فى بناء المجتمع، فإنما الأعمال بالنيات، وأول كل خير هو نيته، وإنما ينصر المسلمون بضعفائهم، فليس لمسلم أن يستصغر نفسه فى فعل الخير والإسهام به فى بناء المجتمع.

د- والإسهام فى تحقيق أمن المجتمع.

أمن المجتمع معناه أن يعيش كل إنسان فى مجتمعه آمنًا على نفسه وذويه وماله وولده، وعمله، وتنقلاته، وعلاقاته، وحرياته، وحقوقه كلها.

والأمن أنواع كثيرة يسهم تحقيقها فى تحقيق الأمن النفسى أى الصحة النفسية، والذى يعنينا هنا نوعان منه هما:

الأمن الاجتماعى،

والأمن السياسى،

* فالأمن الاجتماعى يعنى أمورًا أهمها:

- أن يجد فرصة تعلم تمكنه من ممارسة العمل.
- وأن يجد عملاً فيعمل ويرتزق ويسهم فى بناء نفسه ومجتمعه.
- وأن يجد مسكنًا آمنًا ويعيش فى مجتمع آمن.
- وأن يعيش فى أمْن من أعدائه الألداء: الفقر والجهل والمرض.
- وأن يعيش آمنًا فى أسرته مطمئنًا إلى أنه سوف يربى أبناءه تربية إسلامية تنفعهم فى دينهم ودنياهم.

- وأن يعيش آمنا على عمله ورزقه وما يملك، لا تبطش به قوانين جائرة أو نظم اجتماعية تحابى طبقة على حساب طبقة.

- وأن يعيش آمنًا من ثقافة ضالة مضلة تقتحم عليه حياته وأسرته، فتملأ نفوسهم بالباطل وتشجعهم على ما يغضب الله تعالى من أقوال وأعمال، والإخلال بقيمهم وأخلاقهم.

- وأن تكون وسائل الإعلام وأجهزته فى بلاد المسلمين ليست معادية للإسلام فى كثير مما تقدم للناس، وألا تعوِّد الناس النفاق والملق والرياء.

- ومن الأمن الاجتماعى أن يجد الإنسان احتياجاته فيحصل عليها دون عناء ولُهاث ورشاوى، وتذلُّلٍ واستكانة.

- وأن يكون فى أمن من القيم اليهودية والقيم الأمريكية والقيم الغربية.

إن على كل مسلم فى المجتمع المسلم أن يسهم فى تحقيق الأمن الاجتماعى لمجتمعه الذى يعيش فيه، فى الوقت الذى يجب فيه على المجتمع المسلم أن يوفر لأفراده الأمن الاجتماعى.

* وأما الأمن السياسى فيعنى أمورًا كثيرة نذكر منها:

- أن يعيش الإنسان متمتعًا بحقوقه التى كفلها الإسلام وهى متلائمة مع تكريم الله تعالى للإنسان، فلا يظلم ولا يضطهد ولا يعتقل ولا يسجن ولا يعذب فى سجنه، ولا يحاكم أمام غير قاضيه الطبيعى، ولا يحكم بقوانين استثنائية جائرة.

- وأن يعيش الإنسان متمتعًا بحرية التفكير وحرية التعبير بعيدًا عن القهر والإدانة على الفكر وتجريم التعبير عن أى فكرة لا ترضى الحاكم المستبد الذى يسيطر على معظم العالم الإسلامى الملئ بسجناء الرأى وسجناء الضمير، وألوف المعذبين حتى الموت وألوف المدفونين فى مقابر جماعية.

- وأن يعيش فى نظام سياسى لا يتوسد فيه الحاكم المستبد سدة الحكم حتى يموت أو يحدث ضده انقلاب أو يرثه ولده، وإنما تكون السلطة متداولة بين من يصلحون لقيادة الحياة السياسية من المصلحين والمجددين.

- وأن يعيش الإنسان فى أمان من عدوان معظم دساتير العالم الإسلامى التى وضعها الخائفون من بطش الطغاة أو المنافقون لهم لينالوا جاهًا أو مالا أو نفوذًا. والعجيب أن هذه الدساتير الظالمة الجائرة المحابية للحكام والسلاطين وضعها الناس بتكليف من

سلاطين البطش، وصناع الهزائم وضعاف العقول ومرضى النفوس، فإن طالب أحد بتعديل هذه الدساتير فهو خائن، وهو فى طريقه إلى المحاكمة العسكرية الباطشة التى لها قوانين تحاكم بها الناس لا تعرف غير الظلم والقهر والإهانة لإنسانيته فى قاعة المحاكمة من بعض القضاة!!![1].

- وأن يعيش الإنسان فترة نقاهة من غرور الحكام الخالدين ببطشهم وقدرتهم على اعتقال ألوف الناس فى ليلة واحدة، وقدرتهم على ضرب وتعذيب الناس حتى الموت ومصادرة أموالهم وتأميمها ومحاربتهم فى أرزاقهم، والتفاخر بذلك فى المحافل الدولية، وبخاصة أمام أوليائهم من أعداء الإسلام والمسلمين.

إن على كل مسلم أن يبذل ما يستطيع من جهد ويقدم ما يستطيع من تضحية حتى يسهم فى تحقيق الأمن السياسى لنفسه ولذويه ولسائر المواطنين، وبداية ذلك هو التمسك بحقوقه، والجهر بكلمة الحق عند السلاطين الجائرين، فإن قتلوه فهو شهيد مع النبيين والصديقين قد غُفرت له ذنوبه إلا ما كان عليه من ديون. إن ذلك هو ما يحقق الأمن السياسى.

هـ- وحسن التعامل مع الناس عمومًا مسلمين وغير مسلمين:

فهذا مبدأ رئيس من مبادئ الإسلام، والإسلام قد ألزم به كل مسلم، كما ورد ذلك فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

* أما القرآن الكريم، فإن فيه آيات كثيرة تطالب بالإحسان فى القول والعمل، أى فى المعاملة، ومنها:

- قوله تبارك وتعالى: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا...**﴾ [البقرة: ٨٣].

- وقوله تعالى: ﴿**...لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠] أى أحسنوا العمل أو التعامل مع الناس.

- وقوله عز وجل: ﴿**...مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ...**﴾ [البقرة: ٦٢]، وقَرْنُ الإيمان بالعمل الصالح، وقرنُ العمل بالصالح فى القرآن الكريم قريب من مائة آية كريمة، مما يعزز أن المسلم مطالب بالعمل الصالح فى تعامله مع الناس.

(١) حدث هذا فى كثير من بلدان العالمين العربى والإسلامى، تلك البلدان التى يحكمها الأبطال المفدَّون دائمًا بالروح والدم، الملهمون دائمًا، الخالدون الذين كانوا على موعد مع القدر!!!.

* وأما فى السنة النبوية المطهرة، فإن الأحاديث النبوية التى تؤكد وجوب حسن التعامل مع الناس واعتباره الأساس الذى يجب أن يقوم عليه التعامل، فكثيرة أيضًا، نشير منها إلى كلمات من أحاديث صحيحة مثل:

- **«الدين يُسر»**(١).

- **«الدين النصيحة»**(٢).

- **«كرم المؤمن تقواه»**(٣).

- **«خير دينكم أيسره»**(٤).

- **«إياكم والغلو فى الدين»**(٥).

- **«إن الدين عند الله الحنيفية المسلمة»**(٦).

- **«لتعلم يهود أن فى ديننا فسحة»**(٧).

- **«فالحمد لله الذى جعل الدين قوامًا»**(٨).

- **«الحمد لله الذى جعل فى الدين سعة»**(٩).

- **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»**(١٠).

* وهذه الآيات وتلك الأحاديث - وغيرها كثير - تؤكد أن الدين والتدين يلزمان المسلم بحسن التعامل مع الناس، لأن تلك رسالة الإسلام إلى الناس جميعًا مسلمين وغير مسلمين، من أجل أن يصل الإسلام إلى الناس فى صورته الحقيقية الصحيحة، فيقبل الناس على الدخول فيه مختارين، بل مبهورين بهذه المعاملة.

---

(١) رواه البخارى فى باب الإيمان: ٢٩. وأحمد: ٥/ ٦٩.
(٢) البخارى: الإيمان: ٤٢ وأحمد: ١/ ٣٥٠.
(٣) الموطأ: الجهاد: ٣٥ وأحمد: ٢/ ٣٦٥.
(٤) أحمد: ٣/ ١٥٢.
(٥) البخارى: الاعتصام: ٥ وأحمد: ١/ ٢١٥.
(٦) الترمذى: المناقب: ٣٢.
(٧) أحمد: ٦/ ١١٦.
(٨) ابن ماجة: الرهون: ٥ وأحمد: ٣/ ١٩٩.
(٩) أحمد: ٦/ ١٦٧.
(١٠) أبو داود: الملاحم: ١.

* ولقد زعم بعض الحاقدين على الإسلام أن المسلمين كانوا يكرهون غير المسلمين على الدخول فى الإسلام، مع أن ذلك مجرد افتراء تكذبه آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ، ويكذبه الواقع الذى عاشه الناس مع المسلمين.

وكيف يسوغ هذا القول مع آيات القرآن الكريم التى تحظر ذلك كقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله جل شأنه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ...﴾ [الكهف: ٢٩].

* وحسن التعامل مع غير المسلمين مؤكد فى قول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

وحسن التعامل عمومًا مؤكد فى قول الرسول ﷺ فيما رواه أحمد بسنده عن عمرو بن عبسة رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: **«الصبر والسماحة»**.[١]

فالإيمان صبر وسماحة فى التعامل مع الناس جميعا.

و- والدعوة إلى الله والحركة بدينه فى الناس والآفاق:

* أوجب الله تعالى الدعوة إليه إلى دين الحق على كل مسلم بشرطين:

- أن يكون قادرًا على ممارسة الدعوة إلى الله.
- وأن يكون على بصيرة بما يدعو إليه.

ولقد حدَّد رسول الله ﷺ أن الدعوة إلى الله هى سبيله وسبيل من اتبعه من المؤمنين، إذ قد أنزل الله عليه: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

* ويخطئ من يظن أن الدعوة إلى الله واجب المتخصصين فى علوم الإسلام وحدهم، وإنما واجب كل مسلم قادر على الدعوة بشرط أن يكون على بصيرة بما يدعو إليه، أيا كان ذلك الذى يدعو إليه من مفردات الإسلام.

---

(١) الحديث الشريف بتمامه فى مسند أحمد ٤/ ٣٨٥ ورقم الحديث ١٩٤٥٤ ط مؤسسة قرطبة - القاهرة. تصوير عن طبعة الحلبى ١٣١٣هـ - ١٨٩٥م.

ومن توقف عن الدعوة وهو يملك القيام بها، فقد خالف سبيل رسول الله ﷺ، وتوقف عن نشر الإسلام؛ قيمه ومبادئه وأحكامه ونظامه، وحسبه بذلك إثمًا وشرًا واستحقاقًا لعقوبة الله تعالى.

* على أن للعلماء المتخصصين فى علوم الإسلام واجب الدعوة كغيرهم من المسلمين القادرين على ذلك، وعليهم بعد ذلك واجبات أخرى منها:

- إفتاء الناس فى أمور الدين.

- وتبصير غير المتبصرين فى شئون الإسلام.

- واصطفاء صفوة من المسلمين لتفقيههم فى الدين وتزويدهم بأخلاقيات الدعوة إلى الله وآدابها.

* وأما الحركة بهذا الدين الخاتم فى الناس وفى الآفاق، فهى مطلب شرعى مستمر ثابت لا يتوقف عنه المسلمون إلا بعذر يقبله الله تعالى.

* وللحركة معنيان كبيران يكمل أحدهما الآخر، هما:

- التحرك بهذا الدين؛ قيمه ومبادئه وأحكامه ونظامه فى الناس حيثما كانوا، دون انتظار قدومهم لمعرفة الدين، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة فقد تحرك هو خارج مكة، ثم أرسل مبعوثيه ورسله بكتبه خارج الجزيرة العربية كلها، ولم ينتظر حتى يحضر الناس إليه يسألونه عن الدين.

- والمعنى الآخر للحركة:

هو تغيير كل ما هو مخالف للإسلام فى أى بلد مسلم، إلى ما هو إسلامى من القيم والمبادئ والأحكام والتنظيم، تغييرًا يبدأ بما هو ممكن ومتاح، ثم يتسع إلى أن تدخل وسائل التغيير المشروعة كلها، التى يتسنمها الجهاد فى سبيل الله.

* وهذه الحركة تقتضى تخطيطًا وعملاً ومتابعة وتقويمًا، لكل مجال من مجالات الحياة الإنسانية الكريمة، ومن هذه المجالات:

- مجال التعليم والتربية والثقافة والفنون.

- ومجال العلم والبحوث العلمية الجادة.

- ومجال الاقتصاد.

- ومجال النظم الاجتماعية.

- ومجال النظم السياسية.

* تلك واجبات المسلمين في الدعوة والحركة، وسيظل هذا واجبهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ز- ودفع المفاسد عن المسلمين وجلب المصالح لهم:

درء المفاسد وجلب المصالح عملان جليلان في إصلاح المجتمع الإنساني، وفي بنائه بناءً صحيحًا قادرًا على أن يمكن الإنسان من الحياة الإنسانية الكريمة.

ودرء المفسدة أو دفعها مقدم على جلب المصلحة كما قرر ذلك علماء أصول الفقه الإسلامي، وكما يمليه العقل السليم، وكما تؤكده قيم الإسلام ومبادئه وأحكامه ونظمه.

والمسلم مطالب بالعمل في هذين المجالين مادام قادرًا على ذلك، مع ضرورة أن يلحظ أنه ليس هناك مفسدة دنيوية محضة، ولا مصلحة دنيوية محضة، إذ كل منهما لابد أن تشوبه شوائب مضادة له.

* فما من مفسدة دنيوية إلا ويقترن بها أو يسبقها أو يلحق بها من الرفق واللطف ونيل اللذة شيء كثير، فهي غير متمحضة في الإفساد الدنيوي.

* وما من مصلحة دنيوية إلا ويقترن بها أو يسبقها أو يلحق بها مشاق ومتاعب، كالأكل والشرب واللباس والسكن والزواج وغير ذلك؛ فهي مصالح لكن لا تنال إلا بكد وتعب.

* وعَلَّل العلماء لذلك بقولهم: إن هذه الدنيا وُضِعتْ على الامتزاج بين المصالح والمفاسد، فمن رام استخلاص واحدة منها دون أي اقتراب من الأخرى فلن يستطيع، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقوله جل شانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢].

وما رواه مسلم بسنده عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«حُفَّتْ الجنة بالمكاره، وحُفَّتْ النار بالشهوات»**.

* والمفاسد والمصالح الدنيوية إنما تفهم على مقتضى ما غلب عليها، فإذا كان الغالب عليها جهة المفسدة المفهومة عُرْفًا، يقع الأمر الشرعي بالنهي عنها. وإذا غلب على المصالح الدنيوية جهة المصلحة المفهومة عرفًا، وقع الأمر الشرعي بها، فالخطاب الشرعي دائمًا

يتعلق بما غلب على المفسدة أو المصلحة الدنيوية، فإن ترتب على دفع المفسدة الوقوع فى مشقة فليس درؤها بمقصود شرعًا، وإن ترتب على جلب المصلحة الوقوع فى مفسدة فإن جلبها ليس بمقصود شرعًا.

* والخلاصة أن المفاسد المعتبرة شرعًا، والمصالح المعتبرة شرعًا هى ما كان خالصًا غير مشوب بغيره فى الغالب.

وعند توهم أنها مشوبة بغيرها فليست من الحقيقة الشرعية وإنما هى مما رخص الله تعالى لعباده.

* وكل مسلم مطالب شرعًا بأن يدفع عن نفسه وذويه ومجتمعه المحلى، والمجتمع الإسلامى العالمى كل مفسدة يغلب عليها أنها مفسدة.

ومطالب بأن يجلب لنفسه وذويه ومجتمعه المحلى، ومجتمع المسلمين العالمى كل مصلحة يغلب عليها أنها مصلحة.

وبعد: فهذه مبادئ الإسلام وقوانينه العامة القادرة على صناعة الحياة الإنسانية الكريمة.

٣- والالتزام بالأحكام الإسلامية طريق إلى الصحة النفسية للإنسان:

هذه الأحكام الإسلامية هى شرع الله، أى ما أَحَلَّ الله للإنسان وما حَرَّم عليه، والالتزام بهذه الأحكام يعنى التقيد بهذه الأحكام والعمل بها فى جميع مناشط حياته، يطبقها على نفسه وعلى كل مَنْ يلى أمره من الناس.

وهذا الالتزام بهذه الأحكام يجب أن يكون بغير إفراط أو تشدد وتعنت، وبغير تفريط أى إهمال وترك.

* وهذه الأحكام الإسلامية أو شرع الله تعالى التى يلتزم بها المسلم فى مناشط حياته كلها، جمعنا رؤوسها فى سبع هى:

- الالتزام بها فى السلوك الشخصى.
- والالتزام بها فى السلوك الاجتماعى.
- والالتزام بها فى معرفة الحقوق والواجبات.
- والالتزام بها عند وقوع التنازع والتقاضى.
- والالتزام بها فى العهود والمواثيق.

- والالتزام بها فى المحاربة والمسالمة.

- والالتزام بها فى نتائج الحرب.

ولكل من هذه المناشط السبعة كلمات وجيزة نلقى عليها بعض الضوء، ليكون المسلم على علم بها.

*** الالتزام بأحكام الله تعالى فى السلوك الشخصى:**

والسلوك الشخصى هو كل ما يصدر عن الإنسان من قول أو صمت، أو عمل أو تَرْك، بحيث لا يرى على سلوكه شىء مما حرّم الله تعالى.

وتبدأ مفردات هذا السلوك الشخصى من الكلام واختيار الألفاظ ورفع الصوت أو خفضه، واختيار وقت الكلام ومكانه والمناسبة التى يقال فيها.

ويستمر هذا الالتزام بما أحل الله وما حرم فى الطعام والشراب والملبس والمسكن واختيار الزوج، وتربية الأبناء وصلة الأرحام وبر الأقارب وحسن التعامل مع الجيران.

ويمتد السلوك الشخصى ليتناول الإحسان بكل معانيه، وليتناول التعاون على البر والتقوى، والاهتمام بأمر المسلمين بادئًا بنفسه وأهله وبنيه وأقاربه وذويه، ووطنه المحلى ووطنه العربى ووطنه الإسلامى.

ولو التزم كل مسلم بأحكام الإسلام وشرعه لعاش الفرد والمجتمع حياة تخلو من المشكلات الاجتماعية فضلاً عن العائلية، لأن جميع هذه المشكلات إذا فتشتَ عنها وجدتَ من أسبابها عدم التقيد بأحكام الإسلام.

وبهذا الالتزام بأحكام الإسلام وشريعته يعيش الإنسان فى صحة نفسية، لا يعكرها عليه شىء.

*** والالتزام بأحكام الإسلام فى السلوك الاجتماعى:**

السلوك الاجتماعى للإنسان المسلم يبدأ بشكل عملى إيجابى عندما يقدم على زواجه، وعندئذ عليه أن يلتزم بشرع الله وأحكامه فى اختيار الطرف الآخر، وتحكيم المعايير الإسلامية فى هذا الاختيار.

وهذه الخطوة الاجتماعية الهامة فى حياة المسلم تقتضى منه أن يراعى أمورًا هامة وهو يقدم على ذلك، منها:

- تفضيل ذات الدين على سواها، فإن كان مع الدين مرجح آخر كالمال والجمال والحسب فمن فضل الله ونعمته، وإن لم يكن بقيت ذات الدين أولى من غيرها.

- وإقناع الزوجة بالالتزام بشرع الله وأحكامه، وتبصيرها بعواقب القبول أو الرفض، وإيضاح إيجابيات كلٍ وسلبياته.

- وهذا الالتزام يشمل الملبس والمسكن والمطعم والمشرب، والإنفاق فى البيت، والتعامل مع الأقارب والجيران.

- ويتناول تربية الأبناء على أخلاق الإسلام وتنشئتهم عليها، والعناية بهم ورعايتهم فى أقوالهم وأعمالهم وألعابهم وما يحبون وما يكرهون.

- وتحبيب الأبناء فى المدرسة وفى التعلم وفى الانضباط واحترام المواعيد، وأداء الواجبات واحترام المعلم والمدرسة والكتاب والأنشطة المدرسية.

- وغرس قيم النجاح والتفوق فى طلب العلم فى نفوس الأبناء منذ الصغر، وضرب الأمثلة لهم بعلماء المسلمين فى الماضى وفى الحاضر.

- وتحبيبهم فى أن تكون لهم مكتبة فى البيت يزودونها بما يحبون من كتب ومواد ثقافية.

* والالتزام بالأحكام الإسلامية فى معرفة الحقوق والواجبات.

* فطر الله تعالى الإنسان على أنه لا يعيش حياة سعيدة فاعلة إلا إن عرف حقوقه فمارسها وعرف واجباته فأدَّاها.

* ومهما حاول الناس فى أى زمان أو مكان أن يختاروا لأنفسهم تحديدًا للحقوق والواجبات فلن يستطيعوا الوصول إلى ما يجب فى هذا المجال، لأن الناس مفطورون على القصور، وعلى المحاباة، وفقد قدر من العدل فيما يتفقون عليه.

وما استطاع تحديد الحقوق والواجبات فى ماضى الإنسانية كله بعيده وقريبه، لأن الإنسان مهما أوتى من علم فعلمه محدود بل ناقص قاصر، وتحيزه غالب عليه.

لذلك كان الالتجاء إلى كتاب الله الخاتم لكتبه السماوية وسنة رسوله الخاتم لرسله عليهم السلام هو التوجه الصحيح، والعمل الصحيح، والرشد والحكمة، وإذا أخذ الإنسان معرفة حقوقه وواجباته من هذين المصدرين، فقد أمن القصور والنقص، وأمن الظلم والحيف والتجاوز.

لأن الله وهو يشرع لعباده شيئًا إنما يشرعه محققًا للعدل والحياد والموضوعية؛ لأن الناس جميعا عنده سواء، لا يتفاضلون إلا بالتقوى، وبهذا تسقط دعاوى من يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، وتنهار دعوى من يقولون: إنهم شعب الله المختار.

* ولو عرف الإنسان حقوقه وواجباته من خلال كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقد هدى إلى الصراط المستقيم، ولاستطاع أن يكون سعيدًا راشدًا فى دنياه وآخرته.

*** والالتزام بشرع الله وأحكامه فى التنازع والتقاضى:**

المسلم حق المسلم الملتزم بشرع الله وأحكامه قلما يتنازع مع غيره، لأن دينه يأمره بالسماحة والعفو، وما يقوم تنازع بين اثنين أو أكثر إلا نتيجة لوجود ظالم ومظلوم أو معتدٍ ومعتدًى عليه، والمسلم لا يظلم ولا يعتدى، فإن وقع عليه ظلم أو اعتداء ففى العفو والصفح والتسامح متسع أمام المسلم يحظى فيه برضا الله تعالى ومثوبته.

فإن لم يتسامح لأن الظلم كان شديدًا عليه، فإن التجاءه إلى القضاء لا يجيز له أن يلفق لخصمه ولا أن يضلل من يدافع عنه، ولا يقبل التعامل مع شاهدى الزور، ولا هو بقابل أن يأكل أموال الناس بالباطل.

ومع هذا الالتزام بأحكام الله تعالى وشرعه يقل التنازع فيقل التقاضى، ويستطيع كل مسلم أن يقيم من نفسه قاضيًا لنفسه، يلزمه بما أحل الله تعالى وما حرّم.

وإن هذا الالتزام بشرع الله وأحكامه يزرع فى المجتمع الأمن والأمان.

وأى اطمئنان للناس على حقوقهم مادية كانت أو معنوية أكبر وآكد من التزام الناس بشرع الله ونظامه، إن ذلك عند التأمل والتدبر نعمة كبرى من الله تعالى.

*** والالتزام بشرع الله وأحكامه فى العهود والمواثيق:**

ألزم شرع الله تعالى وأحكامه كل مسلم بأن يفى بالعهد والميثاق، وجعل ذلك أمرًا صريحًا فى كتابه الكريم، فى قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٤]

وقال جل وعلا: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧، ٨]

وروى البخارى بسنده عن عقبة بن عامر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج»**.

وروى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: . . . ثم قام رسول الله ﷺ فى الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **«ما بال رجال يشترطون شروطًا ليست فى كتاب الله، ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل، وإن كان مائة شرط، قضاء الله أحق، وشرط الله أوثق...»**

وروى الترمذى بسنده عن عوف المزنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا حرّم حلالاً أو أحل حرامًا، والمسلمون على شروطهم إلا شرطًا حرم حلالاً أو أحل حرامًا»**.

* وما لم يف صاحب العهد بعهده وميثاقه، فقد خالف الله تعالى ورسوله ﷺ، فترتب على ذلك ضياع الحقوق والأمانات، فعاش الناس فوضى، وعمهم التعادى، وأكل قويهم ضعيفهم، واستبد غنيهم بفقيرهم، واستطال كل ذى طَوْل على من دونه.

وعند ذلك يعيش الناس قلقًا واضطرابًا، ولا يأمن أحد على نفسه وماله وذويه، وسبب ذلك عدم الوفاء بالعهود والمواثيق.

وإذا التزم الناس بشرع الله وأحكامه فى الوفاء بالعهود والمواثيق، استقر الناس والمجتمع وأمنوا واطمأنوا على حياتهم وأموالهم، فعاشوا إخوة متحابين يأمن بعضهم بعضًا ويتعاون بعضهم مع بعض.

*** والالتزام بشرع الله تعالى وأحكامه فى السلم والحرب:**

سبق أن أكدنا أن شرع الله تعالى وأحكامه شاملة لكل مرفق من مرافق الحياة الإنسانية، وملائم لكل ظرف من ظروفها، بحيث يغطى شرعه احتياج كل حالة بما يناسبها من التشريع والأحكام العادلة التى تحفظ لكل ذى حق حقه، وتلزم كل من وجب عليه واجب بأدائه.

والإنسان المسلم لا يستطيع أن يرضى ربه سبحانه وتعالى إلا إن التزم بشرع الله وأحكامه.

* وكما شَرَّعَ الله تعالى للحياة الإنسانية فى حالة السلم شرع لها فى حالة الحرب، لأن الحرب لا يستطيع الناس أن يكفوا عنها طالما فى الأرض ظالم ومظلوم، ومستبد وضعيف. لذلك وضع شرع الله للحرب أحكامًا عادلة منصفة تحفظ لكل المتحاربين حقوقهم الإنسانية وتردع الظالم عن ظلمه وتكفه عن عدوانه.

* ومهما تكن المعارك التى يخوضها المسلمون - فى الغالب - لرد العدوان عن أنفسهم وديارهم وأموالهم ومنهجهم ونظامهم، فإنها حرب مقننة محكومة بأخلاقيات وآداب لا يجوز لأحد أن يتجاوزها مهما كان حجم العدوان عليه وضراوته، لأن المسلم يلتزم بشرع الله وأحكامه فى كل حال.

* والكلام النبوى الهادف الخالد فى مجال الحرب، هو ما كان يوصى به رسول الله ﷺ قواده عند عزمهم على خوض المعارك.

فقد روى أبو داود بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث فى قتال؛ قال: «**انطلقوا باسم الله وعلى ملة رسول الله...**

لا تقتلوا شيخًا فانيًا،

ولا طفلاً صغيرًا،

ولا امرأةً،

ولا تغلوا،

وضموا غنائمكم،

وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين»(1).

* والالتزام بشرع الله وأحكامه فى الحرب هو الفقه الصحيح للجهاد فى سبيل الله، كما أنه أدَّى إلى إقبال الناس على الإسلام ودخولهم فى دين الله أفواجًا، إعجابًا بهذا الدين الخاتم حتى فى الحرب والقتال، والتاريخ ملئ بمثل هذه المواقف فى كثير من البلدان التى حارب فيها المسلمون.

---

(1) للتوسع ومعرفة شروط الحرب وآدابها؛ انظر لنا كتاب: «التربية الجهادية الإسلامية» نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

* والالتزام بأحكام الله وشرعه فى نتائج الحرب:

للحرب نتائجها المعروفة التى تسفر عنها مادام قد حدث فيها قتال، إذ لابد أن تنتج شهداء، وقتلى، وأسرى، ومن الذى يُلحظ أن الإسلام قد وضع تشريعًا للحرب وأحكامًا يلتزم بها المسلمون فى نصرهم وهزيمتهم.

- وكل ما يترتب على الحرب من معاهدات ومواثيق، وكل ما ينتج عنها من أسرى وجرحى، وضع الإسلام لها شرعًا ونظامًا وأحكامًا ليس لمسلم -قائد أو أمير أو جندى- أن يخالفها، فإن خالف فقد عصى الله ورسوله واستحق عقاب الله تعالى.

- ولقد عَبَّر المسلمون عن احترامهم لشرع الله تعالى وأحكامه فى معارك عديدة انتصروا فى بعضها وانهزموا فى بعضها، فما تخلوا عن أحكامهم فى الحرب منتصرين أو مهزومين.

ففى مجال التعامل مع الأسرى كانوا مضرب المثل فى احترام إنسانية الإنسان حتى وهو أسير، فالثابت فى تاريخ المسلمين وتراثهم الفكرى والثقافى أنهم كانوا يحسنون معاملة الأسير حتى يؤثروه على أنفسهم بطيب الطعام، وبالرحمة وحسن التعامل، استجابة لشرع الله تعالى وأحكامه.

فما سمعنا عن مسلم قتل أسيره أو فقأ عينيه أو كسَّر عظامه أو جرده من ملابسه فضلا عما يفعله دعاة الحضارة والديمقراطية اليوم من العدوان الجنسى على الأسرى وضربهم حتى الموت ودفنهم أحياء، وتجويعهم وتعطيشهم وإجبارهم على الركوع لأعدائهم، وعلى سب الدين الذى ينتمى إليه الأسير، كما تفعل قوى الشر والحقد فى إسرائيل ضد الفلسطينيين، وكما تفعله أمريكا ودول الحلفاء فى أفغانستان والعراق، فضلا عما يجرى فى السجون والمعتقلات من إذلال لكل عربى أو مسلم - كما اعترفوا هم بذلك.

- وليس ما يحدث فى سجون اليهود وسجون الأمريكان فى العراق وأفغانستان وجوانتانامو ببعيد عمن أراد أن يعلم عن حقيقة هؤلاء المتحضرين دعاة الديمقراطية.

* هذا هو الفرق بين الإسلام؛ شرعه وأحكامه، وبين ما تقترفه إسرائيل والإدارة الأمريكية، يفعلون كل هذه الكبائر ويزعمون أنهم يحسنون صنعًا!!!

وبعد: فإن التزام المسلمين بشرع الله وأحكامه يحقق للمسلمين دائمًا الصحة النفسية والبعد عن القلق والاضطراب والأمراض النفسية والعصبية والعقلية والجسدية التى تفترس أولئك الطغاة من اليهود والأمريكيين ومن حالفوهم من دول الغرب الصليبيين المحدثين، والتى تفضى ببعضهم إلى الانتحار!!!

٤- والعيش وفق نظم الإسلام:

نُظُم الدين الخاتم لابد أن تكون هى النظم الخاتمة فى كمالها وتمامها، وملاءمتها للبشرية كلها من يوم أوحى الله تعالى خاتم أديانه إلى خاتم رسله ﷺ.

* ومن أدلة كمال الدين الخاتم وتمامه:

- أنّ ذلك هو مقتضى ختم الأديان والرسالات السماوية، فليس بعد هذا الدين دين يتمم أو يكمل.

- وأنّ النظم التى جاء بها خاتم الأديان عديدة، وشاملة لكل ما تحتاج إليه الإنسانية فى مختلف ظروفها.

- وأنّ نظم الدين الخاتم من المرونة والاتساع بحيث تستجيب للمستجدات والمستحدثات وتضعها فى الإطار الملائم لقيم الدين الخاتم ومبادئه وشرعه وأحكامه.

- وأنّ كل مشكلة واجهها المسلمون على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان وربع قرن، استطاع الفقه الإسلامى أن يجد لها حلاً يتفق مع قيم الإسلام ومبادئه وأحكامه، وما يشكك فى صحة ذلك إلا أصحاب الهوى مسلمين كانوا أو غير مسلمين.

* وإذا كنا - نحن الآن - نعيش عصر التقدم العلمى التقنى وعصر طى المسافات، واختصار المساحات، والتحكم بالعلم والتقنية فى كثير من مرافق حياة الإنسان؛ فإن النظم الإسلامية تواكب هذه الثورة، وتتجاوب مع متطلباتها فى إطار ما شرع الله وما اختار لعباده.

* وإذا كان الناس اليوم فى الشرق والغرب يعيشون عامدين بمنأى عن الدين وقيمه، ويختارون علمانية تفصل الدين عن حياة الناس، وتحول بينه وبين التأثير فيها، فإن الإسلام الدين الخاتم قد قضى الله له أن يستجيب لكل المطالب الدنيوية المشروعة دون استبداد أو تحكم أو تغليب للرموز، أو زعم بأن للدين أسرارًا، وذلك أمر تكفلت به النظم الإسلامية العديدة فى كل مرافق الحياة الإنسانية.

* ومع اعترافنا بكثير من القصور فى مجال العلم الشامل بالإسلام؛ فإن ما منحنا الله من نعمة فى هذا المجال، يجعلنا نتصور أنظمة إسلامية لكل مرافق الحياة الإنسانية[(١)]، وهى أنظمة - كما أسلفت - مرنة تتسع لكل متطلبات الحياة الإنسانية، وسأشير - فى حدود

---

(١) عبّرنا عن ذلك بسلسلة كتب تحمل عنوان: «مفردات التربية الإسلامية» بلغت عشرة كتب- نشرتها دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة فى السنوات ما بين ١٤١٥هـ إلى ١٤٢٤ هـ، وهى كلها يمكن أن تندرج تحت: «النظام التربوى الإسلامى».

ما أشعر به من قصور- إلى رؤوس هذه النظم، مؤكدًا أن الكتابة فى أى نظام منها يحتاج إلى جهود عدد من العلماء المتخصصين فى هذا النظام.

ومن هذه الأنظمة:

١- النظام الدينى.

٢- والنظام التربوى.

٣- والنظام العلمى والتقنى.

٤- والنظام الاجتماعى.

٥- والنظام الاقتصادى.

٦- والنظام السياسى.

٧- والنظام الحكومى.

٨- والنظام الدعوى الحركى.

٩- والنظام الجهادى.

١٠- والنظام المالى والإدارى.

١١- والنظام العسكرى.

١٢- والنظام القيادى للجيوش.

١٣- والنظام التجنيدى.

١٤- والنظام الحضارى.

١٥- والنظام العالمى.

* ولست أدعى أن هذا حصر لهذه النظم، ولكنه إشارة وتقريب فى حدود ما فتح الله به.

* ومادامت النظم الإسلامية بهذا التنوع، فإن المسلمين فى كل زمان ومكان ملزمون بأن يعيشوا فى ظل هذه النظم التى تحفظ عليهم دينهم ودنياهم، وعزتهم وقوتهم ووحدتهم، وانطلاقهم بالدين الحق فى العالمين.

وعلى المسلمين أن يُعرضوا عن الراغبين فى صرفهم عن هذه النظم بالحيلة أو بالقوة، أو بالحرب النفسية.

* إن المسلمين إن فعلوا ذلك فهم فى أحسن ظروف الصحة النفسية التى نتحدث عنها.

ثانيًا: الأمراض النفسية فى الإسلام:

ينظر الإسلام إلى الأمراض النفسية أو القلبية نظرته إلى الأمراض الجسدية، فيعترف بها، ويعرف أسبابها وأعراضها، ويحذّر من الوقوع فيها، ويأمر بالوقاية منها، ثم بعلاجها، ويحرم ترك هذه الأمراض دون علاج، لأنها إن تركت تفاقمت وأفسدت حياة الإنسان، ومن قعد عن علاج ما يفسد حياته، فقد خالف الله ورسوله ﷺ، فقد قال رسول الله ﷺ : **«ياعباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد: الهرم»**.

رواه أصحاب السنن الأربعة بأسانيدهم عن أسامة بن شريك رضى الله عنه.

فلا يستطيع مسلم أن يترك التداوى إلا وهو مخالف لله تعالى ورسوله ﷺ.

* والأمراض النفسية فى الإسلام معروفة الأسباب ومن علاجها إزالة أسبابها.

ومن أبرز أسباب هذه الأمراض النفسية خمسة، تتفرع عنها سائر الأسباب، وهى:

١- الامتناع عن عبادة الله تعالى وفق ما شرع، لأن عبادة الله تعالى والتقرب إليه بها من علامات الصحة النفسية، فكان الامتناع عنها من أسباب المرض النفسى، فمن لم يعبد الله تعالى متنكب للفطرة التى فطر الله الناس عليها، ومخالف لأمر ربه سبحانه وتعالى، فقد قال: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...** ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** ﴾ [النساء: ٣٦]، وهو بذلك مريض نفسيًا وقلبيًا ويجب عليه أن يعالج نفسه وقلبه.

٢- ورفض حبّ النبى ﷺ، وما يترتب على هذا الرفض من إثم ومعصية ونقص للإيمان عند هذا الرافض، وما يعترى إسلامه من نقص وضياع، وقد أمر الله تعالى بحب رسوله وهدّد من لم يحب الله ورسوله وآثر عليهما حب الدنيا وما فيها من متاع، قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة: ٢٤].

٣- وعصيان الله تعالى روسوله ﷺ، وذلك يوقع فى الخطايا والآثام، ومن وقع فى ذلك فقد أصيب بمرض نفسى لا محالة.

إن ارتكاب المعاصي يخرج الإنسان عن فطرته التي هي عبادة الله وطاعته، فيخرج بذلك عن شرع الله وأحكامه ونظامه، وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ [النساء: ١٤].

إن المرتكب لهذه المعاصي في المجتمع المسلم يخطئ في حق كل واحد من الناس، فإن كان به حياء انكسرت نفسه وأحسّ بفداحة ما ارتكب، وإن كان بغير حياء أو قليل الحياء فلم يعبأ بما ارتكب، ساعد أمثاله على ارتكاب المعاصي ويسّر لهم طريقها، وهو في الحالتين مريض نفسيًا بكل تأكيد.

٤- وكل مستبد مغرور يجاهر بتحدى شرع الله ونظامه ويدعى أنه فعل وفعل، محاولاً أن يثبت لنفسه مكانًا بين المستبدين المغرورين- حكامًا أو محكومين- فهو مريض نفسيًا، يريد أن يستعلى على الناس باستبداده، وأن يباهيهم بغروره وحمقه، وما ذلك إلا مرض نفسي يريد أن يغطى قماءة نفسه وضعفها إزاء انكبابه على شهواته، فيزيدها قماءة إلى قماءتها، وعارًا وخزيًا إلى جوار ما هي عليه من خزى وعار؛ إذ الغرور مرض نفسي وعقلي معًا، والله تعالى ينهى عنه، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ **فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** ﴾ [لقمان: ٣٣].

٥- وكل خائن لله ولرسوله، ولشرع الله ومنهجه ورافض له، لأنه استبدل به سواه، كل رافض لمنهج الله ونظامه مؤثرًا عليه مناهج أخرى، فهو بكل تأكيد مريض نفسيًا، وغافل عقليًا، ومقهور في داخل نفسه يحسب أنه يحسن صنعًا.

وأغلب مايكون هؤلاء، أن يكونوا ممن طمست أبصارهم وبصائرهم، وغلبت عليهم شهواتهم، وهم وأمثالهم هم المشار إليهم في قول الله تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا** ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

وبعد، فهذه كلمات أقدم بها للحديث عن مفهوم المرض النفسي، وأعراضه ومظاهره، والله المستعان.

أ- مفهوم المرض النفسي:

يقصد بالمرض النفسي كل سلوك يقوم به الإنسان، فيخرجه عن حدود الاعتدال والصحة النفسية التي تحدثنا عنها آنفًا.

ومرض النفس يمكن أن يعبر عنه بمرض القلب أو مرض الروح.

وفي ثقافتنا الإسلامية نؤكد أن النفس الإنسانية المريضة أو القلب المريض هو ما أصيب فيه الإنسان بنقص في إيمانه.

والنقص في إيمان الإنسان نقص في دينه وتدينه وعبادته لله عز وجل، وتعامله مع الناس.

* والنقص في الإيمان يعرض النفس للإصابة بالعجز عن أداء وظائفها في الحياة، روحية كانت الوظيفة أو عقلية أو خلقية أو اجتماعية، تلك التي هيأها الله تعالى لها وأقدرها على أدائها.

* وأبرز وظائف النفس أو القلب؛ العلم والمعرفة؛ من أجل الوصول إلى الحكمة، أي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، أو وضع الشيء في موضعه، وإذا عطفت الحكمة على الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٣١]، فالمعنى أن الكتاب هو القرآن الكريم والحكمة هي السنة النبوية المطهرة.

* والإسلام يعتبر النفس مريضة والقلب مريضًا إذا خرج عن مقتضيات الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي مقتضيات الدين الحنيف، قال الله تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم: ٣٠].

فالفطرة هي النظام الذي أوجده الله في الإنسان؛ روحه وقلبه وعقله وجسده، ليعيش موافقًا متوائمًا مع هذا النظام تواؤمًا يحقق له صالح معاشه ومعاده.

وقد فطر الله الناس على الدين الحق دين التوحيد، وجعل قيم هذا الدين ومبادئه وأحكامه، ونظمه متسقة مع هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

ومعنى ذلك أن النفس المفطورة على الإسلام في أصل اعتقاده، وهو توحيد الله تعالى والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر والقضاء، والمفطورة على التجاوب

مع تشريعات الإسلام، تجد فى ذلك الالتزام بذلك مايحقق لها السعادة أو الرضا، وهى بذلك النفس البريئة من الأمراض.

* ومن مفهوم المرض النفسى فى الإسلام، ألاَّ تعـرف نفس الإنسان خالقها عز وجل، لأن الله عز وجل هو خالق كل شيء وفى مقدمة خلقه الإنسان، فلو عرف الإنسان كل شيء ولم يعرف الله تعالى، فهو لم يعرف شيئًا مهما عرف؛ لأن أصل المعرفة ومفتاح بابها هو معرفة الله تعالى.

* ومن لم يعرف الله عـز وجل فهو مريـض نفسيًا بكل تأكـيد، ومريض عـقليًا فى أغلب الأحيان، ومريض خلقيًا على الدوام.

- لكن ماذا تعنى معرفة الله تعالى؟

إن معرفة الله تعالى تعنى أمورًا عديدة من أهمها:

* حب النفس لخالقها، وطاعة الخالق نتيجة مباشرة لحبه سبحانه وتعالى.

* وإيثار الله تعالى بالتلقى عنه وعن رسوله الخاتم ﷺ.

* وإيثار ما عند الله على ما عند الناس.

* وتناول متع الدنيا وشهواتها بالقدر الذى شرعه الله تعالى دون تجاوز.

* وحب من يحبون الله تعالى ورسوله ﷺ وموالاتهم.

* ودعوة الناس إلى الخير وتحبيبهم فيه، ونهيهم عن المنكر وتنفيرهم منه.

* ومجاهدة الشيطان والهوى ومجاهدة أعداء الله تعالى وأعداء دينه ومنهجه ونظامه.

- من كان كذلك فهو صحيح نفسيًا، ومن لم يكن كذلك فهو مريض نفسيًا، يحتاج إلى علاج.

وبعد، فهذه بعض الأضواء ألقيتـها على مفهوم المرض النفسى أو مرض القلوب، وهى ليست كل ما ينبغى أن يسلط على مفهوم المرض النفسى من أضواء، لكنها بعض ما ينبغى، والله تعالى يعفو عنا فيما قصرنا فيه.

ب- أعراض المرض النفسى أو مظاهره:

الأعراض جـمع عَرَض، وهو مـا يطرأ على صاحـبه حـينًا، ويزول عنه أحيـانًا، أو ما لايمتنع انفكاكه عنه وهو نوعان:

- سريع الانفكاك والزوال كحمرة الخجل، وصفرة الوجل، أى الخوف، فهذه الحمرة وتلك الصفرة سريعًا ما تذهب.

- وبطء الزوال، كالشباب والشيب، فإن كلاً منهما قد يطول وقد يقصر، فزواله بطيء.

* وأعراض المرض النفسى كثيرة ومتنوعة، وتسمى أحيانًا أمراضًا قلبية، وهى مظاهر للمرض تنبئ عن وجوده.

* ولهذا المرض النفسى أسباب عديدة تؤدى إليه، فإذا وُجدت وجد، وإذا أزيلت زال.

ومن هذه الأسباب:

- اتباع الشهوات، والإقبال على متع الحياة الدنيا، وهذه الشهوات والمتع قد أنعم الله تعالى بها على الإنسان فى إطار ما أحَلّ، فإن تجاوز هذا الإطار فهو مريض نفسيًا وقلبيًا وخلقيًا. والناس معظمهم فى اتباع الشهوات والإقبال على متع الدنيا؛ إلا من رحم الله.

- ومن أسباب مرض النفس، ونتيجة للإقبال على متع الدنيا ونسيان الآخرة أن الناس يمارسون العبادات خاوية من الخشوع، يسيطر عليها الرياء والمراءاة، ومن كانوا كذلك فهم مرضى فى نفوسهم وقلوبهم.

* وأعراض هذه الأمراض النفسية كثيرة وأسبابها أكثر، ولا أدعى أنى سوف أذكر جميع الأسباب أو الأعراض أو أحصرها، ولكنى أرجو أن أشير إلى أغلبها فيما يلى:

١- فَقْد القدرة على التوسط والاعتدال:

التوسط والاعتدال من سمات القيم الإسلامية معظمها، إن لم تكن جميعها، لأن الدين كله دين الوسط، والأمة الإسلامية جعلها الله تعالى وسطًا.

ومن فقد القدرة على التوسط والاعتدال وقع فى واحد من خطأين:

خطأ الإفراط والمبالغة والتشدد.

أو خطأ التفريط والتقصير.

وفى قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ..﴾ [البقرة: ١٤٣]

قال فخر الدين الرازى فى تفسير هذه الآية الكريمة: وسط بمعنى متوسطين فى الدين بين المفْرِط والمفرِّط، والغالى والمقصر؛ لأنهم لم يَغْلوا كما غَلَت النصارى: فجعلوا المسيح ابن الله، ولم يقصروا كما قصرت اليهود فبدلوا الكتُب واستخفوا بالرسل.

* والإنسان الذى يضع نفسه وسلوكه فى مجال الوسط والاعتدال هو البرىء من المرض النفسى الذى يقع فيه المفْرِط والمفرّط.

٢- وعجز الإنسان عن معرفة عيوب نفسه:

أكثر الناس يجهلون عيوب أنفسهم، وكثيرون يعرفون عيوب أنفسهم لكنهم لايبادرون إلى إصلاحها، وهؤلاء وأولئك يعتبرون من مرضى النفوس والقلوب.

وهؤلاء المرضى مقصرون فى حق أنفسهم، إذ طالبهم الله تعالى باجتناب هذا العيوب. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

وبَصَّر الله تعالى الناس بعيوب أنفسهم، فقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]

والجاهل بعيوب نفسه قد يرى عيوب غيره، والمتجاهل لعيوب نفسه غالبًا ما يغويه الشيطان فيرى القَذَى فى عين غيره، ولا يرى الجذع فى عين نفسه!! وتلك غفلة وضلال، والكيِّس من دان نفسه.

٣- والعجز عن مواجهة الناس أو المواقف بموضوعية وحياد:

وهذا العجز عن تلك المواجهة بالحق والصدق والشجاعة الأدبية يعنى أن هذا العاجز عن المواجهة ضعيف يلجأ إلى النفاق ومراءاة الناس، والتملق لهم، وكل ذلك على حساب الحق والعدل والصدق.

والله تعالى نهى عن النفاق وخوّف الناس منه ومن عاقبته، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ..﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣].

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: **«إن شرّ الناس ذو الوجهين يأتى هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»**.

٤- واعتزال الناس والانطواء عنهم:

وسواء أكان هذا الاعتزال بسبب زهد فى الناس أو ازدراء لهم أو كراهية للاختلاط بهم، فإن ذلك مرفوض لأن مخالطة الناس هى الأصل وهى الخير للإنسان، فضلا عما فى العزلة من إحساس بالوحشة والتوحد، وسوء الظن بالناس الذى يترتب عليه النفور منهم.

وهذا الاعتزال للناس مخالف للفطرة التى فطر الله الناس عليها، فقد خلقهم الله تعالى وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، ولما فى اعتزال الناس من فقد صفة الألفة مع الناس التى هى من صفات المؤمنين بل من خير صفاتهم، روى الطبرانى -وفى الكبير- بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن مألف ولا خير فيمن لايألف ولايؤلف»**.

واعتزال الناس وخصوصًا الصالحين منهم يعرض الإنسان لانفراد الشيطان به وأخذه، فقد روى أحمد بسنده عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم ؛يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد»**.

إن الذى يعتزل الناس- فى غير الفتن العامة- مريض النفس والقلب، قليل الصبر، ضعيف العقل، مخالف لهدى محمد ﷺ.

٥- ومن أسباب المرض النفسى مجالسة الفُسّاق:

الجلوس مع الفاسقين خطأ جسيم، ومثل الفسّاق فى وجوب عدم مجالستهم كل العصاة، وقد نهى الله تعالى عن ذلك فى قوله تعالى: **﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** [الأنعام:٦٨]، ونهى الناس عن المنكر ثم مجالستهم ومؤاكلتهم وهم لايزالون على المنكر موجب للعنة الله تعالى كما لعن بنى إسرائيل يوم فعلوا ذلك.

روى أبو داود بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أول مادخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: ياهذا اتق الله ودع ما تصنع،**

فإنه لايحل لك، ثم يلقاه من الغد، وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض..».

ومجالسة الفساق والعصاة شرٌّ كلها. فبسببها لاتُنكر المعاصى بل يعتاد مجالسة أهلها، وربما مارس المعاصى مثلهم. ومجالستهم دليل على مرض نفسى وأخلاقى لمن يجالسهم.

٦- والوقوع فى حبائل الشيطان:

وعلامة الوقوع فى حبائل الشيطان الاستجابة لما يوسوس به من شر، ولما يزينه للناس من حب الشهوات فيما لم يحل الله تعالى، وهذه الشهوات والمتع الدنيوية، أحلها الله تعالى للناس فى إطارها المشروع، ومنع الإسراف فى تناولها كما منع أن يحرم الإنسان منها نفسه حرمانًا مطلقًا، فيكون قد حرم ما أحل الله.

والشيطان من أهم أعماله أن يجتال الناس عن دينهم كله، لا عن ما أنعم الله به عليهم من نعم فقط، فقد روى مسلم بسنده عن عياض بن حمار رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**... وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانًا..**».

وشياطين الإنس وشياطين الجن سواء فى تزيين الشهوات فى غير ما أحل الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿**يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٢٧]

وقال جل وعلا: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠].

فالوقوع فى حبائل الشيطان واتباع الشهوات وإضاعة الصلاة كل ذلك من علامات المرض النفسى والقلبى، بل من علامات الخلل العقلى والاضطراب الاجتماعى.

٧- وتجاهل الرقيب:

وهذا الرقيب أصلاً هو الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء: ١]. والله تبارك وتعالى له رقباء كلفهم بذلك كالملائكة عليهم السلام، فما يلفظ الإنسان من قول إلا لديه رقيب عتيد.

وقد جعل الله تعالى علـى الإنسان رقيبًا من نفسه يهـديه إلى الهُدَى ويكفه عن الرَّدَى.

قال الله تعالى: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥].

* وإذا أغفل الإنسان هذا الرقيب ولم يستمع لما يقول، فإن أخطاءه تزداد ساعة بعد ساعة، واعتياده للمعاصى، لايردعه رادع.

وقد حذّر الله تعالى من إغفال الرقـيب، وحذَّر مما ينتج عن هذا الإغفال من الوقوع فى حبائل الشيـاطين ومن اتباع الشهوات والطغيان والتجـاوز، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

وروى ابن ماجة بسنده عن فضالة بن عبيد رضى الله عنه قال: «المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله عز وجل».

وروى ابن أبى الدنيا[١]- فى كتابه «الصَّمت»[٢] بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُفَّ شرك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك**».

* إن إغفـال الرقيب أو تجاهله طريق نحـو المعاصى والآثام، ومن كـان فى طريق المعاصى والآثام فإنه مريض نفسيًا وقلبيًا وخلقيًا وعقليًا.

وبعد: فهـذه جملة من أعراض الأمراض النـفسية، أو مظاهر لهـذه الأمراض، نرجو أن نكون قد دللنا عليها، ونبهنا إليها ليحذرها الناس ويكونوا منها فى مأمن.

* أما الأمراض الخاصة بالنفـس أو بالقلب فسوف نشير إلى بعضها فى الصـفحات التالية، والله المستعان.

جـ - أمراض النفس والقلب وعلاماتها وعلاجها:

الأمراض هى كل ما يخرج بالكائن الحى عن حدّ الصحة والاعتدال، من علَّة أو آفة.

* وهذه العلة إما مادية تـصيب بعض أجزاء جسد الإنسـان فتجعل هذا العضـو عاجزًا عن أداء وظيفته التى فطره الله ليؤديها.

وهذه العلة المادية التى تصيب جسد الإنسان ليست من مـحتوى هذا الكتاب لأن مجالها هو طب الأجساد، ونحن هنا لانتحدث عن ذلك.

(١) هو عبد الله بن محـمد بن عبيد بن أبى الدنيا (٢٠٨-٢٨١هـ/ ٨٢٣-٨٩٤م) حافظ لـلحديث الشريف مكثر من التصنيف. أدَّب الخليفة المعتضد العباسى فى حداثته ثم أدب ابنه المكتفى، ولد وتوفى ببغداد.

(٢) الصمت أحد كتبه، وهو كتاب من مائة وأربعة وستين كتابًا ألفها، وقد عدها الإمام الذهبى رحمه الله.

* وقد تكون هذه العلة معنوية تصيب النفس أو القلب، وهما شيء واحد فى كتابنا هذا، فتُحدث هذه العلة المعنوية قصورًا أو خللاً فى النفس أو القلب فتحول بينهما وبين أداء وظيفتهما على النحو الأمثل، وهو من صميم كتابنا هذا «النفس فى الإسلام» بمختلف أبوابه وفصوله، وهذه العلة المعنوية أنواعها كثيرة، وفى مقدمتها النفاق والرياء وسائر الأمراض النفسية.

* وقد تكون العلة خلقية تنعكس فى الإنسان على سلوكه الاجتماعى.

وهذه النقطة من هذا الفصل نتناول فيها الحديث عن موضوعات ثلاثة:

أولها: أمراض النفوس وعلاماتها.

والثانى: انعكاس هذه الأمراض على الأخلاق.

والثالث: علاج هذه الأمراض على وجه الإجمال.

فإذا أنهينا الحديث فى هذه الموضوعات تم الكلام عن الفصل الثانى من هذا الباب الأخير من الكتاب، لننتقل من بعد هذا الفصل إلى الفصل الثالث الأخير من الباب ومن الكتاب وهو أوسع فصول الكتاب كله لأنه يتحدث عن وسائل علاج هذه الأمراض النفسية.

الموضوع الأول: أمراض النفوس وعلاماتها:

أمراض النفوس أو القلوب هى التى تعطل النفس أو القلب عن أداء الوظائف.

* ووظائف النفس أو القلب هى:

العلم، والمعرفة، والحكمة.

فالعلم: إدراك الشيء بحقيقته، أو هو: اليقين، أو هو: نور يقذفه الله فى قلب من يحب من عباده.

والمعرفة: إدراك الشيء على ما هو عليه، وهى مسبوقة بنسيان حاصل بعد العلم، ولذلك يسمى الحق تبارك وتعالى بالعالم دون العارف، ويقال: فلان عرف الله ولايقال علمه.

والحكمة: معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، أو هى: علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ماهى عليه، أو هى: تعلم الحلال والحرام- كما قال ابن عباس رضى الله عنهما -والحكيم: ماكان قوله وفعله موافقًا للسنة النبوية.

* والنفس المريضة أو القلب المريض هو العاجز عن أداء هذه الوظائف أى عاجز عن تحقيق منافع النفس والقلب، أو ممتنع بإرادته عن أداء هذه الوظائف.

*** ولأمراض النفوس والقلوب علامات، منها:**

١- عدم معرفة الله تعالى، أى عدم التفكر والتدبر فى مخلوقاته ونعمه للاهتداء إليه وإلى الإيمان، وهذا التفكر مطلب شرعى أمر به الرسول ﷺ، فقد روي الطبرانى - فى الأوسط- بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته»**.

وروى أبو الشيخ الأصبهانى- فى كتابه «أخلاق النبى» ﷺ بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«تفكروا فى الخلق، ولاتفكروا فى الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره»**.

فالنفس أو القلب الذى لايعرف الله تعالى مريض.

٢- وعدم محبة الله تعالى التى تترتب عليها طاعته، والتقرب إليه بالعمل الصالح، وهذا الحب لله تعالى ورسوله ﷺ مطلب شرعى كذلك، فقد روى الترمذى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أحبُّوا الله لِمَا يغذوكم به من نعمه، وأحبونى لحب الله، وأحبوا أهل بيتى لحبى»**.

والنفس التى لا تحب الله ولا تطيعه ولا تتقرب إليه ولا تحب مايحب الله، نفس مريضة لاتؤدى وظيفتها فى الحياة.

٣- وعدم إيثار الله تعالى على كل ما فى الدنيا من ناس وأشياء عجز عن أداء وظيفة النفس والقلب، لأن إيثار الله تعالى على كل شيء مهما كان هذا الشيء محبوبًا، مطلب شرعى، لقوله تعالى: **﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾** [التوبة: ٢٤].

والنفس التى ترى حب شيء من ذلك مساويًا لحب الله، فضلاً عن أن يكون أكثر منه، نفس مريضة عاجزة عن أداء وظيفتها فى الحياة، وهى فى حاجة إلى العلاج.

٤- وعدم الإقبال على العلم والمعرفة قصور وتقصير ومخالفة لما أمر الله تعالى به، فقد كان أول ما أنزل الله على خاتم رسله: «اقرأ» وهى كلمة موحية بالاستزادة من العلم، ومن

طلب هذه الاستزادة باستمرار؛ لأن العلم معين لاينضب، وحاجة الإنسان المتجددة المتطورة فى حياته تجعله فى حاجة إلى العلم والتقنية، والتدبر فى قوله تعالى مخاطبًا خاتم رسله ﷺ: ﴿ .... وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، يؤكد للمتدبر أن طلب العلم فريضة فرضها الله تعالى، فقد روى البيهقى- فى شعب الإيمان- بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«طلب العلم فريضة على كل مسلم»**.

وبغير العلم والمعرفة لا تؤدى النفس وظيفتها فى الحياة، فتكون نفسًا مريضة بحاجة إلى علاج.

٥- وعدم التعامل بالحكمة مع الناس والمواقف والأشياء، بكل معنى من معانى الحكمة التى ذكرناها، والتعامل بالحكمة مطلب شرعى، لقوله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...** ﴾ [النحل: ١٢٥].

وروى الطبرانى- فى الكبير- بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«نعم العطية ونعم الهدية؛ كلمة حكمة تسمعها فتطوى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمها إياه تعدل عبادة سنة»**.

وإذا كان من معانى الحكمة موافقة السنة فى القول والفعل- كما ذكرنا- فإن التعامل بالحكمة واجب شرعى أيضًا.

والنفس التى لا تتعامل بالحكمة أو تتجاهلها نفس تعجز بكل تأكيد عن أداء وظائفها فى الحياة، وهى نفس مريضة تحتاج إلى علاج.

٦- والنفس التى تهمل فى أداء واجب أو تقصر فى أدائه، نفس تعصى الله عز وجل وتخالف ما أمر به وما نهى عنه، فقد قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقال جل شأنه: ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ** ﴾ [محمد: ٣٣].

وطاعة الله ورسوله أنفع للإنسان لو تدبر، فلابد إذن من طاعة الله ورسوله ﷺ، روى أحمد بسنده عن رافع بن خديج رضى الله عنه قال: نهانا رسول الله عن أمر كان نافعًا، وطاعة الله وطاعة رسوله أنفع لنا، قال: **«من كانت له أرض ليزرعها، فإن عجز عنها فليُزْرِعْها أخاه»**.

والنفس التى لا تطيع الله فتهمل ما أوجب عليها نفس مريضة تحتاج إلى علاج.

٧- والنفس أو القلب الذى يستمرئ ارتكاب الكبائر، أو الإصرار على إتيان الصغائر، والكبائر جمع كبيرة وهى: كل ذنب تعظم عقوبته، أو هى الشرك وسائر المعاصى الموبقة كالزنى وقتل النفس المحرمة..، وقد ضمن الله تعالى لمن اجتنب الكبائر أن يكفر عنه سيئاته، فقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: **«اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».**

قال ابن عباس رضى الله عنهما: هى إلى السبعين أقرب منها إلى السبع.

وللإمام الحافظ الذهبى رحمه الله كتاب جامع سماه «الكبائر» جمع فيه سبعين كبيرة، وهو كتاب نافع جزى الله مؤلفه كل خير.

فالنفس التى ترتكب إحدى الكبائر أو أكثر من كبيرة، وتصر على ارتكاب الصغائر نفس تعصى الله تعالى وتخالفه، وهى بكل تأكيد نفس مريضة بحاجة إلى العلاج.

* وهذه العلامات السبع -التى ذكرنا- ليست كل علامات المرض النفسى، وإنما هناك علامات كثيرة نشير إليها بالاسم دون أن نشرح ونفصل، ومنها:

- النفس التى لا تحتفل بشعائر الإسلام، ولا تعطيها ما تستحق من الاهتمام والحفاوة، نفس مريضة.

- والنفس التى لاتحب تلاوة القرآن أو الاستماع إليه، ولا ترتب لنفسها وردًا يوميًا تقرأ وتتدبر، نفس مريضة.

- والنفس أو القلب الذى يتصور أن سنة رسول الله ﷺ فى منزلة تشريعية أقل من منزلة القرآن الكريم نفس مريضة.

- والنفس التى توالى أعداء الله وأعداء الإسلام فتتخذ منهم أصدقاء وأولياء، وربما آثرتهم على المسلمين، نفس مريضة.

- والنفس التى تعادى أولياء الله وأولياء الإسلام، فتلحق بهم ضررًا، أو تغرى بهم عدوًا أو فاجرًا، نفس مريضة.

- والنفس التى تلهو عن ذكـر الله وتنسى وتغفل عمـا هى فيه فـتستمـرئ اللهو، نفس مريضة.

- والنفس التى تفضل الكسل والتراخى والقعود عـما لا يصح القعود عنه من الأعمال، نفس مريضة.

* كل هذه النفوس أو القلوب بتلك الصفات التى ذكرنا نفوس مريضة عاجزة بسبب مرضها عن أداء وظائفها التى فطر الله الناس عليها، وهى جميعًا تحتاج إلى علاج.

الموضوع الثانى: انعكاس هذه الأمراض على الأخلاق:

أمراض النفوس أو القلوب - كـما أوضحنا- لاتظهر فى صـورة خلل يصيب الجوارح، بحيث تعجـز هذه الجوارح عن العمل والحركة أو الكلام أو الرؤية أو الاسـتماع أو الشم أو الذوق أو اللمس، فهـذه الجوارح والحـواس تمارس عملها، ولكن علـى نحو لايرضى الله تعالى، ولاينم عن خلق قويم.

فالإنسان عندما تمرض نفسه ينعكس هذا المرض على أخلاقه وسلوكه؛ لأن السلوك الذى يسلكه الإنسان فى تعامله هو الترجمة الأمينة لما فى نفسه من قيم صحيحة أو فاسدة، خيرة أو شرّيرة.

فإن كانت النفس صحيـحة سليمة معافاة من المرض، جاء الخلق المعـبر عنها خلقًا حسنًا مرضيًا عنه من الله تعالى، يثيب صاحبه عليه.

وإن كانت النفس مريضة عليلة، جاء الخلق الصادر عنها خلقًا سيئًا لايرضى الله تعالى، بل يحاسب عليه ويعاقب.

* والإنسان قد أكرمه الله بمزيد من النعم التى لاتحصى من كثرتها وتنوعها، وكل هذه النعم توجب على الإنسان؛ نفسه وقلبه شكر المنعم بها وفاءً وولاءً.

فإذا جحد الإنسان هذه النـعم فلم يشكرها، أو أساء التعامل معها، ففـسدت بها أخلاقه واتبع فيها الشـهوات فقد أصبح جديرًا بعقاب الله فى الدنيـا بنزع هذه النعم منه وبعقابه فى الآخرة بما شاء الله مـن عقاب، ولقد دل على ذلك قوله تـبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

فإن شكر الإنسان ربه فإن ترجمة الشكر هى السلوك الحسن والخلق الحسن، وإن جحد فإن ترجمة الجحود هى السلوك السيىء والخلق السيىء.

* إن ما فى النفس وما فى القلب من نوايا ومشاعر، ينعكس على الإنسان أخلاقًا وسلوكًا، ويترجم عما يضمره الإنسان فى نفسه أو قلبه أو عقله من قيم يؤمن بها ويحترمها ويترجمها خلقًا وسلوكًا.

وقد سردنا[1] من صفات النفس الإنسانية فى حالة تقوى الله تعالى أن حسن الخلق ستًا وعشرين صفة لهذه النفس.

كما سردنا[2] من صفات النفس الإنسانية فى حالة فجورها سبعًا وعشرين صفة تنتمى إلى مساوىء الأخلاق.

* ونذكر هنا ببعض الأحاديث النبوية الداعية إلى محاسن الأخلاق أو التى تنفر من مساوىء الأخلاق. فمن ذلك فى الدعوة إلى محاسن الأخلاق:

- روى البزار بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وإن حُسن الخلق ليبلغ درجة الصوم والصلاة»**.

- وروى مسلم بسنده عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«البرّ حسن الخلق، والإثم ماحاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»**.

- وروى الطبرانى- فى الأوسط- بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله: **«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، الموطأون أكنافًا، الذين يألفون، ويؤلفون، ولا خير فمن لايألف ولايؤلف»**.

* كما نذكر ببعض الأحاديث النبوية التى نهت عن مساوئ الأخلاق، ومن ذلك:

- ما روى أبو داود بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ عن الجلوس على مائدة يُشرب عليها الخمر، وأن يأكل الرجل وهو منبطح على بطنه».

- وما رواه البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ»**.

(١) كان ذلك فى الفصل الثالث من الباب الثانى من هذا الكتاب، وكان هذا الفصل بعنوان مجمل صفات النفس الإنسانية عمومًا.

(٢) كان ذلك فى نفس الفصل الثالث من الباب الثانى من هذا الكتاب.

- وما رواه الطبـراني- في الكبير- بسنده عن عـابس الغفاري رضي الله عنه قـال: قال رسول الله ﷺ: «**بادروا بالأعمال ستًا:**

*** إمارة السفهاء.**

*** وكثرة الشرط.**

*** وبيع الحكم.**

*** واستخفافًا بالدم.**

*** وقطيعة الرحم.**

*** ونشئًا يتخذون القرآن مزامير، يقدمون أحدهم ليفتيهم، وإن كان أقلهم فقهًا».**

* إن الحياة الخلقية كلها هي مجمل سلوك الإنسان، وهي نوعان:

الأول: الأخلاق المحمودة ومن مفرداتها:

- أداء الفرائض والواجبات.
- والتحلي بالفضائل.
- وحب الخير وفعله.

والآخر: الأخلاق المذمومة ومن مفرداتها.

- الامتناع عن أداء الفرائض والواجبات.
- والتّخلي عن الفضائل.
- وحب الشر وفعله.

* فالنفس المريضة هي التي تسلك أخلاقًا ذميمة تسيء بها إلى نفسها وإلى الناس، وتغضب خالقها سبحانه وتعالى، وهذه النفس المريضة بحاجة إلى علاج.

* ويرى علماء الاجتماع من المسلمين[1] أن الأخلاق منظومة قواعد السلوك، وهذا يعني أن الأخلاق علم عملي، وأنها معيارية ثابتة.

- أما أن الأخـلاق علم عملي، فـذلك يعني أن هدف الأخلاق لايقتـصر على المعـرفة والعلم، بل يتجاوز ذلك إلى العمل وتحقيق النتائج.

(١) ولايخالفهم في ذلك علماء الاجتـماع من غير المسلمين، في معظم عصور الإنسانيـة، إذا استثنينا هذا العصر المنحوس الذي ساده اليهود والإدارات الأمريكية المؤيدة لليهود.

- وأما أن الأخلاق معيارية، فذلك معناه أنها ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وأنها تحدد الهدف المراد بلوغه، وتحدد الزمن، وتحدد الوسائل التى تتعامل بها لكى تصل إلى الهدف.

* وإنما انعكست أمراض النفوس والقلوب على الأخلاق والسلوك، لأن هذه الأخلاق قيم، وأنها قيم كامنة فى النفس والقلب والعقل، تتحين الفرص لتخرج إلى الوجود العملى واقعًا وسلوكًا، وإذا كانت النفس تشبه المرآة فإن الأخلاق تنعكس من خلالها إن خيرًا وإن شرًا، إن حسنًا وإن قبحًا.

* فإن كانت النفس مريضة انعكست الأخلاق من خلالها شرًا وقبحًا وإفسادًا للإنسان، وذلك أمر يستوجب علاج هذه النفس المريضة، وذلك هو ما نتحدث فيه الآن.

الموضوع الثالث: علاج هذه الأمراض على وجه الإجمال:

هذا تصور لعلاج أمراض النفوس والقلوب إجمالاً، أما تفصيل العلاج فسيكون فى الفصل الثالث بعنوان: «وسائل العلاج»[1].

وهذا العلاج ضرورى دينياً، واجتماعياً، وإنسانياً، أى لابد منه استجابة لأمر الدين، ورغبة فى إصلاح المجتمع، وتجاوبًا مع إنسانية الإنسان.

* أما أنَّه ضرورى دينيـاً؛ فلأن الأديان عمومًا والدين قائم على وجه الخصوص، يلزم كل متدين به بأن تكون القيم السائدة فى نفسه وقلبه قيمًا خيِّرة تحب الخير للناس جميعًا، والنصوص الإسلامية التى تدل على ذلك ذكرنا معظمها فى فصول هذا الباب الأخير من الكتاب.

إن علاج أمراض النفوس واجب شرعًا، استجابة لقول الرسول ﷺ : **«ياعباد الله تداووا، فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد؛ الهرم»**. رواه أصحاب السنن بأسانيدهم عن أسامة بن شريك رضى الله عنه. إن المسلم مطالب بهذا العلاج لتصح نفسه، وليسلم قلبه، ولتستقيم أخلاقه.

* وأمّا أنَّ علاج النفوس ضرورة اجتماعية؛ فلأن الإسلام لايتصور أن يعيش المسلم فى عزلة عن المجتمع بل لايجيز ذلك إلا فى أضيق نطاق، والمجتمع المسلم يقوم على عبادة الله تعالى ويتفاضل أفراده بتقوى الله.

(١) وهو أوسع فصول هذا الباب الأخير من الكتاب، بل أعتبره صلب الكتاب وعموده.

ووظائف المجتمع المسلم ووسائله فى تحقيق -أهدافه ابتداء من مقاومة التخلف الاجتماعى ومرورًا بسائر الأهداف ووصولا إلى آخر هذه الأهداف وهو تحقيق الرفاهية الاجتماعية-[1] فإن أداء هذه الوظائف واجب شرعى لايجوز التخلى عنه.

وكيف تشارك فى تحقيق هذه الأهداف نفوس مريضة وقلوب غير سليمة وأخلاق غير مستقيمة؟ إذن لابد من العلاج.

* وأمّا أنّ هذا العلاج ضرورى إنسانيًا؛ فلأنّ الله تعالى قد كرّم الإنسانية كلها -بنى آدم عليه السلام جميعًا- فأنعم عليهم بما حملهم فى البر والبحر وسخر لهم ما فى السموات والأرض ليرزقهم من الطيبات، وفضلهم على كثير من خلقه، وليس فى إمكان الإنسانية أن تمارس هذا التكريم وهذه النعم وذلك التفضيل وهى مريضة النفس، عليلة القلب، سيئة الخلق، وبالتالى فلابد من العلاج لهذه الأمراض جميعًا.

فالعلاج إذن ضرورة إنسانية لا مفر منها ولا غِنًى عنها.

* وهذا العلاج الضرورى دينيًا واجتماعيًا وإنسانيًا، يقوم على القيم والمبادئ الخلقية الدينية والاجتماعية والإنسانية.

* ولسنا نتفق مع الذين يقولون[2]: إن الأخلاق فى التصور الفلسفى تجربة صيرورة تاريخية تستهدف الثورة على الماضى باسم الحاضر، والثورة على الحاضر باسم المستقبل من أجل إحداث التغيير.

لسنا مع هؤلاء لأن منطقهم وفلسفتهم يقومان على تجاهل أنّ القيم الخلقية فى الدين الخاتم بل فى الأديان جميعًا من الثوابت التى لايجوز أن تغيرها الحداثة أو المعاصرة أو المستقبلية أوالثورة.

* الأخلاق فى الأديان كالعقائد والعبادات لايجوز أن يدخلها تغيير أو تبديل.

ولا عجب فى أن يعمل الحداثيون على تغيير الأخلاق، لأن الأخلاق جزء من الدين، وهم يستهدفون تغيير الدين نفسه لصالح عصريتهم وحداثتهم.

---

(١) للتوسع: انظر لنا: التربية الاجتماعية الإسلامية- الباب الثانى- نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية- القاهرة: ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

(٢) هم طوائف من الفلاسفة، وعلماء الاجتماع من الغربيين، ومعظم المفكرين الشيوعيين أو الاشتراكيين، وجميع الملاحدة من الغرب والشرق، ومن خُدع بهؤلاء من المسلمين فردد ما يقولون ودافع عنه طلبًا للرفد والقرب وشوقًا إلى الجاه والسلطان.

وأعجب ما يقع فيه الحداثيون من غفلة تصل إلى حد التناقض هى أنهم دعاة تغيير مستمر للماضى وللحاضر، فمن أين يجدون للناس ثوابت يحترمونها ويشقون طريقهم على هداها، وهم فى هذا التغيير المستمر؟ وهم بذلك يقعون فى مغالطات؛ فإن ما يحلونه أو يحرمونه بالقوانين الوضعية إنما هو عند التأمل تحليل أو تحريم أخلاقى!!

من أين لهؤلاء الحداثيين بثوابت يحترمها الناس ويمارسون من خلالها حياتهم الاجتماعية والإنسانية إذا كانوا ينفون الدين عن تفكيرهم وفلسفتهم؟

* ومن أجل هذا العلاج الإجمالى لأمراض النفس والقلب وربما العقل، وبكل تأكيد أمراض الخلق، نشير فى إيجاز إلى مظاهر هذه الأمراض بأوضح مما تحدثنا عنه آنفًا، وبتدقيق أوفى مما ذكرنا فى حديثنا عن أعراض المرض النفس أو مظاهره، إذ نركز هنا على تحديد مواقف بعينها إذا وجد الإنسان نفسه فيها، أو أَحَسَّ نحوها بانجذاب وتجاذب فهو مريض نفسيًا وعليل قلبيًا وخلقيًا، كما نشير إلى مواقف إن وجد الإنسان نفسه نافرًا منها على الرغم من أن الإسلام يشجعها ويدعو إليها، فهو مريض نفسيًا..

* ومن هذه المظاهر:

- أن يجد الإنسان نفسه مقبلاً على شهواته ميالاً إلى ممارستها، دون نظر فيما أحل الله منها وما حرّم، لأن تجاهل الحلال والحرام مرض نفسى وانحراف خلقى.

- وأن يجد الإنسان قلبه أميل إلى اللهو واللعب والتَرفُّه والتنعم، ويجد قلبه أبعد من الجد والاجتهاد والعمل المثمر، والصبر والتحمل، فهو عندئذ مريض.

- وأن يجد نفسه وقلبه مع ماحرّم الله تعالى، أو مع ما بغَّض فيه وكرّه، فيقبل على هذه المحرمات وتلك المكروهات دون تفكر أو تدبر فى العواقب، فذلك من مظاهر مرض النفس والقلب ومن مظاهر مفاسد الأخلاق.

- وأن يجد نفسه وقلبه أكثر إقبالاً على ما يُوقعه فى الشبهات دون التحرى لما حرّم الله تعالى؛ إذ الشبهات هى محارم الله تعالى ومن رتع حولها أو شك أن يقع فيها، وهذا دليل على مرض نفسى وقلبى، وعلى خلل عقلى، لأن عقله لم يبعده عن مواطن الشبهات ولم يعقله عنها.

- وأن يجد قلبه منجذبًا إلى توافه الأمور وسفسافها، معرضًا عن كبار الأمور وجادها ونافعها وعظامها، فهو عند ذاك مريض نفسيًا وقلبيًا وخلقيًا، لأنه بعيد عما يحب الله تعالى من معالى الأمور.

- وأن يجد نفسه زاهدًا فى مكارم الأخلاق من إخلاص وصبر على ما يكره، وصبر عما يحب، وعفة وشجاعة ونجدة وغوث للهيف والمكروب، فهو فى هذه الحالة مريض نفسيًا، وخلقيًا.

- وأن يجد قلبه متعلقًا بأهل الباطل يحب القرب منهم ومجالستهم، ويجد نفسه معرضًا عن أهل الجد، وأهل العلم، وأهل الصلاح والتقوى، إنه عندئذ مريض نفسيًا وقلبيًا وخلقيًا واجتماعيًا.

- وأن يجد نفسه منصرفًا عن معرفة دينه حلاله وحرامه، منغمسًا فيما لاطائل وراءه من أنواع المعرفة الضارة والمسائل التى لا تعود عليه بنفع فى دينه أو دنياه، إنه عندئذ مريض نفسيًا وقلبيًا وعقليًا وخلقيًا.

- وأن يجد نفسه مستهينًا بالصغائر من الذنوب ممارسًا لها، غير مبال بأنها تجر إلى الكبائر، غافلاً عن أن الإصرار على الصغيرة كبيرة، وهذا يعنى أنه مريض نفسيًا وقلبيًا واجتماعيًا.

- وأن يجد نفسه راضيًا عن نفسه غير معاتب لها على العمل الذى يشينها أو يدينها، وربما يبحث لها عن مبررات، فهذا الإنسان الراضى عن نفسه مغرور يعبث به الشيطان، ومن كان كذلك فهو مريض مرضًا نفسيًا عضالاً يحتاج إلى علاج دواؤه مُرّ وأليم.

- وأن يجد نفسه ممسكًا عن فعل الخير، صادًا عن أنواع البّر، بخيلاً بماله أو جهده، أو جاهه وسلطانه على من يستحقون من المسلمين، سمحًا كريمًا على قرناء السوء وإخوان الشياطين، إنه بهذا مريض نفسيًا وخلقيًا واجتماعيًا.

- وأن يجد قلبه جبانًا هيَّابًا عند الحاجة إلى الشجاعة والنجدة والتضحية، أو يجده متهورًا مندفعًا مع قرناء السوء، والمتبطلين، إن ذلك من مظاهر مرضه النفسى.

تلك بعض مظاهر المرض النفسى أو القلبى أو الخلقى، ولو أردنا الاستقصاء لطال بنا الكلام..

* كما نحب أن نشير فى إجمال إلى علاج هذه الأمراض وأمثالها، ومن رحمة الله تعالى بنا أن جعل معظم ذلك بأيدينا، دون أن نجلس على كرسى اعتراف أو نوسط بيننا وبين الله أحدًا غير العمل الصالح.

- لقد تكفل الإسلام بعلاج هذه الأمراض وأمثالها، ووصف لنا العلاج ويسَّره علينا، رغبة منه فى أن يكون المجتمع المسلم مجتمع الأصحاء نفسيًا، الأنقياء قلبيًا، المستقيمين أخلاقيًا، لأن الله تعالى ناط بهذا المجتمع مهمة الدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله تعالى لإقرار العدل والإحسان والتعاون على البر والتقوى.

- بل إن الإسلام أوجب هذا التداوى على كل مريض، وأعلن أن لكل داء دواء إلا الهرم أو السَّام- وهو الموت- فقد روى الحاكم- فى مستدركه- بسنده عن أبى سعيد رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«إن الله تعالى لم ينزل داء إلا أنزل له دواء، عَلِمَه من عَلِمَه، وجَهله من جَهله، إلا السَّام، وهو الموت»**.

- وفتح الإسلام الباب على مصراعيه للعمل الصالح الذى يبدأ بكلمة التوحيد ويستمر حتى يشمل معظم أنواع العمل الصالح، حيث يدخل فيها إماطة الأذى عن الطريق.

والعمل الصالح يطارد العمل الفاسد والسيئات، لأن الحسنات يذهبن السيئات، فيطارد أمراض النفس والقلب ومفاسد الأخلاق، بل يقضى على ذلك كله إنْ صاحبه الإخلاص.

روى الترمذى وابن ماجة وأحمد والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله ابن سلام رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصَلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»**.

* والأحاديث النبوية الشريفة فى مفردات العمل الصالح تحفل بها كتب السنة النبوية المطهرة، نذكر منها ما نرى فيه استشهادًا على أن العمل الصالح يعالج المرض النفسى والقلبى والخلقى، ومن تلك الأحاديث الشريفة.

- روى ابن حِبَّان - فى صحيحه- بسنده عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«خمسٌ مَنْ فعل واحدة منهن كان ضامنًا على الله، من عاد مريضًا أو خرج غازيًا، أو دخل على إمامه يريد تعزيزه وتوقيره، أو قعد فى بيته فسَلِمَ الناس منه وسلم من الناس»**.

- وروى الترمذى بسنده عن أبى كبشة الأنمارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث أقسم عليهن:**

ما نَقَصَ مالُ عَبْدٍ مِنْ صدقة.

ولا ظُلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزًا.

ولا فتح عبد باب مسألة(١) إلا فتح الله عليه باب فقر.

وأحدثكم حديثًا فاحفظوه، إنما الدنيا لأربعة نفر:

عبد رزقه الله مالاً وعلمًا، فهو يتقى فيه ربه ويصل فيه رحمه،ويعمل لله فيه حقًا، فهذا بأفضل المنازل.

وعبْد رزقه الله تعالى علمًا ولم يرزقه مالا، فهو صادق النية يقول: لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيِّته فأجرهما سواء.

وعبْد رزقه الله تعالى مالاً ولم يرزقه علمًا، يخبط فى ماله بغير علم، لايتقى فيه ربَّه، ولا يصل فيه رحمه، ولايعمل لله فيه حقًا، فهذا بأخبث المنازل.

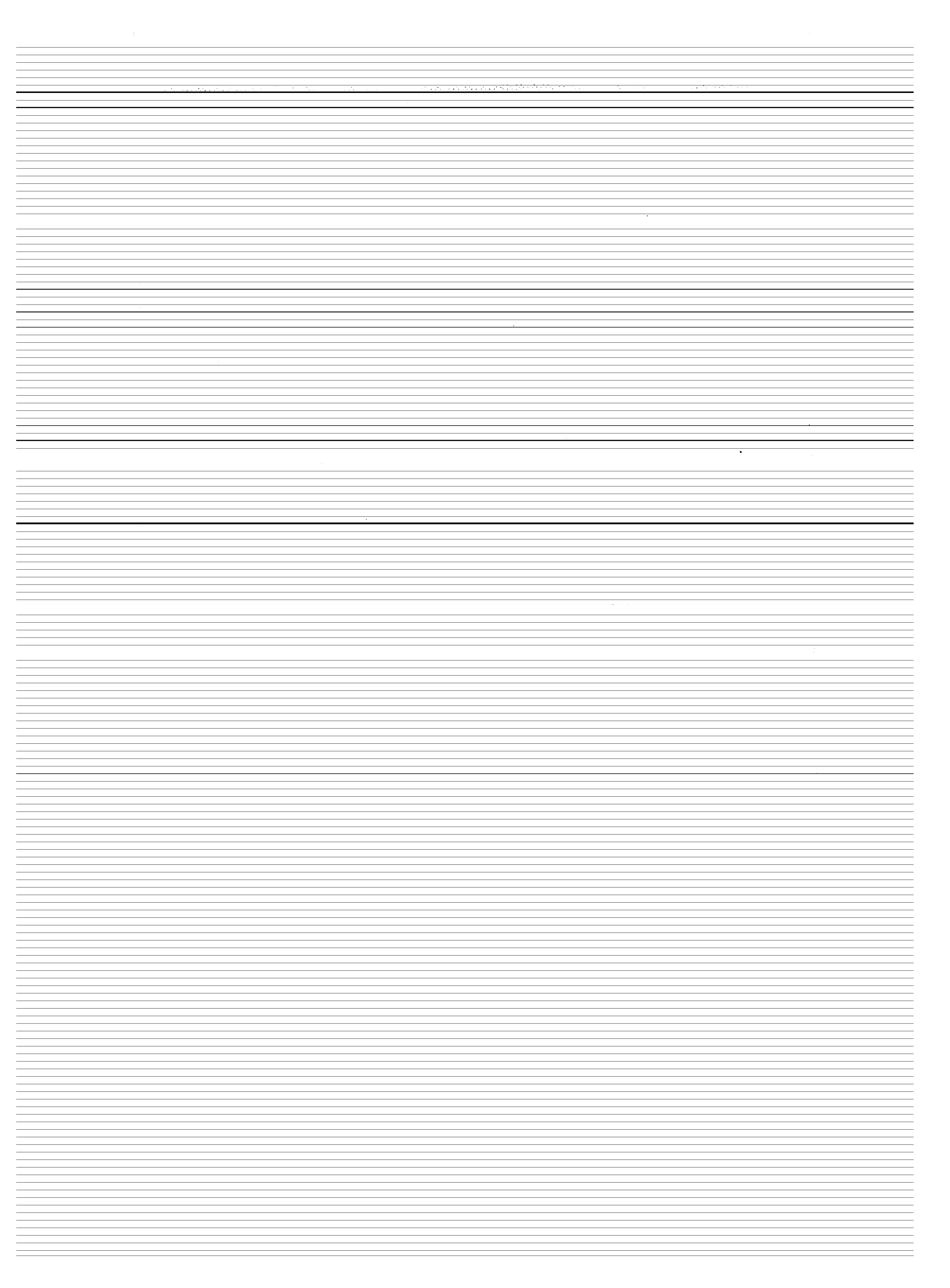
وعبْد لم يرزقه الله تعالى مالاً ولا علمًا، فهو يقول: لو أنّ لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيّته فوزرهما سواء».

وبعد: فما أكثر هذه الأحاديث النبوية الشريفة التى ترسم للمسلمين طريق النجاة وطريق العلاج من كل الأمراض، غير أننا اقتصرنا على هذا القدر وفيه دلالة، وكتب السنة النبوية بحر زاخر، لمن أراد.

****

---

(١) أى سأل الناس ولم يعمل ولم يحتطب مثلا، حتى لا يسأل الناس.





الفصل الثالث

وسائل العلاج

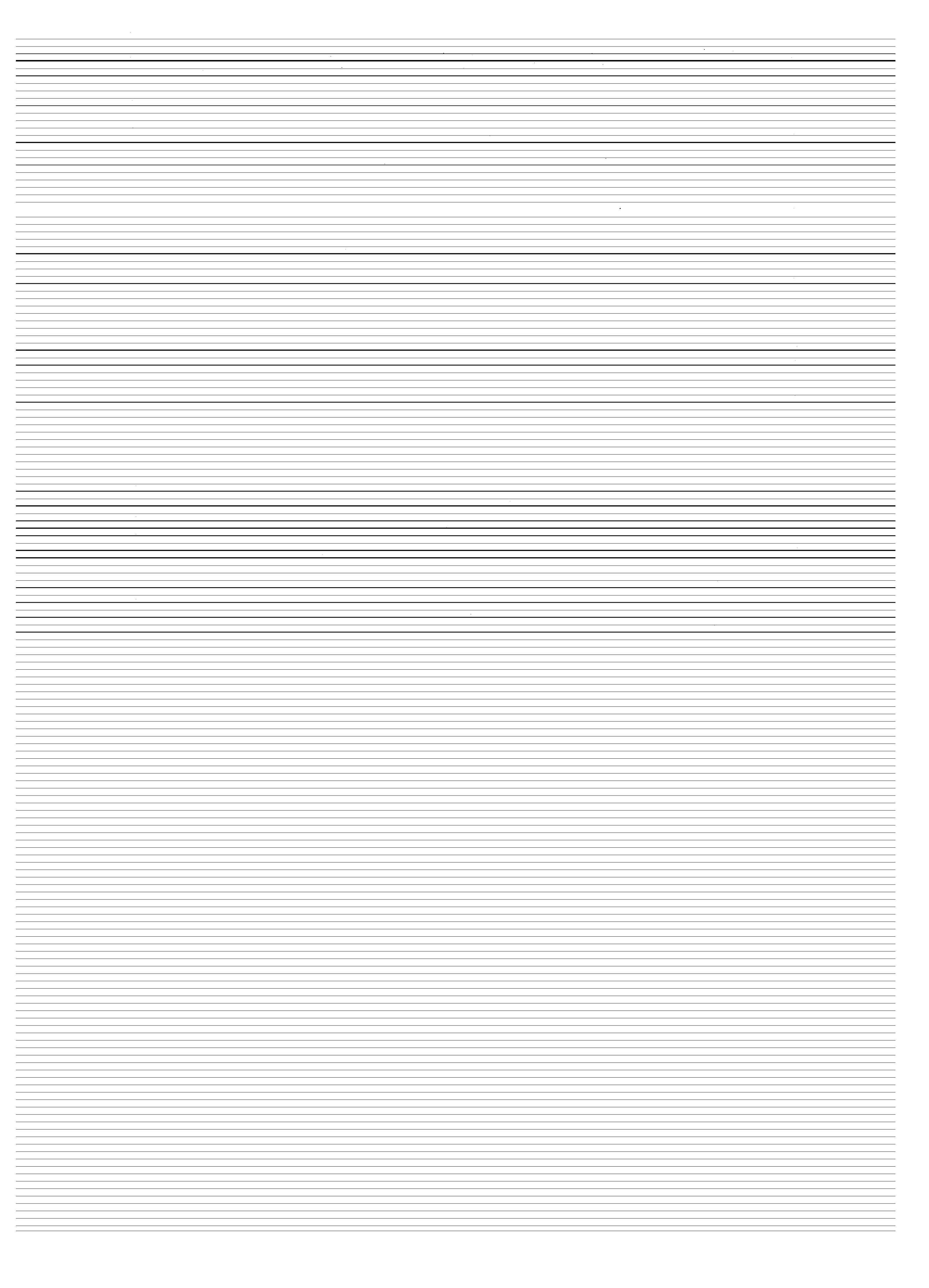
ويتناول:

تمهيداً وثلاث نقاط هى:

أولاً: أسباب نجاح هذه الوسائل فى علاج أمراض النفس.

ثانياً: الوسائل الروحية فى العلاج.

ثالثاً: الوسائل العملية الميدانية فى العلاج.



وسائل العلاج

تمهيد:

هذه الوسائل فى علاج أمراض النفوس والقلوب نابعة من القرآن الكريم، ومن سنة الرسول ﷺ، ولو أردنا أن ندمجها فى كلمة لقلنا: إن هذه الوسائل جميعها، وعلى كثرة ما فرعناها، لاتعدو أن تكون هى: «عبادة الله تعالى وحده» ولا عجب فى أن تكون العبادة لله تعالى علاجًا من كل مرض نفسى أو قلبى أو خُلقى، لأنها وظيفة الإنسان فى الحياة الدنيا، والإنسان الذى ينجح فى أداء وظيفته هو إنسان سعيد راض مرضى عنه، ومن كان كذلك فمن أين يأتيه المرض النفسى أو القلبى أو الخلقى؟

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨].

* وتكاليف الله تعالى للعباد بعبادته على ألسنة رسله عليهم السلام لم يُرِدْ بها سبحانه وتعالى إلا صلاحهم فى الدنيا وفى الآخرة، وحصول كما لهم النفسى بهذا الصلاح.

* وما من شريعة أتى بها رسول من عند الله تعالى إلا استهدفت كمال الإنسان فى حدود طاقته للكمال، واستهدفت ضبط نظامه الاجتماعى وضبط سلوكه الخلقى، وإذا انضبط ذلك بعبادة لله تعالى فقد صحت نفسه وسلم قلبه واستقام خُلُقه.

* والشريعة الخاتمة التى جاء بها الرسول الخاتم ﷺ لابد أن تكون أكمل الشرائع وأشملها لكل ما يصلح حياة الإنسان فى الدنيا والآخرة.

* عبادة الله تعالى علاج أكيد لكل أمراض النفوس والقلوب والأخلاق، ويمكن أن تكون علاجًا لبعض أمراض الأجساد، ولنا على صحة ما نقول دليلان:

أحدهما: أن لعبادة الله تعالى وسائل عديدة سنتحدث عنها، وكلها قد جرّب فى علاج النفس والقلب والخُلُق فنجح نجاحًا شهد له التاريخ.

والآخر: وأن هذه الوسائل لعلاج هذه الأمراض ميسَّرة لكل من أراد من الناس، وليس فى الأخذ بها مشقة، أو إجحاف بالناس.

* وقد ذكرنا أسباب نجاح هذه الوسائل فى العلاج، وأحصينا منها سبعة أسباب، وإن كانت هى أكثر من ذلك.

* ثم قسمنا هذه الوسائل إلى نوعين:

الأول: الوسائل الروحية فى العلاج.

والآخر: الوسائل العملية الميدانية فى العلاج.

ونسأل الله تعالى العون والسداد.

أولاً: أسباب نجاح هذه الوسائل فى علاج أمراض النفس

أكبر الأسباب فى نجاح هذه الوسائل أنها ليست من صنع أحد من الناس أو اختراعه، وإنما هى من صنع الله تبارك وتعالى ومن تقديره، ومن حبه سبحانه وتعالى لخاتم رسله ﷺ، وقد شاء الله تعالى لهذه الأسباب أن تكون لها صفات تكفل لها النجاح فى علاج أمراض النفس والقلب والخُلق.

ومن هذه الصفات أو أسباب النجاح:

١- أن هذه الوسائل فى مجموعها شاملة متكاملة:

وهذا الشمول وهذا التكامل من صنع الله تبارك وتعالى، وهو شمول وتكامل يستشف من قول الله تعالى مخاطبًا الأمة الخاتمة:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

- فالدين الذى أكمله الله تعالى هو: ما كلّف الله به الأمة من مجموع العقائد والأعمال والشرائع والنظم، ومن تمسك بهذا الدين أمن كل أنواع المرض النفسى والقلبى والخلقى.

- وإتمام النعمة: هو خلوصها مما يخالطها من الحرج والتعب، وذلك أن الله تعالى لايكلف نفسًا إلا وسعها، وما يجعل على الناس فى دينهم من حرج.

ومعنى الشمول والتكامل فى هذا الدين ومنهجه أنه يملأ على الإنسان حياته بما هو نافع للإنسان فى معاشه ومعاده، ولايدع له فراغًا فى وقته، ولا فى جانب من جوانب حياته فيعبث به الشيطان من خلال هذا الفراغ.

٢- وأنها وسائل نابعة من حاجات المجتمع:

أفراد المجتمع المسلم يرغبون دائمًا فى أن يكونوا على مستوى ما كلفهم الله به، من عبادته، ومن إعمار الأرض بعد أن استخلفهم فيها، والوسائل التى سنفصل القول فيها والتى عددت منها أربعين وسيلة، كل وسيلة منها تساعد على الإسهام فى عبادة الله تعالى، وفى إعمار الأرض، وفى التمكين لهذا الدين، ولتحقيق الأمن النفسى والمادى للإنسان، وفى علاج أمراض النفس والقلب والخلق.

ويفهم ذلك من وعد الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات بهذه العدات الثلاث:

- الاستخلاف فى الأرض والسيطرة على ما فيها من خيرات.

- وتمكين الدين والشريعة فى الأرض، يتحاكم إليها الناس فيتحقق لهم العدل والرخاء.

- وتبديل كل خوف عندهم إلى أمن واطمئنان.

وإنما يكون ذلك كله بعبادة الله وطاعته وطاعة رسوله ﷺ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

٣- وأن هذه الوسائل جميعًا هى من مطالب الإسلام، وكثير منها يرتفع ليكون من فروض الإسلام أو واجباته.

- وإذا كانت الوسيلة واحدة مما حبب فيه الإسلام أو طالب به أو أوجبه أو فرضه، فلاشك فى فائدتها للإنسان فى دنياه وآخرته.

- ولأن الله تعالى رب الناس جميعًا فلا شك فى أن غير المسلمين إذا أخذوا بهذه الوسائل أفادوا منها فى دنياهم فقط، لأن فائدة أخراهم مرتبطة بالإيمان، وهم اختاروا الكفر على الإيمان.

- وأن هذه الوسائل واجبة الاتباع، ومع اتباعها لابد من الصبر على متاعب هذا الاتباع، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

وكل هذه الوسائل التى سنتحدث عنها مما أوحاه الله تعالى إلى رسوله الخاتم ﷺ، فاتباعها واجب، والأخذ بها نجاة وأمان، وعلاج لكل مرض نفسى أو قلبى أو خلقى.

٤- وأن هذه الوسائل هى التى أخذ بها الصحابة رضى الله عنهم:

وباتصاف قلوب الصحابة ونفوسهم بهذه الصفات انطلقوا بهذا الدين يبلغونه للدنيا المحيطة بهم، سعداء بمايقومون به من عمل، مقبلين على أداء عملهم هذا مهما كلفهم من عناء وتضحية، يستعذبون حياتهم وهم يعملون مايرضى ربهم، بل يستعذبون الموت إن عرض لهم وهم يعملون فى تبليغ رسالة ربهم، بل يرون الموت فى سبيل هذه الغاية حياة، وفوزًا بإحدى الحسنيين؟ النصر على الأعداء أو نيل الشهادة فى سبيل الله تعالى، قائلين: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

إن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم هم الذين نقلوا إلينا هذا الدين، ونشروه حيث استطاعوا، فوصل إلى شتى بقاع الأرض، فكانوا بذلك خير أمة أخرجت للناس، لأنهم أخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده لاشريك له: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ... ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٥- وأن هذه الوسائل هى التى أخذ بها أهل القرون الثلاثة الأولى:

أهل هذه القرون الثلاثة الأولى هم الذين وصفهم الرسول ﷺ بأنهم خير القرون، فقد روى مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خير الناس القرن الذى أنا فيه ثم الثانى ثم الثالث**».

وما أثنى عليهم رسول الله ﷺ بهذه الخيرية، إلا لأن الله تعالى قد أوحى له بذلك، لعلم الله تعالى بأهل هذه القرون، ومدى ما سيفعلونه من أجل الدين من علم وتعليم وعمل ومثابرة وصبر واحتساب.

لقد بنى أهل هذه القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام حضارة قامت على التعلُّم العلم والتعليم، وعلى العمل فى مجال نشر دعوة الله فى الناس، وعلى التحرك بهذا الدين الخاتم فى الناس والآفاق، كما قامت على المخترعات والمكتشفات، والقيم الخلقية الرفيعة، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى الجهاد فى سبيل الله تعالى لتكون كلمة الله هى العليا.

ولقد أفادت البشرية كلها من مفردات الحضارة الإسلامية، المسلمون وغير المسلمين، إذ كانت حضارة قائمة على الإيمان والعلم؛ الإيمان بكل شعبه السبعة والسبعين، والعلم بكل تجلياته ومخترعاته كما شهد بذلك المسلمون وغير المسلمين.

٦- وأنها الوسائل التى أخذ بها المصلحون المجددون من المسلمين:

شاء الله تعالى لهذه الأمة الخاتمة صاحبة الكتاب الخاتم والرسول الخاتم ﷺ، شاء الله تعالى- وهو بكل شىء عليم، ومن أجل أنه تكفل لهذه الأمة بحفظ كتابها ودينها - شاء لها أن يبعث فيها على رأس كل مائة عام مصلحًا مجددًا، يجدد لها ما تقادم أو بلى فى نفوس المسلمين من قيم هذا الدين ومبادئه ونظمه، فقد روى أبو داود وبسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**». ذلك وعد الله تعالى وتلك سنته فى تلك الأمة

الإسلامية، وحاشا لله أن يخلف وعده، ويستحيل على الكون كله أن يعطل سنة من سنن الله تعالى.

ومن يقرأ تاريخ الأمة الإسلامية يجد مصداق هذا الحديث النبوى الشريف، إذ يضعُف المسلمون فى الالتزام بكتابهم وبسنة نبيهم ﷺ، فينقل الضعف إلى دولتهم، ثم إلى نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فتطمع فيهم الدول المعادية لهم، فتهزمهم فى معركة أو أكثر، فيأبى الله إلا أن يثبت سنته وينجز وعده، فيبعث فيهم من يجدد لهم أمر دينهم فيثوبوا إلى الحق، ثم يكون الانتصار على الأعداء، فيكون ذلك تجديدًا لأمر الدين[1]. ماتخلفت سنة الله ولا تبدلت فى قرن من القرون.

* ومن نظر فاعتبر وَجَدَ سنة الله ماضية لا تتخلف أبدًا، ووجد إرادته سبحانه وتعالى نافذة، وستظل نافذة إلى يوم الدين، ولنا فى تاريخنا خير شاهد وخير دليل، ولنا فى تاريخنا المعاصر مبشرات يدركها كل من يؤمن بأن المستقبل لهذا الدين، مهما طغى الطغاة واعتسف الظالمون.

٧- وأنها وسائل استطاعت أن تبعث المسلمين من نومهم:

ونوم المسلمين يعنى تراخيهم فى التمسك بدينهم والالتزام بقيمه ومبادئه ونظمه، فتأتى فى أعقاب ذلك الهزائم؛ فإذا عاد المسلمون إلى التمسك بهذه الصفات وتلك الوسائل نصرهم الله، ومكن لهم دينهم.

وتلك أيضًا من سنن الله تعالى؛ إذا لم يلتزم المسلمون بقيم دينهم ومبادئه ونظامه ضعفوا وانهزموا واستولى العدو على البلاد والعباد ، فإذا عاودوا الالتزام بهذا الدين قوى الله شوكتهم ووحد صفوفهم ونصرهم على أعدائهم، وتاريخنا ملئ بما يؤكد استمرار هذه السنن، وعلى سبيل المثال:

- سقوط بغداد على أيدى التتار.
- ووقوع بيت المقدس فى أيدى الصليبيين تسعين عامًا.
- والحروب الصليبية على مدى قرنين من الزمان من ٤٩٢هـ إلى ٦٩١هـ.
- وطرد المسلمين من الأندلس وإكراه كثير منهم على ترك دينهم.

---

(١) لمعرفة مجددى القرون: انظر لنا كتاب: التوثيق والتضعيف عند المحدثين والدعاة، نشر دار الوفاء- مصر:١٤١٤هـ- ١٩٩٤م ط ثانية.

- والتحالف بين الأعداء على إسقاط دولة الخلافة العثمانية في تركيا، وتقاسم الأعداء للبلدان التي كانت في حوزتها.
- وحركة المد الاستيطاني الغربي التي استولت على كثير من بلدان العالمين العربي والإسلامي.
- والتحالف الغربي والروسي على طرد الفلسطينيين من ديارهم، لإقامة وطن لليهود في فلسطين.
- واحتلال أمريكا وحلفائها لأفغانستان.
- واحتلال أمريكا وحلفائها للعراق مرة ثانية.
- والتآمر الغربي المؤيد من هيئة الأمم المتحدة ضد السودان.
- والإصرار الغربي على إلغاء نتيجة الانتخابات في الجزائر حين كسبها الإسلاميون.
- والحيلولة بين الإسلاميين وبين تداول السلطة في سوريا ومصر وتونس والعراق والجزائر، والصومال والسودان واليمن.. إلخ.

* ومهما بغى أعداء الإسلام وظلموا فاتخذوا سُلَّمًا في السماء أو نفقًا في الأرض، فإن سنة الله لن يستطيع أحد لها تبديلاً ولا تغييرًا، صدق الله العظيم: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وتلك الوسائل - التي سنتحدث عنها بالتفصيل - قادرة بإذن الله تعالى أن تعيد الحق إلى أصحابه، وأن تزيل هؤلاء الأعداء من الطريق مهما تطاولوا في البنيان، ومهما ملكوا من أسلحة دمار شامل، ومهما سيطروا على هيئة الأمم المتحدة، فصيروها متحدة ضد المسلمين، إن هؤلاء الأعداء جميعًا: ﴿مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

****

ثانياً: الوسائل الروحية فى العلاج

لعلاج النفس والقلب والخلق من أمراضها، وضع النظام الإسلامى خطة لوصل هذه الروح بخالقها سبحانه وتعالى. والروح والقلب والعقل؛ كلمات متقاربة المعانى- كما أوضحنا فيما سلف من الكتاب - إذ هذه الكلمات فى مجموعها، وفى كل مفردة من مفرداتها تعنى الإنسان الذى حمل أمانة التكليف، وكان من رحمة الله به أن أمره ونهاه وشرع له الدين.

* وهذا الإنسان هو محبوب الله تبارك وتعالى، بدليل أنه سبحانه قد خلق من أجله السموات والأرض، وسخر له ما فيهما، وكرّمه، وحمله فى البر والبحر ورزقه من الطيبات وفضله على كثير من خلقه، وأكرمه، وأنعم عليه بالرسل والكتب السماوية، لينير له الطريق، ويكشف له ظلماته، ويرسم له معالمه.

- هذه الروح أو النفس وهى تعيش داخل هذا الجسد، يفترض أنها تشق طريقها إلى الله تعالى، ولا تستريح إلا بالوصول إليه، يحدوها الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله تعالى هو الغاية وإليه الرجعى والمنتهى والمآب والمصير وعنده الثواب أو العقاب.

- وفى الطريق إلى الله تعالى، ومن أجل الوصول إليه سبحانه وتعالى، تحتاج الرحلة إلى زاد، وإلى دليل، والزاد هو التقوى والعمل الصالح المتوجه بإخلاص إلى الله تعالي، والدليل هو خاتم المرسلين محمد ﷺ، وما بلغ عن ربه من قرآن كريم ومن سنة نبوية شريفة.

- ومن أجل أن السعى فى الطريق إلى الله تحكمه شروط وتتوافر له آداب بعينها ، وليس لأحد أن يجتهد فيختار لنفسه شروط هذا السعى فى الطريق وآدابه، وضع الإسلام للروح أو للنفس أو للقلب أو للعقل منهاجًا تشق فى ظله مراحل هذا الطريق.

* وتقوم خطة السعى فى الطريق إلى الله تعالى على دعامتين:

إحداهما:

تطهير النفس أو القلب من الشوائب والضلالات التى تثقل خطو النفس فى الطريق إلى الله، أو تجعلها تحيد عنه فتضيع فى تيه لايوصلها إلى هدفها.

وهذه الشوائب أو الضلالات هى بمعيار الأخلاق رذائل أو معاصٍ أو آثام نهى الله عن إتيانها أو القرب منها، وحرَّمها وجَرَّمها وأوعد من وقع فيها بالعقاب.

والأخرى:

تزويد النفس أو القلب بالزاد الطيب أى العمل الصالح، وحب الخير والإقبال على فعله، وحب الناس والتعاون معهم على البر والتقوى، وذلك الزاد هو الذى ييسر لها السعى فى الطريق إلى الله، ويسهل عليها قطع مراحل الطريق مهما تعددت مراحله.

وهذا الزاد بمعيار الأخلاق هو الفضائل التى يجب أن تتحلى بها النفس الإنسانية وهى فى الطريق إلى الله تعالى، والاتصاف بهذه الفضائل قد وعد الله عليه أحسن الجزاء، فى الدنيا بالتوفيق والرضا والسعادة، وفى الآخرة بأحسن الثواب.

* وما بين ذاك التخلّى عن الصفات الرذلة، وهذا التحلى بالصفات الفاضلة، وتوضيح مفردات كل منهما كانت خطة الإسلام وخطوات منهجه من أجل وصل هذه النفس بخالقها سبحانه وتعالى.

وذلك ما نحاول توضيحه فى هذه النقطة من هذا الفصل من هذا الباب الأخير من الكتاب.

ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

١ - التخلى عن الرذائل:

الرذائل خصال ذميمة يتصف بها الإنسان فيصبح ضالاً أو آثمًا أو عاصيًا لله تعالى.

وبلغة علم الأخلاق: الرذائل أعمال سيئة يرفضها العقل السليم، وتضر بصاحبها وبالمجتمع الذى يعيش فيه، والله تبارك وتعالى يعاقب على فعلها لأنه نهى عن الاتصاف بها، لما تلحقه من ضرر بالنفس وبالغير.

والإسلام بوصفه الدين الخاتم الحق يلزم الإنسان بالتخلى عن الرذائل ليكون موضع طاعة الله تعالى ورضاه.

* وللرذائل مفردات عديدة لايتسع هذا الجانب من الكتاب لسردها كلها، لكن يمكن تحديد إطار يجمعها[1]، ثم نذكر بعضها.

(١) جمعها الإمام الذهبى الحافظ المؤرخ المحدث (٦٦٣- ٧٤٨هـ) فى كتابه الذى سماه: «كتاب الكبائر» جمع فيه سبعين كبيرة، وكلها رذائل بدأها بأكبر الكبائر وهى الشرك بالله وختمها بكبيرة: سَبّ أحد من أصحابه رضى الله عنهم.

* أما الإطار الذى يجمع الرذائل فهو إطار تحريم الله تعالى لها، لما فيها من شرر وضرر.

- وامتناع الإنسان عن ممارسة الرذائل يُلحظ فيه أن الله تعالى خلق نفس الإنسان قادرة على فعل الشر أو الخير، ولها فى ذلك الإرادة الحرة والاختيار الطليق، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧-١٠]

* فالنفس هنا هى ذات الإنسان.

وسواها: أى جعل قواها ومنافعها متعادلة غير متفاوتة فى آثار قيامها بوظائفها.

وألهمها: أى أحدث فيها علمًا بغير تعليم ولا تجربة، وإنما بإيقاعه فى الروع، والمعنى: أن من آثار تسوية النفس إدراك العلوم الأولية، أى الضرورى المدرّج ابتداء من الانسياق الجبلى نحو الأمور النافعة كطلب الرضيع الثَّدْى أول مَرَّة، واتقاء الضارّ كالفرار مما يكره، إلى أن يبلغ ذلك أول مراتب الاكتساب بالنظر العقلى.

- والله تبارك وتعالى أَعْلَمَ الناسَ بما هو فجور أى رذائل، وما هو تقوى أى فضائل على ألسنة الرسل عليهم السلام، ولكنه سبحانه أنعم على الناس بما أودع فى نفوسهم من إدراك المعلومات على اختلاف مراتبها، ولولا ذلك ما فهموا ما يدعوهم إليه الرسل عليهم السلام، فلولا هذه النعمة؛ العقل والإدراك لما فهم الإنسان الفجور من التقوى، ولا الثواب من العقاب.

* وقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ هو جواب القسم الذى بدأ من أول السورة: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ أى أن فلاح المؤمن وخيبة المشرك هو المقسم عليه.

وأبرز هذه الرذائل أو أنواع الفجور هى سَبْع اخترتها من بين رذائل كثيرة عدها الذهبى رحمه الله تعالى سبعين، هى:

أ- الشرك بالله تعالى أو بالدين.

ب- والانكباب على الشهوات.

جـ- والغضب المفضى إلى الكُره والحسد والحقد.

د- والرياء والنفاق.

هـ- والكذب والبذاء.

و- والكِبر والغرور.

ز- والبخل والشح.

أ- رذيلة الشرك بالله أو الكفر به وبنعمه:

وهو أكبر الكبائر، وهو نوعان:

أحدهما: الشرك العظيم، وهو اتخاذ شريك لله تعالى، وذلك أعظم الكفر، والله تعالى يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ١١٦].

والآخر: الشرك الصغير وهو: مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهذا الشرك في الناس أخفى من دبيب النمل على الصفا.

* وكلا النوعين من الشرك من أكبر الرذائل، ومن أشد أنواع الفجور أى ارتكاب الذنوب.

- والمشرك عاصٍ لله تعالى ولرسوله ﷺ ولكل رسل الله عليهم السلام، وهو بشركه قد ألغى عقله وأفسد فطرته، إذ لو ترك نفسه على سجيتها لآمن بالله ولم يشرك به شيئًا.

- ومن الشرك، الكفر بالله تعالى، وجحد وحدانيته، وجحد النبوة والشريعة، والإنسان مهيأ للإيمان وللشرك والكفر.

- وكفر نعم الله تعالى جحودها وعدم شكرها.

- والشرك والكفر كلاهما من أكبر الرذائل وأبشع أنواع الفجور، والشرك أعظم من الكفر لأنه تعالى لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وكلاهما مرض نفسي.

* ومن أشرك بالله تعالى وكفر به وبنعمه فقد أوقع نفسه في عدد من الكبائر، كل واحدة منها ترديه وتجعله يستحق بها أشد العقاب، ومن هذه الكبائر:

- وقوعه في عبادة شيطانه بطاعته.

- واتخاذه هواه وشهواته إلهًا من دون الله يطيعهما.

- ووقوعه فى دنئ الأخلاق وذميمها.

- ووقوعه فى ظلم نفسه وظلم الناس.

- وتسببه فى إحداث قلق واضطراب فى نفسه وفى المجتمع الذى يعيش فيه.

- ومع الشرك لايطمئن أحد على نفسه أو أهله أو ماله، فكل ذلك مهدد بل ضائع بالشرك.

- ومع الشرك تكون الفوضى واستبداد القوى بالضعيف والغنى بالفقير.

* ولقد توعد الله تعالى المشركين والكافرين بالعقاب الشديد والمآل الأليم، فى القرآن الكريم وفى سنة الرسول ﷺ.

- قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٤٨]. وقال: ﴿**إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان: ١٣]، وقال: ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

- روى النسائى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم**».

- وفى رواية لأحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**جاهدوا المشركين بألسنتكم وأنفسكم وأموالكم وأيديكم**».

- وروى أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه أن نبى الله ﷺ قال: «**يُجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أكنت مفتديًا به؟ فيقول: نعم يارب. قال: فيقال له: لقد سُئلت أيسر من ذلك، فذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾**» [آل عمران: ٩١].

- وروى أحمد بسنده عن جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه قال: قلتُ يارسول الله: اشترط عَلَيّ، قال: «**تعبد الله ولاتشرك به شيئًا، وتصلى الصلاة المكتوبة، وتؤدى الزكاة المفروضة، وتنصح للمسلم، وتبرأ من الكافر**».

ب- رذيلة الانكباب على الشهوات والأهواء:

الشهوات ليست شرًا مطلقًا، ولا رذيلة مطلقة، وإنما هى شر ورذيلة حين الانحراف بها عما أباح الله تعالى لها من إطار.

إن الشهوات التى أودعها الله تعالى فى الإنسان نعمة منه سبحانه وتعالى، وأقوى هذه الشهوات فى الإنسان هى: شهوتا البطن والفرج؛ فشهوة البطن لولاها لمات الإنسان جوعًا دون أن يشتهى الطعام، وشهوة الفرج لولاها ما تكاثر الإنسان فكان له امتداد فى الحياة الدنيا، ونسل صالح يدعو له بعد وفاته، فضلاً عما فى ممارسة الشهوتين فى إطار ما شرع الله من لذة ومتعة.

هاتان الشهوتان قد وضع الله تعالى لهما منهجًا ونظامًا، من أخلَّ بهما أضر نفسه، فإن بالغ فى التعبير عنهما فى غير الإطار الذى شرعه الله تعالي، دمَّر نفسه.

وشهوة البطن أم سائر الشهوات، فشهوة الفرج تابعة لشهوة البطن عند الشبع والامتلاء، ثم تتوالي الشهوات نتيجة لذلك، وعلى سبيل المثال؛ فإن شهوة حب المال والجاه تأتى للتوسع فى شهرتى البطن والفرج، ثم تنشأ سائر الشهوات، وكل ذلك من أمراض النفوس والقلوب.

والإنسان الذى لايخاف ولايتقى ما حرّم يقع بسبب هاتين الشهوتين فى رذيلتين هما:

- الخروج عن منهج الله ونظامه فى التعبير عن هاتين الشهوتين.
- والإسراف فى التعبير عنهما، مما يعود عليه بضرر كبير.

* وإذا وقع الإنسان فى هاتين الرذيلتين وقع فى معصية الله تعالى ومخالفة منهجه ونظامه، وفعل ما نهاه الله تعالى عن فعله، فعرض بذلك نفسه لعقاب الله تعالى فى الدنيا وفى الآخرة.

* ومن رحمة الله تعالى بالإنسان حتى لايقع فى هاتين الرذيلتين شرع الله تعالى من الشرائع ما يكبح جماح شهوتى البطن والفرج.

* ففى مقاومة الإسراف فى شهوة البطن:

حبب الرسول ﷺ فى الاقتصاد فى المطعم، وكرّه فى الأكل دون جوع، وحبب فى صيام التطوع، وكرّه فى امتلاء المعدة، وجعل الأصل هو ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للتنفس، وفى ذلك عشرات الأحاديث النبوية الشريفة نذكر منها:

- روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن يأكل فى مِعًى واحد، والمنافق يأكل فى سبعة أمعاء»**.
- وروى الترمذى بسنده عن مقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطن، بحسب بن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»**.

* وفى مقاومة شهوة الفرج وتجاوز المنهج فيها:

شرع الإسلام التزوج ويسَّره، وجعل الزواج الشرعى هو التعبير عن شهوة الفرج.

وحرّم الإسلام الزنى وحرّم دواعيه ومثيراته، وندد بزنى العين وزنى الأذن وزنى اليد وزنى الرِّجْل.

وحرّم اللواط والسحاق، وأن يفضى الرجل إلى الرجل، والمرأة إلى المرأة، وجاء فى ذلك آيات قرآنية، وأحاديث نبوية نذكر منها:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

- وقوله جل وعلا: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

- وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كتب على ابن آدم حظه من الزنى مدْرك ذلك لا محالة؛ فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخُطا، والقلب يهوَى ويتمنَّى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه**».

جـ- رذيلة الغضب المفضى إلى الكراهية والحسد والحقد:

كل صفة من الصفات التى أفضى إليها الغضب رذيلة، بل رذيلة تترتب عليها رذائل أخرى، لذلك كان التخلى عن الغضب تخليًا عن مصدر من مصادر الرذائل، والغضب مرض نفسى وقلبى وخلقى.

* وقد ذمّ الله الغضب ونتائجه فى محكم كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ.

- قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا...﴾ [الفتح: ٢٦].

فالحمية صادرة عن الغضب دائمًا وهى صفة ذميمة.

- وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً قال للنبى ﷺ: مرنى بعمل، وأقلل، قال: «**لاتغضب**» ثم أعاد عليه فقال: «**لاتغضب**».

- وروى الطبراني - في الكبير - بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله: دُلني على عمل يدخلني الجنة، قال: «**لاتغضب**».

* والذى جعل الغضب من كبار الرذائل، هو ما يترتب عليه من آثار سيئة على كل جوارح الإنسان:

- فمن آثاره الغضب على اللسان: نطقه بفاحش القول.

- ومن آثاره على الجوارح: الضرب ، والجرح، والقطع، والقتل.

- ومن آثاره على القلب: الكراهية والحسد والحقد والشماتة، وإضمار الشر، والعزم على إفشاء السر.

* والرسول ﷺ يعلمنا، ويهيئ نفوسنا فيطالبنا بترك الغضب، وبخاصة عندما يطمئن الإنسان على القدر المعقول من مطالب حياته الدنيا والآخرة، حين لايعترض لهذه المطالب من يحاول تضييعها عليه.

- روى الترمذى بسنده عن عبد الله بن محصن رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أصبح آمنًا فى سربه، معافى فى بدنه، وله قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا»**.

وفى رواية: **«حيزت له الدنيا بحذافيرها»**.

* ويستطيع المسلم الحريص على سلامة نفسه من أمراض الغضب أن يتسامح فى بعض ضرورياته الدنيوية، فلا يغضب حين يفقدها على منَ فوّتها عليه.

* أما مَنْ يتعمد أن يفوت على المسلم شيئًا من ضروريات دينه أو كمالياته، فإن عليه أن يغضب، لكن لايقع بسبب غضبه فيما حرَّم الله عليه.

- روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم الله بها.

* وقد عالج الإسلام رذيلة الغضب، ورسم للنفس الإنسانية طريقًا إذا سلكته زال عنها الغضب المنهى عنه:

وهذا الطريق ذو شعبتين:

إحداهما: مادية عملية مثل:

- الجلوس عند الغضب لمن كان قائمًا، والاضطجاع لمن كان جالسًا.

- روى الترمذى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الغضب جمرة فى القلب، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه؟ فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئًا، فإن كان قائمًا فليجلس، وإن كان جالسًا فلينم»** والمعنى أنه يغير وضعه الجسدى عما كان عليه عند الغضب إلى أن يقرب من الأرض، فإن هذا التغيير يذهب غضب النفس أو يقلله.

*** والوضوء:**

- روى أبو داود بسنده عن عطية السعدى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإنما الغضب من النار»**.

*** والسجود:**

السجود لله تعالى، وإلصاق الرأس «الجبهة» بالأرض يدفع عن النفس الكبرياء والزهو، وكلاهما من مصادر الغضب.

- روى الترمذى بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«ألا إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم، ألا ترون إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه، فمن وجد من ذلك شيئًا فليلصق خده بالأرض»** وذلك إشارة إلى السجود الذى يلصق الرأس كله بالأرض خضوعًا لله تعالى.

*** وكظم الغيظ:**

وهو نوع من الصبر، والصبر نصف الإيمان، وهو علاج للغضب، لأن الغضب قد يكون نتيجة للغيظ.

- قال الله تعالى: ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

- وروى الطبرانى - فى الأوسط - بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ كفَّ غضبه كفَّ الله عنه عذابه، ومن اعتذر إلى ربه قبل الله عذره، ومن خَزَن لسانه ستر الله عورته»**.

والشعبة الأخرى فى علاج الغضب شعبة معنوية:

ونستطيع أن نقول إنها نفسية أو قلبية، ومن مفرداتها:

*** ترك الغضب:**

وترك الغضب أو العدول عنه، وبخاصة عندما تتعرض ضروريات[1] الإنسان للإهدار، أو الإنكار، فلا يغضب، بخاصة إذا كانت من ضروريات الدنيا لا الدين، وترك الغضب تسامح.

*** وتقليل الغضب:**

أى إخماد ثورته وإطفاء ناره، عندما لايغضب الإنسان إذا ما تعرضت حاجياته[2] وكمالياته[3] للإهدار أو الإنكار، وتقليل الغضب تسامح يحمد عليه الإنسان عند الله تعالى وعند الناس.

* ومما يترتب على الغضب رذيلتان:

- الحسد.
- والحقد.

* فالحسد هو تمنى زوال النعمة عن أحد من الناس لتصير إلى الحاسد، أو تمنى زوالها عمومًا، والحسد خلق مذموم بهذا المعنى، لكنه قد يكون محمودًا فى بعض الأحيان، كما جاء فى الحديث النبوى الشريف.

- روى البخارى ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«لاحسد إلا فى اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله علمًا فهو يعمل به ويعلمه الناس».**

فالحسد فى ذلك ليس رذيلة على اعتبار أن الحاسد يتمنى أن تكون له مثل هذه النعم فيعمل فيها كما عمل صاحبها.

- روى ابن أبى الدنيا بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث لاينجو منهن أحد، الظن والطيرة والحسد، وسأحدثكم بالمخرج من ذلك، إذا ظننتَ فلا تُحقق، وإذا تطيَّرتَ فامض، وإذا حسدت فلا تبغ».**

---

(١) ضروريات الإنسان هى: الطعام والشراب والملبس والمسكن والزوج والولد والمال... إلخ.

(٢) حاجيات الإنسان: وتسمى تحسينات: كتحسين معاشه فى المسكن والملبس والمطعم والمشرب.. إلخ.

(٣) كماليات الإنسان مثل: جمال المسكن والملبس والمطعم والمشرب لكن بغير إسراف أو مخيلة.

- وروي أبو منصور الديلمي- في مسنده- بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ستَّة يدخلون النار قبل الحساب بسنة**» قيل: يارسول الله من هم؟ قال: «**الأمراء بالجور**[1]**، والعرب بالعصبية، والدهاقين**[2] **بالتكبر، والتجار بالخيانة، وأهل الرستاق**[3] **بالجهالة، والعلماء بالحسد**».

* والحقد على أحد من الناس هو إضمار العداوة له، والتربُّص به لإيقاع الضرر به، وهو رذيلة حرَّمها الإسلام حين حرَّم الإضرار بالناس وإضمار الشر لهم، والحقد أسوأ من الحسد، وكلاهما من مَذَامِّ الأخلاق التى حرَّم الله تعالى على المسلمين أن يتصفوا بهما أو بإحداهما.

* والغضب وما أفضى إليه من كراهية للناس وحسد لهم وحقد عليهم من أمراض النفوس والقلوب والأخلاق، التى يحرص الإسلام على علاجها.

د- ورذيلة الرياء والنفاق:

وهما رذيلتان يجب أن تتخلى عنهما النفس الإنسانية، طلبًا للتطهر من آثارهما السيئة على الفرد وعلى المجتمع.

* والرياء هو: إظهار الاتصاف بصفات الخير والصلاح، على خلاف ما عليه صاحبها من صفات الشر والفساد.

والرياء دليل على ترك الإخلاص والصدق؛ لأن المرائى مشغول بملاحظة غير الله تعالى.

والرياء خداع قريب من الشرك والكفر، بدليل أنه يُنادى على المرائى يوم القيامة بهذه الصفات:

- روى ابن أبى الدنيا بسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن المرائى يدعى يوم القيامة: يا مرائى، ويا مخادع، ويا مشرك، ويا كافر**».

* والنفاق هو: إخفاء الكفر وإظهار الإيمان.

والمنافق هو: مَنْ يضمر العداوة، ويظهر الصداقة، أى يظهر خلاف ما يبطن، وهو دائمًا يظهر الإيمان باللسان ويكتم الكفر بالقلب، والنفاق ظاهرة اجتماعية تسبب فيها ظروف عديدة، وقليلاً ما يخلو منها أى مجتمع.

---

(١) أى بسبب الجور.

(٢) الدهاقين: جمع دُهقان، وهو رئيس القرية أو رئيس الإقليم ومن له مال وعقار.

(٣) أهل الرُّستاق: أهل الفلاحة غير المتعلمين، وهؤلاء استحقوا ذلك لجهلهم ولاستمرارهم على الجهل.

* والرياء والنفاق يتفقان فى أن كلاً منهما خداع وغش، وإظهـار لصفات مقبولة إسلاميًا، واجتمـاعيًا، مع إخفاء الصـفات المرفوضة إسلامـيًا واجتماعـيًا، وهما من الرذائل التى يحرص الإسلام على أن يُنقى منهما النفوس لكونهما مناقضين للإيمان.

- ويتفق الرياء والنفاق فى أنهما من الأعمال الـتى تغضب الله تعالى وتستوجب عقابه، وأنهما معدودان فى الكبائر من الذنوب.

- وينفـرد النفاق بأنه كـفـر يستـوجب الخلود فى النار، وبأنه أعم وأشـمل وأخطر من الرياء، لذلك جعل الله تعالى عقاب المنافقين أشد من عقاب الكافرين فى جهنم، كما يفهم ذلك من قـول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] .

- ولقد أفاض العلماء فى الحديث عن المنافـقين؛ شرورهم وأخطارهم. ونحن هنا نشير إلى ما جاء عنهم فى مصدرى الإسلام: الكتاب والسنة، ومن ذلك:

* سورة: التوبة معظمهـا، وتسمى «براءة» كما سميت: «الفاضحـة» لأنها فضحت المنافقين بتوضيح صفاتهم التى يحرصون هم على إخفائها.

* وسورة: «المنافقون» كلها.

* وعشرات الآيات القرآنية فى سور عديدة.

* وثلاث عشـرة آية من سورة البـقرة، قـال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ⁽٨⁾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ⁽٩⁾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ⁽١٠⁾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ⁽١١⁾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ⁽١٢⁾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ⁽١٣⁾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ⁽١٤⁾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ⁽١٥⁾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ⁽١٦⁾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ⁽١٧⁾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ⁽١٨⁾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ

الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٨-٢٠]

* وقد وصف الأسلاف المنافقين بصفات أخذوها من القرآن الكريم، ومن أوصافهم لهم:

- أن المنافقين اتفقوا على هجر كتاب الله تعالى، كما جاء ذلك على لسان رسول الله ﷺ وهو يتحدث عنهم فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

- وأنهم أصحاب ألسنة مسالمة، وقلوب محاربة، فهم يقولون بألسنتهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾

[البقرة: ٨، ٩]

- وأن كل واحد منهم له وجهان، وجه يلقى به المؤمنين وآخر ينقلب به إلى إخوانه الملحدين، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

* والإسلام يُعَلِّم المسلمين من خلال الكتاب والسنة أن النفاق قريب من أى مسلم، وأن على المسلم أن يخاف النفاق ويخشاه، ولا ينجو منه إلا من تنبه إلى صفاته فخلعها، وعاش حَذِرًا من أن يقع فى النفاق.

ولقد كان كبار الصحابة رضى الله عنهم يخشون النفاق وصفاته، وحين عرَّف الله تعالى رسوله ﷺ المنافقين وسماهم له بأسمائهم، ولم يعلن رسول الله ﷺ أسماءهم، وإنما أخبر حذيفة رضى الله عنه ببعض أسمائهم، وعلم بعض الصحابة رضى الله عنهم بما خص به رسول الله ﷺ حذيفة رضى الله عنه، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لحذيفة رضى الله عنه: يا حذيفة نشدتك الله هل سمانى لك رسول الله ﷺ منهم؟ قال: لا، ولاأزكى بعدك أحدًا.

وذكر عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم أنه كان يقول فى دعائه: اللهم إنى أعوذ بك من خشوع النفاق، قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يُرى البدن خاشعًا والقلب ليس بخاشع.

* ومن أسباب النفاق:

الرياء.

والكذب.

وضعف البصيرة.

وضعف العزيمة.

وخشية الناس دون خشية الله تعالى.

* ومن نتائج النفاق:

الشرك بجميع أنواعه.

والكفر.

والفسوق والعصيان.

وسوء المصير حيث الدرك الأسفل من النار.

* ولقد حرص الإسلام على أن ينقى النفس الإنسانية من النفاق، فاتخذ لذلك طرقًا تربوية حكيمة متدرجة أهمها:

- طريق التبصير بالنفاق وبيان صفاته.

- وطريق التحذير منه وبتشيع صوره والتنفير من صفاته.

- وطريق التخويف من الوقوع فيه.

- وطريق مقاومة الوقوع فيه بإخلاص العبادة لله تعالى، وإخلاص القول والعمل له سبحانه وتعالى.

- وطريق مصير المنافقين وأنهم أسوأ من الكافرين.

- وطريق التأكيد على أن المنافقين أشد خطرًا وضررًا على المسلمين من الكافرين والفاسقين.

- وطريق أن المنافقين قد زيّن لهم الشيطان النفاق لأنه فاحشة، والشيطان يأمر بالفاحشة.

* فإذا تخلتْ النفس الإنسانية عن رذيلتى النفاق والرياء فقد تطهرت من إثم كبير وشر مستطير، وتحصنت من الشيطان ووساوسه، وتخلصت بذلك من مرض نفسى وقلبى عضال.

هـ- ورذيلة الكذب والبذاء:

الكذب من أقبح الرذائل وأشدها إغضابًا لله تعالى، والكاذب ظالم يفترى على الله الذى أمر بالصدق، وهو غاش لنفسه ولغيره من الناس.

والكذب أنواع:

- كذب فى الكلام وهو: الإخبار بغير الواقع.
- وكذب فى الظَّن أو فى السمع أو فى الرؤية، وهو: الخطأ المتعمد فى ذلك كله.
- وكذب الإنسان على نفسه إذا مناها الأمانى البعيدة.
- وكذب فى العمل أو الفعل، كما يقال: عمل كاذب، وفعل كاذب.

* وكل من افترى الكذب، فقد نَفَى عن نفسه الإيمان، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ**﴾ [النحل: ١٠٥].

* وكل من يفترى الكذب ينفى عن نفسه صفة الفلاح، والفلاح: الظَّفَر وإدراك البغية فى الدنيا بالبقاء والغِنَى والعز والعلم، وفى الآخرة بالبقاء بلا فناء، والغنى بغير فقر، والعزّ بلا ذل، والعلم بلا جهل، والكاذب يفقد ذلك كله، فما أفدح خسارته، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ**﴾ [النحل: ١١٦]

* والكاذب أظلم الناس وأبعدهم عن الحق وعن الصواب حين يفترى على الله الكذب أو يكذّب بآياته سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ [الأنعام: ٢١].

* وفى السنة النبوية أحاديث شريفة تحذر من الكذب وتُنَفِّر منه، ومن عواقبه، ومنها:

- ماروى النسائى بسنده عن أبى بكر رضى الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامى هذا عام أول، ثم بكى. وقال: «**إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما فى النار**».
- وما روى أحمد بسنده عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كَبُرتْ خيانة أن تحدث أخاك حديثًا هو لك به مصدق وأنتَ له به كاذب**».
- وما روى البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لايزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**».

- وما روى الترمذى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ :

«إنَ العبدَ ليكذب الكذْبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به».

* وعلى الرغم من بشاعة رذيلة الكذب، وسوء مصير الكاذب، فإن الضرورات قد تبيح المحظورات كما يقول أسلافنا رحمهم الله. فقد يكون الكذب فى بعض الأحيان دافعًا لشر خطير بين اثنين أو بين فريقين، أو دافعًا لخطر حرب تأتى على الأخضر واليابس وعندئذ يبيح الإسلام هذا النوع لكنه يقيده بهذه الحالات الثلاث التى لا رابعة لها، كما تدل على ذلك أحاديث الرسول ﷺ.

- روى مسلم بسنده عن أم كلثوم رضى الله عنها قالت: ما سمعت رسول الله ﷺ يرخِّص فى شىء من الكذب إلا فى ثلاث.

الرجل يقول القول يريد به الإصلاح،[١]

والرجل يقول القول فى الحرب،[٢]

والرجل يحدث المرأة والمرأة تحدث زوجها»[٣].

- وروى أبو بكر بن لال - فى مكارم الأخلاق بسنده -عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مالى أركم تتابعون[٤] فى الكذب تتابع الفراش فى النار»** وزاد فيه الطبرانى: **«كل الكذب يكتب على ابن آدم لا محالة، إلا أن يكذب الرجل فى الحرب فإن الحرب، خدعة، أو يكون بين الرجلين شحناء فيصلح بينهما، أو يحدث امرأته ليرضيها»**.

*** وأما البَذاء:**

فإنه فاحش القول ورديئه، وهو صفة راذلة نفاها رسول الله ﷺ عن المؤمن فيما رواه البخارى- فى كتابه الأدب المفرد- بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البَذِىّ»**.

(١) بين اثنين أو فريقين.
(٢) وذلك أن الحرب يجوز فيها الخداع والتمويه.
(٣) أى يعدها وليس فى قدرته الوفاء ليرضيها ويذهب غضبها.
(٤) التتابع فى الكذب: التهافت عليه والإسراع عليه.

وكل إنسان محاسب على كل كلمة ينطق بها لسانه، وقد نهى الإسلام عن إيذاء المسلم أو غيره بالسِّباب أو البذاء أو الفاحش من القول، قال العلماء المسلمون: لو سبّ أحد الناس مسلمًا فليس للمسلم أن يرد عليه السباب بمثله.

ولقد توعد الله كل بذيء يؤذى سواه بفاحش القول، بالعقاب:

- قال الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

- وروى أحمد بسنده عن جابر بن سمرة رضى الله عنهما قال: كنت عند النبى ﷺ - وأبى أمامى - فقال رسول الله ﷺ: «**إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام فى شىء، وإن أحسن الناس إسلامًا أحاسنهم خلقًا**».

- وروى ابن أبى الدنيا بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة لو كان الفُحْش رجلاً لكان رجل سوء**».

- وروى البخارى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سِباب المؤمن فسوق وقتاله كفر**».

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**».

* وللأسلاف من علماء المسلمين مَنْ توسع فى معنى الفحش من القول حيث قالوا: إنه التعبير عن الأمور المستقبحة، ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله: إن الله حيى كريم يعفو ويكنى، كَنى باللمس عن الجماع كما كنى عنه بألفاظ أخرى.

* والإسلام يعامل النفس الإنسانية بمزيد من العناية والرعاية إذ يحرم على المسلم نطق ألفاظ البذاء والفحش، وينهاه عن الكذب والرياء وسائر الرذائل، ليظل المجتمع نقيًا طاهرًا بريئًا من الأمراض النفسية والقلبية والاجتماعية.

- روى مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لايَقُلْ أحدكم خبثت نفسى، ولكن ليقل: لقِست نفسى**»(١).

---

(١) الخبيث: الشيطان، وخبثت النفس أى سيطر عليها الشيطان وأخف من هذا اللفظ أن يقول: لقَستْ نفسى أى كسلتْ.

إن انتقاء الكلمة المهذبة المعبرة مطلب إسلامى أصيل، لأن خاتم الأديان لابد أن يكون الأدب فيه والذوق واختيار الكلام على أرقى مستوى وأحسنه، ولابد أن يطالب الناس بهجر كل كلمة جارحة أو فاضحة، لتحل محلها الكلمة الطيبة أو الكناية التى لاتجرح شعوراً ولا تؤذى سامعًا.

إن المجتمع الإسلامى مجتمع احترام الإنسان، احترام عقله وقلبه ولسانه وسائر جوارحه، إنه المجتمع الذى يأمن فيه الإنسان مسلمًا أو غير مسلم على نفسه وماله وعرضه، وسمعه وبصره؛ لأن كل ما يعطل هذا الأمن مرض نفسى قلبى خُلُقى حرص الإسلام على تنقية المجتمع منه.

و- ورذيلة الكبر والغرور:

الكبر: إعجاب المرء بنفسه، بحيث يرى نفسه أكبر من سواه.

والتكبّر: قريب من الكبر فى المعنى، وأفدح الكبر والتكبر وأفحشه فى القبح ماكان تكبرًا على الله بالامتناع عن قبول الحق.

والامتناع عن الإذعان لله تعالى بعبادته وتوحيده.

والاستكبار: أن يطلب الإنسان أن يكون كبيرًا.

وهو نوعان:

- محمود وهو: إذا كان الإنسان على نحو مايجب، وفى المكان الذى يجب، وفى الوقت الذى يجب.

- ومذموم وهو: إذا لم يكن الإنسان على نحو ما يجب، ولا فى المكان الذى يجب، ولا فى الوقت الذى يجب، فهو عندئذ مذموم لأنه يتشبع بما ليس فيه.

* آيات القرآن التى حرمت الكبر:

الكِبْر رذيلة ونقيصة حرم الإسلام الاتصاف بها.

- قال الله تعالى: ﴿**وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾ [لقمان: ١٨، ١٩].

- وقال جل وعلا: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [القصص: ٨٣].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١].

* ولتحريم الإسلام للكبر والتكبر والاستكبار المذموم أسباب عديدة نذكر منها:

- أن الكبر يترتب عليه أن يظلم المتكبر مَن دونه وأن يمنعهم من حقوقهم.

- وأنه احتقار للناس وتعالٍ عليهم.

- وأنه يتضمن مشاركة لله تعالى فى صفة لم يرض أن يشاركه فيها أحد وهى الكبرياء.

- وأن الكبر والتكبر مرض نفسى قلبى خُلُقى يحاربه الإسلام لعلاج هذه النفوس المريضة.

* وأحاديث الرسول ﷺ التى حرمت الكبر كثيرة نذكر منها:

- روى مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لايدخل الجنة مَنْ كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كِبْر، ولايدخل النار مَنْ كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»**.

- وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله تعالى: الكبرياء ردائى، والعظمة إزارى، فمن نازعنى واحدًا منهما ألقيته فى جهنم ولا أبالى»**.

- وروى البخارى بسنده عن حارثة بن وهب رضى الله عنه، قال: سمعت النبى ﷺ يقول: **«ألا أدُلكم على أهل الجنة، كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، وأهل النار كل جَوَّاظ عتُل مستكبر»**.

- وروى البيهقى- فى شعب الإيمان - بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تَعَظَّم فى نفسه واختال في مشيته لقى الله وهو عليه غضبان»**.

- وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تحاجّت الجنة والنار: فقالت النار: أُوثِرْتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لى لايدخلنى إلا ضعفاء الناس وسُقَّاطُهم، وعجزتهم؟ فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتى أرحم بك مَنْ أشاء من عبادى، وقال للنار: إنما أنت عذابى أعذب به من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها»**.

وبعد، فهذا ما كتبناه عن الكبر.

* **وأما الغرور:**

فهو: الجهل والغفلة والخداع.

وغرَّه: أي خدعه وأطمعه بالباطل.

ويقال: غرّه الشيطان وغرته الدنيا، أي خدعاه عن الحق والصواب، فالشيطان غرور، والدنيا غرورة، أي أنهما يغران الإنسان ويخدعانه عن الحق.

والغرور: كل ما غرَّ الإنسان من مال أو جاه أو شهوة، أو إنسان، أو شيطان، والشيطان أخبث الغَّارين.

وقيل عن الدنيا: إنها تغر، وتضر، وتُمِر- أي تصيب الإنسان بالمرارة بعد أن يغتر.

- فالغرور رذيلة خلقية نفسية قلبية.

- والغرور كبيرة من الكبائر يستحق مرتكبها العذاب.

- والمغرور هالك.

- والغارّ خادع خبيث.

* وآيات القرآن الكريم التي تحذر من الغرور وتنهى عنه وعن الوقوع فيه، أو في حبائل الغارين، كثيرة منها:

- قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [فاطر: ٥، ٦].

- وقوله جل شأنه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾ [لقمان: ٣٣].

- وقوله جل وعلا: ﴿**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ [الحديد: ١٣- ١٥].

* وفى السنة النبوية الشريفة ذم للغرور والمغرورين فى أحاديث نبوية عديدة، نذكر منها:

- ما رواه الترمذى بسنده عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الكيِّس مَن دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله»** والأحمق فى هذا الحديث الشريف هو المغرور.

* ولأن الغرور جهل- كما ذكرنا فى تعريفه- وحمق وغفلة، فإن الأحاديث النبوية التى جاءت فى ذم الجهل والحمق هى ذمٌّ للغرور، كما أن الأحاديث النبوية التى جاءت فى الثناء على العقل والعلم هى ذمّ للغرور أيضًا، وهى كثيرة نذكر منها:

- روى البخارى بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله لايقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا، اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»**.

- وروى البخارى بسنده عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: **«مثل مابعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لاتمسك ماءً ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلتُ به»**.

والأخير هذا هو المغرور.

* وقد ضرب الأسلاف من العلماء للمغرورين أمثلة نحب أن نذكر بعضها.

- قالوا: المغرور مَنْ أمِنَ مكر الله، فحرم نفسه من معرفة الله تعالى، ومن عرف الله تعالى بصفاته، ومن صفاته أنه سبحانه وتعالى لا يُؤمن مكرُه، قال الله تعالى: ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [الأعراف: ٩٩]، ففى هذه الآية الكريمة تحذير من مكر الله تعالى.

- وقالوا: إن المغرور أو المغتر مَنْ كان مؤمنًا عاصيًا لله تعالى مغترًا بنفسه يحدثها بأن الله تعالى كريم عفو، وأن معصيته وذنوبه يتسع لها كرم الله وعفوه، فربما استمر فى معصيته، فهذا إنسان جاهل يستجيب لوسوسة الشيطان وتضليله إياه.

بأن يحيى فى نفسه فكرة الرجاء، فى حين أن الرجاء مع الاستغفار والكف عن المعصية والتوبة النصوح.

- والمغرورون من الناس، من جميع طوائفهم وعلى سبيل المثال:

* هناك مغرورون من العلماء.

* وهناك مغرورون من العبَّاد.

* وهناك مغرورون من المتصوفة.

* وهناك مغرورون من النُّسَّاك.

* وهناك مغرورون فى صيام التطوع وصدقة التطوع وكثرة الحج والعمرة.

والأصل ألا يغتر المسلم، وإنما يتهم نفسه ويجتهد ما وسعه فى إرضاء الله تعالى.

وبعد: فإن الإسلام حريص على أن يتخلى المسلم عن رذيلة الكبر ورذيلة الغرور، لما فى الاتصاف بهما من الأضرار الفردية والاجتماعية الدنيوية والأخروية، والإسلام يريد الفرد والمجتمع بعيدًا عن هذه الرذائل.

ز- ورذيلة البخل والشح:

* البخل هو: أن يضن الإنسان بما عنده فلا يجود به.

والبخل: منع الواجب.

والبخيل: من يستصعب العطية، أو من يمنع حيث لايجوز المنع.

- وليس البخل بالمال أو الطعام فحسب، وإنما يطلق البخل على الضن بالجاه والسلطان أن يجعلهما فى خدمة من يحتاج إليهما، والضن بالعلم والمعرفة، والضن بالمعاونة المادية أو المعنوية.

كما أن البخل هو إمساك المقتنيات عما لايحق له حبسها عنه.

وضد البخل: الجود.

* والشُّح: بُخْل مع حرص بحيث يصبح كالعادة.

- والبخل أو الشح من عيوب النفس الإنسانية، ورذائل أخلاقها.

* ولقد حذر القرآن الكريم والسنة النبوية من البخل والشح وتوعدا بالعقاب عليهما:

- قال الله تعالى: ﴿ **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...** ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

- وقال جل وعلا: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [التغابن: ١٦].

- وقال عز وجل: ﴿ **هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** ﴾ [محمد: ٣٨].

وأما السنة النبوية ففي أحاديث كثيرة منها جاء التحذير والتنفير من البخل والشح، ومن ذلك:

- روى أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله يقول: «**الظلم ظلمات يوم القيامة،**

وإياكم والفحش فإن الله لايحب الفحش ولا التفحش،

وإياكم والشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا».

- وروى الحاكم- فى مستدركه- بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا حرماتهم**».

وفى رواية: «**واستحلوا أرحامهم**».

- وروى أبو داود بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**شرُّ ما فى الرجل شح هالع، وجبن خالع**».

- وروى النسائى بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن، البخل وسوء الخلق**».

* وللبخل أسباب عديدة نذكر أهمها وهو ضعف الإيمان، ثم:

- حب المال لما يمكن صاحبه من ممارسة الشهوات.

- وطول الأمل ونسيان الموت.

- ووجود الأولاد، وهذا معنى أن الولد مبخلة.

* والبخل والشح مـرض نفسى قلبى أخـلاقى، غير أنه مـرض لايستعـصى على العلاج، ونذكر لذلك بعض الأمثلة:

- فمن مرض بحب المال فعلاجه اعتبار المال وسيلة لا غاية وصبره عن شهواته.

- ومن بخل لطول أمله فى الدنيا، فعلاجه تذكـر الموت والتفكر فيه، والترحم على من ماتوا وزيارة القبور.

- ومن بخل بسبب أبنائه، فإن علاجه التدبر فى قول الله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [هود: ٦].

والتعلُّم من قـول الرسول ﷺ فيـما رواه أبو نعيم فى «حليـة الأولياء» بسنده عن أبى أمامـة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**إن روح القـدس نفث فى روعى أن نفسًـا لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقـها،فاتقوا الله وأجـملوا فى الطلب، ولايحملن أحدَكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لاينال ما عنده إلا بطاعته**».

* والإسلام يـحرص على عـلاج مرض الشح والبـخل بدعوة الناس إلى الجـود والعطاء، وتقديم الصدقات:

- روى الترمذى بسنده عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من رجل إلا سيكلمه ربه يوم القيامـة وليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلايرى شيـئًا إلا شيـئًـا قدّمه، ثم ينظر أشـأم منه فلا يرى شيـئًـا إلا شيئًا قـدّمه، ثم ينظر تلقاء وجـهه فتستقبله النار**»، قال رسول الله ﷺ: «**من استطاع منكم أن يقى وجهه حرّ النار ولو بشق تمرة فليفعل**».

وفى رواية للترمذى أيضًا: «**فإن لم يجد فبكلمة طيبة، فإنى لا أخاف عليكم الفاقة، فإن الله ناصركم ومعطيكم، حتى تسير الظعينة فيما بين يثـرب والحيرة، وأكثر ما يخاف على مطيتها السَّرَقُ**».

* إن جمع المال لايجوز أن يكون هدفًا فى ذاته، وإنما يـكون لسد ثغرة من ثغرات المسلمين أو قضاء حاجة من حوائجهم.

ولقد ضرب الصحابة رضى الله عنهم فى إنفاق المال فى سبيل الله أروع الأمثلة.

- فمن تدبر فى تجهيز جيش العُسرة علم أن هؤلاء الرجال كانوا أحرص على الدين من حرصهم على المال.

فمن تدبر فيما قدمه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم لهذا الجيش أيقن أن أموالهم كانت خادمة لهم ولأهدافهم النبيلة: إن عثمان رضى الله عنه أسهم فى تجهيز هذا الجيش بما لايستطيعه سواه -فيما تحدثنا عنه من قبل فى هذا الكتاب- وإن عمر رضى الله عنه قدم فى تجهيز هذا الجيش نصف ماله، وإن أبا بكر رضى الله عنه قدم ماله كله!!

ولقد كان ما قدمه عثمان أكثر مما قدمه عمر، وكان ما قدمه أبو بكر رضى الله عنه أقل من حيث الكم من نصف ما قدم عمر وأقل من ثلث ما قدّم عثمان رضى الله عنهم، لكن فى الحقيقة أن أكثر مال هو ما قدمه أبو بكر رضى الله عنه، إذ قدّم كل ماله!

وكان ذلك دأبهم حتى بعد وفاة الرسول ﷺ، فقد جاء فى تاريخنا الإسلامى أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه، جاءته عِيرٌ له من اليمن، وكانت من الكِبَر والكثرة بحيث ضجت المدينة بمقْدمها، فلما سألت عائشة رضى الله عنها عن هذه الضجة التى سمعت قيل لها: عير لعبد الرحمن قدمتْ من اليمن، فقالت: صدق رسول الله ﷺ. فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فسألها، فقالت: فيما رواه أحمد بسنده: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنى رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعيًا، ولم أر أحدًا من الأغنياء يدخلها معهم إلا عبد الرحمن بن عوف، رأيته يدخلها معهم حبوًا**» فقال عبد الرحمن رضى الله عنه: إنّ العير وما عليها فى سبيل الله، وإن أرقاءها أحرار، لعلى أدخلها معهم سعيًا.

وهكذا يتعلم المسلمون فى كل زمان ومكان كيف ينفقون أموالهم فى سبيل الله، فيطهرون أنفسهم من البخل والشح، ليحل محلها، الجود والإنفاق وسد الثغور ورفع الحاجات من المسلمين.

ونفس الإنسان عندما تتطهر من رذيلتى البخل والشح ومن غيرهما من الرذائل التى تحدثنا عن بعضها، تصبح نفسًا مستعدة لتقبّل الفضائل التى دعا إليها الإسلام وأوصى بأن تتصف بها نفوس المسلمين وقلوبهم وأخلاقهم.

إن ذلك هو هدف الإسلام لكى يبنى مجتمعًا فاضلاً يعيش الناس فيه فى أمان وسلام يمارسون حياة إنسانية كريمة. إن ذلك هو الذى يطهر النفوس من أمراضها، لأن رذيلة من هذه الرذائل السبع التى ذكرنا مرض تصاب به النفس فلا تبرأ منه إلا بالتخلى عن هذه الرذيلة.

٢- التَّحلى بالفضائل:

الفضائل: جمع فضيلة وهى: الدرجة الرفيعة فى حسن الخلق.

وفضيلة الشيء: مَزِيّته، أو وظيفته التى تستهدف منه، فيقال مثلاً:

«فضيلة السيف: إحكام القطع،

وفضيلة العقل: إحكام الفِكْر».

- وأمهات الفضائل عند الفلاسفة أربعة هى:

الحكمة،

والعفَّة،

والشجاعة،

والعدل.

- والفضيلة عند علماء الأخلاق هى: التمسك بالشرف والأخلاق القويمة.

وعندما تطلق الفضيلة على المرأة فإنها تعنى أنها امرأة عفيفة.

- والفضيلة عند علماء الاجتماع هى: قوانين الأخلاق.

أى هى الصفات التى تنمو فى الإنسان وتصل به إلى فعل الخير والامتناع عن فعل الشر، وتلك هى جوهر السنن الخلقية التى يجب أن يلتزم بها المجتمع.

وعلماء الاجتماع يقسمون الأخلاق إلى نوعين:

- أخلاق الطبقة: أى السنن الأخلاقية التى تلتزم بها طبقة[١] معينة.

- وأخلاق الجماعة: أى السنن الأخلاقية التى تلتزم بها الجماعة[٢].

* والمجتمع الإسلامى تسوده الفضائل الأخلاقية التى أمر الإسلام بالتحلى بها، وتسمى القيم الخلقية الفاضلة.

---

(١) الطبقة: فئة كبيرة من الناس داخل نظام طبقى متميز بمركز اجتماعى واقتصادى واحد.

(٢) الجماعة مجموعة من الأفراد يقوم بينهم نمط من التفاعل النفسى، ويعتمد كل منهم على الجماعة فى تحقيق أهداف محددة، وللجماعة وحدتها الذاتية التى يسلم بها أعضاؤها وغيرهم من الناس.

وهذه القيم الخلقية الإسلامية كثيرة تدخل فيها أمهات الفضائل التى أشرنا إليها آنفًا، كما تدخل فيها كل فضيلة، بل كل صفة خيّرة ينفع الإنسان أن يتصف بها نفعًا يعود على دنياه أو آخرته[(١)].

- ومن أجل أن هذه الصفات صفات فاضلة دأب علماء المسلمين على أن يسموا من اتصف بها: متحليًا بها، تأكيدًا لجمالها، وأنها تجمل من اتصف بها وتزيده جمالاً وكمالاً نسبيًا، وتميزه عن غيره ممن لايتحلون بهذه الفضائل.

- وهذه الصفات أو الفضائل يجب على كل مسلم أن يتحلى بها استجابة لما طلب الله منه، وطلبًا لرضاه سبحانه وتعالى.

وهذه الصفات هى صمام الأمان للفرد والمجتمع، وبالتخلّى عن هذه الصفات يكون القلق النفسى والصدأ القلبى والرذائل الخلقية.

وهذه الصفات أو الفضائل كثيرة وشاملة، وتلتمس فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة[(٢)].

- وكثير من هذه الصفات لايستطيع الإنسان أن يتمثلها كاملة فى نفسه وقلبه وسلوكه، ولذلك يقبل الله تعالى منه الاستقامة على الحق واتباع العدل والالتزام بالأمر والنهى فى حدود طاقته ووسعه، لأنه سبحانه لايكلف نفسًا إلا وسعها.

- ولقد أوضح رسول الله ﷺ أنّ فى إحصاء كل هذه الفضائل فى نفس الإنسان وقلبه وخلقه والوصول فيها إلى حد الكمال صعوبة ومشقة؛ لأن نشدان الكمال فوق طاقة البشر، وحسب الناس أن يسددوا ويقاربوا.

روى ابن حبَّان – فى صحيحه– والدارمى – فى سننه– وابن ماجة بأسانيدهم عن ثوبان[(٣)] رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولايحافظ على الوضوء إلا مؤمن»**.

«ولن تحُصوا» أى لن تحيطوا، فيكفى من ذلك ما يستطاع.

(١) سوف نفصل هذه القيم فى كتاب لنا عنوانه: «القيم الإسلامية» إذا أذن الله تعالى وسدَّد وأعان.

(٢) وهذا ما حاولنا فى كتابنا «القيم الإسلامية» المشار إليه آنفًا.

(٣) هو ثوبان بن يجدد أبو عبد الله (ت٥٤هـ-٦٧٤م) مولى رسول الله ﷺ من أهل السَّراة (بين مكة واليمن) اشتراه رسول الله ﷺ ثم أعتقه، فظل يخدمه إلى أن توفاه الله، فخرج ثوبان إلى الشام فنزل الرملة بفلسطين ثم انتقل إلى حمص وتوفى بها. له فى كتب السنة مائة وثمانية وعشرون حديثًا رواها عن الرسول ﷺ.

- ولن أستطيع فى هذا الكتاب أن أحصى كل فضيلة، لأن هذا فوق احتمال هذا الفصل من هذا الباب من هذا الكتاب، ولكنى أسدد وأقارب، وأستقيم بعون الله ولا أحصى، لأن ذلك فوق طاقتى، وإن كنت عقدت العزم على ذلك منذ سنوات فى كتاب أعده هو «القيم الإسلامية».

- ولقد قام بعض العلماء بعمل جليل فى إحصاء هذه الفضائل تحت عنوان: «شعب الإيمان» وهو الإمام البيهقى (٣٨٤-٤٥٨هـ) فى كتابه المشار إليه الذى جمع فيه سبعًا وسبعين شعبة، كل شعبة منها فضيلة يجب أن يتحلى بها المسلم، وإن كانت هذه الصفات أكثر من ذلك بكثير.

وكتاب «**شعب الإيمان**» للإمام البيهقى يقابله فى جمع الرذائل أو الكبائر كتاب الإمام الذهبى «**الكبائر**» الذى أشرنا إليه ونحن نتحدث عن: التخلّى عن الرذائل.

* وسوف يقتصر حديثنا هنا على سبع فضائل، كما اقتصر حديثنا فى مجال التخلى عن الرذائل على سبع رذائل.

نسأل الله تعالى التوفيق.

* وهذه الفضائل السبع هى:

أ- فضيلة حب الله تعالى والرضا بقضاء الله وقدره:

الحب عمومًا: الوداد، والميل إلى الأشخاص أو الأشياء العزيزة، أو الجذّابة، أو النافعة، واستعمل: حببت فلانًا فى موضع أحببته.

والمحبة: هى الميل إلى الشىء السَّارّ، وإرادة ما تراه أو تظنه خيرًا، والمحبة أنواع ثلاثة:

- محبة للَّذة، كمحبة الرجل للمرأة.
- ومحبة للنفع كمحبة شىء ينتفع به.
- ومحبة للفضل كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض.
- ومحبة الله تعالى لعبده هى: إنعامه عليه، وإثابته على عمله.
- ومحبة العبد لربه هى: طلب التقرب إليه سبحانه وتعالى.

وسوف نتحدث فى هذه الفضيلة عن نقطتين:

الأولى: حب المسلم لربه سبحانه وتعالى.

والأخرى: رضاء المسلم بقضاء الله وقدره.

النقطة الأولى: حب المسلم لربه سبحانه وتعالى:

* يقولون: إن حب الإنسان للشيء سببه الإحساس بالمحبوب المُدرك، بإحدى حواس الإنسان وهي: السمع والبصر والذوق والشَّم واللمس، وهذا كلام ليس صحيحًا على إطلاقه ولا هو بمسلّم به في كل حال؛ لأنه لم يستوعب كل محبوب، لأن هناك محبوبًا لايدرك بهذه الحواس الخمس الشهيرة، وإنما يحب بالقلب، ودليل ذلك ما رواه النسائي بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«حُبِّبَ إليّ من دنياكم:الطيب، والنساء، وجعل قرّة عيني في الصلاة»**.

فقد سمَّى ﷺ الصلاة قرة عين، وجعلها أبلغ المحبوبات مع أنها لا تدرك بهذه الحواس الخمس، بل تدرك بالقلب، وهو ما يعبر عنه بالعقل أو النور، أو البصيرة الباطنية، وهي أقوى من البصر الظاهر، والقلب أقوى إدراكًا من العين.

وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للإبصار.

ولذة القلب بما يدركه ببصيرته من الأمور الشريفة الإلهية التي تَجِلّ عن أن تدركها الحواس، وإدراك القلب أتمّ وأبلغ، لأن ميل العقل الصحيح والطبع السليم إلى هذه الأمور الشريفة أقوى.

ومعنى: أن الذين ينكرون حب الله تعالى؛ لأنه لايدرك بالحواس الخمس قعد بهم القصور فأوصلهم إلى درجة البهائم التي تشارك الإنسان في هذه الحواس؛ لأن ما فوق هذه الحواس وهو القلب والبصيرة لاينكره عاقل ولايرفضه إلا منكر لكلام النبوة المبرأة من الخطأ: **«وجعل قرة عيني في الصلاة»**.

* وإذا كان حب الإنسان للناس والأشياء معللاً بحبه لنفسه أولاً، ثم بحبه لمن أحسن إليه، لأن تلك هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فجعل الإنسان يحب وجوده ونفسه ولايعرض شيئًا من ذلك للفناء والنقصان، وجعله يحب من أحسن إليه لحبه لكمال وجوده بهذا الإحسان، ومع ذلك فهو حب عارض يزول بزوال الإحسان أو المحسن.

وللحديث عن هذا الحب تفريعات نذكر منها :

- أن مايحب لذاته- بغض النظر عن إحسانه- هو الحب الحقيقي الذي يوثَق بدوامه، وذلك كحب الجمال لذاته، فإنه محبوب دائمًا لذاته لما في إدراكه من لذة للقلب والعقل، فلا أحد ينكر أن الجمال محبوب بالطبع والعقل والقلب، فقد ثبت ذلك

بالسنة النبوية المطهرة، روى مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: **قال رسول الله ﷺ**: «... **إن الله جميل يحب الجمال**».

- والجمال أو الحسن موجود فى المحسوسات بما يناسبها، وتقع عليه الحواس وتدركه وتحبه، لكن يوجد بكل تأكيد جمال أو حُسن فى غير المحسوسات، كما فى الخُلق الحسن، والعلم الحسن، والسيرة الحسنة، وكل ذلك يحب بالفطرة.

- والأخلاق الجميلة وفى قمتها: العلم، والعقل، والعفة، والشجاعة، وتقوى الله، والكرم، والمروءة، وسائر خلال الخير، كل ذلك لايدرك بإحدى الحواس الخمس، ولكن يدرك بالبصيرة الباطنة، وهى غير الحواس الخمس.

- وكل صفات الخير والجمال محبوبة ومحبوب من اتصف بها، ودليل ذلك أن الطبع الإنسانى قد فطره الله على حبه تعالى، وعلى حب أنبيائه ورسله، والمؤمنين الصالحين المعروفين فى فترات التاريخ كلها، وحب الصحابة رضى الله عنهم وحب صالحى المؤمنين، والمصلحين المجددين لأمر الدين.

- وهناك حب آخر يحركه تآلف الأرواح بعد تعارفها، كما تأكد ذلك بالسنة النبوية المطهرة، روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: **قال رسول الله ﷺ**: **«الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»**.

*** أسباب الحب:**

اتفق العلماء على أن للحب أسبابًا خمسة - فى تقديرهم - هى:

١- حب الإنسان لوجود نفسه وبقائه وكمال أعضائه.

٢- وحبه لمن أحسن إليه فى نفسه أو فى كماله.

٣- وحبه لمن كان محسنًا فى نفسه إلى الناس حتى إذا لم يكن محسنًا لمن أحبه.

٤- وحبه لكل ما هو جميل فى ذاته.

٥- وحبه لمن كان متآلفًا معه.

وكلما اجتمعت هذه الأسباب فى محبوب دلَّت على أنّ له غاية الحسن وكماله.

ولايمكن أن تجتمع هذه الأسباب للحب فى غايتها وكمالها إلا لله وحده سبحانه وتعالى، لأن اجتماعها فى غيره مستحيل.

فلا يستحق كمال الحب وأقواه إلا لله تعالى، أو رسوله ﷺ، لأن حب الرسول ﷺ هو عين حب الله تعالى.

فهذه الأسباب الخمسة لاتجتمع على أعلى درجات الكمال إلا فى الله تعالى، وكل سبب من هذه الأسباب الخمسة هو من الله تعالى، من خَلْقه لعباده وفطْرهم عليه، ومن هدى رسوله الخاتم ﷺ صاحب الدين المحفوظ بحفظ الله تعالى والسنة والسيرة المحفوظتين بحفظ الله تعالى للقرآن الكريم.

* وحب الإنسان لأحباب الله وأوليائه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، يعود فى سببه الرئيس إلى أن هؤلاء المحبوبين قد أخذوا عن الله ورسوله ثلاث خصال جعلتهم أهلاً لهذا الحب وهى:

- العلم عن الله ومعرفته والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

- وقدرتهم على إصلاح أنفسهم أولا ثم إرشاد الناس إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم.

- وتخليهم عن الرذائل وتحليهم بالفضائل، واتخاذ الرسول الخاتم ﷺ قدوة.

* وكلما قرُب الإنسان فى صفاته من صفات ربه سبحانه وتعالى: ومن صفات خاتم رسله ﷺ، كان أقرب إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، وإلى طاعة الله ورسوله، وكلما بُعد عن ذلك بُعد عن رضا الله تعالى وعن طاعة رسوله ﷺ.

* وإنما يحسن الإنسان التقرب إلى الله بإحسان طاعته لله ولرسوله ﷺ، وإنما يكون ذلك إذا أدّى ما فرض الله عليه من فرائض وواظب على النوافل، كما ورد ذلك على لسان المعصوم ﷺ، فيما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يقول: مَنْ عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىّ عبدى بشى أحب إلىّ مما افترضت عليه، ومايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته**».

فالله تبارك وتعالى هو المستحق للحب وحده لهذه الأسباب التى ذكرنا، ولأنه سبحانه الخالق الرازق المحيى المميت الباعث الوارث ذو الجلال والإكرام.

* وإذا كان الإنسان قد فطره الله على مجموعة من القوى والغرائز يكون له فى تحقيقها لذة، ويؤدى الحرمان منها إلى ألم، كغريزة الطعام والشراب الذى يحصل بهما الغذاء والقوة، وغريزة شهوة المرأة لأن بها تتحقق اللذة الجنسية، ومن ذلك يحدث حفظ النوع، وهكذا سائر الغرائز والقوى فى الإنسان.

إذا كان ذلك كذلك فإن فى القلب قوة تسمى النور الإلهى بدليل قول الله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر: ٢٢].

وهذه القوة النورانية قد تسمى العقل، وقد تسمى البصيرة، وقد تسمى الإيمان أو اليقين، وبهذه القوة تدرك معرفة الله تعالى، وتُعلم صفاته، وفى هذه المعرفة لذة عقلية قلبية.

وإذا كانت لذة العلم والمعرفة متفاوتة بحسب نوع العلم والمعرفة التى يحصلها الإنسان، فإن لذة معرفة الله تعالى لابد أن تكون فى قمة اللذات لأنها أشرفها، لأنه لاتوجد معرفة أشرف من معرفة الخالق سبحانه وتعالى.

* وحب العبد لربه- كما قلنا- إنما يكون بطاعته، ومن طاعته عبادته وذكره والثناء عليه، وهذا الحب يجعل العبد أسعد حالاً وأرضى مآلاً ، حيث يثيبه الله تعالى جنة عرضها السموات والأرض، أعدَّ له فيها مالا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

* وحب العبد لربه واجب شرعًا:

وإنما أوجه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة:

* أما القرآن الكريم ففى الآيات الكريمة التالية:

- قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

- وقوله عز وجل: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

* وأما السنة النبوية التى أوجبت حب الله ورسوله فأحاديثها النبوية كثيرة، نذكر منها:

- ما روى البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«ثلاث من كُن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما..»**.

- وما روى الترمذى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبونى لحب الله إياى »**.

- وما روى الترمذى بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كان من دعاء داود يقول: اللهم إنى أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذى يبلغنى حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلىّ من نفسى وأهلى، ومن الماء البارد»**.

* وحب العبد لربه له أسباب تقويه نذكر منها:

- أقوى الأسباب رغبة العبد فى أن يرضى الله تعالى عنه يوم يلقاه، حيث التكريم والإثابة والرضا.

- والالتزام بما شرع الله تعالى فى حبه وتعامل عباده معه، فليس بصحيح ما يدعيه بعض المحبين لله تعالى بأنهم دخلوا بحبهم لله درجة العشق أو درجة الاتحاد أو درجة سقوط التكاليف الشرعية عنهم، فهذه كلها أباطيل زينتها شياطن الإنس والجن، ودين الله تعالى منها براء.

- وتخلية القلب عن غير الله تعالى، فلايكون فى القلب ولا فى العقل غير الله تعالى.

وهذه التخلية للقلب مما سوى الله لها سلم تصعد فيه من درجة إلى أخرى، وعلى سبيل المثال:

* الدرجة الأولى: تخلية القلب من كل ما يناقض الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر.

* والدرجة الثانية: تخلية القلب من كل ما يضعف الإيمان بالجنة والنار والثواب والعقاب.

* الدرجة الثالثة: تخلية القلب من كل ما يقلل الخوف من الله تعالى من عقابه وغضبه.

* الدرجة الرابعة: تخلية القلب من كل ما يقلل الرجاء فى عفو الله تعالى والطمع في رحمته ورضاه.

* والدرجة الخامسة: تخلية القلب من كل ما يباعد بين الإنسان والزهد فى إطار ما شرع دون إفراط أو تفريط.

* والدرجة السادسة: تخلية القلب من كل ما ينافى الصبر على البلاء واحتساب الأجر على الله.

* والدرجة السابعة: تخلية القلب من كل يعطل الشكر على النعماء والثناء على الله بما هو أهله.

* والدرجة الثامنة: تخلية القلب من كل ما يعوق المسارعة إلى التوبة عند الوقوع فى أى ذنب.

* والدرجة التاسعة: تخلية القلب من كل ما يقرب من الرياء والنفاق.

* والدرجة العاشرة: تخلية القلب من أسباب الغرور والكبرياء والتعالى على الناس وغمط حقوقهم.

وكل هذه الدرجات تطهير للقلب وتنقية له، تأسيًا برسول الله ﷺ فى طهارة قلبه ونقاء نفسه.

- ويعقب هذه التخلية للقلب مما سوى الله تحلية للقلب وتزيين بكل ما يقربه إلى الله تعالى، وتلك أيضًا درجات فى الترقى والوصول إلى رضا الله تعالى، وعلى سبيل المثال فإن هناك درجات أيضًا.

* الدرجة الأولى: تحلية القلب بالإيمان بكل شعبه.

* والدرجة الثانية: التحلي بالقرب من الله بأداء ما فرض وأوجب.

* والدرجة الثالثة: زيادة التقرب إلى الله تعالى بأداء النوافل حتى يحبه الله تعالى.

* والدرجة الرابعة: المواظبة على الأذكار والأوراد.

* والدرجة الخامسة: المعرفة الصحيحة لله تعالى.

* والدرجة السادسة: العلم الدقيق بشرع الله والتقيد به.

* والدرجة السابعة: استيعاب سيرة النبى ﷺ والاقتداء به لأن سيرته جزء من الدين.

* والدرجة الثامنة: استحضار حياة الصحابة رضى الله عنهم.

* الدرجة التاسعة: التزود بسير المصلحين المجددين.

* الدرجة العـاشرة: ممارسة الدعوة إلى الله والحـركة بدينه والجهاد فى سـبيله لتكون كلمة الله هى العليا.

– وهذه الدرجات العشر فى التـحلية ليست كل الدرجات ولكنها بعضـها، لأن منها شعب الإيمان السـبعـة والسبعين كلـها، فهى صـفات يجب أن يتـحلى بها المسلم فى جـميع أحواله، لأنهـا جميـعًا تؤدى إلى رضا العـبد عن ربه، حتى يكمل رضـا الله تعالى عن عبده، حتى تعود نفس الإنسان المسلم إلى ربها يوم القيامة راضية مرضية لتدخل فى عباد الله وفى جنته.

والنقطة الثانية: رضاء المسلم بقضاء الله وقدره:

الرضا: الاختيار والقبول بالشيء.

– ورضا العبد عن الله تعالى هو: ألا يكره العبد شيـئًا مما جرت به المقادير عليه، بل يتقبل ذلك ويرضى به ويُسَرّ به.

– ورضا الله عن عبده: أن يراه ممتثلاً لأوامره، مجتنبًا لما نهى عنه.

* وفى القرآن الكريم تصريح برضا الله تعالى عن عبده، ورضا العبد عن ربه.

– قال الله تعالى: ﴿**قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [المائدة: ١١٩]

– وقال جل وعلا: ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [المجادلة: ٢٢].

* والرضـا بكل ما يأتى به القـضاء والقـدر ثمرة لحب العـبد لربه، بل فـرع عن أصل هو الإيمان، ونتيـجة لسبب هو حب العبد لربه، إذ الحب دائمًا يورث الرضـا بكل ما يفعل المحبوب، فما بالنا إذا كان المحـبوب هو الله تعالى جل وعلا؟ أى قَدْر من الرضا يكافئ مقام المحبوب سبحانه وتعالى؟

* وكل مايجرى فى حياة الإنسان فى الدنيا من ابتـلاءٍ بالخير والشر، ومن مِحَن ومصائب إنما هو من قضاء الله تعالى وقدره لكن على أساسين:

أحدهما:

عدم تجاوز القاعدة القرآنية الجليلة التى يخاطب الله تعالى الإنسان لتوعيته وتبصيره، وهى قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، والخطاب فيها وإن كان موجهًا للنبى ﷺ إلا أنها توجه لكل مسلم إلى يوم الدين.

والآخر: أن المؤمن مطالب دائمًا بالصبر على ما أصابه ، لأن صفة الصبر على المصيبة تعدل نصف الإيمان، وتدل على عزيمة قوية راشدة.

- قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]

* إن شأن المسلم وأمره كله له خير؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وكلما صبر المؤمن على ما أصابه، وشفع ذلك الصبر بالرضا كلما كان ذلك أرضى لله وتعالى.

- وإذا كان المؤمن يحب ربه سبحانه وتعالى- كما أوضحنا آنفًا- فإنه يعبر عن هذا الحب بالرضا بقضاء الله وقدره، بل إن المسلم إذا ارتفعت مكانته عند ربه لحبه، فإنَّ شَفَعَ هذا الرضا برجاء فى ثواب الله تعالى مما يكمل صورة الإيمان.

يروى أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قدم إلى مكة - وكان قد كُفَّ بصره - فجاء الناس يهرعون إليه ويسألونه أن يدعو لهم- وكان رضى الله عنه مجاب الدعوة- فجاء عبد الله بن السائب- وهو غلام- فتعرّف إليه، فعرفه سعد رضى الله عنه، وقال: أنت قارئ أهل مكة؟ فقال له: نعم. فقال له عبد الله: يا عم أنت تدعو للناس، فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك؟ فتبسم سعد رضى الله عنه وقال: يا بنى قضاء الله سبحانه عندى أحسن من بصرى.

* ولابد لنا ونحن نتحدث عن الرضا بالقضاء والقدر أن نذكر بأمور، منها:

- أن الرضا بالقضاء والقدر، منزلة رفيعة فى العبودية لله والإخلاص له، ولابد أن يكون لها أجزل الثواب.

- وأن الدعاء مهما كثر، فليس يناقض الرضاء بالقضاء والقدر، فالدعاء إلى الله عبادة بل مخ العبادة.

- وأن الرضا بالقضاء والقدر، لايعنى السكوت على المنكر والمعاصى، بل إن العمل على إزالة المنكرات ومنع المعاصى لايطعن فى الرضا بالقضاء والقدر.

- وليس يناقض الرضا بالقضاء والقدر أن يفر الإنسان من بلد فشت فيه الشرور والآثام، إن قيل عنه: إنه يفر من القضاء والقدر، إذ الحق أنه يفر من الشرور والمعاصى التى لم

يستطع منعها أو النهى عنها، ولا يقـاس هذا الفرار، بالفرار من الطاعون، لأن الفرار من الطاعون حذّر منه رسول الله ﷺ، حتـى لايُترك المصابون وحدهم دون أن يجدوا من يعالجهم ويخفف عنهم ويرعاهم.

- والرضا بقضاء الله وقدره ينفى عن أصحابه الرذائل والمعاصى، لأنه يخلصهم من كثير من الرذائل مثل:

* الكبر والتكبر،
* والغرور والتعالى،
* والنفاق والرياء،
* والكذب والخُلْف،
* والشكوى والجزع،
* والسخط والتذمر،
* والجمود وكفران النعم،
* والأمن من مكر الله تعالى،
* والحسد والحقد والكراهية،
* والوقوع فى المعاصى والآثام،
* والاستهانة بالصغائر،
* والقعود عن الدعوة والحركة بدين الله،
* والتوقف عن السير فى الأرض لأخذ العبرة،
* والرغبة فى الشهرة،
* والتعلق بالمال والجاه والسلطة،
* والقرب من ذُوُى الجاه والسلطان،
* والانكباب على متع الدنيا وشهواتها خارج إطار ما شرع الله،
* والخوف من الفقر،
* والبخل والشح،
* والغضب والضيق،
* وترك الصبر،

* والرغبة فى الانتقام،

* والخوف من غير الله تعالى،

* والخوف من الموت.

إلى غير ذلك من الرذائل والمعاصى والشرور والآثام؛ لأن كل ذلك يتنافى تمامًا مع حب الله تعالى والرضا بقضائه وقدره.

وإن كان ذلك لايمنعه من الأخذ بالأسباب.

ب- وفضيلة الخوف من الله وتقواه:

* الخوف يسمى أحيانًا: تقوى.

* والتقوى تسمى أحيانًا: خوفًا.

- الخوف: تألم القلب من توقع مكروه.

أو هو الخوف من الله تعالى، وغالبًا مايلازم هذا الخوف الرجاء حتى لايكون هناك يأس من رحمة الله تعالى ولا قنوط منها.

- الخوف يؤثر فى الجوارح فيجعلها تكف عن المعاصى، ويشجعها على الإقدام على الطاعات، والكف عن المعاصى يعقب العِفَّة عن الشهوات، والإقدام على الطاعات يعقب الورع وهو ترك كل محظور ولزوم كل مأمور به.

- والخوف درجات:

* درجة القصور: وهى خوف يأتى ويذهب، إذ يخاف صاحبه عند سماع آية من القرآن فيبكى وتفيض دموعه، فإذا ذهب المؤثر عاد القلب إلى الغفلة، وهذا خوف مذموم وهو فى عامة الناس.

* ودرجة الإفراط: وهى خوف يَقْوى فى نفس صاحبه حتى يصل به إلى حد اليأس والقنوط، وهو خوف مذموم أيضًا لأنه يمنع صاحبه عن العمل مادام قد دخله اليأس. والأصل فى الخوف الصحيح أن يكون حافزًا على العمل.

* ودرجة التوسط والاعتدال وهو: الخوف الذى يصل بصاحبه إلى الكف عن المعاصى، والإقبال على الطاعات، وهذا هو الخوف المحمود.

* أما التقـوى فهى - فى علوم الشريعة: حفظ النفس عَـمَّا يُؤْثِم، ويكون ذلك بترك المحظور، بل بترك بعض المبـاح، استجابة لقول المعـصوم ﷺ فيمـا رواه أصحاب السنن الأربعة[1] بأسانيدهم عن النـعمان بن بشير رضى الله عنه قـال: قال رسول الله ﷺ: «... **فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كراعٍ يرعى حولَ الحِمَى يوشك أن يواقعه...**».

- والتقوى عند أهل الحقيقة هى: الاحتراز بطاعة الله تعالى من عقوبته، أو صيانة النفس عن كل ما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك.

وهى عندهم نوعان:

الأول: تقوى فى الطاعة أى إخلاص فى أداء الطاعات.

والآخر: تقوى فى المعصية أى ترك للمعاصى وحذر منها.

- والتقوى عند أهل التصوف هى: أن ينقى العبدُ قلبه مما سوى الله تعالى.

أو هى: مجانبة كل ما يبعد عن الله تعالى.

أو هى: ترك ما دون الله تعالى.

أو هى: ترك حظوظ النفس.

أو هى: ألا يرى الإنسان نفسه خيرًا من أحد.

* وأحسن ما قيل فى التقوى - عندى- قول بعضهم: التقوى هى الاقتداء برسول الله ﷺ، لأن معنى ذلك أن المتقى يرجو الله واليـوم الآخر، لقـول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ [الأحزاب: ٢١].

لأنها تعنى الجمع بين خوف الله تعالى ورجائه وذكره فى الشدة والرخاء.

* والخوف والتقوى يشتمل كل منهما على ثلاثة مكونات:

- العلم الذى يورث الحال.
- والحال الذى يورث العمل.
- والعمل نفسه.

* أما العلم فهو: العلم بالسبب المفضى إلى المكروه، سواء أكان هذا المخوف إنسانًا كحاكم ظالم، أو فاجر قوى، أو كان حيوانًا مفترسًا.

(١) هم أبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجة.

* وأما الحال: فمعناه أن الخوف يشغل صاحبه بالمراقبة والمحاسبة والمجاهدة، وهكذا كان حال من غلبه الخوف من الصالحين، وهم معروفون فى تاريخنا.

* وأما العمل: فإن أقل درجات الخوف فيه هى أن يمتنع عن المحظورات- وتلك هى العِفّة، بل هذا ما يسمى بالورع؛ فإن زاد الخوف فكفّ صاحبه عن كل مالا يتبين تحريمه فهو التقوى، فإن زاد حتى حرم نفسه مما لابأس به حذرًا مما به بأس فهو : صدق التقوى.

* والأصل أن تكون التقوى والخوف من الله؛ بسبب عزته وجبروته وعقابه لمن عصاه وخالفه، أو بسبب عِظم المعصية التى ارتكبها المتقى الخائف، أو بسبب معرفته بنفسه وماهى عليه من فساد يستحق العقاب؛ ولذلك قال الأسلاف من العارفين: «أخوف الناس لربهم أعرفهم بأنفسهم وبربهم» ويفهم كلامهم هذا من قول الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨].

كما يفهم مما رواه البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له**».

* ومن دلائل المنزلة الرفيعة لتقوى الله وخوفه سبحانه وتعالى؛ أن الله تعالى وصف من يخافونه بأن لهم الجنة فى قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ**﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

كما وصفهم بأنهم علماء فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨].

ووصفهم بأنهم أهل الرضوان فى قوله تعالى: ﴿**رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾ [البينة: ٨].

* والتقوى لله والخوف منه من علامات الصحة النفسية:

وبيان ذلك أن المؤمن الذى يتقى الله ويخافه يتقى محارمه ويخاف معصيته ومخالفته، فيعيش حياته الدنيا آمنًا مطمئنًا راضيًا سعيدًا وتلك هى الصحة النفسية.

وقد وردت فى تأكيد ذلك أحاديث نبوية شريفة منها:

- ماروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل ،...، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**» أى خوفًا من الله تعالى.

- وما روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يلج النار أحد بكى من خشية الله، حتى يعود اللبن فى الضرع**».

- وما روى البيهقى - فى الشعب- بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**وعزتى لا أجمع على عبدى خوفين، ولا أجمع له أمنين؛ فإن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافنى فى الدنيا أمّنته يوم القيامة**».

- وما روى ابن حبان - فى كتاب الثواب- بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من خاف الله تعالى خافه كل شىء، ومن خاف غير الله تعالى؛ خوّفه كل شىء**».

- وما روى البيهقى - فى الشعب- بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا اقشعر قلب المؤمن خشية الله تحاتّت عنه خطاياه، كما يتحات من الشجرة ورقها**».

* وتقوى الله تعالى وخوفه نوعان:

الأول:

خوف منه سبحانه وتعالى، وذلك خوف العلماء والعارفين، وهم الذين يتدبرون فى آيات القرآن الكريم التى تتضمن تحذيرًا من الله تعالى، أو تطالب بنوع أعلى وأرقى من تقوى الله تعالى، مثل:

- قول الله تعالى: ﴿**لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**﴾ [آل عمران: ٢٨].

- وقول الله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [آل عمران: ٣٠]

- وقوله جل شأنه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٢]

والآخر:

خوف من عذاب الله تعالى، وهو خوف حاصل فعلاً لكل المؤمنين الذين يؤمنون بأن الجنة حق وهى دار الجزاء للطائعين، ويؤمنون بأن النار حق وأنها دار لجزاء الكافرين والعصاة.

- قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس: ٣٣-٤٢]

- وروى البيهقي - في الشعب- بسنده عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«العبد المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى لايدرى ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقى لايدرى ما الله قاض فيه، فوالذى نفسى بيده؛ ما بعد الموت من مُسْتَعْتَب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار»**.

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا تغيّر الهواء وهبَّت ريح عاصفة؛ يتغير وجهه، فيقوم ويتردد فى الحجرة، ويدخل ويخرج؛ كل ذلك خوفًا من عذاب الله».

- وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من خاف أدلج[1]، ومَنْ أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»**.

وبعد: فإن الخوف من الله وتقواه فضيلة يعمل الإسلام على أن يحلى بها قلب المسلم ويملأ بها نفسه، لتمتلئ بالخير، وبالقرب من الله تعالى، وهو أسلوب راشد فى تربية الروح.

جـ- فضيلة الإخلاص لله تعالى:

إذا تحلَّت النفس الإنسانية بفضيلة الإخلاص لله تعالى فقد خلتْ أعمالها من الشوائب، وصَفَتْ من الكدَر.

* الإخلاص: ترك الرياء فى الطاعات.

وهو تخليص القلب من الشوائب التى تكدر صفاءه.

- والإخلاص: سِرٌّ بين العبد وربه سبحانه وتعالى؛ لايعلمه مَلَك فيكتبه، ولايعلمه شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

- والإخلاص فرع الصدق، لأن الصدق أصل وهو الأول، والإخلاص فرع، وهو تابع للأصل.

(١) أدلج: سار من أول الليل، أى: اجتهد، والمقصود: الاجتهاد فى الطاعة والتشمير فيها.

- والإخلاص يضاده: الإشـراك، فمن ليس مخلصًـا فهو مشـرك، والإخلاص والشرك محلهما القلب.

- والإخلاص هو كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله».

- والإخلاص سورة من سـور القرآن الكريم اشتملت على تعليم الناس إخـلاص العبادة لله تعالى أى سلامة الاعتقاد من الشرك.

- وإخلاص الأمة الإسلامية هـو التبرؤ مما يدعيه اليهود من التشبيـه وما يدعيه النصارى من التثليث.

* والإخلاص فى مجال تَحلّى النفوس به يعنى أمورًا عديدة منها:

- صدق الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

- ونفى الشرك عمومًا عن النفس، مع نفى الشركـاء الذين قد يراعيهم الإنسان فى عمله فيشركهم مع الله تعالى.

- وتصفية أعمال الإنسان من الشوائب والأكدار التى تعكرها وتجعل فيها لغير الله نصيبًا.

- والتوجـه بهذا الإخلاص فى القول والعـمل لله تعالى دون أن يطلع عليه أحـد، حتى لايدخل صاحبه في الرياء.

- والتخلص من حظوظ النفس، وحظوظ الدنيا فى القول والعمل.

* فلا يصوم من أجل الحمية الجسدية.

* ولايحج من أجل تصحيح مزاجه بحركة السـفر والانتقال، أو الهروب من عدو أو البعد عن شر يحيط ببلده.. إلخ.

* ولايصلى بالليل لدفع النعاس عن نفسه ليراقب أهله أو رحله أو خدمه.

* ولايَعِظُ للخروج من كرب الصمت.

وغير ذلك من الأعمال التى يلحظ فيـها حظ نفسى مع الله تعالى، لأنها عندئذ تتكدر، ويزايلها الإخلاص، إذ الأصل أن يكون التوجه بـالقول والصمت والحركة والسكون إلى الله تعالى وحده، وتلك هى العبادة التى خُلق الإنسان ليمارسها لله وحده.

- ومن أجل ذلك كله كان للنية مكان عظيم فى الإسلام، إذ جعل الأعمال كلها بالنيات، كما جاء ذلك على لسان المعصوم ﷺ، فقد روى البخارى بسنده عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى...»** الحديث.

- وعدو الإخلاص هو الشيطان، فهو الذى يكدره بالشوائب وهو الذي يذهبه، وله فى ذلك أحابيله وهمزه ولمزه، فهو عندما يرى إنسانًا طائعًا يوحى إليه أن يجيد الطاعة حتى يراها الناس جيدة فتلهج ألسنتهم بمدحه وحمده، وفى المعصية يوسوس لصاحبها أن يستهين بها، ويغره بأن الله سيغفرها. فيوقع الطائع فى الرياء ويوقع العاصى فى الاستمرار على المعصية، وذلك أن الشيطان عدو مبين.

- وقد أجمع علماء المسلمين فى كل عصر على أن ثواب العمل إذا كان خالصًا لله تعالى كائن بفضل الله تعالى، كما أجمعوا على أن العمل إذا لم يكن خالصًا لله تعالى فلا ثواب عليه، بل ربما كان عليه عقاب.

- ومن رحمة الله لعباده وحبه لهم وبره بهم أن جعل العمل الذى يغلب عليه الخير خيرًا كله، وتجاوز عن كثير من الأعمال التى يشوبها قليل من الشر، لأنه سبحانه يجزى على الحسنة بعشر أمثالها، ولايجزى على السيئة إلا بمثلها.

* وفى الإخلاص الذى يجب أن تتحلى به نفس المسلم جاءت آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة، نذكر منها:

- قول الله تعالى: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ [البينة: ٥].

- وقوله جل وعلا: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦].

ومن الأحاديث النبوية الشريفة:

- ما رواه البخاري بسنده عن أبي يزيد معن بن يزيد بن الأخنس رضي الله عنهم[1] قال: كان أبي يزيدُ أخرج دنانير يتصدق بها، فوضعها عند رجل في المسجد، فجئت فأخذتها، فأتيته بها، فقال: والله ما إياك أردت، فخاصمته إلى رسول الله ﷺ فقال: **«لك ما نويت يايزيد، ولك ما أخذت يا معن»**.

- وروى النسائي بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: **«ماله شيء»** فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله: **« لاشيء له»** ثم قال: **«إن الله لايقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا، وابتغي به وجهه»**.

- وروي مسلم بسنده عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لاينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم،ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**.

هكذا يعلّم الإسلام الناس الإخلاص وصدق النوايا، ليحلوا بهذه الفضيلة نفوسهم وقلوبهم، فتصح نفوسهم وتبرأ من المرض النفسي وتقبل على أعمال البر والخير، وتخلص النية والعمل في كل أمرها، وكل ما تمارس من قول أو عمل، وكل من تتعامل معهم من الناس.

د- وفضيلة التوكل على الله تعالى:

التوكل على الله تعالى هو: الاستسلام إليه في كل أمر.

- والتوكل على الله عند أهل الحقيقة هو: الثقة بما عند الله. واليأس مما في أيدي الناس.

- والتوكل: اعتماد القلب على الوكيل وحده.

- والتوكل على الله تعالى لايقتضي ترك الدعاء، كما أنه لايقتضي ترك الأخذ بالأسباب، لأن الدعاء والأخذ بالأسباب من الواجبات الشرعية، بدليل قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ..﴾ [البقرة: ١٨٦].

وأما الأخذ بالأسباب فقد أوجبه الله تعالى في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ...﴾ [النساء: ٧١].

(١) هذا الصحابي هو وأبوه وجده كانوا من صحابة رسول الله ﷺ، رضي الله عنهم.

فقد أمر الله المسلمين بألا يقتحموا على عدوهم على جهالة حتى يتحسسوا ما عندهم، ويعملوا كيف يردون عليهم، فذلك أثبت لهم، وهو أخذ بالأسباب ولاينافي التوكل على الله، لأن يقين المتوكل- بعد أخذه بالأسباب- أن الأمر كله بيد الله تعالى.

كما أوجب الله الأخذ بالأسباب بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

- على أن بعض الغافلين يقولون: التوكل ترك الأخذ بالأسباب، وهم في ذلك على خطأ عظيم!! فكيف يُترك الأخذ بالأسباب وقد أمر الله تعالى بالأخذ بها؟ وكيف يترك الأخذ بالأسباب ورسول الله ﷺ أخذ بها في غزواته وسراياه ومسالماته ومعاهداته؟

- وبعضهم يقولون: إن التوكل على الله تعالى يعني ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وكاللحم على الوضم، وهذا جهل منهم بالتوكل وبوجوب العمل والسعي، كما دلت على ذلك آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ.

- ومن المسلّم به لدى علماء المسلمين أن دفع المضار والمفاسد الحاصلة فعلاً أو التي يحتمل أن تحصل واجب شرعًا، بل هو من مقاصد الدين، كما أن جلب المنافع أو الحفاظ عليها واجب شرعي ومقصد من مقاصد الدين أيضًا، كيف يتصور القيام بدفع المضار أو جلب المنافع دون عمل؟ وكيف يتنافى العمل مع التوكل على الله؟

* وللتوكل على الله مكانة كبرى في الإسلام، لأنه طاعة لله تعالى ورسوله ﷺ، فقد أمر الله تعالى بالتوكل عليه في القرآن الكريم:

- قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١].

- وقال جل شأنه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ...﴾ [الفرقان: ٥٨]

- وقال جل وعلا: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٩، ١٦٠].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

كما جاء الأمر بالتوكل على الله تعالى فى كثير من الأحاديث النبوية التى نذكر منها:

- ما رواه البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: «**إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**».

- وما رواه الترمذى بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتعود بطانًا**».

- وما رواه أبو داود بسنده عن أم المؤمنين أم سلمة- واسمها هند بنت أبى أمية حذيفة المخزومى- أن النبى ﷺ كان إذا خرج من بيته قال: «**بسم الله توكلت على الله، اللهم إنى أعوذ بك من أن أَضِل أو أُضَل، أو أَذِل أو أُذل، أو أَظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهل علىّ**».

- وروى الترمذى بسنده عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن اكتوى أو استرقى فقد برىء من التوكل**».

والمعنى أن من أعتقد بأن الشفاء يأتى له من الكىّ أو الرُّقْية فليس من المتوكلين على الله، الذين يعلمون أن كل المتغيرات بيده سبحانه وتعالى.

وهناك فرق بين من يرقى غيره ويدعو له، وبين من يطلب الرُّقية من أجل الشفاء، فالراقى لاحرج عليه لأن الرُّقية دعاء، ومطلوبة فى كل حال لأنه عبادة بل هو مخ العبادة كما قال ذلك رسول الله ﷺ، فيما رواه الترمذى بسنده فى باب الدعوات.

* وقرأ الخوَّاص[1] رحمه الله قول الله تعالى: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝٥٨ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا**﴾ [الفرقان: ٥٨، ٥٩]، فقال: ما ينبغى للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله.

* وللإمام أبى حامد الغزالى (٤٤٥-٥٠٥هـ) كلمة جامعة فى التوكل- فى كتابه «إحياء علوم الدين»-[2] يقول فيها: «التوكل منزلة من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معالى درجات المقربين».

---

(١) هو إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل أبو إسحق الخواص- أى بائع الخوص- توفى سنة ٢٩١هـ- ٩٠٤م صوفى كان أحد المشايخ فى وقته من أقران الجنيد، ولد فى سرَّ مَنْ رأى - سامراء- ومات فى جامع الرىّ.

(٢) ج٤، ص(٢٤٧) ط دار الغد، دون تاريخ.

* وبعد: فإن التوكل على الله وحده فضيلة من أعظم الفضائل الإسلامية.

والإسلام يدعو كل مسلم إلى أن يتحلى بفضيلة التوكل على الله، فهى أجمل ما تتحلى به نفس المسلم، وللتوكل على الله أثر عميق فى إبعاد الأمراض النفسية والقلبية والخلقية، وتحقيق الصحة النفسية لمن يتوكل على الله تعالى.

وبذلك نؤكد ما سبق أن قلناه من أن تربية الإسلام للنفس الإنسانية اعتمدت على أن تتحلى النفس الإنسانية بالفضائل والقيم التى تعزز وتؤكد تكريم الله تعالى للإنسان.

هـ- وفضيلة الصدق:

الصدق: مطابقة الكلام للواقع بحسب اعتقاد المتكلم.

ومن معانيه:

الصلابة والشدة:

والأمر الصالح لاشية فيه من نقص أو كذب.

والإخلاص.

والثبات.

وقول الحق فى مواطن الهلاك.

وأن تصدق فى موقف لاينجيك منه إلا الكذب.

* والصدق فى القتال هو الإقبال عليه فى قوة وتوفيته حقه من الشجاعة والصبر والنبل وكرم الخلق.

* والصدق عمومًا: ضد الكذب.

* **وعند الفلاسفة:**

يطلق الصدق على الخبر الذى يحتمل الصدق والكذب، كما يطلق على القول عمومًا، خبرًا كان أو إنشاءً.

ويطلق على الفعل بمعنى إتيانه كاملاً.

ويطلق على النّية بمعنى أنه مطابق لما هو ينوى قوله حقًا.

ويطلق على الذاكرة بمعنى قوتها على الحفظ والتذكر.

* وعند علماء الأخلاق:

«يجب الأخذ به» وتلك قاعدة أساسية عندهم يتبعها كل إنسان إزاء ذاته وإزاء الآخرين.

وقد يجوز الخروج على هذه القاعدة إذا دار صراع بين الواجبات بشرط مراعاة الإنسانية واحترام حقوق الإنسان، واحترام العقل.

وعلماء الأخلاق يؤكدون أنه بغير الصدق يتعطل العقل وتفسد جميع نشاطاته الذهنية.

* وعند علماء الاجتماع:

الصدق مفهوم واسع له معايير عديدة تختلف باختلاف المسائل التى يهتم بها الباحثون عند التعرض لمعنى الصدق.

وفى ميدان البحث العلمى، يقصد بالصدق أن يقيس الاختبار ما وُضع لقياسه، أى لايكون الاختبار صادقًا إلا إذا قاس الظاهرة التى يقيسها وحدها، ولايقيس شيئًا آخر بدلا منها، أو بالإضافة إليها.

وللإمام القشيرى[1] كلام ثمين فى هذه المعانى، حيث يقول:

- الصدق ألا يكون فى أحوالك شوب، ولا فى اعتقادك ريب، ولا فى أعمالك عيب».

- والصداقة صدق الاعتقاد فى المودة، وذلك مختص بالإنسان دون غيره من المخلوقات.

- والصديق هو الذى لم يدع شيئًا مما أظهره باللسان إلا حققه بقلبه وعمله.

- والصدقة ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه التقرب إلى الله كالزكاة، غير أن الصدقة تقال فى الأصل للتطوّع به، والزكاة تقال للواجب.

وقد يسمى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبها الصدق فى فعله كما يتحراه فى قوله.

- والصدق هو: الصواب، كما أن الكذب هو الخطأ.

- والصدق: ضد الكذب.

* الصدق بكل تلك المعانى فضيلة يجب أن يتحلى بها الإنسان عمومًا، والمسلم على وجه الخصوص.

---

(١) هو عبد الكريم بن هوازن النيسابورى القشيرى (٣٧٦-٤٦٥هـ/ ٩٨٦-١٠٧٢م) شيخ خراسان فى عصره زهدًا وعلمًا بالدين. له التفسير الكبير المسمى «التيسير فى التفسير»، وله الرسالة القشيرية.

* وقال ابن عباس رضى الله عنهما: أربع من كن فيه فقد ربح: الصدق، والحياء، وحسن الخلق، والشكر.

* ومن الكلمات الجامعة فى الصدق معانيه وأهدافه، ما قاله الإمام أبو حامد الغزالى- فى موسوعته الإسلامية كتاب: «إحياء علوم الدين» قوله(1):

«لفظ الصدق يستعمل فى ستة معان:

صدق فى القول.

وصدق فى النية والإرادة.

وصدق فى العزم.

وصدق فى الوفاء بالعزم.

وصدق فى العمل.

وصدق فى تحقيق مقامات الدين كلها».

ثم أخذ يشرح هذه المعانى فقال:

*** الصدق فى القول:**

صدق اللسان.. وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه، فلا يتكلم إلا بالصدق، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها.

واعتبر الكذب صدقًا فى ثلاثة مواضع:

- من أصلح بين متخاصمين.

- ومن كان فى مصلحة الحرب.

- وكلام الزوج لزوجته لإرضائها..

*** والصدق فى النية والإرادة:**

ويرجع ذلك إلى الإخلاص، وهو ألا يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية، وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبًا.

---

(1) مع اختصاروترتيب وتصرف.

* والصدق فى العزم:

قد يقدم الإنسان العزم على العمل، فيقول فى نفسه: إن رزقنى الله مالاً تصدقت بجميعه أو بشطره، وإن لقيت عدواً فى سبيل الله قاتلت ولم أُبال وإن قتلت، وإن أعطانى الله ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق..

فالصدق هنا هو التمام والقوة...

* والصدق فى الوفاء بالعزم:

إن النفس الإنسانية قد تسمو بالعزم فى الحال، إذ لا مشقة فى الوعد والعزم، والمئونة فيه خفيفة، فإذا حقّت الحقائق وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات، ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه..

* والصدق فى الأعمال:

وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لايتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال، ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر، لأن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء، ويفوت بها الإخلاص، وإن كانت عن غير قصد فات بها الصدق.

* والصدق فى مقامات الدين:

وهو أعلى الدرجات وأعزها، كالصدق فى الخوف والرجاء والتعظيم والزهد، والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور، فإن هذه الأمور لها مَبَادٍ ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها.

وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمى صاحبه صادقًا فيه، كما يقال فلان صدق القتال، ويقال: هذا هو الخوف الصادق، وهذه هى الشهوة الصادقة...»[1].

- ومن علامات الصدق: كتمان المصائب والطاعات جميعًا، وكراهية اطلاع الخلق عليها.

- ودرجات الصدق لا نهاية لها إذ هى مرتبطة بكل سلوك يسلكه الإنسان فى حياته، فقد يكون له صدق فى موقف دون موقف، فإن كان صادقا فى جميع الأمور فهو الصديق حقًا.

---

(١) أبو حامد الغزالى: إحياء علوم الدين ٤/ ٣٩١ باختصار وتصرف- ط دار الغد العربى - القاهرة دون تاريخ.

* ولقد أوجب الإسلام على النفس المؤمنة الصدق بكل أنواعه ودرجاته، أوجب ذلك بنصوص من آيات القرآن الكريم، وبأحاديث نبوية شريفة، نذكر منها:

- قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]

- وقوله جل شأنه: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٢٣، ٢٤].

- وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

- وقوله عز وجل: ﴿ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]

ومن أحاديث النبي ﷺ:

- ما رواه البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»**.

- وما رواه الترمذي بسنده عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ: **«دع مايريبك إلى مالا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة»**.

- وما رواه مسلم بسنده عن سهل بن حنيف- وهو بدري- رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»**.

- وما رواه البخاري بسنده عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا. فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما مُحقَت بركة بيعهما»**.

- وما رواه البخارى بسنده عن أبى سفيان صخر بن حرب رضى الله عنه فى حديثه الطويل مع هرقل، إذ قال له هرقل: فبماذا يأمركم- يعنى النبى ﷺ- قال أبو سفيان- وكان يومئذ لايزال على الشرك- قلت: يقول: «اعبدوا الله وحده ولاتشركوا به شيئًا، واتركوا مايقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

وبعد: فإن الإسلام يستهدف أن تكون نفس المسلم صادقة فى القول والنية، والعزم والوفاء، والعمل وكل مقامات الدين، لأن النفس التى تتحلى بهذه الصفات هى النفس الآمنة المطمئنة التى تزرع الأمن والطمأنينة فى المجتمع.

والمجتمع الذى يعيش فيه أصحاب النفوس الصادقة مجتمع يستطيع أن يغرس فى أفراده وجماعاته المودة والحب والتعاون على البر والتقوى، إنه مجتمع الصدق والأمان والرضا.

والنفس التى تتحلى بفضيلة الصدق نفس لايعرف المرض إليها سبيلاً؛ لأنها آمنة مطمئنة.

و- وفضيلة الصبر:

الصبر هو التجلد وعدم الجزع.

وهو الانتظار فى هدوء واطمئنان.

- وصبر على الأمر: احتمله دون شكوى أو جزع.

- وصبر عن الأمر: حبس نفسه عنه.

- وصبر نفسه: ضبطها وحبسها.

* والصبر : ترك الشكوى من ألم البلوى.

- والصبر فضيلة بدليل أن الله تعالى أثنى على الصابرين، فقال عن نبيه أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

- ودعاء الإنسان ربه أن يكشف عنه البلوى لاينفى صبره ولا يطعن، لأن الدعاء -كما قلنا- عبادة بل مخ العبادة، فهو مطلوب على كل حال.

* وحديثنا هنا عن فضيلة الصبر يتناول موضوعين:

الأول: حاجة الإنسان إلى الصبر.

والآخر: نوعا الصبر.

- أما حاجة الإنسان إلى الصبر فمرتبطة بكثرة حاجاته في حياته الدنيا وتعدد أنواعها، وتلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

إن طعام الإنسان وشرابه وملبسه ومسكنه وزوجته وأبناءه وعمله وأقاربه وجيرانه وأصدقاءه، كل أولئك يلزمون الإنسان بأن تكون له حاجات حتى يعطي كل ذى حق حقه.

وهذه الحاجات مادية ومعنوية، وحاضرة ومستقبلية، وضاغطة كلما تقدم بالإنسان العمر، وكلما تطورت حاجات الإنسان وتغيرت.

- والإنسان مع تعدد حاجاته يعمل من أجل تحقيقها ما وسعه مجتازاً فى سبيل ذلك كثيراً من المتاعب والمشاق، ومن هنا تبدو حاجته إلى الصبر، الصبر على الجهد فى تحقيق حاجاته المشروعة، والصبر عن حاجاته غير المشروعة التى تدخله فى دائرة ماحرم الله تعالى، أى أن الإنسان فى حاجة إلى الصبر على كل حال.

- وعندما يفقد الإنسان الصبر على حاجة أو الصبر عن حاجة فإنه يسىء إلى نفسه وإلى الناس، ويصبح مريضاً نفسياً لعجزه عن التأقلم والتلاؤم مع المجتمع.

ومع هذا المرض النفسي يخرج الإنسان عن سواء الصراط، فيزين له الشيطان اتباع وسائل غير مشروعة من أجل تحقيق حاجاته، فيظلم نفسه والناس ويفسد المجتمع.

* وعلى سبيل المثال فى هذه الحاجات:

- **حاجات الإنسان المادية:**

وهى حاجات تشبع رغباته وشهواته وهواه، وعند تحقيقه لهذه الحاجات المادية يخلط بين ما هو مشروع منها وما هو غير مشروع.

ولاسبيل إلى حصر حاجات الإنسان المادية التى تشتمل على حاجته إلى الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة وكثرة الأتباع والأنصار.

ومالم يصبر الإنسان عن تحقيق غير المباح من هذه الحاجات تحول إلى ممارسة الرذائل من جشع وبطر وطغيان وغمط لحقوق الناس.

- **وأما حاجات الإنسان المعنوية:**

ففى مقدمتها حاجاته الدينيـة، أى حاجته الفطرية إلى عبادة الله تعالى وطاعته فى كل ما أمر به أو نهى عنه، وتلك حاجات نفسية عقلية خلقية لأنها تعبر عن فطرة الإنسان وحاجاته الأساسية.

- ومن هنا كان الصبر على ذلك، والاستمرار على التمسك بالدين والقيم الخلقية التى أمر بها الدين، وفى مقدمتها الصبر، ومن أجل ذلك نفهم كيف أن المتمسك بدينه كالقابض على قطعة من الجمر، وقد سمى الرسول ﷺ أيام الصبر هذه بأن: «**المتمسك يومئذ بدينه كالقابض على الجمر**» رواه أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه.

- وعندما فتح الله على المسلمين الدنيا وواتتهم خيراتهـا ولم يعودوا يخشون الفقر، قال بعض الصحابة رضوان الله عـليهم: ابتلينا بفتنة الضراء فصبـرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر.

- وروى الترمـذى بسنده عن ابن عبـاس رضى الله عنهمـا قال: قـال رسول الله ﷺ: «**اعبد الله على الرضا، فإن لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير**».

والموضوع الآخر: نوعا الصبر:

قسم أسلافنا رحمهم الله الصبر إلى قسمين أو نوعين هما:

- الصبر على الطاعات.
- والصبر عن المعاصى.

* أما الصبر على الطاعات:

فحاجة النفس إليه شديدة، وذلك أن الطاعات كلها تجتمع أصولها فى ثلاثة:

العدل، والإحسان، وإيتاء ذى القربى.

وكل واحدة من هذه الثلاثة تصـادم شهوات النفس وهواها، فالعدل ضد شـهوة التغلب على الآخر.

والإحسان ضد شهوة الانضباط.

وإيتاء ذى القربى ضد شهوة حب المال والضن به.

وتحت هذه الثلاثة الأصول تدخل سـائر الطاعات من عبادات ومعامـلات، وعلى سبيل المثال فى تصادم الطاعات مع شهوات النفس ورغباتها.

* فإن طاعة الله تعـالى بالأذكار والأوراد تصادم رغبة النفس فـي الهذر والكلام الرخيص، والكلام الذى يجلب الإضحاك أو السـخرية، لذلك تحتاج عبادة الذكـر إلى الصبر على ممارستها والشعور بالسعادة بها.

* وطاعة الطهارة، وطاعـة الصلاة، والصيام والزكاة والحج، كل منها يصـادم رغبة النفس فى الاسترخاء والكسل والتخفف من الأعباء الجسدية التى تتسبب فيها هذه الطاعات.

* وطاعة الجهـاد فى سبيل الله تتصـادم مع رغبة النفس بتزيين الشـيطان فى الجبن والخوف على الحياة والسلامة والضن بالمال والخوف على العيال.

* وطاعة الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر تصادم رغبة النفس فـى التواكل والانعزال عن الناس، وتركهم وما يفـعلون، وعدم التعرض لهم بنصح أمـر أو نهى فضلاً عن أطرهم على الحق أطرًا.

* وطاعة التواضع وترك الكبـر والتعالى، تصادم النفس التى تحب التميـز والتكبر والتحكم فى الناس، إذ لو ترك الإنسان وهواه لقال كمـا قال فرعون للناس: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]

* وطاعة العفـو والإحسان تصادم فى نفس الإنـسان حب القسوة والانتقـام الذى يوسوس الشيطان به إلى جانب مايزينه للإنسان من شرور وآثام.

* والطاعات فى الإسلام من بين ما أنعم الله به على عباده من نعم لأن فى أدائها ثواب الله ورضاه، وقد نوعها الله تعالى تيسيرًا على عباده ما بين فريضة ونافلة ومروءة، وكل نوع يحتاج فى أدائه إلى صبر على هذه الطاعة.

* فعند أداء الإنسان لطاعة الفرائض يحتاج إلى الصبر فى:

النية والإخلاص، والتخلص من شوائب الرياء إذا تحدث عن أدائه لهذه الفرائض.

- وعند أداء الإنسان لطاعة النوافل يحـتاج إلى الصبر على أدائها وعلى مقـاومة التهوين من شأنها، والصبر عن عدم التحدث عن أدائه لها.

- وعند أداء الإنسان للمروءات مثل بر الناس عمومًا والصدقة على من هم أبعد من ذوى القرابات، إنه فى ذلك يحـتاج إلى الصبر على ذلك، وإخـفاء ما يفعل، واحـتساب الأجر عند الله.

وأنواع الطاعات كثيرة يدخل فيها كل بر حتى برّ غير المسلمين، كما يدخل كل خير يقدمه المسلم لسواه من الناس، وبالأصالة تدخل فيه شعب الإيمان السبعة والسبعون.

*** وأما الصبر عن المعاصي:**

فإن حاجة النفس الإنسانية إلى الصبر عن المعاصي لا تقل عن حاجته إلى الصبر على الطاعات، بسبب أنّ تخلّي الإنسان عن المعاصي هو طريقه إلى التحلّي بالطاعات.

- وإن رؤوس المعاصي كلها تجتمع فيما نهى الله عنه من الفحشاء والمنكر والبغي.

والنفس تستمرئ المعاصي وتشبع بها شهواتها وهواها، لذلك كان الصبر عنها أشق من الصبر على الطاعات، لأن المعاصي يزينها الشيطان ويبررها ويجمّلها ذلك العدو المبين.

* وتتنوع المعاصي ما بين جوارح الإنسان العديدة كاللسان والعين والأذن والبطن والفرج واليد والرجل، إذ لكل جارحة منها معاص تناسبها، وكلها معاص يشق على الإنسان أن يهجرها ويصبر عنها، وعلى سبيل المثال:

- فإن معاصي اللسان من كذب وغيبة ونميمة وفحش في الكلام وبذاءة وهذر واستهزاء بالناس، وذكر لمساوئ الموتى، وإظهار للشماتة، وكلمات الذم والتجريح، وما إلى ذلك من حصائد الألسنة التى تكب صاحبها في النار، وكل ذلك تحتاج فيه النفس إلى الصبر عنه لتجنبه وهو صبر شاق على النفس، حتى إن بعض العلماء نصحوا من لم يملك لسانه عن معاصيه أن يعيش فى عزلة عن الناس، فهذا أخف ضررًا من العزلة عن الناس من باب أن بعض الشر أهون من بعض،ومن باب أن من صلّى فوسوس له الشيطان فى صلاته أبعد عن الخطر والإثم من ذلك الذى لم يصَلِّ.

*** ومما يدخل فى الصبر عن المعاصي:**

الصبر عن عدم الرضا بقضاء الله وقدره، عندما تتعرض النفس الإنسانية لمصيبة من مصائب الدنيا، كفقد الأعزاء، والإصابة بالأدواء، وسطوة الأعداء، والوقوع تحت طائلة الإيذاء، وسائر أنواع المحن والابتلاء؛ لأن الجزع من هذه المصائب والسخط بسببها على القضاء والقدر معصية يجب الصبر عن الوقوع فيها.

- ومن دعوات الرسول ﷺ: «... **وأسألك من اليقين ما تهون عليّ به مصائب الدنيا**» رواه الترمذى بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما.

- ومن خلق الإسلام الصبر على البلاء:

* روى الإمام مالك بسنده عن أبى سعـيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله عز وجل: إذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر، ولم يشكنى إلى عـواده، أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه، ودمًا خيرًا من دمه، فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له، وإن توفيته فإلى رحمتى**».

فالصبر على البلاء والمحن صبر عن الجزع وكفّ عن الشكوى والسخط أو التـذمر من قضاء الله وقدره.

* وروى الإمام مسلم بسنده عن أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنهـا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلم تصيبـه مصيبة فيقول ما أمـره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنى فى مصيبتى، واخلف لى خيرًا منها، إلا فعل الله به ذلك..**».

* ومما نراه يعين النفس على الصبر عن المعاصى، أمور هى:

- ذكر الله تعالى، والتفكر فى ثوابه وعقابه.
- وإخلاص القول والعمل لله تعالى.
- وحسن التوكل على الله، وطلب العون منه، ودعاؤه دائمًا.
- واستحضار أوامر الله تعالى ونواهيه كأنها رأى العين.
- وخوف الله وتقواه على الدوام.
- واستحضار سيرة النبى ﷺ، والاقتداء به.
- واستحضار سير الصحابة رضى الله عنهم والاتعاظ بها.
- والانشغال بالطاعات لتملأ فراغ الوقت بما يرضى الله.
- واستبشاع المعاصى ومحاولة اجتنابها تمامًا.
- والفقـه والفهم لأحابيل الشـيطان ووسوسـتـه، وتضييق مـسالكه عليـه بصوم التطوع والإكثار من الاستعاذة منه.

وبعد: فـهكذا يربى الإسلام النفس الإنـسانية على الصـبر عن شـهواتها ولجـم أهوائها بالامتناع عن كل ماحرم الله تعالى، والصبر عن كل معصية مهما كانت مُشْبعة لهوى النفس وشهواتها.

وقد رأينا آنفًا كيف حثّ الإسلام النفس الإنسانية على الصبر على المطالب، وتحمل أعباء القيام بها، وتحمل مشقاتها، لأن هذا وذاك هو تزكيتها وتحليتها بالطاعات بعد تخليتها عن المعاصى.

إنها بهذا ترتفع إلى درجات رفيعة من الكمال البشرى الذى يلائم فطرة الإنسان التى فطره الله عليها.

* على أن طائفة من المسلمين كان لهم فقه خاص فى الارتقاء بالنفس الإنسانية من خلال رياضات نفسية وقلبية إلى مرتبة أعلى من المرتبة التى فطر الله الإنسان عليها، هذه الطائفة ليست على صواب فى أمرين:

الأول: سوء فهم الشريعة الإسلامية فهمًا دقيقًا لعدم أسوته برسول الله ﷺ وما كان يهدى به أصحابه رضى الله عنهم.

والآخر: سوء فهم طبيعة الإنسان وفطرته، وإمكاناته، فهو غير قادر على الخروج على فطرته بوساطة أى رياضة، لأن ذلك خرق لناموس الله تبارك وتعالى.

* أنبه هنا على خطئهم فى هذين الأمرين، وأؤكد وجوب كل الحذر من تصديق بعض كلماتهم ومشاهداتهم، مهما دبجوها ونمقوها ونسبوها لبعض الصالحين، لأن الدين الخاتم للناس جميعًا، والناس جميعًا فطرتهم واحدة وأبوهم واحد ودينهم واحد، وإلههم واحد، وليس فيهم من يستطيع أن يخرق نواميس الله ، أو يبدل سننه فى خلقه.

وليس بجائز أن يشقى المسلم نفسه بهذه الرياضات الشاقة لأن الله تعالى يقول مخاطبًا خاتم رسله ﷺ ولكل مسلم: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ [طه: ٢]، فليس للمسلم أن يشقى نفسه بهذه الرياضات ليصل إلى شىء فوق إنسانيته.

ز- وفضيلة الشكر:

* الشكر: عرفان النعمة وإظهارها والثناء عليها وبها، وهذا هو شكر العبد لربه سبحانه وتعالى.

* والشكر من الله تعالى لعبده:

هو رضا الله تعالى عنه وإثابته.

- وشكر فلان فلانًا: ذكر نعمته وأثنى عليه بها.

- وشكر فلان عمل فلان: أثابه عليه.

- وشكر النعمة: ذكرها وإظهارها، ويقابله: كفر النعمة أى نسيانها وسترها.

- والشاكر: من يشكر على الرضا أو العطاء.

- والشكور: من يشكر على البلاء والمنع.

* والشكر أنواع ثلاثة:

الأول: شكر القلب وهو تصور النعمة.

والثانى: شكر اللسان وهو الثناء على المنعم.

والثالث: شكر سائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه.

* والشكر: مرتبط دائمًا بالنعمة وبمن أنعم بها، بل هو تعبير عن الإحساس بالنعمة والثناء على المنعم بما هو أهله.

- ويقارب الشكر أو يطابقه الحمد، فالشاكر للنعمة كالحامد لها.

- وكلما كثرت النعم كان الشكر عليها صعبًا بل ربما عجز الشاكر عنه، ومثال ذلك نعم الله تعالى على عباده، وفى ضوء ذلك نفهم قول الله تعالى- بعد نعمه العديدة على آل داود -: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]

*** والشكر عند أهل التصوف:**

مقام من مقامات السالكين إلى الله تعالى، يتكون كغيره من المقامات من: علم يورث حالاً، وحال يورث عملاً، وكل من العلم والحال والعمل يختلف من مقام إلى مقام، كمقام الشكر ومقام الصبر، وغيرهما.

- وفى مقام الشكر يكون العلم بثلاثة أمور:

- بذات النعمة وكونها نعمة فى حقه.

- وبذات المنعم.

فالعلم معرفة.

* ويكون الحال مستمدًا من العلم أى المعرفة، وهو الفرح بالمنعم لا بالنعمة ولا بالأنعام ليكون شكرًا.

* ويكون العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم، وهذا العلم يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح.

* ومن أجل أن الشكر أو الحمد[1] لايكونان إلا مع نعمة، ولا يتوجه بهما الإنسان إلاّ إلى منعم، سيكون حديثنا فى فضيلة الشكر فى موضوعين:

الأول: النعمة والمنعم.

والآخر: الشكر والشاكرون.

ونسأل الله التوفيق والسداد.

الموضوع الأول: النعمة والمنعم.

أ- النعمة:

هى ما أنعم الله تعالى به على الإنسان من رزق ومال وعافية وغير ذلك مما يجعل النعمة حالة حسنة للإنسان.

ومن معانى النعمة: الصنيعة، والمِنَّة، والفضل.

ونعم الله تعالى على عباده لاتحصى من كثرتها وتنوعها.

- والنعمة هى: ما قصد به الإحسان والنفع، لا لغرض ولا لعوض.

- والنعمة طيب العيش.

- والنعمة كل خير ولذة وسعادة، وكل ما يؤثره الإنسان.

* والنعمة على وجه الحقيقة هى السعادة الأخروية، وتسمية ما سواها إما غلط ، وإما مجاز.

فالغلط هو تسمية النعمة الدنيوية التى لا تعين على الآخرة: نعمة، والمجاز فيما عدا ذلك من الإطلاقات.

* والنعم المحيطة بالإنسان تنقسم من حيث نفعها فى الدنيا والآخرة إلى أربعة أقسام:

- نعمة نافعة فى الدنيا والآخرة مثل: العلم، وحسن الخلق.

- ونعمة ضارة فى الدنيا والآخرة مثل: الجهل، وسوء الخلق،وعند التأمل والتحقيق تجدها نقمة وبلاء.

---

(١) فى كثير من تراثنا الثقافى، وتراثنا الأدبى يتبادل الحمد والشكر المواقع فيطلق أحدهما على الآخر، وبخاصة فى مجال القيم الخلقية.

- ونعمة نافعة فى الدنيا ضارة بالآخرة مثل: التلذذ باتباع الشهوات فى غير ما شرع الله كالطعام والشراب و . . . إلخ.

- ونعمة ضارة فى الدنيا ولكنها نافعة فى الآخرة مثل: قمع الشهوات، ومخالفة النفس والهوى.

* وتنقسم النعم بالنسبة إلى حجمها وكمها إلى ثلاثة أقسام هى:

- نعم نفعها أكثر من ضرها: كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب الدنيوية.

- ونعم ضررها أكثر من نفعها: كالمال الكثير والجاه الواسع، ونحوهما.

- ونعم يكافئ ضررها نفعها: كنعمة المال والصحة والعلم، إذا أنفق الإنسان ذلك فى سبيل الله.

* كما تنقسم النعم إلى قسمين كبيرين:

- نعم تعد غاية فى ذاتها وهى نعمة سعادة الآخرة، وإنما كانت كذلك لأنها تحقق أربعة نعم لا تتحقق إلا فى الآخرة وهى:

* بقاء لا فناء بعده.

* وسرور لا غم فيه.

* وعلم لا جهل معه.

* وغنى لا فقر بعده.

- ونعم تطلب لأجل الغاية الأخروية مثل:

* فضائل النفس.

* وفضائل البدن.

* وفضائل المال والجاه والأهل والعشيرة.

وتعتبر هذه النعم وسائل لأجل الغاية، ويحرص الإسلام على أن يهذب هذه الوسائل ويوجهها إلى أقوم السبل، وبيان ذلك:

- أن فضائل النفس تقوم على: تحصيل الإيمان بفرعيه الرئيسين: العلم، والمعاملة، وتقوم على: تحصيل حسن الخلق بفرعيه: الفقه، والعدل.

ففضائل النفس أربعة: العلم، والمعاملة، والفقه، والعدل.

- وفضائل البدن أربعة كذلك هى: الصحة، والقوة، والجمال، وطول العمر.

- والفضائل المحيطة بالبدن أربعة كذلك هى: المال، والأهل، والجاه، وكرم العشيرة.

ب- والمنعم:

المنعم على خلقه جميعًا بجميع النعم هو الله تبارك وتعالى.

ونعم الله تعالى على خلقه تكرُّم منه سبحانه وتفضُّل، وإقدار لهم على أداء وظائفهم التى خلقهم من أجلها، وهى عبادته سبحانه وتعالى على النحو الذى شرع.

- ومن أجل أن الله تعالى هو المتفضل غاية التفضل؛ لأنه لا منعم سواه- على وجه الحقيقة كانت عبادته سبحانه وتعالى تعبيرًا عن شكر نعمه.

وقد أمر الله تعالى عباده أن يشكروه.

* قال الله تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**﴾ [البقرة: ١٥٢]

* وقال جل وعلا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٢].

* وقال عز وجل: ﴿**فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [العنكبوت: ١٧]

- ومع طلب الله تعالى من عباده أن يشكروه، فإنه سبحانه يخبرنا أن من شكر الله تعالى فقد شكر نفسه وأحسن إليهما، لأن الله تعالى غنى عن العالمين عبادتهم كلها وشكرهم وغيره.

* قال الله تعالى: ﴿... **وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾ [النمل: ٤٠]

* وقال جل شأنه: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم: ٧].

والموضوع الثاني: الشكر والشاكرون:

أ- الشكر:

شكر الله تعالى نعمه واجب شرعًا، لايتم إيمان المؤمن إلا به، وقد طالب الله تعالى به جميع عباده حتى المصطفين منهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ [لقمان: ١٢].

بل طالب بذلك خاتم رسله وأنبيائه محمدًا، فقال عز وجل: ﴿ **بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [الزمر: ٦٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾ [النحل: ١١٤].

والله تعالى يعلم- ويخبرنا بذلك- أنه ينعم على عباده بنعمه الكثيرة لعلهم يشكرون(١).

ويخبرنا أن الشاكرين قلة وأن أكثر الناس لايشكرون.

ب- وأما الشاكرون:

فهم الذين يؤدون واجب الشكر لربهم، وهم وإن كانوا الأقل عددًا، فإنهم الأحسن حظًا والأوفر جزاءً.

وقد سجل الله تعالى ذلك فى كتابه، وفى سنة رسول الخاتم ﷺ:

أما فى القرآن الكريم، فقد جاء:

- قول الله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٧٨]

- وقوله عز وجل: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ [غافر: ٦١].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

* والشاكر لربه على نعمه يزيده الله تعالى من نعمه وفضله، بل لقد أكدت آيات القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ..** ﴾ [إبراهيم: ٧].

وأما فى السنة النبوية فقد جاء:

- ما روى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: **قال رسول الله ﷺ: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»**.

- وما روى أحمد بسنده عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال: **قام رسول الله ﷺ حتى** تورّمت قدماه، فقيل له: يارسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك فقال: **«أولا أكون عبدًا شكورًا»**.

---

(١) ورد ذلك فى أربعة وثلاثين موضعًا فى آيات القرآن الكريم حيث ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿.. لعلكم تشكرون﴾

- وما روى مسلم بسنده عن صهيب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»**.

- وما روى أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لايشكر الله من لايشكر الناس»**.

- وما روى أبو داود بسنده عن أبى بكرة - رضى الله عنه - قال: كان النبى ﷺ إذا جاء أمر يُسَرُّ به خرّ ساجدًا شكرًا لله تعالى.

- وما روى ابن ماجة بسنده عن ثوبان رضى الله عنه قال: لما نزل فى الفضة والذهب ما نزل، قالوا: فأى المال نتخذ؟ قال عمر: فأنا أعلم لكم ذلك، فأوضع على بعيره فأدرك النبى ﷺ وأنا فى أثره، فقال: يا رسول الله، أى المال نتخذ؟ فقال: **«ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر الآخرة»**.

- وما روى البيهقى بسنده عن سعد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجبت للمسلم إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر، وإذا أصابه خير حمد الله وشكر، إن المسلم يؤجر فى كل شيء حتى فى اللقمة يرفعها إلى فيه»**.

وبعد: فإن الإسلام وهو يعنى بهذه النفس وينميها ويربيها على التخلى عن الرذائل والتحلى بالفضائل؛ يرسم لها الإطار الذى تتحرك فيه، ويعودها الطاعة والالتزام بسائر ما فرض الله عليها وسائر ما ندبها إليه، إن الإسلام وهو يفعل ذلك بالنفس الإنسانية يجعلها فى حال لاتشعر فيها بالفراغ فى الوقت أو الملل فى العمل، وكلاهما من أسباب المرض.

والسؤال الملح هنا هو: كيف يتسرب المرض إلى هذه النفس، إنه يملأ النفس بهذه الفضائل التى ذكرنا لتكون النفس أجمل ما تكون وأنقى وأصفى ما تكون، وتلك هى الصحة النفسية التى كفلها الإسلام ومنهجه للمسلمين فى كل زمان ومكان.

****

ثالثا: الوسائل العملية الميدانية فى العلاج

بعد أن أنهينا الحديث عن الوسائل الروحية لعلاج النفس، إذا أصابها مرض نفسى أو قلبى أو خلقي، أو ضحنا هناك أن العلاج يقوم على عملين جليلين هما:

- تنقية النفس وتخليتها من الشوائب والأكدار والرذائل، التى من شأنها أن تجلب إلى النفس المرض والضيق والكدر.
- وتزويد النفس بالزاد الروحى وتحليتها بالفضائل، لتزداد بذلك من الله قربًا ومن مودة الناس حبًا وأخوة، وتزداد من الأمراض النفسية بعدًا.

بعد أن تحدثنا فى ذلك الجانب الروحى من علاج النفس الإنسانية التى تتعرض للمرض إن هى لم تأخذ بالتخلى عن الرذائل والتحلى بالفضائل، آن لنا أن نتحدث عن الجانب العملى الميدانى فى تربية النفس لكى تسلم من الأمراض.

* وهذا الجانب العملى الميدانى من العلاج له وسائله العديدة المتكاملة المستوعبة القادرة بفضل الله على إقصاء المرض النفسى، وفتح الأبواب العملية الميدانية على مصارعيها لتتحرك فيها النفس ثقافيًا وسياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وفنيًا وأدبيًا وعلميًا، لتعبر عما بها من قدرات وطاقات مستلهمة فى تحركها ذلك دينها ومنهجه ونظامه، متمسكة بقيمه وأحكامه، فلا يعرف إليها المرض طريقًا، وكيف يمرض من كان حرًا طليقًا مصون الحقوق والواجبات؟

إن المرض النفسى يعرف طريق القابعين الساكنين الخائفين غير الآمنين على حقوقهم وحرياتهم وما يعملون وما يملكون.

إن المرض النفسى يعرف الطريق إلى الذين يحسون بالذل والمهانة فى نظام الحكم الباطشن الذى لايحتكم إلى دين ولا إلى قانون ولا إلى قيم خلقية، وإنما يملك تغيير كل ذلك كلما اشتهى الحاكم الظالم أن يغير، وكلما اشتهت حاشيته وجلادوه أن يعدلوا القانون ليحتفظوا لأنفسهم بالمال والجاه والسلطان، فهم عيون الظالم وأبواقه ومروجو باطله، وهم يده الباطشة وكلابه المسعورة.

فلا شيء يقف أمام ظلمهم وبطشهم، ولا مجموعات من الناس تملأ سجونهم ومعتقلاتهم، وأدوات التعذيب وآلياته التى يشهرونها فى وجوه الناس إن قالوا: لا لأى باطل من باطلهم.

إن هؤلاء هم الذين تعرف الأمراض النفسية بل العقلية طريقها إليهم وتصليهم نيرانها وتذيقهم من وبالها.

* ولقد نكب العالم الإسلامى والعالم العربى فى نصف القرن الأخير بأنظمة حكم باطشة بالحقوق، ناهشة للحريات، مهمشة لكل أصحاب الفكر وكل أهل العلم إلا أن يوظفوا فكرهم وعلمهم لخدمة الباطشين وتبرير جورهم وجرائمهم من خلال كل ما تملك هذه الأنظمة من أجهزة الإعلام ووسائله، حتى لقد أصبحت أجهزة الإعلام ووسائله عنوانًا لنفاق الحاكم الظالم، وعلامة بارزة من علامات قهره وترويعه لكل من يفكر فى الخروج من قائمة المنافقين، ولا أريد أن أستطرد فى هذا الحديث الشجى الذى يعرفه الناس جميعًا، ولكن الخوف يلجمهم أن يقولوا كلمة الحق فى وجه السلطان الجائر..

هذا الجانب العملى الميدانى من علاج النفس المريضة فكرت مليًا فى وسائله ومفرداته ونظرت فيها طويلاً وتدبرت ما ينطوى عليه من قدرة على العلاج من الأمراض النفسية- أمراض العصر- فجمعت منها بعد تفكير عميق خمسًا وعشرين وسيلة، يسهم كل منها فى العلاج، فإذا أخذ بها حالت بين النفس والمرض أولاً، ثم عالجت ما كان منها مريضًا فاستأصلت مرضه.

* وهذه الوسائل عند التدبر فيها نجدها جميعًا من مفردات المنهج الإسلامى فى تربية النفس الإنسانية، وهى فى ذات الوقت قيم إسلامية رفيعة طولب المسلمون بالتمسك بها من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وهذه الوسائل العملية الميدانية هى على سبيل السرد:

١- العبادات التى خلق الله الإنس الجن من أجلها.

٢- وارتياد المساجد والتعلق بها.

٣- والتعلم والعلم والتعليم.

٤- وعقد الصلات بالعلماء والصالحين.

٥- وإجادة العربية لغة الكتاب والسنة.

٦- وإجادة لغة أو أكثر مع العربية.

٧- والاختلاط بالناس والتعاون معهم.

٨- وصلة الأرحام وحسن التعامل مع الجيران.

٩- والقيام بأعمال منزلية دعمًا للمودة والتعاون.

١٠- والتآخى فى الله وفى الدين.

١١- وإجادة التعامل مع وسائل التقدم العلمى والتقنى.

١٢- والإسهام فى محو أمية بعض الأميين.

١٣- وممارسة الدعوة إلى الله وإلى الدين الحق.

١٤- والمشاركة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

١٥- والقيام بأعباء الحركة بالدين فى الناس والآفاق.

١٦- وممارسة الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

١٧- والعمل على تكوين البيت المسلم.

١٨- ورعاية الأبناء وتربيتهم تربية إسلامية.

١٩- وعدم الوقوع فى سجن الوظائف الحكومية.

٢٠- والمشاركة فى الأنشطة الاجتماعية.

٢١- والمشاركة فى الأنشطة النقابية أو المهنية.

٢٢- والمشاركة فى الأنشطة السياسية.

٢٣- والمشاركة فى الأنشطة الثقافية.

٢٤- والمشاركة فى الأنشطة الفنية.

٢٥- والمشاركة فى الأنشطة الرياضية.

* وهذه الوسائل فى إيجاز هى:

١- العبادات التى خلق الله الإنس والجن من أجلها:

عبادة الله تعالى عمل وظيفى للإنسان السوى الذى يتمتع بالصحة النفسية وسلامة القلب ونقائه.

وعبادة الله تعالى عمل علاجى لكل أمراض النفوس والقلوب، ما إن يواظب الإنسان عليه حتى يبرأ من أى مرض نفسى.

وكل ما تحتاجه عبادة الله لكى تذهب المرض النفسى هو أن تؤدَى كما شرع الله، وأن يعى الإنسان مايقول فيها وما يفعل.

* وعبادة الله تعالى قسمان كبيران:

أحدهما: ما فرَضه الله على عباده من فرائض تبدأ بالنطق بالشهادتين والعمل بمقتضاهما، وصلوات، وصوم، وزكاة، وحج، وجهاد في سبيل الله تعالى، وكل ما أمر الله تعالى به، وكل ما فرض الله على عبده أن يجتنبه، من قول أو عمل.

والآخر: ماندب الله تعالى إليه عباده من عمل صالح من جنس ما فرض عليه غالبًا كالذكر والدعاء ونوافل الصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر ما فرضه سبحانه فندب إلى عمل من جنسه.

* وهذه العبادات بقسميها يجب أن تكون شاغلة لوقت الإنسان قادرة على ملء أى فراغ يعرض له، بحيث لايجد نفسه بلا عمل أى فى فراغ قد يجر عليه المرض النفسى والخواء الروحى.

* ومن رحمة الله تعالى بالإنسان أن جعل عمله من أجل كسب رزقه وسعيه من أجله عبادة واجبة لايستطيع أن يقعد عنها، بل من رحمته أن جعل تناول الطعام والشراب وجمال الملبس والمسكن عبادة، بل جعل الصلة الزوجية عبادة، وكل هذه العبادات لاتحتاج فى أدائها إلا إلى النية وإخلاص التوجه بها إلى الله تعالى.

- وطلب العلم عبادة والبحث العلمى والتفوق فيه عبادة، وتعليم الناس عبادة سواء أكان التعليم لأمر من أمر الدين أو أمر من أمور الدنيا، وكل ما طالب الله تعالى به على سبيل الفرض أو الندب عبادة.

- والعبادة لله تعالى وفق ما شرع تحقق للفرد والأسرة والمجتمع أقصى درجات النفع فى الدنيا وفى الآخرة، ولذلك شرع الله تعالى عبادته وخلق من أجلها الإنس والجن، وأنعم هذه النعم العميمة ليتمكن الإنسان من عبادة الله تعالى.

- إن المجتمع المسلم كله مشغول بعبادة الله فى عمله وجده، وراحته وترويحه عن نفسه، وفى بيته مع زوجه وأبنائه، وقد وجه الرسول ﷺ إلى ذلك فى أكثر من حديث نبوى شريف، منه:

- ما رواه ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله سبحانه: يا ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنًى، وأسدّ فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك**».

والتفرغ للعبادة يعنى التفرغ للقيام بأداء كل ما أمر الله به، والامتناع عن كل ما نهى عنه.

- وروى البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**».

والمعنى: أن من استعمل صحته وفراغه فى عبادة الله وطاعته فهو المغبوط- أى المسرور- ومن استعملهما فى معصية الله تعالى فهو المغبون- أى الخاسر -.

* وهذه النفوس المشغولة بعبادة الله تعالى، وتلك القلوب المقبلة على عبادته سبحانه وتعالى، كيف يتسرب إليها مرض نفسى أو قلق أو اضطراب فى القلب، وكيف يجد الإحباط والاكتئاب والصراع سبيلاً إلى هذه النفوس والقلوب؟

إن الشيطان الموسوس بالأمراض النفسية القلبية وأسبابها لن يجد فى هذه النفوس والقلوب مساغًا لكى ينفث فيها سمومه لأنها نفوس مؤمنة وقلوب عامرة بالحب والرضا؛ من خلال ممارستها لعبادة الله تعالى.

هذا نشاط عملى ميدانى للنفس يغلق دونها أبواب المرض النفسى.

٢- وارتياد المساجد والتعلق بها:

المساجد كما يعلم المسلمون هى بيوت الله تعالى، ومرتادو المساجد ضيوف الله تعالى، ولايتصور مسلم أن الله تعالى لايكرم ضيفه فى بيته، فمرتاد المسجد مرفود بكرم الله تعالى وظاهر نعمه عليه وباطنها.

- ومرتادو المساجد فى كل عصر من عصور المسلمين ومنها عصرنا هذا- على الرغم مما شاع فيه مما لايرضى الله تعالى- لهم سمت خاص بهم غلفتهم به وجملتهم بسببه روح المسجد، ولهم طابع يميزهم يبدو عليهم، وتسهل قراءته لكل ذى بصيرة، جاءهم من معنى المسجد وشرفه ومكانته فى نفوس المسلمين.

- ووظائف المسجد معروفة للمسلمين جميعًا أبرزها أداء الصلوات الخمس فيه، وأداء عبادات الذكر لله تعالى، وتسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله، وصلاة الجمعة من وظائف المسجد الأسبوعية، وفيها خطبة الجمعة.

- وخطبة الجمعة عند من يعرف جوهرها ويعلم أهدافها أهم عمل أسبوعى يفيد منه المسلمون فى دينهم ودنياهم، وليجازِ الله تعالى بما يشاء من الجزاء أولئك الذين حولوا خطبة الجمعة إلى نفاق الحكام وتبرير سيىء أعمالهم. إن خطبة الجمعة عظة أسبوعية تزيد من اتصال المؤمنين بربهم وتوقظ فيهم الغيرة والحمية لدينهم، وترسم لهم معالم الخير والبر، وتحذرهم من الشر والأشرار والشياطين.

- وإن خطبة الجمعة تعلم المسلمين من أمور دينهم وأحكامه وآدابه وقيمه ما فيه حياتهم وسعادتهم، وتبصرهم بقضاياهم على مستوى عالمهم الإسلامى كله- من منطلق أن المسلمين جميعًا فى العالم كله - مهما اتسع- أمة واحدة، ربها واحد، ودينها واحد، وقبلتها واحدة، وأهدافها واحدة.

* وفى ارتياد والمسجد والتعلق به تعارف بين المسلمين يؤدى إلى تآلفهم، وتعاونهم على البر والتقوى، وعلى غوث اللهيف منهم، ومساندة الضعيف، ودعم الأخوة والمودة بين المسلمين.

* ولايعمر مساجد الله إلا من آمن بالله واليوم الآخر، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله، وعمار المساجد أرفع درجة وأعلى منزلة، وأجدر أن تكتب لهم خطواتهم إلى المسجد، وأن تكفر عنهم سيئاتهم، وفى تأكيد ذلك وردت آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة، ونذكر من ذلك:

- قول الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾ [التوبة: ١٨].

- وقوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ [الأعراف: ٣١].

- وما رواه ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا توضأ أحدكم فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لاينهزه إلا الصلاة، لايريد إلا الصلاة؛ لم يَخْطُ خطوة إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه خطيئة حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد كان فى صلاة ما كانت الصلاة تحبسه**».

- وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما توطّن[١] رجل مسلم المساجد للصلاة والذكر إلا تبشبش الله له، كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم**».

(١) توطن المكان: اتخذه محلاً ووطنًا، والمسلم الذى يرتاد المسجد خمس مرات فى اليوم والليلة غير الاعتكاف، كأنه اتخذ المسجد موطنًا وأقام فيه.

- وروى ابن ماجة بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾** [التوبة: ١٨].

* ومن كان قلبه معلقًا بالمساجد،

ومن كان يعمر المساجد بالإيمان والصلاة و. . . ،

ومن كان له فى كل خطوة يخطوها نحو المسجد درجة،

ومن حُطَّت عنه خطيئته وهو يسعى إلى المسجد حتى يدخله،

ومن كان فى صلاة ما كانت الصلاة تحبسه فى المسجد،

ومن حظى بأن يتبشبش الله تعالى لـه أى يبش له ويسر بوجوده، مَنْ كان كذلك فكيف يجد المرض أو النفاق أو الاكتئاب أو الإحباط طريقًا إلى نفسه؟

* أى تعبير عن شخصية المسلم ونوازع الخير فيه يجد له مجالاً ملائمًا كالمسجد، إن المسلم بهذه الفرص والظروف التى أتاحها له المسجد لابد أن يكون رابحًا فى دنياه تعارفًا وتآلفًا وحبًا وأخوة مع إخوانه فى المسجد، ولابد أن يكون رابحًا فى أخراه رضا ربه سبحانه وتعالى، فمن أسعد من هذا المسلم الذى اعتاد المساجد وتعلق بها قلبه؟

فهل يتصور أن تمرض نفس المؤمن وهى تعيش بسبب المسجد أسعد حياة؟

٣- والتعلم والعلم والتعليم:

* التَّعَلُّم: طلب العلم، والعلم أعم من أن يكون علمًا بأمور الدين وحدها، وإنما يدخل فيه طلب العلم لأمور الدنيا، لأن الدين والدنيا متلازمان فى حياة المؤمن، فالدين ينظم الدنيا، والدنيا تمارس فيها نظم الدين وآدابه وقيمه.

والتعلم واجب شرعًا على كل مسلم إن كان كبيرًا فواجبه الشخصى، وإن كان صغيرًا فواجب وليِّه، وحسب الأمة الإسلامية شرفًا أن أول مانزل من كتابها الخاتم: «اقرأ. . ».

* والعلم: تحصيل وفهم واستيعاب ونظر وتأمل وتدبر وسير فى الأرض.

* والعلم أشرفه العلم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وسيرته، ثم العلم الذى هو مجموعة المعارف المتكاملة والمبادئ والكليات العامة المتعلقة بحقيقة ظاهرة معينة، ويقوم هذا العلم على الملاحظة والتجربة ولاتدخل فيه الميول أو الآراء الشخصية.

ويمهد العلم السبيل إلى العمل، ويساعد الإنسان على تأمين حاجاته بصورة أفضل، كما أن العلم بهذا المعنى يقى الإنسان من كثير من المخاطر التى قد تهدد حياته الفردية أو الأسرية أو الاجتماعية.

والعلم بهذا المعنى مطلب دينى مادام به درء المضار وجلب المنافع، والقعود عنه معصية لله تعالى ولرسوله ﷺ.

* والتعليم: نقل المعلومات من المعلم إلى المتعلم، بقصد إكسابه ضروبًا من المعرفة، ويدخل فيه تعليم الدين، وتعليم الأخلاق، وتعليم العلم، وتعليم الحرف والصناعات.

والتعليم واجب كل مسلم أنعم الله عليه بالعلم تقربًا إلى الله تعالى، ولايملك مسلم أن يُسأل عن علم يعلمه فيضن به على السائل أو يكتمه عنه، فهذا الكتمان للعلم هو ما حرم رسول الله ﷺ.

* ومؤسسات التعليم فى الإسلام كثيرة أهمها:

- البيت،
- والمسجد،
- والمدرسة بكافة مستوياتها.

والمجتمع كله وبخاصة ما نطلق عليه اليوم المجتمع المدنى، جمعياته وجماعاته ومؤسساته.

- والتعليم واجب الحكومة، وهو حق للمواطن.

* وتطوير التعليم وتحسينه وتمكنه من السيطرة على المتغيرات، وقدرته على الاكتشاف فى مختلف المجالات، واجب الفرد والأسرة والمجتمع المدنى والدولة.

* ومَنْ كان مشغولاً بالتعليم والوصول فيه إلى أعلى مستوى يؤهله له ذكاؤه وقدراته.

* ومن كان مشغولاً يملك عليه العلم كل وقته أو معظمه.

* ومن كان مشغولاً بتعليم غيره ما مَنَّ الله عليه به من علم.

* ومن كان حريصًا على أن يصل بالعلم إلى أعلى مستوياته، وأن يسخر العلم لجلب المنفعة ودرء المفسدة.

* مَنْ كان كذلك فكيف يتسرب إلى نفسه المرض أو إلى قلبه الخواء والصدأ، أو إلى فعله الفتور والكسل؟

* إن هذه الأمراض النفسية والقلبية والعقلية إنما تجد بيئتها عند اللاهين الفارغين، أما المشتغلون بالتعلم والعلم والتعليم، فهيهات أن تجد إليهم هذه الأمراض سبيلا!

٤ - وعقد الصلات بالعلماء والصالحين:

هذا العمل من الأعمال المحمودة التى تحقق لصاحبها فوائد كبرى فى أمور الدين والدنيا معًا، لأن هؤلاء العلماء وهؤلاء الصالحين خبرات كبيرة، لا ينبغى إغفال القرب منها والاستفادة من خبرتها، وسؤالها والتحاور معها، وهذا العمل ضرورى للوصول إلى الصحة النفسية من جانب، وإلى البعد عن المرض النفسى والقلق من جانب آخر.

وهذه الصلات أو الزيارات لهؤلاء العلماء والصالحين، مما حبب إليه الإسلام فى باب الاختلاط بالناس، الذى سنتحدث عنه فى النقطة السابعة من نقاط الوسائل العملية الميدانية فى العلاج.

* والعلماء والصالحون من الناس في كل مجتمع هم المصابيح التى تشع النور والوعى فى المحيط الذى يعيشون فيه.

نور ووعى يتمثل فى صلاحهم وتقواهم وعلمهم، وحرصهم على العمل والإبداع، والتضحية بالوقت والجهد، وبذل العلم.

- والصالحون صفة لهم لم يدعوها، ولم يصفهم بها المنافقون، وإنما هى صفة دل عليها عملهم وسلوكهم، وأخلاقهم، وتمسكهم بالحق، وتحليهم بالفضائل، وغيرتهم على الدين وقيمه.

- والعلماء كذلك لم يمنحوا هذه الصفة بدعاويهم أو ادعائهم العلم، وإنما شهد لهم بها ما قدموا للعلم من إضافات وابتكارات.

* وكل مسلم مطالب أن يبذل فى علمه أقصى ما يستطيع من جهد ليصل إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه فى مجال تخصصه، مع التزامه بالإحسان والإتقان والإخلاص.

* والمسلمون جميعًا مطالبون بأن يسعوا إلى العلماء والصالحين، وأن يسمعوا منهم، ويعرفوا منهم ما ينفعهم فى دينهم، ودنياهم، وأن يستنصحوهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

* ومحاولة عقد الصلات بهم وزيارتهم بعد استئذانهم عرف جرى عليه المسلمون فى مختلف أزمانهم.

والزائر لهم طالب علم منهم، وطالب العلم فى الإسلام له أدبه المعروف مع أستاذه، وهو أدب يوفر للأستاذ الاحترام والتقدير والحب، بل يتطلب تنزيلهم منزلة الآباء، بدليل ما رواه أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطيب بيمينه..»**

- وتواصل أجيال المسلمين فى الاتصال بالعلماء والصالحين منهم مطلب إسلامى يدخل فى طلب العلم.

* والصالحون من المسلمين هم الذين استوت سريرتهم وعلانيتهم الذين لازمتهم الاستقامة على أحكام دين الله وآدابه وقيمه ومنهجه ونظامه، فهم للمسلمين بمنزلة الوالد لولده.

- ومنهم مصلحون مجددون لأمر الدين على رأس كل مائة سنة، وما أسعد مَنْ وفقه الله إلى الجلوس إلى واحد منهم؛ فاستمع إليه وعمل بما نصحه به.

- والصالحون فى المجتمعات الإسلامية لهم وجود، وقلما يخلو مجتمع مسلم على امتداد العالم الإسلامى كله من واحد منهم أو أكثر، وما أسعد من جلس إلى أحدهم مجلس التلميذ من الأستاذ والولد من الوالد.

* ومجالس العلماء فى تاريخ أمتنا الإسلامية لم تنقطع فى أى حقبة من حقب تاريخها مهما ضيق عليها، ومنعها الحكام الطغاة فى زمان بعينه أو مكان بعينه، وبخاصة فى عصرنا هذا الذى تجرم فيه حكومات الظلم مجالس العلماء والصالحين، وتقبض عليهم وتحاكمهم وتدينهم وتحكم عليهم بقوانين الطوارئ؛ لأن الظالمين أعداء العلم وأعداء الإصلاح، وأحلاف الجهل والفساد والإفساد.

* وللصلات بالعلماء والصالحين والمصلحين آداب أقرها الإسلام أود أن أشير إلى بعضها للتذكير بها، ومن ذلك:

- أن يستأذنوا قبل الزيارة وأن يوافق العلماء على الزيارة.
- وأن يستأنس إليهم فى الزيارة بمن يعرفون، ومن يثقون فيه.
- وأن يكون السؤال والحوار متفقًا مع آداب الإسلام فى السؤال والحوار مع الأستاذ أو مع الوالد.

- وأن يكون وقت الزيارة محددًا بالساعة واليوم، وأن تكون مدة بقاء الزائرين متفقًا عليها سلفًا.

- وأن يكون هدف الزيارة لله؛ لدينه ودعوته والحب فيه حتى يحظى الزائر والمزور بثواب الله تعالى ورضاه، فقد روى أحمد بسنده عن عمرو بن عبسة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قد حقّت محبتى للذين يتحابون من أجلى، وحقّت محبتى للذين يتصافحون من أجلى، وحقت محبتى للذين يتزاورون من أجلى، وحقت محبتى للذين يتناصرون من أجلى**».

* وبعد: فإن هذه الزيارات عمل من الأعمال الصالحة التى حبب فيها الإسلام؛ لما فيها من إحياء سنة التعارف بين المسلمين، ولما فيها من ثواب مدارسة العلم وسؤال العلماء وتوقيرهم واحترامهم.

- وهذه الزيارات سوف تشغل حيزًا من وقت الزائر والمزور، وسوف تعود عليهم جميعًا بثواب الله تعالى ورضاه.

- ومايقوم بهذه الزيارات إلا الصالحون الجادون المخلصون من طلاب العلم الذين يرغبون فى التزود بالعلم والخبرة.

- ولايقبل هذه الزيارات إلا العلماء العاملون والصالحون والمصلحون المجددون الذين يحبون الخير للمسلمين.

* وهؤلاء وأولئك أبعد ما يكونون من الأمراض النفسية، لأن نفوسهم نقية وقلوبهم سليمة وأخلاقهم قوية، لأنهم متعلقون بما ينفعهم فى دينهم ودنياهم، وهم بذلك أصفى قلوبًا وأرق أرواحًا وأنقى نفوسًا، فهم بذلك أبعد عن جمود القلب وقسوته وغفلته، فإن كان شىء من ذلك قد وصل إلى النفس فأمرضها، وإلى القلب فقسّاه، فإن هذه الزيارات علاج لهذه الأمراض.

٥- وإجادة العربية لغة الكتاب والسنة:

اللغة العربية شرّفها الله تعالى بأن اختارها لينزل بها آخر كتبه السماوية القرآن الكريم على آخر رسله وخاتمهم محمد ﷺ.

ولابد أن هذا الاختيار له أسباب عديدة تتصل بمكانة هذه اللغة بين لغات الأرض، وقد أفاض العلماء فى الحديث عن هذه المكانة وأحسنوا وأجادوا، نسأل الله تعالى أن يحسن إليهم بما فعلوا.

* ولأن العربية لغة الكتاب والسنة كان على كل مسلم أن يجيد العربية قراءة وكتابة وتحدثًا، لكى يحسن قراءة الكتاب والسنة وفهم ماجاءا بهما من علم وتشريع وأحكام وآداب.

غير أننا نحب أن نفرق فى وجوب إجادة العربية بين نوعين من المسلمين:

أحدهما: المسلم العربى اللسان.

والآخر: المسلم الذى له لغة غير العربية نشأ فيها.

فالأول: عليه أن يجيد العربية إجادة تمكنه من فهم القرآن الكريم والسنة النبوية، حتى لايستغلق عليه فهم الدين.

والآخر: عليه أن يعرف من العربية ما يؤدى به الصلوات المكتوبة؛ لأن الصلاة لاتجوز بغير العربية والقرآن الكريم لايتعبد به بغير العربية.

* واللغة العربية بوصفها لغة الكتاب والسنة لقيت حربًا ضارية من أعداء الإسلام، وبخاصة فى داخل العالم العربى، مستهدفين تشويه اللغة وعزلها عن اللسان العربى لعزل الكتاب والسنة عن حياة المسلمين.

- وتلك حملة ضارية خاض فيها المستوطنون الإنجليز والفرنسيون فى القرن التاسع عشر الميلادى، ثم اتسعت الحملات فدخل فيها الألمان والإيطاليون والهولنديون والإسبان، ثم كان لأمريكا قصب السبق فى حرب العربية وكل ما هو إسلامى.

والعالم العربى فى القرنين الميلاديين الأخيرين يعيش أضعف عصوره السياسية والاقتصادية والثقافية.

وأعداء العالم العربى والإسلامى فى هذين القرنين أقوى ما يكونون سياسيًا، واقتصاديًا وثقافيًا.

- وهذه الدول المعادية للعربية تضع الخطة القاتلة للعربية أو التى تخملها وتزاحمها بلغات أجنبية، ولا تملك حكومة عربية أن تعترض وهى تابعة سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا لإحدى هذه الدول المعادية.

* وجاءت خطتهم فى محاربة اللغة العربية من خلال خطوط رئيسة يمكن أن نشير إلى أهمها فيما يلى:

- تشويه مناهج اللغة العربية فى المدارس بحيث لاتستطيع أن تمكن دارسًا من إجادتها!

- وإدعاء صعوبة نحوها وصرفها وقواعدها!!

- واعتماد العامية لغة للتدريس فى مختلف المقررات الدراسية.

- ومزاحمة اللغة العربية باللغات الأجنبية منذ السنوات الأولى فى التعليم.

- والدعوة إلى اتخاذ العامية لغة قراءة وكتابة.

- وفرض إنشاء مدارس أجنبية فى الوطن العربى وإعطاء المتعلمين فيها من الفرص ما يقضى على تكافؤ الفرص بين المواطنين.

- ثم فرض إنشاء جامعات أجنبية فى كثير من الأوطان العربية.

- وفرض لغة المستوطن للبلد العربى على أبناء البلاد، كما حدث ذلك فى المغرب العربى وسيادة الفرنسية، وفى ليبيا الإيطالية، وفى سوريا ولبنان الفرنسية، وفى فلسطين والأردن والعراق والسودان ومعظم دول الخليج الإنجليزية.

وفى مصر: الإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها!!

- وتقسيم المبعوثين للدراسات العليا فى الخارج ما بين فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإسبانيا، ثم أمريكا وكندا، وكلها دول تعادى الإسلام عيانًا بيانًا، وتعادى لغته تبعًا لذلك.

- ثم قصر كثير من الوظائف المرموقة فى الحكومات أو فى الشركات على من يجيدون اللغات الأجنبية.

- وإغراء كثير من حكام العالم العربى على تربية أبنائهم فى مدارس أجنبية خارج الوطن العربى، وليس موضعًا للجدل أن اللغة وعاء الفكر، وأن حكام المستقبل يفكرون بلغات أجنبية، وتاريخنا يشهد بذلك ويؤيده.

- وإغراء كثير من أبناء الطبقات الموسرة أو المتعلمة بالزواج من أجنبيات، وشخصيات أبناء الأم الأجنبية لابد أن يكون ولاؤهم للغة الأم وثقافتها وفكرها، فأين العربية فى هؤلاء الأبناء، إن كثيرًا منهم ينطق العربية كما ينطقها الأجانب.

- وإذا كانت تلك الحملات الضارية ضد اللسان العربى لسان الكتاب والسنة، فإنهم قد نجحوا فى ذلك نجاحًا لاينكره إلا مكابر.

- وأكبر آفاتنا فى العـالم العربى بالنسبة للغتنا- أن أجـهزة الإعلام فى معظم الأوطان؛ المسموعة والمرئية، لاتتحدث العربية الفصحى إلا فى القليل النادر[١]، وتشترط أجهزة الإعلام عند تعيين مذيعين أن يجيدوا لغة أجنبية أو أكثر، ولايشترطون إجادة العربية، بدليل أن أخطاء المذيعين أكثر من أن تحصى.

* ولابد أن ينال الأزهر قـدرًا من الحرب بوصـفه معـقلاً للمـحافظة على عـلوم الإسلام، وللمحـافظة على لغة القرآن الكريم والسنة النبـوية المطهرة، وقد ناله من هذه الحـرب ما ناله، وإن شئت فاسمع اليوم بعض المتخرجين فى الأزهر بعد العبث بمناهجه لترى كيف يجيد اللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

إن قـصة حـرب القوى المعـادية للإسـلام للأزهر تحتـاج إلى ديوان شـعر وإلى رسـائل ومقالات ومقامات وقصص ومسرحيات، لتعرض لبعض هذه الحرب الضروس.

* وإجادة العربيـة لغة الكتاب والسنة مطلب دينى عربى، ولابد من الاعـتراف بالوقوع فى مأزق إخمال الـعربية أولاً دون مكابرة أو مغالطة، ثم لابد من علاج مـن خلال الجهود الشخصية للناس، دون انتظار لجهود الحكومات.

والحكومات لن تفعل شيئًا لصالح الإسلام إلا مكرهة أو مضغوطًا عليها ضغطًا داخليًا أو خارجيًا، ولايدعى أحد أن الحكومات ستـصلح وتعمل لصالح الإسلام ولغته إلا جاهل أو منافق أو جبان يخشى الاعتقال والتعذيب فى جوانتاناموات العالم العربى.

وعلى سبيل المثال:

فإن بلدًا كمصر أكبر البلاد العربية عددًا وأكثرها ثقافة ومتعلمين تعليمًا عاليًا، والتى تتميز بأن فيها الأزهر حصن الإسلام ولغته، أصبح فيها جامعات أجنبية عديدة هى:

جامعة أمريكية،

وأخرى بريطانية،

وثالثة فرنسية،

ورابعة ألمانية،

---

(١) من العجيب اللافت للنظر المؤسف أن هيئة الإذاعة البريطانية وهى بكل تأكيد غير عربية لا تسمع من مذيعيها أخطاء فى العربية إلا فى القليل النادر، كـما تسمع الصواب فى العربية فى إذاعـات العالم العربى فى القليل النادر أيضًا؟!! وتعجب ماشئت.

وخامسة روسية، وسادسة وسابعة.. إلخ، ومالا يحصى من جامعات أجنبية، ولا تملك الحكومة المصرية أن ترفض طلبًا بافتتاح جامعة أجنبية، أما فتح جامعة مصرية أو عربية فإن أمامه عشرات العقبات، أو مثاتها، وياويل من يفكر فى فتح جامعة إسلامية، إنه يضع نفسه ومستقبله وأسرته حتى آخر درجات القرابة وأصدقاءه، وجيرانه، يضع كل ذلك فى قبضة أمن الدولة وهى قبضة حديدية تحاكم الجينات وكل عناصر الوراثة لمن فكر فى هذه الجامعة، وتقدمه لمحاكمة عسكرية كأنه جندى هارب من الجيش أو إرهابى ضبط متلبسًا بمقاومة قوات التحالف فى أفغانستان أو العراق، أو ناويًا أن يقاوم ظلم إسرائيل للفلسطينيين؛ والعالم يسمع ويرى!! أو إسلامى يحاول الوصول إلى السلطة من خلال صناديق الاقتراع!

وبعد: فإن إجادة اللغة العربية لغة الإسلام علاج للمرض النفسى والصدأ القلبى، وعلاج لمرض ضعف الانتماء والانحراف فى الولاء بموالاة الأعداء.

إن من يفعل ذلك يشغل وقته بما يفيد وينفع، وينفى عن المجتمع ضعفه وتخاذله، وينفى عن النفس مرضها واكتئابها وإحباطها، وحسب إجادة اللغة العربية مكانة وشرفًا أنها تمكن من أجادها من فهم القرآن الكريم وسنة النبى ﷺ، لأن معنى ذلك أنه سوف يربح الدين والدنيا معًا.

٦- وإجادة لغة أو أكثر مع العربية:

تعلم لغة أجنبية أو أكثر مع إجادة العربية؛ لم يعد اليوم تجملاً ولاتزيدًا فى معرفة اللغات، وإننا عند النظر إلى اتساع رقعة العالم الإسلامى نجد تعلم لغة أجنبية أو أكثر هو استجابة للتعامل مع واقع المسلمين فى العالم اليوم، فقلما تجد بلدًا إسلاميًا إلا وفيه لغة أو أكثر غير لغته الأم ولغة الإسلام.

ولاتجد اليوم بلدًا عربيًا يخلو من أجنبى يعد التعامل معه ضرورة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، وعلى المسلم ألا يحجم عن التعامل مع هؤلاء، ومحاولة تنقية أفكارهم مما علق بها من مغالطات عن الإسلام وعن لغته العربية، فإن ذلك من صميم الدعوة إلى الله، ومن الواجبات الشرعية.

* وإذا أضفنا إلى ذلك أن أعداء الإسلام وأعداء العرب يكتبون عن الإسلام والعرب ما يشوه الإسلام ويقلل من شأن العرب ويكيل لهؤلاء وأولئك التهم والمفتريات، من أجل ذلك كان تعلم بعض المسلمين لغة أجنبية أو أكثر من الضرورات الدينية والقومية والسياسية.

* ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد طلب من بعض الصحابة رضى الله عنهم أن يتعلم لغة يهود وكتابتهم العبرانية أو السريانية، وقد علَّل رسول الله ﷺ طلبه ذلك بأمرين:

الأول: أنه لايأمن يهود على كتابه.

والآخر: أنه تأتيه كتب لايحب أن يقرأها كلُّ أحد.

فقد ذكر ابن سعد(1) فى كتابه: «الطبقات الكبرى» عن ثابت بن قيس بن عبد الله عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنه يأتينى كتب من أناس لا أحب أن يقرأها أحد، فهل تستطيع أن تَعَلَّم كتاب العبرانية؟»** أو قال: **«السريانية»**.

فقلت: نعم، قال - زيد رضى الله عنه-: فتعلمتها فى سبع عشرة ليلة.

وفى رواية أخرى لابن سعد أيضًا عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال لى: **تعلم كتاب اليهود فإنى والله لا آمن اليهود على كتابى** قال: فتعلمته فى أقل من نصف شهر.

- وأخرج أبو يعلى وابن عساكر بسنديهما عن زيد رضى الله عنه قال: أتى النبى ﷺ مقدمه المدينة، فقالوا: يارسول الله: هذا غلام من بنى النجار، وقد قرأ مما أنزل عليك سبع عشرة سورة، فقرأت على رسول الله ﷺ فأعجبه ذلك فقال: **«يازيد، تعلم لى كتاب يهود، فإنى والله ما آمن يهود على كتابى»** فتعلمته فما مضى لى نصف شهر حتى حذقته، فكنت أكتب لرسول الله ﷺ إذا كتب إليهم، وأقرأ كتابهم إذا كتبوا إليه.

وبعد: فهذا جانب من جوانب النشاط العملى الميدانى الذى يقوم به المسلم فى المجتمع الذى يعيش فيه ليكون على علم بما يقوله الأجانب عن الإسلام والمسلمين، يتعلم لغتهم ليقرأ ما كتبوا وليرد ويتصدى لإبطال هذه المفتريات والأكاذيب، فيجد نفسه دائمًا مع الحق ومع هذا الدين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه تنزيل من حكيم حميد.

(1) هو محمد بن سعد بن منيع الزهرى- مولاهم- (١٦٨-٢٣٠هـ/ ٧٨٤ - ٨٤٥م) مؤرخ ثقة من حفاظ الحديث النبوى، ولد بالبصرة وسكن بغداد وبها توفى.

وقد صحب الواقدى المؤرخ وكان يكتب له فسمى: كاتب الواقدى. ومحمد بن سعد من أهل العدالة، كما وصفه الخطيب البغدادى فى كتابه« تاريخ بغداد».

ومن أشهر كتب ابن سعد كتابه: طبقات الصحابة الذى سمى : «الطبقات الكبرى»: ٣/ ٦٨٧ط لجنة نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة: ١٣٥٨هـ- ١٩٣٨م.

- وما بالنا بنفس من يتصدى للدفاع عن دينه، هل يرد على تلك النفس مرض من الأمراض النفسية؟ مثل: الاكتئاب أو الإحباط أو الكبت أو الصراع أو القلق أو الإحساس بالقهر.

هل يمكن للنفس التى تتصدى لمناقشة هؤلاء المبطلين أن تشعر بالدونية أو الانهيار؟

وهل يمكن أن تشعر بالاستعلاء وبأنها أفضل البشر والأقوى والأغنى والأقدر والأعلم؟

وهل يمكن أن تشعر بأنها يجب أن تخضع لها الدنيا من أقصاها إلى أقصاها، والويل عندها لمن لايخضع، إنها تحشد له الجيوش المتحالفة على الظلم والعدوان لقتل الأطفال والنساء والشيوخ ومن لايملكون سلاحًا، ومن لايستطيعون حمله؟

وهل يمكن لهذه النفس أن تعذب أسيرًا وأن تنتهك آدميته وتحمله على سبّ دينه، وتمجيد عدوه؟

إن النفس التى تستطيع القيام بشىء من ذلك هى النفس المريضة بتلك الأمراض التى ذكرنا.

أما النفس المؤمنة المدافعة عن الحق فهيهات أن يجد المرض النفسى طريقه إليها.

٧- والاختلاط بالناس والتعاون معهم:

الإسلام دين اجتماعى ينظر إلى الناس على أنهم جماعة أو مجتمع يمارسون حياتهم من خلال نظم وآداب اجتماعية، ولايرضى أو يتقبل أن يعيش الناس فى المجتمع أفرادًا؛ لأن الإنسان فى نظرة الإسلام إليه اجتماعى بحكم ما فطره الله عليه، وبمقتضى حاجاته العديدة، ومن أجل تحقيق آماله فى الدنيا والآخرة بحصوله على السعادة فيهما.

* وحاجات الإنسان الدنيوية من مطعم ومشرب وملبس وزوجة ومسكن وأسرة لايمكنه الحصول عليها منفردًا عن غيره من الناس، لأن تلك حكمة الله وسنته فى خلقه ولن تجد لسنته تبديلاً.

وهذه الفطرة التى تجعل الإنسان في حاجة لغيره هى الترجمة الصادقة الأمنية لمقولة ابن خلدون(١): «الإنسان مدنى بالطبع» أى اجتماعى بطبعه وفطرته التى فطره الله عليها.

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ/ ١٣٣٢-١٤٠٦م) فيلسوف مؤرخ أبرز علماء الاجتماع فى عصره. ولد بتونس ورحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس. جاء إلى مصر فى عهد الظاهر برقوق فولاه قضاء المالكية فيها اشتهر بكتابه: «العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر...» والجزء الأول منه هو المقدمة وتعد من أصول علم الاجتماع والكتاب فى سبعة أجزاء ترجم إلى الفرنسية وغيرها.

* وحاجات الإنسان الأخروية هى طاعة الله تعالى بعبادته للحصول على رضاه وجنته، وأهم عبادة شرعها الإسلام وهى الصلاة جعلها تؤدى على وجهها الأكمل فى جماعة فى جامع، وأداء العبادات فى جماعة أفضل من أدائها فى انفراد وتوحد وانعزال، بل إن بعض العبادات كجهاد الأعداء والوقوف أمام أطماعهم لاتؤدى إلا في جماعة، حيث يشيد الإسلام بقتال المسلمين لأعدائهم، وللمسلمين فى هذا القتال تحت قيادة واحدة، وفى صف واحد كأنه البنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا.

- وكثير من الطاعات والعبادات لا تتم إلا مع طرف آخر فرد أو جماعة مثل: العقود كلها ابتداء من عقد الزواج إلى سائر عقود المعاملات كالبيع والرهن والإجارة، والشركات والأعمال فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة... إلخ.

- وكثير من الأعمال النظرية والتطبيقية- وهى طاعات وعبادات- لا تؤدى على صورتها الفضلى إلا فى جماعة أو فريق متعاون للحصول على أحسن النتائج فى كل مجال من مجالات العلم، ومجالات تطبيق العلم.

* وكثير من القيم الإسلامية الأخلاقية- وهى من ثوابت الإسلام- لا أثر يذكر أو يشكر لها إلا فى جماعة أو فى مجتمع، بل لا أثر لها إلا بين اثنين على أقل تقدير للعدد المشارك فيها من الناس.

- وعلى سبيل المثال فإن قيمًا خلقية كالعدل والشورى والمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات ذات تأثير، أما القوانين والنظم، فلا تأثير لها إلا فى جماعة أو مجتمع.

- بل إن كثيرًا من مفردات المنهج الإسلامى كالتربية والاقتصاد والسياسة، والعمل الاجتماعى كله لا أثر لها إلا فى جماعة أو المجتمع كله.

- والقيم الإسلامية الرئيسة الراسخة كالتعارف بين الناس والتآلف معهم والتعاون والتناصر والتكامل لاتبدو قيمتها الحقيقية إلا فى جماعة.

- وسائر القيم الخلقية الإسلامية مثل: درء المفاسد وجلب المصالح، والإصلاح بين الناس، وعون المحتاج ومواساة البائس الفقير، وكثير من أعمال البر والخير لاتمارس إلا فى غير انفراد.

* كل ذلك وأمثاله يؤكد أن الإسلام بتشريعاته ونظمه ومنهجه ومادته وقيمه، يقوم على دعم أن الإنسان اجتماعى أو مدنى بطبعه أى بفطرته التى فطره الله عليها.

* ودين الإسلام كله لايطبق إلا فى نظام اجتماعى، ولايحقق للناس فوائد الدنيا والآخرة إلا بالناس ومع الناس.

- من أجل ذلك كان الاختلاط بالناس سببًا فى تطبيق نظام الإسلام ومبادئه وقيمه وأحكامه وآدابه.

- ومن أجل ذلك كان اختلاط المسلم بالناس من صميم نظم الإسلام ومن دواعى نشره وتطبيقه بين الناس، بل الاختلاط بين الناس من سنن الله تعالى فى الحياة الإنسانية.

- ومن أجل ذلك كان القول بالعزلة عن الناس قولاً غير مقبول وغير جائز شرعًا إلا فى حالات الفتن العامة الكبرى.

* ولقد جاءت آيات القرآن الكريم، وكلمات السنة النبوية المطهرة وسيرة الرسول ﷺ، معززة لهذه الحياة الاجتماعية، ومانعة من العزلة عن الناس إلا لتجنب الوقوع فى فتن كبرى.

* ومن آيات القرآن الدالة على ذلك:

- قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]

- وقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]

- وقوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وغير ذلك من عشرات الآيات الكريمة بل مئاتها التى تؤكد أن الإسلام دين اجتماع وتجميع للناس على التعاون والتناصر على فعل الخير، ودعم البر والتنادى إلى المعروف بكل أنواعه.

وإن نظرة فى الخطاب القرآنى تؤكد للناظر أنه خطاب موجه فى غالبه إلى الجماعة الذين آمنوا، والناس، وبنى آدم، والإنسان، والذين كفروا، والذين أشركوا، والذين نافقوا، مما يؤكد جماعية الإسلام واعتماده الجماعة والمجتمع مجالاً تطبق فيه تشريعاته.

* ومن الأحاديث النبوية الدالة على روح الإسلام الاجتماعية والجماعية:

- روى أحمد بسنده عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، يأخذ القاصية والناحية الشاردة، وإياكم والشعاب، وعليكم بالعامة، والجماعة، والمسجد»**.

- وروى أحمد بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: **« المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من الذى لايخالط الناس ولايصبر على أذاهم»**.

- وروى مسلم بسنده عن النعمان بن بشير الأنصارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**.

- وروى البيهقى بسنده عن ابن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : **«مثل المؤمن مثل النحلة إن أكلت أكلت طيبًا، وإن وضعت وضعت طيبًا، وإن وقعت على عود نَخِرٍ لم تكسره، ومثل المؤمن مثل سبيكة الذهب إن نفخت عليها احمرّت، وإن وزنت لم تنقص»**.

- وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ؛ فمررنا بشعب فيه عيينة طيبة الماء، فقال واحد من القوم: لو اعتزلت الناس فى هذا الشعب، ولن أفعل حتى أذكره لرسول الله ﷺ؛ فقال له رسول الله ﷺ: **«لاتفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله خير من صلاته فى أهله ستين عامًا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم وتدخلوا الجنة؟ اغزوا فى سبيل الله، فإن من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة أدخله الله الجنة»**.

- وروى أبو داود بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: لمَّا ذكر رسول الله ﷺ الفتن، ووصفها، وقال: **«إذا رأيت الناس قد مَرَجَتْ عهودهم وخفَّت أمانتهم وكانوا هكذا»** وشبك بين أصابعه، قلت: هكذا.. فما تأمرنى؟ فقال: **«الزم بيتك،**

وأمسك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة.. ودع عنك أمر العامة».

وبعد: فإن المسلم الذى أوجب عليه الإسلام أن يختلط بالناس، وأن يدفع عنهم الشر، ويجلب إليهم النفع، وأن يعيش عمره كله متعاونًا متساندًا متناصرًا متكافلاً مع إخوانه..

الإسلام الذى منع المسلم أن يعيش لنفسه فى شعب فيه عيينة طيبة الماء..

هذا الإنسان قد ملأ الإسلام وقته بالنافع المفيد من الأعمال، إنسان يحترم وقته ويحسن توظيفه، ولايفرط فى جزء منه مهما كان ضئيلاً..

هذا الإنسان كيف تجد الأمراض النفسية إلى نفسه طريقًا أو فرصة وهو مشغول بفعل الخير وادخار الأجر عند الله تعالى؟

ألا ما أبعد الأمراض النفسية والعصبية عن المسلمين الذين يطبقون منهج الله فى المجتمع الذى يعيشون فيه!.

٨- وصلة الأرحام وحسن التعامل مع الجيران:

الرّحم: فى الأصل هو رحم المرأة موضع تكوين الجنين- ثم استعيرت كلمة الرحم للدلالة على القرابة لكون هذه القرابات قد خرجت من رحم واحدة.

* وذوو الأرحام: الأقارب الذين ليسوا من العصبة للرجل.

- وعصبة الرجل هم بنوه وقرابته لأبيه.

وذووا الأرحام هم من ليسوا من أصحاب الفروض فى الميراث كبنات الإخوة وبنات الأعمام.

وذوو الأرحام يأخذون من ميراث الميت ما أبقى أصحاب الفروض من الميراث.

* وصلة الأرحام مما أوجب الإسلام، بما دلت عليه كثير من آيات القرآن الكريم، وكثير من أحاديث النبى ﷺ.

* أما آيات القرآن الكريم فمنها:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ٨٣]، [النساء: ٣٦].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧].

- وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠].

- وقوله جل وعلا: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ [الإسراء: ٢٦]، [النور: ٣٨].

- وقوله سبحانه: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ [الأحزاب: ٦]، [الأنفال: ٧٥].

- وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ [النساء: ١].

- وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]

* وأما الأحاديث النبوية الشريفة الداعية إلى صلة الرحم فكثيرة، نذكر منها:

- ماوراه البخارى بسنده عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن رجلاً قال: يارسول الله، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة، فقال النبى ﷺ: «**تعبد الله لاتشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصل الرحم..**»[1].

- وما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «**مَنْ سَرَّه أن يُبسط له فى رزقه وأن يُنسأ له فى أثره فليصل رحمه**».

- وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرَّحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأن أقطع من قطعك؟ قالت: بلى يارب، قال: فهو لك، قال رسول الله ﷺ: فاقرءوا إن شئتم: فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم**».

- وما رواه البخارى بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها**».

- وروى النسائى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا فعمَّ وخصَّ فقال: **يابنى كعب بن لؤى بن مرة بن كعب، يا بنى عبد شمس، ويا بنى عبد مناف، ويا بنى**

---

(١) جمع الإمام البخارى فى صحيحه فى باب الأدب خمسة وعشرين حديثًا فى صلة الأرحام.

هاشم، ويابنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، ويافاطمة أنقذنى نفسك من النار، إنى لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها».

* ولقد تميز الإسلام بصلة الأرحام، حتى أباح صلة الأرحام حتى لو كان بعض هذه الأرحام لايزال على الشرك.

- فقد روى البخارى بسنده عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت: قدمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش وفى مدتهم إذ عاهدوا النبى ﷺ- أى عهد الحديبية- مع أبيها[1]، فاستفتيت النبى ﷺ فقلت: إن أمى قَدِمتْ وهى راغبة- أى عن الإسلام ولاتزال فى شركها- أفأصلها؟ قال: «**نعم صلى أمك**».

وبعد: فإن صلة الأرحام عمل فاضل يرضى الله تعالى، ويستغرق من وقت الإنسان زمنًا غير قصير، فالمسلم يملأ بصلة الأرحام أغلب وقت فراغه، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الإسلام أوجب على المسلم أن يحسن التعامل مع جيرانه أيقنا أن وقت المسلم مشغول بالعمل الصالح، وليس لديه وقت فراغ يحس فيه بالملل، فتفد إليه أمراض النفس وأمراض القلب.

أما ماجاء عن الجار وحسن التعامل معه فى القرآن الكريم والسنة النبوية فنكتفى منه بالشاهد والمثال، ومن ذلك:

- قول الله تعالى: ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ**﴾ [النساء: ٣٦].

- وما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن ابن عمر وعائشة رضى الله عنهم، قالا: قال رسول الله ﷺ: «**ما زال جبريل يوصينى بالجار؛ حتى ظننت أنه سيورثه**».

- وروى مسلم بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: إنّ خليلى ﷺ أوصانى: «**إذا طبخت مرقًا فأكثر ماءه، ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف**».

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن[2] شاة**».

(١) أى قدمت مع أبيها أى أبى أمها، فقد كانت أسماء أختًا لعائشة رضى الله عنها من أبيها.
(٢) الفرسن: الظفر المشقوق.

- وروى مسلم بسنده عن أبى شريح الخزاعى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت»**.

- وروى الترمذى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»**.

- وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لايمنع جار جاره أن يغرز خشبة فى جداره»** ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه: مالى أراكم عنها معرضين؟[1] والله لأرمين بها بين أكتافكم.

٩- والقيام بأعمال منزلية دعمًا للمودة والتعاون:

الأسرة المسلمة -الزوجان والأبناء- هى أغلى ما يعتز الإسلام ببنائه، وأولى وحدات المجتمع برعايتها وتربيتها تربية إسلامية. لأن الأسرة هى التى تمد المجتمع بحاجاته من الطاقات البشرية فإذا خرج أفرادها من البيت وقد ربّوا هذه التربية، استطاعوا أن يسهموا فى بناء مجتمع صالح، قادر على أن يمد الناس بالقيم الإسلامية، وبالسلوك الاجتماعى الرشيد.

* ولمكانة الأسرة فى الإسلام كانت كل النظم والتشريعات الإسلامية مستهدفة بناء الأسرة المسلمة؛ فكل تشريع فى العبادات أو فى المعاملات، أو فى القيم الخلقية عمومًا إنما تصل فائدته وثمرته إلى الأسرة.

ولا نبالغ إن قلنا: إن كل تشريع فى الإسلام له صلة مباشرة أو غير مباشرة بالأسرة.

* وكل فرد فى الأسرة له حقوق وعليه واجبات، ومن هذه الحقوق والواجبات تتضح وظائف الأسرة المسلمة وأهدافها.

* أما الحقوق فإن الإسلام كفلها لكل فرد من أفراد الأسرة على نحو لم يُسبق إليه، ولم يلحق فيه، وقوام الأسرة ثمانية أنواع من الناس، لكل نوع منهم حقوقه:

- فحقوق الزوج أو الأب مقررة معروفة ليس هناك من ينكرها أو يخالف فيها.

- وحقوق الزوجة أو الأم مقررة بنصوص ومعروفة.

- وحقوق الأبناء مقررة معروفة.

(١) أى معرضين عن الأخذ بهذه السنة.

- بل حقوق الإخوة والأخوات فى داخل البيت معروفة أيضًا، ولها نصوصها الدالة عليها.

- وحقوق الخدم والعاملين فى الأسرة مقررة معروفة أيضًا.

- بل حقوق من يقيمون مع الأسرة من الجدود والجدات مقررة لاينازع فيها أحد.

- وحقوق الضيوف والجيران -أقارب وأرحامًا أو أباعد وأجانب- معروفة.

- وحقوق الربيبات واليتامى معروفة أيضًا.

وليس هنا مجال الحديث عن هذه الحقوق(١).

* وأما الواجبات فى داخل الأسرة فإنها محددة بدقة ومبسوطة بتوسع فى كتب السنة النبوية المطهرة وكتب الفقه الإسلامى، وفى بعض الكتب التى تحدثت عن الأسرة.

* والثمانية الأنواع الذين تحدثنا عنهم فى الحقوق، قد حدّد الإسلام؛ نظمه وتشريعاته لكل منهم واجبًا نحو الأسرة التى يعيش فيها(٢).

- وهذه الواجبات أوجبها الله تعالى وجعلها قائمة على العدل والحق، وما يحقق للأسرة الفلاح فى الدنيا والآخرة. وذلك هو الأصل فى كل بيت مسلم تتوزع فيه الواجبات بين القادرين على القيام بها فى عدالة وموضوعية تضمن للأسرة أن تشق طريقها فى حياة اجتماعية إسلامية تحقق لها سعادة الدنيا والآخرة.

- ويخطئ من يلقى الواجبات الداخلية فى الأسرة على الزوجة أو الأم، ويخلى من سواها من هذه الواجبات المنزلية، وربما كان السبب فى خطئه جهله بأهداف التشريع الإسلامى من بناء الأسرة، وجهله بالأسباب التى تضمن للأسرة الاستمرار فى العطاء إن هى التزمت بمبدأ تقسيم الواجبات بين أفراد الأسرة.

- وامتناع الرجل عن المشاركة فى بعض الأعمال المنزلية بحجة تصوره أن هذا واجب الأم وحدها، امتناعه هذا دليل على جهله بالتشريعات الإسلامية، وغفلته عن فهم كثير من النصوص الإسلامية- التى سنوردها بعد قليل وهى آيات من القرآن الكريم وكلمات من السنة النبوية المطهرة، ولن أقول: إن امتناعه هذا دليل سيطرة النزعات الجاهلية على أفكاره ومشاعره.

---

(١) للتوسع فى معرفة هذه الحقوق: انظر لنا كتاب: التربية الإسلامية فى البيت - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م.

(٢) للتوسع: انظر المرجع السابق.

* وآيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ تدل على تقسيم هذه الواجبات بين ركنى الأسرة الزوج أو الأب، والزوجة أو الأم:

* أما آيات القرآن الكريم فمنها:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ [التحريم: ٦].

وقاية النفس والأهل من النار هى فعل الطاعات وترك المعاصى، ووقاية الأهل النار بنصحهم.

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين نزلت هذه الآية قال: يارسول الله نقى أنفسنا فكيف لنا بأهلينا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**تنهونهن عما نهاكم عنه، وتأمرونهن بما أمركم به، فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار**».

والمراد بالأهل: الزوجة والولد والعبد والأمة.

فهل من وقاية الأهل أن يرفض عونها فى بعض أعمال بيته؟

- وقول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النور: ٢٧]

وهذه الآية الكريمة تعلم المسلمين أدب الإسلام فى دخول بيوت الغير من استئناس وسلام..

وبكل تأكيد فإن من أدب الإسلام أن يعين الرجل زوجه فى عمل البيت كما أكدت ذلك أحاديث نبوية كثيرة.

* أما هذه الأحاديث النبوية فمنها:

- ما رواه ابن ماجة بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى**».

- وروى أحمد بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه رضى الله عنه قال: قيل لعائشة رضى الله عنها: ماكان النبى ﷺ يصنع فى بيته؟ قالت: كما يصنع أحدكم؛ يخصف نعله، ويرقع ثوبه.

- وروى البخارى بسنده عن الأسود قال: سألت عائشة رضى الله عنها: ما كان النبى ﷺ يصنع فى بيته قالت: كان يكون فى مهنة أهله- تعنى خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة.

فماذا تعنى عائشة رضى الله عنها بوصفها النبى ﷺ بأنه كان فى خدمة أهله؟

لا معنى لهذا الوصف إلا أنه ﷺ كان يعين أهله فى أعمال البيت.

* هذا عن الزوج والزوجة، كل منهما له نصيب فى عمل البيت حتى تقوى المودة بينهما نتيجة لهذا التعاون.

- وكذلك الشأن مع الأبناء بنين وبنات، فإن الإسلام جعل لكل فرد فى الأسرة واجبًا يقوم به؛ لما فى ذلك من إنضاج شخصياتهم وتعويدهم تحمل المسئولية، لأن ذلك هو الذى يجعلهم ناجحين فى حياتهم العلمية وهم يتعلمون، وفى حياتهم العملية وهم يؤدون أعمالاً، وحياتهم العائلية عندما يكونون بيوتًا خاصة بهم وبأبنائهم.

- وترك الأبناء بنين وبنات دون تحميلهم عملاً من واجبات المنزل عونًا للأسرة على أداء وظائفها، تركهم بغير إسناد عمل لهم، وتدليلهم، وتحمل العمل عنهم إفساد لهم، وخطأ فى تطبيق التربية الإسلامية.

وبعد: فمن كان له واجب فى بيته بالإضافة إلى واجب عمله، فإنه إنسان يحسن ملء وقته كله بما يعود عليه وعلى أسرته بخير الدنيا والآخرة.

وليس خافيًا على المسلمين أن العمل فى المنزل نوع من عبادة الله تعالى، فهو بإذن الله مأجور على ما عمل، بعيد النظر فى جعل مشاعر الحب والمودة والتعاون تسود أسرته كلها.

ومن كان كذلك فكيف تجد الأمراض النفسية إلى نفسه سبيلاً؟

١٠ - والتآخى فى الله وفى الدين:

التآخى فى الله أو فى الدين يعنى أن يكون المسلمون كلهم إخوة لهم ولكل واحد منهم حقوقه المعروفة نحو أخيه، وعليه الواجبات نحوه.

* والأخوة فى الله أو فى الدين مطلب إسلامى شرعه الله تعالى وألزم به فى كتابه الكريم الخاتم وعلى لسان رسوله الخاتم ﷺ.

وإنما كانت الأخوة فى الله أو فى الدين لازمة أو واجبة لأسباب عديدة نذكر منها:

أ- الاستجابة لأمر الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ، وهذه الاستجابة طاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ، وتلك الطاعة تقرب إلى الله بما فرض.

ب- وتقوية للروابط بين المسلمين ودعم لاتحادهم ووحدة صفوفهم، ووحدة توجههم، وتأكيد لتعاونهم على البر والتقوى.

جـ- وإذكاء للروح الدينية بين المسلمين، وإذا أشرقت هذه الروح الدينية، فإنها تهدى إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، وطريق إلى إرضاء الله تعالى باتباع دينه.

د- ودعم للروابط الاجتماعية بين المسلمين، وتيسير لتحقيق أهداف المجتمع الإسلامى الدائمة وهى:

* مقاومة التخلف الاجتماعى.

* ومقاومة التفكك الاجتماعى.

* ومقاومة الشذوذ الاجتماعى.

* والقضاء على القلق الاجتماعى.

* والعمل على تحقيق التضامن بين المسلمين.

* والعمل على تحقيق التأمين الاجتماعى فى المجتمعات الإسلامية مهما تباعدت أماكنها.

* وتحقيق الرفاهية الاجتماعية، التى تقوم على مساعدة الأفراد والجماعات لكى يصلوا إلى مستويات معيشية تليق بتكريم الله تعالى للإنسان، وقيام علاقات تنمى روح التعاون والمودة والأخوة بين الناس.

هـ- وتقوية للروابط السياسية والاقتصادية بين المسلمين، وذلك من شأنه أن يعين على تكوين اتحاد اقتصادى وسياسى يخدم اقتصاده سياسته، وتخدم سياسته اقتصاده، وذلك مطلب قديم معاصر، ويحتاج إليه العالم الإسلامى بقوة، ليستطيع تلافى ما يلحقه به التكتل الاقتصادى والسياسى الذى عبرت عنه أوربا بوحدتها، وعبرت عنه أمريكا بالعولمة، وكلاهما يلحق بالعالم الإسلامى أضرارًا فادحة فى اقتصاده وفى سياسته.

و- وتحقيق الأمن الاجتماعى فى كل مجتمع إسلامى فى داخله باحترام حقوق الإنسان وحرياته وأمنه، وفى خارجه برد أى عدوان يقع على أى طرف من أطرافه.

ز- وصيانة المجتمع المسلم من الأمراض الاجتماعية، والمخاطر التى تهدد قيم المجتمع المسلم، وتعمل على نشر قيم معادية لقيم الإسلام رغبة منهم فى إضعاف المسلمين بإبعادهم عن قيمهم.

ح- والعون فى أن يمارس الناس فى المجتمع المسلم حقوقهم، وأن يرفضوا انتقاصها، أو العبث بها، أو إهدارها بالغة ما بلغت التضحيات فى سبيل المحافظة على الحقوق والحريات، وأن يؤدوا واجباتهم برضا وسعادة.

ط- والمعاونة فى تحقيق التكافل بين المسلمين، التكافل بكل أنواعه؛ الاجتماعى أولاً، والسياسى، والعلمى، والتقنى، بحيث يكمل كل مجتمع إسلامى مايحتاجه المجتمع الإسلامى الآخر.

ى- وتحقيق الاتحاد بين بلاد المسلمين اقتصاديًا بإعطاء الأولويات لاستثمار أموال المسلمين فى بلاد المسلمين، وسياسيًا بتكوين كتلة متوحدة من أكبر عدد من بلاد المسلمين، والأفضل أن تكون منهم جميعًا، ليكون لهذه الكتلة وزن دولى، وقدرة على مقاومة الخطط الخبيثة التى تخطط لدول العالم الإسلامى دولة دولة.

وهذه الوحدة أمل المسلمين فى كل زمان ومكان، وأعداء الإسلام والمسلمين لا هم لهم أكبر من ضرب محاولة الوحدة بين المسلمين فى مهدها، ووضع العقبات والعراقيل فى طريق الوحدة، ولو أدى الأمر إلى احتلال بلد إسلامى بقوات غزو أمريكية أو أمريكية أوربية أو إسرائيلية.

ك- وتأمين نشر دعوة الله فى الأرض؛ بإزالة أى عقبات تعترض طريق نشرها، لأن واجب المسلمين فى كل زمان ومكان أن يبلغوا دين الله لعباد الله بالحكمة والموعظة والجدال بالتى هى أحسن، ومع تأمين نشر الدعوة إلى الله لابد من ممارسة الحركة بدين الله فى الناس والآفاق، وتكوين القُوى القادرة على تغيير مايخالف شرع الله ونظامه إلى ما يوافق شرع الله تعالى ونظامه.

ل- وتأمين أهل الأديان الأخرى على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ماداموا يعيشون فى ظل نظام إسلامى وفى بلد مسلم، مع التأكيد على أن معاداة أهل الأديان الأخرى بغير مبرر ودون سبب كبيرة من الكبائر، لأن فاعل ذلك يخاصمه الرسول ﷺ، فقد روى أبو داود بسنده عن عدة من أصحاب رسول الله عن آبائهم دِنْيَةً[1] عن رسول الله قال: **«ألا من ظلم معاهدًا أو تنقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»**[2].

---

(١) دنية: أى متصلى النَّسب.

(٢) للتوسع: انظر لنا: التربية الإسلامية فى المجتمع- الهدف السابع من أهداف المجتمع الإسلامى (الباب الثالث من الكتاب) نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية- القاهرة:١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

* تلك الأسباب التى تجعل الأخوة فى الله تعالى واجبًا شرعيًا يقتضيه العقل والمنطق والتدبر فى منهج الإسلام نظامه وحركته فى الحياة.

* وفوق ذلك أن الأخوة فى الله وفى الـدين أوجبتها آيات القـرآن الكريم، وأحاديث النبى ﷺ وسيرته وعمله.

* أما آيات القرآن الكريم التى أوجبت ذلك فمنها:

- قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

- وقوله جل شأنه: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ...﴾ [الأحزاب: ٥].

- وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ...﴾ [الحجرات: ١٣]

* وأما الأحاديث النبوية الشريفة فمنها:

- ما رواه أبو داود بسنـده عن سالم عن أبيه رضى الله عنه عـن النبى ﷺ قال: **«المسلم أخو المسلم لايظلمـه ولا يسلمه، من كان فى حاجة أخـيه فإن الله فى حاجـته، ومن فرج عن مسـلم كربة فـرج الله عنه بها كـربة من كرب يوم القـيامـة، ومن سـتـر مسلمًـا سـتـره الله يوم القيامة»**.

- وما رواه أبو داود بسنده عن أنس رضـى الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«لا تباغـضوا ولا تحـاسدوا ولا تدابروا، وكـونوا عبـاد الله إخوانًا، ولا يـحل لمسلم أن يهجـر أخاه فـوق ثلاث ليال»**.

- وما رواه الترمذى بسـنده عن ابن أبى المعلَّى عن أبيه رضى الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: **«ما من الناس أحـدٌ أمنّ إلينا فى صحبـته وذات يده من أبى بكر ابن أبى قحـافة، ولو كنت مـتخـذًا خليـلاً لاتخـذت ابن أبى قحـافـة خليلاً، ولـكن وُدٌّ وإخاء وإيمان، ودّ وإخـاء وإيمان، مرتين أو ثلاثًا»**.

- وما رواه البخارى بسنده من عروة بن الزبير رضى الله عنه أن النبى ﷺ خطب عائشة إلى أبى بكر، فقال أبو بكر: إنما أنا أخوك، فقال: **«أنت أخى فى دين الله وكتابه، وهى لى حلال»**.

* وأما السيرة النبوية وعمل رسـول الله ﷺ فقد كشف الرسول ﷺ عن مكانة الأخوة فى الدين ووجوبها فى موقفين:

- أحدهما:

أن الرسـول ﷺ آخى بين المسلمين وهم فى مكة- قبل الهجـرة- يعانون من اضطهاد المشركين لهم.

- والآخر:

أنه ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار بعد هجرته إلى المدينة المنورة.

* هذه الأخـوة فى الله أو فى الدين أو فى كـتاب الله هى التى عندمـا تتـوثق بين المسلمين يكون استخلافهم فى الأرض الذى وعـدهم الله تعالى به، فيكون التمكين لدين الله فى الأرض، فيكون الأمن والاستقرار محل الخـوف والتوجس، ولقد وعد الله تعالى بذلك فى قوله تبـارك وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

* وللأخوة فى الله أو الدين حقوق وعليها واجبات، ولها شروط وآداب، ولا حياة آمنة مطمئنة للمسلمين دون أن تكون بينهم هذه الأخوة(١).

وبعد: فإن من كان فى برنامجه أن يكون فى مجال الأخوة فى الله وفى الدين، مؤديًا فيه ما عليه ممارسًا ما له، فإنه يستغرق فى ذلك جانبًا كبيرًا من وقته وجهده وتفكيره وعمله وعبادته.

ومن كان كـذلك فليس لديه وقت فارغ من العـمل بل من العمل المكلـف وقتًا وجـهدًا وصبرًا ومصابرة، فمن أين يأتيه الملل، وكيف يتسرب إليه المرض النفسى أو الخواء القلبى؟

لأن هذا الفراغ وذاك الملل هما البيئة الصالحة لتفريخ أى مرضى نفسى أو قلبى أو عقلى.

إنه مشغول بما هو مثمر ونافع ومُرْضٍ لله تعالى فى الدنيا والآخرة، وذلك فضل من الله ونعمة.

---

(١) للتوسع فى موضوع الأخوة فى الله انظر لنا:
- فقه الأخوة فى الإسلام. ط دار التوزيع والنشر: ١٤١٣هـ -١٩٩٣م.
- ركن الأخوة - الركن التاسع من أركان البيعة العشرة: نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية- القاهرة: ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

١١ – وإجادة التعامل مع التقدم العلمي والتقني:

المسلم صاحب رسالة نبيلة فى الحياة الدنيا، أوجبها عليه دينه ومنهج هذا الدين، ولم يعف من أدائها أحدًا إلا أصحاب الأعذار.

وهذه الرسالة النبيلة هى حب الناس وحب الخير لهم بهدايتهم إلى الدين الحق، وتعريفهم هذا الدين؛ عقيدته وعباداته ومعاملاته وقيمه وآدابه، ونظمه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومنهجه العلمى والثقافى والمعرفى الذى يتعامل به مع الحياة.

ورسالة المسلم النبيلة أو قل رسالة الإسلام تجمع بين خيرى الدنيا والآخرة، ولا تسمح بإغفال أحدهما ولو كان ذلك الإغفال لصالح الآخر، وقد قرر الإسلام ذلك فى حسم وإصرار على العمل لصالح الدنيا وإعمارها، وصالح الآخرة والحصول فيها على رضا الله تعالى وجنته، كما صرحت بذلك آيات القرآن الكريم فى قوله تعالى على لسان قوم قارون الذى آتاه الله من الكنوز ما آتاه، قالوا له ليعلموه الحياة الصحيحة فى الدنيا والآخرة: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧] فالعمل المطلوب لصالح الدنيا والآخرة معًا فى خطوط أربعة متواكبة متوازية هى:

- ابتغ فيما أعطاك الله من نعم الدنيا، الدار الآخرة.
- ولا تنس نصيبك من الدنيا فعِش فيها وتمتع بخيراتها فى إطار ما أحل الله تعالى.
- وأحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك بنعمه عليك.
- ولاتفسد فى الأرض بظلم أو حقد أو إضمار شر لأحد.

وتلك الخطوط الأربعة جعلها الله تعالى لمن التزم بها -مع عدم اغتراره بثروته- طريقًا إلى إعمار الدنيا والآخرة، إعمار الدنيا بالعلم والعمل للوصول إلى العيش الكريم، وإعمار الآخرة بالإحسان فى العبادة.

* ومن صميم رسالة المسلم فى الحياة الدنيا أن يعمر هذه الأرض، وأن يستفيد من كل ما سخر الله تعالى له فيها من مخلوقات، فى أرضها ومياهها ونباتها وحيوانها ومعادنها وما فى جوفها وما على ظاهرها، وسمائها وطيورها ونجومها وأفلاكها، وهوائها، ومالا أحصى من المفردات التى تدل عليها بعض الآيات القرآنية الكريمة، كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ

لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢، ١٣]

- وماذا أحصى فى هذه الصفحات إن شئت أن أُفصّل ماسخره الله تعالى للإنسان فى السموات والأرض جميعًا؟

- والتفكر المطلوب فى الآية هو إعمال العقل للوصول إلى الاهتداء بهذه المخلوقات إلى كل ما يعود على الإنسان بالخير جسمانيًا وعقليًا ونفسيًا وخلقيًا وعمرانيًا وحضاريًا ودينيًا.

* ومن أجل أن يتعامل الإنسان بالتفكر مع هذه المسخَّرات له من الله، فإن عليه أن يكون على درجة من العلم وأن يحاول الارتقاء بعلمه عن طريق البحوث والتجارب حتى يصل فيه إلى أعلى مستوى يتاح له.

إن عليه أن يواكب كل تقدم علمى وكل تجربة علمية وكل تقنية على مستوى العالم كله.

وإن عليه أن يصل بعلمه إلى كل مستحدث من الآليات والأدوات والوسائل التقنية بحيث تيسر له التعامل مع ما سخر الله له فى الأرض وفى السماء.

* ومن المسلَّم به أن العلم النظرى والعلم التقنى ملك للبشرية كلها، ولايملك عاقل متدبر أن يحظر نوعًا من العلم على غيره من الناس، فإن فعل فإنما تحركه الأنانية والطمع والحقد، وكفران النعمة، كما تفعل أمريكا ودول الغرب اليوم إذ تحظر على غيرها من الدول العلم النووى، وتدين من يحاول الوصول إلى ذلك وتعاقبه ولو باحتلال بلاده احتلالاً عسكريًا كما فعلت بالعراق، وكما تنوى أن تفعل بإيران، والعالم صامت فى رعب من هؤلاء الجبارين فى الأرض، وهيئة الأمم المتحدة تبارك أعمال هؤلاء الجبارين، وبخاصة إذ كانت الدول المعاقبة عربية أو إسلامية!! يفعلون ذلك ويملأن الدنيا صياحًا وضجيجًا بالديمقراطية وحقوق الإنسان؟

إن العلم والتقنية نتاج للعقل البشرى يجب أن يفيد منها الإنسان دون عنصرية أو تمييز، وإن ذلك هو منهج الإسلام فى التعامل مع العلم والتقنية، ولقد كان العالم كله كذلك قبل ظهور الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا الاستيطانية؛ فقد كانت العلوم والمكتشفات تتبادل بين أمم الأرض، فلم تمتنع أمة عن إتاحة ما لديها من علم لأى أمة، كان ذلك شأن الروم والفرس، كما كان شأن المسلمين فى عصور الازدهار العلمى، فأفاد المسلمون من علوم الفرس والروم، ثم أفادوا غيرهم بما وصلوا إليه من تقدم.

– ولقد سجّل التاريخ ذلك للمسلمين بأقلام كثير من غير المسلمين[1]، وما أنكر ذلك ولا قلل من شأنه إلا مرضى النفوس والعقول والقلوب الذين أعمتهم العنصرية، وعداوة المسلمين، فزعم زاعمهم أن الحضارات فى صراع، وأنكروا تبادل الحضارات للعلم والتقنية، وهم فى ذلك على خطأ عظيم- ولقد فات هؤلاء -بسبب تعصبهم ونظرتهم الضيقة المدى وسيطرة الغرور عليهم- فاتهم أن الذين تصارعوا من أهل الحضارات هم المغامرون المغروررون المتهورون من الحكام والسياسيين الذين جلبوا على الحياة الإنسانية أسوأ ما يجلب وهو الحروب والدمار، والقتل والأسر واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان.

– أما أصحاب الحضارة أى المتحضرون من الناس فكانوا يأخذون من أى حضارة ويعطونها حتى فى أثناء الحروب، مع غض النظر عما تؤول إليه الحروب من نصر أو هزيمة، لأن تلك هى سنة الله فى خلقه، يتبادلون ما هيأ الله تعالى لهم الوصول إليه من علم أو تقنية.

* والحضارة ترادف المدنية، وتقابل الهمجية والوحشية وهى ضد البداوة.

إن الحضارة مرحلة راقية من مراحل التطور الإنسانى يبدو أثرها فى إحراز التقدم فى ميادين الحياة الإنسانية كلها، وفى مقدمتها ميادين العلم والتقنية.

وقد كان للمسلمين تقدم ملموس اعترفت أوروبا وأخذت عنه، كما قال المنصفون من كتابها، فى مجالات عديدة هى:

– مجال الرياضيات،

– ومجال علم الفلك،

– وعلم الجغرافيا،

– وعلما الفيزياء والميكانيكا،

– وعلم الكيمياء،

– والعلوم التطبيقية «الاكتشافات»،

---

(1) من هؤلاء:
أ- درابر الأمريكى الأستاذ بجامعة نيويورك فى كتابه: المنازعة بين العلم والدين - مترجم عن الفرنسية.
ب- جوستاف لوبون كاتب فرنسى فى كتابه: حضارة العرب.
وغيرهما كثيرون.

- وصناعة الورق أو الوراقة،

- وعلم الملاحة واستخدام البوصلة فيها،

- والعلوم الطبيعية،

- والعلوم الطبية،

- وعلوم الصحة.

* وما منعت الأمة الإسلامية أحدًا من الأخذ مما برعت فيه من العلوم والفنون والتقنيات، لأن دينها يحظر عليها احتكار العلم والتقنية.

- ومن أجل هذا الانفتاح العلمي والتقني على مستوى العالم قرونًا عديدة -قبل أن تظهر أمريكا وتصاب أوروبا بالسعار فتعتدى على بلدان العالم الإسلامى وتستوطنها بعدة السلاح- من أجل هذا الانفتاح العلمى والتقنى؛ كان مما يحسب على أى مجتمع أن يتخلف عن ركب العلم والتقنية، لأنه بهذا التخلف يخالف فطرته التى فطره الله عليها فى ضرورة أن ينطلق إلى التقدم والرقى، وليس له أن يظل تابعًا كسولاً يأكل كما تأكل الأنعام.

* إن المسلم مَدْعُوٌّ من قبل دينه إلى أن يتعلم ويعلم ويبحث ويُعلِّم، ويصل إلى أفضل ما يُمكن أن يصل إليه من علم وتقنية، وكلما وصل إلى مستوى جيد من العلم نادى عليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

- والمستهدف والمنتظر من المسلم عند سماعه هذه الآية الكريمة أن يوقن أن العلم والبحث العلمى، والتقنية، لم يقف فيها الإنسان عند هذا الحد الذى وصل إليه، وإنما أمامه طريق للعلم والبحث والتقنية طويل عليه أن يستمر فى السعى فيه مادام فى هذه الدنيا.

- ولأن طريق العلم والتقنية لا نهاية له، فإن القرآن الكريم يعلم المسلم هذه الحقيقة، فيجعله يقول داعيًا ربه أن يفتح عليه، قائلا: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] أى أن الاستزادة من العلم مطلب إسلامى للإنسان طالما هو حى يرزق.

- وكلما تطور العلم فى مجالاته العديدة -والعلم دائمًا فى تطور- كان على المسلم أن يسهم فى هذا التطور وأن يواكب هذا التطور، وأن يسخر من أجل ذلك كل ما وصل إليه من علم وفن وتقنية لصالح دينه ودنياه.

* والإسلام يقرر بل يؤكد بكلمات القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] أى: مهما وصل الإنسان إليه من علم فإن فوق ما وصل إليه درجة أعلى وصل إليها غيره، فلا سقف يقف عنده العلم أو البحث العلمى أو التقنية، وإنما على المسلم أن يستمر فى مجال العلم إلى أن يلقى الله.

وبعد: فإن مجال العلم والتقنية مجال لا سواحل له، ولذلك فإنه يستغرق من وقت المسلم ما يملأ عليه أى فراغ فى وقته، فهو مطالب بالتبحر فى العلم والتقنية طول عمره.

فأين فى حياة المسلم ذلك الفراغ الذى يحدث الملل فيتسرب إلى نفسه الاكتئاب والإحباط، والشعور بالضيق من الحياة؟

* أؤكد أن المسلم الذى يلجأ إلى هذه الوسائل العملية الميدانية التى ذكرنا لن تجد الأمراض النفسية والقلبية إليه سبيلاً.

١٢- والإسهام فى محو أمية بعض الأميين:

الأمية التى نعنيها هى جهل القراءة والكتابة، ومن جهل القراءة والكتابة فقد حرم نفسه من خير كثير، وعرضها للوقوع فى براثن الفقر والجهل والمرض، وقلّت حصيلته أو انعدمت من العلم والثقافة والمعرفة.

* والأمة الإسلامية متضامنة متكافلة متحابة، فلا ينبغى أن يُترك مسلم بين إخوانه وهو يجهل القراءة والكتابة؛ لأن الأمية تفضى إلى عيوب كثيرة، ليس للمسلمين أن يدعوا أحدهم يقع فى هذه العيوب.

وأبرز تلك العيوب:

- جهله بكثير مما يحيط بمسائل الدين التى تحتاج إلى قراءة ومراجعة.
- وعجزه عن معرفة أى معلومة فى أى مكان كُتِبَتْ ولم تنطق، وفى هذا ما يفوّت عليه مصالح عديدة ويوقعه من مشكلات عديدة.
- وتعرضه لضياع كثير من حقوقه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمعرفية.
- وعجزه عن الإسهام فى أى عمل اجتماعى نافع إذا كان هذا العمل يحتاج إلى قراءة أو كتابة.
- وعجزه عن أداء كثير من الأعمال التى تتطلب القراءة والكتابة، وقد يكون منها حقوق تضيع عليه أو واجبات لا يقوم بها.

- وعدم تحمسه لتعليم أبنائه فى الغالب، لأنه لم يذق نعمة التعلم والعلم.
- وجهله بمفردات دينه وتدينه، لأنها تنقل إليه عن طريق المشافهة.

* إن الأمية فى عصرنا هذا أصبحت دليلاً على الجهل والعجز والتخلف، وسلبية المجتمع حكامًا ومحكومين فى رعاية الإنسان حتى لا يقع فى براثن الأمية.

* ومشكلة الأمية فى عالمنا الإسلامى لابد أن يكون من بين أسبابها رغبة أعداء الإسلام وأعداء الإنسانية فى أن تظل الأمية منتشرة بين المجتمعات المسلمة، لتظل هذه المجتمعات على مستوى دنىء من الفقر والجهل والمرض والعجز عن الإسهام فى تنمية المجتمع.

- ولهؤلاء -وهم المسيطرون على السياسة والاقتصاد فى المجتمعات المسلمة- وسائل عديدة فى بقاء الأمية أو فى نشرها بين المسلمين.[1]

ومن بين هذه الوسائل:

* التقتير فى الإنفاق على التعليم؛ مدارسه وكتبه ومدرسيه وسائر خدماته، بحيث يأتى التعليم وخدماته، والخدمات الصحية فى ذيل قائمة الإنفاق الحكومى؛ ليزداد عدد الأميين والمرضى، ومهما قامت من ثورات، ومهما رفعت من شعارات طنانة، ومهما تعاقبت حكومات وادعت الإصلاح فإن ذلك كله يكذبه انتشار الأمية وكثرة عدد المرضى، وعجز المدارس والمستشفيات عن استيعاب من يحتاج إليها من المواطنين.

* والتهاون فى إعداد المعلم علميًا ومهنيًا، فإلى وقت قريب وربما للآن لا يتوجه إلى كليات المعلمين والمعلمات إلا الذين لفظتهم -لضعف مستواهم- سائر الكليات.

* وجعل المدرسة مبنى ومرافق على مستوى جدير بتنفير التلميذ منها، وازدرائه لها، بل هى بالنسبة لكثير من التلاميذ سجن له سجانوه ومؤدبوه.

* وتجاهل الأنشطة المدرسية فى معظم المدارس، من أجل أن يزيدوا فى استيحاش التلاميذ من المدرسة.

* وتكديس عدد التلاميذ فى الفصل وهو مكان غير معد إعدادًا جيدًا بحيث يصل عددهم إلى مائة تلميذ، ولا مقاعد إلا لعدد من هؤلاء المقيدين على هذا الفصل.

* وانعدام الاهتمام بوسائل الإيضاح فى الفصل؛ فلا توجد به غير السبورة إن وجدت وهى دائمًا غير صالحة.

---

(١) قد يتصور بعض الناس أنى أبالغ فى هذا أو ألقى متاعب الأمية على عدونا التقليدى لأنه عدونا، غير أن المتأمل فى سياسة التعليم وعدد المدارس ومستوى الإنفاق عليها يدرك أن هؤلاء الأعداء هم أصحاب الكلمة والنفوذ فى معظم البلدان الإسلامية!!

* وتجاهل قواعد التدريس وأسسه العلمية، إذ كثير من المدرسين والمدرسات ليسوا مؤهلين لمهنة التدريس أصلاً، ولكن الحاجة إلى العمل رمت بهم فى هذه المدارس.

* وتدخل الحكومة من خلال وزارة التربية فى عزل كثير من المدرسين النابهين المؤهلين للتدريس من عملهم التعليمى بحجة أن المدرسين إسلاميون، كأننا فى بلد غير مسلم، وإحلال أفراد لا مؤهل لهم إلا منافقة السياسيين ليقوموا بالتدريس للتلاميذ. وبعض البلدان الإسلامية كمصر مثلا عرفت وزراء للتربية لا علاقة لهم بالتربية من قرب أو بعد، وإنما مؤهلاتهم حمل مباخر النظام وإطلاق البخور التى تزكم رائحته الخبيثة أنوف الغيورين على التعليم، فهم على وجه الحقيقة أتباع وليسوا وزراء، وودعك من التخصص فى التربية والتعليم.

* وتدريب التلاميذ على النفاق السياسى بحشدهم فى الطرقات التى يمر منها رئيس البلاد، والتصفيق له، والجأر بشعار «بالروح بالدم نفديك يا ريس»!!

* وتجاهل آراء أولياء أمور التلاميذ فى تعليم أبنائهم واعتبار كل اقتراح أو تعديل لشىء مما يجرى فى المدرسة نقدًا للحكومة ولتوجيهات الرئيس المفدى، وتصنيف هذا الاقتراح جريمة سياسية تفزع له مؤسسات أمن الدولة، وتعتقل وتبحث وتنقب لعل وراءه جهازًا يهدد أمن الدولة لتطرفه ونقده لمن لا يخطئ ولا يفارقه الصواب!!

* وتعمد الإساءة إلى المدرسة والمدرس والتلميذ؛ بسوء الزمان وسوء المكان، وسوء الكتاب، وسوء المدرس، وسوء المآل، كل ذلك يكاد يكون هدف وزارات التعليم فى العالم الإسلامى معظمه.

تُرى مَنْ وراء ذلك كله إلا عدو يريد هدم الأمة الإسلامية؛ أبنائها ومستقبلها؟

ومن أراد على ذلك أدلة فليسأل نفسه من الذى يعدِّل مناهج التعليم؟ هل هم غير الأمريكان؟ الذين بدت العداوة والبغضاء للمسلمين منهم، واتخذت عدوانا مسلحًا شاركت فيه دول العالم على بلدين إسلاميين فاحتلت أرضهما وهما أفغانستان والعراق.

من الذى يريد أن يحذف تدريس الدين، وأن تحذف آيات الجهاد فى سبيل الله تعالى من المناهج المدرسية؟ هل هى غير أمريكا؟ ومن أمامها أو من ورائها إسرائيل؟

* ولكيلا يطول الحديث ذو الشجون، نكتفى بطرح سؤال واحد هو:

هل تستطيع المدرسة بهذه الحال أن تمحو أمية من بقى فيها سنة أو سنتين أو ثلاثًا إلى أن يتسرب منها لسوء حالها؟

* والسؤال الموجه للحكومات فى العالم الإسلامى هو: هل هذه الحكومات فى العالم الإسلامى، وهى معظمها حكومات ظالمة باطشة؛ هل هى جادة فى محو أمية المواطنين؟ أم أنها تقول: إن الأميين أكثر طاعة لها من المتعلمين!!!!

* ولكن كلامى هنا موجه إلى كل مسلم، لأقول له: إنه مطالب بأن يسهم فى محو أمية واحد على الأقل من أبناء وطنه، وليبدأ بقريب من أقربائه أو جار من جيرانه أو عامل فى بيته أو مصنعه أو متجره أو مزرعته، فلن يعدم واحدًا أو أكثر، فإن فعل فإنه يقدم لوطنه العربى ووطنه الإسلامى خدمة جليلة الفائدة عظيمة النفع.

وأذكر هذا المسلم بأن الرسول الخاتم ﷺ فادى بعض أسرى المشركين فى معركة بدر، بأن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة والقراءة!! إذا لم يجد المال الذى يفدى به نفسه.

- ذكر ابن سعد فى الطبقات الكبرى بسنده عن فراس عن عامر رضى الله عنه قال: كان فداء أهل بدر -أى أسراهم من المشركين- أربعين أوقية، فمَنْ لم يكن عنده؛ علَّم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة، فكان زيد بن ثابت رضى الله عنه ممن عُلِّم.

- وروى ابن سعد -فى الطبقات الكبرى- بسنده عن جابر بن عامر رضى الله عنهما قال: أسر رسولُ الله ﷺ يوم بدر سبعين أسيرًا، وكان يفادى بهم على قدر أموالهم، فكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون، فَمَن لم يكن له فداء، دَفَع إليه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم؛ فإذا حذقوا؛ فهو فداؤه.

* والخلاصة أن محو الأمية -أمية القراءة والكتابة- مطلب إسلامى حرص الرسول ﷺ عليه، منذ زمن باكر فى تاريخ الإسلام.

- وما بالنا اليوم والعالم الإسلامى مترامى الأطراف لا تغيب عن بلدانه الشمس ويصل عدد سكانه إلى ما يقرب من ربع سكان الأرض «ألف مليون وثلاثمائة مليون تقريبًا» ويحيط به من الأعداء مَنْ يخططون لكى يكون متخلفًا جاهلاً، عاجزًا علميًا وتعليميًا وثقافيًا.

- ألا يستوجب ذلك على المسلمين المتعلمين أن يسهم كل منهم فى محو أمية واحد من المسلمين، وأن يعتبر أن ذلك واجب شرعى أملاه عليه دينه وولاؤه وأخوته للمسلمين.

- إن محو أمية من لا يقرأ ولا يكتب عمل فردى، لا يكلف المعلم شيئًا سوى جهده، ولا يكلف المتعلم سوى قروش زهيدة لن يعجز عنها معلم ولا متعلم، ولا علاقة

بذلك بميزانيـة الحكومة ومـشكلاتها الأمنية التى تمتص معظم الميزانيـة، فإن بقى من الميزانية الحكومـية أعلنت أنه للدعم للسلع الغذائية، أو لمواجـهة الزيادة السكانية التى حلا لهم أن يسموها: المعـادلة الصعبة، وحددها لهم عدو خبيث ووجـه إليها اهتمام هذه الحكومات.

وهذه الحكومـات -فى تصـورى- لو أرادت أن تجد فـى محـو الأمـية الكتـابيـة بين مواطنيها لقالت -فى غير حياء-: على المواطنين أن يقللوا عدد المواليد إلى النصف أو قريب منه ثم تختم قولها بمقولة: وهذا رأى الخـبراء دون أن يقولوا: الخبراء الأجانب أعداء الإسلام الخائفين من تكاثر المسلمين.

مع أن هؤلاء الخبراء الأجانب أو الحكومات الأجنبيـة تمنح علاوة اجتماعية لمن ينجب ثلاثة مواليد فأكثر!!!

وأوضح مثل عـلى ذلك ما يجرى فـى فلسطين المحتلة التى اسـتوطنهـا اليهـود بقوة السلاح الغـربى وقوة المال الغربى كذلك، وبخـاصة الولايات المتحدة الأمـريكية، إذ الحق ان الغرب -بريطانيا- هذا الذى اغتصب فلسطين وأنشـأ فيها دولة لإسرائيل بعد أن تعاون على طرد الفلسطينيـين من بيوتهم وأرضهم، هؤلاء اليهود يشـجعون زيادة المواليد ويسرفون فى قـتل الفلسطينين، وحكومـات العالم الإسلامـى لا تتعظ، ولا تستطيع أن تتخلص من أساتذتهـا ومستشاريها المخلصين الذين يشيـرون عليها بالأخذ بكل أسباب التخلف فى أوطان المسلمين.

والمؤكد الآن -إلى أن تسـتفيق حكـومات العالم الإسـلامى- أن محو الأمـية واجب الأفراد، ومن الغفلة التعويل فى ذلك على الحكومات.

- وإن المشغولين بمحو أميـة القراءة والكتابة بوصفه عملاً من عديد من الأعـمال الخمسة والعـشرين التى سنذكـرها فى هذا العمل الميـدانى لعلاج أمـراض النفـوس وأمراض القلوب، إن هؤلاء المشغولين بتلك الأعمـال الجليلة العديدة، ليس لديهم أوقات فراغ يصابون فيها بالاكتئاب أو تهددهم فيها أمراض النفوس والقلوب.

١٣- وممارسة الدعوة إلى الله أى إلى الدين الحق:

الدعوة إلى الله تعـالى أى إلى دينه الحق الذى ختم به الأديان تأسيًـا بخاتم رسله ﷺ، هذه الدعوة واجب كل مسلم لديه القدرة عليها، ويملك البصيرة بما يدعو إليه.

* وليست الدعوة إلى الله واجب العلماء بعلوم الإسلام وحدهم، كما يتوهم ذلك بعض الغافلين الذين لا يكلفون أنفسهم بالتدبر والتفكر فى آيات القرآن الكريم التى أوجبت الدعوة على كل من اتبع الرسول الخاتم ﷺ فدخل فى دين الإسلام، قال الله تعالى:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]

فكل مسلم قادر عقليًا وجسديًا على ممارسة الدعوة إلى الله، ويملك البصيرة فيما يدعو إليه من مفردات الإسلام ومنهجه، عليه أن يدعو إلى الله تعالى.

* والدعوة إلى الله تعالى؛ استمرار لعمل الرسول ﷺ الذى داوم عليه حتى لحق بربه، وللمسلمين فى خاتم الأنبياء والمرسلين أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

* ومجالات الدعوة إلى الله تعالى عديدة ومتنوعة ومتكاملة، ومتزامنة، ومتوازية، ولا يغنى بعضها عن بعض[1]، نذكر منها:

- الدعوة الفردية:

وهى أن يتولى أحد المسلمين دعوة فرد واحد إلى الله متوسمًا فيه الخير، ويظل مصاحبًا له، ومؤاخيًا، يعلمه فى كل يوم عن الإسلام ما لم يكن يعلمه، ويثبته على ما يعلمه، ويعينه على طاعة الله تعالى وعلى حسن عبادته.

- والدعوة إلى الله تعالى فى حلقة:

وهذه الحلقة هى مجموعة من الناس يختارهم الداعية إلى الله، وقد توسَّم فيهم الخير، يلتقى بهم مرة كل أسبوع أو أسبوعين أو شهر، حول مدارسة وحوار ومناقشة وسؤال وإجابة فى كل ما يتصل بالإسلام من: عقيدة، أو عبادة، أو معاملة أو سلوك، أو قضية من قضايا العالم الإسلامى.

وأنفع ما يكون هذا اللقاء إذا كان له منهج تجتمع حوله هذه الحلقة يتقاسمون فيه العمل، ويسيرون عليه وفق خطة تتناول محتوى المنهج ومداه الزمنى، وكيفية السير فيه، ومتابعته وتقويمه.

---

(١) للتوسع فى فقه الدعوة وفقه الداعى وفقه المدعو، انظر لنا كتابنا الموسع: «فقه الدعوة إلى الله» فى أكثر من ألف صفحة -نشر دار الوفاء بمصر: ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

- والدعوة العامة إلى الله تعالى:

وهذه الدعوة تكون فى المساجد، والأندية، والندوات من خلال المحاضرات والمناظرات والحوارات وغيرها.

وهذه الدعوة تلفت نظر الناس واهتمامهم إلى هذا الدين العظيم الذى مَنَّ الله عليهم به، ومن تجاوب منهم مع ما يسمع يتعهده أحد الدعاة فيكمل معه السير فى خطوات الطريق إلى الله.

- والدعوة إلى الله فى مجال العمل:

وهذا النوع من الدعوة يمارسه الداعية إلى الله، مع أصدقائه وجيرانه، وزملائه فى العمل أو فى الدراسة، أو فى الأندية الرياضية أو الاجتماعية.

ومن استؤنس منه التجاوب يتعهده أحد الدعاة، ويواصل معه العمل والدعوة والتفقيه فى دين الله تعالى، والتبصير بقضايا الأمة الإسلامية حتى يصل به إلى درجة التعبد لله ودرجة الوعى ودرجة الفقه بدين الله.

* وفى جميع هذه الأنواع من الدعوة، فإن الداعية إلى الله يعرف تمامًا شروط الدعوة وشروط الداعى وشروط المدعو(١)، وفى جميع الأحوال فإن الداعى إلى الله يستعين فى ممارسة دعوته بحب الناس وحب الخير لهم، ويجعل نفسه وإمكاناته فى تحقيق حاجاتهم، وأن يعتبر ذلك كله تقربًا إلى الله تعالى وسببًا فى رضاه.

ومهما استعصى عليه مدعو، فليس له أن يستبعده من عمله؛ لأن استمراره معه يضاعف من أجره عند الله تعالى.

* ومن سمات الدعوة إلى الله وخصائصها:

- أنها تمضى فى أبعاد الزمان إلى منتهاه؛ إذ ليس لها مدى زمنى يمكن أن يتوقف عنده الداعى ها قد أبلغتُ، ثم ينسحب، وإنما عليه أن يستمر فى التبليغ بها حتى يتوفاه الله.

- وأنها تستطرق فى أبعاد المكان لتشمل الكرة الأرضية كلها، إذ ليس للدعوة مكان بعينه إذا بلغته قال الدعاة إلى الله: ها هنا نستريح وقد بلغنا، وإنما يصلون إلى كل مكان يمكن الوصول إليه.

---

(١) للتوسع ولمعرفة هذه الشروط: انظر لنا: «فقه الدعوة إلى الله» مرجع سابق.

- وأنها دعوة إلى دين لا يكره عليه أحد، لأنها تقوم على احترام إرادة الإنسان وحرية اختياره، فالله تعالى يعلن: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. كما يقول لرسوله الخاتم ولكل مسلم: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

- وأنها دعوة يتساوى أمامها الناس فقيرهم كغنيهم، وضعيفهم مثل قويهم، وصاحب الجاه والنفوذ أمامها مثل من حُرِم من أى جاه وأى نفوذ.

- وأنها تُبَلَّغُ للناس بلغاتهم وألسنتهم حتى يفهموها ويألفوها، ثم يطالبون بمعرفة لغة هذه الدعوة وهذا الدين وهى العربية حتى يستطيعوا أداء الصلوات وقراءة القرآن الكريم، على أن الأولى أن يتواكب نشر الدعوة مع تعليم اللسان العربى؛ لسان القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

* وإن المشغول بدعوة الناس إلى الله إلى الدين الحق، لتشرق على حياته شمس السعادة فى كل يوم تشرق فيه الشمس، إذ يقول فى نفسه: لعلى فى هذا اليوم أَتَسبَّب فى هداية أحد الناس اليوم، فأكون بذلك أسعد الناس، حيث يوضع ثواب هدايته فى ميزان حسناتى، فيكون أفضل لى.

- وهذا السعيد المشغول بدعوة الناس إلى الله، إلى دين الدين الحق، متى يصيبه المرض النفسى أو الجفاء القلبى، أو الفساد الخلقى، أو غير ذلك من نتائج الإحساس بالفراغ والفشل؟

إن الإسلام يربى الناس على ملء أوقاتهم بالنافع لهم من الأقوال والأعمال، نافع لهم فى دينهم ودنياهم.

١٤- والمشاركة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

من المؤكد فى الدين الخاتم دين الحق أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى هذا الدين، بل العمل الجليل الذى ابتعث الله له النبيين والمرسلين أجمعين.

وقد أوجب الله تعالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على كل قادر عليه، وجعل لأدائه ثواب من أدَّى واجبًا، وجعل لترك أدائه عقاب من امتنع عن أداء ما أوجبه الله تعالى.

- والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية أى لابد أن يقوم به بعض المسلمين حتى تتحقق بقيامهم به الكفاية، وإن لم يقم به أحد أَثِمَ المسلمون جميعًا، وذلك لقول

الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ولما رواه أبو داود بسنده عن جرير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما منْ قوم يُعمل فيهم بالمعاصى، وهم أعزُّ وأكثر ممَّنْ يعمله، ثم لم يغيروه، إلا عمهم الله تعالى منه بعقاب»**.

* وكل مسلم قادر على أن يمارس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإنه يجب عليه أن يمارسه وفق شروطه وآدابه.

* ومن أبرز شروط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

- أن يكون المنكر ظاهرًا لا مستترًا.
- وأن يكون النهى عن المنكر متدرجًا، يبدأ:

بالوعظ والنصيحة والكلمة اللينة،

ثم بالتعنيف والإنذار،

ثم بالتهديد والتحذير،

ثم التغيير باليد.

- وأن الناهى عن المنكر يجب أن يكون مسلمًا ذا علمٍ وورع وحسن خلق.

* ومن أهم الشروط التى رآها جمهور العلماء: ألاّ يترتب على النهى عن المنكر منكر أشد، ولا يترتب على الأمر بالمعروف وقوع فى منكر، وتحديد ذلك متروك لعلم من يأمر ومن ينهى وذكائه وورعه.

* وهدف الأمر بالمعروف إذاعة أنواع الخير والبر وإشاعتهما فى المجتمع، وتحبيب الناس فى الخير وفى فعله، وفى حب الناس وحب الخير لهم؛ لما لذلك من أثر نفسى وخلقى واجتماعى فى المجتمع الإنسانى كله.

* وهدف النهى عن المنكر: تنقية المجتمع من المعاصى وتطهيره من الآثام، وحمايته من أهل الباطل والفجور، وذلك له أعظم الأثر فى حسم الشر والحيلولة دون وقوعه وإزالته إن وقع، وكل ذلك يسهم فى تحقيق الأمن والطمأنينة فى المجتمع، لأنه لا يهدد أمْن الناس وطمأنينتهم مثل من يمارسون المنكر، لما فى ذلك من استخفاف بل إهدار لحقوق الناس.

* ونستبين أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى عـصرنا هذا، وهو عصر شاع فيه الفساد، وتجرأ الناس فيه على المعاصى، وقوى فيه أمرُ الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا، وصاروا دولاً ومـؤسسات بعد أن كـانوا أفرادًا، وأصبحت تحـركهم أجهزة إعلام واتصال قوية، بعد أن كـانت تحركهم أهواؤهم وشهواتهم، ولا يرحبون بأن ينفردوا بممارسة الرذائل ولكنهم يعملون على أن يكون لهم فيها شركاء وأعوان.

- إن الدول التى تعمل على إشـاعة الفواحش والمبـاذل الخلقية بحجـة الحرية الشخصـية لا تكتفى بذلك، وإنما تحـرص على تعميم هذه الفواحش وتقنينهـا، بل تحرص على مكافأة من يمارسونها ابتـداء من تسويق جسد المرأة وتقنين الشذوذ الجنسى ومـرورًا بإباحة شرب الخمر ولعب الميـسر، وسائر الفواحش التى نهت عنهـا سائر الشرائع السماوية ورفـضها العقل الراشد فى كل زمان من أزمان الإنسانية.

- ولا تزال هذه الدول والمؤسسات وكـثير من أصحاب السنفوذ والهوى ماضيـة في فسادها وشرها تزداد تفاحشًا وشرًا...

ولا يزال المتمسكون بدينهم وأصحاب العقول السليمة والفِطر السوية المستقيمة يمثلون سَدًا منيعًا أمام هذا التيار الجارف.

ولا يزال هذا الصراع بين دعاة الفضيلة ودعاة الرذيلة قويًا وسجالاً، ولا تزال هذه المعركة مستمرة غير محسومة لأحد طرفيها، وإن كانت الغلبة فى بعض الأحيان للشر وللشيطان وأعـوانه لأنهم يتـسلحـون بالملذات والشـهـوات الجسـدية، وتجـار هذه الفـواحش هم المستفيدون من إشاعة الشرور والآثام.

* والمسلم القادر علي ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يمثل بعمله هذا جزءًا هامًا من هذا السَّد المواجه لذاك التـيار الجارف، ويقف حائلاً بين هذه الرذائل واستـشرائها في المجتمع، وهذا الموقف هو أحد الأسباب التى تجعل من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبًا شرعيًا وعقليًا وخلقيًا واجتماعيًا فى أى زمان وأى مكان.

* إن المسلمين القادرين علـى القيام بالأمر بالمـعروف والنهى عن المنكر يقومـون بعملين جليلى القدر بالغى الأهمية.

فهم بـنهيهـم عن المنكر ينظفون المجـتمع من الرذائل والشـرور، وبأمرهم بالمـعروف يزرعون فى المجتمع الخير والبر والفضـائل؛ ولذلك فهم أكثر الناس سعادة بما يفعلون من دفع المفاسد وجلب المصالح، مما يرضى عنهم الله تبارك وتعالى.

- ومن كانوا سعداء بأعمالهم وبما يبذلون من جهد فى هذا السبيل فكيف يمرضون نفسيًا أو قلبيًا أو خلقيًا؟ إذ لا يمرض نفسيًا من كان طائعًا لله تعالى مسهمًا فى الخير محاربًا للشر.

- ومما أحب أن أذكر به أكثر من مرة:

* أن الأمراض النفسية والعصبيـة وقساوة القلوب وانحراف الأخلاق هى بضاعة المتبطلين الذين لايجدون ما يملأون به فراغ أوقاتهم.

* وأن الأمراض النفسيـة التقليدية من ضيق واكتئاب وإحـباط ووساوس وأوهام إنما تجد طريقهـا إلى من أسلموا زمام أنفـسهم لشياطينهـم وشهواتهم، وحسـبوا أن تلك هى الحياة، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم.

* وكثيرًا ما أتـساءل ويتساءل غيرى: كيف يمرض بالأمراض النفـسية تلك؛ مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ويطيع الله تعالى فيما أمـر وفيما نهى، ويتخذ رسول الله ﷺ أسوة حسنة؟

* إن هذا الإيمان هو المدخل لمن أصـابه المرض النفـسى من الناس، لأن مفـردات الإيمان وشعـبه والأعمال الميـدانية التى يوجبهـا، تشغل وقتـه كله وتشعره بالسعـادة بعمله، فكيف يتسرب المرض النفسى إليه؟

١٥ - والقيام بأعباء الحركة بالدين فى الناس والآفاق:

* أعباء الحركة بالدين الحق كثيرة ومكلفة، وهذه الأعباء معروفة فى تاريخ العمل فى مجال الحركة الإسلامية فى كل عصر من عصور الإسلام، وستظل كذلك إلى يوم الدين، ومن هذه الأعباء:

- التأهل للقيـام بأعمال الحركة من تعلُّم وعـلم وتعليم، يؤهل صاحبه لممارسـة أعمال الحركة عن وعى وفقه وبصيرة.

- ومعرفة الناس الذين سوف يتحرك إليهم معرفة تمكنه من حسن التعامل معهم، وحسن الوصول بهم إلى الغاية.

- ومعرفة الأماكن والآفاق التى سيتحرك بالدين الخاتم إليها، حتى يكون على علم بهذا المكان وظروفه.

- والالتزام بكل ما جـاءت به الشريعة الخاتمة من امـتثال ما أمرتْ به واجـتناب ما نهتْ عنه، وترجمة ذلك إلى سلوك خلقى.

- والرغبة فى بذل المجهودات بنشاط وحيوية وإيجابية، إذ الحركة فى جوهرها نشاط دائب وعمل مستمر وانشراح بالعمل وسرور بأدائه على أحسن وجه.

- وصبر وتجلد على متاعب طريق الحركة بالدين، وهى متاعب تصل إلى حد التهديد والتخويف والتشويه الإعلامى واستعداء الجهلة والمنتفعين بأعداء الإسلام وما لهم من نفوذ وجاه، والاعتقال والتعذيب والسجن وربما القتل، وما بين ذلك من تضييق فى العمل وفى الرزق وفى حرية الحركة والتنقل.

- والقدرة على احتساب الصبر على ذلك كله عند الله تعالى.

* والحركة بهذا الدين الخاتم تعنى أعمالاً كثيرة أهمها فى مجالنا هذا عملان:

أحدهما: التحرك بهذا الدين؛ عقيدته ومبادئه وقيمه وأحكامه ومنهجه ونظامه فى الناس، والوصول إليهم حيث يكونون مهما تباعد المكان ما دام فى الإمكان الوصول إليه، لأن هذا الدين يسعى إلى الناس فى كل مكان، وحَمَلَته هم المتحركون به فى الآفاق ولولا الحركة ما كانت الفتوحات ولا كان انتشار الإسلام على النحو الذى انتشر به.

والآخر: أن تنظم الجهود والأعمال بين المتحركين بالإسلام؛ لمقاومة كل انحراف عن الإسلام، عقيدته ومبادئه وقيمه وأحكامه ومنهجه ونظامه، مقاومة ذلك وتقويمه وتغييره بكل الوسائل والأساليب التى شرعها الإسلام وهى:

* الكلمة الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن،

* والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفق شروطه وآدابه،

* والتعنيف والزجر والتهديد،

* والتغيير باليد،

* والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

* ومن أجل أن الحركة بالدين الخاتم؛ تبصير، وتغيير، شَمَّر أعداء الإسلام عن سوقهم ووجهوا ضرباتهم إلى التبصير بالدين، ومنعوا هذا التغيير بكل ضراوة ووحشية.

- وأعداء الإسلام أو الحركة الإسلامية ثلاثة أنواع:

النوع الأول:

الأعداء من غير المسلمين من أهل الأديان والملل والنحل والمذاهب السياسية والاجتماعية التى تكره الإسلام لما ترى فيه من خطر يتهدد باطلها من شرك وكفر وضلال.

وهؤلاء قوة مسيطرة تملك من الإمكانيات المادية والعملية والتقنية، والسياسية والاقتصادية؛ ما يجعل يدها طُولى وحربها ضارية، ونفوذها طاغيًا باغيًا.

والنوع الثاني:

كثير من حكومات العالم الإسلامى التابعة لهؤلاء الأعداء الدائرة فى فلكهم، الخاضعة لنفوذهم الاقتصادى والسياسى والثقافى والمعرفى. وهذه الحكومات هى رأس الحربة في ضرب الحركة أو الحركات الإسلامية، تتصدى لها بكل قوة وبطش لا يقره قانون ولا تبيحه أخلاق، يعينها على ذلك أعداء الإسلام من الغرب ومن الشرق، وكل الواهمين الخائفين من نظام الإسلام، وما هو بمخيف إلا للظالمين المستبدين أو الدول الغربية المساندة لكثير من حكام العالم الإسلامى الذين لا يستحون أن يتنكروا لما يدعون أنهم يقدسونه من صناديق الاقتراع والديمقراطية، وقد كذبوا أنفسهم فى دعاواهم وأشهدوا على أنفسهم بما فعلوه فى كل مكان وصل فيه الإسلاميون إلى قرب أبواب الحكم.

والجريمة التى قام بها الجيش فى الجزائر لمنع الإسلاميين المنتخبين من الوصول إلى الحكم لا يمكن أن تنسى، ولا الجرائم الأخرى التى تقوم بها جيوش بلاد إسلامية وحكوماتها لكى لا يصل الإسلاميون إلى الحكم فى عديد من بلدان العالم الإسلامى لا تخفى على أحد ممن يتبصرون أو يبصرون!!.

والنوع الثالث:

أولئك الذين يحول الإسلام ونظمه ومبادئه وقيمه بينهم وبين السرقة واستغلال النفوذ؛ ومنافقة الظالمين من الحكام، وطلاب الأسلاب من الوظائف والمناصب التى يمنحها الحاكم لهم كلما نافقوه وبرروا ظلمه وبطشه، هؤلاء لهم الحصانة النيابية يفعلون ما يشاءون، ولا يحاكم منهم إلا العاجز عن اتخاذ طريق يربط بين مصالحه ومصالح حاشية الحاكم وبطانته وأقربائه حتى الدرجة الدنيا من القرابة.

ومن هذا النوع من الأعداء أولئك الذين ورثوا المناصب الإعلامية فأخلصوا فى تشويه الحركة الإسلامية وتشويه الإسلام فى دعاوى لا يقبلها إلا الغافلون، ولا يقول بها إلا الحاقدون على الإسلام وكثير ما هم.

* إن هؤلاء الأنواع الثلاثة ومن يؤيدهم أو يخشى أن يعارضهم يشاركون تلك الحكومات وهذه الدول والمؤسسات فى تنفيذ خططهم فى ضرب الحركات الإسلامية والقضاء عليها.

- وخطة ضرب الحركات الإسلامية التى صُكّتْ فى دول الغرب وبعض دول الشرق لها خطوات أصبحت لا تخفى على الناس فضلاً عمن يراقب الأحداث ويتابع ضرب الحركات الإسلامية.

وهذه الخطة لضرب الحركات الإسلامية لها خطوات أصبحت أيضًا معروفة لا يجهلها إلا غافل ، وهى:

أولاً: شَن حملة إعلامية ضارية مضللة على الإسلام نفسه، تستهدف تشويهه واتهامه بالعجز والقصور، وعدم القدرة على مواكبة متطلبات الحياة المعاصرة، ولهم فى ذلك مقولات كاذبة يكذبها التاريخ، وتكذبها العقول، ومن ذلك:

- إن الإسلام سلطة دينية تتحكم فى الناس باسم الدين ورجال الدين كما كانت تفعل الكنيسة فى الغرب قبل الثورة عليها وعلى رجالها، تلك الثورة التى عزلت الكنيسة عن الدين، وليس فى تلك المقولة شيء صحيح، ولكنها أحقاد وأكاذيب، فليس الإسلام كالمسيحية ولا علماء الإسلام كرجال الدين في الكنيسة...

- وقولهم أو زعمهم أن الإسلام قد انتشر بين الناس بهذه السرعة بفعل الإكراه وإجبار الناس على الدخول فيه، وتكذيب هذه الفِرْية قد تكفل بها بعض الكتاب الغربيين أنفسهم[1].

- وزعمهم أن الإسلام دين يقوم على التعصب، والتمييز بين الأجناس - العنصرية - وهذا الباطل لا يعرفه فى صورته الدقيقة مثل أمريكا واليهود وبعض دول الغرب.

- وزعمهم أن الإسلام دين رجعى لو طبق منهجه فإنه يعود بالناس إلى عصور الظلام، ويهدم المسارح ودور السينما.

- وزعمهم أن الإسلام دين محلى إقليمى جاء إلي العرب وحدهم وللجزيرة العربية وحدها، وهى دعوى باطلة كذبها الواقع وسرعة انتشار الإسلام فى العالم، وقامت على دحضها عشرات الأدلة والبراهين[2].

(١) تحدثنا عنهم بتفصيل فى أكثر من كتاب لنا، وبخاصة كتاب: التراجع الحضارى للعالم الإسلامى اليوم، وطرق التغلب عليه - مرجع سابق.
وكتابنا: الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام - نشر دار المنار الحديثة القاهرة: ط رابعة: ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

(٢) رددنا على هذه الفرية بكتابنا: عالمية الدعوة الإسلامية الذى صدرت طبعته الأولى عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر ١٣٨٣هـ - ١٩٦٩م وطبعته الرابعة عن دار التوزيع والنشر الإسلامية: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

- وزعمهم أن الإسلام يضطهد المرأة ويقهرها، ويعطى للرجل السيادة المطلقة عليها، ويبيح الطلاق، ويبيح تعدد الزوجات متجاهلين أن إباحة الطلاق وتعدد الزوجات هو الحل لمشكلات الزنى والمخالّة واتخاذ الأخدان[1].

- وزعمهم أن نظام الميراث فى الإسلام جائر على المرأة يعيطها نصف ما يعطى الذكر، متجاهلين أنهم يحرمونها من الميراث حرمانًا كاملا[2].

- وزعمهم أن الإسلام يصادر الحرية الشخصية للفرد، ويحرمه من متطلبات جسده كالشهوة الجنسية، مع أن الإسلام شرع لذلك الزواج ويسَّره ووضع له حقوقًا وواجبات[3].

إلي غير ذلك من المفتريات كزعمهم أن الإسلام ضد المعاصرة والحداثة، وأنه ضد العقلانية[4].

* وقمة مفترياتهم وتضيليلاتهم زعمهم أن الإسلام يُدان بأعمال المسلمين، وهو كلام ساقط عقليًا وثقافيًا وحضاريًا، فقد يكون الإنسان مسلمًا، ولكنه يرتكب من الأخطاء كثيرًا مما حرمه الإسلام، فكيف يحتج بهذا العاصى على الإسلام؟ ومتى جاز أن تتحمل المبادئ والقيم أخطاء الأفراد؟.

ثانيًا: شَنُّ حملة إعلامية واسعة على الحركات الإسلامية الإصلاحية التجديدية تبدأ بتضيليلات أجهزة الإعلام ووسائله، وتنتهى بمناهج التعليم فى مختلف مراحله.

وتشويه الحركات الإسلامية يستهدف تشويه الأصل الذى أخذت عنه تلك الحركات وهو الإسلام نفسه.

وبذلك، وبقوة أجهزة الإعلام وإلحاحه على الناس وملئه أوقاتهم تسوء صورة الحركات الإسلامية، ويشوه رجالها والقائمون عليها، حتى إذا بطشت بهم هذه الحكومات كان الإعلام مبررًا لهذا البطش من خلال ما يبث من مواد خبيثة كاذبة مضللة فى مسرحياته وتمثيلياته وقصصه وسائر أعماله، مما يباعد بين المشاهدين وبخاصة الشباب وبين الانضمام إلى الحركة الإسلامية، لكن يشاء الله تعالى صاحب الدين ومنزله أن يقبل الشباب على

(١) انظر لنا: المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله- دار الوفاء بمصر الطبعة الثالثة: ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
(٢) انظر لنا: التربية الاجتماعية الإسلامية - دار التوزيع والنشر الإسلامية: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
(٣) انظر لنا: التربية السياسية الإسلامية - دار التوزيع والنشر الإسلامية: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
(٤) انظر لنا فى الرد على ذلك: كتاب التربية العقلية الإسلامية - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م الحلقة الثالثة: من سلسلة مفردات التربية الإسلامية.

الحركة الإسلامية وأن تصبح هاجسًا يخيف بعض الرؤساء، ليقينه بأن الانتخابات الحرة سوف تأتي بهم إلى الحكم وأنهم إذا جاءوا إلى الحكم لن يتركوه!!![1]. والسؤال الملح هو: وماذا يخيف في ذلك؟ والإسلام دين العدالة والرحمة والبر والتسامح!!!

ثالثًا: العمل الدائب - مهما كلفهم - على اختراق كل حركة إسلامية، بدس العيون فيها، ودسّ المبرمَجين مسبقًا ضدهم في صفوفها، ورصدها ومتابعة كل نأمة لأحد أفرادها والتجسس على وسائل اتصال بعضها ببعض؛ مع إغراء هذه العناصر المندَسة على إصدار تصريحات حادة متطرفة متعصبة، أو إغرائها بالقيام بأعمال لا يمكن أن يقرها الإسلام كالتخريب والقتل، وإصدار الأحكام بالكفر على بعض الناس، والتهديد لكل ما في المجتمع من شيء يخالف الإسلام بهدمه على رءوس الناس.

وكل ذلك لا يقره الإسلام ولا يرضاه، لأن التغيير لكل ما هو مخالف للإسلام له خطواته وموازناته وحكمته وحرصه على أن لا يؤدي ذلك إلى فتنة - كما قدمنا أن النهي عن المنكر إذا أدَّى إلى منكر أشد توقف وأرجئ إلى أن تحين ساعته المناسبة التي لا تؤدي إلى منكر أشد، وهي أمور يعرفها كل مسلم على علم بدينه ودعوته وحركته[2].

رابعًا: دَسُّ مجرمين مدَّربين بين صفوف بعض الحركات الإسلامية، ليقوموا باسمها بأعمال إجرامية كالتخريب والقتل للنساء والأطفال ومن ليسوا على علاقة بهم، مع تركهم ما يدل عليهم، ثم يقبض على بعض أعضاء تلك الحركة المرغوب في اعتقالهم وتعذيبهم أو قتلهم، وإذا وقع شيء من ذلك فقد خولف الإسلام وتعطلت أحكامه وانهارت قيمه، لأنه لا يجيز شيئًا من ذلك، وعلى سبيل المثال فإن قتل الطفل غير المسلم حتى لو كان المسلمون مع ذويه في حالة حرب غير جائز.

وأما السائحون فهم أهل أمان لا يجوز انتهاك أمانهم بتخويفهم، فكيف بقتلهم؟

فإذا وقع شيء من ذلك وهو لابُدَّ واقع جاءت الخطوة التالية له وهي:

حملة إعلامية تشوه الإسلام وتوحي بأنه دين الإرهاب والتطرف ووصف الحركات الإسلامية كلها بأنها إرهابية ومتطرفة، وبأنها تتعامل بالعنف وترتكب الجرائم وتقتل الأبرياء!!!

---

(١) جريدة الأهرام المصرية: العدد رقم: ٤٣٢٥٩. الصادر في ٦ من شهر ربيع الآخر ١٤٢٦هـ - ١٤/ ٥/ ٢٠٠٥م.

(٢) انظر لنا: كتاب مع العقيدة والحركة والمنهج في خير أمة أخرجت للناس، ط دار الوفاء بمصر: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

خامسًا: الانقضاض على الحركات الإسلامية المرصودة سلفًا، المعروف أفرادها مقدمًا الذين تقرر اعتقالهم وتعذيبهم وتقديمهم إلى محاكم عسكرية لينالوا جزاءً معروفًا قبل محاكمتهم!

وفى هذه الأحوال تصادر أموال الحركة وممتلكاتها وأموال أفرادها[1].

ثم يكون اعتقال وتعذيب ومحاكمات هزلية أمام غير القاضى الطبيعى للمتهم ويكون التحقيق - وهو على وجه الحقيقة تعذيب وإكراه بدنى ونفسى وعقلى وعصبى- للتوقيع على ما كتبه المحقق - بيد نُزعت أظافرها، وبضرب وتعذيب أثناء التوقيع، وكل من حقق معه أخبر بعدد سنوات سجنه قبل أن يحاكم إمعانًا فى الزراية بالقوانين وحقوق الإنسان، ومن أعدم أخبر من قبل أنه سيعدم، وكثير من أفراد حركة الإخوان المسلمين الذين لا يزالون أحياء يذكرون جيدًا - وهم فى السجن الحربى فى عهد عبد الناصر[2] - أنهم كانوا يجمعون فى صبيحة ذهابهم إلى المحكمة لبدء محاكمتهم فيطلب منهم أن يصطفوا حسب مدد حكمهم التى لم تبدأ المحاكمة فيها فيقال:

- من سيُحكم عليه بعشر سنوات يصطف هنا.

- ومن سيحكم عليه بخمسة عشر عامًا يصطف هنا.

- ومن سيحكم عليه بخمسة وعشرين عامًا يصطف هنا.

- ومن سيحكم عليه بالإعدام يصطف هنا.

فيصطفون لأن المحقق قد أخبرهم بأحكامهم قبل بدء المحاكمة!!!

يحدث هذا بينما يرفع فى الشوارع شعار: ارفع رأسك يا أخى فقد مضى زمن الاستعباد!!!

يحدث هذا وإسرائيل على أبوابنا تعد لضربنا فى عام ١٩٥٦م.

وأؤكد للقارئ أن كل بلد مسلم فيه سجن أو أكثر كالسجن الحربى وسجن أبى غريب وجوانتانامو وربما كان بعضها أشد ضراوة وإهدارًا لكرامة الإنسان وإهانة لإنسانيته.

---

(١) حدث ذلك وأكثر منه فى حكم جمال عبد الناصر سنة ١٩٥٤م وسنة ١٩٦٥م مع حركة الإخوان المسلمين، وحدث أعم منه وأسوأ فى كثير من بلدان العالم الإسلامى.

(٢) السجن الحربى فى مصر أسوأ ما عرف فى العالم من سجون، دعك من سجن أبى غريب فى العراق وسجن المِزّة فى سوريا وسجن جوانتانامو فى كوبا، لقد داس حمزة البسيونى قائد السجن الحربى المصحف بقدمه، وعندما استغاث أحد المعذبين بالله قال له: «خليه ييجى ينقذك وأنا أحبسه فى زنزانة وأمّن عليه» والذين سمعوا منه ذلك عشرات بل مئات لا يزالون أحياء، فهل حرب عبد الناصر ضد الإخوان أم ضد الله سبحانه وتعالى. يفعل هذا ثم يذهب للصلاة فى بعض المساجد؟

وعندما اشتط البطل المفدى لإرضاء الروس هذه المرة فجمع من أعضاء حركة الإخوان المسلمين ثمانية عشر ألفًا فى ليلة واحدة كما صرح هو بذلك وهو فى روسيا فى صيف عام ١٩٦٥م كانت إسرائيل تعد لضربة ١٩٦٧م التى أتت على الأخضر واليابس، وخانه الروس ثم قتلوه أو مات كمدًا كما يقال.

* إن أعداء الأمة الإسلامية التى أفصحوا بألسنتهم عن نواياهم اليوم هما: إريل شارون، وجورج بوش الابن، أضمروا ذلك حينًا وأعلنوا عنه حينًا، وشنوه حروبًا ضارية ضد أفغانستان والعراق وحروبًا غير أخلاقية ضد الصومال والسودان ومصر والمغرب العربى، وضد لبنان وسوريا والعراق وإيران وباكستان.

ولن نعدم فى كل بلد إسلامى اليوم «شارونا وبوشا» يتربص لمستقبل البلد ويعمل على تفتيته وإثارة الفتن فيه.

وإن العالم الإسلامى اليوم - إلا القليل ممن عصم الله- أصبحوا جنود «بوش وشارون» وأنهما بجنودهما كانوا ولا يزالون خاطئين فقد كان لهما أسوة فى الاستبداد والاستعلاء والبطش والجبروت هما: فرعون وهامان، وقد قال الله تعالى عنهما: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ**﴾ [القصص: ٨].

وبعد: فإن المشغولين بأعباء الحركة الإسلامية ليس لديهم فراغ وقت تزورهم فيه الأمراض النفسية والعصبية، بل لن تعرف إلى نفوسهم أو عقولهم طريقًا، وذلك فضل من الله ونعمة.

١٦- وممارسة الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا:

الجهاد فى سبيل الله - كما مقرر ومعروف - هو ذروة سنام الإسلام، كما أخبر بذلك المعصوم ﷺ عندما سأله معاذ بن جبل رضى الله عنه عن عمل يدخله الجنة ويباعد بينه وبين النار، فأجابه ﷺ بحديث نبوى شريف جاء فيه: **«ألا أخبركم برأس الأمر وعموده وذروة سنامه»؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد...»**.

* والجهاد فى سبيل الله جاءت فيه سور قرآنية بأكملها مثل:

- سورة الأنفال،
- وسورة التوبة،
- وسورة القتال أو سورة محمد،

- وسورة الفتح.

وجاءت فيه عشرات الآيات الكريمة فى سور قرآنية عديدة.

* والجهاد فى سبيل الله - كما هو معروف - أنواع:

- جهاد النفس الأمارة بالسوء.

- وجهاد الشيطان عدو الإنسان المضل المبين.

- وجهاد أعداء الإسلام ونظامه ومنهجه وقيمه وأحكامه وآدابه.

* وهدف الجهاد فى سبيل الله تعالى أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، بحيث لا يحول بين كلمة الله تعالى وعباده أحد.

* ووسائل الجهاد فى سبيل الله عديدة، منها:

- جهاد للباطل بالقلب أى إنكار ما عليه الناس من باطل، إذا كان المسلمون فى زمن لا يستطيعون غير ذلك، وهو الجهاد الذى سماه رسول الله ﷺ: **«أضعف الإيمان»**.

- وجهاد باللسان والكلمة مقروءة أو مسموعة وأنواعها عديدة كالخطبة والمحاضرة والمناظرة والمقالة والرسالة والقصة والرواية والمسرحية والسينما، وكل عمل فنى يستقطب السامع أو المشاهد.

وأعلى أنواع هذا الجهاد كلمة الحق أو العدل عند سلطان جائر.

- وجهاد بالمال والوقت وبذل الجهد، والعلم والتقنية، وكل ما من شأنه أن يزيد من قوة المسلمين وتمكنهم من مقاومة أعدائهم.

ويدخل فى هذا النوع من الجهاد ما لا حصر له من العمل مثل:

* تخذيل العدو بمحاولة صرفه عن العدوان على المسلمين لأسباب عديدة، عن طريق حملات إعلامية جيدة.

* وتخويف العدو وتهديده، بمختلف وسائل الإعلام وأجهزته وفنونه.

* عون الحكومة ومدها بكل ما يمكن أن تكون بحاجة إليه فى أى معركة مع العدو.

* والرد على إدعاءات العدو وتفنيدها.

* والمشاركة بالعمل فى أى موقع تحدده قيادة المعركة.

* والتضحية بكل ما يمكن أن يعين المجاهدين على جهادهم من **مال وعلم وعمل**.

* والصبر على متاعب الجهاد وأعبائه حتى يتحقق النصر.

- وجهاد القتال الذى يتضمن بذل النفس فى المعركة، وغالبًا ما **يكون هذا الجهاد ضد** عدو معتد يستهدف الدين والناس والأرض، وفى ذلك جاء **قول الله تعالى**:

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ **[الأنفال: ٣٩]**

* وكل مسلم قادر على أى نوع من أنواع الجهاد فإن ذلك واجب عليه، **لأنه يدخل من** باب فرض الكفاية، إلا إذا هوجمت بلد مسلمة فإنه يصبح فرض عين، **فقد روى أبو** داود بسنده عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»**.

* والجهاد فى سبيل الله فريضة مطلقة، لا يتقيد أداؤها بزمان معين **كالزكاة والصوم والحج**، ولا يتقيد بمكان بعينه كالحج.

- والجهاد فريضة لا تتوقف أبدًا، لأن أعداء الإسلام لا يمكن **أن يقضى عليهم جميعًا فى** زمن معين، وتلك من سنن الله تعالى.

وإطلاق فريضة الجهاد من الأوعية الزمنية أوضحها الله تعالى فى قوله عز وجل:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

- ومما يدعم إطلاق فريضة الجهاد من التقييد بزمن بعينه ما رواه أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الجهاد واجب عليكم مع كل أمير، برًا كان أو فاجرًا وإن هو عمل الكبائر...»**.

وهذا هو معنى أن الجهاد فريضة ماضية إلى يوم القيامة.

* ومن لم تحدثه نفسه بالجهاد، وبأن يغزو فى سبيل الله، فإنه يموت على شعبة من النفاق، فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق»**.

* الأمة الإسلاميـة أمة مجاهدة إلى أن تلقى الله تعالى؛ ولكى تستطيع الأمـة الإسلامية أن تجاهد أعداء الله، أعداءها، فلابد لها من الاستعـداد لخوض معركتها مع الأعداء، وهذا الاستعداد يسبقه إعداد متنوع على النحو التالى:

- إعداد إيمانى يتزود به المجاهد يعرف من خلاله هدف جهاده فى سبيل الله حتى لا تشوبه بعض الشوائب، والإيمان هو المحرك للجهاد والدافع له والداعى إلى الاستمرار فيه.

- والإعداد النفسى والجسدى، ليـخوض معركته قويًا صحيح النفس والجسـد، ليتحمل أعباء الجهاد وهى كثيرة.

- والإعداد العلمى، وذلك الإعداد على مستوى الفـرد والجماعة والأمة ويدخل فيه كل إمكانات التقدم العلمى فى جميع ميادين الـعلم، وبخاصة ما له صلة بالجهاد كتطوير السلاح وتحسين أدائه، وابتكار الجديد منه.

- والإعداد الفنى، ويدخل فـيه كل ما لـه علاقة بالحـرب والقتال من آليـات وتدريبات ورفع معنويات، ودراسـات عن العدو وإمكاناته، وغيـر ذلك من أنواع الإعداد الفنى الذى يحدده خبراء الحرب والقتال.

- والإعداد التقنى على أعلى مستوياته.

- والإعداد التسلحى على أعلى مستوياته أيضًا.

وكل هذه الأنواع من الإعداد التى ذكرتهـا وهى قليل جدًا من كثير جـدًا هى مفردات القوة التى أشارت إليها الآية الكريمة: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ ﴾ الأنفال: ٦٠].

فكل ما يرهب العدو فيـصرفه عن قتال المسلمين، أو يجعله منهـزمًا أمامهم داخل فى الإعداد لإرهابه.

* هذا المسلم الذى أُمـر بالجهـاد، وأُمر بالإعداد لكل أنـواع القوة، أمر كـذلك بأن يكون راضيًا عن عمله وإعداده موقنًا بأن ذلـك لو أدى بإخلاص فإنه سوف يحقق له رضا الله تعالى إن اختاره شهيدًا فى المعـركة، ورضا المسلمين أن حقق الله تعالى على يده النصر، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥٢]. والحُسْنيان هما: النصر على العدو، أو الشهادة فى سبيل الله تعالى.

هؤلاء المجاهدون الذين يمارسون أعمال الجهاد وأعباءه مشغولون أغلب أوقاتهم، وليس عندهم فراغ وقت يشعرون فيه بالملل أو الضياع أو الفشل، وبالتالى فلن تجد إليهم أمراض النفس سبيلاً.

- أين يجد المسلمون فراغًا وأوقاتهم ممتلئة بأنواع عديدة من العمل ذكرنا منها حتى الآن ستة عشر عملاً، وسنولي الحديث عن باقيها.

إن الإمراض النفسية بكل أنواعها هى أمراض غير المؤمنين وغير المجاهدين، الذين كلفهم الله تعالى بأن يعالجوا أمراض الفارغين المتبطلين بأن يدعوهم إلى العمل من أجل الإسلام فى مجالاته العديدة، ومن أعطى من جهده ووقته وماله للعمل من أجل الإسلام فهو الذى عرف الطريق القويم، ومضى فيه بعيدًا عن كل ما يصيب نفسه بالضيق أو الاكتئاب أو الإحباط أو غيره من أمراض.

ليس من المبالغة فى شيء أن يوصف لمريض بمرض نفسى أن يعالج نفسه بالجهاد فى سبيل الله.

١٧- والعمل على تكوين البيت المسلم:

تكوين البيت المسلم هدف للمسلم دعاه إليه الدين، وتدعوه إليه الفطرة السليمة والنظم الاجتماعية القويمة.

والبيت المسلم قاعدته الزوجة الصالحة، وثمرته الأبناء الصالحون، والزوجة الصالحة إكمال للدين، والزواج تعبير عن التدين لله تعالى بما شرع، والمتزوج محصَّن يصعب على الشيطان أن يغويه بالنساء وليس كذلك من لم يتزوج، وظل عزبًا.

* وقد امتن الله على الناس بأن جعل الزواج لهم سكنًا، وجعل بين الزوجين مودة ورحمة، وجعل فى لقاء الزوجين أعظم لذة نفسية جسدية فى حياة الإنسان، ومع نعمة هذه اللذة نعمة العفة عن الحرام، وكلل ذلك بأعظم نعمة وهى نعمة الولد.

- ولقد تعددت آيات القرآن الكريم الدالة على عظيم نعمة التزاوج ومن ذلك:

* قول الله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يس: ٣٦].

* وقوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الروم: ٢١].

* والآيات القرآنية فى ذلك كثيرة(١).

* والأحاديث النبوية الشريفة التى توجب الزواج على القادر كثيرة، متنوعة:

- بعضها يوجبه مثل ما رواه ابن ماجة بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«النكاح سُنَّتى، فمن لم يعمل بسنتى فليس منى، وتزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة، ومن كان ذا طول فلينكح، ومن لم يجد فعليه بالصيام فإن الصوم له وجاء»**.

- وبعضها يبين مكانة الزواج فى الدين، مثل ما رواه الحاكم - فى المستدرك - بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: **«مَنْ رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله فى الشَّطر الآخر»**- وبعضها يشجع على الزواج وييسره مثل ما رواه أحمد بسنده عن ربيعة الأسلمى رضى الله عنه أنه كان قد انقطع إلى رسول الله ﷺ يخدمه، ويبيت عنده لحاجة إن طرقته، فقال رسول الله ﷺ له: **«ألا تتزوج»**؟ فقال: يا رسول الله: إنى فقير لا شىء لى، وأنقطع عن خدمتك. فسكت رسول الله ﷺ، ثم عاد ثانيًا، فأعاد (ربيعة) الجواب، ثم تفكر الصحابى وقال: والله لرسول الله أعلم بما يصلحنى فى دنياى وآخرتى، وما يقربنى إلى الله منّى، ولئن قال الثالثة لأفعلن، فقال الثالثة: **«ألا تتزوج»**؟ قال: فقلتُ: يا رسول الله زوجنى، قال: **«اذهب إلى بنى فلان فقل: إن رسول الله يأمركم أن تزوجونى فتاتكم»** قال: فقلتُ: يا رسول الله، لا شىء لى، فقال لأصحابه: **«اجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب»** فجمعوا له، فذهبوا به إلى القوم، فأنكحوه، فقال لى رسول الله ﷺ: **«أَوْلِمْ»** وجمعوا له من الأصحاب شاة للوليمة.

وهذا التكرار من الرسول ﷺ يدل على فضل الزواج وعلى فضيلة العمل على تيسيره.

* **وقد عَدَّ العلماء من فوائد الزواج خمسًا هى:**

- **الولد - أى النسل - وهو من أسباب مشروعية الزواج.**

---

(١) من تلك الآيات الكريمة: الآية: ١ من سورة النساء،
والآية: ٦ من سورة الزمر،
والآية: ٣٨ من سورة الرعد،
والآية: ٧٢ من سورة النحل،
والآية: ١١ من سورة الشورى.

- وكسر الشهوة - وهى فطرة فى الإنسان - تبعث على الجماع والجماع، بأمر الله يؤدى إلى الولد.

- وتدبير المنزل، وذلك عمل تقوم به المرأة عادة، وفى قيامها به تخفيف عن الرجل.

- وكثرة العشيرة بالأبناء والأقارب والأرحام - النسب والصهر -.

- ومجاهدة النفس بالقيام بأعباء الزواج والحياة الأسرية.

* وعمل الرجل فى بناء البيت المسلم عمل جليل وكبير، يبذل المال والجهد والوقت، ومعاناة رعاية البيت وتربية الأبناء، وهو عمل يستغرق كثيرًا من طاقة مَنْ يُريد أن يكوِّن بيتًا مسلمًا، لكن أجره عند الله عظيم؛ ومكانته بالنسبة للعفة والإعفاف كبيرة، واشتراكه فى تكثير عدد المسلمين مشكورة، وتربية أبنائه على قيم الإسلام ومبادئه وأحكامه ونظمه أعظم أثرًا وخطرًا[1].

* وقد أحاط الإسلام الزواج بضوابط وأطر تجعله أهم الأعمال الاجتماعية التى يقوم بها الإنسان فى حياته.

ومن هذه الضوابط والأطر:

- أن الزواج الشرعى هو الطريق الأوحد إلي تكوين الأسرة المسلمة، وفى هذا إعلاء لشأن الأسرة وإعلاء لشأن الزواج.

- وأن الزواج هو الطريق الأوحد للحصول على الأبناء، وليس التبنى كما يفعل بعض الناس، وأن الإسلام منع انتساب أحد إلى من تبناه، وأمر بدعوة المتبنين إلي آبائهم لأن ذلك هو الأقسط والأقوم.

- وأن الزواج هو التعبير الوحيد عن الرغبة الجنسية بين الزوجين وكل ما عداه فى التعبير عن هذه الرغبة حرام كاللواط والسحاق ونحوهما.

- والزواج مسئولية متبادلة بين الزوجين، فلكل منهما حقوق وواجبات نحو الآخر، وكل منهما مطالب بما عليه، ولا يملك الطرف الآخر أن ينكر ما له من حقوق.

- وأن التزام كل من الزوجين بحقوقه وواجباته نحو الطرف الآخر يستدعى تقوى الله تعالى ومراقبته، وأنه يعود بأحسن النتائج على الزوجين أولاً وعلى الأبناء والأقارب والأرحام بعد ذلك.

(١) للتوسع: انظر لنا التربية الإسلامية فى البيت. ط دار التوزيع والنشر - القاهرة: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

– والإطار القوى المتماسك الصحيح للزواج هو تقوى الله، أى يتقى كل منهما ربه فى الطرف الآخر، لأن ذلك هو الذى يحول بين البيت المسلم وبين أى مشكلة تقوم بين الطرفين.

* وما سمعت عن مشكلة بين زوجين ولا سُئلتُ عن حل لأى مشكلة بين زوجين إلا وجدتُ حل هذه المشكلة والتغلُّب عليها كامنًا فى أن يتقى الله كلٌّ طرف منهما فى الطرف الآخر، لما فى تقوى الله من حيادية وموضوعية وعدل والتزام بطاعة الله فى التعامل بالحسنى مع الطرف الآخر.

وعندما يستطيل أحد الطرفين على الآخر تكون تقوى الله غائبة عن هذا الطرف المستطيل.

* وتقوى الله لا تحتاج إلى رقيب من خارج الإنسان، أى رقيب من أهله أو أهلها، وإنما الرقيب هو الله تعالى الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، مضافًا إلى ذلك رقابة الإنسان لنفسه بما أودع الله فى عقله من يقظة، وما فطر عليه قلبه من صفاء ونقاء. ولقد علمنا رسول الله ﷺ هذه الرقابة الذاتية، فيما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ بارزًا يومًا للناس فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: **أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث. قال: ما الإسلام؟ قال: أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان، قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك...»**

وفى هذا الجزء الأخير من الحديث الشريف تحديد لمعنى المراقبة، يراقب الإنسان ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله تعالى هو الذى يَرَى عبده وما يصنع، فيجازيه بالإحسان إحسانًا وبالسوء ما يستحقه من عقاب؛ لأنه سبحانه العدل الذى لا يقبل أن يظلم أحد من عباده أحدًا، فما بالنا بعظيم الذنب إذا كان المظلوم أحد طرفى حياة زوجية وثَّقها الله تعالى بالمودة والرحمة؟

* وإن المسلم المشغول بتكوين بيت مسلم والسهر عليه وعلى رعايته وإجابة مطالبه وتربية أبنائه، وكل من فيه، والالتزام بكافة الحقوق والواجبات فيه، إن هذا الإنسان المسلم ليس لديه وقت فراغ ينفذ إليه الشيطان منه فيضله بالوسوسة والهمز واللمز ليفد إليه المرض النفسى بعقابيله من أوسع أبواب الشيطان، إن الشيطان فى هذه الحالة لا يعجز عن النفوذ إلى نفس هذا المسلم بالمرض النفسى الذى ينشره بين الناس.

١٨ - ورعاية الأبناء وتربيتهم تربية إسلامية:

هذا العمل هو واجب الأبوين معًا وإن كان عبؤه الأكبر واقعًا على الأم بصورة مباشرة، الأمر الذى يجعل الزوج يدقق فى حسن اختيار زوجته، لما سوف يلقى عليها من عبء تربية الأبناء.

* والأسرة المسلمة يجب أن تكون المحضن الآمن الواعى، النقِىّ الذى يُنَشَّأ فيه الأبناء تنشئة إسلامية صحيحة، يتمكن بها الأبناء من أن يشقوا طريقهم فى الحياة مزودين بقيم الإسلام ومعاييره وآدابه، ليكونوا لبِنَات صالحة وعوامل إيجابية فى بناء المجتمع المسلم.

* والأسرة المسلمة لا تستطيع أن تربى أبناءها تربية إسلامية إلا إن كان ركناها - الأب والأم - قد توفر فى كل منهما شرطان أساسيان هما:

أ- العلم بالإسلام.

ب- الالتزام بمنهجه؛ قيمه وأحكامه وأخلاقه.

أ- أما العلم بالإسلام:

فهو الأساس فى تربية الأبناء أيا كانت نوعية ثقافة الأبوين، والحصول على العلم بالإسلام يسَّره الله تعالى وأعان عليه بل أثاب عليه فى الدنيا والآخرة.

- أما تيسير الله تعالى للعلم بالإسلام، فلأنه سبحانه قد جمع فى القرآن الكريم كل أركان الإسلام وأحكامه وشروطه وآدابه، وقال عن هذا القرآن الجامع لدين الإسلام: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٣٢].

- وأما إعانته سبحانه على استيعاب الإسلام، فبما أوحاه إلى نبيه الخاتم من سنته، وبعصمته عن أى خطأ فى أمور الدين، وجعله لا ينطق عن الهوى، فسُنَّة النبى ﷺ وسيرته أكبر عون للمسلم على فهم الإسلام فهى التطبيق العملى للإسلام.

- وأما إثابته على ذلك فى الدنيا والآخرة، فلأنه سبحانه وتعالى جعل قراءة القرآن عبادة، وجعل قراءة الحرف منه بعشر حسنات وليس الحرف آية مثل: «ألم» ولكن بألف ولام وميم بكل حرف عشر حسنات. روى الدارمى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تَعلَّموا هذا القرآن فإنكم تؤجرون بتلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إنى لا أقول بألم، ولكن بألف ولام وميم بكل حرف عشر حسنات».

* ويستطيع الأبوان تحصيل العلم بالإسلام إذا وفرا فى بيتهما أهم مصادر الإسلام وهما:

- القرآن الكريم: مصحوبًا بتفسير ميسَّر ووجيز، وأرشح لذلك «المنتخب فى تفسير القرآن الكريم»(١) فهو فى هذا المجال أجود التفاسير وأيسرها.

- وفى السنة النبوية: كتاب: «رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين» لأبى زكريا يحيى ابن شرف النووى، وهو من كتب السنة الميسَّرة، ومن أحسنها تبويبًا وترتيبًا(٢).

وهذان الأصلان فى الإسلام كافيان فى تعريف الأبوين الإسلام تعريفًا وافيًا شافيًا قادرًا على مدهما بالقيم التربوية التى يربيان عليها الأبناء تربية إسلامية.

أما غير هذين المصدرين من الكتب فكثير وميسور، ولكن يحتاج إلى اختيار.

* وإن الأبوين مهما تكن ثقافتهما الخاصة، لن يستطيعا أن يربيا أبناءهما تربية إسلامية ما لم يتزودا بالعلم الإسلامى الأساسى؛ الكتاب والسنة والسيرة النبوية.

ب- وأما الالتزام بمنهج الإسلام وقيمه وأحكامه وأخلاقه:

فذلك هو التطبيق العملى للإسلام فيما فرض على عباده وفيما ندبهم إليه من قول صالح وعمل صالح، ومن الاقتداء بالرسول ﷺ فى هديه وتعامله مع الناس.

* وعلى قدر ما يكون الأبوان ملتزمين بالإسلام عقيدة وعبادة ومعاملة، على قدر ما ينجحان فى تعليم الأبناء ذلك كله دون حاجة إلى جلسات خاصة ودروس وكلام، إذ يجد الأبناء أمام أعينهم نموذجين للإسلام فى مجال العمل والتطبيق.

* وأحب أن أنبه إلى خطأ تربوى يقع فيه بعض الآباء، وهو: عدم الاهتمام بتربية أبنائهم تربية إسلامية اعتمادًا على المدرسة، لأن فى ذلك خطأين واضحين:

أحدهما: ضياع السنوات التى تسبق الذهاب إلى المدرسة وهى خمس سنوات أو ست، وهى فترة تعلم وتأثر والتقاط لكثير من القيم من داخل البيت؛ لأن الأبناء شديدو الملاحظة فى هذه الفترة بمجرد الوعى ثم المشى والكلام والفهم.

---

(١) أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - بوزارة الأوقاف المصرية وتعددت طبعاته وهو متوافر لمن أراد.

(٢) طبعته دار النشر والتوزيع الإسلامية طباعة جيدة مشكولة مخرجة إخراجًا جيدًا، وحددت له سعرًا مناسبًا للمشترى - جزاها الله خيرًا بما يسَّرت للمسلمين.

والآخر: هو أن المدرسة فى بعض الأحيان لا تهتم بتعليم القيم الإسلامية لأسباب عديدة لا مجال الآن للحديث عنها، لكن أبرزها أن منهج التعليم وخطته تقلل الاهتمام بالقيم الإسلامية(1).

* إن البيت المسلم عليه أن يقدم للمدرسة أطفالاً تشبعوا بخلق الإسلام وقيمه فى بيوتهم.

والمدرسة تطبق منهجًا للتربية الإسلامية بطريقتها، ومن خلال وسائلها التى تخلو فى كثير من الأحيان من القدوة، وعلى البيت أن يتابع ما تقول المدرسة وأن يُعيد النظر ويُبادر بتعديل أى خلل تشعر به الأسرة المسلمة فى تربية المدرسة لأبنائها.

* ومما أحذرّ منه وأخَوّف من نتائجه، أن تحدث أمور فى البيت المسلم قد يستهين بها الأبوان ولكن لها خطرها فى تربية الأبناء، مثل:

- المشاجرات بين الأبوين ورفع الأصوات، أمام الأبناء،
- واستعمال الألفاظ التى لا تليق، والتهديد والوعيد،
- والإهمال فى أداء الفرائض أو التكاسل عنها،
- وذكر عيوب الناس أمام الأبناء،
- والإسراف فى تدليل الأبناء،
- والإسراف فى التشدد معهم،
- وترك عقاب المقصر بالعقوبة المناسبة،
- وترك تكليفهم بأعمال منزلية تناسب أعمارهم،
- وقطعهم عن زيارة أقاربهم،
- وترك تحبيبهم فى المدرسة،
- وإهمال تدريبهم على حفظ بعض سور القرآن الكريم، وبعض الأحاديث النبوية،
- وترك تدريبهم على الكتابة والرسم والتعبير بالقلم على ورقة،
- وترك الترفيه عنهم أسبوعيًا خارج البيت.

(1) أصبح ذلك شأن المدرسة فى معظم بلاد المسلمين، لأن المسيطرين على التعليم وواضعى سياسته ومناهجه ليس ولاؤهم للإسلام أقوى من ولائهم للفكر الأجنبى عن الإسلام، المتدخل فى اختيار المنهج والخطة والمعلم، وهو فكر يتصور أن الإسلام يدعو إلى التطرف والعنف والإرهاب، فلابد من تخفيف منابعه كما قالوا؟!!

وغير ذلك من الهفوات أو الأخطاء التى لا يقيم لها الأبوان وزنًا وهى على درجة عالية فى التربية والرعاية للأبناء.

* وعندما يذهب الأبناء إلى المدرسة فإن على الأبوين رعاية الأبناء رعاية تناسب هذا الجديد الذى انتقلوا إليه، وسوف يتأثرون به، وهو المدرسة، بكل من فيها وما فيها، ومن تلك الرعاية:

- تعويد الأبناء على احترام مواعيد النوم والاستيقاظ، للانضباط مع ظروف المدرسة.
- وتعويدهم النظافة الشخصية، ونظافة كل ما له علاقة بهم وبالمدرسة.
- وتعويدهم وتدريبهم على النظام والترتيب لأنفسهم وكتبهم ودفاترهم وأدواتهم المدرسية.
- والحديث معهم عن المدرسة وعما يجرى فيها حديث المستفسر الموجه لا حديث الناقد الذى يتصيد العيوب للمدرسة أو نظامها أو معلميها أو مرافقها أو مكانها، لأن ذلك يعنى أن يكره التلاميذ المدرسة، ويضيقوا بها فتقل فائدتهم منها أو تنعدم، ويفضلون التغيب عنها أو الهروب منها.
- وزيارة الأبناء فى المدرسة، فى الوقت الذى تحدده المدرسة لهذه الزيارات، لتحدث الألفة بين أولياء أمور التلاميذ والمدرسة.
- والاهتمام بأن يؤدى الأبناء واجباتهم المدرسية الخاصة بالبيت، ولا بأس من معاونة الأبناء فيما يحتاجون فيه إلى عون بشرط عدم المبالغة فى ذلك، إذ تنعكس هذه المبالغة سلبيًا على الأبناء فلا يحبون الاعتماد على أنفسهم.
- وتَفقد كتبهم ودفاترهم وواجباتهم المنزلية بين آن وآخر، وتوجيههم التوجيه الذى يمكنهم من الحصول على رضا المدرسة وعلى النجاح والتفوق، والانشراح بالذهاب إلي المدرسة ليطلع المدرسون على مهارة الأبناء فى كل ذلك.

* وعلى الوالد أن يصطحب ابنه أو أبناءه إلى المسجد - كما ينبغى أن تفعل الأم ذلك مع بنتها أو بناتها - يفعلان ذلك فى العمر المناسب لأبنائها، والعمر المناسب هو الذى يدرك فيه الطفل أنه ذاهب إلى بيت الله، فيكف فيه عن الضَجيج والصخب، وكل ما لا يليق بالمسجد من كلام وتحرك وغير ذلك؛ ليتم اعتياد الأبناء على الذهاب إلى المسجد وأداء الفرائض فيه، فيقبل عليه ويتشبع بروحه، ويتعلم ميزات صلاة الجماعة، ويعيش المسجد فى نفسه وحسه وقلبه وعقله.

* ومن صميم رعاية الأسرة لأبنائها أن تستمر هذه الرقابة مهما كبروا ماداموا فى البيت ومع الأبوين، إلى أن يبلغوا سن النضج والقدرة على إنشاء بيت جديد وأسرة جديدة، ثم تصبح هذه الرعاية فى صورة تساؤل عن أحوال الأسرة الجديدة[1].

وبعد: فإن الأبوين اللذين ينشغلان بتربية أبنائهما تربية إسلامية، ويرعيان هؤلاء الأبناء تلك الرعاية التى ذكرنا جانبًا منها، لن يجدا وقت فراغ يدخل إليهم الشيطان منه فيوقعهم فى أمراض النفس وجفاء القلب، والضيق والكبت والاكتئاب والإحباط والصراع.

وبالتالى فإن القيام بمثل هذه الأعمال طرد وإبعاد لمثل هذه الأمراض، وذلك من فضل الله تعالى.

١٩- وعدم الوقوع فى سجن الوظائف الحكومية:

الأصل فى العمل أنه ضرورى للإنسان ليعيش بغض النظر عن نوعه مادام مشروعًا، وليس لأحد أن يترك العمل وينتظر أن تمطر عليه السماء ذهبًا أو فضة أو طعامًا ولباسًا.

والأصل فى العمل أن يكون حرًا، وأن يكون من اختيار العامل يمارسه بنفسه، بل يفكر فى إنشائه.

* وهذا العمل جهد إرادى قد يكون عقليًا، وقد يكون بدنيًا حرفيًا، وفى جميع الأحوال فإن العمل يرتجى منه أن يحقق للعامل هدفًا اقتصاديًا هو:

الحصول من ممارسة العمل على رزق يكفى العامل وأسرته ليعيش به حياة إنسانية كريمة، وأن يكون فى إمكانه القيام به دون إرهاق أو مشقة.

- والعمل أيا كان نوعه وظيفة اجتماعية تسهم فى بناء شخصية العامل، وتضفى عليه من الصفات ما يعتز به، وما يستطيع أن يواجه به الناس وهو سعيد راض عن عمله.

- وكلمة العامل يدخل تحتها كل من يمارس عملاً، فهى تشمل من يسمون المستخدمين فى الحكومات والشركات والمصانع والمزارع والبيوت، إذ كل من هؤلاء صاحب حرفة - عمل - يؤديه ليحصل من ورائه على أجر.

- والعمل بوصفه حرفة يكتسب الإنسان منها رزقه له شرعية فى الإسلام توجبه على كل قادر عليه، وتؤثم من يتركه ليعيش عالة على الناس، ولو كانوا الأقربين منه، والعمل

(١) للتوسع فى معرفة ذلك ومعرفة تفصيلات أكثر، انظر لنا: التربية الإسلامية فى البيت - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية. مرجع سابق.

فى الإسلام للدين والدنيـا، وهو ثمرة الإيمان والفهم، والله تعـالى يطالبنا بالعمل فى قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وروى الطبرانى - فى الأوسط - بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلاَّ الهَمُّ فى طلب المعيشة»**.

وروى الطبرانى - فى معـاجمه الثلاثة[1] - بسنده عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ جالسًا مع أصـحابه ذات يوم، فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة، وقد بكَّرَ يسعى. فقالوا: ويح هذا، لو كان شـبابه وجلده فى سبيل الله، فقال ﷺ: **«لا تقولوا هذا؛ فإنه إن كان يسـعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيـها عن الناس فهو فى سبـيل الله، وإن كان يسعىَ على أبوين ضـعيفين أو ذرية ضـعاف ليغنيـهم ويكفيهم فـهو فى سبيل الله، وإن كان تفاخراً وتكاثراً فهو فى سبيل الشيطان»**.

وروى البخارى ومـسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قـال: قال رسول الله ﷺ: **«لأن يأخذ أحـدكم حبله فـيحتطب على ظهـره خير من أن يـأتى رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه»**.

وروى أحمـد بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: **«خيـر الكسب يد الصانع إذا نصح»**.

* وحول العمل والعمال تقوم فى عصورنا الحديثة دراسات وبحوث، بل مذاهب ومدارس، وتيارات فكرية وسياسية تتصل بأساسيات العمل من:

- حقوق العامل وصاحب العمل وواجباتهما،
- وأجور العمال، وتأمينهم بعد بلوغهم سن التقاعد،
- وتدريب العمال ليجيدوا العمل،
- وتوزيع العمال جغرافيًا،
- ووضع مواصفات فنية للعمل نفسه وللمصنع الذى يعمل فيه،
- وعدد الساعات التى يعمل فيها العامل،

(١) المعجم الكبير والمعجم الأوسط والمعجم الصغير.

- وماذا للعامل من إجازات بمرتب، وأخرى بنصف مرتب، وثالثة بغير مرتب دون فصله من العمل،

- وإنشاء نقابات للعمال،

- والعقد بين العامل وصاحب العمل؛ حقوقه، وواجباته وصياغته، وما فيه من شروط تقيد طرفيه وتلزمهما.

- وحق العمال فى التظاهر والإضراب عن العمل.

* وفى عصرنا الحديث أصبح الناس الذين يشتغلون بالقضايا الاجتماعية والقضايا السياسية وقضايا العمل والعمال ينادون بوجوب أن توفر الحكومة لكل قادر على العمل فرصة عمل يحصل منها على أجر مناسب يكفيه ويتناسب مع مهارته.

وهذا واجب كل حكومة لأنها التى تملك الإمكانات الضخمة التى لا يملكها الأفراد؛ ولا أصحاب العمل، ولا الأثرياء، ولملكها هذه الإمكانات ولما تسنه من قوانين يرضخ لها المواطن، كان واجبًا عليها أن توفر فرصة عمل لكل مواطن قادر على الكسب، هذه مسألة مقررة عند جميع الناس الآن.

* غير أن الحكومات فى كثير من بلدان العالم الإسلامى شمولية مستبدة ذات حزب واحد يسيطر على أملاك الدولة ويسخرها لمصالحه ومصالح أعضائه.

- وهذه الحكومات تحاول دائمًا أن تتملق الطبقة العاملة لتضمن ولاءها، وسكوتها، فتستأنسها بأعمال وأجور تسدّ الرمق وتغض النظر عن الإنتاج نوعًا وكمًا، وتتغاضى عن الإهمال والتقصير، على الرغم مما فى هذه السياسة من ضرر أكيد على المجتمع كله، لكن فى سبيل بقاء حكومات الاستبداد على كراسى الحكم، يجوز عندهم أن تتجاهل مصالح المجتمع.

- ومن أجل ذلك كان بحث الإنسان عن عمل حُرّ بعيد عن سلطان الحكومات أحسن له وأوفق، لأن العمل لدى الحكومة سجن لا يستطيع فيه العامل أن يكون حر الحركة، ولا أن يجد حافزًا على جودة الإنتاج[١].

(١) من مساخر الحكومات المستبدة أن تعطى للعمال والموظفين حوافز على الإنتاج وهى تعلم - كما تقول تقاريرها- سوء الإنتاج وقلته وعدم قدرته على تحقيق الاكتفاء الذاتى فضلاً عن منافسة السلع والخدمات المستوردة، إنها أكاذيب ونفاق متبادل من يوم وضعت يدها على السلطة الحكومات العسكرية.

- ومن مغالطات حكومات الاستبداد دعواها أنها تشجع العمل الحرّ، وإن كانت تضع أمامه العراقيل، وتوشك بتشريعاتها أن تنتقم من كل صاحب عمل حُرّ، بغض النظر عن أن هذه التشريعات ضد المجتمع وضد قدرته على تحقيق النضج الاقتصادى، إن لسان حال هذه الحكومات يقول: ليذهب كل شيء وكل أحد إلى الجحيم مادامت الحكومة فوق كراسيها ومادام حزبها مستوليًا على الأخضر واليابس فى الوطن، ثم لا تستحى هذه الحكومات أن ترفع شعارات هى تعلم أنها كاذبة مثل:

الكفاية والعدل،

والديموقراطية،

وحقوق الإنسان،

وارفع رأسك يا أخى فقد مضى زمن الاستعباد،

وأعداء الشعب لكل من عارض إن جرؤ على المعارضة،

ومكاسب الثورة،

ومجتمع الرفاهية والعدل،

وتطوير الصناعة،

وتوسيع الرقعة الزراعية،

و «كانتلوب» لكل مواطن، بدل القمح.

وما لا أحصى من شعارات تفيض بالكذب والقحة والمغالطات، بدليل أن أغلب هذه الحكومات تعيش اختناقًا اقتصاديًا، وتغرق فى الديون الخارجية حتى أذنيها وتبيع أو تخصخص أملاك الدولة ومشاريعها لتسدد فوائد الديون.

- لكل هذه الاعتبارات كانت الوظائف الحكومية سجنًا عالى الأسوار ردئ البنيان، فاحش النظام، مليئًا بسجانين غلاظ شداد، ومن دخل الوظيفة الحكومية دخل هذا السجن وهيهات له أن يستطيع التحرر منه.

لذلك كانت الأعمال الحرة أهون شرًا من سجن الوظيفة الحكومية، لأنه من خلالها يمكن التنفس بالبعد عن هذا السجن الخانق والسجان العابث الغليظ.

* وخنق العمل فى البلدان الإسلامية التى تحكم حكمًا شموليًا مستبدًا، والتضييق على العاملين فى العمل أصحاب عمل وعلماء وحملهم على الهجرة إلى بلاد الغرب، لكى يجدوا البيئة المناسبة والتشجيع على العمل والابتكار، تلك سياسة يحكم أطرافها أعداء الإسلام ويسلمون خططها لبعض هذه الحكومات المستبدة بعديد من الذرائع والحجج، لتنفذ سياسة الأعداء، وهى تحسب أنها تحسن صنعًا، إن أحسنا نحن الظن بها.

- وأنا على ثقة من أن ما أقوله عن العمل عمومًا وعن العمل الحر على وجه الخصوص قليل من كثير لا يتسع لذكره هذا الجانب من الكتاب.

- كما أنى على يقين من أن كلامى هذا على الرغم من صدقه وقيام الأدلة عليه سوف ينبرى له بعض المنتفعين بالفساد والاستبداد والحزب الواحد، والراغبين فى البقاء على كراسى السلطة، هؤلاء جميعًا سيقولون عن كلامى هذا ومثله:

إنه تفسير تآمرى للتاريخ ولحركة الأحداث، وتحميل لكل أسباب الفشل لهذا العدو الوهمى للإسلام والمسلمين!!

- وفى الرد على هؤلاء المخلصين لأنفسهم ولأوليائهم نقول:

اقرأوا ما قاله عدد من رؤساء عالم الغرب بمنتهى الصراحة ودون حياء أو خجل بأن الإسلام هو عدوهم الأول والأوحد وأن العالمين العربى والإسلامى يفيضان بالإرهابيين والمتطرفين من المسلمين، وأن أمن أوروبا وأمريكا لا يكون إلا بالسيطرة على هذين العالمين والاستيلاء على ما فيهما من نفط ومشتقاته ليقرأوا هذا، ثم يتدبروا فيما قرأوا، ثم ليقولوا هم: أهناك تآمر على العالمين العربى والإسلامى، أم أنها إدعاءات؟

* إن هؤلاء الرؤساء الغربيين وهم يعلنون عن عدائهم للإسلام والمسلمين إنما يعبرون عن الثقافة السائدة فى مجتمعاتهم، التى كتبها كبار مفكريهم من أمثال:

- «فرانسيس فوكوياما»؛ الأمريكى اليابانى الأصل:

الذى قال فى محاضرة له ألقاها فى معهد «بروكنجز» الأمريكى: «إن الخطر الإسلامى يتهدد أوروبا من الداخل أكثر مما يتهدد الولايات المتحدة من الخارج، ثم دعا إلى أن تكون أوروبا وأمريكا صفًا واحدًا فى مواجهة هذا الخطر الإسلامى الذى يتهددهما معًا!!!

ومن هذا المعين أخذ الرؤساء الغربيون كلماتهم التى قالوها فى عداء الإسلام والمسلمين.

- و«برنارد لويس» اليهودى البريطانى الأستاذ فى جامعة «برنستون» بالولايات المتحدة الأمريكية.

وهذا «البرنارد» يحذر الأوروبيين من أنه إذا استمرت هجرة المسلمين إلي أوروبا، فإن أوروبا سوف تصبح فى عام ٢٠٥٠م جزءًا من المغرب العربى الإسلامى(١).

وقد أخذ رؤساء هولندا وفرنسا وألمانيا تحذيرات «برنارد» مأخذ الجد ووضعوا على هجرة المسلمين ما شاءوا من قيود.

- إن الذين يرفضون تفسيرنا للأحداث ويقولون إنه التفسير التآمرى للأحداث، عليهم أن يفكروا فى الأحداث التالية:

- لماذا أغْرَتْ أمريكا صدامًا بغزو إيران فى الثمانينات؟ وكم خسر الإيرانيون والعراقيون من عشرات الألوف فى هذه الحرب الظالمة، وكم خسروا من مليارات الدولارات؟

وكم أرثوا العداوات بين المسلمين!!!

- ولماذا أغْرَتَ أمريكا صدامًا بغزو الكويت؟

- ولماذا احتلت الكويت، ولا تزال فيها تحميها من صدام حتى بعد سقوط صدام وقبوعه فى قعر سجن فى بغداد؟

- ولماذا غزت أمريكا أفغانستان، وقضت على حكومة شرعية فيها؟ ولماذا هى باقية فيها حتى اليوم منتصف عام ١٤٢٦هـ منتصف عام ٢٠٠٥م؟

- ولماذا غزت العراق غزوا تدميريًا لثقافته وحضارته وآثاره التاريخية؟

- ولماذا فصلت جنوب السودان عن شماله بأساليبها الخبيثة؟

- وماذا تنوى فى فصل غرب السودان «دارفور» عن شرقه؟

- وماذا فعلت أمريكا مع باكستان؟

- وما تفعل اليوم مع كثير من دول الخليج؟

- وماذا تفعل أمريكا مع إسرائيل التى طردت الفلسطينيين من بلادهم واحتلتها بأسلحة بريطانيا والغرب وأمريكا؟

---

(١) كيف يقول هذا؟ مع أن جملة عدد المسلمين فى كل دول أوروبا لا تزيد على خمسة عشر مليونًا من البشر، وسط عدد سكان أوروبا بعد توحيدها الذى بلغ أربعمائة وسبعة وخمسين مليونًا، كيف يصبح البحر جزءًا من قطرة؟.

* لهذا نعتبر البحث عن عمل حرّ بعيد عن وظائف الحكومات فى العالم الإسلامى، تلك الحكومات التى لا تريد أن تحس بأن أمريكا والغرب يعادونها ويعملون على تخريبها وتجويعها وتركيعها، إن العمل فى دوائر هذه الحكومات لغير المضطر يخدم أهداف أعداء الإسلام والمسلمين.

* ولنا أن نتساءل:

أليست أمريكا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وإسبانيا وغيرها من بلدان أوروبا تتآمر وتخرج من التآمر إلى التنفيذ ضد العرب والمسلمين؟

ومن كان فى شك من ذلك فلينظر هل لديه دليل على شكه فى تآمر هذه البلاد على الإسلام والمسلمين، ثم لينظر فى شكه أو غفلته أو تغافله وإغماض عينه عن الحق، هل يغير كل ذلك من الواقع شيئًا؟

ماذا يريد هذا الشاك أكثر من كلمات الرؤساء الحاليين والمفكرين الذين لا يزالون أحياء يرزقون؟

وبعد: فإن الذين يعملون وينتجون ويخلصون فى عملهم وإنتاجهم أبعد ما يكونون عن الأمراض النفسية والعصبية التى يصدرها إلينا الأعداء مموهة بالقروض وبالمعونات المشروطة وغير المشروطة ليستأصلونا من جذورنا، والعالم كله يشهد على ذلك ويشاهده، فإذا قلنا: إنهم يفعلون ذلك بنا قالوا: إنكم تحبون التفسير التآمرى للأحداث!!!

٢٠- والمشاركة فى الأنشطة الاجتماعية:

الأنشطة الاجتماعية من الأصول التى يقوم عليها التجمع البشرى، وكل عمل قام به اثنان أو أكثر فهو عمل اجتماعى، وبخاصة إذا كان الفرد لا يستطيع أن يقوم به وحده.

وتجمع الناس فيما بينهم على عمل من الأعمال الخيرة فطرة فيهم فطرهم الله عليها، ودليل ذلك أنصع من الشمس؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش وحده حياة آمنة يحقق فيها حاجاته.

* وللحياة الإنسانية الاجتماعية مفردات كثيرة، نذكر منها:

- العمل الذى يقوم به الناس مجتمعين بحيث لا يستطيع أن يقوم به واحد منهم بمفرده، وبحيث يحقق لهم نفعًا فى دنياهم أو أخراهم أو كليهما.

- والعمل الذى يتعاونون على إنجازه ليمنع عنهم شرًا ويدفع عنهم مفسدة.

- وكلما زاد عدد المتعاونين على إنجاز العمل دل ذلك على قيمة هذا العمل وجدواه.

- والأمة المسلمة فى تجمع أفرادها للقيام بعمل مقيدة بأن يكون هذا العمل برًا وتقوى، لا إثمًا ولا عدوانًا، لقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

- ومما ميَّز الله تعالى به الأمة الإسلامية أنها لا تجتمع على ضلالة أو باطل أو شر.

فقد روى ابن ماجة بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ أُمّتى لن تجتمع**[1] **على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافًا فعليكم بالسواد الأعظم**».

أى عليكم بعامة الناس وجماعتهم.

* وللأنشطة الاجتماعية أهداف:

كل نشاط إنسانى لابد له من هدف إنسانى أيضًا، والأنشطة الاجتماعية أنشطة إنسانية، أى لها عموميتها وقدرتها على تخطى حواجز الزمان والمكان، وهى بكل تأكيد تحقق كثيرًا من حاجات الإنسان.

* ومن أهداف الأنشطة الاجتماعية:

- العمل على التغلب على كثير من المشكلات الاجتماعية التى تعوق حصول الإنسان على حقوقه فى الحياة الإنسانية الكريمة.

- والعمل على أن يصل الإنسان من خلال نشاطه الاجتماعى إلى التقدم الاجتماعى بدعم التوافق والتعاون والتكيف بين الناس.

- والعمل من خلال النشاط الاجتماعى على إحداث الوعى الاجتماعى فى نفوس الناس، وهذا الوعى الاجتماعى يعنى حفز الناس على تحمل المسئولية وأعبائها فى أى مجال من مجالات عمل الإنسان.

- والعمل على توفير الخدمات الاجتماعية لغير القادرين على الحصول عليها كالتعليم، ومحو الأمية، وإيجاد فرصة عمل لمن يحتاج إليها، وإيصال الحقوق الاجتماعية لأصحابها عمومًا.

---

(١) تعبير: «لن تجتمع على ضلالة» يفيد أنها ستظل إلى الأبد لا تستطيع أن تجتمع على ضلالة مهما كانت ظروفها لأن كلمة «لن» لتأبيد النفى، أى أنه نفى مؤبد لا ينفك عن الأمة أبدًا.

- والعمـل على جلب المصالح للناس مـثل: العدل والمسـاواة بين الناس أمام الـقانون، وضمان تكافؤ الفرص بينهم، وحماية حقوقهم السياسية والاقتصادية.

وهذه الأهداف للأنشطة الاجتماعية مطالب إسلامـية طولب بها كل مسلم على سبيل الوجوب حينًا، وعلى سبيل الندب حينًا، فـإذا توقف عنها وهى واجبة فقد أثم، وإذا توقف عنها وهى مندوبة فقد حرم نفسه من الخير ومن الثواب.

* والنصوص الإسلامية من القرآن الكريم والسنة النبوية التى تطالب المسلم بفعل الخير والبرّ والمعروف والإحسان كثيرة نذكر منها:

من آيات القرآن الكريم:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].
- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].
- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].
- وقوله عز وجل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].
- وقوله سبحانه: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

ومن الأحاديث النبوية الشريفة:

- ما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**لا حَسَد إلا فى اثنتين؛ رجل آتاه الله مـالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس**».

- وروى مسلم بسنده عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو، أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية، فهم منى وأنا منهم».

- وروى النسائى بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبَق درهم مائة ألف درهم، رجل له درهمان؛ أخذ أحدهما فتصدق به، ورجل له مال كثير فأخذ من عُرْضه مائة ألف فتصدّق بها».

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، أنّ رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أى الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

- وروى مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «طعام الواحد يكفى الاثنين، وطعام الاثنين يكفى الأربعة، وطعام الأربعة يكفى الثمانية».

- وروى مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: بينما نحن فى سفر مع النبى ﷺ؛ إذْ جاء رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ كان معه فضلُ ظَهر فليَعُدْ به على مَنْ لا ظهر له ومَنْ كان له فضلٌ من زاد فليَعُد به على مَنْ لا زاد له» فذكر مِن أصناف المال ما ذكَرَ حتى رأينا أنه لاحقّ لأحدٍ منا فى فضل.

فهذه الآيات القرآنية وتلك الأحاديث النبوية دعوة إلى القيام بأنشطة اجتماعية، تؤمن حاجات الناس فى المجتمع آنذاك، ولكنها تدعو إلى ما يماثل هذه الأنشطة الاجتماعية فى أى مجتمع مسلم فى أى زمان وأى مكان، مادام هذا النشاط الاجتماعى يجلب للمسلمين منفعة فى الدين أو الدنيا، أو يدفع عنهم مفسدة وضررًا فى دينهم أو دنياهم.

* ولو شئنا أن نقول: إن مئات الآيات القرآنية الكريمة ومئات الأحاديث النبوية الشريفة تدعو المسلم إلى فعل الخير والبرّ، والمعروف والإحسان ما قلنا إلا ما يجب أن يُقال.

ولو قلنا: إن القرآن الكريم كله والسنة النبوية كلها دعوة إلى عمل الخير والبر والمعروف والإحسان، ما كان فى قولنا مبالغة عند مَنْ يتدبر الكتاب والسنة.

* والمجتمع المسلم يحتفظ بثوابته فى مجالات العقائد والعبادات والمعاملات وفق الشريعة الإسلامية، والقيم الخلقية، ولكن المتغيرات فيه كثيرة تخضع لتغير الزمان والمكان، وبخاصة فيما يتصل بالأنشطة الاجتماعية التى تكفل للناس تحقيق حاجاتهم الإنسانية.

ولكل عصر من عصور المسلمين حاجات لابد أن تختلف عن حاجات عصر آخر.

* والأنشطة الاجتماعية التي يجب أن يسهم فيها المسلم فردًا أو جماعة فى عصرنا هذا كثيرة ومتشابكة، ومنها على سبيل المثال:

- نشاط دُور أو مؤسساتها رعاية الأيتام.

ونشاط دور أو مؤسساتها رعاية المسنين من الفقراء.

- ودور رعاية الأرامل والمطلقات إن وجدت، فإن لم تكن موجودة فإن المجتمع بحاجة إليها، فعليه أن يوجدها.

- ودور أو مؤسسات رعاية العاجزين عن العمل.

- ودور أو مؤسسات محو الأمية، لمن فاتهم التعليم فى صغرهم.

- ودور أو مؤسسات رعاية مَنْ بهم إعاقات عقلية أو جسدية.

- ودور أو مؤسسات تحفيظ القرآن الكريم.

- وكل دار أو مؤسسة أو جمعية من جمعيات المجتمع المدنى التى تقدم خدمة مجانية لطائفة من الناس، وهى أكثر من أن أحصيها فى هذا المجال.

* فماذا يقدم المسلم لهذه الدور والمؤسسات والجمعيات التى تمارس هذه الأنشطة الاجتماعية؟

إنه يستطيع تقديم مشاركات عديدة، كلها مما دعا إليها الإسلام ووعد بالإثابة عليها، ومن ذلك:

- التبرع لها بالمال حسب استطاعته.

- والتبرع لها بالعلم والتثقيف بالمحاضرات، والندوات ونحوها.

- والتبرع لها بالجهد والوقت لإنفاقهما لصالحها،

- وتقديم المعونات العينية لها كالملابس، وأدوات المطبخ، والأثاث ولعب الأطفال، والكتب، والتسجيلات الصوتية لموضوعات تهمها، ونحو ذلك وهو كثير.

- وتقديم الطعام والفواكه.

- وتبرع المصانع والمعامل والمشاغل والشركات بتقديم التدريب المجانى لبعض أبناء هذه المؤسسات على الصناعات والأدوات التى تنتجها هذه المصانع والمعامل والمشاغل.

- وتقديم العون لها بإيجاد فرص عمل لمن ترعاهم هذه المؤسسات.

- والتبرع بالإنفاق على تعليم النابهين من أبناء هذه المؤسسات فى مراحل التعليم العالمية.

- وتقديم العون المادى والمعنوى لمن بلغ سن الزواج من أبناء هذه المؤسسات، حتى يشقوا طريقهم فى الحياة الإنسانية الكريمة مع توفير فرص العمل لهؤلاء المتزوجين.

- وتقديم العون لهم فى عقد اجتماعات ترفيهية، وتحمل الأعباء المالية لهذه اللقاءات.

* تلك سمة المجتمع المسلم التى تميزه عن غيره، إذ هو المجتمع الذى ربط الإسلام بين أعضائه وأفراده بالأخوة فى الدين، وأوجب لهذه الأخوة واجبات، وشرع لها حقوقًا.

وهو المجتمع الذى ينادى الله تبارك وتعالى عليه، بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣]، ونادى عليه بقوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [المائدة: ٢].

وكذلك نادت عليه سنة الرسول ﷺ، فقد روى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن آلِف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**».

* وتقوية الروابط بين المسلمين وترسيخها سمة من سمات المجتمع المسلم.

- روى مسلم بسنده عن النعمان بن بشير الأنصارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**».

- وروى الطبرانى - فى الكبير - بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ أُمَّتِى كالمطر، يجعل الله فى أوله خيرًا، وفى آخره خيرًا**».

وبعد، فإن هذا النوع من العمل وهو المشاركة فى الأنشطة الاجتماعية يحتاج من الوقت ومن الجهد ما إن قام به المسلم، فما أظنه يجد وقتًا يحس فيه بفراغ يريد أن يملأه بعمل، وإنما يوقن أن الأعمال أكبر من الأوقات، وأن المسلم عندما يشعر بكثرة العمل عليه أن يُسَدِّدَ ويقارب، وأن يتدبر قول الرسول ﷺ، فيما رواه ابن ماجة بسنده عن ثوبان رضى الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أنّ خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**».

ومن أجل ذلك فلا مجال لمرض نفسى يفد إلي نفس المؤمن، فإن ورد فى غفلة من الممارسة لهذه الأعمال، فإن علاجه هو ممارسة هذه الأعمال.

٢١- والمشاركة فى الأنشطة النقابية والمهنية:

النقابة جمعية يشكلها أصحابها من العمال والمهنيين بهدف المساومة الجماعية والضغط على الحكومات والهيئات التشريعية وأصحاب العمل، لرعاية مصالح الأعضاء الاجتماعية والاقتصادية، وقد تلجأ النقابات إلى العمل السياسى للوصول إلى حقوق أعضائها فى الأجور والعطلات ونحو ذلك كساعات العمل وساعات الراحة...

* ومن يوم ابتلى العالم بالنظام الاشتراكى أصبحت النقابات مؤسسات حكومية لا تدافع عن مصالح العمال فى مواجهة الحكومة، وإنما تبحث للحكومة عن مبررات لأى عمل تقوم به الحكومة.

- ومن يوم ابتلى كثير من بلدان العالم العربى والعالم الإسلامى بوباء الاشتراكية أو الشيوعية - الإلحادية - أصبحت الحكومات فى كثير من أحوالها ظالمة مستبدة شمولية لا تسمح لرأى أن يرى النور، ولا لمقترح أن يغادر عقل صاحبه، وقد يدان الإنسان لأنه فكر فى غير ما يفكر فيه الحزب الحاكم، فاعتبر كل مفكر وكل صاحب رأى مخالف عدوًا للشعب، ومدمرًا لمكاسب الشعب، واندفع النفعيون المتنفعون بالاشتراكية يؤيدون القمع والإرهاب باسم الدولة لأعداء الشعب، وانطلقت شعارات الملتصقين بكراسى الحكم المنتمين إلى النظام الاشتراكى الباطش ذى الحزب الواحد والزعيم الأوحد يطلق شعارات ضالة مضللة مثل:

- الحرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب.

- والنظام الاشتراكى والحزب الاشتراكى بغض النظر عما ترتب على ذلك من الفقر الاشتراكى، والجهل الاشتراكى، والأمراض الاشتراكية، والديون الاشتراكية.

* وأخذت النقابات تبرر كل هذه السلبيات متجاهلة أن فقر الاشتراكية كان من نصيب الشعب، أما الأموال والعيش المرفه والملابس المرفهة والمساكن المرفهة فللحكومة والحزب الحاكم للقادة والكبار، وانتحر مفهوم الاشتراكية أمام القصور والاستراحات والأموال المودعة فى المصارف الاشتراكية فى الداخل أو فى الخارج، مما يعد نكسة للعمل النقابى فى كثير من بلاد العالم الإسلامى حتى اليوم.

* وبغض النظر عن النكسة النقـابية التى تَسبَبَّتْ فيـها الاشتراكيـة التى انهارت فى بلادها، فإن للنقابات أهدافًا تحاول تحقيقها فى البلاد التى تحكم بنظام شمولى مستبد.

هذه الأهداف هي:

- رعاية مصالح أعضائها.
- والدفاع عن مصالحهم أمام الحكومات وأصحاب العمل.
- والعمل على تحسين أجورهم وأحوالهم المعيشية.
- وتوفير بعض الخدمات المادية أو المعنوية لأعضائها.
- ورعايتهم الاجـتماعية والاقتـصادية بعد تقاعدهم عن العـمل أو الاستغناء عنهم، أو عجزهم عن العمل.

* والمسلم فى المجـتمع المسلـم عليه أن يشـارك فى هذه النقـابات حسب مـهنته وحـسب تخصصه وعمله، وأن يعمل ما وسعـه فى داخل نقابته، وأن يسهم بما يستطيع من جهد ووقت ومال وعلم وفن من أجل تحسين ظروف النقابة وأعضائها.

وعليه ألا يبخل على نقابته برأى أو مقتـرح من أجل تحقيق مصالح زملائه، وتحسين أداء النقابة وخدمـتها لأعضائهـا، ولا يجوز له أن يظل فى النقابة دون حركـة وإيجابية، أى واحدًا مضافًا إلى آحاد، ولكن لابد بوصفه مسلمًا يفهم دينه أن يكون فاعلاً مؤثرًا يجعل العمل النقابى جزءًا من عمله الدائم المستـمر فى الدعوة والحركة والتربية، تلك الوظائف التى لا ينبغى أن تفارقـه حتى يلقى الله تعالى، ولن يعدم فى النقابة بالإضـافة إلى عمل النقابة من مفـردات وظائفه الأساسيـة التى يعرفها؛ ما يجـعله أكثر نشاطًا وحـركة حتى يجمع بذلك بين عمله النقابى ورضا الله تعالى عنه.

* وإذا كانت النقابات توفر لأعضائها الخدمات المعروفة من:

- معاش إضافى غير معاش الحكومة عند ترك العمل.
- ومبالغ مالية عند الحاجة إليها اجتماعيًا.
- ومبالغ مالية عند العجز عن العمل، سواء أكان عجزًا كليًا أو جزئيًا.

* إذا كان هذا حـال معظم النقابات فـإن مما يذكر للإسلامـيين فى كثيـر من النقابات أنهم الذين فكروا وأعانوا على التنفيذ فى مشروعات نقابية يشكرون عليها، مثل:

- إنشاء نظام للتكافل بين أعضـاء النقابة يكون الاشتراك فيه اختـياريًا، يحقق التكافل بين الأعضاء عند المرور بظرف يوجب التكافل، وهذا تأمين للعضو فوق ما لديه من تأمين.

- وإنشاء نظام لعلاج الأعضاء وأسرهم عند التـعرض للمرض والحاجة إلى علاج مرتفع التكاليف، حيث تعـين النقابة بمالها أو وجـاهتها لدى المشافـى الخاصة، فتـخفض له التكاليف تخفيضًا ملموسًا.

- وإنشاء نظام لأداء الحـج والعمرة فى خـصوصـية فى وسائل السـفر وفى الإقـامة فى الأماكن المقدسة، وفى خفض الأسعار.

- وإنشاء نظام لتوفير المساكن وتأثيث البيوت أو المكاتب بسعر مناسب وبأقساط معقولة.

* والنقابة إحدى مـؤسسات المجتمع، وجمعـياته المدنية التى تضطلع بعبء اجتمـاعى كبير لكل عضو من أعـضائها بتوفيـر عديد من الخدمات له، مما يجعلنا نقـول مطمئنين: إنها جمعيات أو جماعات خدمية لقطاعات عديدة من المجتمع.

* والمسلم الفاهم لدينه المستوعب لواجباته نحو دينه ونحو مجـتمعه لابد أن يعتبر انضمامه للنقابة التى ينتسب إليـها بعمله ومهنته لابد أن يعـتبر هذا الانضمام واجبًـا شرعيًا، لأن عضـويته فيهـا سوف تؤدى إلى جلب المصالح ودرء المفـاسد، وهذان العملان واجـبان شرعيان على كل قادر عليهما.

* وهذه المشاركة فى العمل النقابى تستنفدُ وقتًا وجهدًا وعلمًا وعملاً، لكن ذلك يعقب فى نفس المشارك آثارًا حسنة، ونوعًا من الرضا والسعادة، إذ حسبه أنه استجاب لما دعاه إليه دينه، فأصبح بذلك أهلاً لأن يرضى الله عنه، ومَنْ رضى الله عنه فأىّ شىء خسر، ومَنْ غضب عليه فأى شىء ربح؟ هذا الإنسان الفـاعل المؤثر بالخير المتأثر به المعين عليه، هل يستطيع المرض النفسى أن يجد طريقه إليه؟

اللهم لا.

٢٢- والمشاركة فى الأنشطة السياسية:

الأنشطة السياسية فى بلدان العالم المتقدم علميًا وتقنيًا واجتماعيًا وحضاريًا وسياسيًا هى: الأحزاب السياسية.

وكل حزب سيـاسى له برنامج إصلاحى للمجـتمع مغاير للحـزب الآخر، وكل حزب يعمل ما وسعه العمل لضم أعضاء له، وينظم برنامجه في بناء الحزب وبناء قياداته، وتحديد

أهدافه ووسائله، وتكوين تجمعاته، ليخوض الانتخابات النيابية فيحظى بعدد من المقاعد فى المجلس النيابى يتمكن بها من الوصول إلى السلطة، منفردًا بها إن أحرز غالبية المقاعد أو مشاركًا فيها بنسبة عدد مقاعده إلى مقاعد المجلس كله.

فإذا تمكن حزب أن يصل إلى السلطة أخذ فى تطبيق برنامجه الإصلاحى ليقدم الدليل على مصداقيته.

وبين الأحزاب السياسية تنافس مشروع على السلطة، والحزب يحصل على عدد من المقاعد فيشارك فى الحكومة، أو تقل نسبة مقاعده بحيث لا يشارك فى الحكومة، كل أولئك يقومون فى المجلس النيابى بعمل المعارضة أى الذين يعترضون على برنامج الحكومة، فيقدمون بدائل أحسن.

* أما فى عالمنا الإسلامى المبتلى بأنظمة الحكم العسكرى، أو أنظمة الحكم الشمولى الاستبدادى، أو الأنظمة العائلية أو القبلية، فإن الحكومة تصطنع حزبًا من المنتفعين بها وببقائها فى الحكم، ويصبح هذا الحزب هو الإطار الذى يحيط بالحاكم الذى شكله، والبوق الذى ينعق بما يريده الحاكم، والعيون التى يرى بها، والآذان التى يسمع من خلالها، والطبل والزمر المهلل المبرر لكل عمل يراه الحاكم وبطانته، مهما كان هذا العمل لا يحقق صالح المواطنين جميعًا وإنما يحقق صالح أعضاء الحزب.

- ولا تستطيع المعارضة - إن وجدت- أن تفعل شيئًا وأحيانًا لا تستطيع أن تقول شيئًا، إذ كل إعتراض على الحزب الواحد والزعيم الأوحد المفدَّى المنتخب بنسبة ٩٩و٩٩٪ أو بنسبة ١٠٠٪ كما حصل عليها صدام حسين وغيره من حكام الحزب الواحد، وقصة الانتخابات فى بلدان العالم الإسلامى معروفة مشهورة لا تحتاج إلى تعليق، ابتداء من إعداد جداول المقترعين إلى فرز الأصوات وإعلان النتيجة، ولا أحب أن أتحدث فى شىء من تفاصيل مخازيها.

* والحاكم الأوحد يملك الدولة كلها ناسًا وأشياء، وأرضًا وسماء، وبحرًا وجوًا، ويحكم في كل ذلك ويتحكم ولا معقب لحكمه، وما أيسر أن يضع له المختصون من المنتفعين به دستورًا يضع السلطة كلها فى يده، ثم يتشبث بالدستور ويدعى أنه يحكم من خلال دستور صنع على عينه!! وبيدى أتباعه ومريديه والمسبحين بحمده الجامعين فتات ما يفيض عنه.

– وقد يتعطف هذا الزعيم الأوحد فيسمح بالتعددية الحزبية لكن بشرط أن يوافق على إنشاء الحزب وعلى رسم قيادته وعلى خطوط مرسومة لا يمكن أن يتجاوزها، والويل كل الويل لمن تجاوز هذه الخطوط أو حدثته نفسه بذلك، عندئذ يجمد الحزب أو يحل، ويعتقل أعضاؤه وقيادته، ويعذبون بأيدى رجال أمن الدولة أو أمن الزعيم الأوحد المفدى، وقد يحاكمون ويدانون أمام محاكم استثنائية.

– ومنذ أكثر من خمسين عامًا يعيش العالم الإسلامى نظام الحاكم الأوحد والحزب الواحد.

والحاكم فى هذا النظام هو الذى يعيّن كل أحد من أصحاب المناصب ابتداء من رئيس القرية فى الحكم إلى محافظ المحافظة إلى الوزير.

والحاكم يعين رؤساء الجامعات وعمداء الكليات، واتحاد الطلاب فى الجامعات، ولكل كلية حرس جامعي ورجال أمن دولة يحصون دبيب النمل ويرصدونه ويسجلونه، ويغلقون أبواب الكليات عند اللزوم.

ولا يعين موظف فى وظيفة مهما تدنَّت حتى يوافق عليه أمن الدولة وبخاصة فى مجال التعليم ابتداء من معلم فى المرحلة الابتدائية إلى معيد فى الجامعة إلى عضو هيئة تدريس!!!

– والزعيم فى ظل هذا الدستور يعين شيخ الأزهر ويقيله، ويعين القضاة، ويرضى رجال أمنه عن وكلاء النائب العام أو يستبعدون منهم من يشاءون!!!

وكل هذه السلطات يكفلها له الدستور – حماه الله فى العالم الإسلامى من أى تعديل أو تغيير – وما لم أذكره من سلطات الحاكم الأوحد أكثر بكثير مما ذكرت، ولكنى أذكر الشاهد والمثال.

– وما سمعنا منذ أكثر من خمسين عامًا عن حزب سياسى غير الحزب الحاكم، فى أى بلد إسلامى، استطاع أن يصل إلى السلطة ويلج فى سم الخياط من خلال انتخابات شبه حرّة وشبه نزيهة.

– وما سمعنا منذ أكثر من خمسين عامًا عن انتخابات حرة فى أى بلد من بلدان العالم الإسلامى، سواء أكانت على مستوى المجالس المحلية أو النيابية أو الرئاسة، وهذا فى البلاد التى تجرى فيها انتخابات.

- وما سمعنا منذ أكثر من نصف قرن في معظم بلدان العالم الإسلامى عن شعب يمارس حرياته وحقوقه فى ظل هذا الحزب الواحد والزعيم الأوحد، وهذا معناه وأد الحريات بكافة أنواعها وإهدار حقوق الإنسان تحت سنابك أمن الدولة الذين يفعلون ما يؤمرون.

* فى ظل هذه الأنظمة هل يستطيع أحد أن يكون حزبًا أو يصدر جريدة أو مجلة إلا إذا سمحت السلطة وحزبها الحاكم.

* وحرية السفر والتنقل غير مكفولة فى هذه الأنظمة.

* وحرية العمل غير مكفولة كذلك.

* والحرية الأمنية لا تجد فى معظم البلدان الإسلامية مَنْ يطمئن إلى أنه سينام الليلة فى بيته، مهما كان هذا المواطن ذا مكانة حتى لو كان وزيرًا ثم قال ما لا يعجب الحاكم أو ما لا يوافق هواه!!!

* أكثر من خمسين عامًا من يوم ابتلاء العالم الإسلامى بالانقلابات العسكرية وهو يعيش فى حالة مرضٍ مُزْمنٍ هو القهر والكبت والخطر، ويعيش ليلاً طويلاً مظلمًا مليئًا بالأشباح والمخاوف، فضلاً عن الجهل والفقر والمرض والبطالة.

* وعلى الرغم من كل ذلك فأنا أنصح الإنسان المسلم فى أى بلد مسلم أن يشارك فى النشاط السياسى المتاح إن سمح له بهذه المشاركة، فذلك خير من السلبية والاستسلام، وليحاول ما وسعه وبالطرق السلمية أن يعدل ويغير لأنه أحد المواطنين.

والسياسة باب من أبواب التغيير والتعديل والإصلاح.

* إن على المسلم فى أى بلد من بلدان العالم الإسلامى أن يعمل ما وسعه مع غيره من المسلمين فى إنشاء حزب سياسى، مادام ذلك هو الأسلوب الأوحد للعمل السياسى وبرامج الإصلاح للمجتمع، وأن يجمع إليه من الناس من يقبلون برنامجه فى الإصلاح، ثم يتقدمون إلي حكومة الحزب، فربما سمح لهم بتشكيل حزب سياسى بعد تنقيته لدى الحاكم من كل ما هو إسلامى فى برنامجه حتى لا تغضب أمريكا والغرب وإسرائيل الذين يجاهرون بعداوتهم للإسلام، وإذا غضب هؤلاء فإن العقوبات الاقتصادية بجرة قلم، وإن العدوان المسلح مرمى حجر، وإن احتلال البلاد يصدر به قرار من مجلس الأمن الذى هو مجلس أمن الغرب وإسرائيل،ومجلس العدوان على البلدان الإسلامية ودول العالم الثالث كلها.

فإن لم يفعل ذلك مجلس الأمن فعله مجلس النواب أو مجلس الشيوخ فى أمريكا، فقد أصبحا بفضل العولمة مجلسا العالم كله!!!

* إن مصيبة العالم الإسلامى اليوم أنه عالم متراجع حضاريًا تسيطر عليه أنظمة حكم مستبدة ظالمة تحرم المسلمين من حقوقهم الأساسية وهى العيش فى أمن.

وما يَسُرّ أمريكا وإسرائيل والغرب إلا أن يضرب الإسلاميون، وأن يتهموا بالإرهاب والتطرف، وأن يتهموا بأنهم يسعون للوصول إلى الحكم!!! كأنهم ليسوا بشرًا وليسوا مواطنين!!!

وكأن وصول الإسلاميين إلي الحكم جريمة وكبيرة من الكبائر المعادية للحرية وللديمقراطية؛ لعل السبب فى ذلك أن الإسلاميين مخلوقات مختلفة وافدة من كواكب أخرى ليس لها حق التعامل مع الأرض ومن فيها!!!

* وما جرى فى تسعينيات القرن الماضى فى الجزائر يقدم أقوى دليل على الإجماع على نبذ الإسلاميين مهما عبروا إلى السلطة من خلال صناديق اقتراع زجاجية شفافة، فقامت قيامة الغرب من أقصاه إلى أقصاه، وانزعجت أمريكا وخافت إسرائيل، فكلف الجيش الجزائرى بإلغاء الانتخابات ودارت فى الجزائر مذابح فى الشوارع وسُجن القادة الإسلاميون ومنعوا من ممارسة حقوقهم السياسية!!!

* وما حدث فى أفغانستان والعراق بوصفهما بلدين إسلاميين من عدوان أمريكى متحالف مع الغرب كله، شيء تشيب له نواصى الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان؛ إذ لم يكن متوقعًا ولم يكن له مبرر من قانون دولي، أو قرار من هيئة الأمم المتحدة - التى أثبتت تصرفاتها أنها أمم متحدة ضد المسلمين والعرب لصالح أمريكا وإسرائيل والغرب -.

* وما حدث فى السودان ولا يزال يحدث حتى الآن، وهو ما تأمله أمريكا والغرب وإسرائيل، هو تمزيق لبلاد المسلمين وإرهاب لها.

* وما ترغب أمريكا وإسرائيل فى حدوثه فى إيران، وما فعلته أمريكا فى باكستان، وما جرى فى دول الخليج العربى، وما أقيم فيها من قواعد أمريكية، وما جرى فى الكويت وفى المملكة العربية السعودية وغيرهما، كل ذلك دليل على ما تضمره بل تظهره أمريكا والغرب وإسرائيل للعالم الإسلامى كله.

* إن مصيبة المسلمين أن سيطر عليهم الخوف بسبب الإرهاب الذى تمارسه ضدهم أمريكا والغرب وإسرائيل، والعالم كله يسمع ويرى ويسكت على ما يسمع ويرى، وهيئة الأمم

المتحدة – ضد المسلمين – ومجلس أمنها، أصيبا بالعمى والصمم والخرس مادام المضطهدون هم المسلمين!!!

* أليست أمريكا والغرب وروسيا وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن هم الذين أقروا التنكيل بالمسلمين فى البوسنة والهرسك وكوسوفوا وألبانيا عددًا من السنين يُقتلون ويصلبون وتُغتصب نساؤهم ويلقون فى مقابر جماعية، ثم تحل القضية لصالح الصرب والكروات، وإن زعموا أنهم أنهوا المذابح بهذا الحل الجائر!!!

* غير أن ذلك كله وأكثر منه وأنكى لن يميت أمة الإسلام، ولن يقضى على المسلمين، ولا على إصرارهم على المقاومة للأعداء المحتلين، إلى أن يقيض الله لهم أسبابًا يستعيدون بها بلادهم وحقوقهم وكرامتهم، على يد مصلح أو أكثر من مصلح يجدد لهم أمر دينهم كما وعد بذلك خاتم الرسل محمد ﷺ.

* إنه ليوم آتٍ بإذن الله تعالى وتدبيره، يوم تكون للمسلمين فى هذا العالم نهضة فى كل مجالات الحياة.

* إن هذا ليوم قريب مهما تربص الأعداء بالمصلحين المجددين لأمر الدين فضربوهم فى أول الطريق، لأن الله تعالى وعد المؤمنين –ووعده الحق– بأن ينصرهم بحيث لا غالب لهم، فهو القائل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

– إن المؤمنين ما بينهم وبين التحرر من تلك القيود والتخلص من هذا العدو إلا أن يكونوا المؤمنين الذين وعدهم الله تعالى بالنصر، وأن يأخذوا بالأسباب متوكلين على الله تعالى يطلبون منه العون والمَدَد.

– وإن المسلم اليوم فى أى بلد مسلم مطالب من الله تعالى ومن كلام رسوله الخاتم وهديه بأن يكون جزءًا من سياسة البلد الذى يعيش، يملأ قلبه بالإيمان ووقته بالعمل، وعقله بالتفكر والتدبر والعلم، عندئذ يستحق نصر الله، وسوف يبحث عنه نصرُ الله، كما يبحث الرزق عن صاحبه حتى يقع فى يديه.

وبعد: فإن المسلم الذى يمتلئ جزء كبير من وقته بالخوض فى معترك السياسة، وسائر الأعمال التى أمره بها الله ورسوله لن يجد فراغًا يحاول الشيطان مَلأه بالأمراض النفسية أو العصبية، كيف يجد المرض النفسى إليه السبيل، وهو فى كل يوم مُشَمِّرٌ للوصول إلى غاية من غاياته العديدة النبيلة، ومُصِرٌّ على إزالة العوائق والعقبات من طريقه.

إن على المسلم أن يكون مـؤمنًا بالله حقًا وأن يسـتعين بالله على أمـره كله، وأن يتوكل عليه، وأن يوقن بعد ذلك وقبله بأن النصر من عند الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

٢٣- والمشاركة فى الأنشطة الثقافية:

الثقافة روح الأمة وزادها فى الطريق إلى النهوض والتقدم، والثقافة والحضارة - بجميع مفرداتها - فى ذلك سواء.

- والثقافة بنوعيـها - المادية وغير المادية-[١] هى بصمات أى أمة من الأمم على صحائف التاريخ لتقول لمن عاصرها، ولمن يأتى بعدها: هأنذا...

- والحضارة - بوصفها - مدنية، وبخروجهـا من البداوة، ومطاردتها للوحشية والهمجية، وبأثرها الواضح فى إحداث التـقدم فى مختلف الميـادين للحياة الإنسانيـة، وبخاصة فى رقى العلم والفن والأدب؛ هى التى تنقل المجتمع الإنسانى من التخلف إلى التحضر.

* والمسلم يعيش فى المجتمع إيجابيًا فاعلاً، لا يسمح له دينه أن يقف ساكنًا أو خائفًا من المشاركة فيـما يحيط به فى المجتمع من متغـيرات وأحداث، بل هو مطالب بأن يكون من عناصر التغيير إذا كان يجلب نفعًا أو يدفع ضرًا عن المجتمع، وأن يواجهه إذا كان مخالفًا لقيم الدين وأخلاقه.

* وما دامت الثـقافة أو الحضـارة - فى مضادتهـما للوحشيـة والهمجـية - هى السلوك الإنسانى القويم، والذوق الرفـيع والأخذ بأسباب التقـدم والرقى؛ فإن المسلم مطالب بدعم ذلك من خلال نصوص الإسلام، ومنهى عن الهمجـية والوحشية والتَّبَدِّى[٢]، وهذه النصوص الإسلامية هى آيات من القرآن الكريم، وكلمات من سنة الرسول ﷺ تدعو إلى القيم الخلقية الفاضلة وتنهى عن القيم الراذلة.

* أما آيات القرآن الكريم فمنها:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٤][٣].

(١) الثقـافة المادية هى: كل الأشـياء المادية التى يصنعـها الإنسان كـالمسكن والأثاث والملبس، وكل ما له عـلاقة بالاختراع والتقنية.

- والثقافة غير المادية هى: كل السمات الثقافية غير الملموسة كالمهارات والمعايير والمعتقدات والمعرفة واللغة.

(٢) أى اصطناع البداوة وإيثارها على الحضارة.

(٣) الآيات من الآية: ٢٢ إلى الآية: ٣٨ من سورة الإسـراء دعوة إلى التمسك بأفضل القـيم، ونهى عن ممارسة راذل القيم.

- وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢](١).

- وقوله جل شأنه: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

- وقوله عز وجل: ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤].

- وقوله سبحانه: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

* وأما الأحاديث النبوية فمنها:

- ما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أنّ النبى ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» وزاد مسلم فى رواية له: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

- وما رواه مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين؛ الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما وَلُوا».

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط، رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيراً أو يقول خيراً».

- وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه، أنّ رجلاً قال: يا رسول الله إنّ لى قرابة أصلهم ويقطعونى، وأُحْسِن إليهم ويسيئون إلىّ، وأَحْلُم عنهم ويجهلون علىّ، فقال: «لئن كنتَ كما تقول فكأنما تُسِفّهم الملّ(٢)، ولا يزال معك من الله تعالى ظهير عليهم ما دُمْتَ على ذلك».

* ومن مفردات الثقافة والحضارة؛ العلم والفنّ والأدب، وفى هذه المفردات ومكانتها فى المجتمع المسلم وردت آيات من القرآن الكريم وأحاديث نبوية شريفة، ومن ذلك:

---

(١) الآيات من الآية: ١٥١ إلى الآية: ١٥٣ من سورة الأنعام دعوة إلى التحلى بخمس فضائل، والتخلى عن خمس رذائل.

(٢) الملّ: التراب الحار أو الرماد أو الجمر، الذى يخبز أو يطبخ عليه. والمعنى: تحرجهم أمام أنفسهم.

- قول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣ - ٥]

- وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦].

- وقوله عز وجل: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

- وقوله جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٠ - ١٣]

- وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]

قال القرطبى رحمه الله: «هذه الآية أصل فى تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك»[1].

- وروى أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كِبْر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حَسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْرُ بَطَرُ الحق، وغمط الناس»[2].

* والمجتمع المسلم لابد أن يكون فيه نشاط ثقافى، إذ هو مجتمع القيم والمبادئ، وهو المجتمع الذى طالبه الله بأن يعمر الأرض لأنه استعمره فى هذه الأرض وسخر له ما فيها ليعلم ويعمل، ولا إعمار للأرض إلا بممارسة مفردات الحضارة والثقافة بنوعيها المادى وغير المادى، وبالتقدم والترقى فى التعامل مع مرافق الحياة الإنسانية كلها.

(١) الإمام القرطبى توفى: ٦٧١هـ - ١٢٧٣م. فى كتابه: الجامع لأحكام القرآن ج ١٣ ص ١٤. ط دار الكتب المصرية - القاهرة.

(٢) بطر الحق: إنكاره، وغمط النّاس: احتقار شأنهم.

* الإنسان المسلم مطالب بأن يشارك فى كل نشاط ثقافى أو حضارى فى المجتمع مشاركة إيجابية ذات شقّين:

شقّ: يتصل بشخصه وعمله وإبداعه فى التعبير عن أفكاره وعواطفه، وقيمه ومبادئه الإسلامية.

وشقّ: يتصل بمشاركته لغيره والتعاون معه على إنتاج مفردات الثقافة أو الحضارة.

- وإنما شرع الإسلام للمسلم أن يشارك فى هذه الثقافة لأنه لا يقبل أن يعيش فى عزلة عن الناس والأشياء والتيارات السائدة فى المجتمع، وإنما أوجب عليه أن يشارك ويعمل على ضبط القيم السائدة فى المجتمع مع الإسلام؛ منهجه ونظامه، وأن ينمى هذه القيم ويسير بها، ويزيد فيها وينقص منها حسب ما شرع له دينه وهداه إليه منهجه.

- وإن مشاركة المسلم وتعاونه مع غيره فى إنتاج مفردات الحضارة والثقافة دليل على أنه استوعب ما أُمِر به وما نُهى عنه، فالتزم ما أُمِر به واجتنب ما نُهى عنه، فهو بتلك الطاعة هو الذى يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، وهو من أهل العلم وأهل التذكر، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]

- إن المسلم الحق عليه أن يتدبر وهو يمارس ويُعلّم مفردات الثقافة لغيره من الناس، أنه إنما يطبق بذلك ما أمره الله به من السعى فى الأرض والمشى فى مناكبها.

وكثير من آيات القرآن الكريم دعت إلى ذلك، ومنها:

* قوله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

* وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

* وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ١٢٨].

* وقوله جل وعلا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

* إنّ مَنْ يتدبر هذه الآيات القرآنية الكريمة وأمثالها يجد لزامًا عليه أن يعمل وأن يجد وأن يسهم فى العلم والفن، وكل إبداع، وأن يعمر الأرض بهذا العمل، وأن يتعاون مع غيره فى إنتاج مفردات الحضارة، لأن ذلك مطلب إسلامى لا محيد عنه.

* وكذلك شأن السنة النبوية المطهرة، فإن فيها من الأحاديث ما يدعو للمشاركة فى إعمار الأرض، بل فيها وعد بمكافأة من يعمر أرضًا مواتا لم تكن معمرة، ومن ذلك:

- ما رواه الترمذى بسنده عن سعيد بن زيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أحيا أرضًا ميتة فهى له، وليس لعرق ظالم حق»**.

- وروى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«من أعمر أرضًا ليست لأحد فهو أحق بها»**.

- وروى البخارى بسنده عن المقدام رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده»**.

- وروى مسلم بسنده عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، ولْيُحَدَّ أحدكم شفرته[1] فليُرح ذبيحته»**.

- وروى البيهقى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»**.

* ومَنْ تدبَّر فى هذه الأحاديث النبوية الشريفة، وفى عشرات من أمثالها التى تدعو إلى إعمار الأرض بالعمل والإتقان والإحسان، ومشاركة الآخر فى هذا الإعمار وذلك العمل، يصبح على يقين من أن المسلم إنسان مُعَمِّر عالم عامل متقن محسن فى أى مجال يمارس فيه عملاً، فهو إذن إنسان متحضر مثقف، مشارك فى بناء المجتمع الذى يعيش فيه، بل فى بناء المجتمع الإنسانى كله.

* وهذا الإنسان المطالَب بالمشاركة فى الثقافة والحضارة مشاركة من يخلص فى العمل ويتقنه ويحسن فيه، هذا الإنسان يشعر بمزيد من الرضا والسعادة وهو يمارس هذه الأعمال التى أمره بها دينه، هذا السعيد الراضى الذى يبيت كالاً من عمل يده، أين تجد الأمراض النفسية إليه طريقًا؟

(١) الشفرة: السكين أو نحوها مما يذبح به ويحدها لكيلا يعذب الحيوان وهو يذبحه.

٢٤- والمشاركة فى الأنشطة الفنّية:

نعنى بالفَنّ: التعبير الجمالى عمـا يفكر فيه الإنسان، أو يحسُّ به قلبه وعواطفه، فالفن نقل للعلم والمشاعر إلى الآخرين بتعبير جمالى أو جميل.

وهذا العمل بهذه الصفات يعتبر من أهم أعمال الإنسان الفنية أو الجمالية.

وهذا العمل الفنى، يتميز بحسن الصنعة والدقـة والجمال، وهو من الظواهر الاجتماعية التى تدل على التفاعل بين الإنسان والحياة الإنسـانية، كما يدل على المهارة فى إنتاج كل ما هو جميل(١).

- ويوصف هذا الفن أو الفنون بأنها فنون جميلة، والفنون الجميلة أنواع نشير منها إلى:

- الأدب بفروعـه العديدة مـن شعر بأنواعـه ونثر بأنـواعه، لكن تبـرز من أنواعه القـصة والمسرحية والرواية، على أن المسـرحية قد تكون شعرًا، كذلك تشتـهر من أعمال النثر: الأقصوصة والمقالة بأنواعها.

كما تدخل فى الأدب كثير من الكتب والمؤلفات التى يصوغها كاتبها بعبارات أدبية فنية، حتى لو كان موضوع الكتاب علميًا.

- والأعمال المسرحية والتمثيلية.

- والأعمال السينمائية.

- والرسم وأنواعه.

- وكثير من الحرف اليدوية التى تتوافر فيها الصفات الجمالية مثل:

* تصميم السجاد والنسيج، وإنتاجهما يدويًا.

* صناعة الخزف والفخار ونحوهما.

* وتصميم الأزياء.

* وإنتاج القطع أو اللوحات المعدنية.

* والحفر على الرخام والخشب والنحاس.

* والنقش على أى شىء.

---

(١) للتوسع فى ذلك: انظر لنا: التربية الجمالية الإسلامية. نشر دار التـوزيع والنشر الإسلامية: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

* وتلوين الزجاج وتعشيقه.

* وعمل الزخارف.

* وعمل الحليّ من المعادن والأحجار الكريمة.

* وعمل الخطوط وفق نظم ومعايير جمالية.

وغير ذلك مما لا أستطيع أن أحصيه فى هذه الصفحات من الكتاب، لكن يجمع بينها مهما كثرت أنها أعمال فنية.

* وكل هذه الأعمال الفنية الجميلة إنما تتولد عن الإحساس بجمال مخلوقات الله تعالى والتأمل فيها، والتعبير عنها فى عمل جمالى أو فنّى.

* والجمال من الكلمات الإسلامية التى وردت فى القرآن بلفظها حينًا وبمشتقات من لفظها حينًا آخر، وبمعناها مرات كثيرة، كما وردت فى السنة النبوية بلفظها حينًا وبمعناها حينًا آخر(١).

* وقد وردت معانٍ عديدة للجمال فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، أحب أن أشير إلى بعضها فيما يلى:

- الجمال بمعنى الحُسْن.

- والجمال بمعنى الإتقان والإحسان.

- والجمال بمعنى النظافة.

- والجمال بمعنى الطهارة.

- والجمال بمعنى الخير وفعله.

والجمال بمعنى العمل الصالح وممارسته.

- والجمال بمعنى الإصلاح بين الناس(٢).

* وكثير من معانى الجمال، عند التأمل فيها، نجدها قيمًا فاضلة يدعو إليها الإسلام ويحبب الناس فيها، أو ويحذّر من أضدادها من الصفات والقيم، بهذه المعانى كثرت النصوص من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة.

(١) انظر المرجع المشار إليه سابقًا.

(٢) انظر المرجع السابق.

* وكل مسلم مطالب بأن يشارك فى الأعمال الفنية فى حدود قدراته ومواهبه وظروفه، وليس له أن يبقى مشاهدًا لهذه الفنون دون أن يشارك فيها؛ لأن المسلم - كما أوضحنا آنفا - إيجابى يخالط الناس ويؤثر فيهم ويتأثر بهم فى حدود ما أحل الله تعالى.

والدليل على ذلك ما قدمناه فى هذه الأعمال التى قدمنا، وحسبه لكيلا يكون سلبيًا أو منعزلاً عن مجتمعه أنه بحكم إسلامه يجب عليه أن يتعلم ويعلم ويعلِّم، وأن يختلط بالناس وأن يتآخى مع المسلمين، وأن يمارس الدعوة إلى الله إلى الدين الحق، وأن يشارك فى الحركة بهذا الدين، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يجاهد في سبيل الله تعالى بماله وجهده ووقته ونفسه، فكيف وهذه أعباؤه يقف مكتوفًا أمام المشاركة فى الأعمال الفنية؟

إن كل إسهام من المسلم فى الأعمال الفنية دفع للحياة الإنسانية الكريمة نحو التقدم والرقى.

* غير أن ما هو جدير بالالتفات إليه وعلاجه، عزوف كثير من المسلمين عن الدراسات العلمية للمسرح والتلفاز وعلوم التمثيل وعلوم السينما.

والدليل على هذا العزوف عن تلك الدراسات قلة عدد، بل ندرة من يعملون فى هذه المجالات، على أهميتها وتصدرها فى مجال وسائل التربية للناس صغارًا وكبارًا.

وهذا الموقف من المسلمين من هذه الفنون، ليس له - فى نظرى - ما يبرره، لأن إخلاء هذه الساحة الواسعة الشاسعة من الإسلاميين يدل على قصر نظر، يبرره خوف ليس بصحيح.

نعم إن العمل فى هذه المجالات محفوف ببعض المخاطر، لكن تجنب هذه المخاطر ليس مستحيلاً وإن كانت فيه صعوبة، لكن أى معاناة يتحملها الفرد فى المشاركة فى هذه الأعمال الفنية خير - بكل تأكيد - من ترك الساحة خالية خاوية.

* والذى أحب أن أقرره، وأتحمل مسئوليته أمام ربى - وقد مَنَّ علىّ بأن علمنى من الدين ما علمنى - أن المسرح والتمثيل والسينما ليس حرامًا لذاته، وليست المشاركة فيه حرامًا مطلقًا، وإنما يحرم بسبب ما يعرض فيه مما يخالف الإسلام.

وهذا الرأى لا يختلف عليه علماء الإسلام الذين يعتد بهم وبثقافتهم فى عصرنا هذا، عصر سيطرة الإعلام على العقول والقلوب، وتصدر صناعاته لكثير من الصناعات، وقدرته على التأثير فى الناس، فضلاً عما فيه من عائدٍ استثمارى.

* إن دراسة هذه الفنون دراسة علمية، وإن تأليف النصوص لهذه الفنون، وكتابة حوارها عمل جليل القيمة يحتاج إلى المبدعين من أصحاب المواهب فى هذه المجالات.

ولا يقُلْ أحد إن هذا مستحيل، لأن العِلْم بالتعلم، كما قرر ذلك الرسول ﷺ، فيما رواه البخارى بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «**مَنْ يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين وإنما العلم بالتَّعَلُّم...**».

ولا تعارض بين القيام بهذه الأعمال وبين الدين مادام المشارك لم يرتكب عملاً حرّمه الله تعالى، ومادام النص والحوار منضبطين مع القيم الإسلامية.

* وإن نتيجة هذا العزوف عن تلك الأعمال أن تترك هذه الأعمال لمن لا يفهمون الدين فيؤلفون ويكتبون الحوار ويخرجون، وهم فيما فعلوا بعيدون عن فهم الدين ومعرفة ما أحل الله وما حرم، فإذا كتب بعضهم عن بعض الأعمال التى قام بها المسلمون فى زمن الصحابة رضوان الله عليهم أو التابعين أو من جاءوا بعدهم جاءت كتابتهم غير دقيقة لأنها لم تكتب بأيدى متخصصين، فابتعدت عن الحقيقة أحيانًا وعن الحق حينًا، أو جاءت تحمل أفكارًا وقيمًا وتوجيهات لا يرضى عنها الإسلام ولا توافق آدابه.

* ومما ألحظه ويلحظه غيرى من المشاهدين لبعض هذه الأعمال التاريخية التى صيغت فى عمل مسرحى أو سينمائى، بعض المآخذ على الرغم من الجهد المبذول فى بعض الأعمال، وهذه المآخذ مثل:

١- ارتفاع أصوات الممثلين بأكثر مما يقتضيه الموقف، مما يظهرهم بمظهر المنفعلين العصبيين لغير حاجة، ومما يترك فى نفوس المشاهدين شعورًا بأن المسلمين كانوا دائمًا كذلك، وهم لم يكونوا كذلك أبدًا، لأن النبى ﷺ حبب فى الرفق، وبغض فى الصوت المرتفع بغير حاجة.

٢- وإدخال بعض المشاهد الراقصة الخليعة على الموضوع - جلبًا لعواطف المشاهد العابث- مع أن ذلك من الخطأ التاريخى الفادح والخطأ التربوى العظيم، وما يحركهم إلى ذلك إلا الرغبة فى الربح بجلب عناصر السوء إلى جمهور المشاهدين.

٣- وعدم التدقيق أو التحقق من أنواع الملابس التى كانت تستعمل فى ذلك الوقت، مع أن معرفة شكل الملابس ونوعها ومن أى مادّة كانت تستعمل سهل وميسور على من

قرأ تاريخ هـذه الفترة بعناية وتركيز، وبخاصة تلك الملابس التى كانت تلبس فى المعارك والحروب.

٤- ولماذا اختار المؤلفون جميع الموضوعات حروبًا وسيوفًا وضربًا وقتلاً؟ مع أن المسلمين بناة حضارة، وعلماء لهم فى عديد من مجالات العلم قدم راسخة، وأين النبل وروح التسامح وحسن التعامل مع المقيمين فى البلدان الإسلامية من أهل الأمان وأهل الذمة؟ كأن المؤلف يريد أن يلقى فى نفوس المشاهدين وعقولهم صورة غير صحيحة عن المسلمين!!!

٥- وتجاهل أثاث القصور والبيوت فى تلك الأزمنة، مع أن الأثاث فى ذلك الوقت كان له طابع خاص، يختلف تمامًا عما يضعونه فى المسلسلات من أثاث معاصر لنا الآن، مما يضلل المشاهد وينفى المصداقية عن المؤلف والمخرج وغيرهما من المشاركين فيما يعرض على المشاهدين.

٦- وعدم التدقيق فى اللغة المستعملة فى زمن هذه المسرحيات أو التمثيليات، وبحيث يسهم ذلك فى الوقوع فى خطأين فادحين:

أحدهما: الخطأ النحوى والصرفى فى كلام قادة وعلماء ما كان يمكن أن يخطئوا هذه الأخطاء.

والآخر: تضليل المشاهد عن تاريخ تلك الفترات.

٧- والمبالغات غير المبررة فى قصص الحب والغرام المحشورة حشرًا فى العمل دون مقتض لها، والتى كان من أسخفها تصوير بعض الصحابة الفاتحين قد وقع فى غرام فتاة مصرية، وهو أمر مرفوض وغير صحيح ولا يليق بفاتح عظيم!!!

٨- وصخب الموسيقى التصويرية المصاحبة للأحداث، حتى إنها تطغى على الحوار، وتحول بين المشاهد والاستماع إلى الحوار، وكل الأعمال التاريخية الإسلامية تصاحبها موسيقى صاخبة ولا أدرى لذلك سببًا.

٩- وتجاهل تعامل المسلمين مع الأسرى فى تلك المعارك، وهو تعامل كان يقتضى من بعض المسلمين أن يؤثر أسيره على نفسه وولده؛ فيقدم له أطيب الطعام، ويكتفى هو وبنوه بطعام أقل.

١٠- وأين تعامل المسلمين مع المرأة والطفل إذا وقعا فى الأسر؟ وكذلك تعاملهم مع كبار السن، ومن لا يستطيعون قتالاً، أين هذا؟ ولماذا لم يلفت نظر المؤلف أو المخرج فيلقى عليه اهتمامًا وضوءًا يظهره؟

هذا قليل من كثير يشاهده المشاهد الذى لا يحترف النقد الفنى، وما أردت به لا ضرب المثل وذكر الشاهد.

* فهل يغار الشباب المسلم على تاريخه وعلى أحداث هذا التاريخ؟ وهل يستاء من هذه الأغاليط والأكاذيب فيرفضها رفضًا إيجابيًا؟

هل يقبل هؤلاء الشباب على تعلم هذه الفنون وإتقانها للتصدى لهذه الأخطاء أو لهذا الخلل والقصور؟

ومَنْ لتاريخ المسلمين وحضارتهم يشمر للدراسة والعلم والإحاطة غير أبناء الإسلام؟

ألا هل بَلَغْتُ؟ اللهم فاشهد، إن أردت إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله.

وبعد،فإن المسلم المطالب بالمشاركة فى النشاط الفنى على مستوى المجتمع الذى يعيش فيه،المستجيب لهذه المطالب سوف يشعر أنه عنصر بنَّاء فى تنمية مجتمعه، ولن تجد إليه الأمراض النفسية طريقًا، لأنها أمراض الإحساس بالفراغ والكسل والقعود، وأمراض الإحساس بالخيبة والفشل، وليس في المسلمين إن مارسوا هذه الأعمال أحد من أولئك الفارغين الشاعرين بالفشل، وذلك من فضل الله تعالى عليهم بهذا المنهج المتكامل.

٢٥- والمشاركة فى الأنشطة الرياضية:

التربية الرياضية فرع من التربية الجسدية، وتربية الجسد يجب أن تشتمل على الألعاب الرياضية أو التربية البدنية لأنها جزء منها، فالجسد بحاجة إلى أن يمارس رياضة بدنية ليعيش صحيحًا سليمًا.

والصحة والسلامة للجسد تعنى القوة والجمال - الجمال المكتسب لا الجمال الفطرى.

والتربية الرياضية ضرورية للجسد لما تحققه له من فوائد عديدة نذكر منها:

- إعطاء الجسد مرونة وقدرة على الحركة والليونة.
- وتقوية أعضاء الجسد من خلال التدريب والمران.
- ومساعدة أعضاء الجسد على أداء وظائفها على نحو أفضل.

- ومعاونة الجسد على النمو الجيد الذى يمنحه القدرة على ممارسة الأعمال.

- وتعويد الجسد على التحمل للمجهود والصبر عليه.

- والتربية الرياضية للجسد تحول بينه وبين كثير من الأمراض التى يتسبب فيها خمول الجسد وكسله وتوقفه عن الحركة والتدرب.

- وللتربية الرياضية فوائد نفسية وخلقية وسلوكية واجتماعية عديدة نذكر منها:

* بعث الثقة بالنفس فى الإنسان، بسبب المهارات التى أحدثتها الرياضة فيه.

* وتعليم الإنسان القصد والاعتدال فى رياضته وعمله فتباعد بينه وبين الإفراط والتفريط.

* وتحببه فى التعاون مع الآخرين تعاونًا يستمر إلى أن يحقق الهدف منه.

* وتدربه وتحببه فى العمل مع جماعة والاندماج النافع فيها، وحب الطاعة والنظام.

* وتعوده على التواضع بالإحساس بأنه جزء من فريق مع اعتزازه بما يقدم مع هذا الفريق.

* والتربية الرياضية بكل ما لها من فوائد للجسد والنفس والروح الاجتماعية ليست غاية فى ذاتها، وإنما هى وسيلة من وسائل تقوية الجسد وإحداث توازن فيه.

- والتربية الجسدية بكل مفرداتها[(١)] ليست غاية فى ذاتها، وإنما هى وسيلة لإقدار الإنسان على العمل والأداء، من خلال الانضباط مع ما يطلبه الإسلام من الإنسان.

- والتربية الإسلامية بجميع مفرداتها[(٢)] ليست غاية فى ذاتها، وإنما هى وسيلة لتصحيح حياة الإنسان، وجلب المصالح له، ودفع المفاسد عنه، وإقداره على عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، تلك العبادة التى تبدأ بـ: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتستمر حتى تصل إلى ذروة السنام إلى الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

* وللتربية الرياضية خصوصية، إذ تتجه فى جسد الإنسان إلى الجهاز الحركى فيه، فتعينه على الاكتمال.

---

(١) للتوسع انظر لنا: التربية الجسدية الإسلامية - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية - ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

(٢) انظر لنا: سلسلة مفردات التربية الإسلامية في عشرة كتب: التربية الروحية، ،والخلقية، والعقلية، والدينية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والجهادية، والجمالية، والجسدية، كلها من نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية فى السنوات من سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م إلى سنة ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

ومع اكتمال الجهاز الحركى فى الجسد يستفيد الإنسان - كما قلنا آنفًا - فى تفكيره ووعيه، ويتعلم ويتدرب، فيكتسب الدقة والمرونة وحسن الأداء والانضباط وروح التعاون. كما تستهدف التربية الرياضية التدريبات والتمرينات التى تنمى فى الإنسان روح النظام، والدقة والسرعة ورباطة الجأش.

- ومن أبرز ما تحدثه التربية الرياضية فى الإنسان أنها تحسن أحوال الذين يعانون من البطء أو الضعف الحركى.

- كما أنها تقوى الإرادة، وتنمى فيه العزم والقدرة على الاحتمال، وتنشيط قواه العقلية.

* والأنشطة الرياضية عديدة لكن المشهور منها والذى يلقى قبولاً عند الناس هو لعبات لها صلة بالكرة، مثل:

- كرة القدم.
- وكرة القدم الخماسية.
- وكرة الشاطئ.
- وكرة السلة.
- وكرة اليد.
- وكرة الماء.
- وكرة المضرب «التنس».
- وكرة الطاولة.
- والكرة الطائرة.

* وهناك لعبات رياضية أخرى مثل:

- رياضة الجرى.
- ورياضة الوثب.
- والسباحة.
- والرماية.
- وركوب الخيل.

- وركوب الجمال.

- ورمى القرص.

- وألعاب القوى وهى عديدة.

- والمصارعة.

- والملاكمة،وغير ذلك من الأنواع التى لا نتعمد إحصاءها هنا.

* وكل أنواع التربية الرياضية تخضع لقوانين وأنظمة تنظمها، وكلها تستهدف القيم الأخلاقية مع الرياضة، وتقوم على التنافس الشريف وتقبل الهزيمة بروح رياضية، وإن كان كثير من الرياضيين غير ملتزمين بكل قوانين الرياضة.

* وبغض النظر عن التدخل السياسى فى الرياضة، وبخاصة فى البلدان ذات الحكم الشمولى والحزب الواحد، التى تعطى لبعض الألعاب الرياضية اهتمامًا يشغل الشباب عن التفكير فى السياسة ويدربهم على التعصب للأندية إلى حد التشابك بالأيدى والعدوان على الحكام وعلى بعض اللاعبين، بغض النظر عن ذلك، لأنه واقع تستهدفه حكومات الاستبداد، فإن الجانب الإيجابى فى التربية الرياضية أكبر من هذا الجانب السلبى فيها، ويكفى بالإضافة إلى ما ذكرنا من فوائدها أنها تملأ فراغ الأوقات عند الشباب بما هو نافع ومفيد، فتصرفهم عن الفراغ والتسكع وكثير من الانحراف عن القيم السائدة فى المجتمع.

* والذى يجب أن يلحظ ويراعى أن القيم الخلقية عند بعض الرياضيين هى التى تحتاج إلى مراجعة وعناية لما لها من آثار إيجابية على الرياضيين جميعًا.

- فإذا روعيت القيم الخلقية الإسلامية فإنها تسدد سلوك الرياضيين جميعًا، وعلى سبيل المثال:

إذا روعيت أوقات أداء الفرائض فتَوقف العمل كله عند سماع الأذان، واتجه الناس قبل ذلك أو معه للاستعداد لأداء الصلاة، لكان فى ذلك أعمق أنواع التربية الخلقية، ولترك ذلك العمل انطباعًا فى نفوس الشباب يحترم النظام ويؤمن بالجدية فى أداء الواجبات.

* والشباب المسلم فى المجتمع مطالب بأن يشارك فى هذه الأنشطة الرياضية ليستفيد منها كل ما ذكرناه آنفًا، ولكن عليه أن يلتزم بقيم الإسلام وأحكامه وآدابه، فلا يخالف شيئًا مما أمر به الدين، ولا يمارس شيئًا نهى عنه الدين.

- هذه المشاركة كسب للشباب إذا راعوا فيها ما أحل الله وما حرّم.

- وكسب للأندية الرياضية إذ تسودها القيم الخلقية السليمة التى تعالج فى داخل هذه الأندية كثيرًا من الانحرافات.

- وكسب للمجتمع كله إذ يصبح شبابه قوى الجسد صحيح النفس متين الخلق، متسامحًا متعاونًا مع الغير، محبًا للعمل، إيجابيًا فاعلاً مؤثرًا بالخير فى كل ما يحيط به.

وبعد: فإن المسلم المشغول بالأنشطة الرياضية، صاحب وقت ممتلئ بالنافع المفيد من الأعمال، ومن هنا فإنه ينجو من المرض النفسى والعصبى المرتبط فى الغالب بالملل وكثرة الفراغ، ولقد أشرنا أكثر من مرة إلى أن المرض النفسى يتسلل إلى نفوس الناس الخاوية من الإيمان، التى لا تمارس العمل الصالح وهو عبادة الله تعالى وفق ما شرع، والمسارعة إلى امتثال ما أمر الله تعالى به، واجتناب ما نهى الله تعالى عنه، إن المسلم بهذه الصفات يطرد المرض النفسى عن حياته طردًا حاسمًا.

* وفى نهاية حديثنا عن الفصل الثالث الأخير، من الباب الثالث الأخير من هذا الكتاب، وهو فصل: وسائل العلاج لأمراض النفس - وهو أوسع فصول الكتاب وأهمها من حيث هو العلاج لأمراض النفس.

أقول بعد ذلك:

إننا قسمنا وسائل العلاج إلى روحية وعملية ميدانية، وقلنا إن الوسائل الروحية ذات شُعْبتين:

إحداهما التخلى عن الرذائل، وعددنا منها سبعًا.

والأخرى التحلى بالفضائل، وعددنا منها سبعًا كتلك.

وقلنا إن الوسائل الميدانية العملية أنواع عديدة، عددنا منها خمسًا وعشرين وسيلة.

* وكل ذلك الذى ذكرنا هو فى جوهره وحقيقته توظيف محكم لطاقات الإنسان وقدراته، وشغل لأوقاته بما يعود عليه بالنفع فى دينه ودنياه، وعون له على المضى فى الطريق الذى خلقه الله للإنسان لكى يسعى فيه طوال رحلة عمره؛ وهو: عبادة الله تعالى وطاعته.

وأوضحنا أن لهذا الطريق لصوصًا وقطاع طرق هم شياطين الإنس والجن الذين يزينون الباطل ويهيئون أسباب الشر والرذائل، ويهجمون على النفوس بالأمراض.

* والسعيد حق السعيد من قطع الطريق إلى الله تعالى متزودًا بخير الزاد وهو تقوى الله، أى الالتزام بمنهجه ونظامه، وإخلاص دينه وعمله لله تعالى، لأن هذا السعيد حق السعيد هو من عاش حياته الدنيا ليربح بها حياته الأخرى الأبدية فى جنة المأوى، قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]

- وغير هؤلاء هم الأشقياء الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا، وحادوا عن صراط الله تعالى واتبعوا الشهوات، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩].

والحمد لله على ما أنعم به من نعم أهمها نعمة الإسلام.

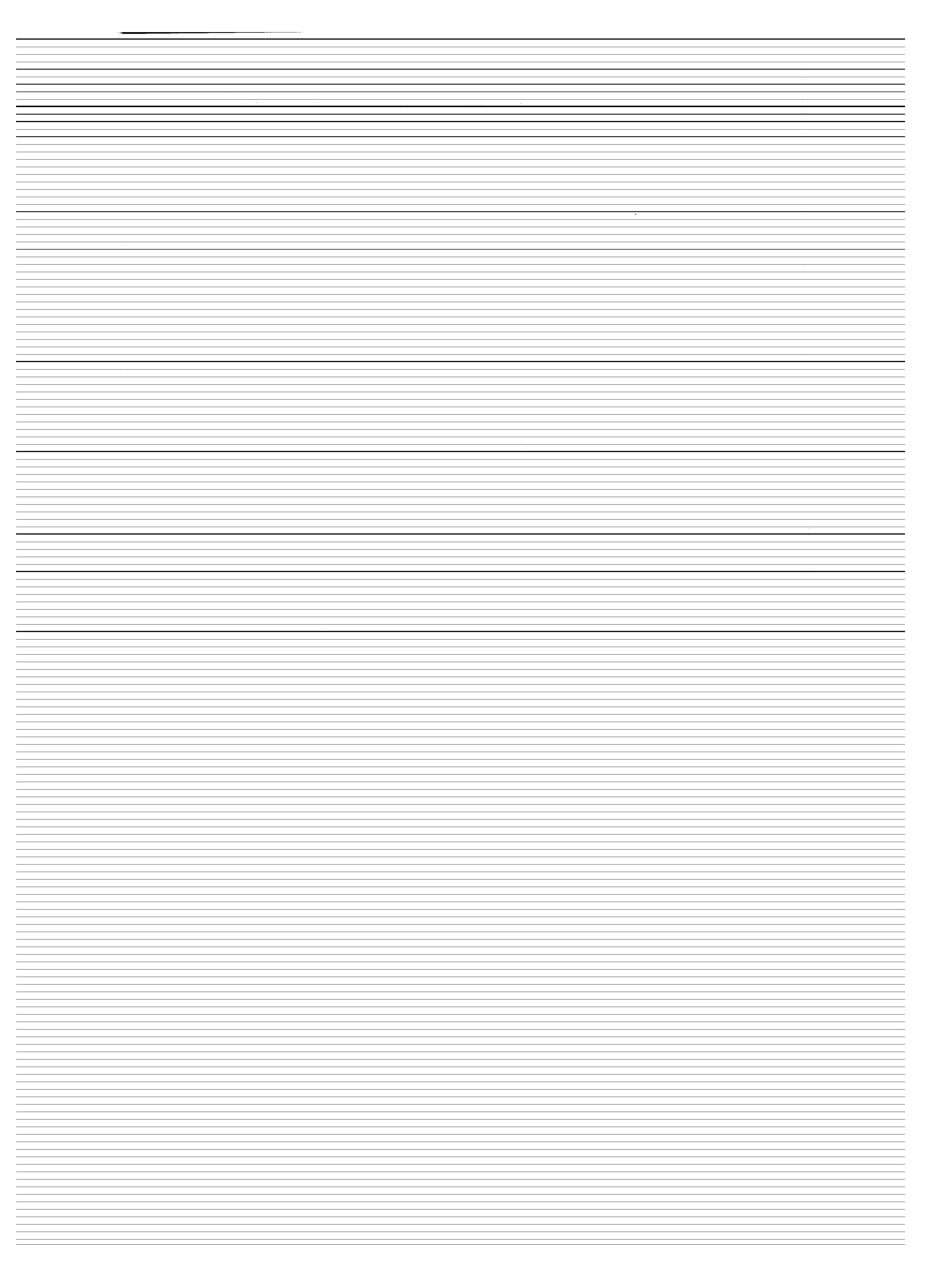
****

خاتمة الكتاب

أختم هذا الكتاب بحمد الله تعـالى والثناء عليه بما هو أهله، وأصلى وأسلم على خاتم رسله وأنبيـائه محمـد ﷺ، وأشكر الله على أن أعان ووفق، ومدّ فى العـمر وفى العافـية حتى كتبت خاتمة هذا الكتاب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وسبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.

على عبد الحليم محمود



الفهـرس

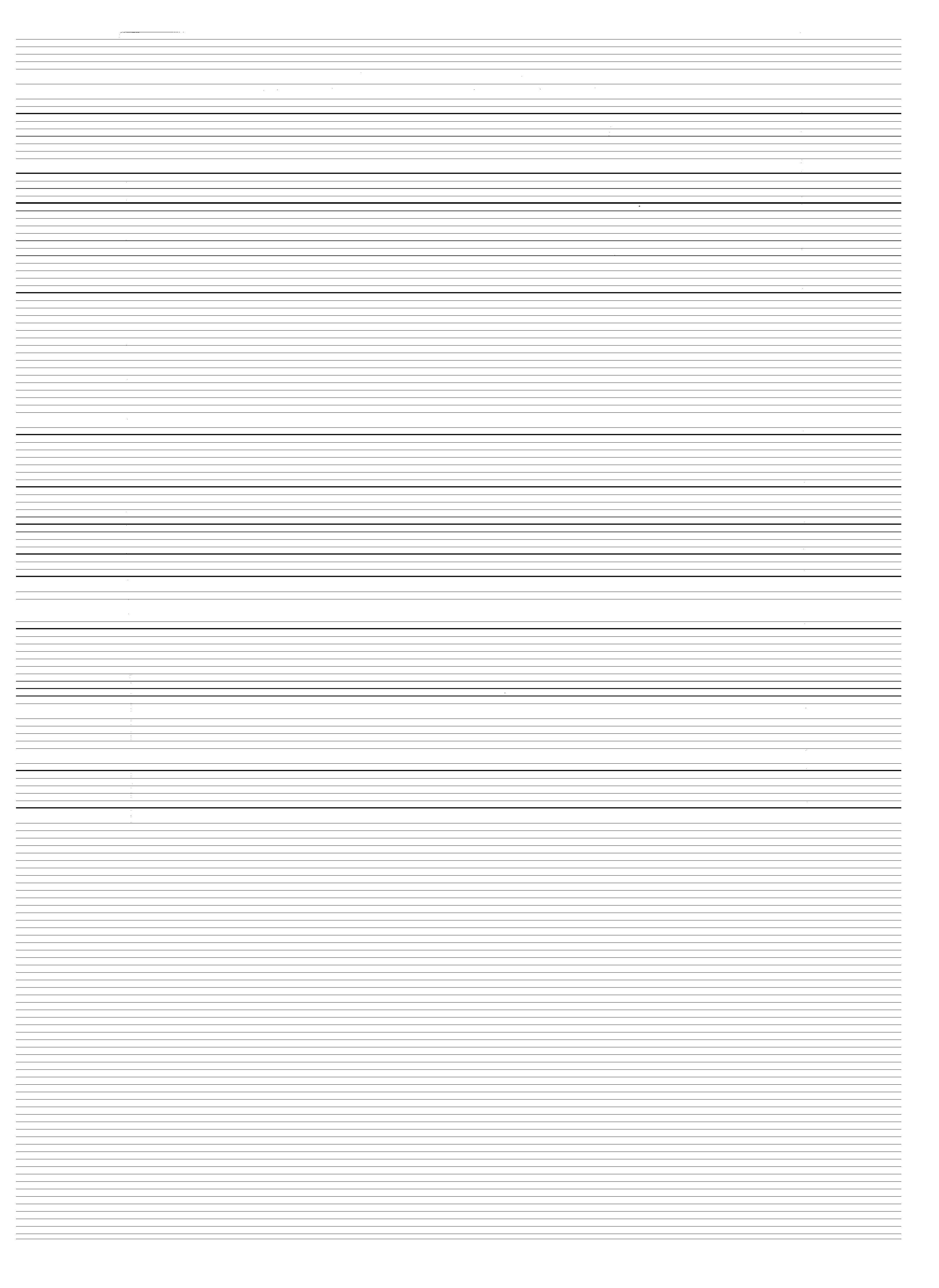
الفصل الثانى: النفس فى علم النفس الحديث

الباب الثانى: النفس.. صفاتها وأنواعها فى الإسلام

الفصل الأول: النفس فى الإسلام

الفصل الثانى: صفات النفوس فى القرآن الكريم والسنة النبوية

الفصل الثالث: وسائل العلاج



قائمة بأعمال المؤلف المنشورة

أولاً: فى الفكر الإسلامى وقضاياه:

١- الغزو الصليبى والعالم الإسلامى - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢- مع العقيدة والحركة والمنهج - دار الوفاء بمصر.

٣- المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى - دار المنار بالقاهرة.

٤- الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى - دار المنار بالقاهرة.

٥- التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى اليوم - وطرق التغلب عليه - دار الوفاء بمصر.

٦- التعريف بسنة الرسول ﷺ أو علم الحديث دراية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٧- نحو منهج بحوث إسلامى - دار الوفاء بمصر.

٨- السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - دار عكاظ بالسعودية.

ثانيًا: فى التربية الإسلامية:

أ- سلسلة التربية فى القرآن الكريم:

٩- التربية الإسلامية فى سورة المائدة - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٠- التربية الإسلامية فى سورة النور - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١١- التربية الإسلامية فى سورة آل عمران - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٢- التربية الإسلامية فى سورة الأنفال - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٣- التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٤- التربية الإسلامية فى سورة النساء - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٥- التربية الإسلامية فى سورة التوبة - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

ب- سلسلة مفردات التربية الإسلامية:

١٦- التربية الروحية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٧- التربية الخلقية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٨- التربية العقلية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٩- التربية الدينية (الغائبة) - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٠- التربية السياسية الإسلامية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢١- التربية الاجتماعية الإسلامية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٢- التربة الاقتصادية الإسلامية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٣- التربية الجهادية الإسلامية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٤- التربية الجمالية الإسلامية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٥- التربية الجسدية الإسلامية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

جـ- فى التربية الإسلامية المعاصرة:

٢٦- التربية الإسلامية فى البيت - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٧- التربية الإسلامية فى المدرسة - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٨- التربية الإسلامية فى المجتمع - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٩- النفس فى الإسلام - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٠- وسائل التربية عند الإخوان المسلمين - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣١- منهج التربية عند الإخوان المسلمين - دار الوفاء بمصر.

ثالثًا: فى فقه الدعوة الإسلامية:

٣٢- فقه الدعوة إلى الله - دار الوفاء بمصر.

٣٣- فقه الدعوة الفردية - دار الوفاء بمصر.

٣٤- فقه الأخوة فى الإسلام - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٥- المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله - دار الوفاء بمصر.

٣٦- فقه المسئولية - دار الوفاء بمصر.

٣٧- عالمية الدعوة الإسلامية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٨- التوثيق والتضعيف عند المحدثين والدعاة - دار الوفاء بمصر.

رابعًا: سلسلة فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا:

٣٩- ركن الفهم - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٠- ركن الإخلاص - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤١- ركن العمل أو منهج الإسلام الإصلاحى - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٢- ركن الجهاد الذى لا تحيا الدعوة إلا به - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٣- ركن التضحية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٤- ركن الطاعة - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٥- ركن الثبات - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٦- ركن التجرد - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٧- ركن الأخوة - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٨- ركن الثقة - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

خامسًا: فى الأدب الإسلامى المعاصر:

٤٩- مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه - دار عكاظ بالسعودية.

٥٠- جمال الدين الأفغانى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه - دار عكاظ بالسعودية.

سادسًا: فى الدراسات الأدبية:

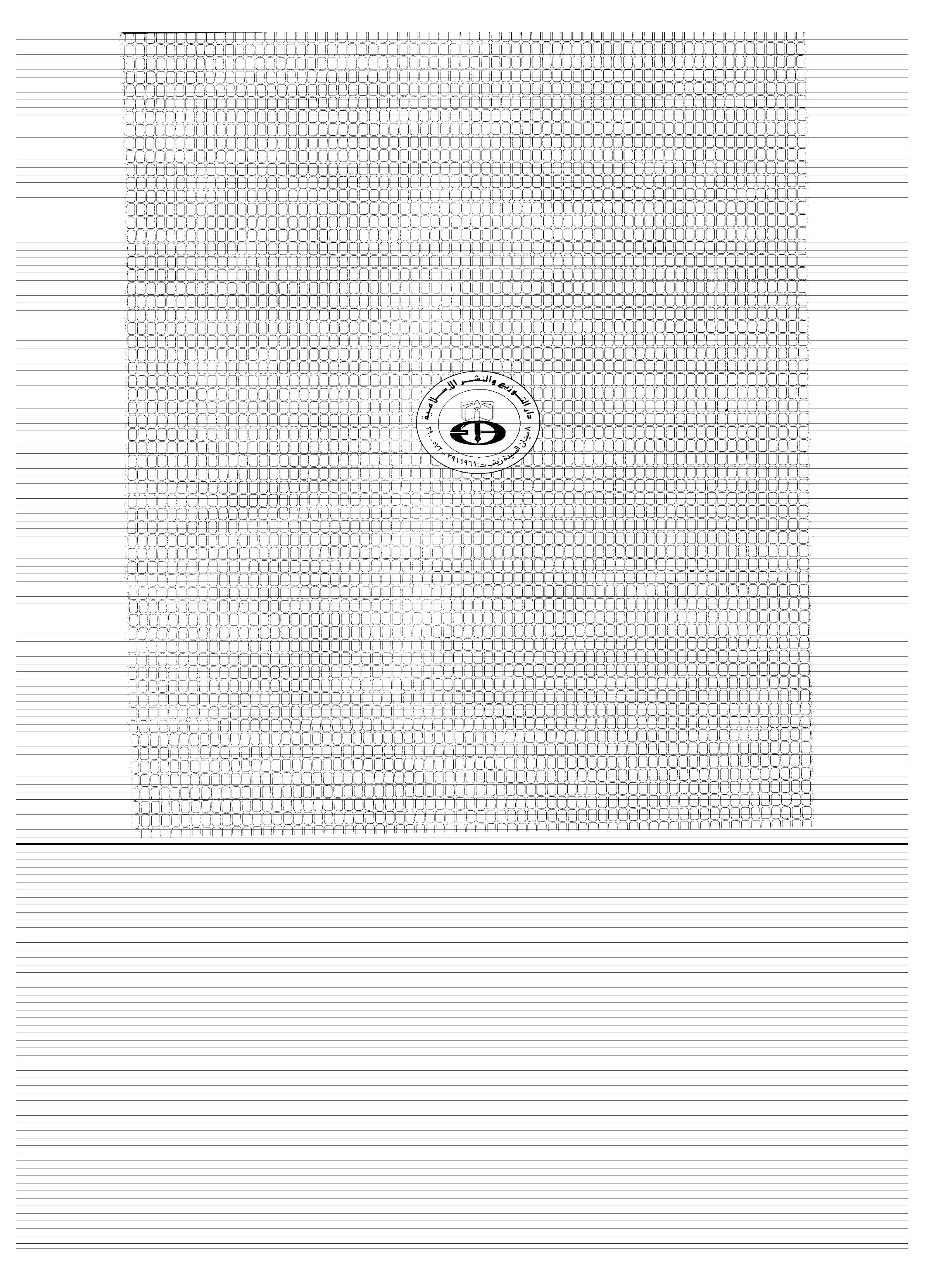
٥١- القصة العربية فى العصر الجاهلى - دار المعارف بمصر.

٥٢- النصوص الأدبية، تحليلها ونقدها - دار عكاظ بالسعودية.

سابعًا:

١- كتاب مُعَدّ للنشر: القيم الإسلامية.

٢- كتاب فى طور الإعداد: القصص فى السنة النبوية المطهرة.


دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت: ٢٩١١٩٦٦١ - ٢٩٠٠٥٧٢